سعيد حجي

فجر الصحافة الوطنية المغربية في عهد الحماية



عبد الرؤوف بن عبد الرحمن حجي

اهداء

إلى سيدي العم الودود عبد الكريم محي عوض والدي الشاعر الراحل عبد الرحمن محي طيب الله ثراه وشقيق المأسوف على شبابه الفقيد سعيد محي المترجم له أهدي هذا الكتاب تقديرا لما قام به طول حياته من صالح الأعمال وقدمه لوطنه من جليل الخدمات واعترافا له بالجميل لما بذله من مجهود جهيد في تربية وتهذيب النشء الصاعد من أفراد ذريته وأبناء إخوته آل محي تغمد الله هؤلاء جميعا بواسع رحمته وأسكنهم مع الصالحين والصديقين فسيح جنته.

فرجائي بمناسبة إهداء هذا الكتاب إلى مثال العمومة النيرة أن يمد الباري تعالى في عمره ويجازيه عنا على حسن صنيعه خير الجزاء.

عبد الرؤوف محي

مقدمة

بقلم عبد الرؤوف بن عبد الرحمن حجي

ستون سنة خلت منذ أن لفظ المرحوم سعيد حجي نفسه الأخير ليلتحق بجوار ربه وعمره لا يتجاوز ثلاثين سنة قضى أكبر شطر منها في الذود عن مقومات البلاد والكفاح من أجل تحريرها من قيود الاستعمار الغاشم الذي كانت الأمة المغربية تئن من براثينه بعد أن فرض عليها نظام الحماية في بداية العقد الثاني من القرن العشرين.

وقد شاءت الأقدار أن لم يتيسر للمحتفى بذكراه اليوم أن يعيش في بلد حر من أغلال الاستعمار إلا أياما معدودة وذلك من تاريخ ميلاده في ثاني مارس 1912 إلى 30 منه حيث حلت بالمغرب أكبر فاجعة عرفها عبر ماضيه الحافل بالبطولات، ألا وهى الإعلان عن عقد الحماية الذي فقد المغرب من خلاله حرية المصير.

فليس من الغريب إذن أن تنشأ معه وهو ما زال في نعومة أظفاره غريزة حب الوطن إذ وطد العزم منذ عهد الطفولة أن يهب حياته للدفاع عن حرية بلاده، فكان يجهر بها في كل آونة وحين وينادي بالتضحية من أجلها بكل ما رزقه الله من قوة في الإيمان وثبات في العزيمة؛ ومما لا ريب فيه أن المناخ الأسروي الذي تربى في أحضانه نمى فيه وعيا مبكرا بضرورة العمل على استرجاع سيادة البلاد وتحريرها من الوجود الأجنبي، والذي كان يزيد في حماسه أنه كان يرى في جده الأول أبي العباس أحمد حجي خير قدوة له في الحياة، وكان يزور ضريحه بين الفينة والفينة، ويطلع على مواقفه المشهودة في الجهاد، مؤمنا أن الطريق الذي خطه الخلف لا بد أن يسلكه السلف؛ فإذا كان الفضل يرجع لهذا البطل المجاهد في تحرير مدينة المهدية من الاحتلال الاسباني في أواخر القرن

الميلادي السابع عشر وتسليمه مفتاح المدينة للمولى إسماعيل الذي أنعم عليه بظهير التوقير والاحترام، فإن على الجيل الحاضر أن يحذو حذو أسلافه الميامين ويكافح بدوره لاسترجاع كرامته المظلومة وسيادته المكلومة.

وزاد في اتقاد وعيه الوطني ما كان يتلقاه من أحاديث كانت تروج حوله في بيت والده المرحوم السيد أحمد بن عبد الله بن الحارثي حجي، حيث كان يقصده وجهاء العدوتين من مشاييخ وأهل الفكر؛ وكان رغم صغر سنه يحضر مجالسهم ويصغى بكامل الاهتمام إلى تعاليقهم وتبادل الآراء بينهم واستنكارهم لمعاهدة الحماية التي خولت للدولة الحامية حق التصرف في كل جزء من أجزاء التراب المغربي رأته صالحا للمحافظة على النظام وسلامة المعاملات التجارية التي وضعتها السلطة الدخيلة تحت حمايتها لصالح جيوش المعمرين القادمين من فرنسا. ويكفي أن نذكر من بين هؤلاء المشاييخ القائد عبد الله بنسعيد وأحمد الجريري وأحمد الصابونجي وأبي بكر زنيبر ومولاي أحمد البلغيثي والشيخ أبي شعيب الدكالي لنأخذ فكرة عن مستوى المجالس التي كان سعيد حجي يلازمها وهو ما زال في عنفوان شبابه، مما جعل هؤلاء العلماء يعدونه من بينهم ويسمونه « شاب الشيوخ » بينما أصدقاؤه الأقربون كانوا يطلقون عليه لقب « شيخ الشباب » لما كان رحمه الله يتسم به من علو في الهمة ورزانة في التفكير قل أن تجتمعان في غيره من شباب عصره.

أما شقيقه البكر عبد الرحمن فكان السعيد يرى فيه مثالا يحتذى لما وصل إليه من مستوى عال في تكوينه السياسي حيث كان يدعى آنذاك « زغلول المغرب » وكان ينتقل من مجالس والده إلى مجالس القائد عبد الله بنسعيد ليطلع الحضور على ما جد واستجد من أخبار أوردتها الصحف والمجلات التي كانت تصله من تونس ومصر، ويعلق على أهم الأنباء التي يمكن لبلادنا أن تستفيد منها سياسيا أو ثقافيا.

ومن بين الأحداث التي بقيت عالقة بذهنه تلك المظاهرة التي تزعم تنظيمها أخوه المذكور سنة 1919 ، أي بعد مرور سبع سنوات فقط على فرض معاهدة فاس على المغرب، داعيا

إلى المشاركة فيها أرباب المتاجر وعموم الجمهور السلاوي، فألقى عليه القبض وكان أول مغربي زج به في السجن لمدة أسبوعين في عهد الحماية.

حدث من هذا القبيل لا بد أن يترك بصماته في ذهن طفل لم يتجاوز بعد السابعة من عمره، وإن لم يكن في هذا السن على بينة من الأسباب التي دعت للقيام بهذه الحركة الاستنكارية للإجراء التعسفي الذي اتخذته سلطات الحماية ضد القائد عبد الله بنسعيد والسيد بنعيسى لعلو بنفيهما لاعتراضهما للنظام الجديد للضرائب الذي يمس مداخيل التجار المتوسطين والصغار.

فالذي كان ينظر إليه باعتزاز هو موقف أخيه من تصرفات الإدارة ورفضه للخطة التي أصبحت تهجها بسن قوانين من شأنها أن تساعدها على ابتزاز مداخيل المواطن المغربي لصالح السلطة الحامية؛ ولما بلغ التاسعة واندلعت حرب الريف سنة 1921 ازداد اعتزازه بصنوه الأكبر الذي لم يخف من الجهر بموقفه المتعاطف مع الثورة الريفية وبالمراسلات التي كان يتبادلها مع رجالاتها معلنا لهم عن استعداده لوضع البيت الذي كان يسكنه رهن إشارتهم، ليستعملوا فيه « الدار الكبيرة » كمستشفى لعلاج الجرحى من المحاربين، و « الدار المجاورة » كمركز لاستقبال المتطوعين الراغبين في الانضمام إلى جيش ابن عبد الكريم ، وهلم جرا.

وكم أثرت على السعيد ، وهو ما زال في السنة الرابعة عشرة من عمره، تلك القطعة المبكية التي جادت بها قريحة أخيه، متسائلا من خلالها عن أسباب هزيمة بطل الريف، واستهلها بهذا المطلع:

أحق مـــا بـــه تـــأتي الجـــرائـــد؟ فـقـد جـزعـت لـه حـتى الجـوامـد

إلى أن قال فيها:

وهـل عـبـد الـكـريم غـدا طـريـدا أســيرا عــاجــزا عــن أن يجــالــد؟

وكـيف وقـد هـزت الأرض رعـبـا بـسـيـفـك والـعـدو بـذاك شـاهـد
وذكـرك قـد سرى بـين الـبرايـا وقـد مـلأ الـنـوادي والمـعـاهـد؟

واختتمها بأبيات تشير إلى التفاف المغاربة قاطبة حول الثورة الريفية حيث قال:

قـد انـضـمـت لـك الأحـزاب طـوعـا وصـدت عـن سـبـيـلـك كل جـاحـد
وكل قـبـيـلـة جـاءت جـهـارا وألـقـت نحـو أمـرك بـالمـقـالـد
تريـد المـوت في شرف وعـز وأنـت لهـا لـدى الهـيجـاء قـائـد

وهكذا يمكن أن نتصور ما خلفه المناخ الأسروي من تأثير عميق في تشبثه بمبادئ الوطنية الخالصة وتكوينه السياسي والثقافي وهو ما زال في طور المراهقة.

زيادة على هذه الارتسامات التي رافقته في أثناء مرحلة الطفولة، هناك عامل آخر كان له بالغ الأثر في تكوين شخصيته، وهو أن والده لم يسمح له بالدخول إلى المدرسة التي أنشأها الاستعمار بسلا نظرا لمعارضته لها ولتشبثه بالتعليم الوطني القائم على اللغة العربية.

وفي سنة 1928 ، وهو ما زال في السادسة عشرة، أنشأ مع بعض زملائه جمعية ودادية بهدف التخلق بالدين الإسلامي والعمل على خدمة الوطن لنقده من وهدته، وشارك في هذه الجمعية المرحوم محمد حصار والحاج أحمد معنينو، وأبو بكر القادري وعبد الكريم حجي ومحمد اشماعو قبل انفصاله عن الجماعة سنة 1936 . ومن أهم الأهداف التي يرمي إليها برنامج الجمعية اللجوء إلى وسائل الإنهاض:

على مستوى الهيئات: بتنظيم محاضرات دورية في مراكزها وإنشاء خزانة لصالح أعضائها وتقديم مساعدات مالية للتلاميذ المحتاجين؛

على مستوى الشباب: بتنظيم دروس ومحاضرات على صعيد الجمعيات والأندية، وإنشاء خزائن كتب صالحة للشبان قصد تشجيعهم على المطالعة وحملهم على إلقاء أحاديث في

مواضيع أدبية أو تاريخية أو أخلاقية؛

على مستوى المجتمع: بإلقاء دروس وعظية لتقوية العقيدة ومحاربة الخرافات والمظاهر الهمجية، وبالنسبة للطبقة الشغيلة والحرفيين، بتكوين جماعة خاصة بكل حرفة والاهتمام بمصالحهم والدفاع عنها وحملهم على تطوير صناعتهم وتمكينهم من الاستفادة من دروس ليلية لمحاربة الأمية، مع تعليم مبادئ القراءة والكتابة والحساب إلى جانب دروس قرآنية ودينية.

ولما بلغ السابعة عشرة من عمره، سافر سنة 1929 إلى العاصمة البريطانية حيث كان صنوه محمد - وهو ثاني إخوته - يمارس بها مهنة التجارة، ومكث هناك عاما معتكفا على دراسة اللغة الانجليزية، ثم عاد إلى مسقط رأسه وانضم من جديد إلى الجمعية المذكورة ليساهم في تحقيق برنامجها النهضوي.

في مذكرة مؤرخة بشهر يناير 1929 أبى سعيد حجي إلا أن يقيم حصيلة المراحل الدراسية التي مر منها منذ أن أدخله والده إلى الكتاب القرآني المجاور للبيت الذي كان يسكن فيه، وذلك في سن مبكر لا يتجاوز الخامسة إلى أن حصل على « شهادة الدروس الابتدائية » التي سلمتها له « لجنة التدريس والقراءة » تحت إشراف الجمعية الودادية التي أسسها بتاريخ فاتح يوليوز سنة 1928 ووضع لها قانونا يعطي الصلاحية لهذه اللجنة لتختبر التلاميذ المرشحين لنيل الشهادة الابتدائية وتسلم للناجحين شهادة الفوز في الامتحان.

وتشير هاته الورقة إلى دروس القراءة والحفظ التي تلقاها على تلك الطريقة العتيقة خلال السنتين اللتين قضاهما في الكتاب دون جدوى، حسب تعبيره، إذ لم يبق له منها شيء يذكر، اللهم إلا إذا كانت النتيجة المتوخاة من عامين من التدريس هي حفظ سورة أو نصفها وتحصيل شيء من القراءة زهيد للغاية. ثم تحدث عن الدروس الاستثنائية التي كان يتلقاها في البيت قبل أن ينتقل مع مطلع العشرينيات إلى إحدى المدارس التي افتتحت آنذاك بمدينة سلا. فصار السعيد يتردد على عدة أساتذة قائلا: « ... نقرأ صباحا القرآن

عند أستاذي القديم في المكتب، وعلى الساعة الحادية عشرة يدخل أستاذي النحوي والفقهي المتقدم، فيعلمنا حفظ الأمهات من الألفية والأجرومية والمرشد المعين وغيرها. وعلى الساعة الثانية بعد الزوال نأتي إلى المدرسة فنقرأ درسا من النحو ودرسا من الفقه، وأخيرا صارت همتنا كلها متجهة إلى النحو، وصار كل حديثنا فيه » ...

هاته الورقة التي تعطي فكرة عن تطلع السعيد إلى ضرورة التجديد في أساليب التعليم أبى إلا أن ينشرها في جريدة « الوداد » الخطية التي أنشأها في شهر يناير 1927 وجعل منها لسان حال جمعية الوداد، وتولى تسييرها والإشراف على تحريرها منذ نشأتها إلى أن سافر إلى المشرق العربي لمتابعة دروسه الثانوية بمؤسساته التعليمية، وطلب من أبي بكر القادري أن يديرها في غيابه ويبقى على اتصال معه للاستمرار في إصدارها كل أسبوع. وقد اختار السعيد لجريدة « الوداد » شعار « الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة » وهى كلمة لسعد زغلول الذي كان يعد من أعظم القادة المصريين وأكبر زعماء العرب على الإطلاق.

وتجدر الإشارة إلى أن جمعية الوداد أصدرت عدة صحف كان السعيد يشرف عليها، منها، بالإضافة إلى جريدة « الوداد » الأسبوعية، « الوداد » الشهري في 24 صفحة، وكان ينشر بهذا العدد مقالات ذات صبغة علمية، وجريدة « المدرسة » التي كان يصدرها كل أسبوع، و « الوطن » وكان يتناول فيها قضايا الشباب والحركة الفكرية، و « مجموعة من الصور » يعرض فيها صور الأسبوع ذات قيمة سياسية أو ثقافية أو فنية. وكان السعيد يلخص في هذه الصحف مطالعاته ودراساته للمؤلفات التاريخية والعلمية والأدبية وتطور الأحداث في العالم.

ولم تمض على هذه المرحلة إلا بضع سنوات حتى أخذ سعيد حجي يعمل على الحصول على رخصة رسمية لإصدار صحيفة إخبارية حرة معززة بمجلات تثقيفية؛ ولم يأل جهدا في البحث عن مركز مناسب لتأسيس مطبعة تمكنه من تحقيق هذا الهدف.

فأسس « مطبعة المغرب » بسلا، ورغم ضآلة الوسائل التي كانت تتوفر عليها هذه المطبعة، وهى ليست حديثة العهد بالاستعمال وكان العمل بها متوقفا على التصفيف اليدوي المرهق، استطاع أن يصدر بها جريدة « المغرب » ثلاث مرات في الأسبوع قبل ضمان إصدار يومي مصحوب كل أسبوع بملحق ثقافي تعد مجموعته، حاليا، سجلا مهما للأدب المغربي في العقد الثالث للقرن العشرين. وهكذا قامت « مطبعة المغرب » بمهمتها أحسن قيام، وبلغت بوسائلها العتيقة أقصى ما كان ينتظر منها من ناحية الجودة والإنتاج. ولما تيسر لصاحب المطبعة تحويل مركزها إلى الرباط، حيث أتيحت له فرصة الحصول على مطبعة أكثر مردودية وهى « مطبعة الأمنية » الكائنة بشارع المامونية، أخذت جريدة « المغرب » تصدر يوميا مع ملحقها الأسبوعي للثقافة، كما أصبحت تهتم بإعادة نشر بعض الكتب القديمة نذكر منها « الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس » ثم بطبع كتاب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » لعبد الواحد المراكشي، وكتاب « البدائع » وهو دراسة عن الشاعر المغربي عبد الواحد العلمي للأستاذ عبد الوهاب بن منصور.

كان سعيد حجي رحمه الله إذا قال فعل، وإذا فكر في شىء عمل توا على إنجازه وإذا ملكت لبه رؤيا في المنام لم يهدأ له بال حتى يشرع في تحقيقها أو على الأقل في التخطيط لها، وكلما انقاد إلى فكرة إلا وجلبته أخرى، فيضع الفكرتين في الميزان ليرى أيتهما أولى أن تؤخذ بعين الاعتبار، فإذا به يجد نفسه أمام كفتين متعادلتين، فيمتنع من ترجيح هاته عن تلك امتثالا لحكم الميزان، فيقسط بينهما، ويحتفظ بهما معا إلى أن يأتى الظرف الملائم لاستعمال كل منهما في مكانها المناسب.

كان السعيد يفكر في إنشاء عدة مشاريع أهمها:

« دار الأطلس » وهى مؤسسة متعددة الاختصاصات يتفرع عليها « مكتب للثقافة » ، و « مكتب للنشر » و « مكتب للصحافة » ومكتب للطباعة » ووضع لكل مكتب مجال

اختصاصه؛

« دار المغرب » وهي مؤسسة تقوم بنشر الكتب والمجلات والجرائد على غرار « دار الهلال » المصرية

« مكتب الشؤون المغربية » وهو مكتب ينتظر منه أن يقوم بدور مركز للدراسات والتوثيق وأن تسند له مهمة لم شتات كل ما يتعلق بالمغرب من وثائق ومخطوطات ومطبوعات وخرائط ودراسات وأبحاث وما إلى ذلك من أقوال الصحف والمجلات ومواد متفرقة معرضة للضياع إن لم يعن بجمعها وترتيبها ترتيبا علميا يساعد على تأسيس بنكة للمعطيات من شأنها أن تسهل على الدارسين إيجاد المراجع الضرورية التي يتوقفون عليها في أبحاثهم.

« الشركة المغربية للتنمية الاقتصادية » وهي شركة مساهمة محدودة تخضع لقانون أساسي في تحديد رأس مالها وفي عدد الأسهم التي تتوفر عليها مع قدر السهم الواحد وشروط اقتناء الأسهم. وللشركة لجنة استشارية تعرض على مجلس الإدارة مشروع الميزانية مرة في كل ثلاثة أشهر؛ وتقدم إدارة الشركة تقريرا أدبيا عند كل جلسة. وتلتزم الشركة بتكوين اختصاصيين لأعمالها من أبناء الوطن وتتعهد بإرسال بعثات إلى الدراسة في أوربا على حسابها كلما دعت الضرورة إلى ذلك. وينتظر من الشركة أن تشرع في عامها الأول بتأطير وتمويل معامل لصنع الصابون ودبغ الجلد وعمل النسيج، وابتداء من عامها الثاني بالعمل على إيجاد معامل للصناعة الحديثة.

هذه باختصار نوعية المشاريع التي خطط لها سعيد حجي وتركها في المهد حين باغتته المنية، فلندعها بدورنا حيثما تركها صاحبها لنعود إلى السنوات الأولى من حياته الثقافية.

سبقت الإشارة إلى ولوع سعيد حجي المبكر بمزاولة الحضور في المجالس المسجدية وفي السهرات العلمية والأدبية التي كان يضمها بيت والده، حيث كانت تطرق أسماعه أدبيات

شتى وشذرات عفوية تنتقل من غرض إلى غرض، ومن موضوع إلى موضوع، دون أن تتقيد بتحديد سابق للمحاور؛ فمن شعر أملاه الخاطر أو استحضرته الذاكرة إلى فوائد لغوية وقواعد نحوية وأسرار البلاغة وما إلى ذلك من علوم المنطق واستعراض بعض الأحداث السياسية أو الثقافية. وكان السعيد يسمع ويعي ويحشد ذهنه الفتى بما استطاع فهمه وتيسر له استيعابه، شأنه في ذلك شأن من يذخر إلى غده ما لم يتمكن من هضمه في الحين، حيث المواضيع كانت متعددة والمحاور متشعبة تتسم تارة بنصيب وافر من الجدية، وتخوض تارة في مسائل جانبية أو فكاهية، كما هو الشأن في معظم المجالس الأدبية التي من دون عادتها أن تتناول موضوعا من المواضيع دون غيره وتقتصر عنه حتى يستوفي حقه من الحديث والمناقشة في شأنه. فـ « المجلس الأدبي » ، حسب التعريف الذي أدلى به الأستاذ مصطفى الشليح، « تتداخل فيه المحاور دون أن يخضع للمقتضيات المسطرية، وهو معرض لعدة تأثيرات خارجية، خلافا لما هو عليه النادي الأدبي الذي يأخذ هويته من داخلية إسهاماته ويرتبط بالتزامات مسطرية تحدد مجال نشاطاته » .

ولما تأسس النادي الأدبي السلاوي سنة 1927 ، وجد السعيد فيه ضالته المنشودة حيث اختار لنفسه المحاضرة الأدبية كأداة للتوعية. فحاضر في موضوع « النهضة الأدبية العربية » وفي « المغرب كما يراه الشرق العربي » ، ملحا في المحاضرة الأولى على ضرورة التنافس بين الدول العربية في ميدان الأدب والنهضة الفكرية، وفي المحاضرة الثانية على الصورة المشوهة التي تتراءى للشرقي عن المغربي حيث « يخيل إليه طورا في صورة ساحر يصير الحديد ذهبا، وطورا يرى فيه زاهدا من عباد الله المختارين » إن لم يخيل إليه « في صورة ثائر لا يعبأ بالدماء، وليس له من مستقر » .

وهكذا نرى كيف اتخذ سعيد حجي من النادي الأدبي منبرا لإيقاظ النوم واستنهاض الهمم، عسى أن تسترجع بلادنا مكانتها من بين الأمم وتحتل رتبتها في الصف الأمم.

ولدى مقامه بلندن، بعث إلى رئيس النادي السيد أبي بكر الصبيحي كلمة موقعة منه ومن

أخيه عبد الكريم وحاملة لتاريخ 12 اكتوبر 1929 لتلق نيابة عنهما بمناسبة الاحتفال بحصول النادي على المأذونية الرسمية، جاء فيها:

« مما يثلج الصدر فرحا وسرورا جودة الصبر وقوة العزيمة في أفئدتنا؛ فقد أظهرنا ثباتا وتجلدا يحق لنا بهما مزيد الاعتبار. أليس صبرنا وتجلدنا سنتين فأكثر على الإذن من الحكومة لنادينا بعمل شريف حتى سهل المولى وأدركنا غايتنا القصوى؟ فصبرنا الجميل لم يذهب سدى، وتجلدنا كان بالفائدة العظمى، ألا وهى مأذونية النادي، فها هو قد أصبح له وجود رسمي، فلنعمل له، ومن طلب العلى سهر الليالي، ومن جد وجد » .

وبعد رجوعه من انكلترا، كان السعيد على أهبة السفر صحبة صنوه عبد الكريم إلى الديار المشرقية ليلتحقا بأخيهما عبد المجيد الذي سبقهما لمتابعة دراسته بالكلية الإسلامية ببيروت، إلا أن تدخلهما في القضية البربرية والدور الطلائعي الذي لعباه فيها عرضاهما إلى اتخاذ إجراءات إدارية ضدهما أسفرت عن منعهما من مغادرة التراب الوطني؛ ولم تأذن لهما الحكومة بالسفر إلى الخارج إلا في أواخر شهر نونبر من تلك السنة. فما هى الجريمة التي اقترفاها حتى حكم عليهما بالإقامة الإجبارية بالمغرب طيلة كل هذه المدة؟

لما أتيح للمرحوم عبد اللطيف الصبيحي الذي كان موظفا بقسم الأبحاث التشريعية والمستندات بإدارة الشؤون الشريفة أن يطلع على مشروع ظهير 16 ماى 1930 وهو ما زال في المهد ولم ينشر بعد في الجريدة الرسمية، التحق في الحين بجماعة من الشباب السلوي ليخبرهم بما وقف عليه من مخطط جهنمي تدبره سلطات الحماية للتفريق بين المغاربة المنحدرين من أصل عربي وإخوانهم البرابرة، وذلك بمنع العنصر البربري من تعليم اللغة العربية لتنفصم العروة التاريخية التي تربطه بأواصر العروبة ومعالم الإسلام، وصده عن الإحتكام إلى الشريعة الإسلامية قصد تنصيره وإخضاعه لنفوذ القانون الفرنسي.

هنا برهن عبد الكريم وهو ما زال في مستهل العمر عن نضج سياسي منقطع النظير جعله

يبرز في النضال بتزعمه لحركة الاحتجاج ضد الظهير البربري، حيث بمجرد ما أخبر صحبة أخيه سعيد وبعض رفقائهما بمشروع القانون الذي يراد منه النيل من وحدة البلاد والسعي إلى المساس بفئة من المواطنين دون أخرى في كرامتها والاستهانة بعقيدتها قصد تحويلها من شريعة الإسلام، لم يلبث أن ثار ثأره وأخذ يفكر في أنجع الطرق التي من شأنها أن تؤدي إلى مناهضة هذا الظهير المشؤوم، فاختمرت في ذهنه كوحي أوحى إليه فكرة تعبئة جماهير الشعب حول ذكر اسم الله اللطيف بعد انتهاء صلاة الجمعة قصد الاستغاثة برب الكائنات أن يلطف بعباده الذين اعتنقوا الإسلام دينا منذ قرون فيما جرت به الأقدار ويرفع عنهم البلاء الذي نزل بهم بصدور الظهير المذكور. لم يكن يتوفر إذاك على صحافة سيارة أو وسائل إعلام سمعية لإبلاغ سكان المدينة وعلى إثرهم سكان باقي المدن والقرى المغربية أن سلا سوف تعطي الانطلاقة لحركة الاحتجاج، فأخذ على عاتقه أن يقوم شخصيا بدعوة الناس إلى الالتحاق بالمسجد الأعظم، وصار يجوب الشوارع منتقلا من كتاب إلى كتاب ومن مسجد إلى مسجد إلى أن قاده عصا التسيار إلى بيت الخطيب الذي تم تعيينه لإلقاء خطبة الجمعة؛ وبعد أن أقنعه أن الإسلام في خطر وأنه يتحتم علينا أن نقوم كرجل واحد لنذود عن حوزته، طلب منه أن يختم صلاة يوم الجمعة بدعوة جمهور المصلين إلى ذكر اسم الله اللطيف. وحصل ما كان عبد الكريم يتوقعه وقرئ اللطف في جو من الحماس، وتم استدعاء الإمام والحجيين من طرف المراقب المدني لمدينة سلا وجرى بين ممثل السلطة الاستعمارية و عبد الكريم الحوار التالي:

« هل حصل شيء خطير كقحط أو زلزال يستلزم اللطيف الذي طلبت من الفقيه أن يقوم به؟ » فأجابه عبد الكريم بديهة ومستغربا بدوره لاستغرابه : « ألا تدري ما وقع يا سعادة المراقب؟ إن الأمر أكثر خطورة؛ ما ذا وقع؟ صدور الظهير البربري الذي يفرق بين سكان المغرب العرب والبربر، ويفصل البربر عن الشريعة الإسلامية ... » إلى آخر

الحديث الذي أتى الأستاذ أبو بكر القادري بهذا الجزء منه في « مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1930 إلى 1940 » (ص 51 وتابعاتها) .

فلم تمض إلا بضع ساعات حتى شاع في أرجاء المدينة خبر استدعاء الفقيه محمد بن سعيد والأخوين سعيد وعبد الكريم حجي من طرف المراقب المدني لاستنطاقهم، وأصبح ظهير 16 ماى 1930 أهم المواضيع التي تشغل بال الناس، جماعات وفرادى، حيث أخذوا يتحدثون عنه باستمرار فيما بينهم، ويشجع بعضهم بعضا ليتخذ من يوم الجمعة 20 يونيه موعدا لقراءة اسم الله اللطيف في المسجد الكبير. فأمر المراقب المدني باشا المدينة بإلقاء القبض على هؤلاء الشبان المتزعمين للحملة الاستنكارية للظهير البربري ولحركة الاحتجاج التي أدت إلى هذه الانتفاضة الشعبية؛ وهكذا تم اعتقال الحجيين ومعهما محمد حصار ومحمد اشماعو وعبد الكريم الصابونجي وعبد السلام عواد.

ثم بعد ذلك بقليل، تناول السعيد عصا التسيار وصار يطوف بين المدن داعيا لمقاومة الظهير المشؤوم؛ ولما وصل صحبة الأستاذ الصديق بن العربي إلى مدينة آسفي، استقبلهما الحاج محمد الباعمراني أحد رجال الحركة الوطنية الأولين، وأبدى لهما فورا عن استعداده لتحمل المسؤولية للقيام بالمهمة على صعيد بلدته. ولما آن الوقت لأداء صلاة الجمعة، قصد المسجد صحبة الفقيه الكانوني، وإثر انتهاء الصلاة، افتتحا قراءة اللطيف، وتبعهما حضور المصلين في جميع أركان المسجد، وكان الثمن الذي أدياه لتزعمهما لحركة الاحتجاج ببلدتهما أن حكم عليهما بثلاثة أشهر نافذة في السجن. وبقي السعيد وعبد الكريم يناديان بالاستمرار في حملة الاحتجاجات وتعميمها في جميع أنحاء المملكة إلى أن سافرا إلى لبنان في آخر السنة، واتخذا من غرفتهما البيروتية منبرا للتعريف بالقضية الوطنية، وعلى رأسها المأساة التي خلفها صدور ظهير 16 ماى، بالإضافة إلى المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي كان المغرب يعاني منها مع مطلع الثلاثينيات. وكانا على اتصال دائم مع الطلبة التطوانيين الذين يتابعون دراستهم في نابلس والقاهرة، يزودانهم بما لديهما من

أخبار ومقالات كانا يحررانها للتعريف ببلادنا في المشرق العربي أو أبحاث ودراسات كانا يبعثها لهما إخوانهما من مختلف المدن المغربية، ومن سلا بصفة خاصة حيث كانا يتراسلان مع أعضاء الحركة الوطنية بمسقط رأسهما بكيفية منتظمة وحسب جدول زمني معين.

يقول المؤرخ المرحوم محمد زنيبر في « صفحات من الوطنية المغربية » ما يلي:

« و من نتااج الظهير البربري أنها حددت الصيغة الأولى لإيديولوجية الحركة الوطنية التي ارتبطت بتيار العروبة والإسلام الذي كان ساريا في الشرق العربي آنذاك ... فالتهديد الذي بات يشكله الظهير دفع بالوطنيين المغاربة إلى البحث عن حلفائهم في الخارج و توسيع اتصالاتهم. فكان من الطبيعي أن يتجهوا إلى بلاد العروبة، ويتعاطفوا مع حركات مماثلة على صعيد العالم الإسلامي. وهذا الاتجاه كان فيه اختيار مصيري على المدى البعيد، ألا وهو اختيار الانضمام إلى بلاد العروبة بصفة لا رجعة فيها ».

وأضاف قائلا: « ومن النتائج الخطيرة التي لم ينتبه لها الاستعماريون في وقتها، أن الوعي السياسي الذي اكتسبه المغاربة أثناء احتجاجهم على ذلك الظهير ومقاومتهم لتطبيقه أشعرهم بوحدتهم التاريخية، فسقطت كثير من الفوارق الإقليمية، وصارت المواطنة المغربية تجمع الجميع ».

وهكذا يكون عبد الكريم بصفته روح الحركة الاحتجاجية ضد الظهير البربري وأول من عمل من خلالها على توعية الجماهير الشعبية من أقصى المغرب إلى أقصاه بمكايد الاستعمار وحقيقة نواياه، قد خلد اسمه في السجل الذهبي للحركة الوطنية التي كانت مقاومة الظهير البربري نقطة انطلاق لبزوغها بالمغرب. وما العمل الذي قام به صحبة أخويه سعيد و عبد المجيد في المشرق للدعاية للقضية المغربية في مختلف البلدان العربية إلا امتداد لمحاربة السياسة البربرية وتوعية الرأي العربي بخطورتها و حمله للتضامن مع الوطنيين المغاربة في استنكارهم لسياسة الاستعمار الغاشم

في الميدان الصحافي الذي كان سعيد حجي يعيره بالغ اهتمامه، استطاع أن يربط علاقات

ودية مع أرباب الصحف والمجلات في عدة أقطار من العالم العربي، ومن بينها « الفتح » و « المنار » القاهريتان اللتان كانتا تناصران المغرب في كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي، و « الجامعة الإسلامية » و « الجهاد » وكلتاهما صحيفتان فلسطينيتان، ومجلة « العرب » الأسبوعية التي كان يصدرها عجاج نويهض بالقدس الشريف وغيرها من أمهات الصحف والمجلات الشرقية. وحصل السعيد على موافقة « الفتح » و « العرب » لإصدار عدد خاص عن المغرب والقضية البربرية، بمناسبة ذكرى مرور سنة على إصدار ظهير 16 ماى 1930 ، لكن أمام غزارة المواد التي ناهز عددها عشرين مقالة بين ما حرره السعيد نفسه وما توصل به من كتابات إخوانه أعضاء الحركة الوطنية بالمغرب، تراجع صاحب صحيفة « العرب » عن التزامه بإصدار عدد خاص من ذلك الحجم الكبير الذي سوف يتطلبه نشر جميع المقالات المعروضة عليه، وذلك خوفا من أن يحجز هذا العدد الخاص عند دخوله إلى المغرب وتتسبب له في ذلك خسارة مادية ليس له بها من سلطان؛ واقترح على السعيد أن يلخص المقالات في مقالتين على أكثر تقدير، وأبدى استعداده لنشر عدد خاص من ثمانية صفحات لا غير. فقبل السعيد عن مضض ووزع المادة الكتابية التي كان يتوفر عليها بين « العرب » و « الفتح » و « الجامعة الإسلامية » .

ثم اتصل بالأمير شكيب أرسلان طالبا منه تحرير مقال بتوقيعه عن قضية الظهير البربري، فاعتذر بدعوى - يقول سعيد في إحدى رسائله - « أن الفرنسيين يتهمونه أنه محرك الحركة التي نقوم بها هنا، وأنه من المصلحة لنا أن يكف عن الكتابة في القضية المغربية أو البربرية » « وهو عذر » ، يضيف السعيد معلقا، « أو هى من بيت العنكبوت كما يقولون » . ويشير في رسالته المذكورة إلى « أن الصحافة المصرية والفلسطينية منذ أسبوع وهى تنشر الفصول الطوال عن القضية، أما في سوريا فإن الحركة ضعيفة، نظرا للضغط الذي يوجد، ويكفي أن تعلموا أنه وزع على الصحافة السورية وعلى جل الأفراد منشوران، ولم تنشر إلا صحيفة واحدة منشورا واحدا؛ أما في العراق، فإننا وزعنا

على صحافتها ورجالاتها مناشير مختلفة في القضية، وسنرى ما ذا سيكون وسنرسله لكم أو نأتي به معنا إذا ما رجعنا إلى المغرب ».

ساهمت التعبئة من أجل مقاومة الظهير البربري بحظ وافر في إيقاظ وعي سياسي؛ وسرعان ما انتشر صدى هذا الوعى في باقي أنحاء المملكة، وخصوصا في المناطق البربرية التي تعالت فيها الأصوات لاستنكار ما حل بها من بلاء حتى حكم عليها بترك العقيدة الإسلامية لاعتناق الديانة المسيحية والخضوع لما تدس لهم سلطات الحماية من مكر ومكايد. وأصبح تجديد ذكرى محاربة ظهير 16 ماى 1930 في كل سنة مناسبة لتنظيم لقاءات دورية، وكان السعيد في أثناء مقامه بالمغرب أحد الأعضاء العاملين في هذه اللقاءات إلى أن صارت تنعقد كل أسبوع وأسفرت في سنة 1932 عن وضع اللبنة الأولى لحركة وطنية منظمة، تجلت في وضع ميثاق وطني لتنظيم وسائل العمل في إطار التحركات الوطنية، ومن جملة هذه الوسائل تأسيس صندوق وطني لمواجهة المصاريف الناتجة عن هذه التحركات وتحديد ميدان العمل الوطني في برنامج ينص على النقط الآتية:

1 جلب الشباب إلى العمل الوطني

2 دراسة الحالة العامة وتقديم تقرير عنها لدى كل اجتماع

3 مكاتبة الصحافة الشرقية بأخبار المغرب وحوادثه

4 جمع النشرات والكتب المتعلقة بأحوال المغرب

5 وضع الكتب والصحف الوطنية في متناول الشباب

وفي إحدى مراسلاته مع أبي بكر القادري من دمشق بتاريخ 4 فبراير 1933 يحدثه عن التقرير الذي كان يوجد الآن بصدده، ويتناول هاذا التقرير المواضيع الآتية:

1 تمهيد

2 تطورات الروح الوطنية في المغرب

3 القضية البربرية - مفرعة إلى ستة أقسام

4 السياسة التجهيلية - يتفرع إلى سبعة أقسام

5 سياسة إفقار الفلاح المغربي

6 حرية الرأي والاجتماع

7 سياسة الظلم وفقدان العدالة

8 سياسة الاستيلاء وأخطارها

9 خلاصة : ما هو مصير المغرب؟

وتناول الكتاب مسألة ذكرى الظهير البربري وضرورة استشارة السيد اليزيدي في الموضوع، كما أبدى عن عدم إمكانه لإعطاء رأي فاصل فيما تفكر فيه سلطات الحماية من جعل زمام الحكم لبرلمان معظم أعضائه من الجالية الفرنسية، مما سيغير لا محالة نوعية تصرفهم في المغرب، ويرجو إخباره بما يروج حول هذه المسألة بعد بحث دقيق عن خباياها، ليتمكن من دراسة الموضوع من كل جوانبه.

وبعد رجوعه من دمشق في بداية موسم الصيف لسنة 1933 اتصل بأبي بكر القادري وبمحمد اليزيدي، فاقترح عليه هذا الأخير أن ينضم له وللأخ عمر بن عبد الجليل لوضع مشروع كامل لمطالب الشعب المغربي؛ ومن جملة ما كتبه السعيد في الموضوع، ورواه أبو بكر القادري في « مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1930 إلى 1940 » هذا الكتاب الذي يمكن اعتباره وثيقة تاريخية هذا نصها:

« كتب لنا الأخ محمد حصار في رسالة والأخ أبو بكر القادري في رسالة أخرى بدمشق، يعلنان فيهما اقتراح الأخ محمد حصار في تكوين برنامج عام للحركة الوطنية، يجمع

المطالب المغربية، وعندما رجعت للرباط في صيف تلك السنة، أطلعني القادري على مشروع الأخ حصار في هذا الشأن، وعلمت أن وفدا من « سلا » قدم هذا المشروع للأخ محمد اليزيدي، وأخبرني اليزيدي بالمشروع وقال لي: إن الإخوان الفاسيين كانوا يفكرون أيضا في ذلك، وإنهم يحبذون أساس المشروع، ويريدون درسه درسا وافيا، غير أنهم يريدون أن يكون ذلك في جو من الكتمان التام، ولأجل تحقيق هذا الكتمان، فإنهم يرشحونني للانضمام إلى اللجنة التي ستدرس هذا المشروع، وإنها تتألف من الإخوان : الحاج عمر بن عبد الجليل ومحمد اليزيدي والحاج الحسن بوعياد وأنا المجتمعين في الرباط، وباستشارة الأخ علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني، واستشارة (غازي) عندما يحضر من آسفي إلى الرباط في بعض الأحيان، وفعلا شرعت هذه اللجنة تجتمع مرتين في اليوم بدار اليزيدي من الساعة التاسعة صباحا إلى الثانية عشرة، ومن الساعة الثانية إلى السابعة مساء، وظلت اجتماعاتنا أربعين يوما متوالية ...

» ثم يقول: « اجتماعاتنا كانت مثمرة ومفيدة للغاية، حيث استطعنا درس جميع النواحي المفتقرة إلى الإصلاح بالمغرب، وتوسعنا في درس جزئيات، واحتجنا إلى مطالعات كثيرة، ومناقشات عديدة، ومشاورة عدد آخر، دون أن يطلعوا على غايتنا، من الأفراد الذين لهم معرفة بالشؤون المغربية. وما كادت تمر هاته الأربعون يوما حتى كانت المطالب المغربية قد وجدت في مجموعها، وإن كانت ما زالت محتاجة إلى التنقيح وإعادة النظر في كثير من المسائل، وعندما انتهت الصيف توقف درس المطالب، ولم يجدد النظر فيها إلا عندما وقعت صدمة ماي عام 1934 ... ولما رجعت من سوريا عام 1934 أخبرني الأخ محمد اليزيدي بأن المطالب التي درسناها في الصيف الماضية قد أطلعوا عليها الأخ الناصري على اعتبار أنها لم تدرس، وإنما هى اقتراح تعاون على إيجاده الأخ محمد اليزيدي والأخ عمر لئلا يغضب من عدم اطلاعه على كيفية درسها وعدم انخراطه في لجنتها، ولقد جد الناصري في درس تلك المطالب، وأضاف إليها مواد جديدة، ونقح شيئا منها مما جعلها

أكثر انسجاما ، وأنضج تكوينا. وخلال اجتماعي به مرة، أخبرني بالمشروع، مظهرا لي قيمة العمل، ومفتخرا به، فتظاهرت بعدم علمي به، وأظهرت إعجابي » .

أما قصة وضع المطالب المغربية فقد حكاها سعيد واضعا بعض النقط فوق الحروف، فلنتمعن فيما كتبه أبو بكر القادري في هذا الموضوع الذي كثرت فيه الأقاويل » :

« والواقع أن كل الأعمال السرية التي لا يطلع عليها إلا القليلون تتعدد فيها الروايات، والكل ينسبها لنفسه وحده، ومن الإنصاف أن لا نبخس أحدا حقه، ومن الحق أن لا نتنكر للأموات من إخواننا الذين بذلوا مجهودات وطنية وقاموا بأعمال مشكورة، مهما كانت الأفكار مختلفة والاتجاهات السياسية متباينة. وأرى أن الذين كتبوا في هذا الموضوع، كتبوه بمنظارهم الخاص، ولربما غفلوا عن تسجيل بعض الوقائع كما وقعت، وكيفما كان الأمر، فإني أسجل الأحداث كما عشتها، أو شاركت في صنعها من قريب أو بعيد، والله يجازي كل مخلص على مقدار مابذل، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

وبعد ما تعرض الأستاذ أبو بكر القادري للظروف التي أدت إلى نشأة مطالب الشعب المغربي التي تقدمت بها كتلة العمل الوطني، وأسباب تقديمها وكيف حررت ومن حررها، أضاف يقول، ردا على زعم بعضهم أنها حررت باللغة الفرنسية ثم نقلت إلى العربية :

« ... لقد حررت هذه المطالب بالعربية، ثم ترجمت بعد ذلك إلى الفرنسية، وهذا أمر لا شك فيه عندي ولاريب، وإنني وإن لم أشارك في تحريرها فإني كنت أتابع العمل فيها وأقرأ التصحيحات والمراجعات التي أدخلت عليها » . وخدمة للحقيقة، يثبت الأستاذ أبو بكر القادري أن « الأخوين محمد بن الحسن الوزاني وعمر بن عبد الجليل راجعا بعض الفصول من حيث ترتيبها وتنسيقها وصياغتها صياغة فرنسية، ولكن الأصل كان هو العربية، ولدى ترجمتها كان المرحومان مسعود الشيگر وعبد الكبير بن عبد الحفيظ الفاسي من المساعدين الأساسيين، كما أن المرحوم عبد الله الرگراگي كان من الذين يبحثون عن المراجع في المكتبة العامة باعتباره موظفا فيها، ويزود بها الإخوان المحررين ... »

وإثر تقديم دفتر المطالب المستعجلة أقدم الوطنيون على تأسيس الحزب الوطني، إلا أنه بمجرد ما تم الإعلان عن انتخاب علال الفاسي رئيسا للحزب الجديد ومحمد بن الحسن الوزاني أمينا عاما له قرر هذا الأخير الانسحاب من الحزب، فنتج عن ذلك انشقاق في صفوف الوطنيين. قام سعيد مع مجموعة من رفقائه بمحاولة لإصلاح ذات البين وإقناع الفريقين بضرورة التغلب على الحزازات النفسية ومواجهة الاستعمار داخل جبهة متينة وموحدة.

لم تكلل هذه المحاولة بالنجاح، واختار السعيد الانضمام للحزب الوطني، ونشرت جريدة « المغرب » التي كان يصدرها بلاغا يعلن عن تأسيس هيأة سياسية جديدة دخلت منذ نشأتها في صراع عنيف مع الإقامة العامة. وتم انعقاد المؤتمر الأول للحزب الجديد بالرباط في اكتوبر 1937 تحت رئاسة علال الفاسي الذي ألقى خطابا قويا شرح فيه الحالة العامة السيئة بالبلاد. وأعقبه في المنصة سعيد الذي تناول الكلمة باسم الفرع السلاوي معلنا عن اغتباطه لاستبسال المغاربة في سبيل الحرية قائلا: « إن ما نلاقيه اليوم ثمن لا بد منه لمطالبنا ».

وأعقبهما الحاج عمر بن عبد الجليل بخطاب باسم فريق الدار البيضاء، ثم الأستاذ أبو بكر القادري ليتلو على الحاضرين نص الميثاق الوطني المعروض على المؤتمر الذي طالب بحرية الصحافة وتأسيس الجمعيات ، وجعل أى تفاهم مع الحكومة مشروطا بعدولها عن خنق الحريات والاضطهادات والشروع في تنفيذ مطالب المغرب المستعجلة، كما أسند إلى الأستاذ محمد اليزيدي مسؤولية تقديم نسخة من هذا الميثاق إلى الإقامة العامة بالرباط.

فكان رد فعل هذه الأخيرة أن اعتقلت الزعيم علال الفاسي ومحمد اليزيدي والحاج عمر بن عبد الجليل ومحمد مكوار، ولم ينج من هذه الحملة الاعتقالية سوى سعيد الذي بقى وحيدا في الميدان، فأخذ يتساءل عن الدور الذي يجب أن يقوم به والسياسة التي يجب أن ينهجها لحمل هذه السلطات على تغيير سياستها وإطلاق سراح رفقائه.

لنستمع إليه معلنا عن موقفه بقوله: « لقد عشنا أياما حالكة بعد إلقاء القبض على المناضلين الوطنيين، وبعد مضي مدة وأنا أتتبع الأحداث، لاحظت أن هناك أيادي تعمل في الخفاء للاستفادة من الوضع الجديد، والإبقاء على التوتر الموجود ومضاعفة الحقد على الوطنيين الذين كانوا يسمونهم بالمتطرفين المتعصبين، وبعد تفكير عميق، رأيت من واجبي أن أقف ضد هذا المخطط الجهنمي الذي كانت تدبره إدارة الأمور الأهلية بتعاون مع بعض الحاقدين المتربصين الدوائر بالحزب، وهكذا تحايلت كثيرا لأشق طريقا أخرى تضمن من جهة، إذا نجحت، إفساد مخطط المتربصين الداوائر برجال الحزب وإطلاق سراح المعتقلين، وتضمن من جهة ثانية تحقيق بعض المطالب الأساسية ».

لم يكن سعيد شابا أبيا غيورا على وطنه ورجالاته فحسب، بل مصلحا يهوى التجديد والتطلع إلى أفق أفضل في جميع المجالات.

إزالة لبس ورفع باطل

في الجزء الأول من الكتاب الذي أصدره الأستاذ أبو بكر القادري عن « سعيد حجي » سنة 1979 تعرض المؤلف في صفحة 125 إلى الميثاق الوطني الذي تمخض عنه مؤتمر الحزب الوطني بتاريخ 13 اكتوبر 1937 ، مذكرا أن هذا الميثاق قرر في فصله السابع « قطع كل تفاهم مع الحكومة إلا إذا عدلت عن خنق الحريات والاضطهادات وشرعت في تنفيذ المطالب المستعجلة » كما قيد المؤتمرين بأن « يعاهدوا الله على تنفيذ محتويات هذا الميثاق »

وأضاف تحت عنوان « في منعطف خطير » أن السعيد الذي لم يلق عليه القبض أثناء حملة الاعتقالات التي تعرض إليها قادة الحزب وجد نفسه وحيدا في الميدان، وسواء بعد ذلك قد تغير موقف الإدارة أم لا، فإنه تحمل مسؤولية فتح باب الحوار معها، على أساس

إطلاق سراح المعتقلين السياسيين وتحقيق المطالب التي أقرها المؤتمر الأول لكتلة العمل الوطني المنعقد بتاريخ 25 اكتوبر سنة 1936 مما جعل بعض الوطنيين، حسب ما ورد في الكتاب المذكور، « ينتقدونه ويتحدثون عنه أحاديث يشم منها عدم الرضا عن الاتصالات التي قام بها مع الإقامة العامة ».

هنا تجدر الإشارة إلى أنه لولا هذه المبادرة الجريئة التي عرضته إلى انتقاد من بعض إخوانه « الوطنيين الذين لم يتعرفوا على حقيقة تفكيره ولم يسبروا غور شخصيته » لبقيت دار لقمان على حالها، ولاستمرت سياسة القمع والتعسف عدة سنين دون أن تجد إدارة الحماية أمامها سلطة وطنية لتفتح معها باب المفاوضة إذا ما عزمت على تغيير الخطة الاستعمارية التي كانت تنهجها إزاء رجال الحزب الوطني. ولعل إدارة الحماية ما قررت عدم إلقاء القبض على السعيد إلا لتحتفظ لنفسها بمجال لفتح باب الحوار مع الوطنيين إن اقتضى الحال ذلك.

فالسعيد كان على يقين أنه، رغم قيامه بهذه المحاولة تحت مسؤوليته الخاصة، كان يقصد من وراء الاتصالات بالإقامة العامة ملء الفراغ السياسي الذي خلفته حملة الاعتقالات في صفوف الوطنيين، وذلك بحمل سلطات الحماية على العدول عن سياسة الاضطهاد وخنق الحريات والشروع في تنفيذ مطالب الشعب المغربي، كما نص على ذلك الميثاق الوطني، إيمانا منه أن الرجوع إلى سياسة التفاهم هى الوسيلة الوحيدة في تلك الظروف للإفراج عن المعتقلين السياسيين وتمكين إخوانه في الحزب الوطني من متابعة النضال الذي عاهدوا نفسهم عليه لصالح البلاد.

فنحن إذن بعيدون كل البعد عن أي احتمال من شأنه أن ينسب للسعيد نية الخروج عن خطة الحزب - كما زعم البعض - بل بالعكس عن كل افتراء باطل، كان شغله الشاغل هو الدفاع عن الهيأة السياسية التي كان ينتمي إليها، الشىء الذي جعله يقف أمام الخطة التعسفية التي كانت تنهجها إدارة الشؤون الأهلية بإيعازها لخطط المتربصين الدوائر

بالحزب الذين كان يهمهم الاستفادة من وضع التوتر السائد. ونشير هنا أن إدارة الشؤون الأهلية هاته كانت دخلت آنذاك في نزاع قوى مع المقيم العام الجنرال نوكيس حول تغيير هذا الأخير لخطة الاضطهاد التي كان يسير عليها بعد أن تسببت له في حملة دعائية واسعة النطاق قام بها رجال الحزب وعلى رأسهم الحاج أحمد بلافريج بفرنسا والخارج، مما جعله يتخوف من عزله من منصبه ويبحث عن خطة سلمية لإيقاف هذه الحملة التي كانت قائمة ضده. فانتهز السعيد هذه المعطيات - بعدما تبين له أن الجنرال نوكيس كان يشعر بضرورة إيجاد حل للأزمة التي كان يتخبط فيها - للاستفادة من مفعول هذه الحملة الدعائية في الأوساط السياسية بفرنسا، فارتأى أن الوقت مناسب لفتح باب الحوار مع الإقامة العامة، سعيا في أن يجنى لصالح الحزب الوطني ثمرات العمل الدؤوب الذي يقوم به رجاله بالخارج.

ونظرة في محاضر الاجتماعات التي كانت تعقد بمعزل عن مسؤولي إدارة الشؤون الأهلية تدلنا على أن جميع الاتصالات بالإقامة العامة كانت ترمي إلى تحقيق أهداف معينة منصوص عليها في دفتر المطالب كالإصلاح الذي يجب إدخاله على الإدارة المغربية وبالخصوص على قطاع التعليم، والاهتمام بشؤون الفلاح المغربي مع إعطائه قطعا أرضية وحماية نظام ملكيته العقارية، والعناية بالهيآت الصناعية، والسماح للمغاربة بتأسيس جمعيات تعاونية وثقافية، ورفع الرقابة على الصحافة الوطنية، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين قصد تصفية شاملة للجو السياسي.

فكون الإقامة العامة قبلت مبدأ التفاوض على أساس تحقيق هذه المطالب يدل على أنها غيرت خطتها وبرهنت على استعدادها لنهج سياسة التفاهم، مما يبرر مبادرة السعيد لربط الاتصال بها، ما دام هذا الاتصال لم يقع إلا بعد أن تيقن علم اليقين من عزم السلطة الحامية على فتح عهد جديد في علاقاتها مع رجال الحركة الوطنية، وذلك بالعدول عن سياسة القمع والاضطهاد والشروع في تنفيذ مطالب الشعب المغربي، علما منه أن تحقيق

هذين الهدفين اللذين ينص عليهما الميثاق الوطني كشرطين أساسيين لاستئناف الاتصال بإدارة الحماية، من شأنه أن يلغى به قرار « قطع كل تفاهم مع الحكومة » .

ومن جهة أخرى، فإن جميع ما وقعت المذاكرة فيه ودون في المحاضر كان يكتسي صبغة مشروع لا غير، وكان يستلزم اتفاق الحزب الوطني عليه بموافقة الحاج أحمد بلافريج الذي كان مقيما إذ ذاك بمدينة جنيف. فأذن للسعيد أن يسافر إلى سويسرا، لكن صادف وصوله إلى جنيف أن الحاج أحمد بلافريج كانت تجرى له عملية جراحية على رئته، فلم يتمكن من تبليغه مباشرة موضوع مهمته؛ فاتصل بالأمير شكيب أرسلان وأجرى معه حديثا دام أربع ساعات، وطلب منه إخبار الحاج أحمد بلافريج بما جد في القضية التى جاء من أجلها، على أن يجيبه بعد خروجه من المستشفى بما يقر عليه قراره في شأن الاتصالات الجارية مع الإقامة العامة والحل السياسي المعروض على أنظاره. فراسل الحاج أحمد بلافريج السعيد في الموضوع، مستفسرا عن بعض النقط وموصيا بالتزام موقف التحفظ في أخرى، وأخيرا بعد أخذ ورد صادق على الخطة المرسومة.

فكيف يأتي الأستاذ عبد الهادي بوطالب بعد ذلك ويدعي أن شكيب ارسلان انخدع بعدما اتصل به سعيد حجي، وأنه سمع من شخصية وطنية مغربية تقييما مؤيدا لخطة المقيم العام. فهل يظن أن سلطات الحماية هى التي فرضت على السعيد السعى لتحقيق أهداف الحزب الوطني كما أثبتت في محاضر الجلسات. فتعليق الأستاذ المذكور يدعو إلى الاقتناع بأن تحقيق هذه الأهداف هى في الأصل حلول مقترحة في خطة المقيم العام، وليست نتيجة المفاوضات التي جرت بين الطرفين.

« وكيف يأتي الأستاذ غلاب اليوم - يقول المرحوم الدكتور محمد زنيبر - ليحاول أن يوقع في روعنا أن سعيد حجي خرج عن خطة الحزب الوطني، واضطر أن يقوم بمساع جديدة، منها السفر إلى جنيف لتبرير موقفه، والحالة أن الحزب قرر أن يسير في نفس الخطة التي ينعتها المؤلف في مكان آخر بأنها « نوع من التفكير العملي » واتصل وفد

منه بالجنرال نوكيس معلنا عن « فتح عهد جديد بين الإدارة والوطنيين » . أي منطق يستعمل المؤلف في الحكم عن سلوك سعيد حجي وفي التحدث عنه بلهجة لا تخلو من تشكيك حينما يقول: « ومع ذلك كان بعض المتحمسين لمحاولة سعيد حجي يظن أنها خففت المحنة عن بعض المعتقلين » ؟

فإذا كان السيد غلاب غير مقتنع بما كان يظنه هؤلاء المتحمسون فليرجع إلى مذكرات أبي بكر القادري - صفحة 479 - حيث ورد على الهامش:

« أتيت بهذه التفاصيل والجزئيات لتكذيب ما كتبه البعض في مذكراته من أن الموقف الذي اتخذناه كان على حساب الوطنيين المعتقلين، كما يصحح ما كتبه الأخ غلاب من أن خروج المعتقلين لا علاقة له بهذه المحاولات » .

ومن دماثة خلقه، كان سعيد حجي رحمه الله يتقبل بصدر رحب جميع الملاحظات والانتقادات التي كانت توجه إليه، وكان يجيب عنها بكل ما رزقه الله من لباقة وسعة خاطر؛ بل وصل به الحال إلى المطالبة بلجنة تحكيم لتنظر في الملاحظات الموجهة إليه، وهو سلفا قابل لما تصدره من حكم، سواء كان معه أو ضده.

فلله در الشاعر عبد الرحمن حجي، شقيق السعيد الأكبر، حيث قال:

ما رأوا شهما مصلحا بانيا إلا سعى من خلفه ألف هادم

وقدما قال أحد الشعراء:

متى يبلغ البنيان يوما تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

فنم يا سعيد محروسا بعين الله التي لا تنام، وخذ عبرة مما قاله بعض الحكماء: « كفى بالتجارب تأديبا وبتقلب الأيام عظة » .

تمهيد

بقلم عبد الرؤوف بن عبد الرحمن حجي

هذا الكتاب، وإن لم يصدر إلا بعد مرور ستين سنة على رحيل سعيد حجي إلى دار البقاء، يرمي قبل كل شيء إلى إحياء ذكرى « فقيد المغرب والشباب » والمزيد من التعريف بنشاطه السياسي والأدبي لدى الجيل الحاضر . وقد يحق فعلا لأبناء هذا الجيل الذين لم يتح لهم أن يخوضوا معركة الكفاح من أجل استرجاع كرامة الأمة المغربية المهضومة خلال عهد الحماية البائد، أن يتساءلوا من هو سعيد حجي هذا يا ترى، وما هو الغرض من هذا الكتاب الذي يعود بنا إلى عصر مضى وأصبح نسيا منسيا حتى لدى من تعهدوا بين أصدقائه ورفقائه أن يحتفظوا له « بذكرى متجددة في أذهانهم، ويذكرونه في كل مناسبة بتفكيره ونشاطه وأعماله وأقواله » .

إلا أنه من الواجب أن نستثني الأستاذ الجليل أبا بكر القادري الذي يرجع له الفضل في نشر ما كان يتوفر عليه من تراث الفقيد، وإغناء الساحة الأدبية بدراسة مستفيضة عن حياته ونشاطه الثقافي والسياسي، ونضيف إلى هذا الاستثناء مجموعة القصائد والكلمات التي تفضل بإلقائها بمناسبة تأبينه أو في رثائه على العموم من عاشروه عن كثب وكانوا يرون فيه أحد قادة الصحافة الحرة الذين وهبوا حياتهم للنضال من أجل حق بلادهم، وكذلك بعض المقالات والدراسات التي نشرت بين الفينة والفينة على أعمدة الصحف الوطنية.

ما عدا هذا، فقد توالت الأعوام، وأخرست الأقلام؛ فالغرض إذن من هذا الكتاب هو من جهة إيقاظ الذاكرة الجماعية التي أصبحت تتلاشى مع مر السنين وتعاقب الأحقاب، ومن

جهة أخرى تمكين شباب العصر من التعرف على ما قام به السلف من صالح الأعمال وأسدوا لأمتهم من جليل الخدمات.

فإن هذا الكتاب يأتي بنبذة عن حياة الفقيد ويتناول في جزئه الأول بعض كتاباته الأدبية ومنتخبات من إنتاجه الصحفي، ويعرض في جزئه الثاني معظم ما قيل وكتب في شأنه بعد رحيله. والهدف من جمع الجزأين ونشرهما معا في كتاب واحد هو تسهيل سبل البحث ومساهمة من أسرة الفقيد لتخليد ذكرى أحد أبنائها البررة الذي كان يعد من الرعيل الأول لرواد الحركة الوطنية بالمغرب وأول من سخر قلمه ولسانه للدفاع عن الحريات العامة وحرية الصحافة على وجه الخصوص، وكرس مجهوداته لإثبات دعائم النهضة الفكرية ونشر الدعوة الإصلاحية ببلادنا.

وسيلاحظ القارئ الكريم في كلا الجزأين كيف تكونت شخصية سعيد وكيف أصبح نتيجة لطائفة من العلل التي ساهمت في تأليف مزاجه؛ وما هذا الكتاب إلا وسيلة لتمهيد الطريق للبحث عن هذه العلل والكشف عما بينها من صلة ونسبة. وسيبدو له جليا أن سعيد حجي ثمرة من ثمرات عصره عمل في إنضاجها تأثير البيئة العائلية في تكوينه الخلقي والوطني، ثم الوضع السياسي الذي كان يعيش فيه المغرب، والحالة الاجتماعية والاقتصادية التي كان يشاهدها ويستقصي أمرها في كل آونة وحين.

فالكتاب الذي نمهد له بهذه السطور معروض ليكون أداة بين يدى الباحث الذي يريد أن يدرس العلل المادية والمعنوية التي اشتركت في تكوين الرجل وتنشيء نفسه، وإلا فقد يستحيل عليه أن يهتدى من أمره إلى شيء، وبالأحرى أن يكتشف ما يكنه في أغوار نفسه من إحساسات وخوالج، وعواطف وعواصف.

سعيد حجي يتحدث

عن عهد الصبا وسن الطفولة

مراتع الصبا

نشرت جريدة « الوداد » الخطية في عددها الممتاز الحامل لتاريخ 8 يناير 1929 كلمة لسعيد حجي يتحدث فيها عن مراتع صباه هذا نصها على ما فيه من سذاجة في التعبير وبساطة في أسلوب الكتابة، وأعيد نشرها في « سعيد حجي » لأبي بكر القادري، ج 1 ص 8 - 10 :

« ولدت في 11 ربيع الأول سنة 1330 ، الخميس 29 فبراير سنة 1912 ، ولما وصل سني الخامسة، دخل بي أبي إلى مكتب مجاور لدارنا مع إخوتي، فبقيت إلى أن اقتضى نظر أبي بعد سنتين تقريبا أن يخصص لنا فقيها في الدار ففعل، وغفلت أن أقول: إني في هذه المدة، لم أحصل على طائل من القراءة أو الحفظ، وما ذاك سوى ناتج عن قبح التعليم في تلك المكاتب. فلما صرنا في الدار، رجعنا كالمسجونين، أو إن شئت قل أكثر، وربما كان أبي يقصد بذلك إصلاحنا مع غفلته وجهله أن هذا ضرر عظيم على الشبان، ولكن لا لوم عليه. فصرت أقضي أيامي في الأمور التافهة التي لا تجدي نفعا، وهكذا بقيت مدة تزيد عن سنتين، حصلت خلالها على تعلم الهجاء قليلا جدا، ثم لما حصلت مع الأستاذ وأخي الأكبر مناقشة جعل الأستاذ مكتبا خاصا به، وصرنا نذهب إليه مع جميع التلاميذ، وبقيت - مدة - على هذه الحال، وصرت أعرف شيئا قليلا في القراءة، وحفظت سورة أو نصفها، لأن من طبيعتي عدم الحفظ، إلا بعد فهم المعنى.

وفي نصف ذي الحجة سنة 1339 وقعت في سلا نهضة في فتح المدارس، وكان أبي يريد

أن يدخلنا فيها، لكن تأخر في عمله إلى أن مر شهران من ذلك التاريخ، فأدخلنا إليها نصف يوم أو، بعبارة أخرى، نقرأ العلم في هاته المدرسة، والقرآن في مكتب أستاذنا المتقدم، ثم تعين أستاذنا المذكور مدرسا هناك، فذهبنا معه من جملة التلاميذ، وصرنا نقرأ النحو والفقه والقرآن، وهنا أردت أن أطلق لقلمي العنان ليوضح المجال، فيتكلم عن المدرسة التي كنت قضيت فيها شطرا كبيرا من عمري، وحصلت في خلاله على شيء زهيد للغاية، لا يعد شيئا مذكورا أمام الأيام التي قضيتها فيها.

دخلت المدرسة كما تقدم نصف يوم، فوجدت في قسمي أستاذا يدعى السيد زين العابدين بن عبود، فإذا هو يحسن النحو والفقه لا غير على الطريقة القديمة، وإن كان دخلها بعض التقدم؛ فقرأنا عليه دروسا بالحفظ في النحو، ولا شك أنها مختصرة للغاية، مناسبة لقسمنا الابتدائي، وأوشكنا على ختامها ولله الحمد، حتى كنت أعرف وأفهم دروسي بأجمعها، وصرت في قسمي من الطبقة الأولى، ثم تحولت المدرسة من محلها القديم، وصارت في دار حبسها عليها حضرة الأجل الكريم أحمد الصابونجي، وهناك قسمت الأقسام على أحسن حال في نظر المغاربة، وصار فيها ثلاثة أقسام، كنت من القسم الأول، نقرأ صباحا القرآن عند أستاذي القديم في المكتب، وعلى الساعة الحادية عشرة يدخل أستاذي النحوي والفقهي المتقدم، فيعلمنا حفظ الأمهات من الألفية والأجرومية والمرشد المعين وغيرها. وعلى الساعة الثانية بعد الزوال، نأتي إلى المدرسة فنقرأ درسا من النحو ودرسا من الفقه، وأخيرا صارت همتنا كلها متجهة إلى النحو، وصار كل حديثنا فيه، والكل يقول: كيف تعرب هذه الجملة ؟ وهذا المثال؟

وبعد مرور سنة، أرادت هيأة المدرسة أن تجعل امتحانا عاما، فوزعت دعوات إلى جميع الأعيان وآباء التلاميذ وغيرهم من رجال المخزن، وحضروا جميعا، وكنت الأول من الذين سيمتحنون في القسم الأول، فوقفت مرتعشا لما أرى من الجماهير العديدة حولي، فسألني الأستاذ في أمور أجبته بما يقتضي المقام، وعلى أحسن حال، ثم جلست، فقام من على

يميني، وهو شاب يقال له: المكي عواد، إلى أن انتهى قسمنا من الامتحان؛ وأخيرا قام بعض الخطباء من تلامذة قسمنا، فكان أولهم وأرقاهم ذلك الشاب الذي كان عن يميني المكي عواد، إذ وقف بجسارة ومقدرة حيرت جميع الحضور، ثم تبعه أبو بكر حصار، وغاية ما يقولون في خطبهم هذه، ترحيب بالحاضرين، والدعاء لله أن يكون لنا مستقبل زاهر، ولكن قد وقع ذلك من الحاضرين موقع إعجاب وإكبار، وتأثروا جدا، لأن جل أولادهم كانوا في المدارس الفرنسية الحكومية، ولا يقرأون سوى الفرنسية، وشيئا قليلا جدا من العربية التي هى لغتنا القومية والوطنية، بل صار بعضهم يبكي. وهكذا انتهى الامتحان بالنجاح والفوز، فذاعت شهرتنا في أنحاء المغرب، ونشر ذلك في « السعادة » فكان له أشد تأثير على الأولاد الذين في المدارس الفرنسية؛ ثم قرأنا دروسا عالية جدا، ومختصرة بعبارة أوضح من « التلخيص » في النحو، وصار الأستاذ يجتهد فوق طاقته في إنجاحنا، وهكذا بقينا في هذه المدرسة هذه السنة كلها، ونحن على نظام واحد، إلى أن أرادت هيأة المدرسة أن تعفى مدرسنا من ذلك المنصب، لما رأت فيه من التراخي وغيره، فلما استعفى جنابه، صرنا في كدر عظيم ».

من ذكريات الصبا

تم نشر هذا الحديث والحديث الموالي له الحامل لعنوان « ذكريات » في كتاب « سعيد حجي » لمؤلفه الأستاذ أبي بكر القادري، ج 2 ص 239 و 245

- 1 -

« يتذكر الإنسان حوادث جرت له في حياته كما أنه يغفل عن حوادث من دون أن يدري أسباب تذكره لتلك الحوادث أو نسيانه لها؛ والعلم الحديث أيضا حاول أن يدرك مقياسا لذاكرة الإنسان وغيره فلم يوفق إلى أسباب مرتبطة بنتائجها، إنما برهن على

نظريات لا يسقط من قيمتها إلا أنها نظريات ليست بمقررات، ولا ريب أن اليوم الذي سيعرف العلم فيه حقيقة وعي الإنسان أو شخصيته بالأحرى إن كان بعيدا فهو قريب بالنسبة لحياة الإنسان وأطواره وبالنسبة للتاريخ البشري على وجه الإطلاق؛ ولست أدري هل سيأتي ذلك اليوم على عهد جيلنا الحاضر أم بعد أجيال؛ فالإنسان منذ أن خرج من وحشيته الأولى وتطلع إلى نفسه يتمنى من صميم فؤاده أن يكشف له عن هذا الحجاب المستور، وأن يدرك شخصيته من طريق لا غبار عليها، وكلما ازداد البشر تقادما في الحياة ازداد شغفه بهذه المسألة.

ونحن إن لم نصل لذلك اليوم لنكتف الآن - خوفا من الانتظار غير المفيد بدرس هذه النظريات العلمية ولنطبقها على شخصيتنا وعل الأخص في مسألة الذاكرة والنسيان، فلقد نجدها مطابقة تمام الانطباق، وقد لا نجدها، إنما المهم أن ندرك كل رأى علمي له مسيس بشخصيتنا.

تقول هذه النظريات إن الإنسان يتذكر من الحوادث كل ما له صلة قوية بعاطفة ذلك الشخص، ويتناسى كل حادثة بعيدة عن نفسه وشخصيته. ونحن إذا نظرنا نظرة شخصية نجد أن كل حادثة تقع للإنسان يكون له ارتباط نفسي بها، فلا معنى لا يتناسى أى حادثة تطبيقا للنظرية العلمية السابقة. هذا ما يتبادر إلى الذهن في أول وهلة على أن العلم النفسي يدحض هذا الاعتراض بقوله أن تكون الصلة بين الحادثة والنفس ليست صلة مادية أو عقلية بل صلة مرتبطة بالعاطفة التي تؤثر على نفسية الإنسان. والبحث في هذه العاطفة ومدى انفعالها بالنفس البشرية يتوقف إلى حد كبير على شخصية المرء وجرأته وتعاركه في الحياة وانقلابه مع أطوارها حيث أن ليس للعاطفة مقياس محدود تؤثر به على مختلف الأفراد، بل لكل فرد مقاييس في الحياة يجب درسها على حدة والتعمق فيها بصورة باطنية، وأى إنسان يستطيع هذه المحاولة في غير نفسه.

إذن، فالإنسان لا يتذكر ولا يرسخ في عقله الباطن إلا ما أثر تأثيرا قويا على نفسيته أو

على عاطفته بالأحرى؛ فليستعرض كل إنسان حوادث صباه أو الحوادث القريبة من يومه ثم يرى أى الحوادث أرسخ في ذهنه، إنه لا يجد إلا الحوادث التي تأثر منها والتي صرف وجهه عنها، أما غير هذا من الحوادث، ولو كانت ذات صلة قوية بحياته من ناحية غير عاطفية فهو سرعان ما يغفل عنها بعد اليوم أو اليومين.

وقد يطول لنا المقام لو أحببنا أن نتحدث عن المسائل العاطفية كيف تنبت وكيف تنمو في نفس الإنسان، فذلك مما يجده الإنسان في المقالات أو الكتب الاختصاصية بذلك مع شيء من التطويل والشرح وضرب الأمثلة، أما وسطور هذه ليست إلا تمهيدا وجيزا لكلمة أود تخطيطها، فلأكتف بما قدمته.

- 2 -

في ساعة خلوت فيها بنفسي وتناسيت ما يحيط بي وما يثقل كاهلي في هذه الحياة جرى طيف الماضي السعيد أمام عيني وتذكرت الطفولة وحوادثها المريعة تارة والمثيرة طورا فاستسلمت لتلك الذكريات واستعرضتها بشيء من المرارة لست أدري باعثها الحقيقي إلا أني تصورت ذلك العهد حينما يكون الفكر فيه منصرفا إلى ناحية من الحياة بلذة وشوق كبيرين لا يجدهما المرء وقد ثقف عقله وظهرت له الحياة بمختلف صورها وانفعالاتها.

ولقد استعرضت ذكريات طفولتي هذه وأحصيتها فإذا لم يبق عالقا بالفكر نتفة صغيرة لها صلة بعاطفتي وما تأثرت به عند وقوع تلك الحادثة، وسوف أسرد بعض القصص ليدرك المرء بواعث النفس وكيف تتحرك وكيف تتأثر وما ذا أشعر به عندما أتذكر الحادث، وهكذا طبقت تلك النظرية العلمية على نفسي فوجدتها منطبقة تمام الانطباق، وقد يكون هناك أفراد كثيرون لم يوفقوا في هذا التطبيق، أو كانت نتيجة تطبيقهم مخالفة للنظرية السابقة فأمرهم لا يعنيني كما يعني أنفسهم وأحوالهم.

لك الله يا عهد الطفولة ما أودعك طيفا وما أصفى خيالك وأطهر محبتك وأنقى سريرتك عهدا

يكون قلب المرء فيه كطير ينتقل في الأحراث والغابات ويسمو إلى عنان السماء خفة وطهارة ويحادث الملائكة ببراءة وحنو.

الطفولة تحاكي الطبيعة العاديةالطاهرة وتصوغ من الجمال والوداعة صورا يفتش بها كل ذي إحساس بشري فنرى في تقبيلها وملاعبتها ما يطهر النفس ويفتح أمامها أبوابا للخير والسعادة ونشعر بحرارة قلبية متزايدة يضمها إلى صدورنا واندماجها مع أرواحنا، فهى نبراس للمحبة الصادقة ونور سماوي يتجلى على البشر من خلال ابتسامة عذبة لفم طفل ينظر إليك بعين صافية وقلب ملتهب بحرارة وشوق لا حد لهما ولا نهاية لعمقهما من نفسه.

فلا غرو إذا انقبض صدر الإنسان عندما يفكر ويستعرض صورا من طفولته وما تموجت به من تجاذب وتنافر وما اضطربت به من عواطف شريفة وإحساسات نزيهة، وما فاضت به من شعور ووجدان، فإن عهد الطفولة مقدس حيث لا تشمله إلا الطهارة والمحبة، ومحبوب لأنه عنوان إيماننا في هذه الحياة الملوءة بالجهاد وصفحة من أيام خلت من السعادة والانشراح.

لقد أخذت أستعرض هذه الصور من طفولتي وقتا ليس بالقصير وأجهد في انحصار فكري مدة طويلة من الزمان كنت في أثنائها ذاهلا عما حولي منكبا على التفكير والإمعان كأني أحاول تعليل ما أحيط بكل حادثة من غوامض لم أدرك كنهها إذاك وليس ذاك بالأمر السهل، فإن الصور التي ما زالت مرتسمة في ذهني عبارة عن خيال تقادم عهده وأسدل عليه ستار النسيان وانقلاب الحوادث؛ فإن المرء سرعان ما يتناسى أمر غده حيث أن الحوادث تتوالى بصورة غير منقطعة والفكر ليس بمحصور في ناحية واحدة من مناحي الحياة الواسعة، بل هو مشتت الشمل يود لو يلم بكل الأسباب والنتائج من دون أن يفحص بدقة شيئا واحدا.

وعليه فمعذرة إن لم تكن صور طفولتي هذه واضحة كما يجب عليها من أشعة التحليل ما

يكفي، فليس ذاك في مستطاع فرد كثير النسيان مثلي.

- 3 -

إذا تراجعت إلى الماضي البعيد من طفولتي باحثا عن أقدم صورة ما زالت مجسمة تجسيما تاما أو ناقصا في ذهني وأطلت التفكير وأمعنت في الفحص تراءت لي صورة بعيدة لعل عمري كان يومها في الخامسة أو السادسة على الأكثر: أرى نفسي محمولا على كتف أخي محمد وهو سائر بي إلى المكتب المجاور لبيتنا، ونفسي مرتعشة خائفة قانطة بالحياة؛ فإذا ما دخل بي المكتب وجدت طلبته في مكان ضيق مزدحمين، وقدمني إلى الأستاذ فأجلسني على ركبته وقبلني، فشعرت بخشونة شعره، ثم قال لي: ما اسمك؟ فلم أجبه، بل؛ كدت أنفجر بالبكاء ونفسي مضطربة، ولكن لا أتذكر ما جرى لي مع التلاميذ، بل غاية ما بقى راسخا في ذهني أني بعد أن رجعت إلى البيت أخبر أخي الأهل بذهابي للمكتب، فقبلتني الخدم وأظهرت أمي سرورها.

ذهبت إلى المكتب ونفسي قانطة نفورة خائفة وهى تتمنى لو انشقت الأرض وغمرتني فلا أذهب إليه مرة ثانية والعادة المتبعة في بلادي إذاك أن يذهب الطفل إلى المكتب ابتداء من سن الرابعة أو من الثالثة أيضا، وإذا كنت تأخرت إلى سن الخامسة أو السادسة فما ذلك إلا نظرا لمحبة عمتي لي وحرصها الشديد على راحتي وأنا لا أعرف نفسي إلا بين أحضانها وفي بيتها وتحت رعايتها، فقد اتخذتني ابنا لها وأنزلتني منزلة تفوق البنوة، فهى لم تلد قط وأنا إذن مدين لها بتربيتي وما كنت أشعر به من سعادة في طفولتي، ولقد كانت تمانع بكل شدة في ذهابي إلى المكتب، وطالما أخفتني عن عيون إخواني لدى ذهابهم إلى المكتب.

وتمر الأيام بعد ذلك اليوم من دون أن أتذكر عنها شيئا إلى أن أتذكر نفسي في يوم آخر أمام تلميذ اسمه محمد ملاح وهو يلقنني سورة « التين والزيتون وطور سينين » ولعل بين

اليوم الأول وهذا اليوم عدة شهور لا شك أني تعلمت خلالها حروف الهجاء وبعض سور أولية غير هذه السورة لست أدري هل كنت أذهب في تلك الفترة بصورة منظمة متتابعة أم حسب الصدف ومسامحة عمتي بفراقي.

كان هذا التلميذ يحفظني تلك الآيات من القرآن الكريم ودموعي نازلة على اللوح والشهقات من البكاء تتوالى فتقطع جل قراءتي المتعثرة، وبعد تكرار تلك الآيات بضعة مرات يحاول التلميذ أن أستظهرها أمامه فيستعصى على ذلك وأستسلم للبكاء المر، لكنه كان لطيف المعشر يمسح دموعي ثم يكررها معي، لكن هيهات! فلقد كانت الغباوة ظاهرة على عيني، وخصوصا من جانب الاستظهار، ولم تكن لي جرأة كافية على اقتحام أي صعب، وكنت أشعر من نفسي ضعفا لا يتصور، فأنا لحد الآن لا أدري كيف تقدمت إلى هذه السورة في التنزيل وقبلها سور شتى هل حفظتها واستطعت استظهارها أم كان ذلك بصورة تلفيقية من الأستاذ لا غير لكى أصل إلى سورة « يسبح لله » فتقام لي الحفلة التي تسمى عادة « الحدقة » والتي يأخذ الأستاذ فيها نصيبا وافرا من الدراهم.

لم أكن في المكتب كباقي التلاميذ من حيث الخفة والنشاط ولم تكن دلائل الحياة تظهر على ولا لي حيل الأطفال بأماكن الطلبة أو آخذ لهم أمتعتهم، فإن ذلك لم يكن ليخطر لي ببالي قط بل لقد كنت خاملا لا أجلب خيرا ولا سعادة لأي تلميذ، فلهذا كان الأستاذ لا يؤدبني بعصاه إلا قليلا، وما ذلك في الحقيقة إلا للضعف الذي كان يخامرني ولا أجد منه مفرا حيث أن البيئة التي عشت فيها كانت تشملني بعطفها وحنوها، وعلى الأخص من جهة عمتي أكثر مما يجب وينبغي أن يكون.

في العوائد المغربية أمور تدل دلالة واضحة على رقي في العقلية وحب للعلم وشغف به من جملتها ما يتعلق بالأطوار التي يمر عليها الطالب من أول تدريبه إلى أن ينتهى بـ « الحدقة » التي تعبر عن اهتمام المغاربة بالعلم وتشجيعهم وكذلك « نزهة الطلبة » في فاس ومما لا يحصى عده فـ « المحدوق » يشعر بقوة مكينة من نفسه تحضه على

مواصلة عمله وتستحثه على السير وراء خطته.

عندما يفوز الشخص ماذا يشعر به؟ كثيرا ما تساءلت هذا السؤال ظنا مني أنه لم أفز في حياتي قط فوزا يضمن لي أن أجيب عن مثل هذا السؤال، لكن عندما استسلمت لذكريات طفولتي هذه وجدت نفسي قد فزت مرة في حياتي في عهد الطفولة عندما « حدقت » ذلك بأن وصلت لحزب « الرحمن » من الفرقان، فلقد أقامت لي عائلتي حفلة خصوصية شعرت أثناءها بزهو كبير وخامرني ما يخامر كل طفل، وها قد مرت ما ينيف عن عشر سنوات ما زلت متحققا أن هذه الحفلة كانت أول مشجع لي في حياتي بعدما كنت فاقدا لكل أمل شاعرا بضعف متناه وأفضل الموت على الحياة.

ذكريات

جلست كئيبا شارد الذهن غارق النظرات أحاول أن أشغل نفسي ولكن أجدها نافرة قلقة من كل شيء وأتطلع إلى ما حولي وأستعرض حوادث يومي لعلي أعثر على باعث فلا أجد هناك شيئا يذكر فأستلقي على الفراش تارة وطورا أفتح كتابا ثم أتناول القلم ولكن كل ذلك أثقل على نفسي من حمل الجبال الراسية.

ما أجدر الإنسان بأن يمر في مثل هذه الساعات فاقد الروح، تلك فترات لا أدري كيف أصفها ولا كيف أعبر عنها، بل حسبي أن أعتبر نفسي غير حية وأنها تستريح في غير هذا العالم، فإن القنوط من الحياة عبارة عن موت الحياة بصورة إن لم تكن قطعية فهى مجازية وأحسن دواء أستعمله في تلك الأوقات أن أقوم من فوري وأنطلق في المسير إلى أن أشعر بالتعب الجسمي وأستلقي مرة أخرى على الفراش فأستريح وأنا أفكر في باعث يزيل عني هذا القنوط، وهذا ما جرى لي اليوم، فلقد كنت في قنوط كبير لم ينقذني منه إلا السير، ثم امتددت على الفراش وأنا أستعرض ذكريات الماضي القريب حيثما كنت في بلادي

للمرة الأخيرة.

تذكرت بلادي وأهلي وأصدقائي، بل استسلمت لهذه الذكريات مدة تزيد عن الساعتين فتخيل لي كل المواقف وكل المشاهد التي ما زالت عالقة بذهني، والحقيقة أن غمي انفرج عني بهذا الاستسلام ولتلك الذكريات؛ فإن العقل مهما مد الفكر بمقوماته المعنوية ومهما غذاه بمعلومات علمية، فإنه لا يكاد يتذكر حتى يثور ثورة تنفجر لها النفس البشرية، فينسج الإحساس على هذه الثورة صورة تكون فتانة أو لا تكون ولكنها من صميم القلب، فإن هذه الأجيال البشرية لم تتحكم فيها إلا هذه الثورات العاطفية التي نراها في هجمات المتوحشين أو في اندفاعات المتدينين، وقد يخيل للمرء وقد امتلك ساعة زمام الأمر وتصرف فيه أنه انتهى بتاتا من مشاكل عاطفية وأنه أصبح أعلى من أن يصد عنه كل هواجسها وأن يكبح كل تياراتها، فما يشعر إلا وقد استولى عليه القنوط وصرفه عن أعماله، وأن تفكيره قد كل، ونفسه في احتياج شديد إلى ما يضمد فرحاتها التي لا يدري لها سببا.

إذن فمن واجب الإنسان أن يكون حكيما في كبح عاطفته وسيطرة العقل عليها، فيتخذ لذلك مقياسا معقولا وحدودا وسطية خوفا من الاصطدام غير المحمود.

تذكرت نفسي بين أهلي وعشيرتي وما يحيط بي وأنا بينهم من عطف وحنو وما كنت أشعر به نحوهم مما أدهشني الآن وحقق لدى أني كنت مغرورا أو كنت جاهلا بعلاقة النفس البشرية وهى في دور الطفولة مع ذويها ومن يكشفها، فقد كنت قاسيا في معاملتي خشنا في محاولاتي متصنعا في عطفي وإنسانيتي، لقد أدهشني كثيرا ما كنت عليه في معاملتي مع أمي وعمتي وخدم البيت، فكان العقل قد أسدل على نفسي حجابا ولم ير في الحياة إلا في صورتها المادية الجافة، وانتزع مني عاطفة هى ينبوع الخير البشري.

هذه أمي تنظر إلى بعينين ملؤهما عاطفة الأمومة ورقة الإحساس المتناهي تحاول أن تضمني إلى صدرها، وتشفي غليلها بتقبيلي، بل هى تحاول إدماجي في قلبها لأنه ذرة منها،

فإنسانيتها تريها أني جزء منها مهما كبرت ومهما ترجلت لم يكن مصدره إلا قطرة من دمها، وقطعة من لحمها، بل إن عطفها على ليس إلا عطفها على نفسها لأن نفسي مستمدة من روحها، وحياتي مدينة لها في سائر الحياة، إنه ملك لي لا يشاركني فيه أحد، تنظر إلى أمي وترى فى صورة عن نفسها فتجذبني بقوة إليها، لكني أتنطع منها بشبه خشونة، ولا أرضى منها هذا العطف الأمومي السامي الذي يقل من شأني بصورة بلهاء من عطف الجاهلات - استغفر الله - يزدري بقيمتي، وأنا الشاب العصري المثقف! ولا أعرف ما ذا تشعر به من الانكسار القلبي الفظيع إثر هذه الصدمة الشديدة من طفلها العزيز عليها سوى أن أرى - من دون أن أشعر طبعا - وجهها يتجهم، ونظراتها تتحول عني بذبول ولكنه في لطف الأم الحنونة وكأنها تحدثني بلسان قلبها الكليم فتقول « ما أقساك يا ابني العزيز » .

تذكرت هذا المشهد وخارت قوتي الأدبية وتأثرت نفسي من سوء تصرفي السابق ومعاملاتي المزرية الماضية، وصممت أن أكون برورا على من يعطف على، بل على من في قلبه ذرة من الشفقة الإنسانية والعطف البشري والإحساس النفسي بين جنبي، وأن أحاول أن أعترف لها بخطئي السابق وأقوم بكل واجباتي نحوها في غاية الإذلال والخضوع؛ وها هذي عمتي التي لا أشعر بنفسي إلا بين أحضانها، والتي كانت خير مربية بارة عطوفة، بل التي كانت أمثولة الشفقة والعطف، تلك العمة التي سهرت الليالي على راحتي ونومي الهادئ، فكانت تارة تغسل لي رجلي وأنا طريح الفراش سابح في عالم النوم، وطورا تنزع غطاءها في الليلة الباردة تزيده على لكى أدفأ وأكون مرتاحا، والتي طالما ضمتني إلى صدرها بكهربة الأم العطوفة وطالما حرمت نفسها من ملاذ في سبيلي، فإذا أتى البيت شىء عزيز كان نصيبي فيه أوفر من الجميع لأني - كما كانت تقول - أصغر من في البيت.

هكذا كانت عمتي - أو أمي - فهل تراني كنت أقوم بما توجبه على هذه الرعاية وهذه

المعاملة الفذة منها؟ لقد مرض زوجها ثم مات وهى تقول عزاء واحد، هم أبناء أخي الذين ربيتهم والذين لم أعتبرهم إلا أبنائي بكل ما في معنى البنوة من معاني ومدلولات. لك الله أيتها العمة الفريدة ما أحن قلبك وما أرق مشاعرك وما أرعى عواطفك، سوف أحاول أن أكون لك ابنا مخلصا أسعى في راحتك وأخدمك بكل ما أستطيع مما لا أعتقده سوف يفي لجزء صغير مما قمت به نحوي.

لقد أصبحت بعد هذه الغيبة الطويلة كلما خلوت إلى نفسي أتذكر أقوالك ونصائحك فخجلت مما كان يصدر مني في بعض الأحيان من الهفوات، وثقي أني لم أنس أياديك البيضاء على وعطفك الجميل نحوي، وإني بدأت اليوم أشعر بعطف قوي نحوك مما لا أعهده من قبل، وإن هذا العطف يحفزني إلى ضم طيفك إلى صدري ضم الشوق والندم وضم العطف والإقرار بالواجب، ضم الطهارة والأمومة الحانية.

لتصفحي عني فلقد كنت صغير العقل ظننت أن ما كنت تشعرين به ليس إلا عبارة عن تكاليف النساء الباردة، بل لم أكن أدرك أن عطفك مصدره الرحمة البشرية في أجلى مظاهرها وصورها. ولكن هل نحن الأبناء مدركون هذه الحقيقة آملون أن تصفح أمهاتنا عن خطيئاتنا؟

وهؤلاء الخدم لست أدري بما أصف شعورهم وعطفهم نحوي ونحو سائر إخواني الذين نشأت بينهم، فهو شعور أخوى بريء وعطف يدل على طهارة القلب، لم أكن خشنا في معاملتهم أو متآمرا فيهم، بل على العكس كنت أحترمهم وأرثي لحالهم، خصوصا عندما يقصون حوادثهم المفعمة بالمصائب وكيف خطفوا من أهلهم بعبارات كثيرا ما أتألم لها؛ فهذه تقص عليك أنها خرجت مع أمها وذويها للنزهة في بستان، وبينما هى منفردة إذ رأت شخصا يقدم لها من الحلوى فاستسلمت له إلى أن وجدت نفسها على جمل يقطع بها الفيافي والقفار، وكلما بكت واسترحمت أهلها كان السوط على رأسها بأفظع صورة، ويتخلل هذه الحكايات زفرات ودموع حيث تتخيل أهلها في صورة غامضة لكنها مؤثرة

ويزداد حزنها أو بأسها إذا تذكرت أنها في يوم ما سترحم من هذه الصورة بالنسيان.
يأتي هؤلاء الخدم صغيرات وينشأن مع العائلة التي إذا أحسنت معاملتهن كسبت عطفهن وحنوهن وحرمتهن المخلصة؛ أما إذا كانت على غير وفاق معهن فهناك خدمة مرغمة وقلوب جريحة وعيون مدمعة إلى أن تضم الأرض إحداهن.
وصلني أثناء غربتي هذه أن رئيسة الخدم في دار والدي قد أغمضت جفنيها للمرة الأخيرة، فبكى قلبي عليها بكاء مرا وشعرت بوحشة، ولم تستطع نفسي أن تصدق هذا الخبر الذي أنقله إليكم عن وفاة أم أحببناها سواء لمعاملتها لنا أو لحسن درايتها في الأعمال المنزلية، فكنت أرجع بين اليوم والآخر إلى الرسالة التي تحمل بين حروفها وفاتها، وأتطلع إليها لعلي أجد نفسي مخطئ فيما تصورت، ولكن قضى الله الأمر فلا مرد لقضائه.
لقد حزنت لوفاتها حزنا أليما ولست أدري كيف سأجد دارنا بعد فراغها من تلك التي كانت تعمل في وقار وتحادث بتعقل وتستمع في إنصات، بل لقد كانت طبيبة العائلة تسرع إلى كل من يشعر بألم ما، وهي إن لم تكن درست شيئا من الطب فلها ولوع غريب به، فتلبي نداء من دعاها إلى سائر التجارب ومختلف أدوية الأعشاب. رحمها الله وكان في عون سائر الخدم.
... آه والأصدقاء الذين يحتلون نصف ذكرياتي وتأملاتي، وكثيرا ما تذكرت وحنت نفسي إليهم بل كثيرا ما بكيت فقد مر ما يقرب من سنتين على، انقطعت بيني وبين جلهم كل صلة من حيث لا أدري ولا أعرف لذلك سببا ظاهرا، وها انا أعقد أملي بكل ما في نفسي من قوة وما أشعر به من إحساس في الاجتماع القريب مع أصدقائي وتجديد الصلة القلبية بيننا لكن لا بد من الصبر وانتظار ما تفعله الأقدار، فلولا أني شديد الصرامة على نفسي وقوى العزيمة في كبح ما أشعر به لكنت مذهولا بائسا من شدة الاشتياق والرغبة الزائدة في المأرب النفساني الخطر. فها هو فؤادي يتقطع والدموع تهطل من عيني كلماخلوت إلى نفسي وارتسم على ذهني حياتي الماضية حيث كنت أشعر بغبطة

وقوة لا أدري أينهما الآن.

للإنسان صورة متحركة ناصعة الظهور عندما يجلس منفردا ويستعرض فكرة أيامه الغابرة، تلك الأيام التي علقت بذهنه وارتسمت صورتها على مهجة فؤاده، فأنا الآن أشعر بضعف وخوف كبيرين وتستولي على كآبة من الحزن والحيرة، فتصعد الزفرات ثم تتلوها الدموع على الورق وتحول بيني وبين القلم.

ما كنت أظن وأنا في بعادي أن نفسي ستشعر بكل هذا الألم بل، أستغفر الله، لم أكن أتصور هذا الألم وهذه الهموم التي أصبحت تتراكم على وتحول بيني وبين العمل، فلقد كان قلبي متحجرا من ناحية كهذه صلبا على مقاومة تيار العواطف التي تتراءى له، ولكن هيهات بمن قضى الدهر عليه بالفراق، أصبحت أشعر بجرح يزداد خطورة وألما كل يوم عن آخر ويتكاثف بشكل لا أعهده في غير الساعة التي أخذت الباخرة تجري في مياه البحر المتوسط وبدأت أرى من أرض الوطن ضبابا لم ألتفت إليه، وها أنا كلما أغمضت جفني تراءت لي ضبابا في وسطه منارة مخفية لا يظهر إلا رأسها: ذلك آخر مشهد من مشاهد وطني ... وطني العزيز.

أتذكر الآن هذه الحفلة. فإذا ما أقيمت هذه الحفلة بدأت أخرج من هاوية هذا اليأس المشين وندب عروق الآمال في روحي ، ولقد كانت الحفلة جامعة لكل أسباب التنشيط والتشجيع، فما زلت أتذكر أن الخدم أحاطوا بي في صباح « الحذقة » مظهرين احترامهم لي ومحبتهم لي، فغيروا لي ثيابي حيث لبست ثوبا حريريا و (جلابا) أبيض ثم أرسلوا أطباق « السفنج » إلى المكتب، وبعد ذلك ذهبت إليه بحاشية من الخدم والإخوان محاطا بكل مظاهر التبجيل والاحترام، فتقدمت للسلام على الأستاذ فأظهر مزيد سروره بي، وناولته كمية من الدراهم أعطاني إياها أبي؛ وبعد ذلك جلست بين الطلبة الذين تزينوا بأحسن ما عندهم خصيصا لحفلتي، فمدت الموائد وتناول سائر الطلبة الفطور بالسفنج،

وأرسلت كمية منه إلى دار الأستاذ، وعند الانتهاء قرأنا الفاتحة وبعض آيات مباركات، وعطل الأستاذ الدراسة طول ذلك اليوم احتفالا بحذقتي، ورجعت إلى البيت وأنا شامخ الرأس قوى العزيمة فاقتبلني الأهل وقبلتني أمي وعمتي وسائر الإماء، وأحاط بي إخواني وأبناء عمي والجيران، وقضيت طول ذلك اليوم نلعب ونمرح والكل تحت رئاستي وأنا المتأمر في الجميع حتى أن إخواني طلبوا من رئيسة الخدم شيئا فلم تود تلبية طلبهم، فلما طلبتها في ذلك أسرعت بتلبية طلبي وذلك إظهارا لتفوقي وإعجابا بي.

وهكذا مر يوم « حذقتي » وأشعر أني ولدت فيه من جديد حيث كان البؤس مخيما على نفسي وأنا دائما خامل الذكر من كثرة الاعتناء وعدم تحمل أي مسؤولية، ويحق لي إذن أن أفتخر ببعض العوائد عند المغاربة إذ تدل على تعلق كبير بالعلم والرغبة في تشجيع ذويه وأيضا تدل على اهتمام بتربية النفس وتشجيعها بالطرق الأدبية لا بالزجر والأمر دون غيرهما كما نتوهم ونعتقد نحن الشباب الذين ننتقد كل ما له صلة بالحياة القديمة.

لا أتذكر غير هذه الصور الثلاث عن طفولتي الأولى يوم كنت أدرس في المكتب المجاور لبيتنا. إن لها أثرا قويا على نفسي؛ ففي الأولى كانت أول صدمة لي أخرجتني من عالم العائلة إلى عالم آخر؛ وفي الثانية تدل على ضعفي النفساني؛ والثالثة تدل على تطور نفسي وغرس الثقة بها.

لم تطل مدة دراستنا في هذا المكتب؛ فلقد ظهر لوالدنا أن يأتي بأستاذ يدرسنا في البيت على حدة، ولست أدري الأسباب التي أبدت هذه الفكرة لا بد وإنما جاء بها لئلا نختلط بالتلاميذ ولنتربى تربية راقية ...

إذن، صار الأستاذ يدرسنا في إحدى غرف البيت، وأشهد أن هذا الأستاذ البدوي كان رقيق الطبع؛ فرغما من أن أبي كان يأمره باتخاذ الشدة معنا والصرامة في الدراسة فقد كان متساهلا. وما زلت أتذكر عن هذا الدور من الطفولة جملة حوادث يضيق المقام بسردها الآن ولكني أكتفي بحادثة أثرت في نفسي تأثيرا كثيرا ، ولا ريب أنها لحد اليوم تؤثر في

نفسي تأثيرا غير مباشر، فلقد كنت في طفولتي كثيرا ما استسلم للتفكير وللاحظة ما أشاهد ، فلماذا هذا السقف مرفوع وهذه السارية، ولماذا يوجد بعض الشقوق في الحيط وما أشبه ذلك، وكان يظهر لي أثناء ذلك التفكير عدة ملاحظات قد تكون سخيفة ولكنها تدل على دقة ملاحظة. وفي صباح يوم باكر ذهبت للدراسة في غرفة البيت، وبعدما قبلت يد الأستاذ جلست في محلي مع إخواني وحملت لوحي، وبعد هنيهة نام الأستاذ، فاغتنمت تلك الفرصة وحملت عدة « ديسات » ووضعتها على اللوح وصرت أفكر وأقارن كل واحدة مع الأخرى، ثم جعلت جانبا من كل واحدة على ذنب الأخرى ثم اكتملت حلقة وهناك بدأت أفكر أني لو ضربت على واحدة سوف يهتز الجميع، وخيل لي أنني أستطيع أن أكشف من هذا الاهتزاز حركة خفية مجهولة، فشعرت بخفة في نفسي ونشاط في روحي لم أعهدهما من قبل وأكببت أدقق تلك الديسات والارتباط بينهما بشيء كبير من الاهتمام والرغبة القلبية، واستيقظ الأستاذ من نومه وانتبه إلى انشغالي وتمحيصي فتطلع إلي وتطلع كذلك إلى سائر الإخوان إلى ما أقوم به وأنا عنهم غافل منهمك في أعمالي، ثم إني بدأت أنطق بما أتصور سيحدث من اهتزاز هذه الديسات فأقول عندما تتصل هذه الواحدة بهذه وهكذا وأحرك الأخير بيدي يحصل فرقعة كبرى وأمثلها بلساني، وهناك يحمل الأستاذ العصا ويضربني وأحس باصطدام هائل في نفسي وترتعش فرائصي ولا أدري ماذا حل بي اعتقادا منه أنه لو فسح لي في العمل دقيقة واحدة لاخترعت شيئا مهما.

هذه حادثة وقعت لي فيها أول صدمة مع تفكيري الحر ونظام الدراسة أسجلها وأترك التعليق عنها لفطنة القارئ اللبيب.

وفي مقدمة الجزء الثاني من الكتاب المذكور، أدلى الأستاذ أبو بكر القادري بارتسامات أخرى رسمها السعيد في ذكرياته كما يلي:

« هى ذكريات غامضة، تكتنفها سحب من النسيان تارة، وتجليها صور من الانفعال طورا، بل إنها لشديدة الأثر على نفسي، بعيدة المدى في أغوار عاطفتي، فكلما خلوت إلى نفسي لتناقشني وأناقشها الحساب، تراءت لي أشباح تلك الذكريات، وكانت زفرات تتصاعد من أعماق نفسي الملتهبة بنور الحياة، ووهيج من الماضي السحيق الذي يطوي عمري في لحظة، ويتناسى ما مر بي من حوادث، ليستقر على عهد طفولتي، ويداعبني في مرارة، فإذا ما استجمعت قواى من هذه الجولة القصيرة العميقة في حياتي، ارتسمت على شفتاى ابتسامة تكون خاتمة هذا الانفعال ولو إلى حين.

... ولعلي الآن وأنا أحاول أن أسجل بعضها لا بصورة حقيقية رائعة كما هى في مشاهد مخيلتي، أرمي إلى فكرة تخليد هذه الذكريات بعد موتي إذ لا أعتقد أنها ستنسحب من ذاكتتي ولو في أعصف يوم سأبارز فيه لأفوز في ميدان الحياة، فلها ساعات ولمواصلة الجهاد الإنساني بقية الساعات.

... أتذكر عندما كنت أهجع في النوم بعد الغروب بقليل، لا تعبا من حرارة الأطفال التي تتولد من مقاومتهم الصبيانية الجميلة، وألعابهم التي هى مظهر من مظاهر حيويتهم ونشاطهم، بل استسلاما لكرى مصدره الخمول وابتعادا عن مصادمات وليدة النفعية التي تتجلى في الأطفال، وينبغي أن تتجلى فيهم. فإذا ما دنت التاسعة ليلا، كان ذوي انتهوا من العشاء، وبدأت سهرتهم، فيتجاوب الحديث، ويرن صداه إلى، فأشعر بيقظة، ولكني أتعمد النوم خشية من هؤلاء الأفراد الذين لم يكن بينهم إلا ذوي، ومن أراهم صباح مساء، فتدور مذاكراتهم وأحاديثهم إلى أن تستقر على وأنا منصت، وهم يرون على وجهي سبحات النوم التي أصطنعها بباعث الخوف والحياء، فأرجو أن أسمع منهم كلمة طيبة تنقذني من هذه الأوهام والوساوس، وأتمنى أن يكون حديثهم عني كحديثهم عن إخواني وأبناء الجيران، فأتساوى معهم، لأني أشعر بضعف تام عن مجاراتهم ولو في أتفه المسائل، فتراهم يتحدثون، فتختلف نظرياتهم في عدة مسائل، لكنهم لا يختلفون بأني

خامل، فاقد لروح النشاط، وأن مستقبلي في يد الأقدار، وحياتي في مهب الرياح، وأن ضعفي سبب شقائي وكآبتي، فأشعر بضيق، وأرى الحياة مظلمة، وأرغب في الموت والاستراحة من عناء المسؤولية في هذه الحياة ... والنساء أيضا، كيدهن عظيم على أنا الصغير الضائع في مهب الرياح، فالذي يشعر إلى درجة يتمنى معها أن تطويه الأرض بين طياتها، لن يقوى عن مجابهة النساء وبريق وجوههن، وخفة روحهن، وجاذبية حديثهن، فلقد كنت جبانا أمام كل الأفراد، فكيف تتصور موقفي أمام سيدة في وسط يرى الإنسان المرأة فيه نادرا، ويراها متحلية بجمالها اندر الندور، بل رابع المستحيلات، إلا الساعة التي يرى فيها زوجته، وكيف تتصور موقفي عندما تفاجئني سيدة، كلها جمال، وتقبلني في لطف ومداعبة، ثم تتحدث إلى قائلة: ما أجملك يا بنى! وما أشد احمرار خدودك! فتسائلني دون أن أدرى جوابا، وترشقني بعيونها، فأشعر بنبضات فؤادي تتزايد وتقوى وتشتد كلما طال حديثها إلى ...

وأنتقل إلى الحديث عن نفسيتي وإحساساتي عندما أرى أخي محمد. كنت ضعيفا في كل الميادين، لا أقوى على مواجهة أي أمر مهما كانت صبغته، وكنت أمثل في ضعفي هذا رجلا بائسا مستسلما للأقدار وتصرفاتها، لا أعاند كما ينبغي للأطفال أن يعاندوا، ولا أتشبث برأى، بل أدع ذلك إلى مجرى الحديث حيث غالبا ما أنتصر ظاهريا إلى رأي القوى. وأشهد الآن أنه لم يكن بين أفراد عائلتنا فرد يتساوى مع أخي محمد، في قوة النفس، وصرامة الفكرة، وسرعة التنفيذ، ولا أبطش فيهم بمن يخالف فكرته، فكان دكتاتوريا في جماعتنا الصغيرة، ومسيطرا في بيتنا في غير رهبة، بل في جرأة كنت أشعر باحترامها رغم نفوري منها. لكن طبيعي، وأنا لا أقوى على شيء، أن أكون مع أخي القوى، ضعيفا مستسلما لمشيئته وهواه، لا حبا فيه أو اعزازا له بل لأني أشعر في أعماق نفسي بجبروته، وأحس أن نبضاتي تتزايد بحضوره في المجلس ».

الأدب - مراميه وآفاقه

جدير بنا ونحن نشاء أن نتناول الحديث عن تاريخ الأدب العربي ونحلل مميزاته في كل عصر ونتبين عوامل ازدهاره أو انحطاطه، أن نقف هنيهة نتساءل عن الأدب وعن إيجاد تعريف نتفق عليه ونتخذ منه أساسا لبحثنا في هذا التاريخ الطويل للانتاج الفكري لدى مختلف الأمم التي نطقت بالضاد، وجدير بنا أن تكون هذه الهنيهة درسا يطول أو يقصر، ولكنه درس نهتدي به إلى تفهم ما سندرس ونتذوق ما نشاء أن نستعرض من صور وألوان لهذا الأدب العربي الذي تطاولت عصوره، وتقادم عهد ولادته، فإذا بعصوره تزيد عن خمسة عشر قرنا مضت، والظاهر أن قرونا وقرونا ستتوالى عل هذا الأدب وصوره البارزة حين لا تزداد إلا قوة وإلا تعبيرا عن الحياة. أما عهد ولادته فليس من اليسير أن نهتدى إليه، ونستريح إلى رأي جازم عنه، بأننا لم نهتد لهذا الأدب من عهد تكوين نسميه عهد ولادة، وإنما نجد مهما تعمقنا في تاريخ الأمة العربية أن هناك أدبا قبل الهجرة النبوية بنحو قرن ونصف أو أزيد، لا تظهر عليه أثر الطفولة بمقدار ما تتجسم فيه آثار النضوج. إذن فنحن نشاء أن ندرس آثار نظر من أنظار الحياة الإنسانية الحافلة، ونرغب أن نتعرف إلى هذا المجهود الذي تعاونت على إبرازه عقول ناضجة وعواطف حية، ومن هنا لم تكن هذه الدراسة بالشىء الهين، فهى لا تشاء أن تقتصر على ناحية تتخيل لنا إذا ما تصورنا لفظة الأدب، ولكن تشاء أن تضم المجهود الفكري إلى أحضانها وتكون منه ومنها وحدة؛ فنحن إذا ما تصورنا لفظة الأدب تخيلنا الكتابة الفنية وشعر الشعور والأمثال وما يشابه ذلك من ألوان هى من الأدب وللأدب تنتسب. ولكن ليس هذا بالشىء الذي نجده أمامنا إذا رمينا بأعيننا إلى دراسة لتاريخ الأدب العربي، بل نجد كل الآثار الفكرية تنطوي تحت كلمة « الأدب » ولكن ليس معنى ذلك أن عجز الدارسين

للأدب العربي والمصورين لتطوراته عن التفريق بين الأدب الخالص وبين التفكير الخالص هو الذي أمر بنا إلى أن يتسع ميدان الأدب ويتسع صور التفكير بجانب صور الشعور، ولكن معنى ذلك أنك لا تقوى أن تجد فرقا جوهريا بين الناحية الأدبية وبين الناحية الفكرية خصوصا في الماضي حيث لم تكن لتظهر الناحية الفكرية خالصة ولا الناحية الشعورية خالصة مثل ما يتراءى لنا اليوم فنستطيع أن نجد للأدب ميدانا وهو غير ميدان العلم. فمدلول تاريخ الأدب مدلول يتسع تارة حتى يشمل كل الآثار التي ورثناها عن الماضي، ولكن هذا الشعور لا يحول بيننا وبين أن نسعى لنجد تعريفا واضحا للأدب، تعريفا ينير لنا سبيل التميز بين الآثار الأدبية والآثار الفكرية فنعمل على تفهم وتذوق الآثار الأولى والاتصال بالآثار الثانية لنعرفها أولا ولنعرف تأثيرها في الأدب ثانيا.

تعريف الأدب

ولأجل أن نصل إلى تعريف للأدب من أقرب الطرق، ينبغي أن نهتدى إلى الميدان الذي لا يمكن للعلم أن يخوض فيه إلا باحثا ؛ أما الأدب فيعتمد عليه في كل شىء ليمده بحيوية وخصوبة هذا الميدان الذي تتجلى فيه العاطفة بكل ما تزخر به من انفعالات وإحساسات، بل يعمل على تلمس تلك الانفعالات والإحساسات والاندماج في تأثيرهما والغوص في أعماقهما. وهكذا نستطيع أن نجلى حقيقة الأدب بأن نصوره معبرا عن هذه الإحساسات الباطنة التي نتحسسها تارة في رفق وطورا في عنف دون أن نصل إلى مصدرها ولا ندرك أين حيزها من نفوسنا مهما تعمقنا في فلسفة الحياة ومهما حاولنا أن نتصل بالعلم ليدلنا على جرثومتها الأولى.

ولكن ليس هناك من ريب أن التفكير يمد تعبيرنا عن هذه الإحساسات بكثير من عناصره، وهناك تختلط الحياة العقلية بالحياة العاطفية، وهنا يصعب التمييز بين كثير من

الإنتاجات هل تعتبر من الأدب أو لونا من ألوان التفكير. على أنه يجب أن نلاحظ أننا لا نجد فرقا واضحا تمام الوضوح بين عقل الإنسان وعاطفته بالإنسان، إنما اصطلح أن يصور بعض أعماله التي مصدرها القوة المميزة التي تقارن، تنسج باعتبارها حاسة عقلية، ويصور بعض أعماله التي مصدرها الميل الغريزي التي ترمي إلى نوع خاص من الحياة بالحاسة العاطفية.

مرامي الأدب

فإذا تصورنا جيدا بين أن الأدب والبواعث الكامنة التي تدفعنا أن نكون أدباء في بعض الأحيان، فمن الضروري أن نسعى في تفهم المرامي البعيدة التي يصورها لنا هذا الشعور الأدبي الذي يخالجنا. هذه المرامي التي تنير لنا مهمة الأدب في الحياة ليست متفقا عليها لا يخشى اللبس أو الخباء وإنما هى مرامي عميقة في أغوار نفوسنا ندركها ونشعر أن الأدب قد أدى وظيفته متى عبرنا عن خلجات أرواحنا أو استمعنا إلى تعبير من خلجات الغير فتذوقناها وشعرنا بصداها يرن في إحساسنا.

وفي رأيي أن هذه المرامي تنحصر في ثلاثة نقط:

أولها أن الأدب يسعى في تصوير الحياة من طريق التعبير عن جزئياتها الخفية ووصف مظاهر الوسط وأحوال المجتمع وصفا صادقا، فإذا بالأدب مرآة ترى بواسطتها الأجيال القادمة حياة السلف فتتمثلها جيدا وتدرك المؤثرات عليها ومميزاتها.

وثانيها أن الأدب يحاول دائما أن يعبر عن كثير من الإحساسات التي تضطرم في أحشائنا وتختلج في نفوسنا وتثور بها عواطفنا، فليس من وظيفة الأدب أن يحلل لنا نزعات النفس أو تأثيرات العاطفة تحليلا علميا، بل وظيفته الرئيسية أن يبين عن تلك الإحساسات كما هى ويريها للملإ في صورة صحيحة، تلك الإحساسات التي ينبغي أن

نصرح أن العلم رغم تقدمه العجيب ورغم جولاته المدهشة لم يتصل بها ولم يحللها إلا من طريق احتمالات يعبث بها الظن وتتجه بها التجربة في كثير من جهات الخطإ.

وثالثها أن الأدب يكون منا أفرادا لتذوق الجمال بواسطة شعور سام نتلمسه في صميم أحشائنا ويخفف من غلواء العاطفة التي يبعثها فينا الجمال الإنساني ويصرف تلك القوة في طريق من الإحساس عميقة لا تنعدم متى انعدم ذلك الجمال في أعيننا، بل تتجدد على صفحة أرواحنا كل حين ويخلد آثارها على مر العصور.

فوظيفة الأدب أو مهمته تسعى أن تحيط بالجمال المطلق وتدمجه لا بأجسامنا ولكن بأرواحنا. بماذا يتأثر الأدب؟ وبماذ يؤثر؟ لست من الذين يتصورون أن السياسة هى وحدها التي تتجه دائما بالأدب وتجعل من عصورها عصورا متى ازدهرت ازدهر ومتى تراجعت إلى الوراء تراجع، لست من هؤلاء الأفراد ولست ممن ينكر تأثير السياسة على الأدب مثل ما يؤثر كل شيء في الأدب ومثل ما يؤثر الأدب في كل شيء. لا غرو أن تأثير الأدب بكل شيء وتأثيره في كل شيء فهو الآلة الحساسة التي تسجل لنا نبضات الأمة. فالسياسة تؤثر في الأدب كما يؤثر كل شيء في الأدب، فما هو الشيء الآخر أو بالأحرى ما هى العوامل التي تؤثر في الأدب غير عامل التطورات السياسية؟ وليس من الهين أن نحاول أن نعدد المؤثرات في الأدب فهى عديدة تنوعت واتصلت حينا بالفرد وحينا بالجماعة.

اتصلت بالفرد المبدع في الجو الأدبي، وبهذا الفرد الذي يوحي الإبداع للأدب وبهذا الفرد الذي يشمل هذا الإبداع بالعطف والتشجيع وأخيرا بالإعجاب وبهذا الفرد الذي يتولى ميزان النقد بفكر أو يصد به إلى هذا الإبداع ليزيف زائفه ويصحح صحيحه.

واتصلت بالجماعة في حركتها وجمودها في تفاؤلها وفي تشاؤمها اتصلت بالجماعة في اتجاهاتها وتقاليدها ومراميها.

اتصلت بالجماعة في هذه التيارات التي تأخذ الأمة في مجراها من أديان وعلوم ونظريات.
اتصلت بالجماعة في هذه المقاييس التي تحيى الأمة فيها وتحيى لها مقاييس في تقدير كل شيء وتقدير الجميل من الأشياء بوجه أصح.
اتصلت بالجماعة في هذا المحيط من الطبيعة التي تعيش فيه وفي هذا الجو الذي يشتد غيظه في الصيف وزمهريره في الشتاء أو يعتدل.
ولعلنا نطيل إذا شئنا أن نستعرض هذه المؤثرات، فالأجدر بنا لنختصر أن نعلن أن كل شيء يؤثر في الأدب، كل شيء يسود الأمة ويسيطر على الجماعة ويتجه بالفرد اتجاها ما في الحياة، بل نود أن نفهم أن كل شيء يضم تحت سمع الأدب أو بصره أو حسه إلا وله صدى في إنتاجه الأدبي، صدى قد يكون عميقا رنانا قويا بارزا، وقد يكون خافتا يتأثر بدورة من دورات الأرض، ولكن لا بد له أن يترك أثرا في العقل الباطن في النفسية الحساسة للأديب.
فإذا سعينا في تفهم شعور أديب أو النظر إلى إنتاج أدبي أو مدرسة أدبية من الضروري أن لا نقتصر على درس التقلبات السياسية التي سادت في العصر، بل يفرض علينا البحث الأدبي أن نهتم بكل شيء يتصل بالجماعة والفرد في ذلك العصر، فإن أعوزنا أخبار الماضي فلم تصلنا إلا بمعلومات سطحية عن الجو الذي عاش فيه الأدب أو المدرسة الأدبية؛ على الأدباء والعلماء أن يتخيلوا وأن تجول تصوراتهم في عالم الفرض والاحتمال ليدلونا على المؤثرات على ذلك الأدب أو تلك المدرسة إذ تتراءى لهم تلك المؤثرات من خلال فحص وتذوق الإنتاج الأدبي نفسه فلا ضير على الأديب إذا مد حياة الماضي التي انقطعت بيننا وبينها الأسباب بحياة من نفسه وعبقريته بالتصوير الصادق والخيال المنسجم.
وإذا كان الأدب يتأثر بكل شيء فإنه يؤثر أيضا في كل شيء، ومعنى ذلك أن للأدب مهمة في الحياة يسعى دائما في أن يؤديها ويبلغها، فنفس الأديب تضطرم بعدة خواطر وتموج بكثير من عناصر الخير المحمود والشر المحجوب، تضطرم لموج فيهتز ما في الوسط من

تيارات وتتأثر بالرنين الذي يبعثه الأدب من أغوار نفسه.

فإذا رأيتم انقلابا سياسيا خطيرا، فلا يبعد أن يكون الأدب لعب الدور الرئيسى على مسرحه، وإذا رأيتم نهضة فكرية تصوروا أن باعثها الأول أدب ينشد مثلا من المثل ويعمل لغاية من الغايات ، وإذا تحسستم دبيب الحياة يسري في وسط جامد فتيقنوا أن الأدب يعمل عمله في الأموات كما يعمل في الأحياء، فإذا هو يحيي الأرواح ويعيدها إلى الأشباح التي ابتعدت عن الحياة أمدا ما.

آفاق الأدب

أية ناحية يتناولها الأدب؟ وأية ناحية لا يتناولها؟ بجواب هذا السؤال نستطيع أن نتصور الآفاق التي يصير إليها إحساس الإنسان في الجو الأدبي؛ فالأدب يتناول كل ما تتناوله الحياة والناحية الشعورية منها بوجه خاص، ولكن بأية صورة يتناول الأدب ما تتناول الحياة؟ تلك الصورة هى الوصف للوصف والتعبير للتعبير، الوصف لما يشاهده الأدب من مظاهر الحياة فترتسم على صفحات قلبه، والتعبير عن هذه الإحساسات التي تطغى على نشاط الإنسان ذي الشعور الحى وتفيض عنه بقوة مجهولة المستقر في نفسه.

فالأديب لا يتناول ناحية واحدة من نواحي الحياة ولا يشتمل طبقة خاصة من طبقات البشر، فإنك إذا كنت ذا حظ من النفس الحساسة وذا شاعرية تتيح لك أن تعبر فتجيد التعبير وتصف فتبدع في الوصف وجدت أينما التفت صورة تبعث في نفسك تأملات وسبحات وزفرات هى الأدب الفطري بأجلى معانيه، فإذا صورت هذه التأملات وهذه السبحات وهذه الزفرات تصويرا يخلد للأجيال كنت أديبا خالدا دون أى اعتبار للناحية التي أثارت في نفسك هذه الموجات من الشعور الفياض.

المعرفة الإنسانية

في نظر البحث الحديث

عن مجلة « المغرب » الشهرية الصادرة بالرباط

تحدث كلمة « المعرفة » دويا ونبرة خاصة في أذن الذين اتصلوا اتصالا قويا بالحياة الصوفية وروحانياتها، فالمعرفة في كلام الصوفيين كلمة ذات سعة وعمق لا يمكن أن يحد بمقياس علمي ثابت وإنمايتصل بأعماق ما في القلب الإنساني من إحساس بالحياة المثلى، ولن أحاول أن أتحدث إليكم الليلة عن المعرفة في هذا الجو الروحي السامي، إذ أعرف أني مهما بذلت من مجهود في إيضاح ما ترمي إليه هذه اللفظة ذات السبعة حروف من رموز ومدلولات خانتني شاعريتي ووجدت نفسي بعد أن يجول بى القلم ما يجول في الحد الذي ابتدأت منه ذلك لأن المعرفة لدى الصوفيين قبل أن يحاول المرء أن يصورها في ذهنه من طريق التعاريف والتحديدات المختلفة لا بد أن يكون ذا ذوق سليم وذا بصيرة لا تكتفي بما حواليها بل تخترق الحجب، فإذا بالإنسان أمام الجمال المطلق وأمام حالة خاصة لا يدركها هؤلاء الأفراد الذين لم يتصلوا بالتصوف إلا من طريق الدراسات الجافة، فلن أحاول إذن أن ألج بنفسي وبكم في هذا الميدان الذي لا باب للخروج منه، بل إنه لميدان مستدير نسير فيه من اليمين إلى الشمال، فلا تلبث أن تكون في اليمين بعد قليل كأنما هى حياة لا أول لها ولا أخير؛ ومتى كان العالم يزخر ويموج بهذه الأنوار التي تضيء النفس وتميت ما فيها من إحساسات شريرة أو خيرة؟ ولكن إذا خشينا أن نتحدث عن المعرفة في عالم التصوف وعالم الروح فلن نخشاها في عالم ثان له مقاييس ثابتة واصطلاحات معروفة يستطيع كل شخص أن يمتحن استعداده فيه فلا يفشل وفي عالم لا

يتعمق في الحياة إلا بمقدار ما هو مشاهد ملموس ولا يغور إلا والطريقة مضاءة كأنما لا غور.

هذا العالم لا بد أنكم عرفتم اسمه من أول وهلة، فليس هناك شيء حددت جوانبه وقصت أطرافه مثل العلم، وعلم مدنية اليوم بصورة خاصة، حيث أصبح واضحا لا يتاح للمرء أن يتيه فيه ولو لحظة.

فلنحاول أن نصور في أذهاننا صورة عن المعرفة الإنسانية كما تتراءى للبحث الحديث الذي هو أساس المدنية الغربية الحاضرة فلن نصادف في طريقنا صعوبة في الموضوع إلا صعوبة الدرس، إذن لنساير العلم لحظة في أن يحدد لنا المعرفة ويميز أقسامها كأنما هو يحدد ويقسم مادة من هذه المواد التي نلمسها بأيدينا، وفي محاولة العلم هذه متعة للفكر وسبر لمجهوداته في الكشف عن خبايا الحياة من طريق التجربة والتعليل المادي.

والبحث الحديث لا ينظر إلى المعرفة إلا باعتبارها نتاج الإنسانية في مختلف أطوارها التي درجت عليها في الماضي وتدرج عليها اليوم؛ هذا النتاج صورة يتناولها الباحث ويمعن النظر فيها ويقلبها من وجوه ثم يبدي فكره، ومن خلال الأفكار التي أبداها جماعة المفكرين استقر الرأى العلمي أن ننظر للمعرفة هذه النظرة ونصورها زبدة لما وصل إليه الإنسان سواء من طريق الشعور والإحساس أو من الاستنتاج العقلي أو المنطقي أو من طريق التجربة والاختبار.

ومن هنا جزئت المعرفة ثلاثة أجزاء واستطعنا أن ندخل مختلف الصور التي تعرض للمرء في سائر أطواره الظاهرة في هذا التعريف وهذا التقسيم ونمزج كل ما يقدمه الفكر الانساني من إنتاج في دائرة نسميها « معرفة بشرية ».

ولم يستطع العلم أن يضع حدودا فاصلة بين أجزاء المعرفة لدرجة يصبح فيها اللبس بين تلك الأجزاء أشبه شيء بالمستحيل، وإنما استطاع أن يميز الجزء عن الآخر تمييزا تتصوره كما تتصور كل شيء في العالم النظري للعلم.

وأول جزء من أجزاء المعرفة تلك القوة المبدعة التي اصطلحنا أن نسميها بالفن، قوة يدعها الله في بعض الأفراد، فإذا بهم يضعون للإنسان النماذج العليا لمختلف صور الحياة، فيبدعون في الوضع ويسامون في الابتكار، فهم رسل، رسالتهم الجمال يتلمسونه في كل محاولاتهم ويسعون إليه في كل خطواتهم وتختلف وسائل تأديتهم لهذه الرسالة، فمنهم من يؤدي رسالته عن طريق الشعر حيث يكون من أبياته صورة حية تراها تسير وتراها تضطرم بما تضطرم به صور الحياة الإنسانية؛ ومن الفنانين من يؤدي رسالته عن طريق الرسم ، فإذا بك أمام صورة تراها فترى فيها سرا من أسرار الحياة ولا تستطيع أن تتفهم هذا السر أكثر من أن تلفظ كلمة في نفسك هى « الجمال » ؛ ومنهم من يتخذ من الصخرة الصماء وسيلة لإبراز فكرة في نفسه، فإذا بتمثاله يكاد يتكلم ويكاد يسير، وهكذا بقية الفنانين فهم يعبرون عن مكنون نفوسهم ويرسمون تلك الصورة التي تتراءى لهم في ساعة إلهامهم.

وإذا انتقلنا إلى الجزء الثاني من أجزاء المعرفة الإنسانية أو أجزاء النتاج الإنساني في نظر البحث الجديد بالأحرى فعلينا لنهتدى إليه أن نفكر في هذه القوة التي تحضنا أن نقارن وأن نستنتج وأن نتلمس العلل النظرية لما نشاهد في يومياتنا من حوادث مختلفة وصور متباينة ربما كانت مقدماتها واحدة؛ فهذا الباحث في فلسفة التاريخ وذلك المحلل لشخصية عظيم ، وذلك المفكر الاجتماعي العميق التفكير كلهم ندخلهم ويدخلهم البحث الحديث في صف الأدباء ويعتبرهم أفرادا ليسوا ذوي حظ كبير من سعة الفكر وسعة التأمل والاستنتاج ينزوون في زاوية، فإذا بزاويتهم عالم يموج فيه فكرهم وتأملهم فيهتدي إلى آراء يكن لها في الغالب قيمة في الحياة العملية كما لها قيمة كبرى في عالم النظريات.

وإذا تلمسنا الجزء الثالث وهو الأخير لم يصعب علينا الاهتداء إليه ولا تغالطنا التعريفات في طريقنا إليه، فهو العلم التجريبي الذي لا يعتمد مطلقا على الاحتمالات بل يتجرد في كل شىء ليشاهد ويجرب ويحلل العناصر تحليلا تاما ثم يرد كل عنصر منها إلى أصله،

فإذا بك في ميدان البحث العلمي الصحيح أمام عناصر أولية لا يشوبها مزج ولا اختلاط، لكن العالم يقف أمام تلك العناصر بعد عملياته العجيبة حائرا مندهشا يسائل نفسه ما مصدر هذه العناصر البسيطة هل أستطيع أن أهتدى إلى تعليل لوجودها أو تعليل لما فيها من قوة تنفعل وتتجاذب فلا يجد أمامه إلا باب الاحتمالات فيلجه مرغما.

هذه أجزاء المعرفة الإنسانية في نظر البحث الحديث، فأية صلة تربط هذه الأجزاء وأى إحساس يشعر به الفنان نحو أخيه العالم أو الأديب نحو أخيه الفنان؟ فمن الغريب أن تتراءى لنا مخاصمة تلوح في الجو بين الآونة والأخرى بين رسل المعرفة فيتفاضلون كأنما هم أطفال في ساحة يلعبون، ولكن هى الحياة سرها النزاع وعوامل تقدمها حب الذات، وإلا فأية منافرة نستطيع أن نتصورها بين أجزاء المعرفة حتى أنه يخيل للعالم في بعض الأحيان أن يضمر عداوة لأخيه الفنان أو الأديب، ويخيل لهذين عداوة بينهما، فمن الغريب أن نسمع في عصرنا وهو عصر المعرفة والسعة الفكرية من يتصور أن العلم يقضي على الفن، والأدب يتلاشى أمام البحث التجريبي إلى غير ذلك من الآراء السطحية التي تصور المرء كأنما للحياة الإنسانية ناحية واحدة ليس من المستطاع أن تخرج عنها يراها العالم في معمله والأديب في فكره والفنان في خياله، أما الذين أوتوا نصيبا من حرية النفس ونستطيع أن نسمى هذا النصيب بالشمول الفكري فهم يرون أن كل جزء من أجزاء المعرفة متمم للآخر لا يمكن للحياة أن تسير دونه، بل نستطيع أن نرى في العالم فنانا خياليا وفي الأديب عالما تجريبيا دون أن يندمج الأول في الثاني ولا الثاني في الأول.

فالعالم أيضا قبل أن ينكب على معمله وتجاربه تتراءى صورة أمام نظره فيعمل على إبرازها للوجود فتشغل آلات وتميز عناصر ويرى بمجاهير، بينما الفنان يستعمل في إبراز صورته الخيالية الريشة أو المنقاش أو آلة الطرب، وبينما العالم يستوحي عقله وتجاربه في تجميل صورته إذ الفنان يستوحي إلهامه وشاعريته والأديب يناجي فكره وجولاته، وكل يؤدي رسالته للحياة وهو مطمئن ثائر، مطمئن على نفسه، ثائر على المجتمع إذ يسعى في

كل محاولاته أن يقفز به خطوة إلى الأمام ويريه من صور الحياة التي لا علم له بها والتي لا يمكن أن يصل إلى إدراكها دون هؤلاء الأجزاء الثلاثة.

إذن لا نستطيع أن نفهم جيدا ما تعني به جماعة من الكتاب السطحيين من وجود شيء يسمى منافرة أو عداوة بين أجزاء المعرفة الثلاثة الا أن تكون هناك منافرة بين العالم الحيولوجي والطبيب حيث أن ما بين أيديهما من وسائل البحث مختلف ومتباين بينما غايتهما واحدة هى البحث عن أسرار الحياة الإنسانية، وما غاية الفنان أو الأديب إلا حصول الانسجام بين أجزاء تلك الأسرار وربطها بالإحساس البشري ووضعها في حيز الذوق المعنوي.

فالروائي مثلا شخص يجمع في نفسه وإنتاجه بين روعة الخيال الفني وجزالة الأسلوب الأدبي وآراء العلم المؤيدة بدعائم التجاريب والأبحاث العملية، بل إن الأديب والفنان عندما يبلغان قمة المجد والنبوغ كثيرا ما يكشفان حجبا عن النفس الإنسانية وعن أسرار المجتمع لا يستطيع العلم أن يدركها بطرقه إلا بعد أجيال، ولنا في شعرائنا وأدبائنا وشعراء وأدباء بقية الأمم خير مثال.

فالشاعر ليس بذلك الرجل التائه في بيداء الخيال كما تزعم طائفة من المشتغلين بالعلم التجريبي بل هو الرجل الذي يتصل حسه وشعوره بالوجود من طريق تلك العاطفة التي هى جزء من أجزاء النفس البشرية، فإذا بالشاعر يضع من طريق شعره النماذج التي ينبغي أن تكون مثلا حيا لما في النفس من نزعات متضاربة لم يتصل العلم بها اتصالا متينا ولم يحللها إلا تحليلا بسيطا وهكذا سائر الفنانين يعبرون عن هذا الجزء الغامض من نفس الإنسان بينما العلم لا يجرؤ أن يقدم لنا تحليلا نرضاه عن ذلك الجزء من نفسنا.

هكذا جزأ البحث الحديث ما يسمى بالمعرفة؛ أما لو أحببنا وحاولنا أن نأخذ كل جزء من تلك الأجزاء ونحصى ونرتب ما يتفرع عنه لاضطررنا ولا ريب إلى أحاديث في سهرات أخرى، فالمعرفة اليوم تنوعت أكثر من ذي قبل وهى في نمو مدهش متواصل، فلا تمر

مناسبة دون أن يستولد البحث علما جديدا ويبنى له دعائم وأساليب التفكيربه، أما الأدب فقد اتسع ميدانه وشمل مباحث كانت تعد بالأمس القريب من صميم العلم ومباحث جديدة لم يعهدها آباؤنا الأولون، وأما الفن وأساسه الوحيد الخيال والإحساس فلم يتنوع ولم تزدد فروعه زيادة محسوسة وإن كان النابغون الفنانون خطوا به في عالم النضوج الصحيح وتأدية رسالته المثلى للبشرية وتعبيره عن الإحساس الإنساني خير تعبير.
على أننا لو فكرنا أن نضع تخطيطا لما يشتمل عليه كل فرع من تلك الفروع لكان مجهودنا عبثا بعد سنوات لأن الحياة الفكرية للإنسان في تطور مستمر ونمو متواصل، ولقد سعى الفلاسفة أن يحصروا العلوم ويصنفوها ويرتبوا مراتب الإنتاج الإنساني في العهد الماضي، وفي المكاتب اليوم مؤلفات لهذا الغرض ذاته لا ننظر إليها الآن إلا من ناحية تاريخية بحتة لنرى كيف تطور نظر الإنسان فيما ينتجه.
وكلمة ختامية آتي بها متسائلا: هل هذه الأجزاء الثلاثة للمعرفة تعبر عن كل ما تستطيع نفس الإنسان أن تغور فيه، وهل يكفي تلك الأجزاء من المعرفة أن تزيل كل ما يتراءى للإنسان من ضباب وانفعالات في هذه الحياة وأن تشبع ما في أعماق نفوسنا من نزعات متضاربة؟

إن مدنية هى مدنيتنا الحاضرة قامت في التاريخ الحديث على دعائم هذه الأجزاء دون غيرها وقد خطت بالإنسانية في سبيل مبتغاها المادي خطوات ننظر إليها اليوم متفائلين، فإذا ما أمعنا النظر في عناصر هذه المدنية بين مختلف الجماعات التي تتحمل أعباءها رأينا - ويا للأسف - القوة النفسية الروحية لتلك الجماعات تنحل تدريجيا وتموت في نفوسهم معنى الإيمان بالحياة في أسمى معانيه، وهذا الإيمان هو أول عنصر من عناصر السير بالجماعات في سبيل أنشودتها العالية مما بعث روح التشاؤم في كثير ممن يصلون بين التاريخ الإنساني في مختلف مراحله ويستخرجون منه عبرة للحاضر والمستقبل، فما للغرب من مدنية سيطر عليها الاتجاه المادي سيطرة تامة فأصبح الإنسان لا يتطلب السعادة

الروحية بمقدار ما يسعى لإشباع رغباته الجسمية مع اعترافنا أن تلك الأجزاء الثلاثة للمعرفة تخطو خطواتها في عالم الازدهار وتحرز النصر إثر النصر، ولكن المدنية الغربية تتراءى لكثير من الفلاسفة أن بناءها سينهار يوما قريبا، والجماهير في الغرب سئمت المادة وتتجه اليوم صوب الروحانية وتصبو إلى غذاء يقوي سيرها وخطواتها.

فهل نستطيع إذن أن نجيب على أسئلتنا الماضية بالإيجاب فلا نرى أن تلك الأجزاء الثلاثة كافية لإشباع ما في نفوسنا من غور ونزعة وتمرد.

سؤال وجواب ليس لهما من موضوع في كلمتنا هذه إلا أن يبعثا في المرء روح البحث وروح التساؤل عن مخبئات النفس الإنسانية التي لا أظن أن البحث الحديث اهتدى إلى حل ألغازها أكثر مما اهتدى الإنسان النير في أول خطوات الحياة ، ذلك أن المرء لم يشتغل كثيرا في تفهم نفسه بل ابتعد عن تلك المحاولات واهتم بالمادة يحللها ويؤلف منها ما يساعده على إشباع رغباته.

ساعة مع المتنبي

المغرب الجديد

السنة الثانية - العدد 9 - 10 - فبراير - مارس 1936

قد يكون هذا العنوان غريبا ولكنه العنوان الذي ارتسم في ذهني بعد أن تصفحت ديوان شاعرنا الخالد ساعة من الزمان، ارتسم في ذهني وما لبثت أن كتبت حروفه على الورق وأنا لا أدري ما أخط ولا كيف أعبر عن هذه الإحساسات التي بعثت في نفسي ولا عن هذه المشاعر التي تحركت في قرارة روحي عندما جالست المتنبي وهو يتلو على من الشعر أفصحه، ومن الحكمة أروعها، ويضرب على وتر هذا الإحساس الذي يتجلى إذا ما جالست العظماء، وتبينت أعماق ما تضطرم نفوسهم به التواقت إلى المجد وإلى الفخر، وما يصبون إليه من خلود صحيح.

فالمتنبي أبعد الناس أن يكون شاعرا فحسب أو أن يكون حكيما لا غير، بل هو هذا الشخص الذي يجمع في اتزانه العقلي إلى شعور الشاعر الفياض وحكمة الفيلسوف الفطري، شعورا بقوة تكتسح كل معنوياته لتتجه به إلى العظمة وإلى الشعور بها وتمثيلها في شعره الخالد وتصرفاته اليومية الفانية. فالمتنبي هو الشاعر العربي الوحيد الذي نظر إلى الحياة بمنظر العظيم، وتصورها أمامه حقيرة مهما ظهرت للناس بمظهر القوة والبطش، فصار يخترق السهل والوعر وهو لا يرى كل شيء عظيم إلا جديرا به، لا يلتفت إلى سلب الحياة ولا إيجابها، ولكنه ينظر إلى نفسه فلا يراها أوتيت ما تستحق من مجد وإعزاز، فيفيض شعوره ويغلى إحساسه ويندفع بشعر لا يقره عليه بسطاء المثقفين، ولكن يسجد أمامه أفراد لا يحمدون للأقدار تصرفاتها، بل يطلبون منها المزيد كلما قدمت لهم الجديد.

أجل قد تكون حياته مزيجا من محاولات فاشلة، وادعاءات فاترة، واتجاهات خاطئة، ولكن حياة العظيم لا تقاس بما تقاس به حياة أفراد المجتمع، ولا حسب سنن الوسط أو العصر، بل هي لتشعرك بقوتها، وتغمض عليك طريق المجد، لا تستقر لميزان، ولا تقف عند حد، بل تسعى وتسعى لتكسب الصفقة فإذا وقفت لا تطمئن، وإذا خسرت لا تيأس، ولا تفتر، وهي تدور حول مبتغاها وهو تبوؤ العظمة من كل الجهات، وتبرر كل وسيلة لغايتها، فهو لم يكن من هؤلاء العظماء الذين يكتفون بالنظرية المثلى يعتنقونها ولا يحيدون عنها، ينزوون في عالم الفكر يرتلون لذة عظمتهم غير العملية، بل من هؤلاء الجبابرة الذين تتجسم عظمتهم في الطمع وحبهم للحياة لا في التجرد عن اعراضها، ولكن في الاندماج في نزعاتها والتلبس بأهوائها.

هذا هو المتنبي الذي نقرأ شعره فنعجب بطموحه الفذ، ومطامعه الواسعة، وتطالعنا كتب السير بسيرته التي لا تعرف الخير الاصطلاحي من الشر الاصطلاحي، بل تعرض أمامك شخصية قوية تومن بنفسها، وتبرر عملها، وتسير شخصية عبرت عن مكنونات نفسها بشعر يجمع كل مميزات التفوق والخلود، ويتبوأ شاعره منزلة سامية بين شعراء العربية في متباين عصورها. فإنتاجه الشعري وإن وصف في بعض المناسبات بمعايب تافهة لا تخرج عن حيز الصياغة واللفظ، فهو جدير أن يخلد صاحبه دهرا طويلا، فتحتفل العربية بعيده الألفي احتفال دراسة وتفهم لهذا الشاعر شاغل الدنيا ويهتم كل باحث بناحية من نواحي خلوده، وحسبي أن أصور شعوري بعد أن خلوت بأشعاره مدة من الزمان، شعوري نحو نفسه الملتهبة حماسا إلى المجد والعظمة.

فساعة بجانب المتنبي تشعرك بقوته وبنفسه التي يتطاير شررها، والتي تبين لك عن مظاهر عظمتها جلية واضحة فإنك لا تكاد تسير في ديوانه جزءا يسيرا وتمعن النظر في معاني شعره حتى تراك مرغما أن تنظر للمتنبي نظرة بعيدة عن النظرة التي يصورها كل من كتب عن حياته ووصف لك سيرته، إذ يحاول المغرضون ممن ترجموا له أن ينزعوا عنه رداء

العظمة، ومجد العبقرية، بالنظر لبعض صفات اتصف بها مثل حب المال، ومرارة اللسان، ولكن الشاعر الخالد يظهر نفسه ويرغم الذوق الأدبي أن يعترف بما يحدث من مقاييس تحتذيه الأجيال كمثل من المثل الأدبية العليا الصالحة للبقاء والخلود أمدا طويلا.

أول ما يتجلى لك إذا ما جالسته هذه الحكم الرائعة التي تنطلق لا من عقل الشاعر ولا من علمه، ولكن من نفسه؛ تنطلق لتصير مثلا تردده الأجيال، وتتجاوب صداه القرون، فشاعرنا لم يكن بهذا الفيلسوف الذي يبحث عن ماهيات الأشياء، ويحلل عناصرها تحليلا عقليا، نعجب به، ولكنا قد لا نستسيغه فهو وإن اتصل بالمعري في ناحية الحكمة التي امتلأ شعره بها، فهو متباين معه، فالمعري بشعره وهو في عالم الفكر يستعرض النظريات، ويقلب المذاهب، أما المتنبي فهو يشعر بالحكمة الرائعة، ومصدره الوحيد نفسه، هى التي تغذيه، وهى التي توحي إليه جمال مظهرها، فإذا بأبياتها يكتب لها الخلود لا في بطون الكتب فحسب، ولكن حتى في الأفواه أيضا كلما شاءت أن تعبر عن قوانين الكون وأنظمة الحياة. فإذا جاز لنا أن نسمى هذه الناحية الحكيمة من إحساس شاعرنا باسم يدل على مدلولها خير دلالة فليكن (فلسفة فطرية) ، ولكى نتصور معنى هذه الدلالة تصويرا صحيحا علينا أن ننظر لمصدر فلسفة المتنبي الشعرية؛ فإن من الغريب أن تحاول جماعة من الأدباء أن ترد فلسفته إلى مصدر خارجي عن إحساس الشاعر ونفسيته، فتزعم أن أغلب حكمه مقتبسة من فلسفة يونانية أو إسلامية، ولكن شاعرنا لم يكن من طراز الذين تزودوا بحظ من العلوم النظرية الفلسفية وهو ليس بالشخص الذي يوجد مذهبا عقليا، أو الذي يعتنق مذهبا معينا في الحياة، بل هو شاعر يندفع بنفس الإحساس الذي في تياره كل شاعر صادق العاطفة، دون أن يتقيد بنظريات فرد أو مذهب إلا أن المتنبي غورا في الإحساس وعمقا في الشاعرية، فاستطاع أن يكتنه الحياة، وأن يعبر عفوا عن ناموسها؛ فمصدر فلسفته إذن فطري مستمد لا من تجاربه ولا من ثقافته ولكن من شعوره بالحياة.

وثاني ما يتجلى لك أن تشعر بقوة نفسه واعتداده برجولته قوة تتسم أمام عينيك واعتداد تلمسه في كل قصيدة ليسا من هذا الفخر المبتذل الذي أصيب به شعراء كثيرون الذين قد تبتسم في بعض الأحيان وهم يعرضون عليك بضاعتهم، ولكنه فخر رجل تشعر باحترامه وتراه جديرا بكل تجلة لا مفر لك من أن تفسح له حيزا من صدرك ومكانا من ذاكرتك لتحفظ أبياته وترتل فخره كأنما أنت شاعره.

ذلك الفخر يصور نفسية الشاعر الذي يحلم بالمجد، وإن لم يسع إليه من الطرق التي تؤدي إلى المجد، فهو وإن خاطب الملوك والأمراء لم ينزل بمركزه دونهم، بل تحدثه نفسه دائما أنه عظيم فينطلق ليردد:

وفـــؤادي مـــن المـــلـــوك وإن كا ن لـــســـاني يرى مـــن الـــشـــعـــراء

فخر ساذج ولكنه فخر رجل يشعر بشيء في أعماق نفسه، فالرجل في كل محاولاته سعى للمجد، وأحب المجد، ولكنه يكتسب إلا بعض المجد، فلم يكن فخره يعبر عن بعض هذا المجد وإنما عبر عن نفسه كأنما أوتيت من المجد جميعه ففخر برجولته واعتد بقوته وحرص أن يزيف من يقف في طريقه.

فالمتنبي لم يكن بهذا الشاعر الذي يرتجل القصيدة البديعة المعاني، المنسجمة التراكيب فحسب، بل كان يضيف إلى تلك الشاعرية الفياضة إحساسا عميقا بقوة نفسه، وطموحا غريبا إلى كل شيء تصوره الحياة رفيعا، ومثلا من المثل العليا.

وإليك الخلاصة. لقد طويت ديوان شاعرنا وأنا أردد هذ التساؤل: أى إحساس يصدر هذه الحكمة الرائعة؟ وأية نفس تعتد بقوتها إلى هذه الدرجة؟ وأى روح يطمح هذا الطموح؟ إن هو إلا عظيم لم يفسح له الدهر مجال الحياة إلا بمقدار، فلم يتبوأ إلا رتبة شاعر، ولكن أى شاعر هو ... ؟ هو شاعر النفس العظيمة خالد ما خلدت نفس الإنسان، وكفاه ذاك فخرا وعظمة.

الأديب الجبار

مجلة « السلام » التطوانية
السنة الأولى - العدد 6 - 1933

تتزعم مصر اليوم الأدب العربي نظرا لما في نهضتها من حيوية وإنتاج، ومن الخير لنا نحن فتيان المغرب أن نتعمق في تفهم هذه النهضة، وندرس مدارسها دراسة تثير أمامنا السبيل لنبعث في محيطنا قوة وإدراكا لما في الحياة الأدبية الفسيحة من جمال ونور، وسأتحدث للقراء هذا الشهر عن أديب يحمل لواء التجديد المنتج كون لنفسه مدرسة من المدارس الأدبية التي خطت بأدبنا العربي آفاقا، واتصلت بأعمق ما في الحياة من ينابيع الفكر وصور النفس، ذلك الأديب هو الكاتب الأكبر عباس محمود العقاد.

العقاد اسم كبير يطوي خلاصة آراء الفلسفة المعاصرة، والنزعة الأدبية الحسية، لست أدري كيف أقدمه إلى القراء، وكيف أمهد للكلام على عبقريته ونبوغه، فليست الألفاظ دائما بالمعبرة عن هذه المعاني التي نشعر بها ونلمسها في سويداء قلوبنا، ثم نعجز أن نفصح عنها بلساننا ونصورها بأقلامنا. فكل كتاباته وأشعاره وأحاديثه تثير في النفس تفكيرا عميقا، يخلو إليه المرء ساعات طوالا ويتناسى في ظله الوريف هذه الآراء السطحية التي تعرض أمامه فلا تتجه به إلى غاية سوى قضاء حاجة ماسة أو ملء الذهن بفائدة تعلم ولا تهضم.

فالعقاد الأديب جبار قوى يخضع أمامه كل فكر، يوحي إليك وأنت تقرأه هذه الأنوار التي تشع لك في ظلمة، فتبتسم لك الحياة ابتسامة حلوة، ساعتها يوم، ويومها شهر، لأن فكرتها مستمدة من أعمق ما في الروح البشرية من نزعات قوية ثابتة. فلا تقع عيناك على

قصيدة له حتى يجردك مما حولك من الاعتبارات الضيقة ليصلك بالكون الواسع؛ فهذه قصيدته التي عنوانها « الكون والحياة » لا تكاد تقرأها حتى تراه يسائلك في عمق وغور سحيقين أيهما أكبر: الكون أم الحياة الإنسانية ... ؟ إن الحياة إذ لم تكن لها غاية بعيدة موصولة بالغاية التي يسعى إليها الكون برمته، فهى ولا ريب أصغر من أن تقاس إليه أو يفاضل بينها وبينه؛ وقد كان يكفينا على هذا الفرض كرتنا الأرضية وحدها، أو نظام واحد من أنظمة الشموس التي لا عداد لها، وإذا كانت الحياة الإنسانية هى الحس الشاعر المفرد في الوجود فلم لم يكن من الإحساس القدر الكافي لمعرفة الوجود حق المعرفة، ولم لم يتناسب العارف والمعروف أو يتقاربا؟ ألا نفهم من ذلك أنه لا بد في الوجود من قدرة تعرفه المعرفة الخليقة به؟

هذا الأديب العميق الفكر عصامى بكل ما في العصامية من معاني، فلنتحدث ونحن في أول استعراض - إن صح أن تسمى هذه الكلمة باستعراض - لفكره وأسلوبه عن عهد طفولته ونشأته المدرسية، وعن العوامل التي اتجهت به إلى أدب الفكر، فأصبح زعيما من زعمائه الأفذاذ، فهو في ذلك يقول لقراء مجلتنا « السلام » :

« كنت أجد عند والدي كتبا كثيرة مثل كتاب « المستظرف من كل فن مستطرف » وكتاب « أعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس » ، ثم إني اعتكفت على مطالعة « ألف ليلة وليلة » فنزعت بي الرغبة إلا أن أقول شعرا من نظمي لأنشده في مواقف المبارزة محاكاة لأبطال الرواية إذ كنا نؤلف في أيام الدراسة جيوشا تمثل المصريين والانجليز والدراويش، فكنت لا أستريح إلى أن أعبر بشعر ألف ليلة وأجريه على لساني، فكان هذا من أول البواعث لي على نظم الشعر؛ وكذالك رغبت في الإشادة بالعلوم التي كنت أتعلمها في المدرسة لأول عهدي بها، فنظمت أبياتا في هذا المعنى وأذكر منها على سبيل المثال الآن:

علم الحساب له مزايا جمة وبها يزيد المرء في العرفان

والنحو قنطرة العلوم جميعها ومبين غامضها وزين لسان
وكذلك الجغرافيا تهدي الفتى لمسالك البلدان والوديان
وتعلم القرآن واحفظ درسه فالنفع كل النفع في القرآن

إلى أمثال هذه الأشعار؛ ولما أنس والدي الميل مني إلى القراءة وقول الشعر أخذني إلى مجلس العالم الأسواني الجليل المغفور له الشيخ أحمد الجداوي، وكان يقرأ مقامات الحريري بمجلسه العامر، ويطارح الأدباء والمدرسين والقضاة الشرعيين الأشعار الكثيرة، فاستفدت من حضوري لهذا المجلس فوائد شتى.

وكان هذا كله من أسباب اشتغالي بالأدب العربي، وقصرت في أول الأمر حتى زارنا في المدرسة بعض كبار السائحين الانجليز وذهبنا نرد لهم الزيارة في فندقهم، فطلبوا منا عنواننا وأرسلوا إلينا بعد عودتهم إلى بلدانهم كتبا انجليزية على سبيل الهدية والتذكار، فكان من نصيبي أنا كتاب الثورة الافرنسية للأديب الكبير كرليل، ولست أدري لماذا اختاروه لي لأنه كان عسير اللغة بالقياس إلى درجتي يومئذ من التعليم، فلم أقرأه إلا بعد سنوات، ولكنه نبهني إلى قراءة الانجليزية، فشرعت فيها واستفدت منها الفائدة الكبرى التي لا تنسى » .

ولم يطل عهده بالدراسة النظامية، فإنه بعد أن تخرج من المدرسة الابتدائية بأسوان بلدته سنة 1904 لم يتلق غير أبواب محددة في الكهرباء والطبيعة حضرهما بمدرسة الصنائع والفنون، ثم زاول بعد ذلك التدريس، وتوظف في وظائف رسمية كان يستقيل منها واحدة بعد أخرى نفورا - كما يقول الأستاذ - من قيودها الثقيلة وتكاليفها الغثة.

وسألته هل كان يطمع وهو صغير في هذه المنزلة الأدبية التي وصل إليها، فأجابني على الفور: « بل كنت أميل إلى أكثر منها » .

فيا لها من نفس جبارة من عهد طفولتها إلى يوم سطوتها.

وأروم بعد هذا أن أتحدث قليلا عن الأستاذ العقاد بمدرسة من مدارس الأدب العربي في نهضتنا الحالية فأحاول أن أوضحها من ناحيتين: الفكرة أو الغاية والأسلوب.

« سعيي الأكبر متجه إلى تعويد الشرقيين أن يفهموا إدراك الفنون وإدراك الجمال. في مظاهر الحياة مطلب لا تنهض أمة بغير التوخي عليه، وأزيد ذلك تفسيرا فأقول: إن الأمم التي تطلب المنافع وحدها إنما تسوقها الضرورة كما يساق الجائع إلى إشباع معدته، والعاري إلى وقاية جسمه، أما التي تحفل بالفنون وتطلب متعة الجمال في مظاهره النفسية والحسية فهى لا تساق للضرورة بل تملك حق الاختيار والتمييز، وهذا هو أكبر عنصر من عناصر الحرية، فلن تبلغ أمة رجاءها من الحرية السياسية حتى تعرف الحرية قبل ذلك في أذواقها الفنية » .

بهذا الجواب القيم الممتلئ قوة وحياة أجابني الأستاذ العقاد عندما سألته عن رسالته التي يصبو إلى تأديتها لمواطنيه قراء العربية. فلم أكد أتلفظ بسؤالي حتى انطلق الأستاذ الكبير يتحدث بما يشعر به وعما يلامس قلبه العامر دون أن يتوقف كأنه استعد للجواب عليه منذ زمان، فخيل إلى كأن الأستاذ فكرة تتحدث عن نفسها وتتعمق في صميم الحياة لتؤدى رسالتها المثلى، في ثقة وعزم، وتفسح طريق النور وسبيل الخير والجمال، أمام أفراد استعبدتهم المادة، وقضت عليهم المخاوف الوهمية، فأصبحوا يوجسون خيفة من كل صنم، ويتراجعون أمام كل شبح، لا يؤمنون إلا بالملموس، ولا يحفلون بما في الفنون من جمال قدسي وروح خالد.

فالأستاذ العقاد شعلة من فكر وروح، تضيء لنا نحن معشر الشرقيين ما نحن فيه من ظلمة حالكة، وتزيل عنا هذه الأصداء، التي باعدت بيننا وبين مظاهر الجمال في الحياة، منذ استسلمنا لحياة تسيطر عليها الاعتبارات المادية وتقاس بمقاييس ملموسة.

وفي الحق أن الأستاذ قد أدى رسالته كما يصبو، ولا نعرف صاحب رسالة أدبية استطاع في أمد قصير أن تنضج فكرته في وسطه فيجني شهرتها، وهو لم يناهز الأربعين إلا

بسنوات؛ فهذا الأدب العربي المعاصر قد تطور تطورا خطيرا بعد الحرب العالمية، واتصل أشد الاتصال بالحياة، ولامسها وعبر عنها أفصح تعبير بفضل زعماء الأدب المصريين كالعقاد وطه حسين وهيكل.

وندرك فكرة المدرسة العقادية إدراكا صحيحا منتجا إذا اتصلنا بالثقافة السكسونية، وتلمسنا نواحيها، وتذوقنا جمالها لكي نكون من مقاييسها مقاييسنا، ومن نورها نور ذوقنا؛ فالأستاذ العقاد جد شغوف بالأدب الانجليزي يعتبره أصدق الآداب الأوربية، ويتحدث إليك في ذلك وهو مطمئن إلى فكرته تمام الاطمئنان، فيقول: أدب الانجليز لا شك في اعتقادي أنه خير الآداب الغربية على الإطلاق على الرغم من الكراهة التي أشعر بها نحو الاستعمار البريطاني فهو عندي أخبث أنواع الاستعمار.

وتسائله هل يمثل الأدب الانجليزي العواطف الإنسانية خير تمثيل، فلا يتردد أن يقول في لهجة صادقة:

« نعم. يمثلها خير تمثيل، لأنه يمثل أمة تجمع بين القدرة العملية وسعة التصور والخيال، وهما العنصران اللازمان لمعرفة الحياة ومرامي ما فيها من تجارب الواقع المحسوس ومن تصورات العقل المحبوبة إلى النفس، فالانجليز كما يعرفهم كل من عاشرهم ودرس آدابهم قوم عمليون خياليون في وقت واحد » .

ثم لننتقل إلى أسلوب المدرسة العقادية، فالأسلوب أبرز ما في الأدب من صورة، وأدلها على تمكن الفكرة وارتباطها بنفس الأديب، وهو في الأدب لا يبرز اتهاكه في سبيل الغاية، بل إن الأسلوب جزء مقابل للفكرة، لن تكون الإجادة والعبقرية إلا في السيطرة عليها سيطرة قوية حسية، فلن تهتم بالفكرة قبل الأسلوب، ولا بالأسلوب قبل الفكرة، إذ في مزجهما مزجا صادقا تتكون شخصية الأديب ومقدرته.

وهنا أستطيع وقد تابعت ما كتبه العقاد نثرا وشعرا، أن أزعم أن أسلوبه لا يتصل بالطريقة الوجدانية، وأن العقاد لم يسع قط إلى اتخاذ هذه الطريقة في ما سطر، فهو دائما

يكتب عن فكر، ودائما يستوفي صور الحياة بعمق تفكيره، ويستولي إنتاجه الخصب القوى على كثير من الأفراد الذين يخيل إليهم كأن الأدب ينحصر في طريقة العاطفة التي لست أدري بما أسميها إلا بأنها تمثل صبيانية المرء أكثر مما تمثل رجولته.

ولك أن تصف أسلوب العقاد بأنه فخم التركيب، متين العبارة، قوى الحجة، مرتبط المعنى، قليل الحشو، لك أن تصفه بهذا وأكثر منه، ولكنك لن تستطيع أن تكيف بكلماتك أسلوب العقاد للقارئ من غير أن يتصل القارئ به اتصال العقل بالحياة، فهو يكتب سواء النثر أو الشعر ليزيدك اتصالا بالحياة، وليعبر بك جسر الأدب الصبياني، إلى أدب الروح في معينها العذب ورحيقها السلسبيل.

وليس يعسر عليك أن تلمس مزايا الطريقة العقادية في كل ما كتبه الأستاذ، فهو جلى واضح، لا جلاء ووضوح ألفاظه والتراكيب، ولكن جلاء ووضوح الفكرة وتناسق المعاني وأنت تنحدر من أول مقاله أو كتابه إلى ختامه، فهنا وحدة تثير عجبك، وتأخذ حظا من وقتك، تلمسها وتراها في كل ما يخطه الأستاذ الكبير على الصحف الصماء، فتصبح ناطقة بأفصح ما تنطق به العقول النيرة.

وأسلوبه في النقد والمناقشة جريء لا ينبئ إلا عن فكر قوى، لصاحبه كل الثقة بنفسه ويتكلم عنه يقول:

« وخطتي في المناقشة أن أعمد إلى أقوى الحجج بداءة فأجتهد في تقويضها ثم أقفوها بأضعف الحجج، وقد أعود إلى ما فيه مسالك من القوة، وربما كانت في هذه الخطة مفاجأة للقارئ، ولكنها لا تخلو - كما شاهدت بالتجربة - من تأثيرها المحمود » .

ولنتحدث إلى الأستاذ الكبير عن هذه النهضة العربية التي يقود اليوم مدرسة من أقوى مدارسها، لنرى كيف ينظر أستاذنا إلى هذه الحقبة من تاريخ أدبنا، وكيف يعكس عليها منظار عقله فيرينا خطواتها وما فيها من جرأة وتردد سهل. وهل اتجهت نهضتنا العربية اتجاها صادقا نحو النضوج؟ وهل هناك من ملاحظات يبديها المفكر على سير هذه

النهضة؟ هذا ما يجيب عنه الأستاذ العقاد عندما أملى على:

« أعتقد أنها اتجهت نحو الكمال وسارت في طريق الكمال، وكل ما ألاحظه عليها إلى الآن أنها قليلة التنوع، وأنها ضيقة الدائرة، وهذا عيب نرجو أن يزول متى بلغ الشرق حظه المهضوم من التقدم وسعة آفاق الحياة ».

ويعني الأستاذ بقلة التنوع وضيق الدائرة أن أديب العربية المعاصر يشاء أن يجمع في نفسه كل مظاهر الأدب التي لا يتمكن العبقري الفذ أن يتجه بكل ما في نفسه من استعداد وكفاءة إلى مظهر واحد. فإذا بأديب العربية المعاصر بعد تلك المحاولة لا يجيد التعمق في مظهر وإنما يكتب في كل المظاهر.

فالمتنبي شاعر وابن الرومي شاعر والمعري شاعر، ولكل منهم اختصاص في مظهر يتفوق فيه، وتراه في كل ما تفيض به نفسه ممتزجا بذلك المظهر، معبرا عن ذلك المظهر؛ أما شعراؤنا اليوم كشوقي وحافظ وأضرابهما فوتيرتهم واحدة وأنغامهم واحدة، فلا تلمس في أشعار شوقي فكرة بارزة كما تلمس القوة في شعر المتنبي، وحب الحياة والكلف بها في شعر ابن الرومي، والفكر الفلسفية العميقة الممزوجة بالتشاؤم المرح التي توجد في شعر أبي العلاء، ذلك أن هؤلاء القدماء كانوا يستوحون فكرتهم في الحياة من تجاربهم لا من الكتب، فكان أدبهم معبرا لحياة الأفذاذ العميقة الغور؛ أما المعاصرون من أدبائنا فأدبهم مستمد من مطالعتهم وهم في حجرة البيت يكتبون على وتيرة من سبقهم لا يكلفون أنفسهم عناء التفكير ولا مجهود التعمق.

وهكذا أصبح أدبنا المعاصر صورا متقاربة، متداخلا بعضه في بعض، ضيق الدائرة، غير مختص كل أديب بناحية من نواحي الحياة الواسعة حتى يستطيع أن يصورها بمهارة ويستطيع أن يسيطر عليها سيطرة إنتاج وتحليل.

ثم هذه الأمم العربية كيف توحد مثلها الأدبية، ومقاييسها الفنية، وكيف ترتبط ارتباطا متينا، وتؤدي واجبها للحياة الإنسانية، وللفكر الإنساني، كما أدته في عصر مضى، ما هى

الوسيلة الفعالة لذلك حتى يبادر إليها محبو التقرب بين أجزاء العالم العربي؟ هذا ما تفضل الأستاذ العقاد فأجابني عنه بقوله:

« الوسيلة الوحيدة العملية هى انتشار الطباعة وتيسير أسباب النشر والإذاعة في أنحاء هذا العالم العربي حتى يشعر المؤلف في القاهرة أنه يكتب للقارئ في المغرب والعراق وجميع أنحاء هذا العالم، وأنه يستفيد الفائدة المادية المضمونة للمؤلفين في الوطن الواحد فضلا عن الفائدة الروحية والثقافية. وخلاصة القول في هذا إن إصلاح النشر والإذاعة هو أهم الوسائل التي يجب أن يشتغل بها محبو التقرب بين أجزاء العالم العربي؛ ولا بأس بعد ذلك من عقد المؤتمرات الأدبية والعلمية في عواصم هذا العالم من حين إلى آخر كى يشهدها رجال الأدب والثقافة، ويفصح كل منهم عن وجهة نظره ومبلغ الحضارة والترقي الفكري في بلاده، فتحصل كل منهم والتجاوب الروحي بهذه الوسيلة ».

وبعد هل تراني استطعت أن أرسم صورة عن المدرسة العقادية؟ ...

لعله من الخير لي وللقراء أن أكتفى بهذه الكلمة لأحيلهم على ما أنتجه الأستاذ وما ينتجه من أدب رائع، ليعتكفوا على دراسته وتذوق ما فيه من جمال وسمو؛ فكل لفظ - كما يقول أديب في مجلة « المقتطف » الغراء - في عبارته له قيمة الأرقام الحسابية الدالة على العدد، وإنها لمعجزة أن تكون هذه الدقة الحسابية مفرغة في قالب من جمال الفن السامي.

العواطف والعقل في أدب العقاد

مجلة « السلام » - القسم الأدبي
السنة الأولى - العدد 8 - 1933

احمد ابا حنيني

ورد في الجزء السادس من مجلة « السلام » بصحيفة 38 مقال للأديب سعيد حجي أبدى فيه آراء في أدب الشاعر العبقري عباس محمود العقاد صادف الصواب في جله. بيد أني أريد أن أناقشه وأبحث معه في رأي منها أذكره فيما بعد، وقبل الشروع في المناقشة يجب على أن أذكر لأديبنا فضله في التقدم إلى موضوع واسع الأطراف،متشعب النواحي كأدب العقاد، وإنها لشجاعة أدبية تستحق الثناء الجميل لا سيما وأن أديبنا قد اهتدى إلى الكلام على شاعر وكاتب قل نظيره في أدبنا العربي الحاضر. فأدب العقاد أصح وأنفع غذاء للقلوب والعقول، ونحن اليوم في أشد حاجة إلى مثل هذا الأدب النادر.

قال أديبنا في المقال المذكور:

« وهنا أستطيع - وقد تتبعت ما كتبه العقاد نثرا وشعرا - أن أزعم أن أسلوبه لا يتصل بالطريقة الوجدانية، وأن العقاد لم يسع قط إلى اتخاذ هذه الطريقة فيما سطر، فهو دائما يكتب عن فكر ودائما يستوحي صور الحياة بعمق تفكيره فيتولد منها إنتاجه الخصب على كثرة الأفراد الذين يخيل إليهم أن الأدب ينحصر في طريقة العاطفة التي لا أريد أن أصفها إلا بأنها تمثل صبيانية المرء أكثر من رجولته » .

يستنتج من هذا أن أدب العقاد أدب تفكير لا أدب عواطف، وهذا ما لا أعهده في العقاد لا في آرائه في الأدب الصحيح والفنون الجميلة ولا فيما يكتب هو من شعر ونثر،

والذي أعتقده هو إن كانت ثم رسالة في أدب العقاد فهذا الأديب قبل كل شىء رسول العاطفة في عصر كثر فيه التشيع للعقل، فالعاطفة في نظر العقاد هى قوام الحياة أو هى الحياة نفسها، وهى أيضا قوام كل أدب صحيح وفن جميل، وأنا أرى أنها هى قوام أدب العقاد. هذه ثلاث نقط نأتي بالكلام على كل واحدة منها على حدتها.

يرى العقاد - ورأيه الحق - أن الحياة تغزر وتقوى وتتسع وتتنوع مهما غزرت العواطف وقويت واتسع مداها وتنوعت والعكس بالعكس، فلذلك نراه يوصي ذوي القلوب الجافة على فتحها للعواطف وتمرينها على تربيتها وإنمائها شيئا فشيئا لأن ذلك يزيد في حياة الشخص عمقا وسعة ويجعله يتصل بالحياة الكونية العامة المحيطة به.

قال في مقدمة الجزء الأول من ديوانه:

« عش ساعة مفتوح النفس لمؤثرات الكون التي يعرض عنها سواك ممتزجة طويتك بطويته الكبيرة تكن قد عشت ما في وسع الإنسان أن يعيش وملأت حقيبتك من أجود صنف من الوقت » .

فإذا جفت عواطف الشخص فذلك موته وإن رجح عقله فرجحان عقله لا يجديه شيئا، وهذا ما يصرح به العقاد في نونيته النادرة المثال التي أسماها « الحب الأول » حيث يقول:

كن بالخوالج حيا فالحجى جدث   لربه ووقار الحلم أكفان

وإنما المرء يحيى في خوالجه   وليس يحييه في الألباب رجحان

أما أهمية العوطف بالنسبة إلى القوة العقلية والعملية، فللعقاد فيها رأى خاص هو الصواب فيما أعتقد. يقسم علماء النفس حياتنا النفسية إلى ثلاث قوات:

قوة عاطفية، وقوة عقلية، وقوة عملية. وهذه القوى يمتزج بعضها ببعض ويتألف منها وحدة هى النفس، وما من مظهر من مظاهر الحياة النفسية إلا وله حظه من الجانب

العاطفي والجانب العقلي والجانب العملي، ويقوى ويضعف كل جانب منها بحسب الأشخاص والحالات؛ هذا ما هو متفق عليه عند علماء النفس، ولكن لمن الرياسة والسيطرة؟ أهي للقلب؟ أم للعقل؟ أم للإرادة؟ يرى العقاد خلافا لما يتوهم أنها للقلب وأن العقل والإرادة خادمان له يأتمران بأمره ويتهيان بنهيه يسخرها حيث شاء ومتى شاء في غرض أقوى العواطف سواء كانت مشعورا بها أم خفيت في غياهب اللاشعور (Inconscient) ·

فهذا ما استنتجته من قوله في ديوانه بصحيفة 121 تحت عنوان « العقل والعواطف » ·

ليس الذكاء على الحياة مهيمنا ... إن الحياة على الذكاء تهيمن

والعقل من نسل الحياة وإنما ... قد شاب وهى صغيرة تتزين

والطفل تصحبه الحياة وما له ... لب يصاحب نفسه ويلقن

والناس قد عاشوا وما كان الحجى ... إلا جنينا في الحشى يتكون

إن العواطف كالزمام يقودنا ... منها دليل لا تراه الأعين

لم يصرح العقاد في هذه الأبيات بلفظة « الإرادة » إلا أن سيطرة العواطف على الإرادة جاءت ضمنا في كلامه كما يوخذ ذلك من قوله « يقودنا » في البيت الأخير·

هذا الرأى هو الصواب فيما يظهر لي كما قلت، فإننا لا نعمل إلا لسبب، ولا نفكر إلا لعمل، وجميع الأسباب التي نعمل ونسعى من أجلها مرجعها عند التتبع والاستقراء إلى جلب لذة أو دفع ألم؛ فإذا وقع لنا تردد قبل الشروع في أي عمل فإنه ناشئ عن النزاع القائم لا بين القلب والعقل ولا بين القلب والإرادة، ولكن بين العواطف المعتركة في القلب فقط حتى إذا كان الظفر لإحداها على غيرها كان لها الأمر والنهى وأقلع التردد·

هذا رجل يحب الرياسة مثلا ويطمح إليها ولكنه مع ذلك يحب العدل والإنصاف فإذا كان حب الرياسة عنده أقوى من حب العدل والإنصاف فإنه يعمد بعد شيء من التردد

إلى جميع الوسائل الحلال منها والحرام التي توصله إلى غايته المنشودة، وإذا كان حب العدل والإنصاف عنده أقوى كانت سيرته غير السيرة الأولى وأحجم أمام كل وسيلة يأباها العدل والإنصاف.

وخلاصة القول هنا أننا منقادون في جميع أعمالنا إما إلى عاطفة نفعية (Interet) أو إلى عاطفة أخلاقية (Morale) أو إلى عاطفة فنية (Esthetique) تخفى وتظهر حسب الأشخاص والظروف وليست وظيفة العقل إلا وظيفة بحث وتنقيب، وليست وظيفة الإرادة إلا وظيفة تنفيذ لكل ما تأمر به العاطفة الظافرة سواء قبل بحث العقل أو بعده وسواء كان الأمر مطابقا لنتيجة البحث أو غير مطابق. هذه أهمية العواطف في الحياة في نظر العقاد. أما في عالم الآداب والفنون فالعقاد يجعل العاطفة الصادقة قوام كل أدب صحيح وكل فن جميل، وليس للعقل في نظره أى خطر في الإنتاج والإبداع القيم إذا لم يستمد من شعور قوي أصيل، ويكفينا هنا أن نأتى ببعض ما كتبه العقاد في هذا الموضوع ليتبين للقارئ ما هى الرتبة التي يريدها العقاد للعواطف في عالم الآداب والفنون. جاء في مقدمة الجزء الأول من ديوانه:

« وينبغي أن يفرق الناقد بين آداب الذكاء وآداب الطبائع؛ فآداب الذكاء زخارف أقوال وتصيد خواطر وتلفيقات أوهام وهى حبر على ورق، وآداب الطبائع إيمان صادق، وشعور دافق، وعمل ناطق، وهى كلمات من لحم ودم، وليس هناك من يشك في أن الأدب الصحيح موصول بالطبائع القوية والفطر الحية ... وينبغي أن يفرق الناقد بين الذكاء والعقل، فإن العقل بما فيه من ضبط النزعات وكبح الأهواء والموازنة بين الإحساسات مرجعه إلى الطبع القوي لا إلى الفهم الوحيي بخلاف الذكاء فإن مرجعه إلى الذهن، وليس الذهن بشىء إن لم تمدده العوامل المحركة والخلائق المستمسكة ».

هذا فيما يرجع للأدب، أما فيما يرجع للفن فقد جاء في المطالعات بصحيفة 208 تحت عنوان « في معرض الصور » :

« لو قلنا إن الحياة بغير الروح الفنية عبث لما قلنا شيئا جديدا عند الذين خبروا الفنون وتذوقوا معاني الحياة وعرفوا ولو شيئا قليلا مما يحب منها وما تستحق أن تعشقها النفوس من أجله. ولكننا نغرب غاية الإغراب في رأي أولئك الذين يعيشون في الدنيا ولا يشعرون أو يوجدون ولا يعيشون » ...

« والحقيقة أن الإنسان لا يحيى الحياة الكاملة إلا إذا أشبع حسه مما يحدق به، وملأ نفسه من تصور ما تقع عليه الحواس. هذه هى الحياة وهذه أيضا هى الروح الفنية التي يحرمها كثيرون وهم قادرون على إيقاظها في نفوسهم أو أتيحت لهم الفرصة الهادئة » .

هذه الجمل التي اقتطفنا من بعض ما كتبه العقاد في الموضوع واضحة جلية لا تحتاج إلى شرح أو بيان، ولا نزيد عليها سوى التنبيه إلى ما ورد في مقدمة « وحى الأربعين » حيث العقاد يعرف الشعر الصحيح « بالتفسير الجميل عن الشعور الصادق » ، فلا يشترط فيه لا « صبيانية » ولا « رجولة » ويكتفي فيه بالتعبير عما يختلج في النفس، تعبير الصادق الأمين مع وجود الجمال في التعبير.

وبعد أن لخصنا رأى العقاد في مزية العواطف في الحياة والآداب والفنون بقى علينا أن نرى هل العقاد تطابق مذهبه فيما يكتب من نثر أو شعر أو يخالفه. هنا نترك الكلام على ما يكتب العقاد نثرا للاكتفاء بما تقدم لنا من أن العواطف هى العوامل المحركة لنا في كل ما نأتي وندع. ونقتصر على الكلام في الشعر لأهميته العظمى في أدب العقاد فنقول: العقاد قبل كل شىء « شعلة عاطفة » وهو موافق مذهبه تمام الموافقة. فشعره كله مملوء حبا ورجاء ويأسا وبغضا ورغبة ورهبة وغضبا ورضى وسخطا، مع التنوع والدرجات التي تقبل كل واحدة من هذه العواطف على حدتها أو ممتزجة بغيرها. فالباعث للعقاد على إبداء ما يكنه صدره هو الحاجة التي يشعر بها إلى إبدائه. والباعث له على أن يخرجه في قالب الوزن والقفية هو حب الجمال والعاطفة الفنية التي بلغت عنده أرقى درجة. وموضوع شعره العواطف التي تثيرها في نفسه المؤثرات الخارجية والداخلية بجميع

أشكالها وألوانها في حالتى سلمها وحربها، ولنفتح ديوان العقاد. جاء في صحيفة 209 تحت عنوان « روضة ساكنة » :

روضتي ظللها المو ... ت وطلتها الحياة
هجعت منها ذراها ... والجذوع الراسيات
وغفت أطيارها فهـ ... ـى نشاوى حالمات
سكنت نفسي إليها ... واحتوتها النفحات
كسكون العين بالليـ ... ـل مشى فيها السبات
فلها من حالتيها ... سهوة ثم التفات
تحسب الحلم عيانا ... تقتفيه اللمسات
وتخال الحسن حلما ... موهته الظلمات
نعمت الروضة هذي ... ونعما الخلوات
نسمت من عالم الرو ... ح عليها نسمات
تلتقي الأشباح فيها ... والنفوس الشاردات
حبذا كل سكون ... فيه محيا وممات
بين موت وحياة ... لا تضيق المهجات

فهل نرى هنا إلا سرورا وديعا واغتباطا بسكون الروضة وسكون النفس، ولذة أحلام ونشوة خيال أطلق من اسار الحقيقة والتمتع بمشاهدة الجمال الناشئ عن التباس الأشياء وامتزاج الأضداد ...

كل هذا وغيره نستجليه ونكاد نلمسه من خلال هذه الأبيات السائغة العذبة.

جاء أيضا في قصيدته «نفثة » بصحيفة 210 من ديوانه:

زمني جوزيت يا زمني   أي بأس فيك لا يهن

ما الذي أبقاه لي زمني   غال صفوي كله الزمن

ليس لي في مبصر أمل   كل شىء فيه لي شجن

لا أرى في القبح من حسن   فلماذا يقبح الحسن

شاهت الأوصاف في نظري   سرها الخبوء والعلن

ما الأماني؟ إنها خدع   ما الغواني؟ إنها دمن

ما الصدافات التي زعموا؟   إنها البغضاء تؤتمن

ما العلا؟ ما المجد؟ في أمم   مجدها بل ربها وثن

ما السجايا الغر واأسفا!   إنها حلم ولا وسن

بل سل الأقدار إن نطقت   ما حياة شأوها بدن

نشتري أنفاسها قطعا   وهى نعطيها ولا ثمن

أقصارى الطرف من نظر   رؤية بالويل تقترن

والعمى رزء وإن وضحت   في ضياء المبصر المحن

ضل عقل لا ترفهه   نشوة تطفو بما يزن

إنما يشقى الفؤاد وما   شقيت إلا به الفطن

في هذه القطعة نرى الشاعر محتقرا يائسا ناقما قلقا ساخطا يرينا نفسه فريسة لهذه العواطف المتأججة تتنازعها وتجذبها من كل جانب فيشتد تألمه ويحتدم غضبه فتزدحم فيه الاستفهامات. ما الأماني؟ ما الغواني؟ ما العلا؟ ما المجد؟ ما السجايا؟ بل وأقسى من هذا وأمض « ما حياة شأوها بدن » « نشتري أنفاسها قطعا » « وهى نعطيها ولا ثمن ».

هذان مثالان من شعر العقاد، وشعره كله من هذا الطراز نستجلي منه العواطف غريزة متنوعة متدافعة متجاذبة.

لا نريد بما قدمنا أن ننظر حظ الفكر في قيمة شعر العقاد، فكل من قرأ شيئًا لهذا الشاعر يلاحظ لأول وهلة قوة فكره ورجحانه واعتداله، ولكن هذا الفكر على « جبروته » ليس له إلا الرتبة الثانية بالنسبة للعاطفة، وليست وظيفته في شعره إلا وظيفة آلة تستعمل للتحليل والتعليل والمقابلة والوزن والبحث عن وسائل الوصف والتعبير. إلا أن هذه الآلة عند العقاد توفرت فيها شروط القوة والدقة والأمانة، فهي عنده خير معين للعاطفة في الإنتاج الفني. ولنأخذ قطعة من شعره لبيان ذلك.

جاء في « وحي الأربعين » بصحيفة 136 تحت عوان « نبضات جديدة » :

خفقات تلك من وزن جديد	**أيها القلب فاسمعني صداك**
ذلك الوجه وما العهد بعيد	**أنت تهواه فلا تنكر هواك**
أنت تهواه وتسعى في هنا	**كل يوم بعد يوم كي تراه**
لا تراوغني وقل هيا بنا	**في صريح القول نستجلي سناه**
تحسب الرقة فيه المنا	**فإذا أنت من الوجد تذوب**
لا يكون الحب إلا هكذا	**أنا لا أجهل أسرار القلوب**
كاصفرار الشمس في ثوب الغروب	**واصفرار العاج في ثوب القدم**
ذلك اللون نسميه الشحوب	**وهو في الحسن شفيع للسقم**
رحمة للقلب من ذاك الوجيه	**صيغ من ذوبي حنان وحنين**
كلما رفرفت بالعين عليه	**شبه الفرحان عندي بالحزين**
إن أشأ قلت خيال بالكرا	**أو أشأ قلت عيان لا خيال**
جمع الأمران لي فيما أرى	**حين صح الحلم في خير مثال**

نستنتج من هذه الأبيات أن الشاعر أحس بشيء يختلج في نفسه وتغيير في نبضات قلبه. ما هذا الشيء الجديد وما مثيره؟ يسأل الشاعر نفسه هذا السؤال فيبلغ به التحليل

والتعليل والاستدلال إلى أن سبب التغيير المريب في نفسه هو الحب، ولكن عم نشأ هذا الحب؟ لا شك عن جمال المحبوب. وما هى مظاهر هذا الجمال؟ نرى الشاعر يحلل سمات محبوبه ويستجلي الجمال من مظاهر الإشكال وامتزاج النقيضين كما أشرنا إلى ذلك آنفا. نراه يستجليه في التباس الرقة بالألم، والخيال بالحقيقة، وامتزاج الحنان والحنين، والفرح والحزن.

هذا كله كان الشاعر يشعر به مجملا في أعماق نفسه، ولكن عندما أصغى إلى قلبه وأنتبه وأعمل فكره رد كل شيء إلى سببه وآخر ما كان مجملا في نفسه، مفصلا مشروحا في قالب خلاب يرضي القلوب والعقول.

وها هو مثال آخر جاء في هدية الكروان بصحيفة 65 تحت عنوان « قبلة بغير تقبيل » :

بعد شهر أنلتقي بعد شهر	**بين جيش من النواظر مجر**
لم يحولوا - وحقهم - بين روحيـ	**ـنا وإن ألزموها طول صبر**
تمت القبلة التي نشتهيها	**كلها غير ضم ثغر لثغر**
تم منها شوق ورف شفاه	**وهوى نية وخفقة صدر**

في هذه الأبيات الأربعة ولا سيما في البيت الأخير تناول فكر العقاد تحليل عاطفة قوية (Emotion) نشأت بغتة ولم يمنعها من التدفق سوى سد النواظر المحيطة.

هذه أظهر وظائف العقل ومزاياه في شعر العقاد، وهل هذا العقل الجبار وهذه الآلة القوية الامينة تتوازن مع شعور العقاد في غزارته وتنوعه ولطافته؟ وهل تقوى على تناول وتحليل ووصف كل عاطفة تجول في نفس العقاد؟ ذلك مما نشك فيه، فقد يعتريها العجز والتقصير في بعض الأحيان كما نأخذ ذلك من قول الشاعر نفسه في قصيدته البديعة « كلماتي » التي وردت في هدية الكروان بصحيفة 85 فقد جاء فيها:

كلماتي ما تقولي ... ن إذن يا كلماتي

ما نعيم يمنح الكـ ... ـف غذاء المهجات

تقصر الألباب عنه ... وهو بعض اللمسات

في يدي أدعوه خصرا ... تارة أو زهرات

في فمي أدعوه ثغرا ... تارة أو قبلات

وفؤادي؟ ما اسم ما في ... ـه إذن يا كلماتي

اسألي الأرباب عنه ... أو سلي الصمت وهاتي

وخلاصة القول إن العقاد يستوحي شعره من عالم العواطف التي غزرت مادتها عنده وتنوعت، وبواسطة عقله الراجح وحاسته الفنية، يفرغ هذه العواطف مفصلة مشروحة في قوالب جميلة مختلفة الأوزان والأشكال. ولندعه هو نفسه يحدثنا عن طريقته فما أحلى حديثه وأشهاه! جاء في هدية الكروان بصحيفة 51 تحت عنوان « شعر وشعر » :

امن شعر؟ نعم شعر وشعر ... وخفق في الجوانح لا يقر

فمنى الوزن في خفقات قلبي ... ومنك الوحى والحسن الأغر

وتسألني كأنك لست تدري ... وما لي غير ما أوحيت سر

واحرى بي سؤالك عن قصيدي ... فما لي فيه - بل لك أنت - أمر

أأنظم في غد أم لات نظم ... على ما ترتضيه ولات نثر

وعن شفتيك لا شفتى أروى ... عشية يلتقي ثغر وثغر

فلقني أجبك ولا تسلني ... سؤال الشمس هل سيلوح قمر

وظيفة الأدب المغربي

الملحق الثقافي لجريدة المغرب

السنة الثانية - العدد 4 - الخميس 27 صفر عام 1357 الموافق 28 ابريل سنة 1938

ليس هناك من ريب أن حياتنا تسير نحو تطور أو بالأحرى نحو انقلاب يعم بصورة تدريجية جميع مظاهرنا، وليس هناك أى ريب في أننا بعد سنوات محدودة سنقبر حاضرنا في مستقبل مجهول، فنصبح حينئذ نتساءل عن كثير من صور حاضرنا هذا فلا نجد له من أثر. ليس في ذلك كله من ريب، ولكن الريب هو جميعه في نقطة واحدة: أفترانا نتجه في تطوراتنا المقبلة وانقلاباتنا المنتظرة ونحن على بصيرة من الأمر، يضع مفكرونا الخطط فتتبع فإذا انقلابنا أو تطورنا صدى يردد ما في أعماق النفس المغربية من حيوية برهنت عليها في تاريخنا الماضي؟

يظهر جليا لمن يلقي نظرة واحدة على مجتمعنا أنه سائر في تيار يجرفه، فلا مصلح يكشف له مواقع الزلل، ولا عقل نير يدفعه خطوة صحيحة نحو تطور منشود، فكل ما هناك أن الوسط المغربي يسير على غير هدى، ويتتبع خطوات الغير دون أن يعلم من أمرها شيئا.

ولعل الوقت آن لنفكر في هذا المستقبل، ولنضع لتطوراته أسسا متينة ندعم بها مصيرنا، ونبين بها عن شخصيتنا، وبذلك نتلمس قوة وجودنا. ولكن قبل أن نتطلب هذا الحيز من التفكير في مستقبلنا يجب أن تدوى صيحة عالية تعلن في غير وجل أن حياتنا ينقصها كثير من عناصر القوة، وأنها محفوفة بمظاهر يجب أن تحارب، وأن الجمود يحول بينها وبين النور فتظل بذلك في ظلام دامس، وتجد مكروبات التأخر معفنة تعشعش في خلاياها، وحبس الدم فلا يسري في عروق الأمة لتنتعش ولتتقدم خطوة واحدة.

كل شيء يتوقف على تلك الصيحة، فنحن لا نطمع في مرحلتنا الحاضرة أن تصبح أمتنا قادرة في أي ميدان من ميادين الحياة، ولكننا نرغب في شيء واحد هو أن تقدر الأمة حالتها من التأخر والجمود، وهنالك يتناوب المفكرون ليشرحوا الأدوية الناجعة، وتأخذ الأمة طريقها المأمون نحو التطور الصحيح واليقظة الحقة.

فمن يجرؤ على تلك الصيحة؟ لا يجرؤ على تلك الصيحة العلماء ولا المفكرون ولا المصلحون ولا الفنانون، إنما يجرؤ عليها الأدباء.

الأدباء هم الذين يجرؤون على صيحة تردد أصوات الغابرين من أجدادنا العظماء، وتفصح عن الآلام المنتعشة التي تدور في خلد المصلحين اليوم وترمز للمجهودات التي سيبنى عليها مصيرنا في المستقبل.

الأدباء هم دعائم التطورات الاجتماعية الصحيحة، وعلى مجهوداتهم الأولى يرسم المصلحون والمفكرون والعلماء وكل العقول النيرة خططهم، ذلك لأن الأديب يتكلم من أعماق نفسه، فلا يخاطب الأشباح ولكن يخاطب النفوس في أعماق أغوارها، فينتزعها من خمولها المميت وينتشلها من حياتها الآسنة ليجعلها تعيش لحظة وقد تجردت من أدران التأخر وشوائب الجمود، وهناك يجد أى جو من الحرية يعيش في العالم، وأى جو تلزم نفسها بالحياة فيه، وهناك لا غير يجد في الأمة من يردد دعوة المصلحين ويستمع لموعظة المفكرين.

تلك الصيحة هى مهمة الأديب المغربي، فلا يطمع الأدباء المغاربة أن يعيشوا لخيالهم وإنتاجهم كما يعيش الأدباء في أمم أخرى أخذت حظها من الرقي، فكل مجهودات المغاربة يجب أن تتجه نحو الأمة، فاستقلال الفرد لا وزن له ما دامت الأمة مستعبدة لجمودها وتذوق الفرد لمظاهر الجمال في الحياة لا يستطلب وهو يرى الجهالة تحتل كل جزء من أمته حله أو ارتحل عنه.

تلك الصيحة هى مهمة الأديب المغربي فهل قدرها؟ وهل استعد لها؟

صيحة على الأدب المغربي

الملحق الثقافي لجريدة المغرب
السنة الثانية - العدد 5 - الخميس 4 ربيع الأول عام 1357 الموافق 5 ماي سنة 1938

أدباء المغرب اليوم صنفان: - أديب شاخ فبصره لا يقوى على أن يرى من الحياة إلا المادة كتلا كتلا فهو يحرص على ما يرى وهو شغوف بحياته تلك لا يفكر في سواها لأنه لا يعلم سواها، فأدبه - إن سمى إنتاجه أدبا - أدب صناعي تحيط به الفكرة الاستغلالية، ويشمله الارتزاق، وتتصل به المنفعة، فهو ينحصر في قصيدة منظومة أبيات تستمدح عظيما، وتستمطر نعيما في مناسبة وغير مناسبة، فقصائدهم - ولك أن تقلب القاف عينا - على منوال واحد لأن مرماها واحد سواء مدحت أو هنأت أو رثت، فأدبهم لا يمثل قديما خالدا ولا جديدا حيا، وإنما يشابه أدب عصر ولى الادبار، ولم يترك من الآثار إلا ما ندرس في مجموعه من عوامل التأخر ومسببات الانحطاط لكل أمة ألقت بنفسها على سرير الجمود فاستراحت أمدا ولم تشأ أن تستيقظ من سباتها الطويل. - وأديب شاب ولكن قلبه لا ينبض نبض الشباب وحياته لا تمت بصلة للحياة الزاخرة المنفعلة بأطماع الفتوة وأحلام الشباب، فهو قنوع بلقمة خبز، وهو راض عن أسباب المسكنة التي تحيط به من كل جانب، وهو مستسلم لعوادي الدهر لا يتأفف، وخاضع لأي تأثير يحمله على أن يعيش في آخر الرتب، فهو شاب بسنه ولكنه شيخ وأقل من الشيخ مقبور الروح مدفون الأحشاء لا يتلمس مخرجا ولا يناجي أملا. ولعلي أكون صريحا إذا أعلنت في غير تردد أن الشباب المغربي لم يولد أديبا يستطيع أن يتحمل رسالة الأدب في الحياة، فالشباب المغربي شغل نفسه وعن الأدب بأمور أخرى فأصبح بعيدا عنه لا يخطر له ببال إلا في بعض

ساعات تكاد تعد عدا في حياته. شغل الشباب المغربي نفسه عن الأدب بأمور تعددت وتباينت ولكنها جميعها تخضع لتيار واحد وهو ضيق نظره للحياة، فبعد أن تمر عليه شبه أيام من الأمل الباهت في فجر حياته المدرسية تراه بعد قليل طمس نفسه في رتبة يتعشق فيها تسدي له دريهمات معدودة، فإذا هو من هذا الشعب الذي يسيطر عليه الخمول والذي أذاقه الجهل من النكبات ما هدم ركن حيويته وجعله شبحا يسير في الشارع، يترامى على سبل الحياة ولكن الفشل يقف في وجهه سدا منيعا. شغل الشباب المغربي عن الأدب أو شغلته بيئة موبوءة لا تتصل بها حتى تعديك فتخر لها صريعا لا تعي ما تفعل، ولا تفكر في نتيجة ما تفعل؛ فالمفاسد التي تميت الروح وتجعل من الجسم الإنساني جسما حيوانيا تعارض طريقك، تقف في وجهك، تنادي غرائزك، وتثير فيك أحط الانفعالات، فلا يقوى الشباب على التخلص منها لأن تربيته غير متينة ولأن ثقافته سطحية ولأن الأدب لم يحتل أعماق نفسه، فيدرك أن هناك حياة أسمى من حياته وأن هناك حواسا أنعش للإحساس من هذا الجو المخنوق الذي يتخبط فيه. لذلك فليس للشباب أديب يطمح أن يخترق هذه السدود الفولاذية التي تقف بينه وبين النور، وليس هناك من فرق بين شيخ يدعي الأدب وبين شاب يذكر الأدب، فكلاهما لا يشبع فهم هذا الجديد الذي أصبح يتطلب المتعة والجدة وأصبح يتلمس في أحشائه شبه دبيب، ينزع به إلى خلع هذه الأطماح البالية، ذلك الدبيب الذي يصبح عاملا مهما في تكوين حياة جديدة لهذا الشعب. فليفكر الشيخ الأديب في تلك الحياة وليسع أن يتصل بتياراتها، فإذا استطاع كتب لأدبه الخلود، وكانت صيحته مدوية ردده الجيل واستوحى من شيخه الماضي الرائع. وليستعد الشاب الأديب أن يحرر نفسه - أولا - وأن تختمر نهضة بلاده في اتجاهاته لينطلق من قفصه المهجور بعاطفة متأججة ونظر نير إلى فضاء واسع ينشد الحرية من جميع نواحي الحياة لبني جنسه والمجد لبلاده. وبذلك وحده يستعد الأديب المغربي لصيحة على النهضة المغربية الحقة ويقدر مهمته تقديرا صحيحا.

الكتابة المغربية
مظاهر تطورها ونواحي الضعف فيها

الملحق الثقافي لجريدة المغرب
السنة الثانية - العدد 15 - الخميس 28 جمادى الآخرة عام 1357 - 25 غشت سنة 1938

1

مما يفتخر به ماضي المغرب أنه الماضي الوحيد لجميع أمم العروبة التي حافظت على لغة الضاد في مختلف انقلابات التاريخ فظلت لغته الشعبية والفكرية والرسمية أزيد من اثنى عشر قرنا.

فلقد كان من جراء اكتساح العثمانيين البلدان العربية من بغداد إلى الجزائر الشقيقة، أن عمموا لغتهم التركية في دواوين الحكومة وجميع الهيئات الرسمية، فضعفت بذلك لغة الضاد في تلك الممالك حتى كادت أن تصبح اللغة الدخيلة لغة شعبية لا تدور على أفواه الطبقة الاستقراطية الحاكمة فحسب، بل تستعملها الطبقات المحكومة أيضا، ولو أن اللغة العربية لغة القرآن العظيم لكان من الهين على الأتراك أن يصيروها لغة لا تفهم إلا من طبقة خاصة في تلك الأمم العربية؛ فإن السيطرة العثمانية ظلت سيدة بعض تلك الممالك أمدا غير وجيز، بل يزيد على ثلاثة قرون، وتلك مدة كافية لتتريك اللسان العربي.

أما المغرب البلاد العربية التي لم تعرف سيطرة تركية فقد حافظت فيها اللغة العربية على شيوعها بين طبقات الأمة وعلى رسميتها في معاملات الحكومة الداخلية ومخابراتها الخارجية. وعندما انبثق فجر النهضة المعاصرة في سوريا ومصر وجدت اللغة العربية على

حال من الضعف تكاد تكون خليطا من لغة عربية فصحى ولغة عامية دارجة ولغة تركية يفرضها السادة الحاكمون. فجاهد أبناء تلك البلدان جهادا عسيرا في محاربة هذا الضعف وتخلص لغتهم من ركاكة العامية وأعجمية التركية، وقضوا في ذلك أزيد من قرن تطورت فيها الأساليب العربية تطورات هامة وابتعدت ابتعادا يكاد يكون كليا عن لغة الدواوين الهزيلة التي سادت في أواخر الحكم التركي.

وفي مجموعات الصحافة والمؤلفات العربية التي ظهرت خلال القرن الماضي سجل لتلك التطورات يكاد كل طور يبين عن نفسه وعن مميزاته؛ فهناك طور الترجمة بتعبيراته الدخيلة، وهناك طور الإبداع التقليدي بأسجاعه المرتبة، وهناك طور السلاسة بأسلوبه التجديدي المصطنع.

وجاءت الحرب العظمى فانقلب كل شيء، وتغيرت معالم الحياة، فكان من الكتابة العربية أن عرفت أساليب جديدة، وآفاقا من التفكير فسيحة، وأخذت تسير نحو تمركز في دلالة ألفاظها، ونضوج في أساليب تعبيراتها.

فإن نهضة التأليف تقوت، وأدب المقال ارتكز، وأسلوب القصة أحدث، وفكرة الرواية دشنت، ونحن الآن نشرف على محاولات جديدة في الفن الوصفي الدقيق، وطريقة الحوار الممتع، وخطة السخرية اللاذعة.

تلك تطورات الكتابة العربية في مصر وسوريا والعراق؛ أما المغرب، فهو لا يعرف تلك التطورات لظروف خاصة وأسباب معروفة؛ فإن الكتابة المغربية لم تعرف لغة الدواوين، ولم تنحط العربية بل ظلت لغة التدريس ولغة الحكومة المغربية؛ فكان كتابها ذوي أسلوب عربي فصيح، ومهارة في الفن الإنشائي تذكرنا بعصر عبد الحميد وأسلوب ابن خاقان؛ وحال ضعف الحياة المغربية في مجموعها بين كتابنا وبين إنتاج قيم، ولكن مع ذلك ظلت العربية في الذوق المغربي سليمة.

وبعد أن انقطعت صلتنا بالعالم العربي في القرنين الماضيين، أخذنا نتصل به من جديد عن طريق ما يصدر إلينا من إنتاجه، فكانت هناك طائفة خاصة قبل الحرب العظمى تتابع تطورات الكتابة العربية عن كثب، وأصبح المتعلمون بعد الحرب يهتمون كل الاهتمام بتلك التطورات.

وأخذت الأساليب العربية الجديدة تأخذ بألباب المغاربة، وتتجه بهم إلى محاكاتها؛ وكنا إلى ما قبل سنوات معدودة نتصور أن أسلوب الكتابة المغربية يحتاج إلى مراحل عديدة ليصبح في مستوى الأسلوب العربي في تلك الأمم المتحدة معنا في اللغة، ولقد أظهرت لنا محاولات قليلة أن الأسلوب المغربي، وإن لم ينتج، فهو يساير تلك التطورات، وأنه يقطع مراحلها في شبه خفاء.

فلم تكد تظهر الصحافة المغربية للوجود حتى ظهر كتاب مغاربة يترجمون فيحافظون على بهاء العربية، وينشئون فلا يكلفون أنفسهم زخارف السجع، ويكتبون فينطلقون في تعبير سلس وألفاظ جزلة.

وهكذا كان تأثير النهضة العربية قويا في مظاهر حياتنا بوجه عام وفي الأسلوب الكتابي بوجه خاص، ولقد أظهر لنا هذا التأثير تلك المحاولات القليلة في عالم الصحافة المغربية التي لم تبرز للوجود إلا منذ أمد وجيز.

وإذ كنا نستبشر قليلا بهذا التطور السريع في الكتابة المغربية فإننا نتلمس نواحي ضعف كثيرة تفتقر إلى العمل الصحيح لتتقوى؛ فإن بين التطور والنضوج مراحل يجب أن تقطع في زمن يسير لتأخذ الكتابة المغربية مكانتها بين كتابات الأمم العربية. فما هى نواحي الضعف في كتابتنا، وما هى طرق العلاج لذلك الضعف الذي يحول بيننا وبين النضج الصحيح؟ ذلك ما أرجو أن يكون حديثي في العدد المقبل.

الكتابة المغربية

مظاهر تطورها ونواحي الضعف فيها

الملحق الثقافي لجريدة المغرب

السنة الثانية - العدد 15 - الخميس 5 رجب عام 1357 الموافق فاتح شتنبر سنة 1938

2

بين التطور والنضوج مراحل يجب أن نستفيد من تجارب غيرنا من الأمم لنقطعها في أسرع وقت ومن أقرب طريق. فإن عوامل الانقلاب والنهضة التي اختمرت في البلدان العربية الأخرى في أجيال ينبغي أن تعمل عملها في هذه البلاد في جيل واحد، فنقبر الأساليب العتيقة المخلة بالحياة الجديدة دون أن نترك فراغا لمعتنقيها يملأونه بمجادلات كثيرا ما تكون عقيمة، وكثيرا ما تؤخر عوامل النهضة الحقة والتجديد الصحيح. وهكذا يجب أن نتجه بالكتابة المغربية فننتشلها من وهدة الأساليب العتيقة ونصيرها صالحة لتؤدى ما تؤدي إليه الكتابة في العصر الحاضر من تعبير صادق عن الحياة في تناسق وانسجام ومن غير تطويل ممل أو تعسف في اختيار الألفاظ والتنقيب عن المترادفات.

ويظهر أنه في أمد وجيز اختفت من ميدان الكتابة المغربية أو كادت تختفي تلك الأسجاع المصطنعة والتراكيب الفخمة الجوفاء والتعبيرات المقلدة لمبالغات ناسبت الماضي ولكن جفاها ذوق العصر، فإن أغلبية الكتبة المغاربة الذين يتناولون القلم اليوم أصبحوا لا يفكرون في تلك المناهج الكتابية التي مارسها آباؤهم ومن على شاكلتهم في هذا العصر، بل أمسوا يزدرون هؤلاء الذين يحاولون تقليد الماضي.

ولكن - كما ذكرت في مقالي السابق - للكتابة المغربية التجديدية نواحي ضعف تكونت

تحت عوامل ثلاثة: تأثير الماضي وضعف الحاضر وحيرة الاتجاه في المستقبل.

تأثير الماضي

ولست أدعي أن أساليب الكتابة الحديثة طرقها جميعها الكتاب المغاربة فأجادوا، فإن مثل هذا الادعاء يكون باطلا من نفسه، ولكن أستطيع أن أزعم أن أدب المقال يأخذ الآن شكلا من أشكال الارتكاز الأولى؛ وليس من البعيد أن نرى قريبا نهضة للتأليف أقدر لها من الآن أن ستكون ناضجة نوعا ما وكذلك الموضوعات الكتابية الأخرى من قصة ورواية وغيرهما.

وأدب المقال أو أسلوب المقال حديث العهد بين أساليب العربية أحدثته الصاحافة، لم يعرفه كتابنا في العصور الماضية بصورة محددة كما نعرفه اليوم إذ هناك فرق كبير بين التأليف والمقال أو بين فصل ينشر ضمن كتاب وبين مقال يتدرج في صحيفة. ومن بين المقاييس الماضية التي لا زالت مسيطرة على الكتابة المغربية أن الكاتب يتصور أن طول المقال يدل على تمكن الكاتب من موضوعه. فمن القواعد الحديثة للمقال أن يتضمن فكرة في عبارات محددة متزنة، ولكنها تؤدي الفكرة من غير إجحاف أو فضول؛ فالتطويل في المقال دون أن يشمل شرح فكرة من الأفكار يؤدي بالقارئ العصري إلى التأفف؛ والتأفف يؤدي بطبيعة الحال إلى هجر مقالات ذلك الكاتب المطيل.

على أن التطويل في الدراسات الأدبية أو العلمية لتحليل موضوع من الموضوعات ضروري في بعض الأحيان، ولكن في الأسلوب الحديث وضعت له أساليب مثل تقسيم الموضوع إلى فقرات، كل فقرة بمنزلة مقال، أو تحديده بعناوين تجزئه إلى فصول، كل فصل يتصل بناحية من نواحي الموضوع المطروق ولكنه مستقل تقريبا بنفسه.

وإذا ساغ لبعض الأدباء أن ينطلقوا في حديث ممتع فيطيلون المقال، فإن ذلك لا يسوغ

إلا لطئفة خاصة من الموهوبين منهم لنكتهم اللاذعة أو وصفهم الشيق أو تحليلهم البارع؛ أما أن يحاول كل كاتب أن يطيل، فذلك ما يبتعد عن الذوق العصري والأساليب الحديثة في النقد الأدبي.

ثم إن هناك كاتبا مغربيا قلما يدخل الموضوع الذي يحاول معالجته رأسا، فلا بد من تمهيد أو تمهيدات تضيع عليه فكرة المقال الأساسية، وكثيرا ما تكون تلك التمهيدات في غير محلها أو عبارة عن سرد معلومات يعرفها القارئ، بينما من مميزات الكتابة العصرية الهجوم على الموضوع، فالقارئ اليوم يلم بأشتات من المعرفة تسمح له أن يدرك الفكرة الرامي إليها الكاتب دون أن يضطر ذلك الكاتب أن يمهد لها بتمهيد يبتدئ من خلق الله آدم ليصل إلى الموضوع المقصود؛ فالكاتب المغربي إذا أراد - مثلا - وصف حادثة تجلت فيها فضيلة الاعتماد على النفس عند أوربي يعمد في أغلب الأحيان إلى الكلام عن طبيعة البشر، وعما ورد في مدح الفضائل والتدليل على سمو المتحلى بها، وهكذا يظل ينتقل من موضوع إلى موضوع وأخيرا يصل إلى المضوع المعين في عنوانه، فيأتي مقاله طويل الذيل، لا هو بالدراسة للفضائل ولا هو بوصف لتلك الحادثة وإيضاح العبرة منها. وكذلك في أغلب نواحي الكتابة، فالذي يريد أن يتكلم عن حادثة تاريخية قد يسرد تاريخ تلك الأمة التي وقعت فيها الحادثة. ولعله من الخير أن يتجه الكتاب المغاربة من الآن إلى التزود في الكتابة الأدبية من التحليل الدقيق للموقف أو الفكرة التي يتناولون، وفي الكتابة العلمية من الدقة في عرض القضية التي يشرحون، فإننا في عصر المعرفة الواسعة التي ترتبط بإحساسات النفس العميقة، ومقاييس الفكر أكثر مما ترتبط بالنغمات الموسيقية في الألفاظ التي لا تنكر قيمتها ولكن يجب أن تقرن بصوغ الفكرة صوغا محكما. وبذلك نكون قد ابتعدنا عن أساليب الكتابة الماضية التي كانت توجه كل اهتمامها لنغمات السجع والجناس بينما أن هناك موقفا يجب أن يحلل وفكرة ينبغي أن تبسط وقضية بصدد الشرح.

الكتابة المغربية

مظاهر تطورها ونواحي الضعف فيها

الملحق الثقافي لجريدة المغرب

السنة الثانية - العدد 17 - الخميس 12 رجب عام 1357 الموافق 8 شتنبر سنة 1938

3

ضعف الحاضر

إذا كانت الكتابة المغربية تطورت تطورا يمكن تسجيله فإن التفكير المغربي لم يتطور تطورا محسوسا، بل لا زال يأخذ صبغة الماضي العتيق ولا زالت دعائم الثقافة المغربية تبنى على عناصر واهنة كل الوهن، ضعيفة كل الضعف؛ فإن إنتاج التفكير المغربي المعاصر واتصالنا بالحياة الغربية الجديدة لم يساعد على انقلاب جوهري في مقاييسنا العقلية وطرق فهمنا الحياة، بل لا زلنا نخضع في أغلب مظاهر حياتنا الفكرية والاجتماعية لصور بالية ورثناها عن ماض من الفوضى لازمتنا في العصور المتأخرة ومن الجمود الذي عم جميع مظاهر حياتنا منذ قرنين أو ثلاثة.

لذلك فإن الكتابة المغربية ينقصها التفكير العميق والدراسة المتينة والاتصال الوثيق بآثار الماضي الحافل وإنتاج التفكير الإنساني المعاصر. فإن كتابة مقالة وصوغها في قالب إنشائي يقتبس من كاتب معروف هو ليس كل ما في الكتابة من تعبير صادق عن خوالج النفس وخواطر الفكر؛ فإن الكتابة المغربية تقتبس من الكتاب العرب المعاصرين، ولكن أين ثقافتنا الواسعة من ثقافة أولئك الكتاب، وأين أبحاثنا من أبحاثهم، وأين مادة علمنا من

مادة علمهم؟

إن شيئا من ذلك غير موجود، وأغلب من يتناول القلم في المغرب يود أن يكتب قبل أن يحمل نفسه جزءا من التعب ليفكر فيما يكتب، فتكون الكتابة المغربية عبارات تحاكي عبارات كتاب ممتازين دون أن تبرهن على قدرة ومتانة ثقافة الكاتب.

فالكتاب المغاربة - إلا القليل النادر منهم - كتاب اكتسبوا مهنة الكتابة من المطالعة، والمطالعة مهما ساعدت المرء على توسيع دائرة تفكيره، فإنها لا تدعم الثقافة في الذهن تدعيما يماثل أثر الدراسة النظامية في تكوين فكر الطالب الجامعي.

حيرة الاتجاه في المستقبل

ولدينا الآن ثلاث طرق تؤدي إلى تلك الثقافة الجامعية التي ننشدها في التفكير المغربي:

أولاها - جامعة القرويين، وهى بالرغم مما نعلق عليها من آمال، لا يمكن أن تساعد، - وهى على صورتها الحاضرة - الطالب على تمتين ثقافته، وصوغها على الأسلوب العلمي من دقة في البحث وانسجام في التعبير؛ فإن ما تتطلبه من إصلاحات جوهرية في نظام التعليم ومواده يضطرنا إلى انتظار زمان طويل لتصبح جامعتنا أهلا لما تتطلبه من متخرجيها. على أن أمام طلابها الممتازين فرصة ليظهروا استعدادهم ونشاطهم إذا ما تعلموا لغة أجنبية واعتكفوا على دراسة تقتبس من أساليب البحث الحديثة؛ فإذا أصبح الطالب القروي لا يعتبر نفسه عالما بالشهادة بل بدراسة ينتجها في أحد الميادين التي درسها بين جدران الجامعة وخارجها في مطالعات ودراسات أخرى ، هناك يصبح للمغرب جيل جديد يستفيد من تراث الماضي استفادة ويؤدي مهمته للمغرب الجديد أحسن أداء.

وثانيها - التحاق بمعهد الدروس العليا بالرباط وبإحدى الجامعات الافرنسية، وأغلب من

يلتحق بهما تكون ثقافته العربية غير مدعمة على تعليم ابتدائي وثانوي متين؛ فإن الشباب المثقف إذا لم يكن ذا حظ من العربية يمكن عده من هؤلاء الاختصاصيين الذين يفدون على المغرب لاحتراف إحدى المهن الحرة فيه من طب وهندسة ومحاماة وغيرها؛ فثقافته أو اختصاصه إذا لم يكن مع توفره على اللسان لا يمكنه أن يساعد التفكير المغربي على التطور والازدهار، ولن تستفيد من ثقافته الكتابة المغربية.

وثالثها - فلكي يؤدي هؤلاء الشبان المثقفون مهمتهم للبيان المغربي لا مناص لهم من تعليم عربي صحيح لينشروا الآراء الجديدة بلغة تفهمها جماهير المتعلمين؛ فبمشاركتهم في ميدان الكتابة وقد أحرزوا على شهادة عالية يمكن أن نرى نهضة صحيحة الاتجاه في آفاق التفكير والأدب المغربي.

خواطر في النقد

مجلة « المغرب »

السنة الثالثة - عدد نونبر 1934 - شعبان 1353

صديقي ابن عباد[1]

أحسنت والله إذ عزمت أن تأخذ بيدك معول الهدم وتقصد هذه الصور البالية الجامدة من حياتنا التي توالى سباتها وهى تتزعم تفكيرنا وأدبنا، وتشاء أن تحصر الحياة الواسعة في دائرتها الضيقة والمتلاشية، فطريقة النقد التي أخذت اليوم بأسبابها وتفكر في الاتجاه إليها هى الوسيلة الوحيدة لكى نمهد للمستقبل نوعا من الإنتاج الصحيح، فيسري في عروق حياتنا الأدبية دبيب النشاط ودبيب الفتوة والتذوق للجمال في أعمق وأبسط صوره، فهؤلاء المنتجون يخيلون إلى كأنما هم جثث تتحرك وتسير وهى تغط في نومها لا تشعر بقيمة لوجودها ولا تسعى إلى غاية أسمى مما هى فيه.

ولا ريب أن عملك هذا يكون - وهو الأول من نوعه في حياتنا الفكرية - صدمة لكثير ممن يحرص أن يخفى نفسه بين طيات تلك الصورة البالية ويتجنب كل أسباب العنف والقوة التي تدعونا إليها الحياة إذا أردنا أن نكون معبرين عن تياراتها وتطوراتها، تلك التيارات والتطورات التي كانت ببلادنا إلى الأمس القريب واهنة متلاشية، أما اليوم فقد أصبحت هائجة صاخبة تعمل وراءها قوة شابة وروح فياضة بالإيمان والأمل، وتشاء أن

[1] هو الأديب محمد بن العباس القباج صاحب المقالتين اللتين تم نشرهما في الأعداد الأخيرة لمجلة « المغرب » تحت عنوان « لذعات بريئة ».

تكتسح كل مظهر من مظاهر الحياة لا يوافق العصر وما يضطرم به من قوة وانفعال؛ فأدباؤنا وقفوا بينما الحياة تقدمت خطوات، فاستحال وقوفهم إلى جمود بل إلى نوم وتلاش، وخير لهم أن يفسحوا المجال أمام عقولهم ويدركوا هذه الحياة التي نشاء اليوم أن نخترقها ونعبر عنها ونأمل في الحصول على غاية سامية منها كما أرجو أن يفهموا جيدا أننا في دعوتنا الأدبية لا نرغب في الجديد لأنه جديد ولا نزيف القديم لأنه قديم، بل لا نستطلع ولا ننشد أن نمثل الحياة خير تمثيل في إنتاج أدباء المغرب، فلينشد الجميع هذه الأمنية وأنا الكفيل لك يا صديقي أنه لا يبقى هناك نزاع ولا خصام. على أنه من المفيد لحياتنا الأدبية ولنضوجها أن يطول هذا النزاع ويحمى وطيسه بين فريقين يختصمان أشد الخصام في حدود الدفاع عن المبدإ والفكرة الطليقة لا التعرض إلى الشخصيات، فإن ذلك مما يدعو كل فريق أن يطيل النزاع في مسائل لا تفيد حياتنا الأدبية بل تضرها حيث تعطي صورة عنها مشوهة لا تناسب جلال الأدب ولا قدسية الجمال.

وهنا أريد أن أسألك هل تحاول أن تنقد شاعرية الشاعر أم قصيدة من قصائده. فالذي يظهر لي بعد أن قرأت مقالتيك أنك تكتفي بقصيدة للشاعر فتستعرضها أمام القراء بما حوت من ابتذال، وإذا بك في ختام النقد لا تطلب من ذلك الشاعر إلا أن يريحنا من منظوماته، وهذا ضرب من الإيجاز يخل بالمعنى التي تتضمنها كلمة النقد الواسعة إذ ليس من الضروري المحتم أن يجيد الشاعر في كل قصيدة يقولها؛ ولعلك إذا جلت بالشعر العربي من العصر الجاهلي إلى اليوم لم تجد هذا الشاعر الذي يجيد في كل بيت يقوله ويبلغ الذروة العليا في كل قصيدة من قصائده، فليست تلك الإجادة الشاملة بالعنصر اللازم لنبوغ الشاعر واعتراف الناقدين له بالشاعرية الفياضة. فلكى نحكم على الشاعر يجب أن نعتبر أن كل قصائده أمامنا، ونحن نود أن نكون عنها فكرة يأخذ الشاعر بها مستواه بين الأدباء؛ فمن مقاييس النقد التي كانت تعتبر صحيحة في الماضي أن هناك شعراء اعترفوا لهم بالشاعرية لقصيدة أو قصيدتين أجادوا فيها ولا زال اسمهم يردد بين

نبغاء الشعراء.

وإذا نحن طلبنا من الشاعر إجادة شاملة في كل ما يحاول أن يتلفظ به من الشعر فقد سعينا أن نصور أمامه الحياة بشكل يعطي ولا يأخذ، أى أن فيها دوام استفزاز العاطفة وإيقاظ الشاعرية لا تخمد ولا تقف أمام مدلهمات وخطوب الحياة واجمتين جامدتين، وليس ذلك بالممكن. ثم لو ضربنا صفحا عما تقدمه الحياة أمام الشاعر من ألوان وصور تارة تهيج وطورا تصطدم بالإحساس والمشاعر، لو ضربنا صفحا عن ذلك واتجهنا إلى تفهم هذا الوسط المغربي في العهد الأخير وكيف تقاس فيه الحياة وكيف تعتبر الأعمال الروحية لرأينا كل شيء يغاير الإحساس والشعور ويتناقض مع الوجدان والعاطفة السامية؛ فقد مرت على وسطنا هذه السنوات الأخيرة شبه نوبة رجعية لا يتقدم شيء خطوة إلا ليرجع عشرات من الخطوات، وكل مظاهر حياتنا يسير بصورة آلية لا أثر للروح في حركاتها ولا ينبعث تطورها وسيرها عن إحساس مطلقا، بل لقد رأينا فتورا في كل شيء وتهاونا من كل شخص كأنما الحياة أن تعيش لتحرك أسنانك ولسانك بطرف من الخبز، وكل شيء عدا هذا يخشى ويعد فضولا؛ فإذا ما فزع الشباب من هذا المظهر المخيف وأسرع إلى صفحات الماضي وتراث الأجداد يسائلها في دهشة ترى هل الحياة المغربية الماضية كانت صورة من هذه الحياة المرعبة التي يعيشها آباؤنا وهم بين موت الروح وحركة الجسم فلا ريب أنه سيجد في طيات الماضي ما لم يجده بين هذه الشخصيات المتداعية إلى الفناء والموت وبين هذه الصورة من الحياة الجامدة المكبوتة سيجد الشباب في ماضي وطنه حيوية في التفكير والإنتاج الأدبي أين هما من العصر الحاضر حيث كل شيء ذابل وكل يخيل إلينا يسير إلى الموت.

هكذا أتخيل عصرنا الحاضر لو أحببت أن أصوره تصويرا مجردا عن كل اعتبار؛ وعصر كهذا العصر لا ينبغ فيه الشاعر إلا نبوغ محاكاة، وتصفيف كلمات، وهذه نقطة يجب ألا نغفلها إذا أردنا أن ننقد شعراءنا ونحلل مميزات شاعريتهم إذ أن للربط تأثيره في الشاعر، فكما

أن العصر الذهبي يؤثر إيجابيا كذلك عصر الانحطاط - كعصرنا هذا - يؤثر سلبيا، فمن العسير وشعراؤنا يعيشون في هذا العصر أن تأخذ قصيدة من قصائدهم يعلم الله الدافع لهم على نظمها فتناقشهم فيها وتجادلهم ثم تختم حكمك الصارم، فالإنصاف بل النقد الصحيح يرغمنا أن نتابع الشاعر الذي فاضت به نفسه في ساعة اختلسها من الزمان اختلاسا، لهذا فأعتقد أنك تباعدت عن طريقة النقد المنتج وأنت تود أن تصور شاعرية الشاعر من قصيدة أو قصيدتين، فليس عصرنا بالعصر الذهبي الذي تتفق فيه المواهب وتفيض فيه الشاعرية إلى درجة أن قصيدة واحدة كفيلة بأن تقدم صورة واضحة جلية عن الشاعر ومقدار اتصال نفسه ومشاعره بما في الحياة من صور الجمال وألوان الانفعالات.

ثم إن كلمة النقد في معنى البحث الحديث والمدرسة الجديدة والأصل اللغوي ترمي إلى معنى خاص غير المعنى المتواتر في وسطنا وهو إظهار المساوئ أو ربما التحامل غير المناسب، بل معناه الأصلي والمعنى الذي يسود اليوم مدرسة النقاد الحديثين هى تلك المعنى التي تنزع بك أن تحلل الشاعر وتدرس آثاره وما يحوي من مزايا وابتذال وتعلل ذلك تعليلا يتصور منه المؤثرات التي ساعدت المنتج النابغة أو غير النابغة على أن يقدم لنا إنتاجه فنتفهم هذا الروح الذي ساد عصره وتمخضت عنه حوادث زمانه وانقلاباته.

هكذا أرى أن يقدم النقد الحديث لشيوخ الأدب الأجلة ببلادنا، ولهذه الفكرة ينبغي أن نسعى ونهد عروشا من المجد على أركان الوهم، وبنيت وستنتصر فكرتنا وتسود وسطنا في قليل من الزمان؛ ففي بلادنا ومجتمعنا استعداد لكل شيء من التجديد وخلع هذه الأثواب الثقيلة التي حملنا إياها على الانحطاط؛ فلتسر يا صديقي ابن عباد في طريقك المنتج تحياتنا الفكرية مهما تحملت اليوم من صدمات ومهما خيل لوسطنا الحاضر أنك قاس في لذعاتك البريئة العذبة. فلتسر دون أن تلتفت إلى الوراء، فالمستقبل لنا.

تعليق مجلة « المغرب »

على هامش مقال « خواطر في النقد »

نعرف صاحب المقال الأخ الكاتب النبيل من أشد الناس تقديرا وإجلالا للطائفة التي يشير إليها من الشعراء الموقرين الذين هم زينة البلاد علما وأدبا وحكمة، خلافا لما يتبادر إلى الذهن من بعض عبارات في مقاله مغتفرة في باب النقد؛ ونذكر أن ابن عباد لا يقصد جماعة دون أخرى، وسيتناول نقده الشيوخ والشبان والقديم والحديث وكتاب المغرب والجزائر وتونس ولكل مزايا ولكل فضل على اللغة والثقافة ولكل مواطن تحتاج إلى الإصلاح.

وبلغنا من مراكش - مؤخرا - رد على نقد مساعدنا ابن عباد بشأن الأخ الشاعر المطبوع وسننشره في العدد المقبل إن شاء الله.

هذا وقد رجى منا بعض الأصدقاء أن نلتزم الحياد بعدم التعليق على المقالات، ولا يمكن ذلك، أما أولا فإن لنا كسائر « القراء » الحق في إبداء فكرنا، وأما ثانيا فإن التعليق خير وسيلة لإعطاء الكتاب الحرية المطلقة في نشر ما يكتبون مع المحافظة على خطة الاعتدال التي هى خطة المجلة.

ولعل أحسن دليل على أننا غير مخطئين أن كثيرا من الجرائد في الخارج اقتدت بنا في ذلك.

انتهى تعليق المجلة

وفيما يلي، تعميما للفائدة، تقديم المجلة لرد مراسلها على لذعات ابن عباد، ونحيل القارئ الكريم على نص الرد المذكور في عدد 21 دجنبر 1934 لمجلة « المغرب » :

حول « لذعات بريئة ... »

مجلة « المغرب » 21 دجنبر 1934

توصلنا برد على لذعات ابن عباد للشاعر المبدع الأستاذ الشنجيطي الذي يعرف القراء تضلعه باللغة وثقافته العالية وعلمه الغزير؛ ومن جملة ما تناوله الأستاذ الشنجيطي في رده مسألة النسيب التي هى محل جدال بين دعاة التجديد والمحافظين سواء في هاته الديار أو في غيرها من البلاد العربية، ولعل للنسيب مغزى أعلى مما يتبادر إلى ذهن كثير من الأدباء؛ فإن الأوتبيين يبنون ما يكتبون من روايات وقصص دائما على المرأة والغرام؛ وفي القرون الوسطى كان فرسان أبطال يجوبون الوهاد والأنجاد لهماية المظلومين وإغاثة الضعفاء ويسعون في تلك العصور المظلمة بأوربا في إعلاء الحق على الباطل، وللكل عشيقة قد لا يكون لها وجود إلا في الخيال، وتسمى برفيقة الخاطر يستوحيها البطل ويخدمها له بأعماله ويقصد رضاها بمآثره، وقد ينسب غالب المؤرخين حركة الفروسة هاته بأوربا إلى تأثير العرب والحضارة الإسلامية التي أدخلت على أمم الغرب التي كانت إذ ذاك متوحشة الشعور بالجمال ورقة الغرام والشمم والنجدة وغير ذلك من شيم الرجولة الكاملة، وفي كتابنا « المرأة المسلمة » استندنا - من جملة أشياء - على « النسيب » في الشعر العربي ثم على إقرار النبى صلى الله عليه وسلم بعض الشعراء عليه للإشادة بمكانة النساء في المجتمع العربي، فإذا كان الشعراء يستعملون النسيب تقليدا فإن النسيب فيما يظهر أسبابا عميقة خارجة عن موضوع الجدل بين المجددين ومعارضيهم، وفي نظرنا القصير أنه لا ضرورة في أن يتركه شعراء العصر.

شباب غفل

الثقافة المغربية

- العدد 12 - 10 جمادى الأولى عام 1357 الموافق 8 يوليوز سنة 1938

لعلك إذا بحثت وأجهدت نفسك بالبحث في قواميس اللغة عن صفة تصف بها الشباب المغربي الذي حاول أن يقترب من مدنية العصر بتعلمه للغة من لغاتها الحية، لا تستطيع أن تجد صفة أوفق تصفه بها من كلمة « غفل ».

فإن هذه الطائفة من الشباب، وهى صلة الوصل بين المغرب القديم المتهدم، والمغرب القادم المتجدد، أبعد الجماعات المغربية عن فهم مهمتها في الحياة، وهى بتعلمها العصري لم تزدد إلا حبا في الخمول، وشغفا بالانعزال، بل ما لنا نذهب بعيدا ونطلب منها أن تعمل للوسط الذي تعيش فيه وهى لا تعمل حتى لنفسها كإنسان حي متمدن، عليه واجبات وله حقوق، فإن ثقافتها - أو بالأصح تعليمها - يقف عند الحد الذي غادرت فيه المدرسة، وتقسم الإيمان ألا تحيد عن فكرتها المدرسية الضيقة، طول السنوات بل وطول عمرها، فلا تكاد تجد زمرة منها تشغل بالها بفكرة علمية، أو شغف فني، أو محاولة مستقلة ناجحة في ميادين الاقتصاد.

بل الأغرب من هذا أن أغلبها لم يتذوق حتى المطالعة في كتب المتعة واللذة من روايات وقصص تحفل بها الخزانة الفرنسية، والأنكى من ذلك كله أنها قلما تطالع الصحف الفرنسية اليومية لتعلم شيئا ما عن ماجريات العالم وتعيش في عصرها.

حاول أن تتصل بهذه الجماعات من هاته الطائفة التي احتلت الوظائف وتربعت في كراسيها الضيقة، وحاول أن تجد فردا منها يشغل نفسه بنظرية فلسفية ينتصر لها أو

يرددها، أو بفكرة اجتماعية يراها سلم النجاة لأمته، أو سبب التأخر بها، أو بديوان شعر ينشد أبياته، ويترنم لمعانيها، ويطرب لمقطعاتها الموسيقية، أو برواية تجمع الفكرة إلى الأسلوب البديع والخيال المنسجم يعيش في حلمها البديع ويحملك أن تعيش معه هنيهة.
فهذه الطائفة - التي يجب أن توجه الحملة ضدها من جميع المثقفين المغاربة - تكاد تكون في عزلة عن الحياة العصرية، ولم تستطع أن تقترب منها إلا في بعض مظاهر لا تتصل بجوهر التجديد في أية ناحية من نواحيه العديدة، فهى في غفلة عن هذا العالم المتقلب المتجدد في كل يوم ولكل حادثة، وهى تغط في نومها لا تشاء أن تستيقظ حريصة على حياتها القائمة ولاهية بلذاتها التافهة عن فهم روح العصر والسعي في تجديد مظاهرها وتغيير أساليب معيشتها، فتعلمها لم يؤثر في الحياة المنزلية بشىء كما لم يؤثر خارج تلك الحياة بشىء، بل ان التعليم لم يؤثر في نفسيتها أقل تأثير، ولم يميز بينها وبين ذلك المغربي الذي قضى سنوات في مكتب ضيق الجدران.
إننا نربأ بالمدنية العصرية أن تمثلها لدى شعبنا ەذه الطائفة من الشباب المهدم الآمال المحطم الأعمال، فإن الصورة التي يظهرون بها لا تمثل مدنية العصر في شىء، ومن الواجب أن يفهم ذلك الجمهور المغربي ويعلم أن مظاهر هذه الطائفة شىء ومظاهر المدنية العصرية شىء آخر لا صلة بينهما بتاتا. وبذلك لا غير لا تسقط المدنية العصرية في نظره، بل يقدرها ويحترم رجالها ويعمل على اقتباس حسناتها.
فإن الشباب الذي تعلم اللغة الفرنسية أساء فهم مهمته، ولم يؤد رسالته للحياة المغربية في أية صورة من الصور، وهو فوق هذا وذاك كسول قنوع لا يحس بآلام ولا يشعر بآمال ولا يطلب رفعة ولا يفكر في مجد لا لنفسه ولا لأمته.
فهو إذن شباب غفل لا يرجى خيره ولا يخشى شره. تلك مرتبته فليقدرها إن شاء.

على هامش مقال « شباب غفل »

من لغو الصيف

الثقافة المغربية

العدد 13 - 23 جمادى الأولى عام 1357 - موافق 21 يوليوز سنة 1938

كانت الليلة ليلة صيف حارة، هجر النوم فيها مقلتي، ففتحت نوافذ غرفتي، واضطجعت مستريحا على مقعد طويل بين رفوف كتبي أطالع بل أتصفح مجلات على ضوء ضئيل لأقتل الوقت منتظرا هبوب نسيم الهزيع الأخير من الليل، وأخيرا صرت بين حالة النائم واليقظ، أنتبه تارة وتارة تأخذني سنة خفيفة ، فأهيم في عالم الأحلام اللذيذة. وبينما أنا في هذا السكون العميق إذ نفذ إلى أذني حفيف أوراق، فظننت أنه فار جاء زائرا خزانتي في هذه الليلة، فلم أعر له بالا، ولكن سرعان ما تعاظم الأمر، وارتجت الرفوف، وانهارت الكتب على الأرض، وصارت تقفز وتطير وتتصادم، فدخلني رعب عظيم، ثم تضاعف ذهولي وكدت أفقد شعوري لما سمعت أصواتا ترتفع من طيات الكتب: « صاحبي ... نعم ... صاحبي أحسن من صاحبك ... الرافعي ... العقاد ... » ولولا هذه الأصوات السحرية الموسيقية وهذا الحوار اللطيف وهذا الجدال الأدبي الممتع لخرجت فارا، ولصرت أصيح مستغيثا، لكنني استجمعت قواى، وأمعنت النظر، فإذا بالثورة القائمة هى بين كتب العقاد والرافعي وأعداد أخيرة من « الرسالة » بها مقالات لأنصارهما وخصومهما؛ ثم صار الضجيج يكثر، والملاكمة تشتد، وإذا برأس ضخم يخرج من كتاب « في الأدب الجاهلي » يصيح قائلا: « يمكن أن يكون الرافعي أحسن من العقاد، ويستطيع العقاد أن يكون أحسن من الرافعي، وليس الرافعي أحسن من العقاد، ولا العقاد أحسن من الرافعي، على أننا نستطيع أن نتساءل هل هنك عقاد وهل هناك رافعي، ونستطيع أن نتساءل هل هذه

الكتب التي ننسبها لهما هى صكك ثابتة، أم هى كالمعلقات منحولة ... »

ثم أطلت رؤوس أخرى من كتب أخرى تحتج وتدافع وتناضل، وتوازن وتفاضل، وإذا بكتاب « النثر الفني » يضرب صفوف الكتب ويتقدم ويخرج صاحبه منه وهو مخاصر ليلى فيقول في خيلاء: « اختلفوا ما شئتم، فلن يستطيع العقاد أن يكون أحسن من الرافعي، ولا الرافعي أحسن من العقاد، إلا يوم أضع عن أحدهما كتابا مثل كتابي عن الشريف الرضي » . فقلت في نفسي: لا شك أن هؤلاء القوم لهم اتصال بشياطين الشعراء. إذن هذه فرصة ثمينة للسؤال عن شيطان أديب سلا المفقود[1]

فانحنيت على كتاب هادئ أضناه تعب الجدال، فسلمت عليه وأعدت له السلام وكررته وأسرفت في قولي « سيدي » و « مولاى » ، فصاح الكتاب في ضجر وقلق: دعني من هذه الزخارف وهذه الآداب الفارغة التي اصطلحتم عليها معشر البشر. فقلت: عفوا إن أسأت الأدب، ولم أهتد كيف أخاطبك، فأنا - عافاك الله - مريض. فقال: هذا عذر لا نعرفه نحن معشر الشياطين، فالأمراض لا تتسلط إلا على المادة. ثم قفز ولكم كتابا بجانبه لكمة عنيفة إذ سمع منه شرا، وعاد قريبا مني. فقلت: إن هذا المرض الذي أصابني - عافاك الله - لم يصب جسمي، وإلا لاسترشدت طبيبا وتداويت. فقال: إذن أنت مصاب في عقلك؟ فقلت: ولا هذا، وإلا لو كنت مصابا في عقلي لكنت الآن بين جدران سيدي ابن عاشر. أنا - عافاك الله - شاب غفل، وهذه شهادة الدبلوم واللسانس تشهد لي بهذا الخزي والعار! فانتزع مني الشهادات ومزقها وقال: أنا لا أعتبر الشهادات، فمن قال لك إنك غفل؟ قلت: « الثقافة » قال: « الثقافة؟ » فلنبجل الثقافة! الثقافة عندنا معشر الشياطين مقدسة، نحن جنود الثقافة والشعر والأدب، لا نعمل إلا لها ولم نوجد إلا لخدمتها، أينما

[1] يقصد بأديب سلا الشاعر عبد الرحمن حجي شقيق سعيد الأكبر.

وجدنا وجدت، وكلما فقدت فقدنا. هى نحن ونحن هى، غرسناها قديما باليونان فأينعت أوراقها، وتعهدناها بالشرق فأثمرت أغصانها، وها نحن ... فقلت: عفوا، ليست هذه الثقافة التي أعني، وإنما أعني أوراقا تطبع سماها صاحبها « الثقافة » فضحك ضحكة ارتجت لها أركان الغرفة وقال لي: عجبا لكم معشر البشر ما أكثر هذيانكم، اسمع! ليس لي وقت فارغ لهذا الهذيان، نحن شياطين الأدب العربي في هذه الأيام في معركة عنيفة، انقسمنا صفين، صفا مع صاحب العقاد، وصفا مع صاحب الرافعي، وإننا نتجلى كل ليلة في كتب العقاد والرافعي في أي خزانة كانت ونناظر ونحاجج. فقلت: ما أسعد حظي بزيارتكم، فبالله عليك ألا أخبرتني عن شيطان أديب يبحث عنه جميع الشباب الغفل. فقال: ومن هو الأديب؟ فقلت: أبو زيد. فقال: ومن أبو زيد؟ قلت: الساكن بسلا. فقال: عجبا! يذكرني كلامك هذا بقول شاعر القرون الخوالي:

سألنا عن ثمالة كل حي ... وكلهم أجاب: ومن ثمالة؟

فقلت: محمد بن يزيد منهم ... فقالوا: الآن زدت بهم جهالة

فما هى سلا وأين هى؟ قلت: لو كنت تقرأ « الثقافة » لاطلعت على ما قاله فيها شاب غفل، ولعلمت أنها مدينة جميلة على البحر المحيطي، بها ضريح للعلامة ابن عاشر. فضحك مستهزئا وقال: العلامة ابن عاشر! ألا تعلم أن العلماء أعداء الشياطين، وأننا معشر الشياطين لا نألف إلا الشعراء والأدباء والفنانين. فقلت: أديب سلا هذا يدعي أنه شاعر، ولكن ... فقال: ولكن ما ذا؟ فقلت: من سوء حظه أنه منذ اتصل بالشباب الغفل في مهنة يتعاطاها، صار يدعي أن شيطانه فر منه، ونحن خدمة للأدب وإخلاصا للفن نبحث عنه. فقال: أمر هذا الشاعر غريب؛ وصار يردد: أبو زيد ... سلا ... فصاح شيطان من كتاب كان يسمعنا وقال: نعم، نعم، أنا أعرف أديبا بسلا؛ فتروى الشيطان قليلا وقال: الآن عرفته، هيا بنا إليه، فأخذ بيدي وطرنا إلى أن وصلنا إلى حي بسلا منعزل هادئ، ونزلنا على جدران مهدمة تحسبها أطلالا فتسربناها، فإذا ليس بها إلا صحن كله تراب،

وبوسطه رجل متين الجثة، أسمر اللون، مبيض الشعر، وعلى عينيه الضيقتين نظارتان، وبين يدى الشيخ كتب مفتوحة من جهة ديوان الشريف الرضي وصفي الدين الحلي، ومن جهة أخرى أضغاث أوراق بها قصائد الشعر الملحون لسيدي التهامي المدغري وغيره. فصحت قائلا: ليس هذا أديب سلا الذي نبحث عن شيطانه، فقال الشيطان: لا تزعج الشيخ الحكيم، فإنه عزيز عندنا إذ يحتفظ لأدب بلادكم بهذه الأوراق البالية الحاوية لأشعار الملحون التي هى أحسن ما أوحيناه لكم وخير تراث شعرائكم، وهو إلى ذلك فرع شجرة طيبة، ومراعاته علينا واجبة. قلت: ما كنت أظن أن هذا الشيخ المنعزل بهذه المكانة عندكم. قال: تبا لكم، أتظنون أن الشعر عندنا هو ذلك الكلام الموزون الذي يجمع شعراؤكم المعاصرون قوافيه من مختار الصحاح والمصباح، فلا ينطقون بما يشعرون، ولكن بما يسعه الوزن وتتحمله القافية؟ إن هذا الشعر الملحون الذي بين يديه وإن لم يحظ بالطبع على ورق صقيل، مزدان بالصور وخداع العناوين فهو وحى مردة الشياطين، ولكن ضاع رواؤه فيكم، فهجرتموه لضرير يتوسل به، أو دميم وجه يتكفف به أو منكر صوت يصيح به. ثم قال وقد خرجنا من خلوة الشيخ: أين منزل أديبك؟ قلت: قريب، وهو منزل أنيق تزينه خزانة تزخر بكتب اللغة وفقه اللغة والدواوين الشعرية وشروحها. فقال لي: ويحك! لو قلت لي هذا في البداية لاتضح الأمر. الآن، عرفت لماذا هجره أخونا شيطانه؛ إنه لم يهجره لأجل الشباب الغفل، وإنما هجره لأننا معشر الشياطين لا نجتمع وكتب اللغة في مكان واحد، نحن أعداء المقاييس والموازين، نحن نهوى من يصدع عفوا بما نوحي إليه من المعاني؛ إن المعاني التي ننزل بها على أصحابها هى فلذات أكبادنا، ويعز علينا أن نراها سجينة في قوالب النحو واللغة الضيقة الجافة.

وبينما نحن في هذا الحديث إذ لاحت لنا بناية واسعة الأرجاء، كثيرة النوافذ، حديثة العهد، فقال الشيطان: ما هذه البناية؟ قلت: هذه مدرسة (أى معمل من المعامل التي يصنع بها الشباب الغفل) ثم زدت قائلا: هل منكم من يعرف شبانا أغفالا، أم أنتم على

رأي صاحب « الثقافة » من أن الشباب الغفل لا صلة له بالأدب ولا صلة له بالشعر؟ فقال: معاذ الله! إن الشباب الغفل هم أبناؤنا وجنود من جنودنا وما أعزهم عندنا؛ أرسلناهم ليتمردوا ويثوروا ويهاجموا ويهدموا، فإذا قاموا بهذا الطور، طور التمرد والثورة والهجوم والهدم وجلسوا يرتاحون، جعلنا جزاءهم ما نكنز لهم من شعر وأدب وفن وفلسفة؛ أما الآن فالعصر عصر هدم، ولن تسمع قيثارة شاعر، بل لن تسمع إلا المعول الهدام. وما قطع علينا هذا الحديث في هذا الصبح الهادئ وهذا السكون السائد إلا وقع أقدام ، فصمتنا وسكتنا ننظر من أعلى الجدران وإذا بالمار هو صاحب « الثقافة » فقلت للشيطان: أتعرف من القادم، هو صاحب « الثقافة » . ثم سألته هلا تخبرني هل له شيطان عندكم ؟ فقال: شيطانه من الإنس لا من الجن ولكن لتعلمن نباه بعد حين، إن شيطان الإنس أشد بطشا وأقوى نكالا من شياطين الجن، ثم ويل لمن تآمرت عليه شياطين الإنس والجن!

اسر بهذا وجذبني قائلا: هيا بنا فقد آن للصبح أن ينفلق وآن لنا أن نختفى، فنحن أعداء النور ولا نهوى إلا الظلام. فما هى إلا لمحة بصر وإذا أنا في مكاني ممتد على مقعدي، فقال: وداعا. قلت: فهل لك أن تخبرني أى أديب أنت شيطانه؟ فقال: أتظن أنك تستطيع أن تعبث بالشياطين؟ واه لك! لقد صدق من قال إنك ...[1]

... شاب غفل - فاس

[1] صاحب المقال الذي لم يعلن عن اسمه هو الأستاذ أحمد بناني، أحد أعضاء أسرة المغرب الثقافي.

الشباب المغربي في ميدان الأعمال

الثقافة المغربية

- العدد 14 - 6 جمادى الثانية عام 1357 الموافق 3 غشت سنة 1938

لو أن فلاحا بذر الحب في أرضه وقدر محصوله بألف قنطار فكان إنتاجه قنطارا واحدا وسألته كيف موسم حصادك، أتراه فرحا به، مغتبطا بنتيجته، وهل يستطيع مجادل أن يزعم له أن قنطارا يساوي ألفا فيحمله على أن يستبشر وأن يعتقد أن حصاده يكفل له الغناء ويضمن له الرزق طول السنة؟

وهذا موقف المغرب من شبابه الذي ثقف ثقافة فرنسية، كان يؤمل أن يخرجه من حياة ذابلة، وصور قاتمة، إلى حياة نور ونشاط، فيضربون الأمثلة الحقة على تفوق المدنية العصرية، ودعامة دولها، ولكن كان المتخرجون من المدارس العصرية يعدون بالآلاف، والذين يحملون فكرة تجديدية في العلم أو الأدب أو الاقتصاد أو مظاهر الحياة يعدون بالآحاد، ولن يستطيع « شاب غفل » أن يزجزح هذا الاعتقاد المتشائم عن هؤلاء الشبان مهما حاول أن يطيل مقاله، ومهما حاول أن يوهم القراء بضرب الأمثلة المفتعلة كأنه يحدث عن عالم لا صلة لنا به، فلن نستطيع أن نناقشه الحساب، ولن نقوى على أن نزيف زائفها ونقص من مبالغاتها. فشابنا الغفل يدافع بحرارة عن طائفته، وإنا لنعجب من دفاعه ونغتبط بهذا الروح الذي حمله على نقد مقال « شباب غفل » في حماس طورا وسخرية أطوارا. وشأن الدفاع أن تكون من الحبة قبة، ولكن شأن الرد أن تصير تلك القبة حبة؛ فهو يضرب الأمثلة على نشاط الشباب المثقف ثقافة عصرية، ويعدد مظاهر حيويتها في صور متباينة حتى لنخالها بعيدة عن أي تغرير؛ فمن لطائف شابنا الغفل

الساخر أن يعدد أعمال شاب واحد فتتخيل أن كل عمل منها قام به شاب، وبذلك استطاع أن يلقى في روع القراء أن عدد الشباب النشيط اليقظ يعد بالعشرات بينما هو لا يعد إلا بالآحاد.

فهو يتساءل عن مساعدي المجلة، ولا ريب أن من بينهم شابين ثقفا ثقافة عصرية وثقافة قديمة، ثم يعدد من الشباب المثقف ثقافة عصرية أستاذا بالمعهد العلمي، ومن المعلوم أن هذا الأستاذ هو أحد هذين الشابين المساعدين للمجلة، فالمساعد للمجلة والأستاذ بالمعهد شخص واحد، ثم يعدد شابا آخر جمع القصص المغربية في جزأين، ونشرهما بالفرنسية، وعلق عليهما تعاليق علمية تدل على اطلاع واسع طبعت منها الألوف من النسخ ونفذت جميعها، وليس هذا الشاب إلا ذلك الأستاذ بالمعهد المساعد في تحرير المجلة.

وهكذا استطاع أن « يبلف » على أحد تعبير المصريين على القراء، فيعدد أعمال كل فرد من الشباب النشيط ويدلس في تعبيراته حتى تتخيل أن كل عمل منها قام به فرد مستقل من الشباب. وهذه صورة عن جميع الأمثلة التي ضربها لنشاط هؤلاء الشبان في ميدان الأعمال؛ فبقليل من المناقشة تصير مبالغاتها رمادا لا يدر إلا على العيون القصيرة النظر غير المطلعة على حقائق الأمور.

وإذا كان شابنا الساخر يتصور أن هذا العدد الضئيل من الشباب النشيط يكفي لنعتقد أن الشباب المتعلم تعليما عصريا أدى رسالته للحياة المغربية، فإني أخالفه وأومن أن كل المفكرين سواء منهم المثقفين بالثقافة العصرية أو غيرهم يخالفونه كل المخالفة؛ فإن المسؤولية في الحياة لا تلقى على كل الأفراد بالتساوي، بل يتحمل المعلم جزأها الأكبر، لذلك فإن الشباب المثقف ثقافة عصرية يتحمل من اللوم ما لا يتحمله غيره من طبقات الأمة، ولذلك خصصته من بين تلك الطبقات لا لكونه لم يؤد واجبه بينما طبقات الأمة الأخرى أدت واجبها على وجهه الأكمل، بل لأن مسؤوليته في الحياة أخطر وأعظم من مسؤولية غيره. وإني لأعترف للشاب الساخر أني لم أستثن في مقال « شباب غفل » أية

جماعة من هؤلاء الشباب التي تعمل بجد ونشاط عظيمين في سبيل وطنها أو سبيل تطور أمتها. ولكن عذري في ذلك أني أغرقت في التشاؤم لعل روحا من التبرم من مقالي تسري بين أغلبية الشبان الساحقة، والتي هى مثال الخمول، فيعترضون ويناقشون ويسخطون، ولكنهم يضطرون في الأخير أن يعترفوا أنهم لا يعملون، ولعلهم بعد ذلك يفكرون في عمل؛ أما لو استثنيت، فإن كل فرد سيحشر نفسه في زمرة المستثنيين، ولن يرى تبرم ولا شبه تبرم، ولن يكون لمقالي المتشائم بذلك الاستثناء أى صدى استياء، ولن يسخط أمثالك فيحرمنا الاستثناء من أن نكتشف سخريتك التي راقت القراء، فأحبوا منها المزيد. فبفضل « شباب غفل » رأينا من بين الشباب من يستطيع أن يسخر بقلمه، وأن يلذع بتعبيراته، ويحدث من ذلك كل ضجة نرجو ألا تقف عند حد القراءة والتسلية.

ومن الغريب أن كل الأفراد من الشباب المثقف ثقافة عصرية يتساءل لماذا لم أستثن أية طائفة كأنما العاملون من بينهم يعدون بالمئات، وإني تجاهلت أمر هذه المئات كل التجاهل مع أن عدد العاملين مهما دققت الإحصاء لا يعدون إلا بالآحاد؛ وكيف يجوز في مقال ثورة وتعنيف استثناء عشرة أفراد نشيطين يعملون لمبدئهم وبلادهم من بين عشرة آلاف شاب تعلم ولم يخدم نفسه ولا وسطه في أية ناحية من نواحي الحياة.

إن هؤلاء الأفراد العشرة الممتازين نشاطا وهمة يشاركون في هذه الحملة على الشباب الذي لم يقدر مهمته في الحياة، ويرون التعليم لم يؤثر على نفوسهم تأثيرا صحيحا.

ومهما يكن من شىء فيجب ألا نفكر في الرضا عن حالتنا، فهى جدا تحتاج إلى ثورة في عنف وتهديم في غير مماطلة ولا تسويف، ومن الواجب أن تكون طائفة الشباب المغربي الخاملة التي تعلمت تعليما عصريا أول من يثار عليها لأنها تجاهلت رسالتها، ورضيت بحالتها، والرضا بالادون طريق الموت.

على هامش مقال « الشباب الغفل »

من هو هذا الشاب الغفل؟

الثقافة المغربية

- العدد 15 - 19 جمادى التانية عام 1357 الموافق 16 غشت سنة 1938

بقلم ...[1]

حمل إلى البريد صبيحة اليوم رسالة، وما أن وقع بصري على طابع البريد وبه « سلا » حتى أوجست في نفسي خيفة فقلت: لقد وقع ما كنت أحذره. هذه لا شك إما رسالة من أهل سلا يهددونني ويسبونني فيها، وإما قصيدة من أديب سلا يهجوني بها. ففتحتها بعدما ترددت طويلا فألفيتها من صاحب « الثقافة » وهى مكتوبة بخط شرقي. فما استغربت ذلك. لأن واجب المهنة يقضي على الصحافي المغربي أن يكتب بخط زملائه الصحافيين المصريين! وما قرأتها إلا بعد تعب وجهد طويل، ولكن كل شىء في تقليد مصر رخيص! فعلمت لأول مرة في حياتي من ديباجة هذا الكتاب أنني أستاذ! إذ كل من يكتب عندنا في صحيفة يصبح أستاذا، كما أن كل من يحمل على كتفيه سلهاما يصبح فقيها! وأول ما استهل به صاحب « الثقافة » قوله إنه لا يود أن أبقى غفلا، فاستبشرت خيرا، وقلت إن صاحب « الثقافة » يريد أن يخرجني من زمرة الشباب الغفل المغضوب

[1] طلب من محرر مقال « من لغو الصيف » أن يجهر باسمه ففضل الاحتفاظ بالتوقيع الذي اختاره لرده على مقال « شباب غفل » وهو كما سبقت الإشارة إلى ذلك على هامش مقال الرد المذكور الأستاذ أحمد بناني.

عليه، رحمة بي أو جزاء لي على مقالاتي أو خوفا مني ... ولكن ما أتيت على آخر الرسالة حتى خابت الآمال، وعلمت أن صاحب « الثقافة » يريد ألا أبقى غفلا، أى مجهول الإسم ، لأن القراء ألحوا عليه في ذلك، وما من أحد إلا ويتساءل عن الشاب الغفل من هو.

لا يا صاحب « الثقافة » إنما هذه مكيدة منك، ووسيلة للانتقام مني، إذ لما رأيت أنني لذعت أديب سلا، واستهزأت شعراء الوزن والقوافي عندنا، أردت أن تقذف باسمي كالكرة بين أقدامهم ليشبعوني هجوا، وما أقدر شعرائنا على الهجو! وتبقى أنت على كثب تقول: ما أحلى الانتقام! فإن كنت ترى أن الانتقام حلو فالاستتار عندي أحلى وألذ وأسلم! وكيف لا يكون أسلم وقد بلغني أن أديب سلا جمع القوافي وشحذ سكينه، حتى إذا قيل له ها هو ذا الشاب الغفل الذي يخزك من وراء ستار شمر على ساعديه وقال: هيوا بهذا الجريء الوقوح إلى المجزرة، ومن يدري ربما سأقاد من المجزرة إلى « السفود » إلى ما لا أدري ... فليسكن روعه ولقلل من غروره، فلن أعلن اسمي؛ وإن عرفه يوما فسيعلم أنه معوج طويل لا تسعه قافية ولا يواتيه وزن؛ وخير له ألا يضيع الوقت في البحث عني، إذ لو بحث عن شيطانه الذي هجره لكان أولى له ثم أولى!

رفقا بنفسك يا أديب سلا ولا تنس أنك البادي بالشر والبادي - كما يقول المثل - أظلم ، إذ أنت الذي قلت إن شياطين الشعر تفر من الشباب الغفل؛ فيداك أوكتا وفوك نفخ!

قاتلك الله يا صاحب « الثقافة » حملت على الشباب الغفل المسكين وحملته كل عار ونقيصة، فلما قذف الغيظ بأحدهم فانبرى للدفاع وجرى على لسانه ما يقال وما لا يقال، فاختفى تحت اسم مستعار، قمت تطلب اشهار اسمه والتمثيل به!

كيف أعود لزيارة سلا إذا علم أهل سلا أنا الذي ما ذكرتهم إلا وذكرت ويلهم؟ لا ياصاحب « الثقافة » ما هى إلا دعابة مني! وقد أخطأ من ظن أنني أستخف بسلا، وإلا فسلا من أبهج المدن في عيني ومن أعز البقاع عندي، رغم أنك منها، إذ لي بها أصدقاء

أوفياء أحتفظ دائما بودهم وأتفانى في إخلاصهم، وكم أحن إلى سلا شوقا إليهم، فلا أشعر بنفسي إلا وأنا بسلا، وكم يحنون إلى فاس، فلا يشعرون بأنفسهم إلا وهم بها، ولولا أن فاسا عندي في المقام الأعلى وهى في نظري جنة الدنيالقلت إن سلا تكاد تكون فاسان مصغرة، ولكنه صغر الظرف واللطف والأناقة!

على أن الإخوان السلاويين لم يذهب بهم الغيظ إلى الحد الذي توهمه بعض القراء؛ فقد قال لي شاب غفل سلاوي زار فاسا أخيرا: إننا معشر الشباب المدرسي بسلا نحل كل شيء للشاب الغفل صاحب الرد؛ فليذكر سيدي ابن عاشر أو ما شاء، فكل شيء في سبيل الانتقام من صاحب « الثقافة » هوين مباح!

لا يا صاحب « الثقافة » دعني أبقى غفلا أعيش هنيئا مرتاحا في منزلي الوضيع المتلاشي، وإلا كيف المناص من الإدارة ... إدارة الآثار القديمة والفنون الجميلة؟ وأنا وقد اعترفت بأن شياطين الشعراء والأدباء تزور منزلي، وأن كتبي تتجلى فيها أرواح أصحابها فتقفز من الرفوف وتصير دواتا تتحرك؟ أتستطيع أن تجيرني منها إذا جعلت منزلي في زمام الأبنية الغريبة والأطلال البالية، فلا يسوغ بيعها أو ترميمها إلا بإذن خاص ومفاوضات إثر مفاوضات؟

وكيف بي إذا أردت بيع كتب من خزانتي، ولكثيرا ما اضطر لذلك؟ فكأني بالكتبي يقول لي إذا عرفني: ما للناس ولكتب مسحورة تتجلى فيها شياطين مؤلفيها فتقفز من الرفوف وتصيح وتتلاكم؟

ثم ما ذا يهم الناس من اسمي وأنا لم أكتب لأحصل على ثنائهم؟ بل ما كتبت إلا للقيام بواجب، والواجب لا شكر عليه، إذ نحن في قضاء الحق أعوان كما يقول المصريون، وأظن أنني قد قمت بهذا الواجب أحسن قيام، فصدفت المرمى، ورجعت بالغنيمة إذ في حملتك الأولى على الشباب الغفل جعلتهم كلهم في الحضيض الأسفل، ولم تستثن منهم ولو فردا واحدا، وفي جوابك صرت تعترف بأن « الذين يحملون فكرة تجديدية في العلم

أو الأدب أو الاقتصاد أو مظاهر الحياة يعدون بالآحاد » ! صرت تعترف بالآحاد؟ الحمد لله! هذه خطوة أولى مباركة نحو الاعتراف التام الشامل العام حملك عليها مقال واحد من شاب غفل ساخر! ولكن ... قد يدرك المرء بالسخرية ما لا يدركه بالمنطق الواضح والحجج الدامغة! ورحم الله الشيخ محمد المامون الشنجيطي الذي قال في كتابه « لحظات القلوب » : أهل فاس، في معانيهم قل باز! مع أنني لم أدل لك بجميع الحجج ولم أستقص لك جميع أعمال هذا الشباب، وقد كنت معدا لك، إذا تماديت في تحاملك، حجة دامغة لا يمكنك نكرانها مهما بلغ بك الجحود! إذ كيف يمكنك أن تنكر فضل « مدرسة جسوس » وما حصل عليه تلاميذها من النجاح الباهر في هذه السنة، وأنت الذي تشيد بذكرها في مجلتك وتعلن لها بشتى الإعلانات وأنواع الأشهار. ألا تعلم أنها عمل من أعمال شاب غفل؟ أيمكنك أن تنكر ذلك؟ ثم إذا كانت المدارس الحكومية التي يقوم بالتدريس بها الأساتذة الحائزون على الشهادات العالية كالعالمية واللسانس والدكتورة لا تخرج إلا الشباب الغفل، كما تدعي، فما عسى أن تخرج « مدرسة جسوس » وصاحبها إنما هو شاب غفل وجل أساتذتها من الشباب الغفل؟ هذه مشكلة ربما لم تفكر فيها عندما أثرت حملتك، ولكن لا شك أنك ستجد لها حلا إذ ليس ذلك على « همتك القعساء » بعزيز! عجبا! مقال واحد من شاب غفل كفى « لتصير مبالغاتك رمادا » ، ولو أني جلت بقلمي الوخاز جولات أخرى لما وسعك إلا أن تضع السلاح وتأتي خاضعا ملتمسا المعذرة من الشباب الغفل! ولكن يعز على أن أراك في هذا الموقف، وكفى الشباب الغفل ما ناله منك من الاعتراف، والعفو عند الاقتدار من شيم الأحرار.

لا يا صاحب « الثقافة » إني لا أريد أن أعيش إلا منكرا؛ فإن كانت لذتك في إثارة الحملات العنيفة والرمي بالقنبلات على حد تعبيرك، فلذتي أنا في الاستهزاء والسخرية، ولكل مزاجه وأسلوبه في هذه الحياة. دعني أسمع الناس يتحدثون بمحضري عن « الشاب الغفل » من هو، وتذهب بهم الاحتمالات والتأويلات والظنون إلى أبعد مدى. إن في

ذلك للذة لا يعرفها إلا الساخر مثلي، وإن طرافة الأشياء لا تأتي إلا بما يحوط بها من غموض وشك وإبهام.

هذا رأيي يا صاحب « الثقافة » أصارحك به؛ ولكن نظرا لاستعطافك واستهوائك وإلحاحك، وإرضاء لقراء « الثقافة » الأجلاء، فإني أتنازل عن إرادتي فأعلن عن اسمي ... اسمي ... لا يا صاحب « الثقافة » إني لا أشعر من نفسي « بالشجاعة الأدبية » الكافية للإعلان عن نفسي، دعني ما أنا إلا ...

... شاب غفل - فاس

كتب على هامش المقال:

إن كتاب « لحظات القلوب » من أغرب ما أخرجته المطابع العربية في هذا العصر. فإن أردت جولة بتازة أو فاس ومحادثة شيخ الموالة المعلوم الذي لا يصلي ولا يصوم، وإن شئت مؤانسة الشيخ علي زكي، ومغازلة مدام بلنصوار التي لا تزور ولا تزار، وغير ذلك من النكت الطريفة، فعليك بهذا الكتاب العجيب. ولما أنني لا أملك مخطوطا بخزانتي أخصه ببحث علمي حسب الموضة الجارية الآن عند بعض كتاب « الثقافة » فإني سأتكلم في مقال مقبل عن هذا الكتاب المطبوع وكل ينفق مما عنده. ولمؤلف كتاب « لحظات القلوب » رسالة مطبوعة سماها « الأسئلة الناضرة عن الدابة المنتظرة » . فإن كان ما ذكره هذا المؤلف صحيحا من أن الدابة المنتظرة في آخر الزمان هى الأطموبيل، فلا يبعد أن يكون الشباب الغفل هم الدجال إذ لا دابة بلا دجال.

المدنية المغربية

بين المدنيات الإسلامية

الملحق الثقافي لجريدة المغرب

السنة الثانية - العدد الثاني - الخميس 13 صفر الخير عام 1357 الموافق 14 ابريل سنة 1938

لعب المغرب دورا هاما في تطورات الحضارة الإسلامية منذ بزغ فجر الإسلام وسرى في شرايين الأمم التي اعتنقته روح من النشاط والحرية لم تعهده، فلم تدرك في أول مرحلة من حياتها التوحيدية الجديدة أي تأثير لهذا الانبعاث الروحي الذي سيغمر نفس الفرد ليتجه به نحو الفضيلة ويصوب مرامي الأمة نحو هدف اجتماعي عظيم، فتصبح الجماعات تقدر حقوق الأفراد، والأفراد يحترمون حقوق الجماعات، وتلك خطوة لها خطورتها لا على الأمم الإسلامية دون غيرها، بل على جميع أمم الأرض، فإن الإنسانية جمعاء تأثرت إلى حد ما بمثل الإسلام وتعاليمه الاجتماعية.

لعب المغرب دورا هاما في صرح مدنية الإسلام كما لعبت أمم أخرى أدوارا هامة بدأنا نلمس اليوم أثرها، وبدأ التنقيب والمطبعة يزيحان عن أدوار تلك الأمم كل ما علقت به من أدران التأخر ومصائب الجهالة. فإذا نحن أمام عصر من الحضارة لتلك الأمم زاهر وأمام عناصر للتمدين قوية تحمل المشعال في ظلمات القرون وتخترق حجب الأوهام والضلالات لتقرب الحقيقة وتسبر غور الحياة من تجربة ومشاهدة وتقفز بالفكر الإنساني خطوة جديدة.

وتلك حضارات تلك الأمم لا يميز بعضها عن بعض نظرا لارتباط عناصرها وتلاحم تفاعيلها إلا بمميزات دقيقة لا تدرك لأول وهلة ولا يتاح لكل فرد أن يلاحظها بديهة؛ فهناك مدنية دمشق، وهناك مدنية بغداد، ومدنية القاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة، وأخيرا هناك مدنية اسطنبول.

عصور تتلو عصورا وأمم تخلف أمما وعواصم تحتل مكان عواصم. فما هو دور المغرب في تلك العصور؟ وما نصيبه في تكوين هذا الماضي الإسلامي الحافل؟

لا نعلم من بين الأمم الإسلامية من قوى على عوامل الدهر رغم انقلاباته الجارفة، فلم يخضع لمسيطر خارجي، بل حافظ أزيد من اثنى عشر قرنا على كيانه، وناضل عن وجوده في سواد الليل الذي كانت كل أمم الأرض، وأمم الإسلام خاصة، تتخبط فيه، حائرة في سيرها، واجمة في تلمس مصدر قوتها، ذاهلة عن مثلها، كالمغرب، هذه البلاد الواسعة الأطراف، المعتدلة الهواء، ذات المناظر الخلابة والثروة الطبيعية.

فقد توالت دول ودول على مسرحه، وكلها لم تستمد قوتها إلا من قوات البلاد العامة، وجميعها استوحت العقلية المغربية المسلمة، وكونت من إنتاجها المادي والفكري والعاطفي ماضي المغرب ومدنية المغرب، تلك المدنية التي إذا أردنا مستقبلا ثابت الدعائم لا غنى لنا عن اكتشافها مهما حملنا هذا الاكتشاف من عناء ومهما جعلنا في بعض الأحيان نستهدف للحيرة تارة، والشك في قيمة ذلك الماضي أخرى؛ فإن عمليات الاكتشاف لا تقل عن عمليات الإيجاد اجهادا لا يقوى على تحمله إلا الذي اطمأن لعمله، وآمن بنجاحه.

فإن ماضي المغرب مطمور في الخزائن، وملفوف بين الأوراق، ومتوقف على فكر مغربي ثاقب، يبحث ويحلل لينتج ويقارن؛ فإذا أنت أمام مدينة فاس ومدينة مراكش كما أنت أمام مدينة بغداد أو قرطبة.

فليست المدنية المغربية تقل في أي مظهر من مظاهر التمدين عن المدنيات الإسلامية الأخرى إن لم تفق بعضها.

ففي الماضي المغربي فكر مغربي وإحساس مغربي خلف إنتاجا يمكن - إذا درس - أن يكون بعثا للحضارة المغربية.

ففي الماضي المغربي فكر مغربي استطاع أن يتصل بالفكر الإسلامي العام ويولد ما يبهر العقول في التشريع والفلسفة والطب والرياضيات ويستنتج في الاجتماعيات ما هو معجزة لمدنية الإسلام.

وفي الماضي المغربي إحساس مغربي استطاع أن يصور الحياة المغربية ويخلد معالمها ببراعة ويسجل خفاياها بقوة.

فلماضي المغرب شعر خالد وموسيقى بارعة وفن معماري مدهش.

وفي ماضي المغرب شخصيات فذة برعت في جميع الميادين المطروقة في تلك الأزمنة؛ ففي الحرب للمغرب أبطال ميامين وغزاة فاتحون، وفي السياسة دهاة مقتدرون وملوك جبابرة، وفي الإصلاح الاجتماعي رجال آمنوا برسالتهم فأثروا على مجرى الحياة المغربية، وخلدوا من الآراء والنظريات ما كان دعامة للحياة المغربية أمدا طويلا.

فمدنية المغرب تحتل مكانا مرموقا بين مدنيات الإسلام، وهى لا تقل عن مدنيات بغداد أو قرطبة، وتفوق مدنيات أمم أخرى من الأمم الإسلامية.

ولكن يعوز هذه المدنية الاكتشاف؛ وعمليات الاكتشاف - كما قلت - لا تقل عن عمليات الإيجاد، أى يجب أن نستعد لكشف الستار عن ماضينا، كما نستعد لتكوين مدنية جديدة، وعندما نبلغ درجة مهمة في المدنية المقبلة، هناك لا غير نكون قد بلغنا درجة مهمة في اكتشاف مدنية المغرب الماضية، إذ لا يكتشف المدنية الماضية إلا المتمدنون الحاضرون.

المغرب في سير أبطاله

الثقافة المغربية - عدد 3 - اكتوبر 1941

تتفوق كل أمة في منح من مناحي الحياة عن غيرها من الأمم، فهذه أمة يدق تفكيرها، وتلك يرق شعورها، وأخرى تقوى سيادتها، وهكذا الأمم التي أولدها التاريخ أجيالا ليبقى منها هذا الماضي الذي نعيه اليوم بين صفحات الكتب أو مخلفات الآثار.

فمصر الفرعونية، وإن كانت حياتها زاخرة في شتى المناحي، يظهر تفوقها جليا في هذه السلسلة من نماذج التماثيل التي غفلت عنها يد الحدثان لتبقي لنا منها صورة واضحة عن مصر في أقدم عهودها.

واليونان التي ساهمت في كل مناحي الحياة على اختلاف أنواعها وتباين وجهاتها يظهر جليا تفوقها في الميدان الفكري بما خلفت لنا من آثار لم يقو الرقي البشري أن يجتازها إلا بخطوات يسيرة.

والرومان أمة شاركت في ما اضطرت به حضارة اليونان، ولكنها أظهرت تفوقها في ناحية واحدة، هي ناحية التشريع.

والعرب أمة التوحيد التي أشادت حضارة في أقرب وقت، وامبراطورية في أوسع مدى، يظهر جليا تفوقها في ميدان البلاغة، فكانت معجزة من معجزات البيان؛ وعلى المقياس يمكن أن نستعرض كل أمم الأرض. لا في الماضي فحسب، بل وفي الحاضر أيضا؛ فإن الأمة تسعى أن تبرز في كل مضمار وتشارك في كل ميدان، وقد تنجح في محاولتها تلك إلى حد ما، ولكن طابع تفوقها يتجلى دوما في ناحية دون بقية النواحي.

والمغرب أمة شاركت في الحضارة القديمة، وأشادت امبراطورية كانت تسيطر فيها على ضفة لبحرية المدنية الإنسانية - البحر المتوسط - فما هى الناحية التي تفوقت فيها، والتي نستطيع أن نلمسها من أول نظرة نلقيها على تاريخها الحافل؟

لقد شاركت الأمة المغربية في المناحي العقلية، فكان منها المفكرون، وكان منها الأطباء، وكان منها المهندسون، وكان منها الكتاب والشعراء.

وشاركت في المناحي الاجتماعية، فلها جولات في التشريع، ولقادتها آراء في الإصلاح.

وشاركت في الفنون، فلها الموسيقى الجميلة، والمباني الرفيعة، والزخرفة السنية، وشاركت في المناحي الاقتصادية، فكانت في عدة عصور من التاريخ مصدر رزق لكثير من الأمم الأخرى، وكانت صناعاتها تجوب كثيرا من الأمصار.

فشاركت في الميدان السياسي، وكانت خلال عصور وعصور محط توازن دولي بين الشرق الإسلامي وأوربا المسيحية، ولم تحافظ على كيانها خلال تلك الآماد الطويلة فحسب، بل كثيرا ما كانت تفرض إرادتها فرضا على جيرانها الأقربين والأبعدين.

فما هى الناحية التي يستطيع المغرب أن يبرز فيها تفوقه خلال عصور مضت؟ إن الإجابة عن مثل هذا السؤال تتطلب تفكيرا عميقا في الماضي المغربي، واستعراضا دقيقا لكل ما أنتجته الأمة المغربية في مختلف الميادين. غير أن ناحية واحدة لن يعسر على المفكر أن يلمس تفوق المغرب فيها، فصداها يرن في آذاننا كلما قلبنا صفحة من صفحات الماضي المغربي، فإذا أردنا أن نجمل تلك الناحية في كلمة واحدة، كانت تلك الكلمة هى : البطولة.

ومن الطبيعي أن تتفوق الأمة المغربية في البطولة، فكل شىء ينادي في المغرب بالبطولة، ويلهم البطولة، ويصور البطولة، فهناك هواء صحي معتدل، وهناك سلسلة من الجبال قل نظيرها، وهناك عنصر أصيل حافظ على مقوماته الأمد الطويل، وهناك وحدة جغرافية تدعو الفطرة إلى المحافظة عليها، وهناك فوق هذا وذاك موقع ممتاز بين شتى الدول التي تعددت منازعها وتلونت مصالحها.

فلم تكن الحروب التي شنت بهذه البلاد حروب جماعات، أو بالأحرى حروب عصابات تشن الواحدة الغارة ضد الأخرى، وسرعان ما تخمد نار الحرب دون أن تسجل صفحة واحدة من صفحات البطولة، بل كانت الحروب المغربية في كل الأوقات حروب البطولة، يظهر منها تفوق المغربي في الميدان الحربي، ويسلم المحاربون الأبطال والمدنيون القيادة لا لرجل سياسي فحسب، ولا لرجل اجتماعي لا غير، بل لرجل أول ما يتصف به البطولة الحربية.

فكانت كل عصور التاريخ المغربي عصور بطولة من أقدم عهودها إلى اليوم، وإن البطولة هذه لتتغلغل في حياتنا بصورة أن استعراضا بسيطا لأطوار الماضي المغربي يجعلنا أمام نظرية ثابتة، هى أن كل عصر من عصور تاريخنا يمثله بطل خير تمثيل، فيمكنك أن تستخرج من صفاته وأحواله جميع ما ينفعل به ذلك العصر من نزعات ويتمخض عنه من انقلابات.

ولكى نستعرض صور التاريخ المغربي على ضوء هذه النظرية يجب ألا نغفل اعتبارين أساسيين في حياتنا.

أولهما:

أن المغرب هو هذه البلاد التي تمتد على طول شمال افريقيا من حدود مصر إلى البحر الأبيض؛ فمن هذه البقعة الكبرى يكون الموقع الجغرافي - المغرب الكبير - وإن كان القلب النابض لهذا المغرب الكبير في أغلب عصور التاريخ هو مغرب اليوم، وذلك لما يمتاز به في موقعه من قوة حصنته بجبال الأطلس، ومن كثرة اعتداله، فاحتفظ المغربي على كيانه، وتشبث بوحدته، وحرص على سيادته.

ثانيهما:

أن قوة المغرب النفسية - إن صح هذا التعبير - سرعان ما تؤثر فيمن يستقر فيه من غير أبنائه، فيصبح مغربيا في تفكيره ونزعاته ومشاريعه، فإذا تولى سلطة أو إدارة مصلحة

عامة كان مغربيا صميما فيها، فلن تجد أى فرق بين سيرة البطل الذي ينتمي إلى الدم المغربي القح أو البطل الذي ينتمي إلى أصل عربي؛ فإن القوة النفسية المغربية تكون من كل جانب منهما البطل المنشود لعصر من العصور أو لانقلاب من الانقلابات.

ومن أقوى الدلائل على تمكن روح البطولة في النفس المغربية وتقديسها لدى عموم الطبقات أن تجد هؤلاء الأبطال الذين نود اليوم أن نستعرضهم بإيجاز متتابعين في كل العصور، فليس هناك عصر أو دولة لم يكونها بطل من ناحية حربية، ووضع لها اتجاها من ناحية فكرية أو اجتماعية وتمثل في سيرته جميع حوادث عصره، وتمثل في عصره جميع صفاته الشخصية.

فإذا أردنا أن نستعرض استعراضا وجيزا هؤلاء الأبطال على ممر العصور أول ما نجد أمامنا بطل قرطاجنة هانيبال العظيم الذي حارب أمة اليونان وانتصر عليها عدة انتصارات؛ هذا البطل يمثل أقوى تمثيل هذا الصراع الذي اشتد خلال أربع قرون بين قرطاجنة الإفريقية وروما الأوربية.

يمكنك أن تستخرج جميع الحركات التي سادت المغرب الكبير خلال هاته الفترة من حياته من دراسة لشخصية البطل هانيبال، فلقد كان بطلا مغوارا، وكانت الحروب القرطاجنية الرومانية حروب بطولة وشجاعة نادرتين، وكان خطيبا، وكانت الخطابة تلعب أكبر دور في تسيير شؤون الأمة إذاك، وإلى جانب ذلك ظل التاريخ المغربي في هذه الأجيال يدور حول قضية واحدة، هى القضية التي حارب من أجلها الشعب المغربي بقيادة بطله هانيبال.

وغزا الإسلام هاته البلاد، فقاومته بطلة وأظهرت من البطولة ما صور للشعب أنها كاهنة، مجهودها فوق المجهود البشري، ولكن حياة هاته البطلة المغوارة تنتهي بما انتهت إليه المقاومة المغربية لهذا الدين الحنيف، فإن السلطة التي قاومت الإسلام باعتباره فاتحا جديدا سرعان ما استسلمت عندما أدركت أن الدين الحنيف لا يغزو البلاد وإنما يغزو

الأرواح، فسقطت في المعركة وهى تنادي أبناءها بالإسلام وتحض أبطالها المحاربين على اعتناقه، فكانت خاتمتها إيمانا مطلقا موحدا، وكانت خاتمة المقاومة المغربية إيمانا مطلقا موحدا بالإسلام وتعاليمه.

ولا يكاد يدخل المغرب في حياته الجديدة حتى نجد بطلا مغربيا مسلما تفوق شهرته وعظمته قواد عرب مختلفين. ففي سيرة طارق بن زياد ما يضيء لنا العصر الإسلامي الأول للمغرب ويرينا صورة جديدة من البطولة المغربية التي طيفت الآفاق، فلقد دخل الأندلس ينشر دين الله ويدعو إلى اعتناق هذا الدين الذي حضت الكاهنة، وهى في النزع الأخير، أبناءها على الإيمان به.

فإذا ساد الإسلام أغلب جهات المغرب، أخذ المغرب يسترجع كيانه السياسي من جديد، وأخذ يفكر أن ينفصل عن الأمم التي تود أن تديم سيطرتها السياسية عليه؛ فكان في وصول مولانا ادريس الأكبر خير فرصة لإظهار تمسك المغرب بالإسلام من جهة، ورغبته في محافظته على وجوده المعنوي من جهة أخرى. فتدعم العرش المغربي من جديد، وأخذ هذا البطل المغربي الأصل العربي النزعة يقضي على الجرثومة الأخيرة من وباء الردة، ويقاوم ذوي الفتنة والشغب، ويستجمع عناصر هذا الشعب البطل مما أخاف خليفة المشرق، فدبر من المكيدة ما أسقط هذا البطل في مقتبل عمره وخلال جهاده المرضي. ولا يكاد الزمان يتقدم قليلا حتى يظهر بطل جديد هو يوسف بن تاشفين، يوحد المغرب، ويحارب أعداء الإسلام، ويعلن من المبادئ ما سيطر على عصره.

فليست مقومات العصر المرابطي إلا تلك الآراء التي اعتنقها بطله ابن تاشفين؛ فكان العصر المرابطي عصر بساطة كما كانت سيرة بطله، وكان عصر اهتمام بنشر جزئيات الإسلام كما كان يهتم ذلك البطل في حياته وإدارته لشؤون البلاد.

فإذا جاء البطل عبد المومن، كانت وحدة البلاد قد ضمنت، واستقرارها قد تم، فيشرع البطل الجديد في نشر ألوية العلم، ويأخذ بمذهب السنة الفكرية، فيسمح بترويج كثير

من الآراء، ويعطي العقل من الحرية ما يعطى له كلما استقرت شؤون الأمة.

فكان بذلك العصر الموحدي عصر استقرار سياسي وثورة فكرية، ولم يكن إلا ذلك مقتبسا من نفسية بطله ومؤسس دعائم عرشه عبد المومن.

ويأتي العصر المريني، فإذا بطله عبد الحق رجل يحارب خصومه الموحدين ويعرف كيف يحاربهم، ويدرك أن وحدة الرأي والتعاون في العمل والاستماتة في سبيل الله وحدها طريق الانتصار؛ وتلك هى الآراء التي سادت العصر المريني والتي بدافعها حارب المغاربة تحت اللواء المريني في أرض الأندلس بقيادة الأبطال المرينيين.

فإذا تقادم العهد بالعرش المغربي، وأخذ البلى يتسرب إلى دعائمه، وأراد الجوار أن يغتنموا الفرصة وينقضوا على البلاد، ظهر بطل وادي المخازن القائد المنصور السعدي يسترجع وحدة البلاد ويعيد لها ازدهارها.

وعندما أغير على أطراف البلاد، وأخذت عناصر الفتنة تنمو في داخلها، ظهر البطل مولاى اسماعيل، فأعاد كل شيء إلى نصابه في الداخل، وألقى في البحر من اقتص أطراف البلاد.

وإن في سيرة هذا البطل وحسن إدراكه للأمور ما برهن للعالم على حيوية الأمة المغربية؛ فلقد وجد في عصر تدعمت فيه أصول المدنية الأوربية المعاصرة، ولكن بالرغم عن بعد المغرب عن أسباب تلك الحضارة ومقاييسها، استطاع بموهبة هذا البطل المغوار أن يقول للعالم الأوربي الجديد قولته فيخشاه ويسعى إلى التقرب منه.

هؤلاء هم بعض أبطال المغرب، وليست سيرهم إلا هذا التاريخ الحافل للأمة المغربية المجيدة. فإذا افتخرت كل أمة بما امتازت به، افتخرنا نحن المغاربة بروح البطولة التي سادت تاريخنا والتي يجب أن تسود مستقبلنا.

ثلاثة أيام في مراكش

المغرب الجديد
السنة 2 العدد 3 - فاتح ربيع الثاني 1355 - يونيه 1936

مدينتان في المغرب لو لم تكونا لما كان للتاريخ المغربي وللماضي المغربي من قيمة عظيمة ومجد أثيل، ولما استطعنا أن نتصور فخر ذلك العهد الماضي وندرك تلك الحياة الحافلة الزاخرة التي تطويها القرون، والتي تجسمها الآثار للعين، وتحركها هذه الجدران وهاته الأزقة الملتوية حيث تتزاحم الأفراد، وحيث تكثر الأسواق وتتعدد المتاجر.

مدينتان كل ما فيهما يحملك على ألا تعيش في الحاضر، بل أن تتصل بذلك الماضي البعيد والقريب، وتستعرض تلك الصور الخلابة التي تتراءى من خلال سطور التاريخ المغربي. مدينتان قد لا يعجب بهما هذا الفرد الذي لم ير نور الحياة إلا من عينيه، ولم ينفذ نور الماضي إلى أعماق قلبه، ولم تنشرح نفسه لهذه الإحساسات التي يضطرم بها فؤاد المغربي القح، الذي شرب من معين الحياة المغربية في سلسبيل عيونها، فتذوق جمالها، واستنشق عبيرها. لا يعجب بهما هذا الشخص الذي هو عالة على مدنية العصر في كل شيء، حتى في الإحساس بل حتى في تكييف ذلك الإحساس وتصويره، وإنما يعجب بهما هذا الشخص الذي تفتح قلبه، واتسع صدره لضم أشتات الحياة المغربية، من أقدم عهودها وصورها، إلى عهدنا هذا وصورتنا هذه، فكون من مجموع ذلك فكرة صحيحة عن مميزات النفس المغربية وخصائصها وعناصر مباهجها فرغب فيها وأحبها.

مدينتان ترنو دائما إليهما عين المغربي وتتجليان له كلما رمى ببصره إلى الماضي: فهذه فاس في جانب، وهذه مراكش في جانب ثان، وهما قطبا رحى المغرب لا تكاد تتطلع إليهما

وترمقهما حتى تتيقن النفس ويدرك الأحاسيس أن المغرب يتمثل فيهما ويتصور في صورهما.

فاس بأنهارها المنسابة، وعيونها الفياضة، وأزقتها الضيقة، ودروبها المظلمة، ولطف أهلها، فاس بكل ما فيها تمثل لك عصور المغرب وتبين مميزات هذا التراب الذي تحيط به الصحراء من جانب، والبحر المحيط من جانب، فاس كل ما فيها يغريك أن تتصل بمحاسنها وتتعرف إلى أسرارها، وتتذوق جماله، وتستنشق جوها، وأنت متيقن أن الله أجاب دعوة مؤسسها.

ومراكش مدينة لا تكاد تدخلها حتى تجدها في قلبك، وتحتل أعمق مكان فيه، فإني لم أكد أقضي فيها ساعات حتى أخذت بأحشاء قلبي، واستولت على نفسي أيما استيلاء، فلم أغادرها إلا مكرها، ولم أفارقها إلا وكلي شوق إليها.

ثلاثة أيام قضيت فيها، كانت كافية لأشعر أني لا أعرف المغرب ما دمت لا أعرف مدينة مراكش، وأني سوف لا أقدر تراث المغرب ما دامت هذه المدينة تعد في ذهني في زاوية النسيان؛ إذا ما استعرضت المدن المغربية أمام عينك فكل ما في مراكش ينبئك بالماضي، وبهذا الماضي الذي يكون عظمة البلاد وما توالى فيها من دول وما لعبه الزمان بتلك الدول من الأدوار، فرفعها تارة إلى أوج المجد، وتارة خفضها إلى الحضيض، وطوى الدهر جميع تلك الأدوار، ولم تبق إلا هذه الآثار التي نعشق اليوم رؤيتها، ونستوحي منها أخبار الأولين، فتنبئنا عن محاسنهم كما تنبئنا عن مساوئهم.

ومراكش لا تكاد تذكرها حتى تذكر الكتبية التي هى كل يوم عروس في ليلة زفافها، يتطاول النخيل وتتطاول البنايات العصرية، ولكن الكتبية متجردة تزهو كلما رنت لجهة، وتعلو لتناطح السحاب، وترسم عل جبين الدهر آية مراكش الفنية، وتكر الأعوام، وتتوالى الدول، وتتجدد الأحداث، والكتبية شاهدة واعية أن الأجيال تمر مر السحاب، وأن الفن يثبت أمدا طويلا، ليتم سير الأجيال إلى الأنموذج المنشود.

والكتبية قبل أن تشرف على مراكش بعشرات الأميال تشرف عليك فتراها بين النخيل تراقب سيرك، وتحرس طريقك، وتؤنسك في غربتك، وتواصل خطواتك، ولكن الكتبية ترغمك أن تنظر إليها، وأن تتبين جمالها، ويخيل إليك علوها أن بينك وبينها مسافة تجتاز في ساعات، ولكنك تسير وتسير دون أن تحظى بالوصول إليها، فتقف تسائل نفسك عن هذه الإحساسات التي تغمر روحك وأنت تنظر إليها، إحساسات لا تدري مصدرها ولا مكانها من نفسك، ولكنها تتصل بهذه القرون الماضية التي انسلخت، والكتبية قائمة البنيان تراقب ذات اليمين وذات الشمال وتتلفظ كلمات الله العليا خمس مرات في اليوم، فتضيء على تلك السهول والجبال موجة من موجات الحق والجلال، ويتوجه المسلم إلى القبلة خاشعا متعبدا، ويختلي بنفسه أمام ربه مدة من الزمان يتناسى فيها هذه الدنيا وصراعها المر، ويفتح إلى النور الرباني، فالكتبية منارة تهدي البشر إلى عبادة رب البشر، منارة ترمز إلى وحدانية هذا الصانع المبدع، وتحيي في قلب المسلم عناصر الخير، وتذكره بما عليه من واجبات، وما له من حقوق في هذه الحياة وفي حياة الغد القريب.

فسلام على منارة تنير طريق الحق ليتبع، وتكشف طريق الظلام ليجتنب، وسلام على روح منشئها الذي شيدها فأحسن تشييدها، وبث في أجزائها من عناصر الإيمان ما بقى هذه الأحقاب الطويلة يعبق شذاه على أطراف البلاد المراكشية، فيقوى عزم الأمة لتسير في طريق الهدى وتبتعد من الظلام.

هذه هى الإحساسات التي امتلكت على مشاعري، وملأت قلبي من المدينة، فاستعرضت أمام عيني تاريخ هذا البلد الأمين، وأحييت صور هذه الشخصيات التي تعاونت على تكوين مجد مراكش في الماضي، فوفقت توفيقا خالدا بأن تجعل من مراكش عاصمة لهذا القطر المغربي زمنا ليس بالقصير.

وما استقر بي المقام بالحمراء حتى أسرعت أريد زيارة قبر مؤسس المدينة، ولم أكد أقف على ضريحه حتى أخذتني الرهبة، وهزني الجلال، وتخيلت شخصا جمع في نفسه عناصر

الفضيلة، ووحد بين تلك العناصر، واستمد منها قوة عظيمة، مهدت أمامه كل صعب، فسار يخترق السهول والجبال، ينشر دين الله ويدافع عن دين الله، تصورت شخصا جمع بين البساطة وقوة الروح، بين الحلم السديد والنظر الثاقب، لا يطلب ملكا ولكن الملك يطلبه، لا يعمل لسيادة ولكن السيادة تحبو إليه، فيتصرف في الملك والسيادة لا كما تشاء أهواء إنسان لا يهتم إلا بنفسه، ولا يعمل إلا وراء إرضاء نزعاته، ولكنه يتصرف فيهما بروح سامية، تعمل لغاية سامية في هذه الحياة، كانت وستكون أنموذج الأجيال المقبلة ومثلا عاليا لها تحتذى به، فإنك إذا ما اتصلت بسيرته تراءت لك شخصية ممتازة في كل شيء، شخصية من هذه الشخصيات التي سعت إلى الكمال فوفقت في سعيها، واجتهدت أن تهج نهجا يرضي الضمير، ويرضي النفس الهادئة المومنة بالخير والمثل العليا.

سيطر على امبراطورية شاسعة الأطراف، ممتدة الجوانب، ولكن النفس الأمارة بالسوء لم تسيطر عليه، ولم تسع إليه، فهو لم يشأ أن يسمى نفسه بالخليفة لأن هناك ببغداد خليفة وإن لم يكن أقوى منه ولا أعظم ملكا من ملكه، بل إن ابن تاشفين الورع بعث عبد الله المعافري الإشبيلي وولده القاضي إلى الخليفة العباسي ببغداد يرجوان على لسانه أن يعقد الخليفة له الأمر على المغرب الممتد من الجزائر إلى طنجة وعلى الأندلس. وهنا يقول صاحب الاستقصا: (وإنما احتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة المستظهر بالله مع أنه كان بعيدا عنه وأقوى شوكة منه لتكون ولا تزال مستندة إلى الشرع وهذا من ورعه رحمه الله).

بل إن هذا لأعظم ما يتصور أن يصدر عن إنسان تهيأت له كل أسباب الجاه والسلطة، فلم يغفل عن مصيره، ولم يشأ أن يتناسى تصرفات الدهر وألاعيبه، ولم تغره المظاهر مهما عظمت ومهما اتسعت، بل كان زاهدا في تلك المظاهر، لا يتمتع بما يتمتع به الملوك من زينة وبنين، وإظهار صولة وبأس، بل كان يكتفي عن كل ذلك براحة يشعر بها تتغلغل في أعماق نفسه فيتلمسها في لين وخضوع لرب صولته، هى المرجع الوحيد الدائم. وهكذا

مثوى ابن تاشفين اليوم بسيط كل البساطة، عظيم كل العظمة، بسيط حيث لا بهرجة ولا أتباع، عظيم لأنك تشعر عندما تقف أمام ضريحه أنك أمام شخص يضن الزمان بمثله، فيتولاك الخشوع وتتولاك رهبة الجلال وتنطلق تسبح بحمد الله تعالى.

ولكن لا تمر لحظات وأنت أمام قبره حتى تشعر بحزن ينتابك في أغوار نفسك إذ تتساءل أيجهل الوسط المغربي شخصية هذا النائم هنا، فلا يهتم بمقره، كما اهتم بقبور الآخرين. أترانا ننفذ رغبته حيث ندعه يموت زاهدا كما عاش زاهدا؟ ولكن ليست هذه الرغبة مما تنفذ، بل إن نحن اهتممنا بمقره وأظهرناه عظيما، فليس معنى ذلك إلا أننا نمجد شخصا لم يعش لنفسه وإنما عاش لمثله العليا.

دول ودويلات

ملحق « المغرب » الثقافي

السنة الثانية - 11 جمادى الأولى عام 1357 الموافق 7 يوليوز سنة 1938

أراد بحاثة مؤرخ مصري أن يعلن في مجلة « الرسالة » الحافلة عن كتاب ألفه في تاريخ الشرق الإسلامي من الحروب الصليبية إلى اليوم، فذكر محتويات القسم الأول من كتابه، من جملتها درس النهضة الفارسية الصفوية وقيام دولة الترك العثمانيين ودول المماليك في مصر ودويلات المغرب.

وهكذا أصبحت العهود الإقطاعية بمصر تسمى دولا، والإمبراطوريات التي تكونت في البلدان المغربية تسمى دويلات، وهكذا تقلب حقائق التاريخ وتتغير معالمه وتطمس مآثره، فتصبح دولة عظيمة الشأن، قوية المراس، ملوكها وسلاطينها يفتخر بهم الإسلام أيما افتخار، وشخصياتها الفكرية في طالعة المفكرين المسلمين والعالميين، وقوتها كانت ترهب الجوار وتخيف الأعداء كدولة المرينيين، دويلة كأنها عصابة قبلية أغارت على بعض القرى لا يدري زعماؤها نظاما، ولا يعرفون استقرارا.

وهكذا لا ريب طوى البحاثة المصري تاريخ المغرب الحافل في صفحات أو سطور، وانتهى أمر دولنا العظيمة عند هذه الصورة المشوهة، وسيصل مؤلفه إلى بلادنا، فيشتريه المثقفون ويضمونه إلى مكاتبهم وقد يطالعون وقد لا يطالعون الفصول الخاصة بدول المغرب، فأغلبهم يعرف عنها ما لا يعلمه المؤرخ المصري المحترم.

ولكن الكتاب بطبعه الفني، وأسلوبه العصري، وتبويبه المرتب، وفهارسه المتقنة، سيلفت نظر الشباب المغربي وسيطالعه، وهنا الطامة، فإن أغلب الشباب خلو من معرفة تاريخ

بلاده، وهذه الفصول من الكتاب ستؤكد له ما طالعه في كتب بلغات أجنبية عن دول المغرب وحكوماته الماضية، فإن صورها المبتورة ما تزال راسخة في مخيلته، وحوادثها المتداخلة غير المعروفة الاتجاهات المرسومة بأقلام أجنبية ما تزال تعلق بذهنه كلما ألقى بنظره إلى الوراء، فكانت مطالعته لكتاب البحاثة المصري تدعيما قويا لمعلوماته المشوهة عن ماضي أمته.

ولسنا نلوم البحاثة المصري وإن كنا نعتب عليه عتابا خفيفا لتسميته دول المغرب بدويلات، ولكن الجدير باللوم والمستحق أعنف عتاب هو المغربي الذي يترك ماضي بلاده بين أيد مغرضة من الكتاب الأجانب، وأيد لا تعرف شيئا مهما عن بلاده من الكتاب الشرقيين، فيضيع تاريخنا الحافل ويتلاشى أمره في صفحات كلها زور وبهتان.

فلنتصور البحاثة المصري وقد قصد دار الكتب المصرية ليتصفح المصادر ويستجمع المواد فوقف به السير إلى تاريخ المغرب فأي المصادر يجد أو على أي المؤلفات يعثر؟ إذا استثنيت بعض مؤلفات طبعت في العهد الماضي عن تاريخ المغرب في مطابع مصرية ومؤلفات طبعت في مطبعة فاس الحجرية لا تقرأ في الشرق، فإنه لا يجد إلا المؤلفات الأجنبية عن المغرب وأغلبها كما علمت مغرض الاتجاهات ملتوي الاستنتاجات.

إذن فالمسؤولية لا تلقى إلا على المغاربة المثقفين الذين لم يؤلفوا فحسب بل لم يبذلوا مجهودات قويمة في طبع ما تحويه خزائنهم الخاصة والعامة من ذخائر عن ماضيهم فكان هذا الإهمال سببا مباشرا لما يصيب تاريخنا من عقوق شبابنا وتعريض الأجانب به، فتسمى دولنا العظيمة دويلات وتجهل مفاخرنا الخالدة لدى جيل جديد.

الاصلاح الاجتماعي

المغرب
السنة الأولى - العدد 19 - الاثنين 20 ربيع الأول عام 1356 الموافق 31 ماى سنة 1937

ويل لنا من أنفسنا، فالمغرب من أقصاه إلى أقصاه في هوة سحيقة من الجهل والانحطاط والفقر، ومعاول الهدم صباح مساء في كياننا دون أن نسعى للإنقاذ ودون أن نفكر في إصلاح ناحية من جميع النواحي المغربية المتطلبة الإصلاح والتجديد.
فأينما وليت وجهك تجد الفوضى وتجد الاضطراب وتتولاك الكآبة وتشعر بوخز الضمير لما تراه من عوامل الفساد وبواعث الانحطاط كأنما المغرب أمة تود أن تنتحر لتتخلص من الحياة وتبتعد من المسؤوليات.
ففي البيت جهل مطبق للمبادئ وتصرفات شاذة من كل من أعضائه وفوضى شاملة لجميع مظاهره. وفي الشارع فساد يعم أغلب الطبقات وأمية تسيطر على الجميع.
لقد حان الوقت الذي نعلن فيه مبادئنا لإصلاح اجتماعي شامل لجميع مظاهر حياتنا ونعمل لتطبيق بنود ذلك الإصلاح وتنفيذ محتوياته من دون أن نعتمد على مساعدة رسمية ونجند الشباب ليحارب الرذائل وينشر الفضائل ويؤدى رسالة الجيل والإصلاح المنشود.
لقد جاء الوقت لنهضة اجتماعية واسعة النطاق تقلب أسس حياتنا وتجدد نشاطنا وتبعث فينا روح العمل وتكون من أبناء المغرب رجالا يعرفون قيمتهم في الوجود ويدركون أنهم لم يخلقوا لهذه الحياة البالية بل ليرفعوا من شأن أمتهم ويعيدوا لها مجدها. ذلك ما ندعو جميع المثقفين في هذه البلاد إلى التفكير فيه والسعي لتنفيذه.
والرجاء ألا تكون كلمتنا صيحة في واد.

تأثير الجمود في الأزمة المغربية

المغرب

السنة الأولى - العدد 7 - الجمعة 18 صفر عام 1356 الموافق 30 ابريل سنة 1937

مصائب الأزمة هى الآن المحور الذي يدور عليه حديث المغاربة في جميع حالاتهم، لأن البؤس قد تمكن من جميع الطبقات المتوسطة والفقيرة وأخذ يسري إلى طبقة الأغنياء ليصير منهم من تألم لألم الجوع فيرحم في يوم ما ضعيفا برغيف ويواسي فقيرا بدرهم، وتلك حسنة قد تكون للأزمة.

وكلما اشتدت الأزمة وعصرت خيرات البلاد كثر الجدال عن مصدرها، وتنوع البحث عن أسبابها، فليست الأزمات متحدة في صورها لأنها غير متحدة في أسبابها، بل هى تختلف اختلاف الوضعيات والتنظيمات التي تكون عليها الأمة وتؤثر على إنتاجها واستهلاكها؛ فمتى عدم التوازن بين هذين العاملين المهمين أصبح حديث الأزمة حديث العموم. والغرب اليوم وهو يقطع بحر الأزمة الوعر ويخترق كل هذه المصاعب التي لا تزداد مع الأيام إلا شدة وعسرا يأمل أن يتخلص منها، ويشق لنفسه طريق الحياة، ويستأنف سيره نحو الخصوبة، ولن يكون ذلك اليوم كمجرد فعل المصادفات كما كانت الأحوال في الماضي، بل لابد لكى يخرج المغرب من أزمته من مجهودات شتى ودراسات عميقة لأسبابها، ولا بد أن يساهم كل فرد مفكر في تشخيص أدوائها، والصحافة هى الميدان الفسيح لبحث هذه المسائل وتكوين فكرة صحيحة عن طرق الخلاص منها.

ولقد نشرت « المغرب » بحثا قيما في عددها الخامس للأستاذ علال الفاسي في الأزمة المغربية استخلص فيه أن سببها الرئيسي هو نزع الأراضي من أيدي الفلاحين المغاربة وتقديمها هدية سائغة للمعمرين، فنشأ عن ذلك أن أصبحت عشرات العائلات التي كانت

تقطن البادية لا تملك شيئا ولا تجد ما تستخرج منه معيشتها فتسربت إلى المدينة وزاحمت أهلها.

ونحن وإن كنا نقدر هذا الرأى حق التقدير ونرى في نزع أراضي الفلاحين مصيبة داهمت المغرب دون أن ينتبه إليها وإلى خطورتها لا نستطيع أن نتصور أن ذلك هو السبب الوحيد للأزمة المغربية التي استنزفت ثروة البلاد. فهناك عامل أساسي لا يمكن أن نغفل عنه ولا يمكن أن نمر به دون أن نعطيه كل ما يستحق من الاهتمام، هذا العامل هو الاختلال الكبير الذي أصاب حياتنا من ناحية مطامعنا التي أصبحت غير متناسبة مع مقدرتنا العملية في الوجود، فالبون شاسع اليوم بين ما نتطلبه من حاجيات وبين ما نستطيع أن نساهم به في خلق تلك الحاجيات.

فهذه حياة الفلاح رغما عن بساطتها وضيق دائرتها أصبحت ترى فيها ضروريات لم تكن تعرفها بالأمس، أو لم تكن تعد إلا من الثانويات؛ فلا بد للفلاح من أن يركب السيارة أو القطار ولا بد للفلاح من أن يلبس هذا الثوب المصنوع بأيد أجنبية ويتناول أطعمة لم تنتجها بلاده ويشرب الشاى المحضر بمواد تأتي من أقصى أنحاء المعمور، والفلاح فوق هذا وذاك ويدخل المدينة فإذا هى مرعى خصب لشهواته وملذاته.

والصانع تنوعت سبل المصارف أمامه وتضخمت واجباته في الحياة الاجتماعية بعد أن كانت بسيطة قليلة التكاليف ضعيفة النفقة؛ أصبح ملزما بما يرهق الكاهل ولا يستطيع القيام به أى صانع يدوي بسيط. وكذلك التاجر - وهو في وسطنا يعد من الأغنياء مهما قل ما بيده - يرغب أن يظهر في جميع حالاته بمظهر العظمة والفخامة.

أو ترانا نستطيع أن ننتج شيئا مهما مما يستهلك فلاحنا الفقير وصانعنا البسيط وتاجرنا المفلس؟ ألا نرى أن كل شىء نستهلكه يحمل إلينا من الخارج، فتتسرب الثروة يوما عن يوم إلى جيب الغير، ونظل في أزمتنا نرتع، وفي مصائبنا نهمع، إلى أن تتغير الأحوال، ولن تتغير الأحوال إلا بتطور المغرب. فهل لتطور المغرب نحن عاملون؟

المغرب بين المجاعة والتخمة

- 1 -

بلادنا زراعية قبل أن تكون صناعية وقبل أن تكون بلادا سياحية، فكل شىء تابع لمحصول موسمها الفلاحي؛ والموسم الفلاحي تابع لما تجود به السماء من أمطار في أوقات مناسبة ، فإن خمسة أسداس من سكان المغرب هم في البوادي يعيشون على ما تنتجه الأرض إذا ما نزل الغيث؛ فإذا كانت السنة مجذبة جاع البدو وتوقف النشاط التجاري ونشاط الصناعات اليدوية في المدن حيث تفقد التجارة الزبون وتفقد الصناعة الشاري ويتعطل بذلك دولب الأعمال في كثير من المناحي الاقتصادية وتخيم الأزمة وتكثر الفاقة.

ولقد شاهد المغرب في السنوات الأخيرة صورة مشؤومة من ذلك حيث بخلت السماء فأجذبت الأرض وهاجم البدو الجائعون المدن وأصبح حديث الأزمة والبؤس الحديث الوحيد للمجتمعات المغربية.

وبعد ذلك الجذب استبشر الناس خيرا في هذه السنة حيث أمطرت السماء وارتوت الأرض في جميع جهات المغرب وفي الشقيقتين الجزائر وتونس مما جعل كابوس الأزمة الثقيل يخف شيئا ما وها هى ذي الأرض أينما سرت جنة مخضرة تعلوها الأزهار ويهب عليها نسيم الربيع.

وتعتبر الصابة الفلاحية في الحصادالمقبل إذا أتم الله ثمرتها صابة جيدة لم يرها المغرب منذ سنين، فإن إنتاج الفلاح يكون بحوله تعالى مضاعفا وما علينا إلا أن نفكر في الكيفية لاستهلاك ذلك الإنتاج داخل المغرب وفي الوسيلة لإصداره خارج المغرب.

فإن المغرب مهدد دائما إما بالمجاعة إذا لم تنزل الأمطار في أوقاتها المناسبة وإما بتخمة إذا ما نزلت الأمطار فنزلت معها أسعار الإنتاج الفلاحي إلى حد تجعل إفلاس الفلاح أمرا

محتما تتجدد به الأزمة حيث يصبح القمح مثلا بثلاثين فرنكا للقنطار وهو بذلك لا يساوي ما صرف عليه الفلاح من بذور اشتراها غالية الثمن ومن أدوات الحرث وقيمة الأرض وتقديرات الترتيب الفاحشة بالنسبة لانخفاض الأسعار وما يضاف إلى ذلك من ضروريات يحتاجها الفلاح من المدينة، وبذلك تنتعش الصناعة والتجارة فلا يجد بيده من دخل مجموع صابته ما يسدد به جزءا من ذلك فتختل حياته وتضطرب شؤونه ويصبح متذمرا من الفلاحة وهى تنتج كما يتذمر منها إذا ما أجذبت الأرض.

فالاحتفاظ بارتفاع أسعار الإنتاج الفلاحي ضروري جدا لحفظ التوازن الاقتصادي في البلاد خلافا لما يتصوره البعض ، فإن الفلاح هو الدعامة الوحيدة لإنعاش المدن في صناعتها وتجارتها، فإذا أفلس الفلاح لم يقصد المدينة شاريا ولكن شحاذا، فينشأ عن ذلك توقف في اقتصاديات المدينة نفسها؛ فإذا احتفظ للفلاح بأثمان معقولة لإنتاجه استطاع أن يبيعها ويقصد المدينة يشتري صناعة الصانع وسلعة التاجر فيجد الأخيران بذلك موردا لحياتهما ولازدهار مشروعيهما، وإذا نزلت الأسعار أفلس الفلاح ولم يجد اقتصادى المدينة مشتريا، فيعلن التاجر الإفلاس، ويضطر الصانع إلى إغلاق مصنعه، ولا يجدان حتى ما يشتريان به إنتاج الفلاح الرخيص الثمن.

ولم يكن يستفيد من ذلك الانخفاض لأثمان الإنتاج الفلاحي إلا المحتكرون حيث يتلاعبون بالأسواق فيشترون اليوم بالفرنك ما يبيعونه غدا بالريال، والفلاح عموما والمغربي على الخصوص يتطلب المال في أول الصابة ليسدد ديونه وضرائبه فيضطر إلى البيع بأي ثمن.

ومنذ سنتين نظم مكتب القمح بفرنسا على أساس نظرية اقتصادية جديدة تحتفظ للفلاح المنتج دون أن تضر بالمستهلك، فاعتقدنا إيجاد مثل هذا المكتب في بلادنا ينقذ الفلاح المغربي من تلاعب المحتكرين ويضمن له حياة جديدة؛ وقد وجد المكتب بالفعل ولكنه اختص بشؤون القمح الطري « الفرينة » وأغلب هذا القمح ينتجه في المغرب المعمرون

وأقله ينتجه المغاربة ذوو الأراضي الشاسعة، فلم يستفد من المكتب الفلاح الفقير الذي نطالب بحمايته، وقد نظمت للفلاح المغربي جمعيات تعاونية ساعدته في السنة الماضية على الانتعاش شيئا ما حيث كان إنتاج الصابة قليلا؛ أما هذه السنة والإنتاج المؤمل كثير فإن مثل تلك الجمعيات تصبح عاجزة عن مساعدة الفلاح حيث لا تقدر على تقديم المال عن كل ما ينتج، فتضطر إلى خفض الأثمان بصورة ربما تكون مضرة بحقوق الفلاح.

فما هى الوسيلة لتلافي هذا الخطر؟ ذلك ما أود أن يكون حديثي في المرة المقبلة.

- 2 -

إذا انخفضت أثمان المنتوجات الفلاحية انخفاضا كبيرا أفلس الفلاح، وإذا أفلس الفلاح ببلادنا تعطلت الأعمال الاقتصادية بأجمعها. تلك حقيقة لا ريب فيها، والأمل قوى أن تكون المنتوجات الفلاحية هاته السنة وافرة جيدة، فما هى الوسائل لاستهلاك تلك المنتوجات في الداخل ووسقها إلى الخارج حتى تحتفظ بأثمانها في السوق ولا يجد المحتكر طريقا للتلاعب بمالية المنتج في أول عرض الصابة ومالية المستهلك بعد ذلك.

أول الوسائل لذلك أن يدمج من الآن القمح الصلب في مكتب القمح الذي أسس منذ سنتين ليتكفل بطرق تموين المغاربة؛ وكان واسطة في إصدار القمح الصلب إلى الخارج كما هو وسيطة الآن في إصدار القمح الطري، فإن الفلاح المغربي الفقير سوف يجد في السوق ما يكفل له البيع والحصول على قدر من الدراهم يسدد به ديونه وضرائبه ويكفل له العيش طول السنة ليجدد العزم على فلاحة واسعة النطاق في السنة المقبلة.

وما دام المغرب ينتج الحبوب جميعها من شعير وذرة وغيرهما زيادة على ما ينتج من القمحين الطري والصلب فمن الواجب أن يصبح ذلك المكتب مكتب الحبوب المغربية جميعها ينظم شؤونها ويشرف على إصدارها. ويظهر أن وسيلة إدماج القمح الصلب في مكتب القمح لن تتأتى الآن بسرعة لموانع هناك نشرحها في فرصة أخرى. وأمامنا وسيلتان:

أولا - تنظيم لجنة اقتصادية فنية تدرس الأسواق العالمية لتعرض عليها الحبوب المغربية فتحبط ما سيفكر فيه المحتكرون المتلاعبون، وتكون تلك اللجنة وسيطة بين الجمعيات التعاونية المغربية والأسواق العالمية، وتتكفل الجمعيات التعاونية بالشراء وتنظيم الأسواق المغربية وذلك يجعل لجنة مركزية لها، وتبذل الحكومة من جهتها تسهيلات واسعة النطاق فتنظم بواخر حمل لذلك وتؤدي أجرة الحمل وتعفي القمح الموسوق من ضريبة أو واجب حمل في المراسي وتخفض من أثمان وسقه في السكك الحديدية.

ثانيا - تبذل الحكومة مجهودا لشراء كمية وافرة تخزنها للاحتياط لأية مجاعة يمكن أن تحدث لا قدر الله بعد الآن على أن تبيعها في آخر كل سنة فلاحية وتشتري كمية أخرى عوضها، وبذلك تجد الحبوب المغربية الآن الشاري بثمن مناسب ويجد الشاري في آخر السنة الفلاحية الحبوب بثمن مناسب أيضا، ولا نخشى شر مجاعة مع الآن فنضطر - إذا وقعت - إلى شراء حبوب من خارج المغرب بأثمان مرتفعة.

إن التوازن التجاري مفقود في المغرب بصورة تخفيف، فنحن نستجلب من الخارج ضعف ما نرسل إليه، ومعنى ذلك أننا نسير كل سنة إلى إفلاس وإننا مضطرون إلى السلف نعقده كلما انتهى سلف وإلا توقف دولب الحركة الاقتصادية في المغرب توقفا تاما. لذلك يجب أن نهتم كل الاهتمام بحياة الاقتصاد المغربي وتنهي سياسة السلفات نهاية تامة، والطريق الوحيد لذلك أن نجعل التوازن محققا بين ما يرسل إلى الخارج وما نستورده منه.

بقيت نقطة مهمة وهى أن تعمل إدارة الفلاحة من جهتها على إزالة تلك الصعوبات التي توضع لمنع الفلاح المغربي الفقير من حرث القمح الطرى « فرينة » فتقدم إليه جمعيات الاحتياط البذور من ذلك القمح إن أراد، وتشجيعه على حرثه تشجيعا واسع النطاق حتى يستفيد الفلاح من الامتيازات المعطاة لهذا النوع من القمح وتتنوع الفلاحة المغربية حسب حاجيات الأسواق في الداخل والخارج.

تكاليف البدوي

المغرب

السنة الأولى - العدد 10 - الجمعة 25 صفر الخير عام 1356 الموافق 7 ماى سنة 1937

في إحصاء نشرناه منذ أسبوع أن سكان مدن المغرب يبلغون نحو السدس من مجموع سكان القطر، ومعنى ذلك أن البدو هم سكان المغرب ولسنا نحن بالنسبة إليهم إلا أقلية ضعيفة، وأن كل مرافق المغرب يجب أن تقدر بالنسبة لبواديه لا لحواضره وأن عنايتنا ينبغي أن تتوجه نحو هؤلاء الذين حظهم من هناء الحياة قليل ونصيبهم من أتعابها كثير، ومع ذلك فالفلاح المغربي يقتحم كل المصاعب ويتغلب على جميع الأزمات ويكتفي من العيش بشظفه ومن المؤن بما تنتجه الأرض وما تمطره السماء، فإذا بخلت عليه الأرض وشحت السماء لا يتسرب إلى نفسه يأس ولكن يتجلد ليجدد أمله في عام آت ويقبل على تلك الأرض ليلقى بذوره وينتظر لعل خيرا عميما يجنيه.

فثروة المغرب هى في يد هذا الفلاح البسيط الذي هو عنوان التضحية والصبر والذي - مع غاية الأسف - لا ننظر إليه باحترام والذي تهمل الحكومة جميع مصالحه وتلقي به في المصائب ويمتص ممثلوها جميع خيراته وتثقل كاهله بفادح الضرائب.

فحالة الفلاح المغربي حالة تدمي الفؤاد، حالة ليس من المستطاع تحسينها إلا بجهود متواصلة ورغبات قوية تعلن عنها الحكومة ويساعدها الشعب، فلا نود الآن أن ندخل في تفاصيل تلك المجهودات التي ينبغي أن تبذل لإسعاف الفلاح وإنقاذه وتحضيره، فذلك ما يجب أن تكون له دراسات وتختص به أبحاث ربما لا تتسع لها صحيفة سيارة، بل نود في هذه الكلمة أن ننبه الحكومة إلى بعض النواحي التي تزيد في شقاء الفلاح وتعاسته

خصوصا في هذه الأزمة الخانقة.

فالحكومة إذا بذلت مجهودا في الاحتفاظ بثروة الفلاح فإنها ستحتفظ بثروة البلاد، وليس ذلك بالعسير عليها، بل إنه لا يكلفها إلا إصدار أوامر صارمة إلى كل إدارة تشتغل بشؤون الفلاح، وإلا أنظمة تضعها وتلزم موظفيها بالسير عليها وتنفيذها بروح عدل.

فلقد تفاحش الظلم وتنوعت صوره في البادية بكيفية مزعجة مقلقة وأصبحت حياة البدوي أبخس من حياة حيوان أعجم؛ فالعدالة تكاد تكون مفقودة ولسنا ندري كيف تتكون روح العدل بين ولاة أغلبيتهم الساحقة أمية لا أجرة لهم سوى نصيب من دخل الترتيب السنوي الذي يؤديه البدوي ويؤدي فوقه تكاليف للقواد والمشاييخ وغيرهما من متولي السلطة في كل مناسبة أو من غير مناسبة، ويكاد الإنسان إذا ما استقصى موارد الفلاح يجد أن ثلثيها تذهب إلى كيس هؤلاء المثلين لسلطة يجب أن تكون محترمة.

وهناك نواح أخرى تكلف البدوي مصروفات باهظة، فهو ملزم بالحضور في كل حفلة مهمة وغير مهمة بفرسه ذي السرج المذهب، فبينما البدوي المسكين لا يجد ما يكفي مؤونته إذا بالسلطة تأمره بالحضور وشراء ملابس جديدة في تولية موظف صغير والذهاب إلى موسم وغير ذلك مما أمسى يكلف الفلاح ما ليس في طاقته.

فنرى من واجبنا أن ننبه رجال الإدارة العليا إلى حالة الفلاح ونلح في هذه الأزمة الشديدة أن يعملوا ما يخفف من وطأتها بتغيير أساليب الإدارة وإسقاط هذه الكلف المضرة بالفلاح.

كابوس الظلم

المغرب

السنة الأولى - العدد 24 - الجمعة فاتح ربيع الآخر عام 1356 - 11 يونيه سنة 1937

ثلاث مصائب تمكنت من هذا الشعب البائس وأخذت في شره تمص دمه وتتبع جرثومة الحياة لتضعف من مفعولها وتزعزع قوتها، فالجهل يكتسح جميع المدارك ليصرفها في أسفل الاتجاهات، والفقر ينخر في الجسم ليبطل حرارته، والظلم يعمل عمله ليوهن النفس ويميت الشعور. قدسية العدالة من السماء، فإذا انصرفت الأمة عنها باءت بالخسران وتولاها الضعف وهزلت مرافقها واختلطت شؤونها. ولكن العدالة اسم بدون مسمى في هذه البلاد؛ اسم لا معنى لوجوده في القاموس إذ لا يعترف به حاكم ولا يلتفت إليه بشر، وهذا أفظع ما يتصور في ذهن إنسان لم تمت نفسه ولم تخمد حيوية روحه، ذلك لأن العدالة هى المظهر الوحيد للتمدن وهى الفرق الكائن بين الحيوان المفترس وبين الإنسان المميز. فلم تتمادون في إغفال شأنها وإهمال إصلاحها؟ أية قيمة لطور جديد من الحياة تزعمون، إننا لا ندخله إذا لم تضمنوا قبل أي شيء عدالة تحفظ حق الضعيف وتزيل الحيف عن المظلوم. لقد كنا نعيش في الماضي وكان الظلم بجانب العدل، أما اليوم فسر في طول البلاد وعرضها واستمع إلى أنين كل أحد تر. جل في البلاد لتعلم في أي عصر يعيش المغربي وأية مرحلة يجتاز اليوم وسل نفسك أفي القرن العشرين يحيى هؤلاء المغاربة. أتظلهم راية المدنية وتحميهم أمة رايتها مثلثة الألوان؟ أي والله إننا لا نفهم ترصيف الطرق وتشييد البناءات في مدنية من دون عدالة، ولا نستطيع أن نعترف بفضل أي نظام لا يرفع عنا كابوس الظلم المخيف الذي يزعزع حياتنا ويقلق بالنا؛ وأنتم أيها المتمدنون أليس من العار أن يظل هذا الكابوس وأنتم بين أظهرنا؟ سلوا ضمائركم تجب.

ولكن متى؟

« المغرب »

السنة الأولى - العدد 12 - الأربعاء 30 صفر عام 1356 الموافق 12 ماى سنة 1937

انتقذنا حالة المغرب فقيل عنا إننا أعداء الحكومة وفرنسا. طالبنا بإصلاحات ضرورية فقيل إننا خياليون. اختصرنا تلك المطالب فقيل لنا انتظروا فنحن الآن نهيئ الميزانية. وانتهى أمر الميزانية ولم نر أى إصلاح ولا محاولة لإصلاح ولا تفكيرا في إصلاح.

وأصبحنا على أبواب ميزانية أخرى، أفيقال لنا مرة أخرى: انتظروا ... ؟ أيظل المغرب في هاته الهوة السحيقة من الجهل والفقر والظلم لا لسبب جناه سوى لأن الأهواء تريد، أليس هناك من راد لها؟ إن الوعود لا تغني عن الأعمال شيئا والآمال لا يمكن أن تعلق على سراب والصبر لا يستمر إلى الأبد.

إن الحالة في المغرب في جميع مظاهرها محزنة مقلقة، أفتودون أيها المسؤولون أن تبقى الحياة المغربية في بؤسها وشقائها وقلقها؟

إننا نطالب بالعلم لأننا جهلاء، ونطالب بالعمل لأننا مظلومون ونطالب بالخبز لأننا جائعون. إننا نسمع وعودكم ، ولكن متى تدخل في حيز التنفيذ؟ وإننا لنريد إصلاحا فهل تأبونه؟ ... ونعمل لتقدم شعب فهل ترفضون؟

هل من مغيث؟

« المغرب »

السنة الأولى - العدد 11 - الإثنين 28 صفر عام 1356 الموافق 10 ماى سنة 1937

هناك في المغرب الجنوبي والمغرب الشرقي يسقط الرجل مغشيا عليه من الجوع، فإذا حاولت إسعافه لم تجده إلا جثة هامدة، هناك يلقى المرء بنفسه إلى العدم ليتخلص من مشاق الحياة وأتعابها، حالة مخزية وايم الله! ولكن ... (سطر لم يقرأ) يشتكي من الشكوى ويتوجع أشد الوجع لأن الجميع صرعته الأزمة فذهب ما بيديه وأمسى يطلب رغيفا من الخبز فلا يجده.

فلم لا نستعطف غيرنا من الأمم ونطالبها بمد يد المساعدة إلى الجائعين من المغاربة، فالأمم اليوم تتقارب وتمد كل أمة يدها للأخرى لتخفف عنها مصائبها وآلامها.

فمنذ سنوات اكتتبت أغلب أمم الأرض لجائعي روسيا ولمنكوبي الصين ومنذ سنوات اكتتب المغاربة لمنكوبي الحرب بفرنسا ولمنكوبي الفيضان بها أيضا.

فلم لا تساعدنا تلك الأمم الغنية ولم لا تساهم فرنسا حامية المغرب في العمل للتخفيف من بؤسه؟

هذا ما نلفت نظر الحكومة إليه ونرجو أن تفكر فيه، فلن يعدم بين المتمدنين من يساعد على إنقاذ هؤلاء البائسين من هوة الموت.

ولن تكون الأمة الفرنسية إلا في الصف الأول بين تلك الأمم.

مظهر البؤس

« المغرب »

السنة الأولى - العدد 3 - الأربعاء 9 صفر عام 1356 الموافق 21 ابريل سنة 1937

أمة جائعة

تلك هى أمتنا قطع الله عليها سبيل رحمته فأصبحت بين عشية وضحاها تطلب الخبز وترغب في القوت، ولكن لا تدري أى ذنب اقترفته في الحياة فاستحقت هذا العقاب من رب السماوات، فهى نسيت الواجب واشتغلت بالسفاسف، فكان الجزاء من جنس العمل، فقبل أن نطالب بالرحمة يجب ألا ننسى الواجب وأن نبتعد عن الأخطاء التي نحن متربعون في أحضانها.

لا تكاد تسير بطريق في المدينة ولا تمر على عشيرة في البادية حتى ترى نفسك تفر من جسدك وحتى تتيقن « أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فحيث الشقاء والبؤس، حيث الفساد والسفالة.

وبعد، فلو أتيح لهذه الصحيفة أن يتسع ميدانها ويكبر حجمها لما اتسعت لما يرد عليها، وهى في أول مرحلة من حياتها، من صور البؤس والشقاء المخيمين في هذه البلاد، فمعذرة أيها الكتاب، ورحمتك يا رب بأمة ضعيفة في حالها وأخلاقها.

حالة شاذة

من آثار عصر الظلمات

المغرب

السنة الأولى - العدد 34 - الإثنين 27 ربيع الأول عام 1356 الموافق 5 يوليوز سنة 1937

تكاد مراكش تنفرد بين مدن المغرب في الجو الذي يعيش فيه المراكشيون مع ولاتهم، فهو جو يمثل لنا عصرا من العصور المظلمة التي ساد فيها حكم الإقطاع بأتم معانيه والتي كانت حياة المرء فيها أهون من متاع.

والمغرب اليوم على أبواب تطور ملموس الأثر، واضح المرمى، إذ يسعى مفكروه أن يطردوا عنه تلك الصور البالية التي ورثناها عن العصور المظلمة والتي ساعدت سياسة النفع الذاتي على تمكنها في هذه البلاد.

لهذا فإننا بكل إخلاص نوجه كلمتنا إلى السلطة العليا المسؤولة في هذه البلاد أن تتدارك الحالة بما لديها من خبرة وأن تعمل بدرس أسباب هذه المناوشات التي بدأت في هذه الأيام تبرز وتعمل على كبت جميع العواطف وصدم مختلف المشاعر ترضية لفرد واش ودساس يعكر الجو ليعيش. فالمصلحة العامة التي يجب أن تخدمها كل سلطة مهددة بأخطار جمة من جراء تلك التصرفات الغريبة التي يجب أن تقبر وأن يسدل عليها ستار كثيف حتى لا يبقى لها من أثر في أذهان الذين إذا تذكروها تنغصت عليهم الحياة واستعرضوا في تلك التصرفات صورا من العصور المظلمة، فإذا كشفوها للعيان تراءت حالة المغرب كما هي لا كما تصورها أقلام كتاب مأجورين.

فمن الخير للإدارة المركزية أن تضع حدا لجميع التصرفات الشاذة التي الويل كل الويل في نشرها بين أمم العالم المتمدن والتي يؤسفنا غاية الأسف وجودا لها في عصرنا هذا.

فإن الشعب المغربي لن يبق في وسعه أن يفهم المسائل كما تريد جماعة أن تفهمها له، ولا يريد أن يصور كشعب مغفل يهز رأسه بالموافقة والتحبيذ لكل عمل من الولاة المحليين الذين يعيشون في عالم منعزل عن أطوار العصر ومقتضيات التطور.

وليس من الصواب في شيء أن تستمر هذه المناوشات لكل عمل يراد به نفع المغربي وتظل بذلك الاضطرابات تتوالى والأفكار تهيج، ونحن نتيقن أن مصلحة الحكومة المركزية في اجتناب هذا الخوض غير المجدي، وتمتين العلاقات بين الشعب والحكومة على أساس ثقة واحترام، فإن مفكريه حريصون على خدمة الشعب في جو من التفاهم والتعاون، وأملنا قوى في أن لا تضيع الإدارة العليا هذه الفرصة لتظل ثقة العاملين تدعو إلى التفاؤل وتبقى الآمال وطيدة في إنجاز رغائبنا المستعجلة على يد حكومة تفهم مرحلة المغرب وتدرك ما يصبو إليه جميع المخلصين في هذه البلاد من إنقاذ أمة من هذا الظلام الدامس.

متحف القرون الوسطى

المغرب الجديد

السنة الثانية - العدد الحادي عشر - فاتح ربيع النبوي عام 1355

تستطيع أن تزور هذا المتحف فلا تجول فيه جولة قصيرة حتى تتصل بالقرون الوسطى اتصالا وثيقا وتتعرف إلى هذه العصور التي خبأ التاريخ معالمها ودرس الدهر آثارها ولم يحفظها إلا هذا المتحف الذي يغني عن أشتات الدروس وأساليب البحث في التعرف إلى خبايا ذلك العهد، وهو لا يمثل ناحية واحدة من الحياة، بل يمثل ما تشاء وما لا تشاء من الصور، فإذا زرته كنت على يقين أنك تستفيد وأنك ستصادف في معروضاته ما يفسر لك المخفى أو المبهم من أية جهة تتساءل عنها أثناء درسك لهذه المرحلة من تاريخ الإنسانية.

متحف امتلأ بمعروضات يقصده الفوج إثر الفوج، فلا يجتاز المرء بابه حتى يغفل أنه من أبناء القرن الحالي وينسى أنه يعيش في عصر التطور يناقض المرحلة التي وصلتها البشرية في الزمان الذي يمثله هذا المتحف. يغمر زائر المتحف بمشاهدة أصناف هذه المعروضات فيتلهى بقسم ويعتبر بقسم ويستغرب أقساما: يقف أمام هذه المجموعة من المعروضات فإذا هى تبين عن نفسها وإذا هى تنطق - إن نطقت - عن غريب العادات وبعيد التصورات ومدهش الأحلام والغايات، تنطق عن كل شيء يتصل بالحياة في شؤونها الساذجة، وتياراتها الخافتة، ودبيبها الهادئ المتعثر السير، ومثلها المتهدمة الأطراف المشوهة الخلقة.

فالحياة في هذا المتحف لا تعترف بالتطور، بل إنها تهزأ من كل هذه المراحل التي قطعتها المدنية بعدها، ومهما سعت قاعة الدرس الجامعي أن تصور لك ذلك ببلاغة الأستاذ

الجامعي فهى عاجزة تمام العجز عن تصوير ما يمثله أمامك بوضوح هذا المتحف الذي ينسب للقرون الوسطى حيث عاش البشر على أساليب مغايرة في كل شىء لما يعيشه المرء اليوم ويحياه.

وإذا أسعدك الحظ ودخلت هذا المتحف فلا تتصور أنك ستشاهد معروضات متباينة تحتاج إلى علم المنقب للوصل بينها، بل ينبغي أن تدرك كل الإدراك أنك ستشاهد حياة مستقلة تمام الاستقلال ومعروضات مؤتلفة متعاضدة في تفهيمك لما تريد إزاحة الستار عنه من خفايا ماضي المدنية، فهى معروضات تعتبر في علم الآثار حية لا تحتاج إلى كثير درس ولا إلى عناء بحث، لكى تلمس بيدك ما انطوت عليه من صور وألوان وتتصل مشاعرك بما يدور في خلدها.

ولعلي بعد هذا لا أضطر إلى التصريح بمكان المتحف لتقصده طائفة القراء وتستفيد من مجموعاته، فهذا المتحف غير بعيد المكان ولا غفل العنوان، وليست معروضاته بالغريبة عنا نحن المغاربة، فلسنا إلا إياها، وليس هذا المتحف إلا مغربنا الواسع الأطراف الممهد السبل.

نحن متحف القرون الوسطى، ولم لا نكون متحفا وكل شىء لدينا يمثل الماضي أغرب تمثيل ولا يتصل بالحاضر في شىء ولا يعبر عن أي اتجاه من اتجاهات المستقبل. نمثل الماضي ولكن أى ماض نمثل؟ وأية مرحلة من مراحل الإنسانية نحن متحفها؟

أرى من الواجب أن نكون صريحين في جولتنا القصيرة بهذا المتحف إلى أقصى حدود الصراحة، فالماضي الذي نمثل ليس هذا الماضي الحافل ولا تلك المرحلة التي اجتازتها أمتنا وهى تعدو وراء الرفعة وتصبو إلى المجد، بل هذا الماضي وتلك المرحلة التي ارتخت أعصاب الأمة المغربية فيها واقفة جامدة يسيرها التيار وتتلاعب بها الأمواج كأنما هى خشبة في البحر تقرب من الشاطئ ولكن أى شاطئ تراها مستسلمة إليه؟ أهو شاطئ العراك البشري، شاطئ النشاط والكفاح الشريف أم شاطئ الراحة المميتة والنوم المتواصل؟

لا ريب أن نظرة واحدة على معروضات متحف لا تلقى في ذهنية المرء إلا أننا لا نستيقظ بقدر ما يزداد سباتنا عمقا، ولا نتحرك لنتصل بعصرنا إلا حركة ضعيفة واهنة لا تشعر بدبيبها مهما تسمعته.

والآن نستعرض في إيجاز معروضات هذا المتحف التي هى مظاهر حياتنا والتي هى صور الماضي الذابلة: هذه تربية أولادنا موضوعة على المشرحة لنمعن النظر في عروقها ولنفكر جيدا في نتائجها، أتراها على أسلوب من أساليب التربية الحديثة التي أمدنا بها علم العصر وخبرة التطور؟ أتراها تستمد شيئا من هذه المعرفة التي لا يستحق المرء حياة في زماننا دون أن يرتوى من ينابيعها الصافية ودون أن يتفهم مداخلها العميقة؟

أيكفي أن نجرم ونخرج من العدم الولد فيكون صورة عنا لا صورة عصره وعاملا من عوامل الخراب القاضي على كل شىء إذ ينطلق كحيوان حسبه أن يتابع غرائزه ويستسلم لتياراته النفسية، فإذا دخل المدرسة لا ينتج وإذا خرج منها ضل السبيل فهوى حيث تهوى كل جماعة لا تربية لها؟

وهذا مجتمعنا العائلي أتراه يتطور؟ أتراه شعر بما يحف به وأدرك أى جو يبسطه على النفس والإحساس، جو خانق يسم المرء فيصبح جثة فاقدة كل مقوماتها المعنوية؟

وهذه أفكارنا أى بون بينها وبين نظريات عصر الظلمات حيث ظل الإنسان مدة لا ينظر حتى في نفسه ولا يفهم معنى لوجوده كإنسان له حقوق وعليه مسؤوليات؟ ألست ترانا لا نزال نجادل في أبسط النظريات التي أصبحت بديهية ونعارض فيما سلمه الجميع وأيده الجميع؟

وهذه عاداتنا وتقاليدنا لا زالت في كل مظاهرها وكل أساليبها متوغلة في القدم، حريصة على صور جامدة لا تبين لك عن روح الماضي ولا حيوية الحاضر إذ تقوم بها جماعاتنا بصورة آلية دون أن تدرى مغزى لها ولا تتفهم سر اعتناق الأجداد لها.

وهذه أعمالنا أتراها خرجت من دائرة الفردية التي تسيطر على الأمم أحط مراحلها؟ أتراها

أصبحت منتجة كما تنتج أعمال العصر ومناسبة للتقدم العلمي ولازدهار المدنية في كل أمم العالم؟

بل قبل أن نتساءل هل تنتج أعمالنا ينبغي أن نفكر هل لنا أعمال. إننا نستهلك بعض إنتاج المدنية دون أن نساعد في إنتاجها إلا بصورة بسيطة تقارب الصور الأولى للمدنية. والآن لتقف جولتنا في هذا المتحف، فكل شيء يحويه جدير بالمشاهدة. كل ما تضمنه جدران المحيط والصحراء يعيش في الماضي الذابل، ولا يريد أن يعيش في عصره لأن نور العصر لم يلق بشعاعه بعد على هذه الأرض، فويل لأمة من جهلها.

عشرون قرنا في عشرين يوما

ملحق المغرب الثقافي

الخميس 2 ربيع الثاني عام 1357 الموافق 2 يونيه سنة 1938

لا نعلم أمة من أمم الأرض توجد في القرن العشرين ولكنها تعيش في القرون الغابرة، تعيش في قرون مظلمة بأنظمتها وعاداتها وخرافاتها وأعمالها بل بكل شيء يتصل بها حتى أصبحت في نظر الأجانب متحفا يقصده السائحون ليشاهدوا أجيالا من البشرية مرت وقرونا من الأزمنة خلت وحياة للرجعية محيت. فيبتعون ويسخرون وهم يستعرضون معروضات هذا المتحف الضخم وينتقلون بين أرجائه الواسعة وهم في شبه « سينما » تعرض أمامهم شريط العجائب والغرائب.

لا نعلم أمة لقبت باسم هذا الشريط إلا المغرب، هذه البلاد التي كانت حتى الأمس القريب دولة من أعاظم الدول على ضفة البحر المتوسط، ضفة المدنية والعرفان فأصبحت اليوم ملهاة في نظر الأمم تعلن عنها مكاتب السياحة في العالم المتمدن أنها بلاد جمعت آثار الأولين وأن أهاليها يعيشون في القرن العشرين بالرغم منهم، لا صلة تربطهم بمدنية العصر وتطور العصر، فتتفنن تلك المكاتب في طرق إغراء الأوربيين لزيارة هذه البلاد تفننا غريبا ، فتارة ترسم صورا من المغرب لا أدري أية علاقة بينها وبين المغرب تمثل الزنوج بأجسامهم السود وألبستهم النباتية وزينتهم البدوية أنها صورة مغاربة، وطورا تصف مجتمعنا بعادات وتقاليد لا نعلم لها من أثر، كل ذلك استغلالا لميل السائح إلى مشاهدة المغرب لينبرى في مجتمعه بعد أوبته محدثا أهله ورفقاءه عن مدهشات ألف ليلة وليلة التي شاهدها بالمغرب والتي حكاها له دليله لتفسير مشاهداته.

ونحن مع اعتبارنا أن مكاتب السياحة تلك تشوه سمعة بلادنا استغلالا لمصلحتها المادية

فإننا نعترف أنها وفقت إلى كذبة أطلقتها على المغرب وأصابت فيها كبد الحقيقة وإن كانت مخجلة حقا فإنها تذيع في نشرات كبيرة تعلق على الحيطان وبأحرف بارزة وألوان ساطعة تلفت النظر: إن السائح إذا زار المغرب يشاهد عشرين قرنا في عشرين يوما. فإنك أذا جلت ببصرك وبفكرك عما ترى في هذه البلاد لا تشاهد أية علاقة بين المجتمع المغربي وبين القرن العشرين الذي يعيش العالم اليوم فيه. إن البون شاسع بين مدنية العصر والحياة التي نحياها، فبينما مدنية العصر تتكيف في المعرفة الحقة في جميع ميادين الحياة، الحياة التي نحياها تمثل الخمول والجهالة تخيم في جميع نواحينا؛ وبينما مدنية العصر تعتمد على القوة والكفاح إذ نستسلم في جميع مظاهر حياتنا بضعف؛ وبينما المدنية العصرية تعلمك أن تعيش للمجموع إذ نحن لا نرعى إلا مصالحنا الشخصية ويعلن كل واحد منا في كل مناسبة « بعدي الطوفان » . كل تلك الصفات المعنوية أدت إلى مظاهر من قلة التهذيب وهيأت لنا وسطا لا يعرف التطور في أي ناحية من نواحيه وجعلت جذور حضارتنا الماضية تجف وتموت إذ لما تصرمت القرون على جمودنا أصبحت جماعاتنا متجردة عن مثلها العليا تحصر كل اهتمامها وتفكيرها في ثروة تجمعها ومتاع تكسبه وزينة مظهر تفخر به، وظلت حياتنا في دبيبها تتعثر وبويلاتها تنتحر حتى فاجأتنا مدنية العصر وقوة العصر فذهلنا أمامها وخررنا لها مستسلمين نحاول أن نتلمس أبوابها ولكن لا ندري أين هي ونعجب بها ولكن لا ندرك سر تفوقها. وهكذا أصبحنا حديث هزل واستغراب في أفواه الأجانب نمثل القرون الغابرة ونجمع كل مظاهرها التي قضى عليها التطور وتجاوزها التقدم العلمي وأصبحت عشرون قرنا تحشر في حياتنا.

جميل أن نحافظ على عاداتنا وتقاليدنا غير المضرة والمخجلة ولكن يجب قبل ذلك أن نعيش في عصرنا وأن نغير حياتنا لنصيرها خاضعة للتطور البشري العام، وبذلك لا غير ندفع عنا تهمة الجمود التي تعبر عنها كلمة مكاتب السياحة « عشرون قرنا في عشرين يوما » أصدق تعبير.

أمة تجهل بلادها

لك أن تجتمع مع أي أوربي قضى في المغرب أسبوعا واحدا لتراه يتحدث إليك عن جهات المغرب البعيدة وعن عادات لم تلق لها بالا وأنت تمارسها كل يوم. فإذا هو في جوه واسع المعرفة، ذو اطلاع على الأماكن التي يجب أن تزار لمنظرها الخلاب أو لقيمتها التاريخية، وإذا هو في ملاحظاته على عادات البلاد دقيق النظر يحلل العقلية المغربية ويحاول أن يتفهمها حق الفهم. بينما تجد المغربي ابن هذه المدينة لا يعرف شيئا عن المدينة المجاورة، ولم يزر من نواحي المغرب إلا ما يتصل بشؤون حياته الضيقة، بل لتلق عليه سؤالا عن ناحية من مدينته فإنه لا يستطيع أن يتحدث إليك عن أصلها التاريخي إن لم يصارحك أنه لم يزرها قط.

وليس هذا الإهمال المشين ناشئ عن الجهل الذي تتخبط فيه الطبقات المغربية فحسب، بل وعن الخمول الذي يسود حتى الطبقات المتعلمة، فإن روح النشاط يكاد أن يكون مفقودا بين الشباب كما هو مفقود بين الشيوخ، ولذلك عدة أسباب يتصل بعضها ببعض ويؤدي جانب منها إلى جانب.

ولعل أهمها أننا لم نرب تربية اجتماعية، فإننا لم نعرف من صور الحياة إلا صورة العائلة في مجالها البيتي، والصداقة الفردية في أضيق حدودها. فإن لفقدان الجمعيات وعدم تذوقنا لفائدة المؤتمرات والاجتماعات التي تسهل ما يعسر على الفرد، أقوى تأثير في خمولنا؛ فإن الأوربيين القاطنين ببلادنا لهم مئات الجمعيات، كل جمعية ترمي إلى غاية واضحة، وتساعد الفرد للاختلاط بالمجموع والتعرف إلى نواحي البلاد الخفية، وهم لا يفترون عن عقد المؤتمرات، ففي كل أسبوع مؤتمر وفي كل أسبوع اجتماع رياضي أو فني أو علمي أو سياسي إلى غير ذلك مما تزخر به الصحافة الفرنسية وتنشر عنه الأعمدة الطوال.

وتلك الجمعيات أو هذه المؤتمرات والاجتماعات هى التي تجعل في إمكان الأوربي أن يعرف عن بلادنا ما نجهله نحن المغاربة كل الجهل؛ فإن الأوربي الذي يقصد المغرب للسياحة أو للإطلاع لا يدخل القطر إلا وقد اطلع على تاريخه، ولا يزور مدينة إلا وقد أحاط بماضيها وحاضرها، وهو في الغالب لا يحضر المغرب إلا منخرطا في جولة نظمتها جمعية أو أقامتها صحيفة أو أوجبها مؤتمر ، وهو في جميع ذلك مستفيد من رحلته، متمتع بروح الجماعة التي تسود الجوالين معه، فهو مضطر إلى البحث، وإلى تعرف الخفايا، وهو شغوف بمناظر المغرب الفتانة يصفها بالقلم أو يرسمها بالريشة أو يصورها بالآلة، فإذا رجع إلى بلاده حمل معه صورة عن المغرب، يضعها في تأليف أو يعرضها في معرض صور زيتية أو يسجلها بين صور صحيفة.

وليس ذلك النشاط يبدو على الرحالة في المغرب من الأوربيين فحسب، بل إن القاطنين منهم أيضا لا يتركون فرصة عيد أو عطلة أسبوع تمر، دون أن يزدادوا اطلاعا على المغرب ومعرفة بشؤونه؛ ففي كل أسبوع تقضى عطلته في غابة غناء، أو زورة ممتعة لتذكار تاريخي أو على خرير شلال يثير الشعور، فهم الذين يتمتعون بالمغرب وهم الذين يعرفون جماله ويتذوقون سحره؛ أما نحن فشغلنا محصور في أن نقضى طول اليوم بين جدران منزل، نقتل الوقت قرلا ونميت حيويتنا موتة في كلام فارغ، وجدال باطل، وفي ضروب من المداولة يتخللها البؤس، ويعمها الشقاء، ويكتنفها الاضطراب، ويسودها الخلل، فإذا اجتمعنا إلى أصدقائنا ففي كلام سخيف وشتم متواصل، يمر الزمان الذي كثيرا ما نتخلص منه بمثل هذه الوسائل، وإذا أهاج منا الربيع الإحساس الكمين، واتفقنا على نزهة ففي ملء البطون ولعب الورق والمشاجرة العنيفة، ونتناسى جمال الربيع وسحر نسيمه.

أما أسفارنا فهى لا تزيد عن انتقال من مدينة إلى مدينة، وتمثيل دور هذه المدينة في تلك، لا نستفيد منها، فإننا لم ندرك بعد أن السفر هو الدرس العملي في الحياة.

فنحن أمة لا تجهل غيرها فحسب، بل تجهل بلادها وحياتها أيضا وتلك معركة لا يتحمل وخزها إلا الشباب المتعلم، الذي رغم ثقافته لم يستطع أن يخرج بحياته من وسطها المغربي الضيق، إلى حياة جديدة تمثل النشاط وتبين عن فتوة وتقتبس من عصرها، لتعيش في عصرها.

فليحاول الشباب أن يزيح عن حياته هذه الصور الجامدة وليخرج بها من دائرة ضيقة متهدمة إلى صور تعاونية اجتماعية تكون طريق تعرفه ببلاده، وبذلك وحده يستحق المغربي أن يعيش في هذه البلاد الجميلة الغنية.

أصنام الكعبة وأصنام المغرب

ملحق « المغرب » للثقافة

يحيى المسلمون اليوم ذكرى مولد رسولهم الأعظم صلى الله عليه وسلم فيظهرون الابتهاج، ويقيمون الاحتفال، ويعلنون العيد، ويتهيؤون لذلك بزينة جديدة ومظهر جديد، فإذا المسلمون في أنحاء المعمور قد أخذتهم نشوة من السرور وموجة من الانشراح فأزاحوا عن أنفسهم هموم الحياة واستقبلوا الذكرى بتحية تعبر عن إحساسهم الصادق نحو منقذهم الأعظم.

يستقبل المغاربة هذه الذكرى بتحية طيبة ولكنهم لا يفكرون فيها ولا يقدرون قيمتها في تاريخ الإنسانية، فحسبهم أن يقيموا حفلات العيد كعادة ألفوها وتقليد مارسوه، فإن هذه الذكرى لا توحي إليهم معاني الجلال ولا تحيطهم بسياج من الفضيلة هما مرمى الإسلام الحقيقي، فإن المغاربة اليوم في غفلة عن وحي دينهم بينما العبرة في هذا العيد ليست هى المظاهر ولكنها في أن تستوحى من الذكرى سيرة رسول أضاء لنا سبيل الحياة واختط لنا خططا نهجناها فسبقنا غيرنا وأهملناها فتأخرنا عن غيرنا.

والمغاربة وإن كانوا يخصصون أياما من هذا الشهر يقصدون فيها بيوت الله للاستماع إلى السيرة النبوية تدرس عليهم فإن ذلك أيضا أصبح عادة لا أقل ولا أكثر ، فإن المغربي وهو يستمع إلى حياة نبيه الأعظم وجلائل أعماله الخالدة بخشوع يفكر في مصيبة تسجل في صحيفة ذنوبه عند خروجه إلى الشارع.

ولعل من أروع وأخلد ما تمليه علينا سيرة رسولنا الأعظم فلا ننتبه إليه ولا نعتبر بعبرته تلك الصورة التي قصد بها نبى الإسلام وهو في أول مرحلة من نبوته أصنام الكعبة

فحطمها وأزالها من الوجود المادي لتمحى من الوجود الفكري، فإن تلك الصورة الخالدة ستبقى دائما في تاريخ الإسلام مبعثا لتجديد قوة المسلمين وسراجا لهم في ظلمات الحياة.

حطم الرسول الأعظم أصنام الكعبة ليعلن فكرته الأساسية التي هى التوحيد فوضع بذلك حجرة أولى في بناء صرح الإسلام الذي شيده على دعائم العلم والأخلاق والألفة.

فأنقذ البشر من جاهليتهم الاشراكية وأوضح لهم بأفصح لسان أن عبادة الأصنام لا تستطيع دفاعا عن نفسها ولا تنفع أحدا؛ جهل مطبق وغباوة يجب أن يسل سيف القضاء عليها. وأخرج الفكر الإنساني بذلك من عالم الظلام إلى عالم النور، فانطلق يبحث عن أسرار الحياة ويكشف من نواميسها آيات تدل على أن الله واحد وأن القوة الأزلية أعلى من أن ترمز لها أصنام دارت على الكعبة.

ثم خطا النبى الأعظم خطوة جديدة فسن دستورا يطهر الإحساس ويزكي الفضيلة في النفس ويرسم نظاما للمعاملات ويحدد العلاقات.

ثم أوضح لهم أن المسلمين كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وأن الوحدة يجب أن تشمل جميع شؤونهم بإخراجهم من عزلتهم الفردية إلى حياة اجتماعية فسن لهم لذلك من الأنظمة ما بقى رمزا لوحدتهم العملية، ففضل الصلاة مع الجماعة ليتعارف أهل الحي وواجب صلاة الجمعة ليتعارف أهل المدينة وخصص حج بيت الله الحرام ليكون مؤتمرا إسلاميا عاما.

فكان ذلك العلم وتلك الأخلاق وهذه الألفة سر اكتساح الإسلام في أمد وجيز أنحاء المعمور واستيلائه على أعظم دول عصره بصورة لم تعرف في تاريخ الإنسانية جمعاء.

كان فاتحة ذلك العهد تحطيم أصنام الكعبة. والمغرب اليوم في شبه عصر جاهلي وإن كان يدين في الظاهر بدين الإسلام؛ فإن حول عقل كل مغربي أصناما يجب أن تحطم إذا أردنا تجديد قوتنا واستنهاض جمعيتنا الإسلامية.

لقد كانت أصنام الكعبة هى التي تحول بين العرب وبين فهم فكرة الرسول الأعظم

لحطمها أولا. والمغاربة اليوم لا يحول بينهم وبين الإسلام إلا أصنام معنوية ثلاث: جهل مطبق وأخلاق سيئة وأنانية قتالة، فلا مناص لنا من تحطيمها ولا مفر لنا من محاربتها محاربة فعالة إذا أردنا خير الدنيا والآخرة.

إنها أصنام تقف في وجهنا تسد علينا نور الإسلام فنظل في جاهليتنا نعمه، وفي شرورنا نتخبط وفي عزلتنا نموت.

فبالعلم ندرك حقيقة الإسلام ونحارب هذه العادات الفاسدة التي تأصلت من نفوسنا فأصبحنا لها خاضعين.

وبالتربية نخطو خطوة صحيحة نحو أحكام الإسلام التي باعدت بيننا وبينها تقاليد سمجة ردتنا إلى الظلام.

وبالألفة يقوى ساعدنا وندرك أن حياة الفرد تخضع دائما لحياة المجموع وأن ضعف المجموع سببه الوحيد تخاذل الأفراد.

تلك أصنام الكعبة حطمها الرسول الأعظم وهذه أصنام المغرب يجب أن يحطمها المسلمون في هذه البلاد إذا كانوا حقا يؤمنون برسالة نبيهم المختار فليستمدوا من ذكراه العبرة وليتجهوا صوب تلك الأصنام فيحطموها، وإذ ذاك لا غير يفسح لهم المجال ليعرفوا الإسلام من جديد ويستحقوا أن يحتفلوا بهذه الذكرى الخالدة.

لا ضمانة عدلية للمغربي في بلاده

في كل يوم نرى من الحوادث ما يزيدنا يقينا بضرورة إجراء إصلاح سريع شامل للعدلية المغربية بقسميها الشرعي والمخزني حيث ترينا الحوادث بأجلى صورة أن ليس للمغربي ابن البلاد ضمانة قانونية في وطنه، فهو في المحاكم الشرعية مغصوب في ماله مسوف في دعوته، وفي المحاكم المخزنية لا يستطيع دفاعا ، وحريته في يد الباشا أو القائد يتلاعب بها كيف شاء، فالسجن أقل ما يلاقيه دون أن تتخذ أية مسطرة شرعية، ومنزله مهتوك يهاجمه أجهل أعوان السلطة دون حجة قانونية ودون مسوغ يقتضيه الأمن العام.

فالعدالة أقدس ما يجب أن تهتم به الحكومات، فإذا عدمت العدالة اختلط كل شيء وتدحرجت شؤون الأمة في هاوية سحيقة؛ والعدالة بالمغرب لم يهتم بها إلا اهتماما سطحيا لا يغني عن الإصلاح المنشود في شيء من الأشياء، فأصرح عبارة توصف بها العدلية المغربية أن لا عدل بها.

فالمغربي ابن البلاد الشرعي هو دون غيره من سكان المغرب ليس له أية ضمانة تحفظ له حريته، ذلك لأن مرجعه لمحاكم تسودها الفوضى ولأنه بين يدى قضاة (سواء القاضي الشرعي أو الباشا أو القائد) يقولون الحكم لا للحكم ولكن لشيء آخر لك أن تسأل عنه مغربي ليجيبك فورا ودون تردد: إنه المال. فمن أراد تجارة مضمونة الربح ومن أراد الغنى الواسع فليحترف مهنة اجراء العدل بين المغاربة.

أتدوم هذه الحالة سنوات أخرى لا يعلم عدها إلا الله ؟ لقد طفح الكيل وأصبحت تصرفات العدالة بيع النوادي. وبذلك تضيع أية قدسية يجب أن تصف بها العدالة.

إن البلاد المغربية طالبت وتطالب دائما بأن يدرس إصلاح العدلية على بساط جديدة لا يراعي مصلحة إلا مصلحة تكوين عدل بين المغاربة ، فالمحاولات التي بذلت في هذا

السبيل لم تكن ذات قيمة كبرى، ولقد حان الوقت لكى تدرس مشكلة العدلية المغربية درسا جديدا يقوم به ذوو الخبرة والاقتدار من الذين أتيح لهم أن يلموا بالشؤون القضائية لدى الأمم الإسلامية ولدى الأمم المعاصرة التي بلغت فيها العدالة أسمى الرتب. فمتى نرى مجهودا يقوم به هؤلاء لنتفاءل ونستبشر، ونؤمل أن تصبح للمغربي ضمانة عدلية محترمة؟

أتعليم أم تضليل؟

المغرب - السنة 1 - العدد 18 - الجمعة 17 ربيع 1 - 1356 - 28 ماى 1937

أيكفي أن يقال إنكم تعلمتم لنطمئن ولنحمد الأقدار ونصمت؟ أيكفي أن يقال لنا إنكم حصلتم على معرفة صحيحة لنقتنع؟ أيكفي أن يقال لنا إنكم أصبحتم علماء لنصبح علماء؟ يا للسخرية ويا لها من مهزلة! أفي المغرب متعلمون؟ أو أنصاف متعلمين؟ لا ينبغي أن نخدع أنفسنا ولا أن يحاول البعض أن يخدعنا، وإنما يجب أن ندرك حق الإدراك أننا أبعد الناس عن التعليم الصحيح الذي يبني أساس النهضة ويدعم بنيان الأمة. وإلا فأين الطبيب، وأين المحامي، وأين الأديب، وأين المهندس، وأين المشرع، وأين ... وأين ... ؟ إننا نطالب بإصلاح شامل لبرنامج التعليم وبإرسال بعثات إلى الخارج حيث الثقافة الصحيحة وحيث التهذيب الكامل، وبجلب الأساتذة من الشرق العربي، ونكون مغفلين إذا اقتنعنا بهذه التمويهات وهذه الإحصائيات، فنحن لا نطالب بهوائيات حتى نجاب بهوائيات، وإنما نطالب بما نصبح به أمة تعرف الواجب وتدرك الحقوق وتقتبس من الغير وتبتكر. ارسلوا التلاميذ المغاربة إلى الخارج كما ترسل كل أمة تلامذتها إلى أمة أخرى وكما ترسلون أبناء الجاليات القاطنة بالمغرب إلى فرنسا، فبذلك وحده يمكننا أن نتفاءل بالخطة التعليمية وبذلك وحده ينتج التعليم بالمغرب، وتؤدي الحكومة واجبها، وليس ذلك من العسير، فميزانية التعليم بالمغرب واسعة النطاق تصرف على أولاد الجاليات الأجنبية بسخاء وليس حظ المغاربة منها إلا جزء طفيف. إننا ننشد التعليم الصحيح، ولا يصدنا التضليل عنه مهما بذلتم من مجهود في تنميق المقالات وتزيين الصحف بالصور. ذلك لأننا أصبحنا نفرق جيدا بين الصحيح والزائف وأصبحنا نقدر المسائل بالمقياس الذي تقدرونها به، فليس للتضليل بعد الآن من فائدة.

موسم الامتحانات

الملحق الثقافي لجريدة المغرب

إذا أقبلت شهور الصيف حيث تشرف العطلة المدرسية وحيث تقفل المدارس أبوابها فإن هذا الشهر الذي يتقدم ذلك يمتاز عن بقية شهور السنة بنشاط بين التلاميذ وباهتمام بين الآباء وبحركة في الأوساط التي تمت بصلة للحياة المدرسية أو الجامعية، فإن جميع الأنظار تصوب لناحية واحدة وتنتظر نتيجة واحدة، فالكل يرقب الامتحانات والكل ينتظر نتائجها، فإذا ظهرت أحدثت ضجة بين الطلبة، فريق يرقص طربا وفريق ينتحب غما، هناك فريق يغادر قاعة الامتحانات وقد سمع نتائجها مطمئن الخاطر هادئ النفس، كأن نجاحه أو رسوبه لا يعنيه، وفريق يندب حظه فإنه قد أتقن جميع دروسه ولم يغفل إلا عن الدرس الذي امتحن فيه، فلم يعره اهتماما نظرا لسهولته، ولعدم تصوره أنه سيمتحن فيه، وفريق هازل يعلن أنه لم يدرس إلا الدرس الذي امتحن فيه، فإذا درجاته ضوعفت وإذا به يفوز في الامتحان وينال الشهادة، وفريق شغل نفسه طول السنة المدرسية بما لا يعنيه وهو تلميذ المدرسة فلم يشعر بالندم إلا الساعة التي تقرر فيها الامتحانات، هناك تراه كاسف البال، مهموم الخاطر، يحاول أن يتقدم للامتحان معتبرا إياه « يانصيب » فإن فاز فرح وإن فشل فهو من الآن نادم مغتاظ.

صور عديدة تلك التي تصبح بعد أن يمسى الطالب في الميدان العملي للحياة ذكرياتها محببة لديه، عزيزة عليه، يعيش في جوها كلما اقترب موسم الامتحانات الذي لا يشغل الطلبة وحدهم، بل يشغل جميع المنتديات وكل الهيئات ويملأ فراغا كبيرا من أعمدة الصحف ناشرة النتائج، دارسة لها، منتقدة لأساليبها، موضحة المناهج الجديدة للتعليم.

فإن مستقبل الأمة يتوقف على هذا الشهر من كل سنة، وإن سيرها خطوة جديدة في ميدان الرقي الفكري لا يتضح إلا عندما تظهر نتائج الامتحانات، فلا غرابة إذن إذا شغلت تلك النتائج الأمة جميعها، وليس من الغلو أن نرى اهتمام الحكومات بتلك النتائج يفوق اهتمامها بكثير من المشاريع التي تدعم صرح الأمة من ناحية مادية. فإن التعليم لم يبق أمرا ثانويا يعني طائفة من الأمة، بل أصبح أمرا ضروريا لا غنى عنه لكل رجل ولكل امرأة وإلا فيعدم الفرق بينهما وبين حيوان يمشي على أربع.

فشهر الامتحانات شهر خطير في تاريخ الأمم التي تقدره وتعمل على أن يخطو في كل سنة خطوة جديدة إلى الأمام، فلا يمر دون أن يحدث ضجة يتجاوب صداها في أنحاء البلاد ودون أن تقف وزارة التعليم وهى تحاسب نفسها أمام الأمة لتعلن عن تقدمه خلال سنة خلت وعن آمالها في تقدمه في سنة أقبلت.

ونحن الآن في هذا الشهر فأين ضجة الامتحانات في وسطنا؟ وهل تحاسب إدارة التعليم وهيأته نفسها أمام الأمة تلك المحاسبة؟

« كل شيء هادئ في الميدان الغربي » ما أصدق عنوان هذا الشريط السينمائي الشهير أن يطلق على أمتنا في أية ناحية من نواحي الحياة وناحية التعليم بصورة خاصة. فحاول أن تستمع لضجة وحاول أن ترى الأمة تنتظر نتائج الامتحانات وأن تشاهد نشاط الطلبة أو اهتمام الآباء وأن تلمس حركة في أواسط التعليم غير عادية. إن شيئا من ذلك لم يكن ولن يكون ما دامت الأمة لا تقدر للتعليم قدره فتبذل فيه أغلى المجهودات وتطالب لنفسها بنصيبها مطالبة جدية لا مطالبة تمني.

فويل لأمة لا تقدر التعليم ولا تعمل في سبيل تقويته وويل لشعب ينفق عن سخاء في أي سبيل سخيف ويبخل بدريهمات معدودة لمشروع ينقذ أفراد الأمة من جو الجهل الخانق. يرضى الأب ويسعد بإقامة حفلات زفاف ابنه فينفق كل ماليته عن رضى وفي حبور ولكنه يدعي ويشتكي الأزمة والفقر كلما طالبته بمجهود يسير لتعليم ابنه؛ نقيم

الحفلات ونعدد المآدب ونملأ البطون لأتفه المناسبات، فإذا حل شيخ كبير في مدينة سارعنا إلى تكريمه وتزلفنا إليه باجتماعات يفترس فيها اللحم والخبز، وتنافسنا في تنويع موائد ذلك كل التنافس، ولكننا لا نهتم بطالب مجد أصبح في عداد رجال الأمة بتعلمه وإحرازه على شهادة عليا فنكرمه لنجعله قدوة لأمثاله من الشباب ونظهر منزلته العالية بين أفراد الأمة الجهلاء ليحترم ويعتبر رأيه وينجح مسعاه.

فإلى متى ونحن نجهل خطورة شهر الامتحانات في حياتنا فلا نرى أي فرق بين هذا الشهر وبين الشهور الأخرى؟

وإلى متى ونحن لا نبذل أي مجهود في ميدان التعليم، بل وإلى متى ونحن نعيش لبطوننا لا لعقولنا؟

نتائج الامتحانات

المغرب

السنة الأولى - العدد 25 - الإثنين 5 ربيع الآخر عام 1356 الموافق 14 يونيه سنة 1937

قال لي صديق: ولماذا لا تنشر « المغرب » نتائج هذه الامتحانات؟ فلم أجبه إلا بابتسامة تعبر عن السخرية من تلك النتائج غير المشرفة لبلاد واسعة الأطراف آهلة بالسكان، وبقينا صامتين لحظة فتحت أثناءها قائمة الناجحين أجدد النظر فيها لعلها تنقذني من هذا اليأس الذي يتسرب إلى الإنسان كلما فكر في أمة جاهلة لا يودون فتح الباب أمامها لتنتشل من مخالب الجهل والانحطاط.

أليس من الخزي والعار أن تكون أمة عدد نفوسها يزيد على ثمانية ملايين وعدد المحصلين على الشهادة الابتدائية لا يتجاوز عشرات وعدد المحصلين على الشهادة الثانوية يعد على رؤوس الأصابع؟ أما شهادات التخصيص فلا تسل عنها ودع ذلك فإنه يريحك من العد.

كيف تود يا صديقي نشر نتائج الامتحانات وهل تسمى تلك امتحانات ونتائجها نتائج ؟

كيف تود ذلك ياصديقي وبين يديك الجريدة المصرية لترى فيها أن عدد المرشحين للشهادة الثانوية المصرية يزيد على 15 ألفا؟

أما الشهادة الابتدائية فعدد يفوق الحصر، ومع ذلك فالصحف المصرية والمفكرون المصريون ينددون بجهل أمتهم ويطالبون بتعميم التعليم بين أبنائها.

كيف تود ذلك يا صديقي وكل الأمم العربية تخرج مدارسها في كل سنة عددا عظيما من أنجب الطلبة وترسل البعثة تلو البعثة إلى ديار الغرب ليختص كل في ما تميل إليه نفسه

بينما نحن لا نعرف شيئا يقال له بعثة ولم تفكر فيه حكومتنا في حين هى نفسها ترسل أبناء القاطنين من الأمم الأخرى في هذه البلاد ليتعلموا على نفقة ميزانية لا تجمع إلا من جيبي وجيبك.

عفوا يا صديقي، من الغرور أن نعتقد أننا سائرون إلى عهد جديد، ومن الجهالة أن نتصور أننا نخطو خطوة واحدة إلى الأمام. بل إن من المحزن حقا أن تسير الأمم إلى التقدم بينما نتأخر نحن إلى الوراء؛ لعلك لا تصدق، إذن انظر نتائج امتحانات الشهادات الابتدائية منذ سبع سنوات أو ست ونتائج امتحانات هذه السنة لترى أننا لم نسر إلى الأمام بل رجعنا إلى الوراء.

ولكن من يدري فلعل بلاغا واحدا سيحاولون به إزالة هذه الوساوس الحقيقية عنا، وبذلك سيكون حظنا من التعليم بلاغا.

الامتحانات في القرويين

يزداد الاهتمام كل يوم بالقرويين في الأوساط المغربية، فإن ضرورة إصلاحها أصبحت بديهية لدى جميع المفكرين، ولكن طرق ذلك الإصلاح ما زالت غير واضحة كل الوضوح للجميع وما زالت محتاجة إلى أن تثار شؤونها في كل مناسبة أو فرصة، فإن جامعة المغرب يعقد عليها من الآمال ما يحتم على المهتمين بها أن يمعنوا النظر جيدا في مستقبلها وأن يخطوا بها الخطوات الشاسعة ويستفيدوا من تجاريب غيرها من الجامعات وعلى الأخص جامعتى الأزهر والزيتونة اللتين أصبحتا - بفضل ما أدخل عليهما من تطوير وإصلاح - دعامتين قويتين في تكوين الرجال الذين يجمعون بين الثقافتين القديمة والجديدة الحية. وستمر سنوات عديدة قبل أن تأخذ جامعة القرويين صورة من الإصلاح ترضي الذين يهتمون بالعلم في هذه الديار، فإن العناصر التي تسيطر عليها لم تتصل بعد بالحياة الجديدة ولم تتعرف بما طرأ على البشرية من تطورات وانقلابات؛ لذلك فالخير كل الخير ألا يفتر الحديث عن القرويين وألا تهدأ المناقشة في سبيل إصلاحها فإنه إذا اهتدى إلى إصلاح مناسب لجامعة فاس يطبق بسهولة نفس ذلك الإصلاح على كلية مراكش وغيرها من المعاهد التي يجب أن تعم جهات المغرب. والآن وقد اقترب موسم الامتحانات في القرويين فإن الواجب أن يتجه الاهتمام إليها وأن تثار مسألة إصلاح ما في امتحانات من خلل لعل على ضوء ما سيروج يتخذ من التدابير ما يضعف ذلك الخلل.

وأول ما يستلفت النظر أن الجامعة الفاسية اتخذت لنفسها طريقا لا يتبع في غيرها وهى أنه لا فرق لديها بين الامتحانات والاختبارات؛ فالامتحانات في غير القرويين تكون لينال التلميذ شهادة ابتدائية وثانوية وهى بذلك ذات صبغة رسمية؛ أما بقية الاختبارات السنوية والفصلية فليس لها إلا صبغة مدرسية. فالتلميذ القروي لينتقل من سنة إلى أخرى مرغم عليه أن يتقدم للامتحان في آخر كل سنة وفي ذلك مجهود عسير، والواجب

أن تخلف هذه الامتحانات اختبارات فصلية كل ثلاثة أشهر، فمن حصل على المعدل من النقط في اختبارات السنة الثلاثة ينتقل من سنة إلى ما أعلى منها دون اختبار جديد، ومن لم يحصل على ذلك المعدل يتقدم لامتحان الانتقال بعد العطلة الصيفية ولا يمتحن إلا في المواد التي لم يحصل فيها على المعدل. ومن شأن تلك الاختبارات الفصلية أن تدرب الطلبة على الكتابة التي يجب أن يوجه إليها أعظم اهتمام وأن تحدث منافسة بين التلاميذ لها تأثيرها القوى لحثهم على الاجتهاد وأداء الواجبات المدرسية. وأغلب طلبة القرويين يحسنون النحو والصرف وعلوم البيان ولكنهم لم يتدربوا على الكتابة بطلاقة وسهولة، فإذا أدخل نظام التمارين والواجبات المدرسية البيتية وتدرب التلميذ على الكتابة طول السنوات الابتدائية والثانوية ستكون كتاباته مبينة تجمع بين الطلاوة والسهولة.

وثاني ما يستلفت النظر في نظام الامتحانات الثانوية في القرويين أنها تجري في دورة واحدة، فمن لم يحرز على الشهادة بعد انتهاء الدراسة اضطر إلى إعادة سنة بأجمعها بينما الامتحانات في العالم أجمع تكون في دورتين في السنة الأولى بعد انتهاء السنة الدراسية والثانية بعد انتهاء العطلة الصيفية وذلك ليستطيع التلميذ غير الناجح أثناء تلك العطلة من مراجعة دروسه واكتساب سنة من حياته. فالاكتفاء بدورة واحدة في امتحانات القرويين يؤدي إلى إضاعة وقت الطلبة وإلى مللهم.

وثالث ما يستلفت النظر أن أيام الامتحانات غير منتظمة، فلا يعلن عنها إلا قبل إجرائها بأيام قلائل، وكثيرا ما تؤخر عن أيام ظهور نتائجها فيظل التلميذ حائرا لا يعرف هل نجح أم لا ليواصل استعداده للامتحانات الشفاهية؛ لذلك من الضروري أن يعلن عن الامتحانات الكتابية وأيام نتائجها وأيام الامتحانات الشفاهية قبل إجرائها بشهرين أو ثلاثة وإلا تؤخر تلك المواعيد مهما كان السبب قويا وأن تكون في أقصر أمد وذلك بامتحان في مادتين كل يوم. ذلك هى بعض ملاحظات على امتحانات القرويين ندونها اليوم لعل تدوينها يؤدي إلى تحسين ما في تلك الامتحانات من خلل وفوضى.

الديبلوم في القرويين

نشرت « المغرب » في عددها الأخير عريضة لطلبة القرويين مرفوعة إلى سعادة الصدر الأعظم تعلن عن استيائهم لمساواة شهادة « الديبلوم » لشهادة القرويين الثانوية، تلك المساواة التي كان لها رجة كبرى بين طلبة الجامعة المغربية حيث اعتبروها تحط من قيم القوانين القروية - على حد تعبير العريضة.

وإنه ليسر أن يشاهد من طلبة القرويين هذا الاهتمام بشؤون التعليم، ولكنا نريد أن نناقشهم فيما أبدوا على أن نترك المجال حرا لكل من يحاول أن يناقش المسألة ويبدى ما يمكن أن يكون خفيا فيها.

القرويون يجب أن تعتبر جامعة لا مدرسة ثانوية ولا ابتدائية، ومن شأن الجامعات أن تفسح رحابها لكل من يحمل شهادة ثانوية، فالتعليم الثانوي لا يرمي إلا إلى ثقافة ذهنية يستكمل بها التلميذ نضوجه العقلي ويخرجه من صف الأميين ليهيئ مداركه لتعليم جامعي - إن أتيح له - وبه وحده يمكن أن يعد في صف المثقفين ذوي الاختصاص والمكانة العلمية.

فإذا أتم التلميذ تعليمه الثانوي يستطيع أن يتخصص في أي علم تتجه إليه ميوله، وبذلك ترى الجامعات تقبل الطالب المحصل على شهادة ثانوية في صفوفها دون أن تناقش الطالب في مواد دراسته الثانوية، بل لا تهتم إلا باللغة التي تدرس بها الجامعة فتطلب من التلميذ إتقانها ويؤدي فيها امتحانا إذا لم يكن من صلب مواد امتحانه الثانوي.

فالأزهر بمصر يقبل الطالب المحرز على شهادة « الباكالوريا » المصرية أو السورية أو اللبنانية دون امتحان مع أن المواد التي تدرس في الأزهر في أقسامه الثانوية هى غير المواد التي تدرس لنيل « الباكالوريا » وكذلك دار العلوم تقبل « الباكالوريا » بدون

امتحان.

والجامعات الأوربية أيضا يحمل إليها الطالب الشرقي أو الأوربي شهادته الثانوية، فتعتمد عليها وتقبله في صفوفها بعد أن يؤدى امتحانا عاديا في اللغة التي تدرس بها الجامعة دون أن تفكر هل مواد دراسة الطالب الثانوية موافقة ومعادلة لمواد باكالوريا بلادها أم لا.

أو تكون المواد التي تدرس في القرويين أعسر على الطالب من المواد التي تدرس في الأزهر أو غيره من الجامعات؟

على أن هناك نقطة يجب أن تناقش وهى قوة الطالب المحرز على « الديبلوم » في اللغة العربية، فمن الواضح أن مستوى اللغة العربية في التعليم الثانوي المغربي يجب أن يهتم به كل الاهتمام ليصبح الطالب المحرز على شهادة « الديبلوم » ذا كفاءة في العربية تسمح له بمتابعة الدروس الجامعية في القرويين، ولن يتأتى ذلك إلا بإيجاد أساتذة للعربية وآدابها يعرفون أساليب التدريس ويكونون محصلين على شهادات عليا. والطريق الوحيد لذلك أن يستدعى الأساتذة من الشرق العربي ريثما يصبح للمغرب طائفة قديرة من الأساتذة.

أما الآن إلى أن يتاح للمغرب ذلك فمن الأصوب أن يؤدى الطالب المحصل على شهادة « الديبلوم » امتحانا في اللغة العربية إذا أراد الانخراط في قسم التخصيص بالقرويين على أن تعين مواد ذلك الامتحان في اللغة وآدابها، فيبذل الطالب جهده لإتقان تلك المواد والاستعداد لمتابعة الدروس.

على أن من حق الطالب القروي أن يطالب بمعادلة شهادته الثانوية للديبلوم لينخرط فيما يستطيع أن ينخرط فيه المحصل على الديبلوم من امتحانات ودراسات، وليس ذلك من العسير بل إنه من الواجب أن يفسح معهد الدروس العليا لمن يريد من طلبة القرويين المحرزين على الشهادة الثانوية القروية الانخراط فيه بعد أن يؤدى امتحانا في اللغة

الفرنسية ما دامت ليست في امتحانات القرويين.

ويمكن للطالب القروي أن يخصص إحدى ساعاته لدراسة اللغة الفرنسية، فإذا انتهى من دراسته الثانوية تقدم للانخراط في دروس الحقوق المغربية أو قسم الآداب بالمعهد.

إن الاعتراف بمعادلة الديبلوم لشهادة القرويين الثانوية ومعادلة الأخيرة للأولى وسيلة لتكوين جيل جديد يجمع بين الثقافة القديمة التي تمثلها جامعة القرويين والثقافة الحديثة التي يمثلها معهد الدروس العليا بالرباط.

ومن شأن هذين الاعترافين أن يفسح المجال للمجتهدين من الطلبة أن ينالوا شهادة العالمية من القرويين وشهادة الكفاءة أو غيرها من المعهد الرباطي. وفي ذلك كل الخير لمستقبل الثقافة بالمغرب.

التخصص في جامعة المغرب
يجب إدخال نظام « الأطروحات »

تاريخ القرويين العلمي حافل برجال كانوا مثلا أعلى للعلماء الذين تلقوا العلم ونشروه، دون ابتغاء أجر، ففي كل مرحلة من مراحلها تقدم لنا علماء أفذاذا لم يكن يعنيهم من الحياة إلا قوة ليواصلوا بها نشر المعرفة، فكانوا مثال الزهد والتضحية في سبيل نشر ما وهبهم الله من علم، وما سخر لهم من تحصيل، وإذا كانت الظروف تغيرت، وأصبح من مطالبنا الأصلية أن يكون عالم القرويين في المنزلة اللائقة بها، وأن تقدم له الدولة قسطا وافرا يريحه من أتعاب الحياة ومشاقها، فإننا لا نود أن تبتعد جامعتنا عن صبغتها المقدسة، فليظل علماؤنا يشعرون أن نشرهم للعلم واجب لا مفر لهم منه، وأنه خدمة للعلم نفسه، فيقومون بالتدريس بنفس ذلك النشاط الروحي الذي كان يتجلى على علمائنا الأبرار، ذلك النشاط الروحي الذي بنى أسس جامعتنا، وجعلها تتغلب على جميع ظروف الحياة، في أحد عشرة قرنا، وتجتاز أصعب الأزمات التي مرت على المغرب في أطواره التاريخية الخطيرة.

وعلى طلبة الجامعة أن يتجهوا في تعليمهم إلى التحصيل أولا، ولا تشغلهم هواجس الدنيا وأحلامها عما تحملهم حياتهم العلمية من رسالة ينبغي أن يؤدوها للوسط المغربي بأمانة؛ فالنظام الذي أدخل للقرويين يجب أن يوتى ثمرته دون أن يحصر اهتمام الطلبة في نيل الشهادات والاكتفاء بها، فنيل الشهادة ليس وحده مبتغى الوسط العلمي، ولا هو كل ما يرجى من النظام، فمن دون أن تهمل الناحية المادية لمستقبل الطالب المتخرج من الجامعة، يجب عليه أن يفكر في خدمة يؤديها بواسطة تدريسه أو تأليفه في ناحية تتصل بحياتنا

المغربية في الدين أو التشريع أو التاريخ أو غير ذلك من فروع المعرفة التي تنير للطبقة المثقفة ناحية من النواحي المتطلبة للإصلاح، وتبرهن عن كفاءة خريجي الجامعة، وأن السنين الطوال التي قضاها الطالب بين جدران الجامعة لم تذهب سدى.

وعلى الدولة أن تهتم بناحية التخصص هذه، وتضع لها نظاما يشجع الطلبة على مزاولتها والاهتمام بأمرها. فشهادة العالمية التي تمنحها الجامعة للطالب بعد امتحانات شتى هي شهادة تدل على تحصيل الطالب للمعلومات التي تلقاها ولا تدل على نضوجه العلمي واختمار تلك المعلومات في عقله فينتج لنا شيئا يكتب بمداد الفخر في تاريخ الجامعة.

فإذا اعتكف الطالب بعد تلك الشهادة سنتين أو ثلاثا على موضوع تمحيص جزئياته ووضع تأليفه عنه يقدمه في يوم معلوم ليفحص أمام العلماء وأمام الطلبة ويحرز على شهادة تساوي « الدكتورة » فذلك ثمرة تكون مناسبة لروح العصر وبرهنة على تقدم الجامعة العلمي وعلى أنها ستستأنف سيرها الأول وأنها سبيل النضوج الصحيح للطلبة.

فإذا أدخل هذا النظام وشجعت الدولة المتقدمين له من خريجي الجامعة، فستزدهر الحياة العلمية بالمغرب في عالم التأليف المغربي وتعد أطروحات نفتخر بها ونعتبرها أساسا لنهضة صحيحة لجامعتنا الكبرى.

الحلقة المفقودة في نهضتنا الفكرية

الملحق الثقافي لجريدة المغرب

استغرب البعض قولي إن الطالب القروي إذا خصص إحدى ساعاته لدراسة اللغة الفرنسية أثناء دراسته الثانوية استطاع أن يلتحق بمعهد الدروس العليا بالرباط لينال شهادة الكفاءة في الحقوق أو غيرها، وعللوا استغرابهم بأن المحصلين على شهادة « الدبلوم » لا يتابعون الدروس إلا بجهد.

يكاد المغاربة لا يعرفون اللغة الفرنسية إلا في صورة واحدة، ولا يستطيعون أن يعرفوا لتلك الدراسة صورة ثانية، فهم شاهدوا التعليم العصري بالمدارس الحديثة حيث يتقن التلميذ الفرنسية إتقانا لا يقل عن إتقان التلميذ الفرنسي نطقا وحديثا وكتابة، وذلك لأن تلك اللغة تحتل في مدارسنا الحديثة أكبر حظ من الدراسة، فأساتذتها مقتدرون، وآدابها تدرس بعناية فائقة، وجميع المواد تدرس بها من جغرافية وتاريخ وطبيعيات ورياضيات وعلوم فلسفية.

فمدارسنا تعتبر اللغة الفرنسية لغة أولى من بين اللغات التي تلقن؛ فهى تهيئ التلميذ المغربي كما تهيئ التلميذ الفرنسي، ولكن من الواضح أن كل مغربي متخرج منها إذا لم يكن ذا اتجاه قوى لإتقان العربية والتضلع في آدابها وعلومها سيضاف للائحة المثقفين الفرنسيين دون أن يستفيد منه الوسط الفرنسي حيث يوجد فيه ألوف النابغين المقتدرين، ولا يستفيد منه الوسط المغربي حيث لا يستطيع أن يجعل اللغة الفرنسية واسطة بينهما.

والذي يستطيع أن يدرس النهضة العربية ودعائمها يجد هناك صورة أخرى للاستفادة من

اللغات الأجنبية الحية هى غير الطريقة المتبعة بالمغرب، وذلك بالتمكن أولا في اللغة العربية بواسطة الثقافة القديمة ودراسة لغة أجنبية دراسة استفادة في ناحية من النواحي العلمية أو الأدبية لا دراسة تخصيص واعتبار لتلك اللغة الأجنبية لغة أصيلة للمتكلم بالعربية.

فإن أعلاما من الثقافة العربية الحديثة لا يحسنون من اللغة الأجنبية إلا كيف يستفيدون منها في أبحاثهم ودراساتهم، ولا يهتمون كثيرا بالبراعة في إنشائها ولا بالخطابة بين خطبائها، إذ يتجهون في أول مرحلة في دراساتهم لتلك اللغة إلى فهم المصطلحات الفنية في العلم الذي يتخصصون فيه، ويستطيعون بذلك أن يتابعوا الدروس الجامعية بسهولة مع اعتكافهم على مراجعة ما في العربية من مصادر لموضوعات ما يدرسون. فإذا تقدموا لامتحان جامعي أدوا ما لديهم من معلومات ونظريات ولو في لغة غير بليغة، ونالوا الشهادة العليا، ورجعوا إلى بلادهم وقد وثقوا من نفوسهم، واستعد كل واحد لتأدية مهمة باعتباره مثقفا يعمل لإنهاض بلاده ولغته. إن أعلاما من دعائم النهضة العربية يفوقون الحصر مثل طه حسين وهيكل وزكى مبارك والزيات وغيرهم في مصر، والجابري وخليل مردم وغيرهما في سوريا، لو اطلع الشاب المغربي المثقف ثقافة حديثة على اطروحاتهم وأبحاثهم بلغة أجنبية لوجدها في مستوى وسط من ناحية الأسلوب واللغة بينما هم في البيان العربي آية من آيات نهضته. وذلك لأنهم تعلموا اللغة الأجنبية بعد أن أتقنوا اللغة العربية اتقانا تاما واستغلوا تعلمهم لتلك اللغة الأجنبية لا ليصبحوا أحد أبنائها بل ليستفيدوا منها لتراثهم الفكري، فأدوا بذلك واجبهم للغة الضاد، بينما من أتقن اللغة الأجنبية في أول مرحلة من صباه حيث دخل مدارسها أولا فأتقن لغتها، ظل لا يحسن أن يفيد وسطه إلا بمقدار ولا لغته إلا بجزء.

إن إيجاد مثل هذه الطائفة في وسطنا ضروري لتكوين نهضة صحيحة، ولذلك يجب أن يتجه أبناء القرويين إلى دراسة اللغة الفرنسية بعد أن يتمكنوا من العربية؛ فإن المتخرج

من جامعة فاس لا يمكن أن يرشح نفسه إلا للعدالة أو القضاء الشرعي حيث ينقصه أن يعلم المغرب الحديث في نظمه وقوانينه، كما ينقص التلميذ المتخرج من المدارس العصرية أن يعرف الماضي المغربي المسطور في تشريعه وتاريخه. وإيجاد هذه الحلقة المفقودة بين المثقفين هو الذي يضمن للمغرب نهضة فكرية صحيحة تهضم إنتاج المدنية العصرية، وتنتج للمغرب وللعربية آثارا يكتب لها الخلود. وإنه لمن دواعي السرور أن نشاهد الآن طائفة من الشبان المغاربة المثقفين ثقافة فرنسية درسوا العربية وآدابها فبرعوا فيها ووضعوا الحجرة الأولى في أساس إيجاد هذه الحلقة المفقودة المرجوة.

فهل لنا أن نؤمل أن يوجد من بين طلبة القرويين من يتجه هذا الاتجاه فيضيف إلى ثقافته في العلوم الإسلامية والعربية ثقافة عصرية، وبذلك يضع الحجرة الثانية في تكوين جيل جديد يجمع بين الماضي الرائع والمستقبل الباسم لحياة المغرب الفكرية؟

أين تسير جامعة المغرب؟

المغرب

السنة الأولى - العدد 28 - الإثنين 11 ربيع الثاني عام 1356 - 21 يونيه سنة 1937

نحن الآن في موسم الامتحانات وهو موسم عظيم خطير عند جميع الأمم التي تعرف قيمة العلم وقيمة المدنية، ولكن أية أمة اليوم تقدر العلم ولا تعرف خطورته في جميع مظاهر حياتها غير هاته الأمة التي يود طائفة من أبنائها أن ينهلوا من فيض المعرفة فلا يجدون تشجيعا من شعب ولا من حكومة، وبذلك الإهمال المتزايد لا نرى أقل أثر لهذا الموسم الحافل لفئة تقدر المستقبل وتحفظ أمانة الماضي؛ فليس هناك من صدى لهذا الموسم في المحافل المغربية، وليس هناك من رجة تعم الأوساط العلمية بحديث عن الناجحين أو الفاشلين، بل كأنما أمر مستقبل أبناء المغرب لا يهمهم إلا هم وإنما التعليم ناحية ثانوية من الحياة. أكتب هذا وبيدي مراسلة من فاس يتحدث فيها صاحبها عن امتحانات جامعة المغرب العلمية وهذا المجرى المنحدر الذي تسير فيه حالة الجامعة التي ظلت منبع النور والمعرفة أجيالا وقرونا. انحدار غريب يجب أن يلتفت إليه مفكرو المغرب ويعيروه كل ما يستحق من الاهتمام وإمعان الفكر، فإن عدد المتقدمين لامتحاناتها ينقص كل سنة حتى إن عدد طلبة الجامعة أصبح يعد بالعشرات بعدما كان في الماضي البعيد والقريب يعد بالمإات بل في بعض الأزمنة بالآلاف. لم يبلغ عدد المتقدمين للامتحانات إلا 126 طالب في جميع أقسامها ومراتبها العلمية، بل في بعض الأقسام لم يتقدم طالب واحد للامتحان. أيكون ذلك من النظام الذي وضع أو من عدم تشجيع المتخرجين من تلك الجامعة أم من ماذا؟ هذا ما أعرضه على الذين يفكرون في مستقبل المغرب العلمي لعلهم يهتمون بدرسه ومناقشة الأسباب التي أصبحت تدور بجامعتنا إلى هذا الانحدار.

حاجتنا إلى التلقيح

الملحق الثقافي لجريدة المغرب

السنة الثانية - العدد 11 - الخميس 24 ربيع الآخر عام 1357 الموافق 23 يونيه سنة 1938

كما أن لا غنى للحياة النباتية عن تلقيح إذ أن تطاول السنين يورثها شبه عطل في إنتاجها، فإذا تلقحت فسيلة بأخرى تقوت الجذور وكانت الفاكهة أثمر ما يكون، كذلك لا غنى للأمم عن اتصال بعضها ببعض، واحتكاك قوي بينها، واقتباس كل واحدة من الأخرى تجاربها في الحياة التي هى المعرفة الإنسانية في جميع مظاهرها، فإذا تأخرت أمة عن ذلك الاتصال واغتنت بنفسها عن الاحتكاك بأمم الأرض الأخرى أصابها عطب في جماعاتها وتأخرت درجات في سلم الحضارة، وأخذت تسير إلى الوراء وتنحدر في هوة من الخمول، وتلقي بينها وبين الوجود الحقيقي أستارا كثيفة تضعها في ظلام دامس، وتصبح جميع مجهوداتها تتعثر في ليل بهيم. ولعل أمتنا المغربية خير مثال يقدم لذلك، ويكون من دراساته الدواعي الحقيقية لتأخر أمة انعزلت في بقعة من الأرض، وقطعت ما بينها وبين الأمم الأخرى من أسباب، ونسيت نفسها بين حدودها، وغفلت عما يجري في العالم الخارجي والمجاور لها من حوادث وانقلابات وتطورات وما يؤدي ذلك كله إلى صراع يقوى به ساعد الحضارة، وتلقح بمجموعه جذور المدنية بين الأمم.

فعندما أخذ الغرب يزيح عن عينيه غشاوة عصوره المظلمة، أخذت حيويتنا تخمد، وبدأت عزلتنا تقوى، فكان كلما تقدمت أوربا خطوة إلى الأمام تأخرت أمتنا خطوة إلى الوراء، وعندما فوجئنا بالمدنية العصرية كان الفرق عظيما بيننا وبينها، وكانت المسافة لا

تقطع بيننا وبينها في أيام ولا شهور بل في سنوات عديدة، وتتطلب من المجهودات ما يجب أن تتظافر عليه أجيال وأجيال. ولكن مهما بذلت تلك الأجيال من مجهودات وسعت لتتطور وتخرج من نطاقها الضيق، فإن ذلك لن يكون ذات نتيجة ناجحة إذا لم نبادر إلى الدواء دون مماطلة ودون التواء؛ فلقد كان سبب تأخرنا في مضمار الحضارة البشرية بعد أن حملنا رايتها قرونا وقرونا أن أوصدنا الباب وعشنا في عزلة عن بقية أمم العالم، فأصاب إنتاجنا المادي والمعنوي ركود، وتلاشت قوتنا من الوجود في أمد وجيز؛ واليوم إذا كنا حقا أدركنا حقيقة موقفنا في عالم التأخر والجمود، فإن الدواء الوحيد الناجع لبث روح العمل وتجديد نشاطنا هو أن نسعى في تلقيح حياتنا، فنختلط بالأمم المتمدنة أيما اختلاط لنقتبس منها أسباب الرقي العصري، وننفض عنا غبار الجمود التي اثقلت كاهلنا، وأوقفت سريان الدم في عروقنا. وهذا الاختلاط المرجو والتلقيح المنشود لا يتاح لجماعات الأمة كلها، فانتقالها عسير وتلقينها روح العصر أعسر، فهو لا يتم إلا على يد طائفة فتية من الأمة تستطيع أن تفتح قلبها لمدنية العصر وتهضم مقوياتها لتحاكيها أولا وتبدع فيها ثانيا. تلك الطائفة هى الشباب في دوره التعليمي إذ يكون قوى الفهم، سريع التأثر، مستعدا بطبع اتجاهاته بطابع جديد، فبواسطتها تلقح حياة الأمة، وإن التعليم وحده لا يؤدي وظيفة ذلك التلقيح خير أداء، بل إنه يظل معلومات تحشر في الذاكرة إذ لم تكن هناك تربية عملية للاستفادة من تلك المعلومات واستغلالها لخير المجموع وتربية الأمة على طرق جديدة من الحياة؛ فإن الشباب مهما درس ومهما ثقف إذا لم يغادر بلاده المتأخرة الجامدة يظل ناقصا في ميدان العمل، فهو لا يستكمل نضوجه بين جماعات يسودها الخمول إذ ليس بينها مثل تقتدى، وليست في اتجاه صحيح يحتذى، والإنسان بطبعه لا يبتدع دائما ولا يكتشف الطريق الأصوب في كل ميدان دخله مهما اتسعت معرفته، ومهما نمت خبرته، بل لا غنى له عن مشاهدة شريط الحياة عند الأمم الأخرى ليقتبس. فالطريق الوحيد لنجاة الأمة المغربية من ويلات التأخر ولإنقاذها من وهدة الخمول والجمود أن

تهتم بإرسال بعثات لتتعلم في الأمم التي سبقتنا في ميدان الحضارة واليقظة ولتشاهد من صور حياتها ما يحفز إلى الثورة على حياتنا الذابلة المتلاشية.

وقديما فكر في ذلك أحد ملوك المغرب العظام مولاى الحسن وأدرك بفكره الثاقب أية فائدة عظيمة للبعثات وأية قيمة خطيرة لها في حياة أمة عزلت نفسها عن أمم المعمور فانحطت، فنظم بعثات، ولكن جمود الوسط إذاك كان أصلب من أن يتأثر بواسطة تلك البعثات، فظلت مهجورة ونسيت بعد قليل من رجوعها. كان ذلك منذ خمسين سنة؛ أما اليوم وقد احتككنا بالحياة الجديدة وشاهدناها فاغرة فاها لابتلاعنا، أفنظل في جمودنا بينما جميع الأمم التي نرتبط معها في اللغة والدين والاتجاه سارعت إلى تلقيح حياتها، فهى ترسل إلى أوربا البعثة تلو البعثة، وهى مجدة في تنوع تلك البعثات والاستفادة بواسطتها من جميع النواحي اللامعة من حياة الغرب. لذلك فيجب أن نومن إيمانا راسخا ألا تكون نهضة للمغرب ولا تقدم لبنيه إذا لم نلقح حياتنا تلقيحا جديدا. ولن يكون ذلك التلقيح إلا إذا أرسلنا مئات الطلبة إلى معاهد الأمم التي سبقتنا في ميدان الحضارة العصرية يتعلمون ويتلقون الحياة في أبهى صورها وأنشط مظاهرها.

أسماء ومدلولات

المغرب

السنة الأولى - العدد 26 - الأربعاء 7 ربيع الأول عام 1356 الموافق 16 يونيه سنة 1937

لماذا ظل المغرب وحده ما يزيد عن ربع قرن لم يرسل بعثة واحدة إلى ديار الغرب لا بواسطة الحكومة التي ذلك من واجبها الأكيد ولا بواسطة الشعب نفسه إذ أن المحاولات التي بذلها بعض الأفراد لا تعد بعثة بالمعنى الصحيح؟

هذا سؤال طالما تساءله المغاربة وطالما استعرضوا له الأسباب، فهم في كل يوم وفي كل جريدة يرون أن بعثات الشرق العربي متوالية الالتحاق بمعاهد أوربا وأن تلك الأمم تتبادل البعثات بينها في كل سنة وفي كل مناسبة، ولكن بلادهم لم ترسل بعثة منظمة وحكومتهم الغنية لم تفكر في هذا بل انها في بعض الأحيان قد حاربته.

ولست أزيح الستار عن سر من الأسرار إذا قلت إن أهم سبب هو أسماء ومدلولات وهو عرقلة عجيبة استنبطها المسؤولون عن إدارة التعليم بهذه البلاد، فانظر ولك أن تستغرب ولك أن تبتسم أو بالأحرى لك أن تبكي على مستقبل المغرب.

لم يكن غنى لرجال التعليم أن يوجدوا تعليما بالمغرب ولكن اهتدوا إلى طريقة لا ينتج معها هذا التعليم بالمرة، فقد أنشأوا المدارس الابتدائية ومدرستين ثانويتين الأولى بالرباط والأخرى بفاس، ويكاد برنامج المدرستين الثانويتين لا يختلف في شيء عن أهمية نظام المدارس الفرنسية الثانوية، ولكن الشهادة التي يحصل عليها المغربي في تلك المدارس لا تسمى شهادة ثانوية « باكالوريا » لتعترف بها جميع الكليات، بل تسمى « دبلوم » نهائيا

للدروس الثانوية الافرنسية الإسلامية، وفي اختلاف اللفظين (باكالوريا ودبلوم) فرق كبير سواء من الناحية التعليمية أو من الناحية القانونية؛ فمدير أية جامعة في الخارج عندما يرى الطالب المغربي محصلا على (دبلوم) لا يرى هاته الشهادة تدل على دراسة ثانوية منظمة، بل يتصورها دراسات افرنسية إسلامية، فلا يسمح للطالب بالانخراط في سلك جامعته، فيصبح (الدبلوم) الذي حصل عليه الطالب المغربي بعد دراسة نحو عشر سنوات ورقة بيضاء لا قيمة لها مطلقا خارج المغرب بل ولا في داخله، فالناحية القانونية بالمغرب أيضا لا تعترف بهذه الشهادة ولا تخول لحاملها أن ينخرط في سلك دروس ليسانس في المعهد المغربي بالرباط ولا أن يتقلد وظيفة ذات مسؤولية بالمعنى الصحيح؛ فالمحصل على (دبلوم) - وهى شهادة المغربي الثانوية - لا يعتبر مطلقا أمام المحصل على (الباكالوريا) وليس من فرق كبير بين الشهادتين ولكن اسميهما يختلف وتلك هى العرقلة التي وضعتها إدارة المعارف أمام الطالب المغربي.

وأنكى من ذلك أن إدارة المعارف في الساعة التي لا تعترف بدبلومها كانت تمنع الطالب المغربي من الانخراط في المدارس الفرنسية ليحصل على شهادة (الباكالوريا) ليستطيع بها أن ينخرط في سلك جامعة للتخصيص في علم من العلوم ولم تسمح بذلك إلا منذ زمان بعد أن ألح عليها الطلبة وكشفت عرقلتها للعيان، وبالرغم أن نظام الباكالوريا دخل للمدارس المغربية فإن مدير إحدى المدرستين الموجودتين كان دائما يحبب للطلبة شهادة الدبلوم وينفرهم من نظام الباكالوريا، ولم يكن هناك معنى لأن يبقى نظام الدبلوم ما دام القانون ولا الجامعات تعترف به.

وهكذا مر ربع قرن والمغربي يحصل على شهادة هى ورقة بيضاء لا أكثر ولا أقل، وبذلك كان من المستحيل تماما أن ترسل أية بعثة ولا أن يذهب الطالب المغربي إلى خارج المغرب ليختص في علم من العلوم ولا أن ينخرط في سلك المعهد المغربي ليصبح محاميا أو أستاذا رسميا، وإنما تخول له (دبلومه) أن ينخرط في قسم الترجمة بالمعهد ليدرس سنتين

يصبح بعدها مترجما في إدارة إذا وجد وظيفة شاغرة. ولست أدري أبهذه العراقيل ينشط الطالب المغربي في تعليمه ويجتهد في إحراز شهادة تلك قيمتها وهذه نتيجتها؛ أبهذه العراقيل ينتج لنا التعليم العصري ما نعلق عليه من آمال وما ننشده في طالبيه من رجولة ونضوج. ولكن تلك إرادة رجال التعليم بالمغرب وتلك عرقلتهم. ولم يكن نتيجة سياستهم التعليمية إلا أن تخرج للمغرب خلال ربع قرن طبيبا واحدا ومحاميين.

ذلك هى العرقلة وذلك هو داء تأخر المغرب العلمي في المرحلة الأولى من مراحل حياته الجديدة، فما هو العلاج وما هى الوسيلة التي تؤدي بالمغرب إلى استغلال أبنائه المحصلين على شهادة (الدبلوم) التي هى الآن ورقة بيضاء؟ هذا ما أرجو أن يكون حديثي المرة المقبلة.

الأستاذ العربي

هل نحن في غنى عن جلبه من الشرق العربي؟

اعتبر الأستاذ « طارق » في عدد مضى أن إصلاح التعليم العربي في المدارس المغربية لا يتوقف على جلب أساتذة من الشرق « إذ لسنا بربرا ولا متتركين حتى نحتاج لمن يلقننا العربية من أبناء الشرق، ففي المغرب أساتذة في اللغة العربية وآدابها، وإنما أعتبر المشكلة تنحصر في أن ينال التعليم العربي حصة من الوقت كافية وأن تحفظ كرامة أستاذه فيسوى بمن في مرتبته من الأساتذة ».

والحقيقة أنه من الواجب إذا أردنا أستاذا مغربيا لا مناص أن نخول له جميع امتيازات زميله الافرنسي أو غيره وأن ندرس توزيع ساعات الدراسة بين اللغة العربية وغيرها من اللغات على أساس يحفظ للغتنا المكانة الأولى على شرط أن يكون هذا الأستاذ يجمع بين ناحيتين مهمتين هما المقدرة في اللغة والمقدرة في أسلوب تلقينها.

ولعل صديقي « طارق » يعترف أن المغاربة، وهم الذين حافظوا على لغة الضاد أجيالا وقرونا - إذا كانوا يتقنونها، فهم لا يعرفون أسلوب تلقينها على أحدث طريق كما يعرف ذلك أساتذة الشرق العربي الذي استترك أمدا ليس بالقصير ولكنه تنبه في القرن الأخير وكانت نتيجة انتباهه تفوق نتيجة محافظتنا على اللغة العربية، ذلك أنه اتجه صوب آخر ما وصلت إليه الحضارة في إنتاجها وأسلوبها واقتبس من ذلك برنامجا إن لم يكن كاملا فهو يسير مع الزمان نحو الكمال بينما نحن ظللنا حيث نحن.

ليس هناك من ينكر أن بالبلاد المغربية رجالا ذوي مقدرة بارعة في اللغة العربية والعلوم القديمة وانهم إذا جالسوا علماء العربية والعلوم القديمة في مصر وسوريا لن

يتأخروا عنهم رتبة وكفاءة واطلاعا فيما يتصل بمعلوماتهم لكن ينقص علماءنا الأسلوب للتدريس بصورة تناسب أحدث ما وصلت إليه نظريات التربية وأسهل ما استنبط لتسهيل العلم على التلميذ.

فإننا في زمان لا يدرس فيه إلا طائفة خاصة من الناس وهى تدرس العلم للعلم بل في زمان آخر يدرس العلم فيه كوسيلة لترقية الحياة العامة فيجب أن يعلم جميع الطبقات سواء التي تخص بالعلم لتتمتع بلذاته الروحية أو التي تستفيد من نتائجه لحياتها اليومية، فلم يبق هناك مجال أمام التلميذ ليدرس على الطريقة القديمة بل يود دائما أن يختصر الطريق وأن يعبر المسافة إلى رجولته في أمد قصير، وذلك ما يؤكد لنا ضرورة أسلوب التعليم العربي في مدارسنا ليصبح مناسبا لهاته السرعة وكفيلا لتعليم العربية تعلما راقيا في وسطنا سواء المثقف أو المحترف.

فأساتذتنا للعربية الموجودون الآن وهم يتقنون العربية اتقانا بارعا لن يستطيعوا أن يقوموا بهاته المهمة على أحسن وجه لا لأنهم أقل علما من زملائهم في الشرق ولكنهم أقل معرفة في أسلوب التدريس الحديث.

فمشكلة الأستاذ العربي بالمغرب ليست مشكلة معرفة ولكن مشكلة أسلوب؛ والأسلوب اليوم ينبني على نظريات علمية وقواعد أساسية في الاختصار والتلقين والتطبيق والتمرين، وبمجموع ذلك أصبح أمام الأستاذ علم جديد هو أسلوب التعليم، ولن يستطيع المثقف المغربي أن يلم بهذا العلم الجديد إلا بدراسته، لذلك يجب أن نجلب أساتذة من الشرق العربي ريثما تصبح لدينا طائفة من الأساتذة المغاربة تجمع بين العلم وأسلوب تلقينه على الطريقة الحديثة.

قضايا الطلاب

لسنا نطلب بلاغات بل مساعدات للطلبة المغاربة

منذ شهور قدم الطلبة المغاربة طلبات لمنحهم مساعدات لتتميم دروسهم سواء خارج المغرب أو داخله، فرفضت كل طلباتهم وتسرب اليأس إلى قلوب أغلبهم واكفهر المستقبل أمامهم واضطروا إلى العدول عن الخطة التي رسموها لأنفسهم ليتمموا دراساتهم العالية، وبذلك ضيع المغرب طائفة -كما يضيع كل سنة - من نجباء أبنائه، وخسرهم خسارة لا تعوض اتباعا لسياسة إدارة التعليم التي وضعت نفسها حاجزا بين الشباب المغربي وبين النضوج العلمي والتي تبذل مجهوداتها كل سنة لئلا يتعدى الطالب المغربي الشهادة الابتدائية، وهي تعرض عليه أصغر الوظائف لتلهيه عن تتميم دراساته وهي، إذا واصل دراسته الثانوية، تضع أمامه عقبات حتى يصعب عليه تذليل صعوبات الدراسة وحتى يرغم على تركها والانعزال عنها يائسا من المستقبل قنوطا بالحاضر.

وعلى إثر رفض إدارة المعارف منح مساعدات للطلبة المغاربة استاء كل مغربي يفهم القضية ويعلم نتائجها الوخيمة، ونشرت الصحف المغربية مقالات تندد بهذا المسلك الذي تسير عليه إدارة المعارف كل سنة.

وفي الأسبوع الماضي أذيع بلاغ شبيه بالرسمي يقول إن الطلبات التي قدمها هذه السنة تلاميذ مغاربة سيعاد النظر فيها باعتبار الاعتمادات الإضافية التي ينوي سعادة المقيم رصدها في الميزانية الخاصة بتعليم المسلمين.

ولسنا نريد أن نعلق على هذا البلاغ بشيء قبل أن نعلم المسالك الذي تتخذها الإدارة في منح تلك المساعدات، فإننا لا نطلب بلاغات بل نطالب باعتمادات تخصص لنجباء

الطلبة بصورة عادلة لا أثر للمحاباة فيها، ونطالب أن توضع أنظمة واضحة لنيلها يعرفها جميع الطلبة ولا تبقى تحت رحمة إدارة المعارف التي يعرف المغرب جميعه اتجاهاتها مع الطلبة المغاربة ومعاملتها النجباء منهم.

والمأمول أن تعجل الإدارة بالنظر في الطلبات التي قدمها تلاميذ مغاربة في أمد وجيز وألا يظل ذلك البلاغ حبرا على ورق كما تظل كل المشروعات التي يعلن عنها لصالح المغاربة؛ فإن الصحافة المغربية إذا رأت نتائج حميدة لذلك البلاغ ستكون أول من يقدر موقف المراجع العليا في القضية.

واجب المغاربة نحو مؤتمر الطلاب

المغرب

السنة الأولى - العدد 56 - 23 غشت 1937

سيتاح للمغرب في الشهر القادم أن يرى أمنية أبنائه تتحقق بعقد مؤتمر عام يحضره الطلبة من تونس والجزائر الشقيقتين، وسيكون هذا المؤتمر فرصة نادرة لعقد أواصر الرابطة وتمتين العلاقات بين رجال المستقبل لتلك الأمم التي تجمعها وحدة الدين واللغة والجنس والتاريخ على أساس جديد لخدمة الشمال الإفريقي وبعث روح النشاط والقوة في أفراده وجماعاته ونشر المعرفة وتكوين الرجال الذين يشعرون بواجبهم نحو أمتهم ويقدرون المسؤولية التي يحملها إياهم ماضي الأمة اللامع ومستقبلها المنتظر.

سيعقد هذا المؤتمر بالرباط، ولقد حاول الطلاب عقده مرتين مضتا فحالت بينهم وبين تلك الأمنية الإدارة من دون أي سبب، ولكننا في هذه المرة نؤمل من الحكومة أن تنظر للمسألة بغير العين التي نظرت بها في الماضي إلى أبناء الشمال الإفريقي وتعتبر مؤتمرهم مشروعا ضروريا لا معنى للتخوف منه إلا أن تكون الرجعية هى التي تسيطر على الإدارة وهى التي توحي لرجالها المسؤولين محاربة أي مشروع يساعد هذه البلاد على التطور واليقظة ويمكننا أن نستنتج إذ ذاك استنتاجا آخر هو أن الإدارة المغربية ما زالت تسندها الرجعية ويدعم موقفها ذوو الأغراض النفعيون، فهى تحارب ما توافق عليه إدارتا الجزائر وتونس، ومهما يكن فإننا نريد أن ننسى الماضي والظروف التي دعت إدارة الرباط إلى منع عقد هذ المؤتمر في الدورتين السابقتين ونتجه إلى المستقبل ونأمل خيرا.

فالإدارة العليا بالرباط وافقت على عقده بعد مخابرات جرت بينها وبين جمعية طلبة شمال

افريقيا المسلمين بباريز، فعلينا إذن أن نقدر واجبنا نحو هذا المؤتمرالذي هو ليس مؤتمر طبقة خاصة أو هيأة واحدة، بل هو مؤتمر أمتنا الإفريقية جميعها يديره الشباب الذين يهيئون أنفسهم لخدمة بلادهم في المستقبل.

فإذا ساعدت هذا المؤتمر جميع الهيآت وعموم الأفراد سواء من الناحية المادية حيث أنه مضطر إليها كل الاضطرار، أو من الناحية الأدبية، فإنما تلك الهيآت وهؤلاء الأفراد يساعدون مشروعا خطيرا إذا نفذت مقرراته سيكون لها أعظم تأثير على حياتنا، فلنمد يد المعونة للجنة التحضيرية لهذا المؤتمر، وليساعدها الأغنياء بمالهم والمشتغلون بشؤون التعليم بأبحاثهم فنبرهن أننا نقدر مثل هذه المشروعات ونعتبرها كل الاعتبار وأن أمتنا تهتم بمجهودات الشباب التي هى وحدها الكفيلة لرقي هذه البلاد.

حول تأجيل مؤتمر الطلبة

المغرب

السنة الأولى - العدد 67 - 17 شتنبر 1937

عمت الدهشة جميع الأوساط المغربية عندما بلغها أن مؤتمر طلبة افريقيا الشمالية المسلمين تأجل إلى موعد غير مسمى بأمر من الحكومة، ولقد تحير الجميع في تعليل هذا التأجيل الذي لم يكن منتظرا حيث أن مساعي أندلت لدى الدوائر الرسمية حتى اقتنعت بضرورة السماح في عقده، فسارت جمعية باريز للطلبة خطوات في تهييئه واستعدت له اللجنة التحضيرية بالرباط، وكدنا نعتقد أن المؤتمر سيعقد بفضل السياسة الرشيدة التي تدعو دائما إليها سياسة الاعتراف بحقوق المغربي والسماح له بكل ما في دائرة القانون ونطاق النظام. وبالرغم أن المؤتمر أجل وأننا اعتدنا أن نفهم من لفظة التأجيل الإبطال كما جرى في السنوات الماضية فإننا ما زلنا نرجو أن يتهي الأمر بالسماح في عقده، فالمؤتمر مؤتمر طلبة يدرس مسائلهم ويدافع عن مصالحهم؛ فمن قلة النضوج أن يزج به في مسائل السياسة أو تفكر طائفة أو فرد في استغلاله لدعاية خارجة عن نطاقه أو درس مسائل ليست مقررة ومعلومة في برنامجه، ولعل الجريدة التي صدرت شيئا من ذلك هى أيضا لم تعتقد أن المؤتمر خلال جلساته سيشتغل بأشياء غير مقررة في برنامجه، وفوق هذا فإنه مهما يكن من أمر تلك الجريدة فهى ليست هيأة تنظيم للمؤتمر، والمؤتمر لا يمكن أن يكون مسؤولا عنه إلا جمعية الطلبة المسلمين بفرنسا أو لجنته التحضيرية التي تنتهي مهمتها عند الحفلة الأولى للمؤتمر لتسلم أشغالها إلى مكتب المؤتمر المنتخب من الطلبة دون غيرهم. ولقد أعطت جمعية باريز واللجنة التحضيرية بالرباط تأكيدات بأن المؤتمر لا يتصل بشؤون السياسة ولا يمكن أن يستغل لأية دعاية سياسية، فلم يكن من المناسب

تأخير عقده لمجرد مقالة في جريدة، وليس هناك من فائدة لتكون أعمال الشباب الإفريقي ملتوية أى التواء فيدعون أن مؤتمرهم علمي يدرس مسائل الطلبة ثم يدخلون المسائل السياسية في نطاق المؤتمر. فلتتحقق الإدارة أن الشباب الإفريقي لا يعرف هذا النوع من المصارفة وأنه لا يرضى أن تكون في أقواله أية مخالفة لأعماله. وأملنا وطيد أن الحكومة ستتحقق بذلك عاجلا وتسمح بعقده ليكون ذلك أعظم دعاية لسياستها الرشيدة، فتزول الدهشة التي عمت جميع الأوساط المغربية وتتحقق أن الحكومة تسمح للمغربي بما تسمح به لغيره. فلقد سمح بعقد هذا المؤتمر مرات في الشقيقتين، وظل المغرب في كل سنة ينتظر بفارغ الصبر أن يسمح لأبنائه بعقد مؤتمر يدرس شؤون أبناء المستقبل ويفحص حالتهم للسعي في ترقيتها والنهوض بها، فهل يخيب رجاؤه كل مرة وهل تحول الإدارة بينه وبين أمنيته؟ إن ذلك بعيد عن كل مصلحة للطرفين وإن ذلك مما يؤدي إلى جو ليس من فائدة في خلقه بين الإدارة والطلبة.

استدراك - نشرت « المغرب » على الهامش نبأ أوردته جريدة « لا فيجي » ما نصه: « باريز، في 12 منه، بلغ وزير الخارجية خبر تأجيل مؤتمر طلبة افريقيا الشمالية الذي كان سينعقد بالرباط في 15 شتنبر وذلك بأمر من حكومة الحماية، ولقد سألنا عن ذلك شخصين مختصين في مسائل افريقيا الشمالية فقالا إن برنامج المؤتمر لا يحتوي على شيء سوى ما سمحت به سلطة الحماية من مسائل خاصة بالطلبة، بيد أنه بدا من الصواب تأجيله إلى تاريخ آخر إذ ما تزال الأفكار متأثرة بحوادث مكناس، وذلك نظرا لما يروج من الحوادث الخارجية ولا سيما توثر مسائل البحر المتوسط كما لاحظت الأوساط السياسية الباريزية، إنه ربما يحدث عن اجتماع الشبان المسلمين من مختلف الأقطار مناقشات حامية وقلاقل يستغلها المشوشون الإخصائيون. وليس معنى ذلك أن المؤتمر ألغى بتاتا، بل سيعقد حينما ترجع للأفكار سكينتها ».

تمهيد للتقرير المرفوع إلى مؤتمر طلبة شمال افريقيا
حول تعليم المرأة وتهذيبها

اخواني الأعزاء أبناء افريقيا الشمالية

1) كم يغتبط المرء إذا أتيح له الاجتماع مع أبناء ملته والتحدث إليهم فيما يهيئ أحوالهم للكمال المنشود، وكم هى فرصة سانحة الآن حيث ضمتنا هذه الجدران وحيث اتحدت أرواحنا قبل أن تجتمع أجسامنا لكى نقوم نحن رجال الغد بواجب ملقى على عاتقنا ونسعى في سبيل وحدة ثقافتنا وغذائنا الفكري ونتعاهد أمام الله وأمام ضمائرنا أن نعمل للصالح العام.

إن المستقبل لنا نحن الشباب، ندير زمامه بما أوتينا من أصالة رأي وعقيدة وإيمان، فلنتعارف ونهتم بأحوالنا اليوم في أساس رجولتنا وعماد نهضتنا ولنكون من أنفسنا جنودا لتعليم شعبنا الأمى، ولنبث روح الحياة في إخواننا الطلاب لكى يثابروا في جهادهم المدرسي وفوزهم العلمي ولنلتفت إلى نصف مجتمعنا الآخر المنزوي في قعر بيته بصورة هى أقرب للموت منها للحياة ولنهتم بإنقاذه من مخالب التعاسة والانحطاط الخلقي.

2) المدرسة الأولى للإنسان هى بيته وأستاذه الأولى هى مربيته، بل إن خلق الطفل ونفسيته لا تنطبع غرائزهما إلا في دور الفتوة بما يحيط به من عوامل ومؤثرات ينشأ عليها مدى العمر. أو ترانا نهتم بهذه المدرسة أو هذا الأستاذ لنكون من أطفالنا رجالا صالحين للحياة المثلى؟

كم يؤسفني أن يكون جوابي سلبيا.

كم تحزنني حالة المرأة وهى دعامة تربيتنا وأس تكويننا.

كم تؤلمني حالة الفتاة وهى لن تحمل في حضنها ولدا بل تحمل أمة.

أناشدكم يا إخواني بحق وطنيتنا وإيماننا أن تنظروا في حالة المرأة المغربية وأن تمعنوا النظر في أحوالها فيتضح لكم على أي أساس بنيت روح الحياة والجرأة في نفوس أطفالنا وذريتنا، على أي فكرة نكون عقول أبناء وطننا، على أي سلم نصعد إلى ذروة الثقافة والنضوج.

أجل، إنها حالة تحزن وتؤلم.

3) لنتعاون نحن الذين يجري دم الفتوة ونشاط الشبيبة في عروقنا على درء هذا الخطر ولنكون فكرة عامة في مجتمعنا لتعليم الفتاة وتهذيبها فيكون عملنا هذا بذرة أولى لحياة جديدة.

لنطالب بتأسيس مدارس للفتيات ولننشئ دعاية واسعة النطاق لذلك ولنوضح ما فيه من فوائد جلية وما في حالتنا هذه من أضرار جسيمة لكى يختمر هذا الرأى السديد وينضج في وقت قريب يمكننا فيه أن نستدرك هذا السبات العميق.

هذا واجب ملقى علينا نحن الشباب إذ أن الحياة المقبلة سوف لا تكون لنا إذا لم نبادر ونعسكر لها بإيمان ودراية.

ولكى نخدم الفكرة بطريقة جدية عملية يجب على كل فرد منا أن يكون في بيته مدرسة لأفراد عائلته فيضحي بساعة أو ساعتين في اليوم لأجل تعليمهم وتثقيفهم إذ لا يكفي أن ننتظر اختمار الفكرة وتأسيس المدارس لها.

فالبدار البدار وإلا فالتعاسة البيتية أمامكم وما البيت إلا مصدر الحياة الإنسانية والعالم الصغير لكم.

4) لقد تغافل أجدادنا - سامحهم الله - عن المرأة واعتبروها قطعة من متاع البيت وتناسوا أثرها ومفعولها في مجموعهم البشري من طريق تربيتها، فكان ما نشاهد من الانحطاط والتقهقر في مصيرنا.

لقد كانت حياتنا راقية عندما كانت المرأة تدرك كيف تقوم بواجبها نحو بيتها وأبنائها، عندما كانت تبث في نفوس أطفالنا روح العز والفضيلة وكانت تتصور التضحية في سبيل المجموع.

لقد لعبت المرأة المغربية في تاريخ بلادها دورا خطيرا وكانت الساعد الأقوى في كل مناسبة للدولة وكيانها؛ ويكفي أن تحولوا نظركم قليلا إلى هذه الجامعة العلمية العالمية الكبرى « القرويين » فإن المؤسس لها امرأة؛ ويكفي أن أشير للكاهنة وشجاعتها وقوة نفسها فليس هذا التمهيد بموضع التفصيل.

هكذا نريد من المرأة المغربية وهكذا نسعى أن تكون لتعيد مجد وطنها وفخار قومها.

5) عجيب أن تكون حالة المرأة عندنا هكذا وديننا هو الإسلام، هذا الدين الطاهر الذي انتشل المرأة من مهاوي الانحطاط وركز لها وجودها عند الرجل بعدما كانت تابعة له لا شخصية لها.

لقد انصف الإسلام المرأة ومتعها بحقوقها ورغب في تعليمها وتهذيبها، كل ذلك بشر به الإسلام ودعا إليه بحرارة ونفذنا ذلك نحن المغاربة المسلمين مدة طويلة ثم تغافلنا عنه لا بباعث حقيقي سوى الجمود وأخيرا زعمنا أن ذلك بأمر من الدين البريء مما نسبنا إليه.

أى نص يحرم تعليم المرأة في ديننا القويم أيها الإخوان، أية آية تنهي الرجل ولو ضمنيا عن تهذيب ابنته وتثقيفها أيها الرفقاء؟

إنما ذلك نتيجة من نتائج ما وصلنا إليه من تأخر وجمود بسبب تجاهلنا مفعول المرأة في تربية أبنائها وإعدادهم للرجولة الحقة والصراع الأبدي. فلنرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله لنطبق على المرأة ما فيها فنسدي خيرا لوطننا وديننا.

6) لست بالمتطرف فأدعو لحرية المرأة المطلقة أو لحقوقها السياسية كما هو التيار الجارف بغيري وفي الديار العربية والشرقية، بل أعتقد أن للمرأة وظيفة سامية لا يمكن لغيرها أن يقوم بها مهما حاول؛ أعتقد أن المرأة من حيث هى امرأة عنصر لازم لا لتتنافس مع

الرجل جنبا لجنب في الميدان الاجتماعي، بل لكى تقوم بتلك الوظيفة التي مكتها الطبيعة منها، لكني أريد أن تكون مهذبة الروح، مطلعة على أحوال العالم، ومدبرة لشؤون بيتها بمهارة ودراية، باثة في نفوس أطفالها كل الفضائل، مقوية فيهم الإيمان الوطني الذي هو أساس الرجولة والاستقامة.

هذا ما نتطلبه من المرأة المغربية الآن، فهل نراه بعد حين؟ حقق الله الآمال.

وبعد فيا إخواني الفضلاء إليكم هذا التمهيد راجيا منكم درس تقريري عن المرأة وحالتها واتخاذ المقررات اللازمة لذلك.

والله ولى التوفيق.

يجب أن نعمل على تأسيس مراكز تعاونية
لتعليم وتشغيل الفتاة المغربية

المغرب - السنة الأولى - الإثنين 19 ربيع الأول 1356 الموافق 28 يونيه 1937

ما كادت « المغرب » تنشر في عدد مضى حسرة من فاضل من أسفي على استخدام البنات المسلمات عند اليهود وما يلحق بهن من ويل وثبور حتى انهالت عليها رسائل القراء تردد الحسرة وتعدد الأمثلة وتشكو الوضعية وتطالب بوقف هذا الداء عند حد. وتلك ظاهرة محمودة في الوسط المغربي حيث بدأ ينتبه إلى عوامل الفساد ويشعر بكرامته ويلح في اجتناب الحالة التي تصبح فيها بناته ضحية فقرهن حيث يلجأن إلى دور اليهود فيستخدموهن خدمة دنيئة، ولكن الذي نرجوه هو أن يقوى هذا الشعور ويتولد عنه فكرة عملية في إيجاد مشروع يدرأ هذا الخطر على بنات المغرب المسلمات وينقذهن من ويل عم ضرره. فإذا كنا نستاء من تلك الحالة يجب أن نفكر في بذل مجهود لمحاربتها ولا نكتفي بالحسرة أو مطالبة السلطة بتدابير لن يكون نفعها عظيما. فلو أن جماعة في كل مدينة اتفقوا على تكوين مشروع بسيط لا يكلف مشقة كبيرة ففتحوا مكانا يجمعون فيه هؤلاء البنات الفقيرات ويعلموهن صناعة يدوية وبعض مبادئ من التعليم النظري، ويخصصون دخل تلك الصناعات اليدوية لمعيشتهن لكان ذلك عملا مفيدا ولكان خطوة مباركة في إصلاح حالة الفتاة المغربية المحزنة وإنقاذها من هوة الجهل والفقر العميقة. فمن الخير أن نألف الاعتماد على أنفسنا في إصلاح أمورنا وأن نفكر في المشاريع العملية ونتدرب على الأعمال التعاونية ونخرج من دائرة الفردية التي استولت على جميع شؤوننا فظلت بذلك في تراجع وتأخر. ففي مثل هذه المشاريع البسيطة يجب أن نفكر ولمثلها يجب أن نعمل.

تطورات الروح الوطنية

في مراكش

(من المقالات التي كان سعيد حجي يراسل بها الصحف والمجلات في المشرق العربي)

الثلاثاء 6 رمضان عام 1351 الموافق 3 يناير سنة 1933

1

منذ تولت الإدارة الحكم في بلادنا وهى تتمتع بسيادة واستقلال قل نظيرهما بين الأمم المجاورة؛ ولقد تطورت مدنيتنا وحضارتنا في ألف ومائتى سنة تطورات يصعب تحديدها، وكان بين دولتنا والدولة العربية في الأندلس والدولة العربية في مصر أو آسيا الصغرى تنافس كبير في سائر مرافق الحياة سواء الأدبية أو العلمية أو الحربية، ورغما من تغلب الأتراك الذين نسبوا لأنفسهم الخلافة على سائر البلدان الإسلامية فإنهم لم يستطيعوا السيطرة على بلادنا التي كانت أقوى دولة في افريقيا الشمالية، بل أقوى دولة على ضفة البحر المتوسط؛ ولقد تغلبت دولتنا على سائر ما يهزم غيرنا، وبقيت محافظة على شبابها وحيويتها إلى أوائل القرن السابع عشر عندما برزت هذه المدنية الأوربية وأخذت تنشر أشعتها على العالم؛ منذ ذلك القرن بدأ الضعف يتمكن من دولتنا رغم ما نراه في بعض الفترات من قوى حافزة لمسايرة العصر والتطور معه، لكن تلك النهضات لم يكن مصدرها نتيجة مصادفة عنيفة تهيب بأفراد الشعب أن يحافظوا على وجودهم في الصراع البشري بل كانت رغبات تدور في خلد زعماء وملوك.

بقينا مستسلمين لما يصيب حياتنا من ضعف وخمول، نتكاسل عن تجديد قوانا رغما عن

تلك الظروف المساعدة لنا، وأخيرا عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء للنظر في أحوالنا، وبذلك أتيح للأجانب التدخل في بلادنا بصورة فعلية أو مباشرة، ثم اضطرب الأمن في البلاد لأسباب قد يطول شرحها أهمها ولا ريب تلك التدابير الأجنبية لإثارة الفتن لأجل استغلال الفرص. وأخيرا، في سنة 1912 ، عقدت الحماية الفرنسية على المغرب، فقضت القضاء المبرم اليوم على استقلال البلاد.

2

لسنا بصدد إيضاح العوامل التي أحاطت بإمضاء الملك المراكشي على عقد الحماية وكيف حاصره الجند الافرنسي وهو في قصره بفاس. بل الذي يهمنا دراسته هى الروح الدفينة التي كانت تسود الموقف. لقد كانت هناك جمعيات سرية تسعى لمآرب مختلفة، فقد خدع فريق من أبناء البلاد وفكروا بمساعدة يد أجنبية أن يثوروا ضد الحكم السائد قبل الحماية، كما أن فريقا من أبناء الوطن أدرك تلك التدابير والموعز بها فقاومها أشد مقاومة ولكن لم يوفق كما ينبغي. والخلاصة التي تهمنا من ذلك الآن هو تلك الروح الوطنية التي تمكنت من فريق من أبناء البلاد الوطنيين وعملهم في الحقل الوطني، فكادت أعمالهم أن تكلل بالنجاح. فلو أتيح لتلك الروح زعيم فذ كعبد الكريم لرأينا الأحوال غير ما هى عليه. فإن الظروف هى المساعد الأكبر للمستعمر أو العامل على امتلاك البلاد بتلك السرعة التي جعلت قائد الحماية الفرنسية أن يصرح أن الفرنسيين كانوا يتصورون أن احتلالهم للبلاد لا يتم إلا بعد ثلاثين سنة فإذا به قد تم في ثلاثة أيام.

ومعنى ذلك أن الفرنسيين الذين كانت جواسيسهم مبثوثة في أطراف البلاد كانوا يدركون المصاعب الجسيمة وروح الوطنية والمقاومة في المغاربة عند المصادمة مع الأمة المراكشية ونشر حمايتهم عليها، فاعترفوا للظروف بمساعدتها وللخائنين من أبناء البلاد بمعوتهم التي جازوهم عليها فيما بعد.

3

وبعد نشر الحماية لم تفتر تلك الجماعة الوطنية عن العمل لمعاكسة الأجنبي ومنع تدخله، لكن ينبغي أن نعترف أن ذلك لم يكن بطرق علمية توافق العصر وأحواله، فإن الأجنبي سرعان ما قضى عليهم بوسائل مختلفة، فضعيف الإيمان الوطني كان نصيبه مالا أو وظيفة، وقويه شرد وصودر.

ولم يدم الحال طويلا حتى تقلد السلطة الأجنبية فرد لا شك أن أمته مدينة له بحمايتها أو استعمارها للمغرب، ذلك هو السياسي المحنك « ليوطي » ، فلقد أدرك بثاقب فكره أن أغلب الذين يتزعمون من أبناء البلاد بعد الحماية هم طائفة ليس من شأنها أن تهتم بمصالحها الفردية، كما أدرك أن الشعب محتاج إلى المواساة عن استقلاله المفقود وتحكم الغير فيه فاضطر إلى سياسة التحبب والمخادعة التي لم يبرع فيها سواه، والتي يشهد له كل مغربي بإتقانها ونبوغ فيها.

4

لم يدم الحال طويلا حتى نشبت الحرب العالمية واضطرت فرنسا إلى سحب جنودها من بلادنا.

ولقد تنفس المغاربة لدى نشوب الحرب الصعداء وتصوروا قرب الخلاص بما أصيبوا به، مقتنعين أن النصر يكون في جانب حليفتهم ومؤيدة استقلالهم « المانيا » فكانوا مهتمين بهذه الحرب متتبعين لأخبارها وحوادثها لا يأخذهم شك في انهزام الأجنبي الدخيل عليهم، ورغما عما أبداه ذلك المرشال من مكر ودهاء بحفلاته المغربية ولباقته النادرة لم يستمل إليه مغربيا واحدا بينما كانت المدن تحاصر من جانب الجرمانيين وتدخل في حوزتهم؛ كانت هناك حفلات تقوم بها السلطة ببلادنا احتفالا بدخولها « المزعوم » برلين، وبينما فرت حكومة باريز إلى بوردو كانت هناك خطب تلقى على عموم أفراد

الشعب من ليوطي يبتسم فيها ويذكر القوم باستقلالهم وعزتهم بعد انتهاء الحرب وانتصار أمته.

هكذا دامت الحرب وهكذا دامت أيامها (الزهراء) في بلادنا، ونحن لم نقتنع بصدق ما يصوره لنا ليوطي، وإنما نتلهى بذلك منتظرين الحاج (غليوم) .

ولقد كان الوطنيون يفكرون في العمل لاغتنام فرصة الحرب لولا أن السلطة أحكمت كل محاولاتها، وأدركت خطورة موقفها، فبادرت إل اتخاذ كل الوسائل التي من شأنها القضاء على محاولات الوطنيين.

5

فانتهت الحرب وأى مغربي لم يصدق بهزيمة الألمان، أو التفت إلى البلاغات التي أذيعت عن انتصارات الحلفاء، والحقيقة أن قليلا من الأفراد هم الذين أدركوا الموقف وخسران الألمان في الحرب وفوز فرنسا في حربها التي أعلنتها على ألمانيا.

انتظر المغاربة تحقيق مطالبهم التي كان ليوطي يرددها أثناء الحرب، لكن اتضح لهم أن ما صرح به ذلك المشير لم تكن إلا وعودا خلابة براقة أغوتهم مدة فأضاعوا الفرصة السنحة لتحقيق ما ينشدونه من استقلال وعزة، فاستاؤوا من الحالة ونقموا على الدخيل إذ أنه لم ينتظر مرور سنوات على الحرب بل بادر بعد انتهائها إلى البدء بتنفيذ خطته، فأصدر عدة مراسيم لجباية الضرائب الباهظة، لكنه لم ينفذها في سائر البلدان المغربية دفعة واحدة، بل بدأ في تنفيذ ذلك بالعاصمة الرباطية، فاحتجت المدينة من فداحة الضرائب، واجتمعت الوفود الغفيرة حيث أحاطت بالقصر السلطاني محتجة على تلك الضرائب، فبادرت السلطة إلى تخدير الأعصاب، واهتمت بالأمر ظاهريا ولم تخمد الحركة حتى أمرت بنفي زعماء الحركة، فكانت هى أول مصادمة بين الأهالي وبين السلطة.

وبعد ذلك كانت الحرب الكمالية وانتصارات الأتراك في حربهم مع اليونان فتحمس

المغاربة تحمسا زائدا لمصطفى كمال باشا، وعزموا على إعانته فصدمتهم السلطة في عزمهم، وهكذا زال كل حلم نحو عدالة الفرنسيين من قلوب المغاربة، تلك العدالة التي لم يكونوا ليتصوروا وجودها أو تخيلها لولا تلك التصريحات التي صدرت من رجال الحماية أثناء الحرب فخدرت أعصابهم واستسلموا لتوهمها.

6

لقد عم التذمر بين الأهالي بعد انتهاء الحرب العالمية وتغيرت السياسة الفرنسية نحوهم تغيرا ظاهرا إذ أنها أرادت أن تخدع النفس المغربية بإرهابها وإظهار القوة المادية التي يتوفر عليها الأجنبي، فأثرت تلك السياسة على كثير من النفوس الخانعة البسيطة، بينما ازدادت في لهيب الروح الوطنية شعلة، فكان هذا التذمر من جانب الأهالي الخاضعين للحكم الفرنسي يتسرب طبعا إلى الجماعات أو القسم المغربي الآخر الذي لم يكن قد مهد أمام رجال الحماية، وسرعان ما فكر زعماء هذا القسم في مصير وطنهم وأدركوا تلك المخادعة التي مرت على إخوانهم الوطنيين الخاضعين لقوة العدو ولمسوا ما يصيبهم من إرهاق وعسف وصمموا عل الجهاد لتحرير البلاد.

ولسنا نذيع سرا إذا قلنا إن حبل الاتصال كان قويا بين هذين الجانبين وإن هناك معونات أدبية ومادية قام بها الطرف الخاضع لسلطة الحامي لتعزيز حركة المجاهدين سوف يكشف الزمان عنها اللثام، فكان كل واقعة حربية بين السلطة الأجنبية والمجاهدين يرن صداها في أنحاء البلاد، ويتهافت كل مغربي على تتبع الحوادث باهتمام كبير وتحمس زائد، وبعد ذلك ترأس المجاهدين شخصية لم ينجبها الوطن المغربي منذ سنين.

7

لقد أثرت الحرب الاستقلالية الريفية على النفسية المغربية من ناحيتين:

الأولى: من ناحية قيمتها - والثانية : من ناحية قوتها.

ويلمس ذلك جليا من المقارنة بين حالة المغرب قبل تلك الحرب وبعدها، فلقد كادت أن تستسلم النفوس بعض الاستسلام لسيطرة الأجنبي الذي صمم على استغلال ذلك الاستسلام لمصلحته، لكن الحرب المغربية الاستقلالية أشعلت فيه روحا وطنية وصورت له أن ذلك الأجنبي مهما يكن قويا بجنوده ومعداته وأساطيله لن يقوى أمام جهاد الإيمان والحق. فإذا لم تنجح الحرب الريفية المغربية في ختامها فقد استفادت الروح المغربية منها إذ أنها فتحت بابا في تاريخ تطورات الروح القومية ببلادنا.

لقد تابعت بلادنا باهتمام قل نظيره حوادث تلك الحرب، وهذا طبيعي لا ريب فيه، لكن الذي ليس بالطبيعي هو عدم قيام المغرب إذاك بثورات هائلة ضد الأجنبي.

فقد نتساءل عن السر في ذلك مقتنعين أن تاريخنا القومي يبرأ من هذا الذل وذلك الخمود الذي ساد أوساطنا فلم نبادر إلى اغتنام الفرصة في تلك الحرب الوطنية والتنصل بقوة السيف من تلك السيطرة الأجنبية الغاشمة. في تلك الأيام الرهيبة لا معنى لكي يقتصر الوطني على تأوهات وانتظار وصول المجاهدين وتغلبهم على السلطة أو التحدث بذلك والافتخار به، بل الواجب الوطني يقضي إذاك بحمل السلاح. فواحسرتاه على فرصة لم نبادر إلى اغتنامها فيقال عنا كلمة صحيحة « إن تاريخنا القومي يعيد نفسه ».

8

بانتهاء تلك الحرب الوطنية انتهى دور الجهاد المسلح وحل الجهاد السلمي الذي من شأنه أن يكون لكل فرد من أمتنا شعورا ويكون له نبراسا نهتدي به في ملمات وطننا.

بادر الفرنسيون وهم الذين أدركوا ما في النفس المغربية من صرامة واعتداد بوطنها إلى التفكير ودرس الوسائل التي من شأنها القضاء على تلك الروح المضطربة الهائجة التي خلقتها الحرب الوطنية، فقرروا وعلى رأسهم المقيم العام « ستيغ » أن أقرب وسيلة لرهبة

المغاربة هى القوة والعنف؛ فكان للمغربي منهما نصيب كبير لم يزده إلا تذمرا وحقدا على المستعمرين. ثم تابعوا درس سياستهم (الإدماجية) وكان من نتائج هذا الدرس تلك المسألة التي تسمى بالقضية البربرية التي فكروا فيها من قديم وصمموا على تنفيذها بصورة غير معقولة في القرن العشرين.

ظلت الهاوية بين السلطة والأهالي تتسع وتعمق، والتذمر يعم سائر الأفراد نظرا لجسور المستبدين وضغطهم العجيب، فأخذ الكل يتبرم من هذه السياسة ولم يبق إلا الانفجار أو الانتقام، فلم تكن لتجدي طلبات الأهالي للحكومة، بل لقد كانت السلطة - وما زالت - تعاكس الأهالي في كل محاولة يراد بها تخفيف مصائبها لتظهر قوتها وبطشها، وسلطة المستعمر من شأنها أن تمعن في طغيانها كلما رأت استسلاما ظاهريا من أفراد الشعب المستعمر. فضغط على الحريات، وجور شنيع يصاب به الفلاحون، وظلم سيء يراد به إماتة الإحساس، وأخيرا تجزئة البلاد وإخراجها من حظيرة الإسلام والعروبة وإدخالها تحت لواء مثلث الألوان ودين صليبي.

9

هذا ما لا يطاق والوطنية.

لن يطيقه من يشعر بكرامته وأى مغربي لا يشعر من صميم فؤاده بهذه الكرامة التي لولاها لاستطاع المستعمر أن يدمجه في كيانه.

فحذار أيتها الأمة المغربية بما يراد بك فإنه أسوأ الأسوأ. وانفضي عنك غبار هذا السكوت ليشعر الافرنسي بوجودك؛ لقد كانت القضية البربرية سببا مباشرا لما نراه الآن في مجموع الأمة من حركة ويقظة، كانت سببا في ذلك لأنها أماطت اللثام عما لم يكن مسطورا إلا في الأوراق؛ فلم نكن لنتصور أن ما في السطور يبرز إلى حيز التنفيذ، وأن الفرنسيين لم يتورعوا في وصولهم لغايتهم الاستعمارية الكبرى من اتخاذ الوسائل التي من شأنها أن

تحط بمقامهم في العالم الدولي. لقد برهن المغاربة على أنهم لن يستسيغوا الفكرة مهما بذل في شأنها وأظهروا امتعاضهم الشديد منها بوجه عام يعبر لا عن الأغلبية فقط بل يعبر عن فكرة كل مغربي، فليس هناك من يجسر عن الرضا عنها. لكن هل تقتنع السلطة الافرنسية بخطئها وتتراجع عن خططها، نظرا لما أظهره المغاربة من احتجاج وسخط على الفكرة؟

هذا ما لا نظنه.

لا ينبغي أن نخدع أنفسنا ونتصور أن هذه الفكرة التي مهدت السلطة لها منذ سنين عديدة، ودرستها من سائر نواحيها، سوف تحيد عنها بمجرد ما أظهره الشعب المغربي من تبرم ومقاومة. والحقيقة التي لا غبار عليها أن تلك السلطة لن ترجع عن فكرتها إلا إذا رأت تيقظا تاما من الشعب واهتماما كبيرا بالمسألة، واحتجاجا وصراخا ومقاومة من المغاربة كلما ظهرت لهم خطة في سبيل تنفيذ الفكرة البربرية.

10

فاتجاهنا الذي ترمي إليه روحنا الوطنية وتسعى وراءه هو المحافظة التامةعلى دولتنا المغربية متمتعة بحقوقها المقدسة ومعيدة تاريخها الزاهر؛ فكل مغربي مفكر يدرك هذه المسؤولية الملقاة على عاتقه ومستعد للتضحية التامة في سبيل هذا المبدإ المغربي.

ونظرة واحدة على صفحة من تاريخنا القومي تنير لنا سبيل العمل والجهاد في المستقبل وتفتح أمام المتشائمين بابا واسعا للتفاؤل بل وللأمل الوطيد في ازدهار حياة أمتنا في المستقبل واستقلالها المنشود. كما أن نظرة واحدة أيضا على تطور الروح الوطنية منذ سنتين أو ثلاث من أبناء المغرب تفيدنا باستعداد فطري يحفزنا إلى الجهاد الوطني، وان أمتنا متبرمة وليس في استطاعتها أن تتحمل أكثر من هذا وانه لا ينفعها إلا المفكرون العاملون والوطنيون المضحون والزعماء المديرون. فلنسر على بركة الله.

خطوات النهضة الوطنية في مراكش
إلى الأمام

جلالة ملك البلاد يناصر الحركة ويؤيدها - الفرنسيون يضطربون للحركة ويصادرون الحريات - ويمنعون أربع صحف مغربية

(من مراسلاته للصحف والمجلات الشرقية - منتصف ماى 1933)

تطورت الحركة الوطنية المراكشية خلال الأشهر الأخيرة تطورا خطيرا لم يكن الفرنسيون يتصورونه مطلقا، فإن جلالة ملك البلاد الشاب الديموقراطي الذي كان دائما محط آمال العاملين ورجائهم أصبح من المؤكد أنه يعطف عطفا خاصا على حركة بلاده ويتمنى لها كل نجاح؛ فهو أينما ذهب تجمهر الشعب وحياه وهتف له من أعمق القلوب؛ وقد حدثت خلال هذا الأسبوع حوادث كانت سلسلة من المفاجآت؛ فإن السلطان سيدي محمد أراد السفر إلى فاس ليقضى هناك شهرا حسب ما جرت به العادة، فجرت المخابرة مع الهيئات الوطنية ومع المقر السلطاني في تنظيم الاحتفالات التي تقام له، وتم الاتفاق على كل شيء، وغادر السلطان ووزراؤه وحاشيته مدينة الرباط العاصمة فاقتبل بمدينة مكناس أحسن اقتبال وتلقاه الشباب بالهتافات العالية وقدم له هدية المصحف الكريم فتقبله من الشباب مسرورا مرتاحا وشجعه بكلمات ذهبية.

ثم غادر مكناس إلى مدينة فاس حيث اقتبله على أبوابها قبل الجميع الأفراد العاملون لخير وطنهم، فوقفت سيارة جلالة الملك ترحيبا بهم واقتبلهم أحسن اقتبال ولم تجر العادة مطلقا أن تقف سيارة جلالة الملك لأحد من المقتبلين لجلالته، وعندما دخل للمدينة علت أصوات

الهاتفين بحياته وحياة المغرب والإسلام والعروبة، فكان يحيي الجميع بيديه الكريمتين، وهنا نفد صبر الفرنسيين، فأمر رئيس الشرطة الافرنسية أعوانه أن يحولوا بين جلالة الملك وبين رعيته، ويرغموهم على السكوت من تلك الهتافات، فلم يستطيعوا شيئا من ذلك رغم كثرة مصادماتهم مع جماهير الشعب.

وفي اليوم الثاني لوصول جلالته لفاس اقتبل بقصره العامر السفراء والقناصل الأجانب والهيئات الرسمية؛ وفي اليوم الثالث زار مدفن مولاى ادريس مؤسس المملكة المغربية الإسلامية، فأرادت السلطة الفرنسية أن يكون منفردا في زيارته وأن تمنع الشعب من الاحتفال بملكه. لكن جماهير الشعب التي احتلت سائر الطرق المؤدية إلى مكان الزيارة حالت بين السلطة الفرنسية وبين أمنيتها، بل إن السلطان اخترق كل الطرق من دون حاشيته، وليس معه إلا رجال الكتلة الوطنية؛ فكان الشعب يردد الهتافات وينشد الأناشيد الوطنية بحماسة فائقة، وجلالته يسير الهويناء ويرد تحية شعبه بابتسامته ورفع يديه، ودخل جلالته مدفن مولاى ادريس وسط رجال الكتلة الوطنية فزاره وترحم على قبر مؤسس مملكته منذ اثنى عشر قرنا. ثم رجع إلى قصره وسط هذه الاحتفالات النادرة المثال، وكانت الرايات المغربية ترفرف على سائر الدور والدكاكين المغربية.

فاستاء الفرنسيون استياء لا مزيد عليه وعقدوا في الساعة الواحدة ظهرا من نفس اليوم اجتماعا في الإقامة العامة بالرباط بين رؤساء دار الحماية، وعلى إثره غادر الرباط المعتمد الافرنسي المسيو هيلو إلى فاس حيث وصل إليه في الساعة الثالثة والنصف، فاجتمع بجلالة الملك ودام الاجتماع بينهما نحو ساعة ونصف بلغت أشياء مما جرى وأشيعت عدة إشاعات عن موقف جلالة السلطان في اجتماعاته بالمعتمد نضرب عنها صفحا. وعلى إثر اجتماعهما غادر جلالة السلطان مدينة فاس إلى الرباط، فاضطربت المدينة وتوالت الاحتجاجات على عمل السلطة الافرنسية المخالف لأي ذوق وأدب، فرفع الوطنيون احتجاجا رسميا إلى رئيس الجمهورية الفرنسية ورئيس الوزراء ووزير الخارجية ضد معاملة

السلطة المحلية لجلالة السلطان ونشرها الدعاية ضد الوطنيين.

ثم أرسل جلالة السلطان في طلب السادات محمد الوزاني والناصري وعبد الجليل فحضروا لمدينة الرباط واجتمعوا في القصر السلطاني بصاحب المعالي محمد المقري رئيس الوزراء، فبلغهم شكر جلالة الملك وعطفه السامي على الهيأة الوطنية لما أظهرت من حسن اقتبال، وقال لهم إنه ينزههم مطلقا على أي أعمال صبيانية مما أشاعته مصادر لم ترض عما جرى. فكان لهذه المقابلة صدى عظيم في سائر الدوائر، فارتاعت السلطة الفرنسية واضطربت اضطرابا ما عليه من مزيد.

كان ذلك في يوم 14 ماى، وفي يوم 16 منه كانت الذكرى الرابعة لصدور الظهير البربري المعروف، فأذيعت المناشير في مختلف النواحي المغربية تندد بأعمال السلطة الفرنسية وسياستها البربرية المعهودة، وأضربت سائر المدن على العمل طول اليوم، ورفعت العرائض إلى جلالة الملك وإلى المقيم العام بباريز وإلى الوزارة الخارجية وإلى رئيس الوزراء الفرنسي تحتج بشدة على السياسة البربرية وتطالب بالعدول عن أية محاولة من محاولاتها، واجتمعت الجماهير عند الظهر في المساجد، وتليت الخطب، وابتهل الناس إلى ربهم أن ينقذهم وينصرهم على الظالمين الغاشمين، وحاصرت السلطة بشرطتها وجنودها المساجد ومنعت المظاهرات وقطعت المواصلات بين المدن.

القضية البربرية في ثلاث سنوات

الأمة المغربية تحارب السياسة البربرية
قبل أن تحارب مرسوم 16 ماى والذين أصدروه

حرر بمناسبة حلول 16 ماى 1933 وأعرض على الأستاذ عجاج نويهض قصد نشره بمجلة « العرب » القدسية.

تعد الفكرة البربرية من أخطر البرامج الاستعمارية التي عرفتها البشرية قديما وحديثا في كيفية دمج القوى للضعيف، وهى على خطورتها ظن نفر من الافرنسيين أن كل السهولة في إبرازها وتنفيذها؛ ولقد تصور رجال الإدارة الافرنسيون ببلادنا وهم يجتمعون لتقرير تلك السياسة وإصدار مرسوم 16 ماى أنهم يستطيعون أن يسيروا في طريقهم دون أن يلتفت إلى عملهم الخطير فرد مغربي أو أن ينتبه إلى نواياهم أحد مهما قرأ مؤلفاتهم التي بحثوا فيها الفكرة وقرروا فيها القضاء على الإسلام بهذه البلاد، فلقد صدر ذلك المرسوم بصورة شبه مستعجلة رغما أن جل رجال الفرنسيين درسوه وخصوصا منهم رجال القضاء وأنصار الفكرة قبل صدوره بشهور عدة. وما أن صدر ذلك الظهير ببضعة أيام حتى غادر السلطان البلاد إلى فرنسا وعزم المقيم على حضور مؤتمر افريقيا الشمالية بالجزائر، ثم إن الجرائد الفرنسية المحلية اكتفت بكلمات في التعليق عليه كأنه كان متوقع الصدور منذ سنوات، وهنأت بعضها المقيم على هذه الخطوة.

والمسألة لم تكن هينة لدى الوطنيين كما تصور المستعمرون في أول وهلة، فطالما تجادلوا في هذه السياسة التي تتبع فرنسا بالبلاد، وطالما فكروا في طرق مقاومتها؛ لقد كانوا يهتمون بكل ما ينشر عن البربر ومصيرهم، لكن لم يخطر بفكرهم أن المسألة ستكتسي صبغة رسمية مسيحية، وأنها تستمد قوتها بصفة رسمية من رجال الكنيسة الكاتوليكية

بالرباط إلى أن برز الظهير فأدركوا الخطورة المحدقة بالبلاد جميعها، فاجتمعوا اجتماعات كثيرة وتباحثوا في الموقف وقرروا بالإجماع مقاومة الفكرة ومحوها من الوجود، فسعوا أولا في تفهيم الجمهور المقاصد من هذه السياسة والنوايا التي يرمي إليها رجال الاستعمار؛ فكانت مجهوداتهم تلقى تحبيذا وتشجيعا من الجمهور المغربي في أهم المدن لا لأنهم يدركون هذه السياسة بل نظرا لما هم فيه من تعاسة وضيق شديد على الحريات العامة لدرجة لا تتصور؛ وابتدأت المقاومة الفعلية بمدينة سلا ثم امتدت إلى الرباط ثم إلى فاس، وبعد ذلك عمت كل المدن المغربية، وعمت الفوضى في سائر الإدارات حيث امتلأت السجون بالوطنيين المتظاهرين ضد الفكرة، ونفى زعماء الحركة، فكانت تلك الأعمال مما يزيد في شجاعة الوطنيين ويقربهم من الفوز؛ ورن رنين المسألة في الشرق العربي فاحتج على فرنسا ونواياها، فرجع الملك من فرنسا مسرعا، ومن بعده بأيام قلائل رجع المقيم الافرنسي وصرح لرجال الصحف أنه متأسف لما جرى من الحوادث، وحاول أن يهدئ روع الجمهور بكلمات جوفاء مطاطة. ثم استقر رأى رجال الإدارة الاستعمارية على أن تقرأ رسالة السلطان في المساجد وتكون كنوع من التهديد للقائمين بالحركة ونوع من تكذيب ما أشيع ونوع من إرضاء الجماهير بأن قرروا أن كل قبيلة حرة في اتخاذها للعرف البربري أم للشرع الإسلامي، فلم تلق هذه الرسالة إلا إعراضا كليا من سائر الطبقات، بل لقد زادت في تحمس الجماهير وتفانيها، وكانت تلك الرسالة أول اعتراف رسمي بحركة المقاومة من جانب السلطة، فرأت فشلها المريع في تلك المحاولة، وأدركت خطأها إذا لم تبادر إلى مفاوضة الشعب وتهدئة الخواطر بطرق مرضية، وهكذا رأيناها تغير فكرتها وتفاوض من وصفتهم في رسالتها السابقة بأنهم أطفال يكادون لم يبلغوا الحلم (على حسب تعبيرها) فتألف الوفد الفاسي بالتصويت كما تألف في كل مدينة من يقدم العرائض إلى الملك الذي يؤيد مطالب الوفد الذي اقتبله الملك بصفة رسمية، وأظهر له عطفه على مطالبه، ثم بلغه بعد ذلك بواسطة رئيس الوزراء أن مطالب الأمة قبلت،

فرجا رئيس الوفد ووزير العدل السابق أن يطلق سراح المنفيين والمسجونين في سبيل القضية وحوادثها تنفيذا للمطلب الثالث عشر الذي جاء فيه مايأتي: (إصدار العفو العام عن جميع المسجونين والمنفيين في سبيل القضية وعدم التعرض لمن خاض فيها) .

وشاع خبر قبول المطالب في كافة القطر بأسرع من لمح البصر، فتبادلت الناس التهنئة بهذا الفوز، ورأت السلطة ما يخيفها من حماسة الجماهير في كل المدن من هذا الفوز (وهى أيضا ربما لم تكن قد بلغت رئيس الوفد بقبولها للمطالب إلا مخادعة وتهدئة للخواطر الثائرة) فبلغت الوفد الفاسي بلزوم مبارحة الرباط والرجوع إلى فاس، فكان عملها صدمة قوية ورد فعل قبيح، فاضطربت كل المدن خصوصا فاس التي دام إضرابها مدة أربعة أو خمسة أيام، وسجن في يوم واحد منها مائتا شخص من الوطنيين، ونفى خمسة عشر شخصا من القائمين بالحركة، ثم أطلقت سراح المسجونين بعد أن حكمت على كل منهم مدة شهر من السجن، وزار خلاله رئيس الجمهورية الافرنسية البلاد المراكشية، وكانت كل خطبة عبارة عن وعود - نعرف قيمتها - وقال باسم الأمة الفرنسية إن فرنسا لا تنوي شرا للبلاد المغربية، وإنها لا تمس شرائع الإسلام ولا إرادة السلطان الشرعية بسوء إلى غير ذلك مما لا يحفل به كثيرا ونعده قصاصة ورق أو هزة من هزات الأثير.

وهنا دخلت المسألة دورا سريا، فأصبحت المنشورات توزع في كل مناسبة والرسائل تؤلف في القضية وتوزع بين الشعب ليتفهم ما تحويه من الفظائع عن مقاصد السلطة من سياستها، ولم تهتد الحكومة إلى مصدر هذه الحركة لتقاومها. فاضطرت أن تفاوض زعيم الحركة الأولى عبد اللطيف الصبيحي في منفاه تبلغه عزمها على تغيير مرسومها، ثم أذنت له فزار سائر المنفيين واتصل بزعماء الحركة وقرر معهم الخطة الواجب اتباعها وما تبديه الحكومة من حلول لتغيير سياستها، ثم بلغ ذلك إلى رجال الحكومة بالرباط، فلما خرج من حضرتهم صرح لأحد مكاتب الصحف الفرنسية بماهية الاتفاق، ونوه بانتصار الأمة المغربية في جهادها، فتلقى هذا التصريح رجال السلطة بشىء من الحدة، واستاؤوا منه

كثيرا إذ كانوا يتصورون أن تلك المفاوضات سوف لا يطلع عليها شخص من عامة الأفراد، فأرجعوا عبد اللطيف إلى منفاه بعد أن بلغوه قطع المفاوضة معه. ورجع عبد اللطيف إلى منفاه وهو أشد إيمانا بالفكرة وإخلاصا لها مما كان سابقا، وبقيت المسألة بين أخذ ورد بين حكومة باريز وحكومة الرباط، وطالما احتج ملك البلاد على السياسة البربرية وأظهر رغبته السامية في تغيير الظهير فلم يلق إلا وعودا وتسويفا من رجال السلطة الفرنسيين إلى أن حان يوم 16 ماى سنة 1932 فاستعدت الأمة لإظهار استنكارها لبقاء المرسوم البربري، فأذيعت عدة مناشير وكادت الحالة أن تنقلب كما حصل عند صدور المرسوم، لولا أن السلطة لازمت الصمت ولم تلق القبض على أي شخص كأن لا وجود لهذا ولا وجود لتلك المنشورات وتلك الاجتماعات، فأظهرت الأمة بسائر طبقاتها استنكارها واحتجت، وبعد مرور شهرين من تلك الحوادث أطلقت سراح المنفيين ووعدتهم بأنها تدرس المسألة وتغير مرسوم 16 ماى. واليوم يصرح رجالها المسؤولون أنها أصبحت ترى من الضروري تغيير مرسوم 16 ماى تلبية لما أبدته الأمة من رغبات، فلم يبق علينا إلا أن نتساءل هل حقيقة تود السلطة تغيير ذلك المرسوم وفق رغبات الشعب المغربي، وهل ترضى الأمة بذلك التغيير وتكتفي به، وهى التي طالما حاربت السياسة البربرية من حيث هى، وهل تقتنع الهيئات العاملة ببلادنا بذلك التغيير السطحي مع أننا نرى السياسة البربرية ما زالت لدى السلطة القائمة الأجنبية مما يعتمد عليه ويدرس باهتمام تام. لقد اضطرت حكومة باريز تحت عوامل مختلفة أن تغير مقيمها بالرباط، فهل معنى ذلك أنها تفكر في تغيير السياسة التي تسير عليها مع البربر؟ فإنه لا يهمنا أن غير الظهير بقدر ما يهمنا هل غيرت السياسة البربرية أو انعدمت من الوجود. لقد أدرك العالم أجمع أن الأمة المراكشية لا تحارب شخصا من الأشخاص وإنما هى ترمي إلى محو فكرة ترى كل الخطر مرتبطا بها، فستدوم تلك المحاربة من جانب الأمة المغربية لأنها مؤسسة على دعائم الحق والعدالة، وسوف لا تحيد عن مطالبها سواء غير من رجال الإدارة ما غير

وسواء بدل ذلك المرسوم أو أسقط ما دامت ترى أن تلك السياسة البربرية التي ترمي إلى أخطار جمة تدور في خلد المسؤولين من الافرنسيين.

هذه كلمتنا نعلنها في صراحة ونود لو ينتبه القائمون بالسلطة من أبناء فرنسا ويعملون في شيء من الجد والحزم على قطع دابر المشادة التي أولدتها الفكرة البربرية والتي تدوم ما دامت الفكرة في حيز خيالهم وعقلهم، وعليهم كذلك أن يدرسوا بجد ونشاط السياسة الفرنسية بالمغرب، فإن المطلعين يدركون أنها ستطور، وربما ليست لفرنسا غير ما نعهده وغيرما رأيناه سابقا، وأنها ربما تدخل في دور يخيل إلينا أنه جميل وأنه على دعائم حسن التفاهم وإدراك النوايا المغربية وتخدع أياما تنخذل فيها قوتنا المعنوية وما هى إلا عشية وضحاها حتى ظهرت تلك السياسة بمظهرها الحقيقي الواضح الناصع، فنجدها صورة أخرى على هذه السياسة البربرية التي نحاربها اليوم بجد ونشاط. فإنه ليجدر بنا في هذه الأوقات الحرجة أن نمعن النظر ونكون فكرة جامعة عن أي سياسة تنتحلها هذه السلطة ، فإن الغاية التي ترمي إليها الفكرة البربرية لهى ابتلاع بلاد المغرب والقضاء على وحدتها وشخصيتها في العالم الدولي؛ إذن بتطور هذه الفكرة فربما ستنتقل من حدود التمسيح إلى حدود أخرى لا نريد أن نعينها الآن قبل أن نرى اتجاه المقيم الجديد.

فإن بعض الافرنسيين أدركوا خطورة التلاعب بالدين والمعتقد، وتصوروا أى عصر نعيش فيه فأصبحوا يفكرون في الابتعاد عن تلك السياسة الاستعمارية، لكن هل معنى ذلك أنهم أصبحوا مبتعدين عن الغاية الكبرى التي ترمي إليها الفكرة البربرية كلا ثم كلا؟

هذا ما نراه جديرا بدرس إخواني العاملين في الحقل الوطني، وهذا ما نود أن تساعدنا الأمم العربية الإسلامية في محاربته كما ساعدتنا - دون أن أشكرها - باحتجاجاتها المتوالية على الناحية التبشيرية في الفكرة البربرية التي أصبحنا نراها متعددة المناحي، متشعبة المشاكل، والله ولى التوفيق.

مدينة مراكش - مسلم بربري

بمناسبة 16 ماى

لا سياسة بربرية - توحيد القضاء والتعليم

المغرب
السنة الأولى - العدد 14 - الإثنين ربيع الأول عام 1356 الموافق 17 ماى سنة 1937

أدركت الأمة المغربية جيدا ما تنطوي عليه السياسة البربرية وما يسعى إليه بمختلف الوسائل والمبررات أنصارها والمؤيدون لها من رجال الاستعمار. ولقد أعلنت سنة 1930 عن خطتها وغضبها من تلك السياسة الهوجاء وظلت تجدد احتجاجها واستياءها في كل يوم 16 ماى وسيستمر ذلك الاحتجاج وهذا الاستياء ما دام يدور في خلد المسؤولين من رجال الإدارة أوهام لتحقيق سياستهم وتنفيذ مراميها.

ولا يمكن أن يزول ما أحدثه ظهير 16 ماى من الجزع في جميع طبقات الأمة إلا بإبطاله وإبطال كل ما يوصل به من ظهائر أو قرارات وزيرية ومنشورات رسمية.

فلقد أعلنت الأمة المغربية في كثير من المناسبات أنها لا ترضى عن السياسة البربرية وأنها لا تسمح مطلقا بالسير على منهاجها في الإدارة والتشريع وأنها تحرص على وحدتها الدينية واللغوية والقومية مهما كلف الأمر ما كلف.

فمطالب الأمة المغربية جميعها من دون استثناء حول هذه المسألة تنحصر في نقطتين مهمتين:

الأولى : إبطال السياسة البربرية بما فيها من تبشير وتقليص لنفوذ الحكومة المغربية؛

والثانية : توحيد القضاء والتعليم.

16 ماى

المغرب

السنة الأولى - العدد 13 - الجمعة 3 ربيع الأول عام 1356 الموافق 14 ماى سنة 1937

كلما دنا يوم 16 ماى تحيا في نفوس المغاربة ذكرى كانت حدا فاصلا في تاريخهم فهى ذكرى تحيي في نفوسهم شعورين متباينين جد التباين؛ ففي ذلك اليوم نزل القضاء ونزل اللطف، وفي ذلك اليوم اتخذت محاولات أفراد صبغة رسمية، وفي ذلك اليوم تنبهت أمة وتكونت جذور الحياة فيها.

ظل المغرب وحدة دينية وأمة ذات سيادة وحكومة ذات نفوذ منذ تقلد زمام أمره ذلك الملك العظيم الذي يشرف على المغرب من جبل زرهون وظلت جميع مظاهره تخضع لهذا النظام الإسلامي وهذه العقيدة الإسلامية الطاهرة التي تمكنت من نفوس المغاربة لا تعصف بها الرياح مهما اشتدت ولا تضعف من متانتها الظروف مهما تغيرت وتلونت، فلقد ارتضى المغاربة دين الإسلام وارتضوا أحكامه وسننه لأنها في مجموعها وتفاصيلها تستند إلى العقل وتطبق نظريات مثلى في الناحية العملية والناحية الروحية من الحياة.

ولكن أفرادا وما كان أغناهم عن ذلك حاولوا أن يوهموا الناس بدعاو وافتراءات ما أنزل الله بها من سلطان فأوجدوا منذ عشرات السنين خيوطا أو هى من العنكبوت بنوا عليها احتمالات.

ثم ظلت تلك الاحتمالات تنمو إلى أن أصبحت شبه حقيقة راسخة في أوهامهم إذ خدعوا بما حاولوا أن يخدعوا به غيرهم، وثاروا بقضية لم تكن دعاويها إلا افتراء افتراءاتهم.

كان المثقفون من المغاربة ينظرون إلى تلك النظريات بازدراء ولا يتصورون أنها ستكون

في يوم قريب أساس سياسة جديدة لا يدعيها أفراد فقط ولكن تنتحلها هيأة رسمية فأخذوا وبهتوا وأعلنوا أن هذا الأمر لم يكن ولن يكون.

غير أنهم لم يكادوا يلتفتون حتى وجدوا أنفسهم أمام أمر واقع وأن تلك الدعاوي أوجدت سياستها البربرية ظهير 16 ماى، فقابلوا هذا التنفيذ بعزم صادق وإيمان ثابت وأخذت الحوادث مجراها، فأعلنت الأمة جميعها على اختلاف طبقاتها وهيآتها استياءها من تلك السياسة، وهنا تنبه المسؤولون وهنا أدرك المفكرون أى خطر أدت إليه تلك الاحتمالات في جو العلاقات بين أمة وحكومتها.

كانت حوادث ظهير 16 ماى سلسلة متتابعة لم تكن مقدمتها إلا تلك المزاعم التي حلم بها أفراد ولم تكن نتائجها إلا سلبية لما حاولوا. وسرنا وسار الزمان وأصبحت قضية 16 ماى أشهر في بطلانها من الباطل نفسه واعترف كثير من المسؤولين تارة بين الجدران وطورا على رؤوس الاشهاد أن أخطاء وقعت وأنه سيعمل على تلافيها.

وانتظرنا طويلا ولم يغير إلا الفصل السادس من الظهير؛ أفيكون معنى ذلك أن الحوادث لم تكشف خطأ السياسة البربرية كشفا واضحا؟

إننا نعلق آمالا كبارا على الحكومة الحاضرة لكى تفهم ما عسر على غيرها فهمه، وتدرك الأمور بصورتها الحقيقية وتزيل من صفحة تاريخها شيئا يسمى سياسة بربرية.

والمغاربة يذكرون في يوم 16 ماى أنه في مثل هذا اليوم وقع حادث خطير بكيانهم وأنه في ذلك اليوم دب الإحساس إلى نفوسهم، ويؤملون جميعا أن تعمل الحكومة ما يرفع عنهم كل استياء، وبذلك تحرز على عطف أمة كاملة.

مؤتمر الجبل والسياسة البربرية

المغرب

السنة الأولى - العدد 15 - الأربعاء 8 ربيع الأول عام 1356 الموافق 19 ماى سنة 1937

نشرت « المغرب » في عددها الأخير ملخص أعمال مؤتمر الجبل المغربي الذي عقد جلساته بالرباط في هذا الأسبوع. والإنسان إذا أمعن النظر في تلك الدراسات التي تناولها المؤتمرون يجد أن مجهودات شاقة بذلت في تحضير تلك الأبحاث تستحق الالتفات من عموم المغاربة والتساؤل عما يراد منها وما يمكن أن يستنتج من مجموعها خصوصا في أسبوع لا يتحدث فيه المغاربة والمتصلون بشؤون المغاربة إلا عن البربر والسياسة التي يحاول البعض تطبيقها في هذه البلاد، فالذي يستعرض بعض مصادفات - وربما لا تكون مصادفات - يجد أن وراء الاكمة ما وراءها وأن أعمال هذا المؤتمر لا ترمي إلى درس وبحث بل إلى تكوين فكرة واستيعاب أحوال الأغلبية من سكان المغرب قد يكون من ورائهما تأييد لنظرية السياسة التي تجدد الأمة المغربية استياءها منها في هذا الأسبوع.

ومع حسن استعدادنا لكى نتصور أن أعمال المؤتمر لم تخرج عن دائرة البحث والدرس فهناك تصورات تجعلنا نتساءل عن قيمتها من الصحة والبطلان وتجعلنا نقف أمام مجهودات المؤتمر هنيئة من الزمان.

لقد عقد المؤتمر في أواسط شهر ماى وهو الشهر الذي صدر فيه منذ سبع سنوات الظهير البربري.

لقد سمى مؤتمر الجبل المغربي ولم يسم الجبل البربري.

لم يكن من بين الباحثين إلا مغربي واحد من قبيلة زيان البربرية؛ ولم يكن بحثه إلا عن

قبيلة بربرية. وهذا الباحث المغربي هو خليفة قاض. كان من بين المؤتمرين أفراد لهم اتصال قوى بالسياسة البربرية والعمل على تنفيذها.

لقد كان من جلة أبحاث المؤتمر مسائل تتصل بالقانون والتشريع مما هو من مرامي السياسة البربرية.

تلك هى بعض التصورات التي خطرت ببالي وأنا أستعرض أعمال المؤتمر يمكنك أن تستنتج من كل واحدة منها استنتاجات واحتمالات ، والرجاء ألا يكون من مجموع أبحاث المؤتمر ما يدعم السياسة البربرية ويجعل أنصارها أشد تعصبا وتحمسا لها وأن تقتنع الإدارات العليا بخطر كل سياسة ترمي إلى تفريق المغاربة إلى عنصر بربري وعنصر عربي وتخصيص مؤتمر لدرس شؤون العنصر الأول دون العنصر الثاني.

تطور المغرب - واجب الأمة - واجب الحكومة

المغرب

السنة الأولى - الأعداد 2 (19 ابريل) 4 (23 ابريل) و 6 (28 ابريل) 1937

1

يجتاز المغرب اليوم أوقاتا عصيبة وأزمات شديدة، فجميع مظاهر الحياة فيه أصبحت عنوان التذمر والشكوى، وكل أفراده يقاسون ألوانا من الاضطراب النفسي العنيف، ويشعرون في أعماق أنفسهم أن الضعف يلازم خطواتهم ومشاريعهم، وأن سوء الاتجاه يسيطر على جميع مواقفهم؛ فإذا أمعنت النظر وشاركت كل طبقة في إحساسها، واستمعت إلى شكواها لا تكاد تخرج من أزمة عسيرة إلا لأزمة أشد منها، ولا تكاد تتعرف ناحية بؤس حتى تهاجمك نواحي شتى كلها شقاء وكلها ضعف. فالفلاح اليوم - وهو عماد ثروة المغرب وأساس كيانه - ينتحر يوما فيوما انتحارا معنويا، ويفر أمام الأزمات، ولكن لا يدري أين يسير؛ فمن سوء تصرف الولاة إلى جفاف الصابة، ومن تكلب مخدرات المدنية عليه إلى فساد أخلاقي يصرعه صرعا. والصانع وهو يئن من فداحة ما يؤدي للإدارة، وما تكلفه به العوائد الاجتماعية البالية، تهاجمه ضروب من النشاط تبديها عقول المخترعين ويستغلها أصحاب المال، فإذا بصانعنا اليدوي المسكين منزو أمام هذه الصدمات، ذاهل أمام هذا النشاط وإذا به يلقي السلاح ويتشرد في الطرق. والتاجر خانه الحظ فعدم زبناءه الذين هم الفلاحون التائهون جوعا والصناع المتشردون فاقة. والشاب لا يكاد يشعر بابتسامة الحياة وأملها حتى تختلط عليه السبل وتضعف أمامه نفسه ويضطرب الجو الذي يعيش فيه، فتراه بعد أيام معدودة من الأمل الباهت يقنع بشظايا العيش، يحصر همته في لقمة

خبز تتناولها يده إلى فيه، وهو بذلك راض لا يفكر في شيء آخر، فإذا ناقشته الحساب وأوضحت له أي اتجاه من القوة يأخذه الشباب في أمم أخرى أجابك باختصار بأن يلقي المسؤولية على غيره. وأظن أني غير مضطر إلى استعراض بقية الطبقات المغربية الأخرى التي طفح كيل الأزمة والاضطراب عليها فذاك ما تراه عيناك كلما سرت خطوات في هذه البلاد. فإذا بحثنا عن الأسباب التي تركت المغرب في هذه الفوضى وجعلته ينتحر ليفر من الحياة ويلقى أفراده بأنفسهم في زاوية الإهمال والنسيان تجنبا للشعور بويلاتهم وأزماتهم لا يمكن لك أن تجد إلا سببا واحدا هو أصل الداء، وهو الذي يؤدي حتما بالمغرب والمغاربة إلى نهاية سوء وعاقبة موت. السبب الوحيد في كل تلك الأزمات وجميع هذه الاضطرابات هو جمود المغرب أمام التيار الذي أخذ العالم من التجديد والنشاط وحب الحياة عن جهد وقوة لا عن ضعف ولا عن موت. جمود المغرب هو علة المغرب الدفينة، فلا نكون مبالغين إذا علقنا مستقبل بلادنا على جمودها وتطورها، فإذا بقي المغاربة جامدين لا يلتفتون إلى ما تنتجه الأمم الأخرى في مختلف الميادين وما تقوم به من مجهودات لترتقى وتتقدم، فهم في اضطراباتهم خالدون بل هم إلى مصير مجهول محفوف بأنواع الأخطار سائرون. فإذا فهمنا الداء وشعرنا بألمه ينخر في جسم أمتنا ويمتص دم حياتنا، وأدركنا أنه من المستحيل أن تدوم لنا حياة ما دمنا واقفين بينما الإنسانية جمعاء تسير لا ببطء ولا هوادة ولكن بخطوات واسعة تجتاز المسافات تلو المسافات، وتخترق المصاعب إثر المصاعب، إذا فهمنا ذلك وجب أن نتطور وأن نساير العصر في مظاهره العملية وأن نتسلح قبل كل شيء بسلاح العلم. فالتطور الذي ننشده للمغرب هو الوسيلة الوحيدة لنزيل عن الفلاح تيهه، وعن الصانع انزواءه، وعن التاجر كسده، وعن الشباب الموانع التي تحول بينه وبين الحياة الفسيحة النشيطة. فإذا تطور المغرب هان كل شيء ويسر كل شيء. ولكن بماذا يتطور؟ ومن المسؤول عن تطوره؟ أهي الأمة؟ أم الحكومة؟ أم هما معا؟ هذا ما أرجو أن يكون حديثي عنه في المرة المقبلة.

يكاد الجميع يتفق على أن المغرب أصبح على أبواب عصر جديد قد يكون حافلا بما ييسر الهناء لأفراده، وقد يكون معاكسا لوضعياتهم تعاكسا يؤدي إلى سوء وإلى اضطراب؛ فإذا أمعن النظر وساعد الاستنتاج على محاولة تصور المستقبل الذي ستنغمر فيه أمتنا، فالذي يتضح جليا أننا على أبواب عصر سنلقى فيه كل المتاعب وسنعيش فيه على هامش الحياة. فالمجموع المغربي من الآن أصبح بعيدا عن كل ما يتصل بالنشاط، وأصبحت أبرز مميزاته هذه الاستكانة وهذا الجمود، وتلك ميزة لا تؤدي حتما إلا إلى نتيجة سلبية؛ ولعلنا لا نطيل البحث عن وسيلة تؤدي إلى بث روح الحياة والنشاط في مجموعنا، ولا نختلف في الطريق التي من شأنها ألا تلقى بنا إلا في عصر نور، فالمغاربة جميعا يتفقون على أنه ينقصنا شيء واحد فينقصنا الجميع، فبدون هذا الشيء الذي ينقصنا لا يمكن أن نتطور تطورا يحفظ مركزنا في المجتمع البشري؛ فليست الثروة هي التي تنقصنا، وليس الذكاء هو الذي يعوزنا، وليس الجو هو الذي يساعدنا، بل الجهل الذي يخيم علينا، ويحتل عقولنا، ويصيرنا حيوانات تسير بالعصا وتقاد بالشكيمة. والمغاربة إذا فكروا جميعا، واتفقوا على أنه ينقصنا العلم، فذلك لأنهم يقدسون العلم ويعلمون منزلته ومكانته، ولكن ينقص المغاربة العلم ليطالبوا بالعلم، وتنقصهم روح تسيطر على النفوس ترى مطمحها الأول والأخير في التزود بالمعرفة ونشرها بين أبناء المستقبل، فإذا البعض والكل يبشر بإعلان حرب زبون على عدو بيده القضاء المبرم على وجودنا، عدو يجعلنا نغتال أنفسنا، ونسم أجسامنا، ونلقي بأرواحنا في المهالك، ونحن ندري أو لا ندري. فإذا حارب المغاربة هذا العدو الألد، فاستأصلوا داء الجهل، ووحدوا الجهود لنشر المعرفة، فالحياة المغربية ستتطور في يوم وليلة؛ وإذا تطورت أصبحت تدعو إلى التفاؤل، وتبعد الإنسان من هذا التشاؤم الذي سيطر على جيلنا في أمده الأخير. ولكن يجب أن نتصور أن جهودنا لنشر العلم ولو بلغت ما بلغت لم تكن إلا جهودا ابتدائية تنقصها

الخبرة. فواجب الأمة قبل أن تفكر في إطعام البطون أن تفكر في إطعام العقول وتلقيح الأفكار واقتباس ما تتفاخر به الأمم؛ والمغرب اليوم في مرحلة عدم فيها كل الرجال، وقلت خبرة أبنائه بجميع المسائل؛ فقبل أن نؤسس أنظمة ونبنى المعاهد يجب أن نقتبس من الغير، ولن يتحقق ذلك إلا بإرسال البعثة تلو البعثة إلى أمم تعيش في عصورها، فإذا انقلب أفراد كل بعثة راجعين إلى موطنهم حملوا زاد الحياة معهم، ونفضوا عن أجسامهم وعقولهم داء الخمول، واستعدوا لمحاربة الجهل بإنشاء المدارس وتكوين جيل جديد بروح جديد. فإلى إرسال بعثات إلى الخارج حيث المعرفة وحيث النور يجب أن ندعو الآن ونحصر عنايتنا واهتمامنا حتى يتكون لدينا جيل يقدر نفسه، ويحدد آماله، ويحقق مشاريعه.

ذلك هو واجب الأمة في مرحلتها هذه لتتطور وتنشد الحياة الصحيحة غير التي تحياها، أما واجب الحكومة فهو ما أريد أن أتحدث عنه في يوم آخر.

- 3 -

إذا ما استعرض المرء كل المؤثرات التي لها مفعولها على الحياة المغربية وجد أن المؤثر الأول والرئيسي في جميع المظاهر هو الحكومة التي كانت في مختلف أطوار المغرب الماضية ولا زالت مسيرة الشؤون العامة ومحتذى كل طبقات الأمة ومسؤولة عن كل أحوالها وأمورها، ولم يكن اتجاه الأمة هذا مما ينقص من شأنها، فالأمم في الماضي لم تكن إلا صورة عن رؤسائها الذين يتحملون الجزء الأكبر من جميع الأعمال التي تكون للمجموع؛ أما اليوم فقد تغيرت الوضعية وأصبحت الجماعات تشاطر الحكومة في كثير من المسؤوليات الاجتماعية، وتتحمل جزءا من الأتعاب التي لم تكن في الماضي إلا من نصيب الإدارة، وذلك لما طرأ على الحياة الإنسانية من تطور عظيم لم يعرفه المغرب. فلا زلنا تحت تأثير هذا الماضي نتصور أن المسؤوليات جميعها تلقى على الحكومة التي من شأنها

أن تقوم بجميع المشاريع ومختلف الأعمال، وبذلك نكثر اللوم ونستريح في أغلب الأحيان مما يحتمه علينا الواجب الاجتماعي نحو أمتنا من مجهودات في سبيل بعثها من جديد وتكوينها تكوينا صحيحا لا أثر للفوضى ولا للخمول فيه. ولكى نصل إلى هاته المرحلة التي نصبح فيها مقدرين لمجهوداتنا الفردية، عاملين لصالح الجماعة، لا بد أن تساعدنا الحكومة على اجتياز هذا الدور الصعب المسالك، وبذلك تستريح الحكومة من لوم كثير ومسؤوليات مرهقة. ولكن يسوؤنا أن نعلن الآن أن الحكومة التي من شأنها أن تمد اليد للشعب لينهض، كانت في أغلب الأحيان تفهم هذا النهوض فهما مخالفا للحقيقة، فهما غريبا في بابه، لا يستند على أساس من القوة، بل يتكي على دعامة من الأوهام والسفاسف. فكثيرا ما يكون لأهواء الأفراد تأثير على السياسة التي ستتبع في هذه البلاد، فيتجهون بها اتجاها مضادا لأية محاولة تكون من شأنها النهوض بالمغرب والتخفيف من مسؤوليات الحكومة بتكوين جيل جديد يشارك الإداريين في العمل لصالح الشعب ولفائدته. ورجاؤنا أن يفهم هؤلاء الإداريون في صراحة أننا نود أن نخفف عنهم كثيرا من مسؤوليات، فلا بد من أن يفسحوا لنا المجال ويزيلوا عن أنفسهم هذه الظنون والوساوس التي صبغت بها سياسة الإدارة في المرحلة الأخيرة. فتكوين جمعية ليس معناه أى عداء لسياسة تبنى على الصراحة والثقة، وإنشاء صحيفة لا يمكن أن يفهم منه أن جماعتنا تريد النقد دون غيره، وإرسال بعثات إلى الخارج لم يكن في يوم من الأيام وسيلة سياسية طائشة فنمنع منها، وكذلك كل المشروعات التعاونية التي هى مظهر المدنية البارز في عصرنا الحاضر. فكل ما نود أن نطالب به الإداريين أن يفسحوا المجال لأية فكرة تعاونية عملية تؤدي إلى تطور الشعب المغربي وتقدمه؛ ففي هذا التطور وهذا التقدم ما يجعل الثقة متبادلة بين حكومة وأمة، ويجعل آمالنا في دائرة التنفيذ والتحقيق، وهى آمال لا تخرج عن أنها تعمل لخدمة أمة دون أن تؤدى إلى المس بأمة أخرى، وتسعى في رفع مستوى الجماعات لتتحمل نصيبها من مسؤوليات الحياة.

البعثات والجمعيات

من مقال لم نعثر إلا على جزئه الأخير الحامل لرقم 3 ما نصه:

... وبالجمعيات يمكننا أن نفهم قيمة التعاون، ويدرك الوسط المغربي الفائدة التي يجنيها المجتمع البشري من تآليف أعضائه وتكوين وحدة منهم تدافع عن حقوقهم وتوضح لهم الطريق وتساعدهم في تذليل الصعوبات.

وليس هناك من وسط هو أحوج إلى الجمعيات مثل الوسط المغربي الذي عدم الأعمال التعاونية منذ أمد طويل، ولم يعرف عن حياة العصر إلا صورا متنافرة ولم يقدر قيمتها بالمرة.

فالجمعيات هى مظهر من مظاهر المدنية العصرية وصورة عن تطور الإنسان وخروجه من أنانيته إلى تعاونه؛ ولقد حاول المغاربة في كثير من المناسبات تأسيس جمعيات أدبية أو اجتماعية، فلم تساعدهم الإدارة على ذلك ووقفت في طريقهم، ولقد تحيرنا في فهم هذه المعاكسة إلا أن يكون المراد منها صد المغاربة عن كل تيار يفسح لهم طريق الحياة والرجوع بهم كلما حاولوا خطوة إلى الأمام إلى حظيرة الجمود الفتاك.

وفي اعتقادنا أن الإدارة ستدرك بعد الآن خطأها المبين وتبتعد عن تلك الأساليب الماضية التي أدت بمجموعنا وفردنا إلى الخمول، وتفسح للمغاربة مجال العمل الأرحب، وتنقطع عن تلك المعاكسات التي لا يمكن أن يفهم منها إلا شىء واحد، هو تركنا في ضعفنا ليستغلنا النفعيون.

على أنه من المستحيل أن ننتظر من الحكومة لتقدم إلينا كل ما نرجو وتحقق لنا كل ما نؤمل، فكل انتظار من هذا النوع مهزلة، وهو نفسه لا يدل على شىء إلا على جمودنا

واننا لا نستحق شيئا مهما. لذلك فإنه من الضروري أن نجدد تلك المحاولات لتأسيس الجمعيات في شيء من العزم قوى تفهم منه الحكومة أننا جادون في خطتنا وأن لا مبرر لها مطلقا في رفضها وأن العقلية المغربية لم تصبح تستطيع ذلك الرفض.

وبذلك سيفسح لنا بالطبع المجال فتعمل كل هيأة في دائرتها، ونوجد من الجمعيات ما يصلح أحوالنا ويرقي مجتمعنا ويبعث فينا روح النشاط واليقظة.

فالجمعيات الأدبية هي أولى ما يجب أن نتجه إليه، ففي المغرب طائفة كبيرة من الشيوخ والشباب يمكنها أن تساهم في هذا الميدان، وكذلك الجمعيات الإصلاحية سواء في الناحية الاجتماعية أو الدينية أو التعليمية، فهناك أيضا طائفة جعلها تيار العصر تقدر المسائل الجديدة، ويمكنها أن تبشر بها في الوسط. فإذا تحققت لنا هاتان الخطوتان ففتحنا باب إرسال البعثات إلى الخارج، وألفنا الجمعيات، فلا ريب أن المغرب ستزدهر حياته نوعا ما وسيصبح أدعى للتفاؤل من هذه الحالة التي يتخبط فيها الآن ولا منقذ له.

الشعب يستيقظ باللين أو بالضغط

الدعاية للقضية المغربية في الداخل والخارج

1

بالرغم عن أن وسائل النشر تكاد تكون معدومة، وبالرغم عن أن الصحافة المغربية لم توجد إلا منذ شهور قلائل، فإن الدعاية للقضية المغربية تسير دائما من دون تراجع وتعم تدريجيا جميع الأوساط، فقد انتشرت الفكرة الوطنية في جميع المدن وها هى ذي تسري في البوادي. ولقد أصبحنا نلمس جوا وطنيا في جميع اتجاهاتنا المغربية، وأدركت العامة أن المديرين لحركة الشعب التحريرية لا يرمون لمصلحة إلا مصلحة الأمة ولا يسعون في غاية إلا غاية إسعادها وإعزازها وإنقاذها من الويلات والمصائب. فالأمة المغربية اليوم بأجمعها تعتنق الفكرة الوطنية وتعرف (بداية السطر ممسوحة) فهى تناصرها بما استطاعت (بداية السطر ممسوحة) لا تخشى أن تتظاهر بتأييدها للحركة التحريرية وثقتها في مديريها. ولا نكاد نستثني من طبقات أمتنا المغربية طبقة لا تتظاهر بعطفها التام على قضيتنا العامة إلا طائفة واحدة هى هذه الجماعة التي ترى مصالحها مهددة إذا استيقظ الشعب وفهم حقوقه وواجباته، فهى تتظاهر دائما بإعلان سخطها على تطوره وترى في مجنى شعوره جناة على منافعها المضرة بالشعب المخربة للأمة. وهذه طبقة لا ينبغي أن يقام لها أى وزن، بل يقضي الواجب الوطني بمحاربتها محاربة معنوية فعالة حتى تسقط كرامتها الوهمية ويمحى مظهرها السخيف.

فالشعب إذن شق لنفسه طريق اليقظة وهو سائر إليها من دون تراجع ولا تباطؤ، وسواء ساعدته الحكومة في يقظته كما يقضي عليها الواجب وكما يلزمه الحق، أو حاربته في

نهضته كما يقضي منطق الاستعمار وتأثير المنافع الشخصية، فإن كل عمل بعد الآن لا يزيد الشعب إلا يقظة وتعلقا بأبنائه المخلصين المضحين في سبيله. فخير للحكومة ألا تفكر في أية محاربة لعوامل يقظة الأمة وأن تمد يدها لشعب مسالم لمن ينصفه، شعب يعترف بالجميل لمن يسديه إليه، ولكنه لا يريد أن يهان ولا تداس مصالحه الجوهرية تحت أقدام الطغاة والنفعيين.

لقد فهم الشعب حقيقة حاله ومرمى حركة أبنائه المصلحين، فهان كل شيء، وأصبحت القضية قضية شعب، وبذلك أثمرت الدعاية للقضية المغربية بين المغاربة. أما بين الجاليات الأجنبية، فذوو الضمائر السالمة عرفوا حقيقة حركتنا بما نشرناه بينهم عنها، فأيدونا وعطفوا علينا. أما ذوو المنافع والمصالح فهم بطبيعة الحال يحاربوننا مثلما يحاربنا النفعيون من المغاربة إذ في نهضتنا قضاء على مصالحهم أيضا. ولكن هذا الفريق ضعيف لأنه لا يعتمد إلا على القوة المادية لا القوة الروحية التي تتجلى في إيمان الشعب بحقوقه ودفاعه عن مصالحه.

هذا تأثير الدعاية في الداخل، أما خارج المغرب فذلك ما أود أن يكون حديثي في المرة القابلة.

2

إذا كانت الدعاية للقضية المغربية نجحت نجاحا عظيما في الداخل، فإن نجاحها في الخارج يعد أيضا مهما إذا اعتبرت المجهودات التي بذلها أبناء المغرب والوسائل التي بأيديهم، ففي ظرف سنوات قلائل استطاع أبناء المغرب أن يكونوا لقضية بلادهم أنصارا محترمين في الوسط الفرنسي، واستطاعوا أن يجلبوا عطف العالم الإسلامي على حركتهم الفتية بكيفية تدعو حقا إلى الإعجاب، وكان العطف الذي أبدته الأمم العربية والإسلامية خير دليل على قدسية الروح الإسلامية ومتانتها.

ففي أول عهد لحركة المغرب الوطنية لم تكن إذاك أية صحيفة مغربية ولا أية وسيلة للدعاية، استلفتت بها الحركة أنظار أوربا والشرق الإسلامي، فلما وطد الشباب المغربي نفسه على الدعاية لقضية بلاده، وجد أمامه استعدادا من الدوائر التي تعطف على قضايا العالم الشرقي؛ ولقد تمركزت الدعاية لقضيتنا منذ قدمت مطالب الشعب المغربي وبرهنت للعالم على استعداد أبناء المغرب لتوجيه بلادهم نحو إصلاح حقيقي، وأدركت الدوائر المسؤولة منذ تقديمها خطورة الحركة الوطنية المغربية وكفاءة مديريها، ولقد بلغ العجب من بعض الدوائر أن ادعت أن المطالب لم يضعها أبناء المغرب، بل وضعها فريق من المؤيدين الأحرار لقضيتنا، وذلك أحسن برهان على قيمة تلك المطالب التي جاءت في الوقت المناسب لعلاج الحالة بالمغرب.

ولعلنا لا نعرف شعبا اعترف له بمطالبه في مدة وجيزة مثلما اعترف لشعبنا المغربي بمطالبه؛ وإن لم ينفذ من تلك المطالب لحد الساعة شيء مهم، فإن ذلك راجع إلى سيطرة الرجعية أكثر من أي شيء آخر. ومتى هيأت الأقدار تراكم القوى الرجعية المسيطرة على شؤون بلادنا، ستتجه إذاك الحكومة إلى درس تلك المطالب درسا عمليا يتبعه التنفيذ في أهم الجزئيات.

على أنه من جهة أخرى نرى الصحف الاستعمارية تغتنم كل فرصة تعرض لها لتشوه حركتنا وتلصق بها أشنع التهم، فليس معنى ذلك أن تلك الصحف تجهل مرامي حركتنا ولا تعلم براءتها من تلك التهم، بل انها تتعمد نشر تلك الافتراءات لتضليل الرأي العام الافرنسي لتخدم بذلك مصالح النفعيين وتجعل عطف المؤيدين لحركتنا من الأحرار بعيدا عن كل تنفيذ لمطالبنا الحقة المشروعة لأن في ذلك التنفيذ ما يزعزع مصالحها ويتعارض مع سيطرتها التي لا تستمد إلا من خمول الشعب المغربي وضعفه.

الحق لا يعدم أنصارا

بالرغم عن كل الوسائل التي اتخذتها الإدارات لحصر دعايتنا في دائرة محدودة فحرمت على المغاربة الصحف العربية والفرنسية زمنا طويلا واستعدت الصحف الاستعمارية لمحاربتنا وإلصاق أشنع التهم بحركتنا البريئة، فإن الحق لا يعدم دائما وأبدا أنصارا يؤيدونه ويدافعون عنه، ولم تكن حركتنا إلا حقا واضحا ولم تكن مطالبنا إلا مطالب أمة ولم تكن اتجاهاتنا إلا لمصلحتها والدفاع عن حقوقها، لذلك سرعان ما أيدنا المخلصون الأحرار من الفرنسيين أنفسهم ودافعوا عن قضيتنا بعد أن أوضحنا لهم مرامينا وأفكارنا فأغرضوا عن كل الأكاذيب التي تلصق بنا والتي علموا الغاية من ابتداع المستعمرين لها.

وهذه حوادث مكناس حاول الدساسون أن يغتنموها ليشوهوا بحركتنا ويزيفوا خطتنا وينسبوا لنا ما نحن منه برآء، ولكن جميع تلك المحاولات وكل تلك الحملات لا تؤثر على الذين عرفوا حقيقة مطالبنا ولمسوا صحة خطتنا وتفهموا عدالة قضيتنا فرأيناهم في الصف الأول يواجهون الفرنسيين المقيمين بالمغرب ويحاولون إقناعهم بحسن نيتنا ويصورون الحوادث لهم بصورة حقة لا أثر للتشويه فيها.

قد نشرت « مروك سوسيالست » و « بيي سوسيالست » و « دبيش دو فاس » مقالات كلها تنطق بالصدق وتعلق على الحوادث تعليقات في غاية النزاهة.

وكذلك في فرنسا، فإن الصحافة اليسارية لم تغرها الدعاوي الباطلة ولا التهم الزائفة التي ألصقتها بنا الصحافة الاستعمارية فبعثت مراسلين للمغرب يستطلعون الحالة ويشاهدون الواقع بأنفسهم وعلقت على الحوادث بما يدعم موقفنا ويجعلنا لا نيأس من الأفرنسي الحر.

من جملة هؤلاء المراسلين م. باز والسيدة زوجته التي هى من لجنة الرعاية لمطالبنا المغربية

وهى من أعضاء لجنة البحث في بلدان الحماية والمستعمرات ومحررة في جريدة « بوبلير » اللسان الرسمي للحزب الاشتراكي، فقد نشرت مقالة طنانة تشرح فيها الحالة وتصف مشاهداتها بقلم بليغ.

ونحن ما دمنا نجد من أحرار فرنسا هذه العناية وهذه الصراحة فإننا لا نعدم الأمل ولنا اليقين أن قضيتنا ستنتصر بالرغم عن كل افتراءات الصحف الاستعمارية وأن الحقيقة ستنجلي لعموم الأفرنسيين وسيعلمون مرمى حركتنا الوحيد الذي هو خدمة الشعب المغربي خدمة بعيدة عن الأغراض، والتعاون مع الحكومة لتلك الغاية وحدها.

حاجتنا إلى الحرية

الملحق الثقافي لجريدة المغرب - السنة الثانية - 1938

يمتاز العصر الحاضر بأن الإنسان متع نفسه بحرية لم تكن له بالماضي في مختلف نواحيه، وبذلك تقدمت الحياة الإنسانية خطوات شاسعة سواء في ميدان الإنتاج الفكري أو الإنتاج المادي، وخضعت كثير من القوى للإنسان بعدما كان يخضع لها، واتسع أفق المعرفة وشمل المناحي الخفية في النفس، وأحدثت مقاييس جديدة تقاس بها المسائل جميعها، فالأخلاق تلبست صورا جديدة، والمعاملات خضعت لتأثيرات جديدة، والأنظمة تغيرت وصورت حسب ذلك المقدار من الحرية الذي أحرز عليه الإنسان في حياته الجديدة. ولم يبق ذلك النصيب من الحرية تحت رحمة الظروف وانقلابات الفكر وعوامل السياسة وتأثيرات الاقتصاد، بل أصبح حقا لا يمس وفكرة لا تقبل الشك مهما تلونت حياة المرء واصطبغت تحت العوامل المشتركة في الأمة باتجاهات جديدة، ذلك أن الحياة نفسها تقدمت لا بعض صورها الظاهرة فحسب فالأمم اليوم مجموعة أفراد هذبهم التعليم وأزاح عنهم أستار الجمود ولفائف الرجعية التي كانت حتى الأمس القريب تحول بينهم وبين المعرفة الحقة والنور المبين، وبذلك أصبحت الجماعات تشارك في إدارة شؤونها لا تسلمها لهيأة إلا تحت شروط ولغاية واضحة، وأصبحت تلك الهيأة نفسها وقد رقت بفضل التطورات العامة وأثر عليها المجرى العالمي لا تفكر إلا في إرضاء تلك الجماعات وخدمتها خدمة صادقة، فإن أقوى المسيطرين المستبدين اليوم لا يخدمون مصالحهم بل يخدمون الأمة التي سيطروا عليها ويعلنون ذلك في كل مناسبة ويبرهنون عليه بمجهوداتهم، وهم لو حاولوا غير ذلك لسقطوا من يومهم ذلك لأن المستوى العام في كل أمة متمدنة أصبح يدرك حقوقه لا يسمح بالتنازل عن جزء منها وأصبح يقدر واجباته فلا يغفل عنها. ذلك في أمة تطورت واعترفت لنفسها بذلك النصيب من الحرية؛ أما في أمة لا زالت أغلال

الجمود تقيدها وعوامل الرجعية يحيط بها كأمتنا، فإن حياتها ذابلة قاتمة، وخطواتها هى إلى الوراء لا إلى الأمام، ذلك لأنها في جو مخنوق من الحرية التي هى الهواء الضروري لكل الأمم الحية اليوم؛ ومتى استطاعت الحياة الجسمية أو النباتية أن تحيا دون هواء حتى تستطيع أمتنا أن تحيا دون حرية؛ فإن الحياة العديمة الهواء النقى تنمو مستنقعاتها، وتتنوع جراثيمها، وتكثر حشراتها حتى تصبح منبع الفساد لما يجاورها؛ وهكذا حياة المغرب اليوم تعددت مفاسدها، واختلت أنظمتها، وانحطت مقاييسها، ذلك أنها تعدم الحرية فتعدم هواء الأمم التي يحوم في سمائها الموت ويسرع إليها الفناء. والحرية التي نحن أحوج الأمم إليها لا تتصل بناحية واحدة من نواحي الحياة بل ينبغي أن تشمل كثيرا من مرافقنا الاجتماعية وأنظمتنا السياسية وهيئاتنا التعاونية واتجاهاتنا الفكرية ومقاييسنا الفنية؛ فإن شبح الجمود والاستكانة يخيم بجناحيه في أية جهة نولي وجهنا إليها، فأرقانا فكرا لا يقوى على انتقاد للجماعة التي يعيش بينها، وأجرانا رأيا لا يستطيع أن يتحمل انتقاد الغير برباطة جأش وسلامة طوية ليستفيد من ذلك الانتقاد ويقوى ناحية الضعف فيه. وفي مناحي حياتنا الأخرى لسنا في جميعها إلا عبيد عادات ومسخري خرافات ومنقادين لتيار حيث تنعدم الحرية الفردية والاجتماعية وحيث نكون أجساما لا تبيح لنفسها أن تنتقد ولا أن تفكر بطريقة من طرق التفكير؛ فنحن نمارس ما نمارس من الحياة بصورة آلية، فإذا سمعنا صيحة هلعنا، وإذا انتقدنا غضبنا، وإذا أردنا إصلاحا تخوفنا. فالنقد عامل مهم في تكوين حضارة العصر وهو الطريقة الوحيدة للإصلاح، يجب أن نرحب به ونفسح له كل ميادينا ليلقى عليها شعاعه، وبذلك ندرك قيمة الحرية وخطورتها؛ فإن النقد إذا كان أساسا لكل إصلاح فإنه لا يمكن أن يوجد ما دمنا نحول بيننا وبين الحرية ولا نسمح أن يعيب علينا الغير أخطاءنا ويستهجن أحوالنا غير المرضية، بل نشن الغارة ونعلن حربا على كل أحد انتقدنا. فإذا تعشقنا الحرية فلنعود أنفسنا أولا عليها، ونقدر للنقد قيمته الحقيقية ونعتبره الطريقة المؤدية إلى الإصلاح والسبيل الممهد للحياة العصرية.

حول الحريات العامة

سعيد حجي

ألقيت هذه الكلمة في تجمعات « كتلة العمل الوطني » سنة 1936 تأييدا للمطالب المستعجلة التي تقدمت بها الكتلة إلى المراجع المختصة.

الحمد لله

سادتي،

توالى الخطباء على هذه المنصة وسيتوالى بعدي خطباء آخرون يشرحون ما تطلبه الأمة المغربية من إصلاحات جمة تتناول مظاهر حياتها المختلفة، ففي هذا الجمع العظيم، جمع أمة تؤيد أبناءها العاملين لخيرها والساعين في تطوره يجب أن تعرض على بساط البحث أية ناحية من النواحي الجمة المفتقرة إلى نور الحياة الوهاج وحرارة شمس تميت هذه الحشرات التي تفتك بأمتنا أشنع فتك وتتجه بها إلى الموت الزؤام.

غير أنه مهما اقتنعنا بضرورة ما سيعرض له خطباء هذا الجمع الحاشد من مطالب مستعجلة وإصلاحات ضرورية فإن جميع ذلك ولو نفذ يظل جسما من دون روح وصورة من دون حياة، سيظل كل إصلاح يدخل الحياة المغربية وأى تنظيم يشمل الشؤون الإدارية والاجتماعية ألفاظا جوفاء على صفحة بيضاء، ستظل تلك الإصلاحات وتلك التنظيمات عديمة الجدوى ما دام هذا الوسط المغربي مخنوق الحرية، مسلوب الإرادة، ما دام هذا الوسط المغربي تحوطه مظاهر الإرهاب، وتستولى عليه فكرة الاستبداد والاستعباد، وتساس شؤونه في ظلام دامس، وتدار أموره في ليل بهيم.

فالمغرب اليوم مغرب مشوه الخلقة، لا يسير في طريق الحياة الزاهرة، بل يتدرج من حياة ذابلة إلى ضعف وهزال سيلازمانه دهرا طويلا سببهما فقد الحرية التي هى العنصر الأساسي للأحياء، حرية تمتزج مع النفوس لتبين عن صلاحيتها، حرية تشمل سائر مظاهر الفرد والمجتمع وتتناول شؤون الجماعات والهيئات إذ أن المغرب عديم أي نوع من أنواع الحريات الخاصة والعامة، أي نوع من أنواع الحريات المدنية والسياسية، فما زالت أموره تسير بالرغم عنه، تتحكم فيها الوساوس والظنون وينعدم بين أبنائه ورجالاته حسن الاتجاه. المغرب اليوم هو البلاد الواحدة التي تخضع لمراسيم جائرة، صيغت بسوء نية وعوائد وضعت في عصور مظلمة.

فنحن قبل أي شىء وقبل أن نسعى في وضع أنظمة نود أن نأخذ نصيبنا من التحرر السياسي والاجتماعي والاقتصادي، نصيبنا من هذا الهواء العليل الدي يسري في الجسم فإذا هو حى نشيط، وإذا الأعضاء عاملة ساعية لفهم المرحلة الجديدة التي ستدخلها الحياة المغربية، فنحن أحوج الجماعات إلى الحريات الخاصة والعامة لنتصور جيدا قيمة الإنسان في مجتمعه ووسطه وصلاحية الفرد في إدارة شؤون الجماعة.

على أن الحرية السياسية هى مصدر الحريات الأخرى، هى أساس الشعور الذي يخالج المرء ليدافع عن مطالبه وليؤدى واجباته راضيا مطمئنا. الحرية السياسية هى دعامة الحياة العصرية ترشد الأمة إلى سبل النجاح وتنير للأفراد سر تأليف المجتمع، وسر تضامنه، وتردع المسيطرين عن الاستبداد والجور، وترفع أنة المظلوم، وتذيع زفرات البائس المعدم، وتحمي الخائف الوجل من سلطة الإرهاب التي تعم مصائبها في وسط متى عدمت الحرية فيه، تعم مصائبها وفواجعها في بلاد حيل بينها وبين أن تتمتع بحقها المسلوب، ونصيبها من هواء الحياة الضروري للنمو والازدهار. وأبرز مثل نجده عن فواعج الحياة المسلوبة الحرية وعن مصائبها ودواهيها هذه البلاد المغربية التي لم يسمح لها بعد أن تعيش في العصر الحاضر، ولم يسمح لها بعد أن تتنفس من هواء الحرية ما يحيي جسمه ويزيد في عضلاتها

متانة، بل أصبحت مسرحا بفقد الحرية لصور من الجبروت والجشع لا أثر لها في بلاد أخرى وميدانا للمظالم والمخازي تعدم في غير هذا البلاد.

فمغربنا، أيها السادات، عجيب أمره، غريبة شؤونه، حافل بما يتصور في ذهنية المرء وما لا يتصور من تصرفات شاذة، ومظالم متعددة، وإرهاقات لا تتحملها النفس الأبية.

فأى بلاد اليوم تحرم من صحافة تدافع عن مصالحها وتوضح اتجاهاتها وتطوراتها؛ أى بلاد تعدم فيها الجمعيات ولا يسمح تأسيسها مهما كان الغرض منها؟

وأى بلاد تمنع فيها الاجتماعات وتموت فيها الحرية الخاصة نفسها؟

أى بلاد من بلدان العالم اليوم تعامل نفس هذه المعاملة وتمنع من رفع ألمها مهما اشتد ومهما تأصل داؤه؟

أى بلاد من بلدان العالم اليوم تطالب بأتفه المسائل فإذا الإجابة غير الطلب بل الإمعان في سياسة الظلم والإجحاف؟

أى بلاد من بلدان العالم تعطى فيها صلاحية واسعة لأصغر موظف ليستبد وليتعسف في الجمهور وهو لا يخشى من مسؤولية ولا تفتيش؟

أى بلاد يزج أبناؤها في السجن فرادى وأزواجا وجماعات دون جريمة، بل تمشيا مع سياسة اماتة النفوس ومحاربة الرجولة في جميع صورها؟

أى بلاد تفشت الرشوة فيها لنيل المطالب الشخصية وسير دولب الأعمال؟

مصائب المغرب أيها المغاربة جمة؛ مصائب المغرب إخواني شنيعة لا تحصى حان زمان إعلانها، حان زمان إذاعة صورها ونشر أخبارها، حان زمان تسطيرها وتقديمها للمعمور ليرى العالم أجمع في أي عصر من عصور الانحطاط والظلم تعيش أمتنا وأية معاملة تعامل بها وأي فساد ينخر في جسمها وأي مصير نراها سائرة إليه بخطوات واسعة.

وأول ما نطالب به إيجاد صحافة مغربية تعبر عن الرأي المغربي؛ والصحافة التي نطالب الآن بها والتي سنوجدها مهما ضحينا في سبيلها ومهما حيل بيننا وبينها، هى اليوم الوسيلة

الواحدة لتعيش أمتنا تحت الشمس محافظة على وجودها، حريصة على حياتها؛ بالصحافة وبالصحافة وحدها ستنال أمتنا الخطوة الأولى في سبيل إزاحة هذا الستار الذي يحول بين أمتنا وبين النور، فإذا صممت أية سلطة على محاربة هذه الوسيلة الفعالة فسنهدم هذه السلطة، وسنريها بأجلى بيان أننا شعب جدير بالحياة، وأننا لا نرغب في الحياة إلا أحرارا، وأننا لا نستطيع بعد الآن أن ندع الوسط المغربي في هذا الجو المتسمم، وأننا سنجاهد في سبيل إعلان هذه المساوئ وهذه المصائب النازلة بالشعب المغربي جهادا شريفا شرعيا حتى ينبلج الصبح وحتى يطهر هذا الوسط من أدراج الظلم والجور والاستبداد. فلنستعد جميعا ليوم الفصل لنيل حريتنا في الجهر بما نطالب به وبما نحرص عليها لنيل حريتنا بيدنا، فاسمحوا لي أن أعلن في صراحة وجرأة أنكم أحرار متى شعرتم بإحساس الحرية يحتل حيزه من نفوسكم ويتغلغل في مشاعركم، فكل إصلاح وكل تنظيم ربما يعطى، ولكن الحرية لا تعطى بل تؤخذ أخذا. فلن ننتظر، إن جوهر الحرية الثمين يهدى إلينا ونستمتع بخيراته من دون أن نقدم الثمن غاليا ونحرص حرصا شديدا على نصيبنا من الهواء الطلق بين الأحياء. ففي متناولنا أن نحرز على هذا النصيب من الحرية متى استعددنا لإحرازه ومتى بذلنا النفس والنفيس في سبيل هذه الغاية السياسية التي نعلن جدارتنا بها بمثل هذه الاجتماعات السياسية التي هى ميدان الأحرار.

فحرية الصحافة وحرية الاجتماعات والجمعيات هى الخطوة الأولى ليتطور الشعب فتخفف المصائب المتوالية عليه وتتحسس نوعا ما حياته التي هى اليوم تمثل البؤس والخضوع.

فباسم كتلة العمل الوطني التي هى لسان المغاربة عموما والوطنيين خصوصا نطالب في هذا الجمع الحاشد بنصيب الشعب المغربي من الحرية التي هو جدير بها.

والأمة المغربية عيل صبرها من تحمل هذه التدابير الزجرية وهذه القوانين المضادة لأية حرية وعدالة. عيل صبرها وآن لها أن تنفض عن نفسها ما تشاء من حوائل شاذة وحواجز تحول بينها وبين النور.

لجنة المطالبة بالصحافة العربية الحرة بالمغرب

نص المنشور الذي أذاعته على الشعب المغربي لجنة المطالبة بالصحافة العربية المنبثقة عن كتلة العمل الوطني حيث كان سعيد حجي أحد أعمدتها الثلاثة.

« منذ دخل المغرب في طوره الجديد، وأبناؤه في كل فرصة ومناسبة يطالبون بصحافة عربية، تساعدهم على فهم المرحلة التي ينتقلون إليها، وتعبر عن الرأي العام إزاء ما يجري من حوادث، ويتوالى من ظروف، فبالرغم عن الطلبات العديدة التي قدمت طبقا لقانون الصحافة، لم تسمح السلطة لحد الآن بإنشاء صحافة عربية مغربية، بل رفضت كل طلب بتأسيس جريدة كيفما كان اتجاهها، سواء سياسيا أو إخباريا أو أدبيا أو ثقافيا. وهكذا ظلت جميع النواحي المغربية بطيئة التطور، لا تساير الحضارة في أي مظهر من مظاهرها، وظل الشعب المغربي لا يستفيد من أنظمة تطوره الجديد إلا عرضا وبمقدار يسير. فالصحافة اليوم هى الوسيلة الواحدة لربط علاقات الفرد بالمجتمع، وإيضاح الصلات بين الأمة والسلطة، لأنها تساعد على إيجاد جو تفهم منه الجماعات اتجاهات الحكومة، وتدرك الحكومة أماني الشعب. فأمام رفض الحكومة لكل تلك المطالب الفردية التي تواترت عليها، خصوصا في المدة الأخيرة، رأينا من الضروري أن نوحد الجهود الفردية، ونؤلف لجنة ممن سبق لهم أن سعوا في رخصة لإنشاء صحيفة عربية بالمغرب، وستعمل هذه اللجنة بكل الوسائل المشروعة على فتح باب الصحافة بهذه البلاد حتى يحرز أهلها على نصيبهم من الحرية التي هم جديرون بها، تحت ظل النظام والعدالة، معتمدة في عملها على الشعب المغربي الذي يقدر أهمية الصحافة في مجتمعنا الحاضر، والذي ما فتئ منذ سنوات ينشدها لتؤدى مهمتها في هدوء ومثابرة، والسلام ».

في متم جمادى الثانية 1355 - 17 شتنبر 1936

ابراهيم الكتاني　　سعيد حجي　　محمد اليزيدي

مشروع لفتح باب الصحافة

من وضع سعيد حجي تدعيما للخطة التي نهجتها لجنة المطالبة بالصحافة العربية بالمغرب

ينص المشروع على ثلاث نقط تتعلق أولاها بكيفية فتح باب الصحافة، والثانية بأنواع الصحف التي ينبغي التفكير فيها والعمل لها، والنقطة الثالثة بعرض للسياسة التي يجب نهجها في الصحف العربية الحرة بالمغرب. إلا أن المصدر الذي أتى بهذا المشروع - وهو كتاب الأستاذ أبي بكر القادري عن سعيد حجي (ج 1 ص 32 - 34) يلاحظ أنه لم يتحدث عن السياسة التي ينبغي نهجها إما لأن صاحب المشروع أغفل هذه النقطة عن عمد أو لأن النص الأصلي للمشروع ربما ضاعت منه بعض الأوراق. وفيما يلي نص التخطيط للنقطتين الأولى والثانية:

ο كيف يفتح باب الصحافة

- تقديم طلبات لا تنقص عن خمسة لإصدار صحف عربية
- تكون تلك الطلبات لإصدار الصحف سياسية وغير سياسية
- ترسل الكتلة الوطنية رسالة إلى المقيم العام في ضرورة فتح باب الصحف العربية وإيضاح عن النفسية المغربية
- إصدار صحيفة أو صحيفتين بالفرنسية، وتخصيص مقالات ضافية عن ضرورة إنشاء صحف عربية
- مواصلة إصدار مجلة « مغرب » بباريس وتخصيص عدد خاص بمسألة الصحف العربية

- بعد أن يصل جواب السلطة بالرفض يؤلف المطالبون بالصحف لجنة للدفاع مؤلفة من أربعة أفراد، تقدم بنفسها مذكرة لجلالة السلطان والمقيم العام تشرح فيها الحالة
- تذيع تلك اللجنة بيانا على الشعب تضمنه مذكرتها للسلطة بعد تقديمها بأسبوع
- ترسل تلغرافات إلى المراجع العليا، مؤيدة اللجنة في عريضتها ومطالبة بحرية الصحافة
- إذا لم تجب السلطة بعد شهر، ترسل اللجنة مذكرة ثانية قوية اللهجة، تحتج على إهمال السلطة لهذه النقطة الخطيرة
- تكون المواصلة بين المدن دائمة لإيضاح كل أعمال اللجنة وإذاعتها بين طبقات الشعب
- إذا لم تلب السلطة مطالب اللجنة ترسل عريضة إلى جمعية الأمم وسفراء الدول والصحف الأجنبية
- إذا ألقت السلطة القبض على أفراد اللجنة، تؤلف لجنة ثانية في الحين وتعلن عن نفسها أمام الشعب والحكومة وترسل تلغرافات احتجاج إلى المراجع العليا
- ترسل إلى اللجنة من عموم طبقات الشعب تلغرافات تأييد، وإلى السلطة تلغرافات احتجاج ومطالبة بالصحف
- ترسل اللجنة الثانية مذكرة ثالثة توضح المسألة، وتذيع بيانا على الصحف عن مطالبة المغاربة بالصحف
- إذا وقفت السلطة موقفا سلبيا بالرغم عن كل ما تقدم، وألقت القبض على اللجنة الثانية، تذاع من جماعات خفية نشرات مختلفة توضح بجلاء سياسة

المستعمرين ونواياهم ومظالمهم وفضائحهم

- تذاع الإشاعات المتعددة عن اتجاهات السلطة، ويبذل كل مجهود في الإساءة إلى سمعة الفرنسيين بالمغرب

- مكاتبة الصحف الأجنبية بأشد لهجة عن أعمال السلطة الفرنسية بالمغرب

- إذاعة بيان يترجم إلى أهم اللغات الأوربية يرجو فيه الشعب المغربي من صحف العالم أن تهتم بأخبار المغرب المظلوم المخنوق، ويمضى من أكبر عدد من المغاربة

- بعد كل ذلك تبذل المجهودات لإقامة مظاهرات ، وتنبيه الجماهير وتحميسها، والخطابة في المساجد، ويدخل السجن أكبر عدد ممكن، وتسافر في تلك الأثناء هيأة للدعاية في الخارج

◦ أنواع الصحف التي ينبغي أن نعمل على إصدارها

- صحيفة عربية وصحيفة فرنسية تكونان لساني الكتلة الوطنية، وتكون لهجتهما رزينة، لا تتعرض للشخصيات، ولا تتكلم في الغالب إلا على المسائل الرئيسية التي تهم القضية المغربية، ونسعى دائما أن نتجنب منع السلطة لهما.

- صحيفة متطرفة في الوطنية تعبر عن الفكرة الوطنية، ويتحمل أفرادها مسؤولية ما ينشرون

- صحف إخبارية لا تختلف مع المبدإ الوطني، ولكنها تسعى دائما ألا تنتقد أعمال السلطة، بقدر ما ينبغي لها أن توضح الحالة السياسية والاقتصادية في المغرب والخارج.

- صحف أو مجلات ثقافية لا تتعرض للسياسة، بل توجه كل اهتمامها للتجديد الفكري والإصلاح الاجتماعي والتطور الاقتصادي

خطة جريدة « المغرب » ومرماها

« المغرب » - السنة الأولى - العدد الأول للسلسلة التي صدرت موقتا ثلاث مرات في الأسبوع - الجمعة 4 صفر عام 1356 موافق 16 ابريل سنة 1937

فاتحة

جرت عادة الصحف أن تفتتح عددها الأول بكلمة عن خطة الصحيفة ومرماها، ونحن وإن كنا نفضل أن تتحدث أعداد الصحيفة عن نفسها لا يسعنا إلا أن نلقى نظرة وجيزة على خطة هذه الجريدة. فالفكرة التي أسست من أجلها فكرة واضحة لا تحتاج إلى كثير شرح ولا إلى مزيد بيان، فكرة ترمي أولا وأخيرا إلى أن تحيا هذه الأمة في مستوى لائق بها وبتاريخها واستعدادات أبنائها، وتتقدم كما تقدمت كل الأرض في ميدان المدنية والرقي الصحيح.

تلك فكرة الجريدة الأساسية وهى فكرة نرى أنفسنا في غنى عن الإطالة في إيضاحها ما دام أبناء المغرب المستنيرون جميعا يتفقون عليها، بل إن الشعور بالحاجة إلى التطور بالأمة والسير بها خطوات إلى الأمام شعور عم جميع الطبقات المغربية التي لا تحصر تفكيرها في دائرة جسمها الضيقة.

فالصحيفة لا تطرق ناحية دون أخرى، بل تهتم بجميع نواحي الحياة المغربية المتطلبة للإصلاح وتعنى بمسائله الحيوية وتوجه اهتمامها الأول إلى الناحية الإخبارية؛ فالصحيفة تؤمل أن تصبح لسان المغرب الحقيقي الذي يذيع أخباره ويعبر عن كل ما يدور في أوساطه ويوضح جميع اتجاهاته ورغباته ويشرح لعامة الأفراد المسائل الخارجية بوضوح

وجلاء حتى تماشى انقلابات العالم وحوادثه بصورة غير مشوهة ولا مبتورة، بل بصورة حقيقية لا أثر للمبالغة فيها.

وفي الناحية الاجتماعية تبذل الصحيفة جهدها لكي يتحرر المغرب من كثير من العوائد الجامدة المضرة المنافية للشرع والطبع، وذلك بإيضاح المفاسد وشرح الأدوية الناجعة وبالتبشير لنشر الثقافة الصحيحة.

وفي الناحية السياسية تعمل على أن توجد صلات تفاهم بين الشعب والحكومة أساسها الأول تبادل الثقة وتقدير كل طرف للآخر تقديرا يناسب روح العصر؛ فللمغرب حقوق سياسية لا بد، مهما طال الزمان ومهما حيل بينه وبينها، أن يدركها ويحرز عليها، حقوق سياسية ترمي إلى أن يصبح الفرد ذا كرامة والجماعات ذات سلطة والحكومة في مركزها المحترم تدير الشؤون العامة لمصلحة الجميع.

وفي الناحية الاقتصادية ستهتم بدرس مشاكل المغرب وأزماته واضطراباته المالية وتنير السبيل أمام النشء الحديث ليقتدى بالأمم الأخرى في الميدان الاقتصادي الواسع أمامه فيعمل بأساليب العصر ليتحرر من قيود الخمول التي كبلته أمدا طويلا، وبذلك ينتج كثيرا أو يستهلك كثيرا وتعيش أمته في أرغد حياة.

وفي الناحية الفكرية ستفسح مجالها لشيوخ المغرب المطلعين وشبابه المثقف وتكون ميدانا فسيحا لآرائهم ودراساتهم وإنتاجاتهم العقلية وتربط الصلة بينهم وبين مفكري البلدان المتحدة معنا في اللغة والاتجاه.

ةلك هى آمالنا ومرامينا في تأسيس هذه الصحيفة، فإذا ساعدنا المخلصون العاملون ومدونا بآرائهم وأفكارهم وانتقاداتهم، فالصحيفة ولا ريب ستؤدي مهمتها في ظل عرش يحميه الجميع وملك شاب يتطلع إليه الجميع له النصر الدائم والعز المكين.

فلنسر على بركة الله ولنخط طريق الحياة لهذه الصحيفة بعون الله.

حرية المناقشة

أهم ما ينبغي أن تتجه إليه الأنظار في الوسط المغربي وأن يعمل له بالجهود تلو الجهود نشر الحرية في التعبير ونقد ما في مجتمعنا من صور بالية ومظاهر جامدة ، فإن حياتنا أصبحت لا تمثل إلا الأشباح ولا تنتج إلا السفاسف، ومن شأن النقد أن يزيف هذه المظاهر الكاذبة وأن يبطل شأن الدعاوي الفارغة التي تحتل أدمغتنا. ذلك النقد يجب أن يتصل بجميع جزئيات حياتنا فيعرفنا كيف نمجد الحق وكيف نعرض على أي باطل مهما زين مظهره ومهما حاول أن يجذب إليه جانب الطمع في الإنسان ليستغل ضعفه البشري ويعتلي منصة المجد الواهي الذي لا يدعمه إلا مظاهر الفخفخة الفارغة وأساليب الخداع الباطلة، فإننا في عصر لا تقدر فيه المسائل إلا بحقيقتها. وإذا كانت الصحافة في المغرب حديثة العهد فإنه يجب أن تمثل خير تمثيل هذا الاتجاه الجديد وأن تفسح مجالها لنقد مظاهر الوسط الخاملة وتزييف هذه الصور السطحية التي تريد أن تأخذ من حياتنا الحظ الأوفر فيساهم كل متعلم في نقد ما يشاهد من ويلات الوسط ويفصح عن رأيه بصراحة. ولكن يجب أن تكون حرية المناقشة في دائرة الأفكار لا دائرة الأشخاص، وأن يشمل النقد مظاهر الحياة وصورها الجامدة لا التعريض بشخصيات وانتهاك حرمة الأدب في المناقشة بين الكتاب، فإن من شأن الكتابة عن الأشخاص أن تخرج المناقشة إلى مهاترات والحجة إلى سباب، فتضيع الفائدة ونخسر ما نؤمله من الحرية لإصلاح أحوالنا. على أنه من الواجب أن نحاسب أشد حساب الأشخاص الذين يسيئون للوسط فننقد أعمالهم ونزيف دعاويهم ونبطل أوهامهم دون أن ندخل في جزئيات شخصية تتصل بهم مباشرة وليس من شأنها أن تضر المجتمع عموما. و « المغرب » ستظل بحول الله تقبل بارتياح نشر ما يصلها من نقد الأفكار والنظريات وتعرض عن المجادلات الشخصية وترجو من كتابها الأفاضل - وهي ترحب بجميع ما يرسلون - أن يتجهوا في كتابتهم هذا المنحى.

نزاهة الوطنية المغربية

سألني صديق لماذا لا أرد عل افتراءات نشيرة صدرت ضد الشباب الوطني وضد الوطنية المغربية، زعم فيها صاحبها ما شاء له هواه، وشوه فيها الحقائق تشويها يدل على ما تطويه نفسه من شر وما يرمي إليه في تلك النشيرة الهزيلة من مقاصد مغرضة ونوايا خبيثة. والحق أن كل جريدة تحترم نفسها لا يمكن أن تجادل هذه الترهات، وإنما يجب أن تعرض عنها إعراضا، فإن تأثير تلك النشيرة معدوم تماما إذ أن الوطنية المغربية رسخت في النفوس وعرف جميع المغاربة مراميها واتجاهاتها، وهم يعرفون بطبيعة الحال أن كل مناوئ لها لا يخدم إلا مصلحته الشخصية ولا يسعى إلا لغاية غير شريفة.

فهل في الوسط المغربي من يستمع إلى تلك الافتراءات ولا يهزأ منها ولا يقهقه منترهاتها؟ فالرد يستلزم الخوف من أن تسيطر مثل تلك الآراء السخيفة على بعض الناس، أما والكل يعرف نزاهة الوطنية المغربية ويتحقق من سمو اتجاهاتها وسديد خطتها ويدرك أحقية مطالبها ويعرف من تاريخها ما يشرفها فإن الإعراض عن تلك الترهات هو الوسيلة الوحيدة لتظل حروفا على ورق وصفحات مطوية بعضها فوق بعض.

إن الوطنية المغربية في أول يوم من تكوينها اعتمدت على روح الإسلام المثلى فاستمدت منها دفتر مطالبها وبرامجها ولم يكن ذلك الاتصال الوثيق بين الروح الوطنية المغربية وبين روح الإسلام نتيجة تعصب ديني ولا جمود فكري، بل كان نتيجة دراسة، فتعاليم الإسلام تجمع بين الناحية الروحية الخالدة وبين الناحية العلمية الواضحة، فهي دستور من أحسن دساتير شلحسياشة والوطنية المغربية المتعلقة بالإسلام تتشبت به لأنه يصلها بماض حافل ومجد خالد، ولأنها في الأول والأخير وطنية مسلمة إسلاما صحيحا لا يتنافى مع روح العصر ومع الاهتمام بالحياة ورفع شأن الأمة ونشر المعرفة الصحيحة بين

جماعاتها. فليختف من ينسب للوطنية المغربية غير هذا، فهو لا يعرفها وجدير به أن يقرأ ألفها وباءها إن أراد أن يقترب منها.

إن هذا الافتراء على الوطنية بمحاولة إيجاد خلاف بينها وبين الإسلام من مغربي يشابه الافتراء الآتخر الذي يحاول أن ينسب نشاطها لمجهودات أجنبية، فإن بعض المغرضين أراد تشويه الحقائق فحملوا على الوطنية المغربية حملات شعواء ونسبوا إليها افتراء الاتصال بمؤثرات أجنبية ، ولكن سرعان ما تلاشت تشويهاتهم وتبخرت مزاعمهم واتضح للكل وانكشف للجميع أن الوطنية المغربية لم تكن ولن تكون في يوم ما تستمد قوتها إلا من قوة مغربية هى الإيمان الذي يسيطر على النفوس للعمل على خدمة المجموع ورفع شأن البلاد وإن لا شأن لها بأية دعاية أو صلة من الخارج.

إن كل افتراء على الوطنية كان وسيكون دائما لا عامل تهديم ولكن عامل استقرار؛ فإن الحق لا يختفى ومن شأن كل افتراء أن يدفع طائفة من الناس ليعرفوا ذلك الحق معرفة صحيحة، ولم تكن الافتراءات في التاريخ على العاملين لمثلهم العليا إلا حثا لهم على مواصلة العمل وتقوية الجهود. فليهدأ من يحاول إيجاد اختلاف بين تعاليم الإسلام وبين الوطنية المغربية وليسترح من يغالط نفسه فيزعم أن للوطنية المغربية اتصالا بأي عامل خارجي، فإن هذين الافتراءين أصبح بطلانهما واضحا من شمس في رائعة النهار وأصبح الجميع لا ينظر إليهما إلا بابتسام سخرية. ولن أجشم نفسي يا صديقي مشقة الرد على صاحب تلك النشيرة، فهى أسخف من أن يرد على تفاصيلها الواهية.

هل تؤدي الصحافة المغربية مهمتها؟

المغرب - 25 جمادى الثانية عام 1356 موافق 2 شتنبر سنة 1937 - العدد 52
ومنه أصبحت « المغرب » يومية.

الصحافة المغربية حديثة العهد بالوجود، فهى في مرحلتها الأولى ما زالت تفسح لوجودها حيزا في الحياة المغربية لتصبح دعامة من دعائمها المتينة وتكون منبرا عاليا ينادي منه المصلحون الأمة ويوضحون لها طريق الرشاد ، وبالرغم عن أن الصحافة المغربية في خطوتها الأولى فإننا نستطيع أن نتفاءل بمستقبلها ونعده زاهرا ونعتبرها ستؤدي مهمتها بتوفيق نظرا لإقبال الأمة عليها وتقدير الجماهير لمجهوداتها حتى أصبح الصحافي المغربي ملجأ التشكي وموضع السر من جميع الطبقات وحتى أصبحت جميع المدن والقرى والمداشر وكثير من جهات البدو تمد هيأة التحرير لكل صحيفة مغربية بكلمات إخبارية أو مقالات للنشر بكيفية لم تكن تتصور من قبل.

وبقدر ما يتفاءل الصحافي المغربي بمستقبل مهنته يشعر بخطورة المسؤولية التي تحملها إياه الحياة ، فهيأتها الآن هى التي تساعد الشعب الخامل على اليقظة، وبواسطة صفحاتها يقوم المفكرون بواجبهم إذ يكشفون عن الداء المتمكن من أمتنا ويرفعون صوتها ويعلون كلمتها.

فليس مهمة الصحافة أن تنهمك في تعداد المظالم وسرد المصائب اللتين هما أبرز صورة عن حياتنا كما يعتقد البعض من القراء والكتاب، فيطالب الصحافي بنشر كل ما يرد عليه، فإن فهم الداء وحده غير كاف للعلاج، فواجب الصحافة الأكبر أن تساهم في إيضاح طرق الخلاص من تلك المظالم والمصائب وتفهيم جماهير الشعب كثيرا من نواحي الإصلاح التي

يتطلبها العصر ولا يمكن أن ينهض المغرب من دونها.

فأمام الصحافة المغربية ميدان واسع لدرس النواحي المفتقرة إلى التجديد ومجال فسيح لتفهيم الطرق العملية التي من الضروري أن ينهجها الشعب والأساليب الموافقة لروح العدل والإنصاف التي يجب على الحكومة أن تتبعها لتكون مبتعدة عن هذه الروح التي سادت في جميع إداراتها فتركتها آلة ضرار وفوضى لا واسطة نظام ونفع.

فمهمة الصحافة المغربية عظيمة وخطيرة؛ فعلى الصحافيين المغاربة أن يسيروا في خطتهم ويجتهدوا دائما في تطور مهتهم تطورا سريعا يناسب انقلابات العصر السريعة ليؤدوا مهمتهم الصحافية بصورة ترضي ضمائرهم واتجاهاتهم الإصلاحية أولا، وترضي جمهور الشعب المثقف ثانيا ، وبذلك تزداد الصحافة هيبة في أعين العامة ويعرف الجمهور أنها عامل أساسي لنهضته يخلصه من شوائب الجمود ومصائب الاستعمار فيقوى عطفه عليها وتشجيعه لها.

أميال القراء

(هكذا في النص المنشور، والمراد بهذا العنوان تطلعات القراء وميولاتهم)

المغرب

الأربعاء 23 صفر عام 1356 الموافق 5 ماي سنة 1937

كلما قوى اتصال الصحافي بالجمهور تعرف بنواح شتى من الأفكار والآراء، وتكونت لديه فكرة عن أذواق قرائه وأميالهم التي كثيرا ما تكون متباينة، فإذا كانت طائفة منهم تود من الصحيفة فتح مجالها لناحية ما فطائفة أخرى لا ترتضي تلك الناحية ولا تريد أن تراها تشغل ولو حيزا صغيرا في الصحيفة. ومع هذا التباين فالصحافي يود دائما لو يرضي الجميع، فتراه بين الحين والآخر يسأل القراء عن آرائهم في محتويات الصحيفة ويسعى أن يكون طبق رغبات أغلبيتهم، ولكن ليس معنى هذا أن الصحافي الذي يحترم مهنته ينزل بصحيفته إلى مستوى العامة بل يرفع أولئك العامة إلى المستوى الذي ينشده.

وإذا كانت مهنة الصحافة حديثة التكوين في الوسط المغربي فإنها غير هينة تتطلب مجهودا في التوفيق بين أميال القراء واتجاهاتهم لا ريب أنه أشد عناء من مجهودات الصحافي في أمم أخرى لأن توحيد الثقافة في تلك الأمم يعمل عمله في توحيد الاتجاه، وأن المهنة نفسها مورست فتكونت قواعدها التي أدركها القراء وفهم الصحافيون أصولها.

وبعد فصحيفة « المغرب » تود من قرائها لو يوافونها بآرائهم نحو صحيفتهم حتى تستنير بالمفيد منها وتعمل حسبما يتطلبون لرفع مستواها، وبذلك تقوى الصلة بين كتاب كل صحيفة وقرائها وتؤدي الجريدة المهمة التي أسست من أجلها.

ملحق « المغرب » الثقافي

سجل لدبيب اليقظة الفكرية في الثلاثينيات

الملحق الثقافي لجريدة « المغرب »

السنة الثانية - العدد الأول - الخميس 6 صفر عام 1357 الموافق 7 ابريل سنة 1938

كلمة أولى

يتوقف تدعيم مصير بلادنا المغربية على عدة انقلابات في مختلف ميادين الحياة تتجه جميعها اتجاه العصر وتماشي تياراته وتستكنه تطوراته، وبذلك وحده تحتفظ بوجودها وتعمل على استقرار شؤونها؛ فهناك الناحية الاجتماعية التي ينقصنا فيها كثير من عناصر القوة والمتانة؛ وهناك الناحية الاقتصادية التي لا غنى لنا عن تجديد دولبها وتركيز دعائمها على أسس صحيحة وطرق جديدة؛ وهناك الناحية السياسية لبث روح جديد في جماعات الأمة لتقدر حقوقها وتؤدى واجباتها في اطمئنان وسلام؛ وهناك الناحية الأخلاقية حيث تحارب هذه الموبقات التي فشت في وسطنا وهوت به حيث هو الآن. كل تلك النواحي محتاجة إلى عمل جدي متواصل، ولكن ناحية أخرى قد تكون أجدر من تلك النواحي بالاهتمام، ولو - على الأقل - في المرحلة الأولى، هى ناحية الفكر، ناحية الثقافة، حيث لا نرى في وسطنا إلا شبه جهود مبعثرة لا تجمعها فكرة ولا تربطها رابطة. فإن المغرب الذي اتصل بالحياة الجديدة منذ ربع قرن ظل في ميدان الثقافة في مؤخر الدرجات، تستوحي شرذمة من شبابه الثقافة الأفرنسية، فإذا هى غذاء شهى لنفوسهم ولكن لا يقوون على هضم ذلك الغذاء لإنتاج نظير له لا بلغتهم العربية ولا باللغة الفرنسية، وتستوحي شرذمة أخرى من عموم قرائه هذا الإنتاج الفكري العربي المعاصر فتحاول أن

تماثله فتتوفق حينا وتفشل حينا. وهناك طائفة أخرى هى أقرب للثقافة المغربية من الشرذمتين المتقدمتين هى طبقة الشيوخ الذين اتصلوا بماضي المغرب فبذلوا مجهودات في تعريف النشء به بما يصدرون من مؤلفات ويسامرون من أفراد، ولكن يعسر كثيرا أن تلمس من بين ذلك كله مظهرا للثقافة يعمل عمله ويتجه بالفكر المغربي اتجاها معينا واضحا.

على أنه لا ينكر أن التربة المغربية هى من أجود الترب، وأنها مهما قسا الدهر عليها تنبت في كثير من الأحيان نبتا طيبا يوتى أكله في أسرع وقت وبقليل من المحاولات الفعالة. فالمغرب في ماضيه لم يعرف العقم ولم تخل أرضه من مفكرين بارزين وجمهرة من متعلمين نابهين، وهو في دوره الحاضر لا يدعو إلى يأس ولا إلى تشاؤم من نهضة فكرية عامة، ولكن يدعو إلى التفكير في تلك النهضة وتلمس أسبابها والسير بها خطوة من خطوات التوفيق. فلا ريب أنه إذا بذلت مجهودات متنوعة للتوفيق بين تاريخ المغرب الفكري وبين سائر الحضارات العالمية التي تحمل رسالتها ببلادنا طائفة من الأساتذة الفرنسيين وغيرهم سنرى في المغرب دبيبا نحو يقظة فكرية تزيح عن النفس المغربية كثيرا من الصور البالية لتريها صورا جديدة وتكشف لها من مخبئات ماضيها ما هو جدير بالبعث والنشور. وهذا الملحق الذفي يصدر اليوم يتجه في أغلب مناحيه أن يكون مسجلا لذلك الدبيب أملا أن يصبح دبيب اليوم سير الغد المستقيم.

لذلك فهيأة تحرير هذا الملحق تفسح مجاله لجميع المثقفين وترجوهم أن يعتبروه ميدنا للثقافة المغربية في أعم صورها، وهى ترحب بجميع المجهودات لخدمة تلك الثقافة خدمة صادقة وهى لا تتردد في نشر كل مفيد لا يتصل بإحدى الموضوعات التالية:

- السياسة المغربية الداخلية، فتلك ناحية لها صحفها أو يجب أن تكون لها صحفها؛ وإذا خصص الملحق مجالا للسياسة الدولية فليس ذلك إلا لتنوير الرأي العام عن ماجريات التاريخ المعاصر لا يراد بها بتاتا تعليقات أو أحكام عن قضايا الأسبوع العالمية، وكذلك

أخبار الأسبوع ليست إلا سجلا لحوادث مجردة عن أي اتجاه معين.

- وكذلك المجادلات الطرقية والإصلاحية التي ينبغي أن تختص بها مجلات، على أن هذا الملحق سيهتم بشؤون التشريع الإسلامي والمرامي الحقيقية المثلى لديننا الحنيف.

- وكذلك الانتقادات الشخصية المقصودة، فهيأة تحرير هذا الملحق وهى تعلن أن النقد هو عامل مهم في بعث النهضة الفكرية لا تسمح بنشر أي نقد لا يراد به خدمة الحقيقة أو تقويم الذوق الأدبي العام. فانتقادات الأشخاص دون الإنتاج تؤدي إلى مهاترات لا تتسع لها صفحات هذا الملحق.

فالمعذرة سلفا من جميع الذين يتفضلون بإرسال ما ينشر في تلك الموضوعات.

إعادة النظر في طبيعة العلاقات المغربية الفرنسية

ما هى الخطة التي ينبغي للحركة الوطنية أن تهجها على ضوء الاتجاهات الفرنسية الجديدة ليستفيد المغرب من سياسة التفاهم والتعاون التي أعلنت عليها حكومة الواجهة الشعبية؟ ذلك ما استعرضه سعيد حجي في مخطط يتناول الميدان السياسي وميدان الحريات العامة وميدان التعليم، ثم الناحية الاجتماعية فالناحية الاقتصادية.

○ أولا: في الميدان السياسي

- عدم الحملة على الأشخاص إلا إذا اقتضت المصلحة ذلك
- الاعتماد على المشاريع الإيجابية لا على ما ستتخذه الإدارة من مشاريع
- مدح المثل العليا الفرنسية والموظفين الذين يظهرون ميلهم لخطتنا ولو نفاقا
- حصر اهتماماتنا وتفكيرنا ودفاعنا في مشروع خمس سنوات للتعاون
- إعطاء صلاحية واسعة للجنة تجتمع أسبوعيا لتنفيذ هذا المشروع وتتخذ كل القرارات المستعجلة
- تصورنا أننا نخدم أمة، لا نمثل معارضة
- العمل على أن تكون كل مشاريعنا مستمدة من درجة التطور التي وصل إليها الشعب، مقتبسة مما تراه عند الغير، وبذلك تتطور مشاريعنا من أسفل إلى أعلى ولا تسقط من أعلى إلى أسفل
- استغلال الحرية استغلالا شريفا واجتناب أي جدال غير مفيد أو عداوة من شأنهما أن يوقفا مشاريعنا الإيجابية

- السعي في نشر أكبر مقدار من شؤون المغرب نشرا مجردا عن أي اتجاه عدائي نحو الإدارة
- إدخال عنصر المكر والخداع في سياسة وطنيتنا

◦ ثانيا: ميدان الحريات العامة

- تأسيس صحيفة إخبارية يومية بالرباط وفاس
- تأسيس ثلاث صحف أسبوعية للثقافة العامة
- تأسيس صحيفة سياسية مهاجمة
- تأسيس صحيفة تكون لسان الجماعة (معتدلة هادئة)
- إعلان الحزب بصفة رسمية تدريجيا
- تأسيس جمعية للأدباء المغاربة، لها فروع في أنحاء المغرب ولا صلة لها بالشؤون السياسية
- تأسيس جمعية لمساعدة الطلبة
- استغلال كل الفرص والمناسبات لعقد مؤتمرات وحفلات عامة وغيرها ليعتاد ذلك الجمهور المغربي
- السعي في الاعتراف بالجمعيات الرياضية وتنوع رياضاتها.

◦ ثالثا: ميدان التعليم

- تصبح مدرسة جسوس مدرسة ثانوية
- تأسيس مدرسة حرة بمراكش والدار البيضاء ومدرسة ثانوية بفاس
- رفع مستوى المدارس الإصلاحية ومراقبتها

- الاعتراف بالدبلوم في الجامعات الفرنسية
- فتح باب المنح أمام شبابنا
- إرسال عشرة تلاميذ في السنة الأولى، و 15 في السنة الثانية، و 20 في الثالثة، و 25 في الرابعة، و 30 في الخامسة للتعليم العالي في الخارج على نفقة الحكومة ووضع مراقبة عليهم
- نسعى أن نؤسس مدرسة أو مدارس للبنات

◦ رابعا: الناحية الاجتماعية

- وضع برنامج للحفلات المغربية ولمسائل الشورى والهدية
- تأسيس جمعية لمحاربة المفاسد الاجتماعية
- العمل على تطوير العائلة المغربية بوضع برنامج لذلك، يتبعه الشباب، مستمدا مما يناسب الوسط المغربي
- مشاركة المرأة المغربية في بعض الحفلات الوطنية وبعض الأعمال مثل الاكتتاب بالدراهم أو بالحلي لمشروع من مشاريعنا وكتابة المتعلمين منها في الصحافة وإقامة حفلات خاصة بهن في بعض المناسبات الوطنية مثل عيد العرش

◦ خامسا: الناحية الاقتصادية

- السعي في إيجاد مطبعة تامة التجهيز بالرباط ومطبعة متوسطة بكل مدينة مهمة يديرها مخلص
- السعي في تأليف شركة مساهمة للنسيج.

رجاء

المغرب

السنة الأولى - العدد 30 - الجمعة 16 ربيع الأول عام 1356 الموافق 25 يونيه سنة 1937

تولت الحكم في فرنسا وزارة لا تكاد تختلف عن السابقة في شيء سوى في البرنامج المالي، فهي وزارة ثانية للواجهة الشعبية التي عرف الجميع برنامجها والتي أدركت جميع البلدان التابعة لفرنسا استعداد رجالها لحل المشكلات في جو من التفاهم والتعاون، وقد حصلت جميع تلك البلدان على جزء من رغائبها ومتمنياتها إلا هذه البلاد التي انتظرت طويلا انتصارت هذه الجبهة والتي علقت على فوزها في الانتخابات ما بدد سحب اليأس التي كادت ترمي بالمخلصين في هذه البلاد إلى القنوط وكشف الستار عن مجريات هذا الوضع غير المطمئن. وبالرغم عن كل هذه الخطب التي سمعناها وهذه التصريحات التي وعيناها فإن الحالة لم تتغير إلا جزءا طفيفا لا يكاد يذكر.

وبتولية وزارة م. شوطان الحكم في فرنسا تولى منصب الخليفة لوزير الخارجية رجل معروف بإخلاصه في أقواله وحسن فهمه لشؤون وطننا، دافع عن المظلومين، هو م. دي طيسان الذي هو من لجنة رعاية مطالبنا المغربية المعروفة في جميع الإدارات وعند جميع الهيآت، لذلك فإن تفاؤلنا بالجبهة الشعبية انتعش وأملنا قوى، وليس من البعيد أن نرى في عهده ما حلمنا به في عهد غيره ولم يتحقق منه شيء.

وبذلك سيعرف المغاربة مبادئ الجمهورية التي تحميهم بدل هذه السياسة التي تسير بهم دائما إلى الوراء، والتي لم تزد بينهم وبين الحياة اليقظة إلا بونا شاسعا؛ فالمغاربة جميعهم

ينتظرون تحقيق إصلاحات عاجلة والتطور ببلادهم ورفع مستواها وإزالة هذه الحواجز التي وضعتها السياسة التي لم تراع إلا مصالح أفراد ولم تهتم بمصلحة فرنسا العليا، هذه الحواجز التي أدت بالمغرب والمغاربة إلى هذا الإفلاس المادي والمعنوي وظل شعبنا يرزح تحت أعباء ثقيلة أولدها الجهل والظلم والفقر.

فبوجود م. دي طيسان على رأس القسم الذي يتولى شؤون المغرب يتجدد رجاؤنا في حكومة فرنسا لكى تدشن عهدا جديدا في هذه البلاد يجني منه الطرفان خيرا عميما وصلاحا مثمرا.

شرط واحد

المغرب
السنة الأولى - العدد 20 - الأربعاء 23 ربيع الأول عام 1356 - 2 يونيه سنة 1937

مرت حفلة النادي المغربي الافرنسي للأطفال في جو قلما يشعر به المرء في الحياة المغربية فقد عم الاغتباط بين المغاربة والافرنسيين وشعر كل منهما نحو رفيقه بعاطفة تقدير واحترام، وقد توج الحفلة أمير الأطلس فكان موطن إعجاب وحب من جميع الحاضرين.

ونحن بدورنا يسرنا غاية السرور أن يعمل على تمتين العلاقات بين المغاربة والافرنسيين وإيجاد جو تفاهم ووداد بين الطرفين، ونحن مستعدون لشرح الفكرة والدعاية لها إذ نومن حق الإيمان أنها إذا أثمرت فستكون ثمرتها لصالح الطرفين ولخير الأمتين ولكن على شرط واحد أن نستطيع من دونه أن نفهم أية دعاية لتلك الفكرة ولا نعتبرها.

ذلك الشرط هو أن يعتبر الافرنسيون المغاربة أمة لها حقها في الوجود ويجب أن تتمتع بحقها هذا وأن يعمل أنصار التقارب على محاربة كل فكرة تحاول المس بكرامة الأمة المغربية، أو إهمال شؤونها، أو اتباع سياسة التفوق والميز سواء في الناحية السياسية أو الناحية الثقافية أو الناحية الاقتصادية.

وعندئذ سيجد أنصار هذا النادي أن المغاربة جميعهم يؤيدون فكرتهم ويعملون للتقرب منهم وإيجاد هذا الجو المنشود في العلاقات بين المغاربة والافرنسيين، وعندئذ يصبح التعاون الصحيح أوثق اتصالا وأحكم رابطة بين أبناء الأطلس وأبناء السين.

فليع ذلك أنصار فكرة هذا النادي وليعملوا بوحي فكرة الاعتراف بحقوق الأمة المغربية، وهناك يمكن أن نعيش في جو جديد.

كلمة

المغرب

السنة الأولى - العدد 23 - الأربعاء 29 ربيع الأول عام 1356 الموافق 9 يونيه سنة 1937

حقا. آن للحكومة أن تغير سياستها وآن للمغرب أن يدخل في طور جديد من الحياة، فقد مل الكبار والصغار والرجال والنساء هذه التصرفات ومجتها النفوس وأدرك الكل أن تطور المغرب هذا التطور البسيط لا ينبغي أن يجهل ولا يسع الحكومة أن تهمل أمره وتغفل عن تأثيره في إدارة البلاد وتسيير مصالحها. فمن الخير لها أن تتصوره تصورا مجردا عن كل وهم واحتمال وتعمل هيأتها العليا على أن تساير هذا التطور البسيط وتدرك مداه الصحيح وتوعز إلى فروعها في مختلف جهات البلاد لتنير لها السياسة الجديدة التي ينبغي أن تتبع، فلقد أصبحنا ندرك أن السلطة المركزية بالمغرب تأثرت نوعا ما بمدى هذا التطور البسيط، فاعترفت للمغربي بجزء طفيف مما يتمتع به الغير، بينما السلطات المحلية ما زالت تصم آذانها عن سماع الحق وتتجاهل أن هناك شعبا يود الحياة ويصبو إلى الهواء الطلق.

وليس في ذلك من خير لأية حكومة تود أن تحترم نفسها وتدير المسائل بحزم وعزم.

وبعد فإن هذه الحوادث المتكررة التي أمست تجري في بعض الجهات من منع الحفلة العادية أو نفي شخص أو تصرفات جائرة مما يجب علينا أن ننبه السلطة العيا إلى خطورته فلم يبق مناسبا لتطور المغرب.

سياسة التفاهم

ما ذا تجني منها الحكومة والشعب؟

المغرب

السنة الأولى - العدد 45 - الأربعاء 19 جمادى الأولى عام 1356 الموافق 28 يوليوز سنة 1937

الوطنية المغربية تطلب حقوقا هى عند أمم أخرى شيء معترف به للشعب لا جدال فيه، فالوطنية المغربية في جميع أدوارها اعترف بنبل مرماها وسمو مكانتها، كل من اتصل بها وخبر برنامجها الذي كان ولا يزال في دائرة عملية صرفة غايتها إنقاذ الشعب من مهاوي إفلاسه المادي والمعنوي وفسح مجال الحياة أمام أبنائه؛ فالوطنيون المغاربة لم يكونوا في يوم من الأيام سلبيين بل كانت غايتهم الوحيدة من كل انتقاد إصلاح الحالة.

ولقد كان لتولية أحرار فرنسا الحكم على بلادهم أثر واضح في خطة الوطنيين ورغبتهم في تفاهمهم الخالص مع هؤلاء الذين عطفوا علينا بالأمس وأيدوا مطالبنا الحقة، فأعلنوا في كثير من المناسبات عن استعدادهم لخدمة قضية بلادهم بالتعاون والتفاهم مع رجال إدارة يفهمون مصلحة فرنسا العليا ويعرفون أثر عطف المغاربة عليها فيحترمون بلادهم بالسير على سياسة رشيدة، ويتجهون إلى تفهيم جماهير الشعب نوايا الأمة الفرنسية الحقيقية لا نوايا النفعيين من أبنائها.

فسياسة التفاهم التي طالما وددنا سير إدارة المغرب عليها سياسة رشيدة يجني منها الشعب المغربي والإدارة ثمرات يقدرها المخلصون من الأمتين ويعملون في جميع الظروف على السير وراءها، فإذا عارضت جماعة من الأمتين فلن تعارض فيها إلا جلبا للمنافع الخاصة

وتحقيقا للمصالح الشخصية، ولن تكون تلك الجماعة إلا ساعية لاستمرار السير على السياسة السلبية التي لها خطورتها ولها مصائبها والتي لا يستطيع أى أحد أن يعلم مدى تأثيرها على مستقبل العلاقات بين الأمتين بصورة تثير الجزع والخوف وتولد في النفوس حزازات لا تمحوها الأيام ولا تصرفات الدهر.

فهؤلاء الرجعيون لا ينظرون إلى أية مصلحة من مصالح أمتهم، بل همهم الوحيد استغلال الضعيف وبقاؤه عبدا لقوتهم وجبروتهم وجشعهم، فهم يتناسون جميع المثل ولا يرغبون في أية معاونة يكون من شأنها أن توطد دعائم الثقة بين الحكومة والشعب لأنهم لا يعيشون إلا في ذلك الجو المملوء بالتصرفات الجائرة والمصائب الجمة، ذلك الجو الذي يعمل كل مغربي سرى في قلبه دبيب الحياة على التخلص منه مهما كلفه الأمر ومهما ضغط عليه. فكل عمل سياسي من جانب الرجعيين لا يزيد المغاربة إلا فهما لحقائق الأمور واستعدادا لبذل مختلف المجهودات لنجاح قضيتهم العامة وإدراك حقوقهم الضائعة؛ فتطور المغرب يسير في مجراه سواء صادف في طريقه مناوشات الرجعيين أو استعداد الأحرار للتعاون والتفاهم؛ فمن الخير لرؤساء الإدارة بالمغرب أن يفهموا هذه الحقيقة الجلية فلا يتعبون أنفسهم في صدم عواطف الشعب فذلك لا يزيده إلا يقظة وتوثبا.

فواجب فرنسا في هذه الديار تقوية الشعور بضرورة الإصلاح؛ فإذا ساعدت الإدارة على هذه التقوية فإنما هى ستخدم مثل فرنسا العليا وسيكون لسياستها الإيجابية التفاهمية صدى استحسان عند جميع طبقات الشعب، وسيجني منها الطرفان ما يزيل كل سيئات الماضي ومصائب الروح الرجعية التي ظلت مسيطرة على شؤون المغرب من أول يوم في مرحلتها الجديدة.

نريد عملا

المغرب

السنة الأولى - العدد 16 - الجمعة 10 ربيع الأول عام 1356 الموافق 21 ماى سنة 1937

أيها المسؤولون

كفاكم وعودا فنحن لا نتعشق الأحلام ولكن نطلب الأعمال، وإن زمان الابتسامة انتهى وسياسة « فنجان شاى » أقبرت، ذلك لأننا شعرنا وأدركنا أى مستوى نعيش فيه وأى بون بيننا وبين أمم الأرض وأن مصيرنا في مهب الرياح إذا بقينا ننخدع لابتساماتكم نتبادل نخب الشاى دون أن يكون من وراء ذلك فائدة صحيحة لنهضة الشعب ويقظة عناصر حياته.

إننا مستعدون للتعاون والتفاهم ولكن على شريطة أن يكون ذلك لصالح ولخير الأمة التي مرمى حركتنا الوحيد إصلاح شؤونها وإنقاذها.

فكفاكم وعودا وكفاكم خطبا ، فنحن لا نجهل الداء ونعلم أنكم لا تجهلونه أيضا ولكنكم تتجاهلونه؛ نحن نعرف الداء ونريد الدواء ولن نسمح أن يكون هذا الدواء تخديرا ولا تمويها بل نود أن يكون حاسما يقطع طريق هذا الانحدار الذي تهوى فيه أمتنا، ويرفعها من هذا المستوى الوضيع التي تتربع في أحضانه.

إن جميع نواحي الحياة المغربية في مختلف صورها وتباين مظاهرها تتطلب الإصلاح العاجل والتدبير السريع ويلزم لها الاهتمام الجدي والتفكير العملي لكى تنقد من خطر داهم وكارثة مزعجة.

فكل محاولة جديرة بالتخدير ستكون نتيجتها الإفلاس، وكل إصلاح لا يكون على حسن

النية في الوضع وصدق العزيمة في التنفيذ ينقلب ضررا كما انقلبت المحاولات التي دخلت الحياة المغربية في ناحية الإدارة والتشريع والعدلية والمالية والتعليم والاقتصاد.

إن أزمة المغرب أزمة معنوية أكثر منها اقتصادية؛ فقد سفلت كل المعنويات التي تتصل بالجماعات والأفراد، وأصبحت الحياة المغربية لا ترتكز على دعامة من السماء ولا فكرة من المثل. ذلك لأن توازن حياتنا اختل ولأننا اقتبسنا كل مفسدة وغضضنا الطرف عن كل محمدة.

فيا أيها المسؤولون فكروا فيما ينقذ المغرب من أزمته هذه قبل أن يستفحل الداء ويعسر الدواء ولن يكون ذلك بوعد وتمويه ولكن بعمل.

الوزير رامادبي يقول:
الاهتمام بأمر الطبقات الشعبية واجب

لم تكن حركتنا في يوم من الأيام إلا للدفاع عن الضعيف وإنصاف المظلوم وإنقاذ البائس وتنوير الجاهل. فحركتنا بذلك تتحد في كثير من الاتجاهات مع المذاهب الاشتراكية في مراميها الإنسانية. لذلك لم تكد حركتنا تبرز لحيز الوجود حتى فكرنا في الاتصال مع زعماء تلك المذاهب وأوضحنا لهم غاية حركتنا وموافقتها لبرنامجهم في الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فعطفوا على حركتنا وأيدوا مطالبنا وتحمسوا في كثير من المناسبات في الدفاع عن مظلومينا، فتكونت بذلك رابطة متينة بين الشباب الوطني المخلص لبلاده وبين تلك الجماعات الحرة التي تمثل فرنسا الديموقراطية التي أيدت حقوق الإنسان، تلك الحقوق التي أعلنها ديننا السماوي، فنشأت عن هذه الرابطة ثقة في حسن نوايا الأحرار الافرنسيين وأمل بأن تكون تطورات العصر خير طريق لتفهيم المسيطرين على شؤون المغرب من الإداريين الافرنسيين ضرورة إصلاح برنامجهم في هذه البلاد على أساس المصلحة العامة للطرفين: طرف الأمة المغربية وطرف الأمة الافرنسية.

فالوطنيون لذلك يغتنمون كل فرصة للإعراب عن ثقتهم بحرية فرنسا في الساعة التي يعلنون فيها استياءهم من سياسة الميز والضعف خصوصا في عهد حكومة طالما أعلن أنصارها والمؤيدون لها عطفهم القوى على مطالبنا وخطتنا.

ويزور الآن المغرب وكيل وزير الأشغال العامة وقد شاهد في النواحي التي زارها أية حالة يوجد عليها المغربي الذي ندافع عنه، فصرح للصحافة بتصريح في غاية الأهمية نشرت « المغرب » ترجمته بعدد الأمس؛ فسعادة الوزير يعلن في صراحة أن الاهتمام بأمر الطبقات التي ندافع عنها بكل قوانا أمر ضروري، وإلا فالعواقب ربما لا تكون

حسنة؛ ونحن نبتهج بهذا التصريح كل الابتهاج ونرى أن سعادة الوزير أعرب في ذلك عن ضمير فرنسا الحر خصوصا في الظروف الحاضرة.

فالوطنية المغربية تغتنم هذه الفرصة لتعلن عن استعدادها الكلي للمشاركة التي يطلبها سعادة الوزير في الميدان الاجتماعي إذا خلصت النوايا في خدمة المجموع خدمة صادقة، وإذا أزيلت هذه التصرفات الشاذة التي تتخذها الإدارات المحلية في كثير من الجهات لمحاربة فكرتنا الإصلاحية التي هى فكرة الحزب الذي ينتمي إليه الوزير نفسه وفكرة الحكومة التي هو عضو من أعضائها.

لا نتفاءل ولا نتشاءم بل ننتظر

م. سارو يتولى:

- 1 - مراقبة إدارات شمال افريقيا

- 2 - التنسيق بين أعمالها

من أخبار باريز أن الوزارة الافرنسية اجتمعت يوم السبت اجتماعا خطيرا لدرس مسائل مالية واقتصادية واجتماعية وسياسية، ومن جملتها مشاكل افريقيا الشمالية، وقرر رأيها على تعيين وزير الدولة م. البير سارو للمراقبة على أعمال إدارات افريقيا الشمالية العليا والتنسيق بينها.

ووزير الدولة المذكور مشهور في الدوائر الوزارية الافرنسية إذ سبق له أن كان رئيس الوزارة ووزير المستعمرات عدة مرات، ولا ريب أن له اطلاعا واسعا على قضايا البلدان التابعة لفرنسا وإلماما بحلول مشاكلها، وطالما فكر الوزير المذكور في إحداث وزارة تضم بلدان افريقيا الشمالية والبلدان التي تحت الانتداب الفرنسي، ونفذت فكرته في أوائل سنة 1934 عندما تولى الوزارة م دالاديي إذ جعل من ضمن وزارتها وزارة سميت بوزارة فرنسا من وراء البحار، ولم يقتبل الشعب المغربي ومراجعه العليا هذه الفكرة باستحسان؛ فلما ألف م دوميرك الوزارة إثر سقوط الوزارة السابقة القصيرة العمر، ألغى وزارة فرنسا من وراء البحار وظل المغرب تابعا لوزارة الخارجية.

وتقول دوائر باريز المختصة إن تكلف م سارو بمراقبة إدارات افريقيا الشمالية والتنسيق بينها يكون مع إبقاء المغرب وتونس تحت سيطرة وزارة الخارجية والجزائر تحت سيطرة الوزارة الداخلية. كما تقول تلك الدوائر إن مجلس الوزارة نظر بعين الإنصاف لمطالب سكان افريقيا الشمالية المشروعة مع الاحتفاظ بنفوذ وسلطة الحكومة.

ونحن لا نشاء أن نعلق على هذا الحادث المهم بشيء قبل أن نتلقى الحوادث بنورها لنعرف الاتجاه الذي ترمي إليه سياسة الحكومة الافرنسية بإفريقيا الشمالية، ونحن مع ثقتنا التامة في الشخصيات التي يتألف منها المجلس الوزاري الحالي وتقديرنا للظروف التي تجتازها بلادنا في الوقت الحاضر والإشاعات التي يروجها النفعيون لاتباع سياسة سلبية ، فإننا لا نود أن نتفاءل ولا أن نتشاءم بل إننا ننتظر ونؤمل أن مجهودات م سارو ستكون لصالح الطرفين ولخير الأمتين وان نظر المجلس الوزاري الافرنسي في مطالبنا المشروعة بعين العدل ستثمر ثمرة تجعلنا نتفاءل بالمستقبل ويدرك شعبنا أن فرنسا أمة الديموقراطية، أمة تقدر الأمم وتحفظ لهم حقوقهم كما يعرف ذلك المثقفون المغاربة إذ يفرقون دائما بين نوايا فرنسا ونوايا المستعمرين.

تقرير عن الحالة بالمغرب

مقدم إلى مبعوث الحزب الاشتراكي

سيدي،

إن جميع المخلصين لقضية المغرب وفرنسا ليرحبون بكم أجمل الترحيب ويغتنمون فرصة جولتكم الاستطلاعية ليعربوا لكم ولأعضاء الحزب الاشتراكي بفرنسا والمغرب عن كامل ارتياحهم لمعاضدتكم الأدبية المبذولة لتوطيد الصلة بين المغاربة وفرنسا على أساس الثقة المتبادلة والتعاون الصادق. إن زيارتكم هذه لجميع جهات بلادنا وسعيكم في تعرف أحوالها وتلمس أسباب اضطراباتها ودرسكم لمسائلها عن مشاهدة واتصال مع أبناء الشعب لأعظم خدمة تؤدونها لحزبكم ولقضيتنا المشتركة؛ ولو أن أغلب رسل فرنسا اهتموا بالقضية المغربية مثل اهتمامكم واتصلوا بالشعب مباشرة واستمعوا إلى آراء المخلصين من أبنائه - كما فعلتم - لزال هذا التوتر البادي في العلاقات بين المغاربة والدولة الحامية ولحسمت الاضطرابات وخفف عن الشعب المغربي كثير من أتعابه وأزماته المادية والمعنوية ولقضى على الدعايات الكاذبة من الذين يريدون دائما خلق جو مسموم ليعيشوا في اضطراباته. فالقضية المغربية التي يدافع عنها المخلصون من أبناء المغرب والأحرار من أبناء فرنسا قضية واضحة كل الوضوح لا لبس فيها ولا إبهام، ولكن المغرضين بأباطيلهم وترهاتهم يغتنمون كل فرصة ويبذلون كل مجهود لتشويه حقيقة ما نطالب به لأمتنا من معالم النور وأسس التقدم لنبعدها من هذه الحياة الجامدة إلى حياة عصرية متمدينة هى مهمة الحماية بهذه البلاد. فالمخلصون لقضية المغرب لا يطلبون إلا نشر التعليم سواء بواسطة الحكومة أو بواسطة المثقفين، ولا يودون إلا صحافة حرة تعبر عن آلام الطبقات الشعبية التي تمكن من جبروت الطغاة المتولين، ولا يسعون إلا في تطوير العدالة لتصبح مناسبة

لروح العصر، ولا يرجون إلا السماح لهم بتأسيس جمعيات لخلق روح التعاون وبث فكرة التعاضد بين الطبقات.

هذه هى أهم مطالب الشعب المغربي في مرحلته الحالية وهى التي تحاربها الرجعية بالمغرب فتشيع أن الحركة المغربية ستحاول تدبير مؤامرة أو طرد فرنسا.

وعوض أن تفكر الحكومة في تنفيذ تلك المطالب الحقة التي لا غبار عليها لتهدأ الحالة ولتسير خطوة واحدة في طريق مهمة فرنسا بهذه البلاد فقد سلطت جنوددها وشرطتها بل ورصاصها للنكاية بأحرار المغرب، فملأت بهم السجون وعذبتهم بالسياط واحتقرتهم أشنع تحقير ظانة أنها بذلك ستقضي على روح الحياة التي سرت في مجموع الشعب المغربي، ولكن جميع تلك التصرفات المعادية وتلك التدابير المنافية لروح العدالة لم تفد شيئا فإن إيمان الشعب بقضيته لا يزداد إلا رسوخا وإعلانه لمطالبه العادلة إلا انتشارا وهو ينتظر ذلك اليوم الذي يتاح فيه للحق أن يظهر جليا وتأخذ سياسة الحكومة بالمغرب طريق التفاهم مع المخلصين لا مع ذوي الأغراض السافلة والمآرب الشخصية.

وإذا نحن تخوفنا من تلك التصرفات الظالمة فإننا لا نخشاها لما يصيبنا من ألم بل لأنها تعرض سمعة فرنسا بين جمهور الشعب للخطر فيزداد يأسا ويزداد حقدا على الولاة الذين سيستمدون سلطتهم الغاشمة من ممثلي فرنسا بهذه البلاد. ولولا أنه يوجد بجانب الرجعيين طائفة من أحرار فرنسا تدافع عن القضية المغربية بإيمان وحرارة لتسرب اليأس إلى قلوب جميع المغاربة وأصبح من المستحيل أن يحل الوفاق في يوم من الأيام بين المغاربة والفرنسيين. ففي تلك الطائفة من الأحرار الفرنسيين الذين يسعون في الخير العام نضع ثقتنا لحسن فهمهم لقضيتنا واستعدادهم لإنصافنا مهما تحملنا الآن من عذاب ومهما تنوعت أساليب الرجعية في خنق صوتنا والضغط علينا.

رجال الحركة الوطنية بالرباط وسلا

1937

بعد سقوط الفرنك - واجب المغاربة

المغرب

السنة الأولى - العدد 35 - الاثنين 26 ربيع الأول عام 1356 - 5 يوليوز سنة 1937

الآن وقد سقط الفرنك مرتين في ظرف أشهر قلائل وأصبح ثمن العملة الأجنبية مضاعفا لما كان عليه منذ أمد وجيز فارتفعت الأسعار واضطربت الأسواق، فإن المغاربة شعروا بحراجة حياتهم وأدركوا أن الأزمة من جراء ذلك ستشتد وتعسر، فلقد كان من الممكن أن يستفيد المغاربة من سقوط الفرنك لو أن صابتهم الفلاحية مثمرة فتجد منتوجاتهم الفلاحية أسواقا رائجة في الخارج، وبذلك يدخل المغرب مال يساوي بعض ما يخرج منه بالتوالي. أما في هذه الظروف حيث الموسم الفلاحي بخيل في منتوجاته، والمغرب بلاد فلاحية لا غير، فإننا نستورد من الخارج ما اعتدنا استهلاكه دون أن تصدر بلادنا إنتاجا إلى الخارج لترد الأموال إلى جيوب المغاربة، وبذلك ستزداد الأزمة تفاحشا ويرى الشعب المغربي نفسه سائرا إلى مصير خطير من الإملاق والفقر دون أن يفكر في دواء يخفف ذلك. والأمم الراقية التي تعرف النفع من الضرر تتخذ من التدابير في مثل هذه الظروف ما يزيل عنها ويلات الأزمة ويحفظ لها توازنها الاقتصادي ويسير بها إلى شاطئ السلامة، فيتعاون الشعب مع الحكومة وتؤلف الهيآت وتنظم المجهودات لتفهيم جماهير الشعب واجبها في تلك الظروف الحرجة. وشعبنا في وقته الحاضر أبعد الجماعات البشرية عن إدراك ما يحف به من الأخطار وتصوير حالته بصورة موافقة للواقع المحسوس؛ فما زلنا نعيش بما تهيئه لنا الظروف وبما تقدمه لنا المناسبات لا نفكر في غد ولا نحتمي من عوادي الطبيعة والزمان بما تحتمي به الشعوب الحية، فلا نتخذ وسائل لاجتناب جائحة ولا نعمل لدرء مسغبة ولا نفكر في مشروع يخرج نفعه عن دائرة الفردية الضيقة إلى

دائرة المجتمع الواسعة. فلسقوط العملة عند الأمم الحية صدى في جميع دوائرها تضطرب له جميع الأوساط وتهتز له جميع الدوائر، فتبذل كل هيأة مجهودا لتخفيف وقع تلك الأزمة التي يسببها انخفاض عملتها وتتدارك الحالة التي تسببها تلك الاضطرابات المالية، وهذا ما لا نرى له أثرا في أوساطنا جميعها لأنها لا تفهم سقوط العملة ولا تقدر خطورتها كما تفهم وتقدر ذلك الجماعات في أنحاء العالم المتمدن.

لقد قامت الحكومة بجزء من واجبها فأصدرت ظهيرا يمنع ارتفاع الأسعار ويوقف جشع بعض التجار عند حد، ولكن هذا التدبير ولو نفذ كما يجب لا يكون نافعا لأنه غير كاف لاجتناب أخطار الأزمة التي يسببها انخفاض الفرنك؛ فهناك تدابير يجب أن تقوم بها الحكومة لو أنها اعتمدت على آراء طائفة من الاختصاصيين في الموضوع واهتمت بخطورة الموقف اهتماما خاصا. والشعب مطالب أن يتخذ في مثل هذه الظروف من التدابير ما تقضي به الحالة العسيرة التي أصبح المغرب على أبوابها مثل ما هى الحكومة مطالبة به أو أكثر. فالواجب الآكد في مثل هذه الظروف أن تقوم عدة هيآت بالدعاية لاستهلاك كل إنتاج مغربي والاقتصار عليه وبذل مختلف المجهودات للدعاية لفكرة اقتصادية تبرز واضحة أمامنا وهو أن الفرنك الذي تدفعه لشراء شىء أجنبي يخرج من جيب المغربي إلى جيب فرد خارج عن المغرب ولا يرجع إلى المغرب مطلقا. فإن انخفاض الفرنك سبب أن مقدار الدراهم التي نشتري بها ما نستهلكه من الخارج قد تضاعف بينما لا شىء من المنتوجات يمكننا تصديره إلى الخارج لأن الموسم الفلاحي ضعيف في إنتاجه، فإذا انتظرنا الموسم المقبل - وهو في يد الأقدار أيضا - سيكون قد خرج من مالية المغرب مقدار عظيم يؤدي حتما إلى اشتداد الأزمة وتفاحش المجاعة. فواجبك أيها المغربي أن تحافظ في هذا الوقت العسير على دراهم بلادك بأن تشترى منتوجاتها لا غير. تلك هى الفكرة التي يجب أن تكون لها دعايات واسعة النطاق في مختلف جهات المغرب، وهى التدبير العملي لوقف الأزمة عند حدها الحالي.

حالة استثنائية تستغل

لم تنطفئ بعد شرارة الحرب الأوربية التي توقدت في صيف السنة المنصرمة ولا علم لأحد بموعد انطفائها، ومن الطبيعي أن تكون لهذه الحرب - كما كانت لسابقاتها - نتائج حالية وأخرى متأخرة تبدو بوادرها في الموقف السياسي والحالة الاجتماعية والاقتصادية لكل دولة قدر لها أن تلج المعركة بنفسها أو أن تكون لها صلة مباشرة بها. ومحط كلامنا حول بعض النتائج الحالية للحرب الحاضرة مما لم تنج منه أية أمة، وتتراءى تلك النتائج في ارتفاع الأثمان، وقلة المواد الأولية وعلى الأخص منها المواد الغذائية وانعدام المواد الثانوية. وقد كان للمغرب أيضا نصيب وافر في هذا الصدد بسبب الحصار. فنتج عن ذلك ما يشاهده الجميع في أسواقنا من ارتفاع محسوس في أثمان البضائع ومن خلو بعض المخازن من المواد التي كانت ترد على المغرب من الخارج مما لا أمل في جلبها ما دامت الحرب مستمرة. فجولة واحدة في أطراف إحدى المدن تنبئك بحقيقة الأمر.

على أن المغرب يعاني أزمة معنوية ربما انفرد بها. تلك الأزمة هى كساد سوق الفكر.

فإذا دفعك حب الاستطلاع إلى دخول إحدى مكاتبنا شاهدت هنا أيضا أفاعيل الحرب إذ لا تجد أحدث المؤلفات الشرقية والمجلات والجرائد التي كانت ترد علينا من مصر وسوريا ولبنان وجميع أنحاء العالم العربي فتزخر بها مكاتبنا، فانقطعت أو كادت تنقطع الصلات التي تربطنا به فأصبحنا نجهل سير الفكر والسياسة في بلاد العروبة ووقف متأدبونا موقف الحيرة بإزاء ذلك إذ كان الأدب الشرقي في غذاء معظمهم.

لا أشك أننا نعيش اليوم في حالة استثنائية، لا تلبث أن تزول فتعود المياه إلى مجراها الطبيعي، ولكن هل لنا علم بأمد هاته الحالة؟ لقد استطاع المغرب أن يذلل صعوبات جمة ويحلل مشكلات وعرة أثارتها الحرب الحاضرة؛ وأهم المشكلات مسألة التموين،

وبذلك أمن المجاعة التي أصبحت بعض الأمم قاب قوسين أو أدنى منها، فلم يرتفع ثمن القمح - الذي هو أساس حياة المغربي - ارتفاعا باهضا كما هو الشأن في كثير من الأصقاع وأمكن وجود اللحوم على اختلاف أنواعها مما يضمن حياة السكان أمدا طويلا، وقد سارع بعض الأفراد وكثير من المؤسسات لتلافي الحالة الراهنة استعاضة المواد المجلوبة ببعض المواد الوطنية الصرفة، ومما لا شك فيه أن المغرب سيأمن نتائج الحرب الحالية بفضل خيرات ترابه وابتكار هيآته فيستطيع ملافاة هذه الحالة الاستثنائية مهما طالت.

هو ذا جانب من الأزمة العالمية قد وجد له حل في المغرب، وهو الجانب المادي، ترى هل هو كل ما يعنينا؟ بقى أن نفكر في الجانب المعنوي لتلك الأزمة وهو كساد سوق الفكر في المغرب.

يروعك أن ترى مستودعات الكتب والجرائد الدورية شبيهة بهياكل عظيمة لا كتب ولا مجلات تكسوها عدا بعض الجرائد التي عفى عليها الدهر فأصبحت تسد تلك الثلمة الكبرى، وهيهات أن تسدها، يأخذك العجب حين لا ترى أية بادرة من جانب مثقفينا لسد الفراغ الذي أحدثته الأزمة العالمية الراهنة، فأين هى المجلات والجرائد التي نابت عن الصحف الشرقية وأين هى الكتب المغربية التي أصبحت تحتل مكاتبنا وتغذي الأذهان التي يكتمل نضجها، وأين هو الإنتاج الأدبي المغربي الصرف الذي كان قد اختفى ردها من الدهر تحت مفعول الإنتاج الشرقي ،كل هذا لا وجود له.

إني لأقشعر - وحق لكل أديب أن يقشعر - متى فكرت في هذه المسألة العويصة، حينذاك أسائل نفسي هل ستدوم الحال على ما عليه الآن، وهل يرضى المثقفون المغاربة على حالهم من الجمود، وما سيكون مستقبل الفكر في المغرب إن ظلت الحال هكذا. إن أخوف ما أتخوفه أن نتدرج من سبات إلى استكانة إلى موت، وهنا يستحيل الانبعاث مرة أخرى ...

فهل لمثقفينا أن يقاوموا مجاعة الفكر كما تقاوم الهيئات الأخرى مجاعة البطن؟

ما ذا استفدنا من الحرب؟

الثقافة المغربية - العدد الأول - غشت 1941

قد يكون مثل هذا السؤال غريبا، فما اعتاد الناس أن يغنموا من كل حرب إلا موتا زؤاما بجانب خراب فظيع وإلا ألما في الجسم وجوعا في البطن؛ فإذا تصورت الحرب في أذهان الجماعات ارتسمت أمام مخيلتها هاته الأشباح المخيفة من الويل والثبور وهاته الصور التي تحز النفس هما وتذرف العين دمعا.

ولكن الحرب مهما كانت قاسية، ومهما كانت نتائجها مؤلمة، ونارها سعيرة، فإنها حدث في التاريخ يسجل ليسجل دوما بجانبه انقلاب من انقلابات الحياة؛ فإذا تجردنا عن مؤثرات الساعة وفواجع الحاضر، ونظرنا إلى الحرب كما ينظر إليها المؤرخ الاجتماعي وقد أبعده الزمان عن كوارثها وأحاطه بهدوء لا ينعم به من يتلظى بسعيرها، رأينا للحرب بجانب شؤمها خيرا دفينا لا يكشف عنه إلا بعد أن تخمد الجودة، وتستقر الأحوال، وتستأنف الحياة الناعمة طريقها.

ولعل أبرز ما تقدمه الحرب للأمة من خير هذا الانقلاب الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي الذي يطرأ عليها ليجدد حيويتها، ويدفع بها إلى العمل، ويبعدها من هوة الدعة التي تسقط فيها كل أمة أرادت أن تستريح من الجهاد المتواصل.

فلولا الحرب العالمية الماضية لم تكن هناك يقظة للأمم العربية؛ فلقد دفعت تلك الحرب الضروس مصر وسوريا والعراق وغيرها إلى السعي وراء الحياة الجديدة، سواء من ناحية اجتماعية حيث أقبل الشعب على التزود بعدد معنوية جديدة، أو من ناحياة اقتصادية حيث أخذ البناؤون يدعمون صرح اقتصاديات بلادهم بعد أن ابتلعتها معامل الخارج، أو

من ناحية سياسية حيث سعى الأحرار في تنظيم شؤون الأمة وتقوية دواليب إدارتها.
وإذا كانت الحرب لم تنته بعد، بل لا زال لهيبها يزداد كل يوم تطاولا، وسعيرها كل ساعة احمرارا، فإنه يستحيل أن نزن شرورها المفجعة هذه بخير قد يأتي للبشرية منها بعد أن تنهك قواها وتخر صريعة أمام أشد الأهوال وأفجع الكوارث.
إذن قد يكون من الهراء الآن السعي في تصوير خير الحرب الحاضرة للحياة البشرية المقبلة، فلن يقوى أحد أن يتبصر هذا الخير في وسط يتأجج نارا، بل لا يريد أحد أن يسمع نبأ هذا الخير قبل أن يسمع ختام هذه المأساة البشرية الكبرى.
ولكن المغرب بلد من البلدان التي لم تمسها هاته الحرب العالمية بالرغم عن قربها من فوهة البركان، وبالرغم عن موقعها بين بحرين بلغ فيهما الصراع أشده؛ وليس من شأن الحرب التي تندلع نارها إلى أمم عديدة أن لا تؤثر في تلك الأمم، بل إن تأثير الحرب يصل في أغلب الأزمان إلى الأمم التي لم تحارب، والتي تخضب أرضها بالدماء، ويتجلى ذلك التأثير في العصر الحاضر أقوى تجل حيث قويت أسباب المواصلات بين الأمم، وتضاعفت وسائل التبادل الاقتصادي، وازدادت حاجات الأمم إلى بعضها بعضا؛ فإذا توقف النشاط المدني في أمة، وانكبت على النشاط الحربي وحده، لم يؤثر ذلك في مجريات أحوالها فحسب، بل وفي مجريات جاراتها القريبات والبعيدات عنها أيضا؛ فإن التبادل الاقتصادي الدولي يضعف، ووسائل المواصلات تقل، ولكل ذلك نتائج سرعان ما تظهر في مجموع كل أمة من الأمم.
والمغرب وإن لم تجرفه الدماء في هاته الحرب ولم يخرب عمرانه، فقد قل إيراد ما يلزمه للحياة الجديدة من أسباب ووسائل أولا بسبب الحرب، وانعدم بسبب الحصار أخيرا؛ فدخل المغرب بذلك في طور جديد من الحياة يجب أن يكون له نتائج، وأن يتساءل من الآن عما استفدناه من الحرب، ما دامت لم تجر دماؤها في ترابه، فيصبح من العسير البحث عما جنيناه من الحرب.

يظهر أنه لا طمع، إذا لم نكو بنار الحرب في أرضنا، في انقلاب اجتماعي مهم؛ فصفات التأخر التي استولت على الفرد منا وعلى العائلة في وسطنا وعلى الأمة في مجموعها لم يقو تأثير الحرب غير المباشر أن يهد من ركنها، ولا أن يتغلب على عواملها من نفوسنا، فبقينا كما كنا نأخذ الحياة من جانبها اللين ونعيش في صورة القرون الوسطى لا نبغي عنها بديلا.

فإذا انتهت الحرب كما بدأت بعيدة عنا سلمنا من أخطارها، ولكن لم نسلم من أخطارنا الدفينة في نفوسنا.

أما من الناحية الاقتصادية فقد اضطرنا الحصار أن ننظر إليها من جديد، وعلى ضوء جديد؛ فقلت المنتوجات الصناعية العصرية في البلاد، وارتفع ثمنها، وغدت الرفاهية من تلك المنتوجات لا تصل إلا على يد الأغنياء منا، وبعد قليل قد يستهلك المذخر منها فتنعدم حتى لدى الأغنياء؛ فهل يعني أن هذه القلة الموجودة الآن وهذا الانعدام المنتظر في الغد أن يدرك أفراد الشعب المغربي أنه يمكن الاستغناء عن كثير مما يجلب إلينا من الخارج إذ أن أغلب ما يحمل إلينا هو مواد رفاهية نستهلكه دون استحقاق ما دمنا لا نستطيع أن ننتجه.

في يقيني أن المغرب لم يدرك شيئا من ذلك بعد، إذ في الساعة التي تدق معلنة ختام هذه المأساة البشرية يسرع المغاربة إلى استجلاب المواد من الخارج وإلى استهلاكها بشره أفظع من الماضي.

ذلك لأننا لا نفكر في بناء نهضة اقتصادية على أساليب جديدة يمكنها أن تستفيد من الظروف الراهنة للحرب فتسد حاجاتنا من المنتوجات العصرية، بل كان ما فعل رجال الاقتصاد منا أن استغلوا الاحتكار، واكتفوا بربحه، وها هم يخلدون إلى الراحة المميتة لا يفكرون في تكوين صناعة، ولا تدعيم معمل، ولا تأسيس شركة.

ولعل الناحية الوحيدة التي نتجت عن ظروف الحرب الآن هى ناحية سيئة؛ فلقد أدى

الاحتكار إلى اختلال توازن بين طبقات الأمة، إذ انعدمت الطبقة الوسطى؛ فلقد تجمع ما كانت تذخره من مال قليل لدى طائفة قليلة من التجار الكبار، فاستغنوا بينما أفقرت تلك الطبقة الوسطى وحشرت في الطبقة الفقيرة.

ولعلنا إذا نظرنا نظرة واحدة على ما تستفيده الأمم من كل حرب تدخلها أو تتأثر بها تأثرا غير مباشر، ونظرنا نظرة أخرى إلى الأمة المغربية التي لا تقل عن تلك الأمم اهتماما بالحروب وتتبعا لأخبارها وتعليقا على تطوراتها، نجد أن الجمود الذي قيد كل نشاط في حياتنا لم تقو الحرب أن تضعف ولو قليلا من شدته.

فإذا استفادت الأمم الأخرى من الحروب فتطورت حياتها وقوت نواحي الضعف فيها وتنبهت إلى أدوائها فحاولت أن تعالجها، فإن المغرب في عصره الحاضر يأبى إلا أن يقف دوما وقفة المتفرج الكسول، فإذا الحوادث تتوالى بسرعة، وإذا الأيام تلد في كل مناسبة جديدا، فمن انقلاب اجتماعي إلى حركة سياسية، ومن نهضة اقتصادية إلى تجديد صناعي، بينما المغربي يصم آذانه، ويقف من كل ذلك قنوعا بما يتيسر لديه من وسائل العيش الوضيع وأسباب الحياة اللينة.

وستطلع شمس يوم فإذا هذه الحرب الضروس قد انتهت، وإذا كل الأمم تسارع إلى إعادة تكوينها من جديد بأساليب جديدة ومقومات جديدة، وإذا المغرب حيث هو، وإذا المغاربة حيث هم،كتب عليهم الجمود حتى في ظروف الحركة وأيام النشاط غير العادي.

النهضة الأدبية العربية

الثقافة المغربية

لسنا نعتبر الأدب الحر في مظاهره المختلفة، وألوانه العديدة، إلا صورة عن الحياة في حدودها الواسعة، فلا يغرب عن بالنا أن نزيف كل أدب فنه زخرفة مصطنعة، أو جمل متراصة، لا أثر للجدية والعاطفة فيه، فحسبنا أن يكون أدبنا معبرا عن إحساساتنا، ومكيفا بما يتجه بنا من ميول ومثل عليا تقودنا في صراع هذه الدنيا. والعاطفة البشرية لا تتغير تغيرا تاما، بل تتلون بمؤثرات البيئة، واتجاهات الجماعات، وصدمات المحيط؛ فقد ندرك بمقارنة بسيطة ما يمتاز به أدب كل أمة عن أدب الأخرى، خصوصا بعد دراستنا لما أحيط بإنتاجها الأدبي من عوامل لا تتصل مباشرة بالأدب، وإنما تحول اتجاهه دون أن يشعر الأدباء أنفسهم، وهكذا نستطيع أن نتصور وجود أدب عالمي إذا ما نظرنا إلى العاطفة وهى رائدة الأدب الحر، حيث أنها لا تختلف لدى سائر الشعوب إلا في مظاهرها، لا جوهرها، تلك المظاهر التي تكون الأدب القومي أو الإقليمي الضيق النطاق وتصبغه بطابع قد يكون محببا لدى كل الشعوب الأخرى.

وكلما تقاربت الميول في أمتين وتوحدت اتجاهاتهما، زالت تلك الهاوية الإقليمية بينهما، وهكذا كلما تسامت نفسية الأديب، فكر بصورة تشمل الحياة الفسيحة لا المقيدة بحدود جغرافية، فيخرج من حدود الأدب القومي إلى حدود الأدب العالمي الخالد الذي لا يفنى بزوال ما أحيط به من مؤثرات وقتية.

هذا هو أساس خلود الأدب ونضوجه في الأمة.

نكتب هذا التمهيد بمناسبة ما يروج منذ أيام في أوساط مصر الأدبية حيث اختلفت الآراء

في الأدب العربي هناك، فطائفة لا ترضى بديلا عن « تمصير الأدب » وطائفة لا تقر بهذا الرأي، بل تخالفه في شدة وتنكر أن يكون هناك أدب مصري بحت ، بل إن ما أنتجته مصر في ماضيها وحاضرها ليس إلا جزءا متمما للأدب الإسلامي التي تشترك فيه سائر الشعوب الإسلامية التي اتخذت العربية لغة لها.

ولكل فريق من هاتين الطائفتين آراء تستند على الماضي السحيق تارة وعلى ماضي مصر الإسلامي طورا. فتعتبر الطائفة الأولى أن هناك مميزات تخص تراث مصر الفكري، وبدراسة هذا الأثر نستطيع أن نستخرج هذه المميزات في وضوح وجلاء، على أن هذه الطائفة لم تقدم لنا بعد هذه المميزات لفحصها وتطبيقها على أدب الأمم الأخرى وإنما هى تعتكف على دراسة الأدب المصري الحديث والاعتناء به، وهذه غاية محمودة تستحق منا الالتفات نحن أبناء الأمم العربية الأخرى.

أما الطائفة الثانية وهى التي لا تتصور وجود هذه المميزات تخشى كثيرا من « فرعونية » مصر في الأدب العربي بطريق الإعجاب غير المناسب؛ وجل أفراد هذه الطائفة هم من أبناء مصر المشتغلين بدراسة الأدب العربي القديم ، فهى لا ترى في تلك المميزات - إذا وجدت - إلا أنها نتيجة ظروف وعوامل خصت مصر كما أن هناك ظروفا وعوامل أخرى اختصت بغيرها من الأمم العربية فكان لها مميزات أيضا.

والمرء لكى يفصل بين آراء الطائفتين ينبغي أن يفكر طويلا، فنحن أمام مسألة خطيرة تتوقف عليها نهضتنا الأدبية وتطورها. فمصر حازت زعامة العالم العربي في الأدب واعترف لها أدباء الأمم الأخرى بذلك. فهل من صالح الأدب العربي أن تدوم هذه الزعامة لمصر وتقود هى الأمم الأخرى أم ينبغي أن نحاسبها على هذه الزعامة ونتنافس في مضمارها؟ وبعبارة أصح ،كيف تكون نهضتنا الأدبية، هل ينبغي أن تتنافس الأمم العربية أم تتضامن في إيجاد أدب خالد؟ هذا هو السؤال الذي نطرحه على أدباء العربية اليوم.

وكأني بالطائفة المصرية التي تود أن تعطى لأدب مصر تلك المميزات دون الأدب العربي

الآخر لا تحاول هذه المحاولة الجريئة إلا لغاية أن ببعث روح التنافس بين الأمم العربية الأخرى بعد أن ساعد تفوق مصر الأدبي على ركود تلك الأمم فأصبحت تعترف بقصورها بعد أن كان من واجبها مسابقتها والسير معها في الميدان جنبا لجنب.

فمصر زعيمة العالم العربي لكن لا ينبغي أن نتصور أن الزعامة تبقى لها مدى الدهر بل ستحاول كل أمة عربية أن تكتسب تلك الزعامة لنفسها بمجدها وتفوقها.

أما أن يبقى هذا التضامن في المنتوج الأدبي أو يبقى كل شعب عربي يعتمد على غيره دون أن يتنافس معه فذلك ما يؤدي بنا إلى نتيجة غريبة هى تأخر نضوج نهضتنا.

فالحياة البشرية لا تسير بباعث التضامن بل بباعث التنافس، حيث يتاح للمرء أن يظهر مواهبه، وهو معتمد على نفسه لا متضامن مع غيره، وتاريخنا الأدبي أقوى دليل على أن التنافس كان أكبر عامل لنهضة الأدب في المغرب، تلك البلاد التي لم يكن أهلها يعرفون العربية، ولو كان هناك تضامن لاكتفى المغرب بتراث المشرق.

ثم إن اعترافنا بزعامة مصر يبعث في نفوسنا نوعا من التقدير لها في غير محله في حين ينبغي أن يسود الاحترام الذي يصوره التنافس النزيه والعبارات التي من شأنها أن تعترف بتفوق الغير وتسعى في منازلته في آن واحد.

وهذه الأمم المشتركة في نزعاتها الروحية ولغتها السامية والتي لها وحدة في المقاصد وتاريخ مشترك قد تستطيع بباعث التنافس أن تكون دعائم أدبها، وتتسامى في أفقه، فتصل إلى حدوده العالمية بعد أن تغادر تلك الإقليمية الضيقة فيكتب الخلود لأدبها حيث يسابق أرقى أدب الأمم الأخرى في المحيط البشري، لأن منشأه الأول لا يعبر عن جماعات في أمة واحدة بل يعبر عن أمم مختلفة.

وهكذا يكون من رأينا أن تتنافس الأمم العربية وليكن تضامنها مظهرا لتساميها لا وسيلة لاعتماد بعضها على بعض.

فمن الغريب أن تكون سورية وهى لا تقل عن مصر تعليما وتهذيبا وأبناؤها من أذكى

الشعوب لا تنتج في المضمار الأدبي سوى جزء طفيف مما تنتجه مصر، وإذا تحدث السوري عن النهضة العربية الحديثة افتخر لك بما لأبناء النيل في الميدان من أثر معتمدا على أن كل أثر عربي لا يسجل إلا في اسم مجموع الناطقين بالضاد، وما ذاك إلا من نتيجة خمود روح التنافس؛ التنافس في المستقبل حيث يتاح لنا البناء من الجديد، أما عن الماضي حيث يتاح لنا التنقيب على كنوز أدبنا فلنكن متضامنين إلى حد معين، ولنكن متنافسين في استكشاف تلك الآثار القيمة الغالية، ناسبين كل الفخر في ذلك السمو إلى المجموع الإسلامي، ذلك لأن اختلاط الشعوب التي دانت بالإسلام لم يكن اختلاطا وكفى، بل امتزاجا محيت فيه شخصية الفرد أمام تيار المجموع.

للكلام بقية لم نتمكن من العثور عليها فمعذرة.

المغرب كما يراه الشرق العربي

مجلة « المغرب » الشهرية لمحمد صالح ميسة : السنة الثالثة - عدد اكتوبر 1934 - رجب 1353

حديث ألقى بالنادي الأدبي السلوي سنة 1934

قد نعرف نحن المغاربة بلادنا ونعرف وضعيتنا الاجتماعية وما لدينا من مظاهر المدنية القديمة والحديثة، ولكننا لا نعرف شيئا كثيرا عما يقال عنا في الخارج، إذ أن هناك حقيقة جلية هى أننا مجهولون في العالم الإنساني، وأننا خارج المغرب جماعة من أناس تتضارب فيهم الآراء وتتباين إلى حد بعيد، فننعت بأحسن الصفات وأرذلها، ويجول بنا الخيال هناك جولات لا يكون لها في الغالب أدنى صدفة للصواب والواقع، فالمغرب بلادنا كما نعلم عبارة عن شبه جزيرة إذ يحيط بها البحر من جانبين والصحراء الكبرى من جانب ثالث، فنحن في كل أدوار تاريخنا نمثل وحدة تامة وعزلة إذ لم نمتزج امتزاجا حقيقيا إلا بأمم الشمال الإفريقي وهى أمم تصورنا في كل مظاهر الحياة، فنحن من الشعوب التي حافظت على وحدتها وصفاتها في مختلف أزمان التاريخ.

ونحن كما كنا في عصر الجمال وسفن القلاع، لا نتصل بأمم الشرق العربي إلا بمقدار، كذلك اليوم ونحن في عصر الآلات البخارية والمواصلات السريعة، غزتنا صحف الشرق العربي ومطبوعاته، فأمسينا بعد أمد قصير نعرف جزئيات عن مصر وسوريا وفلسطين والعراق ربما لا يعرفها أبناء تلك البلدان، ولكن هذا الاتصال وهذا التعارف هو من جانب واحد لا غير، فهم بمقدار ما نعرف عن بلادهم ونتابع من أخبارهم، ونتجادل في شؤونهم، يجهلون كل شىء عنا، ولا يتحدثون عن أحوالنا، إلا ظنا وخيالا، كأننا في جزيرة

مملوءة بالسحرة لا توجد إلا في خيال روائي، تتراءى له كلما خلا إلى نفسه، وتابع خيالاته، فإذا بالروائي يصفها تارة بأوصاف تنجذب إليها النفس، وطورا بأوصاف تخيف وترعب.

وما تاريخ بلادنا في نظر هؤلاء الإخوان الشرقيين إلا عبارة عن حروب قبائل يغير بعضها على بعض، وثورات متواصلة، بل هو تاريخ تلك الجماعات التي لم تخرج من عصر القبيلة والعشيرة إلى عصر المدنية والوطن والجماعة، والتي لم يخرج نظامها من البساطة إلى التركيب، ومن دور الزعامة الفطرية إلى دور الملك الشامخ.

ولكن ما لي أشاء أن أعيب على إخواننا الشرقيين ولا ألوم أنفسنا ما دمنا في جزيرتنا لا نعمل ولو جزءا طفيفا لنوضح لهؤلاء الإخوان الذين تربطنا بهم روابط الدين واللغة حالتنا، وأية درجة وصلناها في عالم الحضارة، فهم ربطونا بهم بما يصدرون إلينا كل يوم مما تخرجه مطابعهم، أما نحن الآن فتهاون بكل شيء ولا نعبأ بشيء ولا نرى للدعاية من فائدة بل إن كثيرا منا يراها ثرثرة لسان.

وسوف لا أطيل الحديث عن تحديد مسؤوليات ومناقشة نظريات، وإنما سأوضح صورة رأيتها ولمستها، تكونت تكوينا متزنا خلال سنوات أربع، ولكم بعد ذلك مجال الرد ومجال الفصل، فحسبي الآن أن أبلغ تلك الصورة وأن أذيعها في وسط كوسطنا، لا يعترف - كما قلت - بالدعاية ولا يعمل لها، ثم على بعد ذلك أن أصمت ريثما أرى أثر ذلك.

فلنضع لأجسامنا أجنحة ثم نطير - وهذا لم يمس بفضل العلم من المستحيلات - إلى أن تتراءى لنا مصر أو الشام أو العراق، فنجثو على صخرة سحرية في الفضاء ترى كل شيء وتخترق الصدور ولا ترى ولا يرى ما عليها، فإذا ما جثونا فليسر مغربي في الشارع بجلبابه ذات اللون الناصع وطوقه المنضد وألوانه الزاهية، وهو يختال في مشيته ويصادف أول من يصادف هذا الشاب الشرقي صاحب الملابس الافرنجية الباريسية الصيفية - ما دمنا في فصل الصيف - حيث البنطلون الأبيض والصدرية الزرقاء والنعل ذو اللونين،

فيلقي هذا الشاب نظرة ازدراء على هذا المغربي الذي ما يزال يعيش في العصور الماضية فلم يغير ملابسه، ولم تؤثر عليه المدنية بعد ما دام حاملا لهذا اللباس الذي مهما كان نافعا للصحة أو مناسبا للذوق فهو غير أوربي وليس هناك من قيمة لشيء شرقي في نظر الشرقي، فلنصبح أبناء العصر الحديث يجب أن نخلع عنا كل مظهر من مظاهرنا لندمج في الغرب وهو يأنف منا ويبتعد عنا.

وتخرج كلمات من فم صاحبنا الشاب كلها ازدراء لرجلنا المغربي دون أن يكلف نفسه أن يتعلم عنه فربما لا ينقص عنه تفهما لروح العصر وتطورات الحياة، فكل ما هناك أن ملابسه غير أوربية وهو آت من بلاد يقال لها المغرب لا الغرب.

ويتخيل صاحبنا الشاب كأنما أصبح البون شاسعا بينه وبين هذا المغربي الساذج فيتابع سيره ويسرع في خطواته متطلعا إلى ملابسه التي هى على آخر (مودة) تلبس في الغرب وتزداد جثته عظمة أمام عينه إذ لا يرى بينه وبين المغربي كبير فرق.

ويمر فرد من العامة فيتطلع إلى صاحبنا المغربي فتتراءى له صور عدة عن هذا الرجل، فتارة يخيل إليه في صورة ساحر يصير الحديد ذهبا وفي هذا غنى وطمع، وطورا يرى فيه زاهدا من عباد الله المختارين، فإذا ما تراجع بذاكرته إلى ما يطالعه في السنوات العشر الأخيرة خيل إليه المغربي في صورة ثائر لا يعبأ بالدماء وليس له من مستقر، وإنما هو من هؤلاء البدو الرحل فيتردد بين أن يطمع في سحرياته وبين أن يزوره تبركا بولي الله ثم يتراجع آخر الأمر خائفا من هذا المغربي، أما صاحبنا المغربي فيتابع سيره ويتحدث مرتفع الصوت غير ملتفت إلى من ينظر إليه وغير شاعر بهذه التصورات التي تختلج في تلك النفوس بل يتقدم إلى بائع فيحدثه بلهجة مغربية صميمة بسرعة واصطلاحات بلاده فلا يتفاهم معه إلا بالإشارة.

أما النساء المارات فيستغربن هذا الرجل ويتغامزن، وتشاء واحدة منهن أن تدعوه ليسحر، ويطول تشاورهن، بينما المغربي يخطو خطوات يبتعد بها عنهن، ولا ريب أن حديث

هذه الجماعة من النساء كان طول ذلك اليوم عن هذا المغربي ذي الجلباب الساحر الماهر، وما هو في الواقع إلا حاج أو سائح لا يعرف من كلمة السحر إلا ما أفهمه أنا وأنت.

إن المشعوذين في الشرق عندما يريدون ثقة الناس بهم ثقة عمياء يزعمون أنهم مغاربة؛ فبلاد المغرب، في نظر العامة، عبارة عن مجموعة من الصور جمعت الغريب والمدهش، والجميل والقبيح، وحياة المغرب حياة عليها المسحة السحرية في كل مظاهرها.

لعلكم تستغربون هذه الظاهرة، فلنقف عندها قليلا، فالصفة البارزة التي يوصف بها المغربي في الوسط الشرقي هو أنه ساحر ماهر يستحضر الجن في كل لحظة ويناجيه، فلا يتأخر الجن عن مساعدته في الأرض أو في السماء، فإنك لا تكاد تهبط هذا المجتمع حتى تسمع أحاديث وحكايات عن أفراد ينسبون لأنفسهم الجنسية المغربية يلعبون دورا مهما في الحياة الاجتماعية بهذه البلاد، فيشعوذون أياما يربحون من ورائها أموالا باهضة، وما هم من السحرة في شيء بل حسبهم دقة ملاحظات وجواب في اللسان وتفهم لعقلية المخاطب.

ولنستمع إلى دور من الأدوار التي يقوم بها هؤلاء الأفراد باعتبارهم مغاربة.

في أحد الأيام اشترى فرد شيئا من دكان فقدم لصاحبه قطعة من نقود ذهبية تساوي أضعاف ما اشترى ولم يهتم أن ينتظر للحصول على الباقية، بل تابع سيره، فتعجب صاحب الدكان من أمر هذا الرجل وتبعه على الاثر متسائلا عن عدم اهتمامه بنقوده الذهبية القيمة، فأجابه الرجل أن الباقية قسمتك وحظك، وليس ذلك إلا جزءا طفيفا مما يرزقنا الله من السماء؛ فاهتم صاحب الدكان بأمر هذا الرجل الغريب، ورجا منه أن يكون ضيفه الليلة، فامتنع صاحبنا المشعوذ، فألح الآخر في طلبه، وأخيرا قبل صاحبنا أن يذهب إلى بيت صاحب الدكان، فكان حديث هذا الأخير كله يرمي إلى تفهم مصدر ما له من نقود ذهبية لا قيمة لها في نظره، والآخر يحاول بدهاء أن يخفى ذلك عنه ليزيده رغبة، وأخيرا بعد إلحاح شديد يخبر صاحبنا المغربي التاجر بأنه استطاع أن يصل إلى

درجة عالية في علم الطبيعة وأنه بعمليات سحرية خاصة يصير الحديد والنحاس وما شابههما من المعادن ذهبا، فيتهلل وجه التاجر فرحا وغبطة لكن صاحبنا المغربي يندم ندما شديدا حيث يوهم الثاني أنه فضح سره ويتظاهر أنه يريد أن يغادر منزل مضيفه في الحال، بينما الآخر يزداد حرصا عليه ورغبة في جلوسه حتى يقوم بعملية من عملياته في بيته، ويطول بينهما الجدال حيث يتظاهر صاحبنا المغربي بالكتمان، والآخر يشاء أن يستغنى بواسطة الساحر المغربي المزعوم الذي طالما سمع عن أبناء جنسه ما يحير الألباب، وأخيرا يرضى المغربي ادعاء أن يكون منزل مضيفه ميدانا لصيرورة الحديد والنحاس ذهبا نضارا، وبإشارة من هذا المغربي يجمع ما في البيت من قطع حديدية أو نحاسية وتشعل النيران، ويوضع جميع ذلك في آنية من حديد حيث يدوم لهيب النار مشتعلا ثلاثة أيام متوالية، وفي غيبة من المضيف يفتح المغربي القدر ويذر على وجه الماء مسحوقا أصفر في لون التبر، ثم يطفئ النار إلى أن يبرد القدر نهائيا ويفتح أمام الشخصين، وعندما يرى التاجر لون ذلك المسحوق على صحيفة الماء يخيل إليه أن الجميع أصبح ذهبا رنانا، لكن الآخر يظهر حزنا لا مزيد عليه وتألما شديدا، فيسأله التاجر عن سبب حزنه وألمه فيفاجئه أن العملية قد نجحت نجاحا تاما لكن ... ولا يزيد شيئا ، فيتحير التاجر ويسأله لكن ما ذا؟ فيرد عليه المغربي أفكر فيما أعجز عنه وتعجز أنت عنه أيضا، فالعملية نجحت لا ينقصها إلا مادة خاصة لا توجد في هذه البلاد، وتشترى بما لا يقل عن 200 ليرة عثمانية ذهبية (أى ما يزيد عن 22.000 فرنك) فيجيبه التاجر: الأمر هين، إن لدى ذلك المقدار وأستطيع أن أقدمه لك خدمة للمشروع فيسر صاحبنا المغربي، ويسرع الآخر إلى خزينته الحديدية ويقدم له المقدار، فيسافر الساحر الموهوم محاولا شراء تلك المادة الموهومة بعد أن يضع القدر في مكان مغلق ويوصى صاحبه ألا تفتح مطلقا خوفا من فساد العملية السحرية الغريبة، ومرت الأيام والليالي تباعا دون رجوعه، ولعل ذرة من الآمال ما زالت تخالج صاحبنا الشرقي كلما تذكر هذه الحادثة بالرغم من تصوره

أنها خدعة.

ولعلكم تستغربون هذه الحادثة وتظنونها خيالا، ولكن لو قضيتم بضعة أيام بالشرق العربي لتيقنتم أن الحادثة صورة مصغرة عما يتصور به المغربي في ذلك الوسط من دهاء وسحر، ولكى تزدادوا يقينا أصرح لكم أن مثل هذه الحادثة جرت بين مغربي وبين أمير تولى إمارة إحدى المقاطعات الشرقية بعد الحرب العظمى، وان هذا الأمير قدم مقدارا عظيما من الليرات الذهبية في سبيل الحصول على الثورة من هذا الطريق.

والآن حان لي أن أنتقل إلى ناحية أخرى بعد أن أبدى ملاحظة ضمن تساؤل هو لو أوتى لمغربي بساحر من هؤلاء السحرة المشعوذين وطمع بالذهب الوهاج، فأنا شخصيا لا أتصوره ينخدع ، ودليلي الوحيد أن لا أثر لمثل هذه الخرافات في وسطنا، بينما المجتمعات العائلية في الشرق كثيرا ما تتحدث في هذا الموضوع باستغراب ونوع من الثقة في مقدورة المغربي السحرية.

وحسبنا حديثا عن السحر والسحرة الموهومين، فهكذا أستطيع أن أصور ما يتراءى للشرقي إذا ما وقعت عيناه على هذا الرجل ذي الجلباب الطويل والبلغة الصفراء، ومن هاته الصورة تدركون سمعة المغربي في ذلك الوسط الشرقي، فلننتقل إلى ناحية ثانية من الموضوع وهى كيف يتصور الشرقي بلاد المغرب.

آه ... يا بلادي، إنك مهضومة الجانب حتى في بلاد تتحد معك في اللغة والدين والاتجاه إد تتراءى لهم في صورة تتألمون إذا ما أدركتموها ، ولكن سيشعر المغربي المثقف بوخز في ضميره حيث لم يسع جديا في الدعاية لبلاده والإعلان عنها تلك البلاد ذات التاريخ المجيد والحضارة المتأصلة.

فنحن المدنيين في نظر أغلبية السكان هناك نعيش في خيام وحظنا من الحضارة حظ البدو في بلاد لا أثر للجمال الطبيعي فيها، فأين قصورنا الفخمة، وأين فننا المعماري المغربي الجميل، وأين مؤرخونا، وأين علماؤنا، وأين هذه الآثار الخالدة التي ورثناها عن الموحدين

والمرينيين والسعديين والعلويين؟ تلك آثار لا يتصور الشرقيون لها وجودا في بلاد الأمويين أو بلاد العباسيين.

ولكن ألا ترون أنها في بلادنا أيضا لا زالت ملفوفة في أكفان الموت، مجهولة الموضع والقيمة، وشبابنا هذا المثقف شاء البعض منهم اليوم أن لا يعترف بمجدها.

وهكذا سوف لا نكون قد حافظنا على تراثنا المجيد، بل ألقينا الكل في زاوية المهملات، ولم نتصل بالماضي لنعمل بروح الأمل في المستقبل، ونجتاز عقبة الحاضر اجتياز المفتخر بما لديه من عناصر المدنية التي نستطيع - وخصوصا في الناحية الاجتماعية والفنية - أن نسميها حلقة وصل بين مدنية العصور الوسطى التي ازدهرت على ضفة من البحر المتوسط ومدنية اليوم التي تزدهر على الضفة الأخرى من ذلك البحر، ومع ذلك فنحن كلما ابتعدنا عن هذه البلاد المغربية ازدادت صورتنا في ذهنية القوم هناك اضطرابا وتشويها.

أما حياتنا الفنية فلا توجد عنها صورة تامة التكوين لدى إخواننا الشرقيين وهذه الناحية من حياتنا مجهولة تمام الجهل عندنا نحن المغاربة أيضا، فلا نتصل بها اتصال تذوق وتمتع بجمالها، بل اتصال ممارسة أو اتصال عادة، وكل ما يعلم الشرقيون في مصر عن حياتنا الفنية خطوطا من صورة عن الموسيقى المغربية حيث استمع الهاوون لهذا الفن الجميل إلى أدوار قام بها الوفد المغربي في مؤتمر الموسيقى الذي عقد منذ سنتين في القاهرة، ويسوؤني أن أعلن أن تلك الصورة مشوهة لا تناسب مطلقا ماضي الموسيقى المغربية الأندلسية الجميلة، بل لا تناسب حتى هذه اليقظة الفنية والعلمية التي بدأت تدب من جديد في حياتنا الموسيقية.

وما دمت في عرض الصور التي تتراءى للشرقيين عن المغرب وعن المغربي فمن واجبي أن أشير في ختام حديث الليلة إلى هذا العطف الأخوي الذي بدأ المغربي يشعر به عندما يجالس المثقفين الشرقيين، ذلك العطف الذي قوت جذوره العاطفة الوطنية ووحدة

الاتجاه الذي ترمي إليه كل الشعوب العربية في الآونة الأخيرة، وإن من واجبي أيضا أن أثنى الثناء العاطر على رجال الصحافة العربية لما ينشرونه عن المغرب وعن حركته ونهضته وتفاؤلهم بمستقبله، وأرجو أن يعمل أبناء المغرب على وصل بلادهم بالمجموعة العربية التي يعلق عليها الأمل في أن تأخذ بيد الحضارة في المستقبل القريب، وتتجه بها نحو الصلاح والخير الإنساني في أسمى مظاهره، ذلك الوصل الذي تتلاشى معه هذه الصورة المتقدمة المشوهة التي يرى بها المغرب والمغربي في وسط الشرق العربي.

وكلمة ختامية في سطور آتي بها وأفارق المنصة وهى أنني لم أذكر نصا لأستدل به على هاته الصورة التي قدمتها عن المغرب، والسبب في ذلك أنه لم يؤلف في النهضة الحديثة أى مؤلف عربي عن المغرب، ولم تنشر مقالة بأقلام شرقية عن ناحية من نواحي المغرب الاجتماعية أو الفنية، وإنما ما ذكرت ليس إلا نتيجة مشاهدات وملاحظات أدركتها أثناء إقامتي بالشرق العربي ، فالمعذرة إذن أيها الإخوان.

من تقاليدنا الخالدة

سلطان الطلبة

- 1 - وصف الحفلات

إذا أقبل الربيع وابتهجت الحياة للترحيب بشبابها فاخضرت الأرض وتفتحت الأزهار على لون جذاب ورائحة تغمر النفس وصاحت الأطيار فوق الأغصان تدعو الإنسان إلى الاعتراف بقدسية جمال الطبيعة وإلى الاستمتاع ببرهة من الزمان يغفل المرء فيها عن شؤون الحياة المادية ويتجه بجميع حواسه إلى عالم يجد روحه فيه تحيا في دنيا الشعر والجمال، دنيا الخيال والمتعة التي لا تحيطها سنن مجتمع ولا تدفعها غرائز جسم ،

إذا أقبل الربيع رأينا أنفسنا مسرعي الخطى لنتربع بين أحضانه ساعات أو أياما نختلسها من أنصاب الزمان لننسى الزمان.

فبين أحضان الربيع - شباب الحياة - يجدد المرء شبابه ويغترف من بحره المتماوج ذي الشمس المشرقة والنسيم العذب خطرات هى أمتع ما في الحياة من ذكريات بل إنها الحياة وما أتعابنا في هذا الوجود إلا سعى وراء تقديس الجمال وما الربيع إلا الزهرة اليانعة الجمال.

فلتتحدث إلينا لفظة « النزهة » عن الربيع في وسطنا المغربي فهى أمتع ما في حياتنا من مظاهر وصورتها أرسخ ما في نفوسنا من أي أيام أخرى نقضيها بين حيطان المدينة طول السنة جادين أو لاهين.

فقد يمحى كل شيء من ذكرياتنا محوا تاما وتنعدم أية صلة بيننا وبين الماضي في مختلف أدوار حياتنا ولكن أيام النزهة السعيدة هى التي ترتسم في مخيلتنا وهى التي يكتب لها

الخلود ونستوحي منها جمال الأحدوثة وعاطر الذكرى، فترى الشيخ منا بعدما انزوى في زاوية من زوايا البيت وأمامه موقد النار يدفأ لا يتصل بماضيه الحافل إلا عندما يذكر لفظة « النزهة » فترى البشر على وجهه يطفح وترى دم الشباب يعاوده لينطلق في حديث شهى عن يوم من أيام الربيع مر عليه في « النزهة » مع خلانه أو بين أعضاء عائلته، بينما مغامراته في حياة المدينة توارت جميعها من ذكرياته واحتلت حيزها من العدم.

فالنزهة في وسطنا تمثال خالد للربيع الذي يتجلى بهاؤه في الأرض المغربية في أروع صورة؛ فبعد أن يمر فصل الصيف بسمومه وفصل الخريف بذبوله وفصل الشتاء بدموعه يأتي إلينا الربيع مستبشرا ضاحكا فنسارع إلى إقامة تمثاله ونختلس من أيام الزمان ما استطعنا لنسلم النفس إلى جوه المنعش ولونه السحري ويقظته الحلمية.

فلا يطلع على المغربي الربيع حتى يطلع من المدينة ليسارع إلى الحديقة أو يجلس على ضفاف الوادي وحتى ترى العائلات زرافات زرافات تقصد المنتزهات منشدة أمتع شعر ومترنمة بأعذب صوت.

تلك هى النزهة في وسطنا العائلي وبين أصدقائنا، فما هى النزهة في وسط الطلبة الحى بدم الشباب وحرارة الشباب؟ تلك هى المعجزة وتلك هى العادة الرائعة التي حفظها لنا ميراثنا الخالد فامتاز بها وسطنا المدرسي عن جميع الأوساط المدرسية في الأمم الأخرى، وتلك العادة هى ينبوع الشعر الخالد وفيض السعادة للشباب ربيع الحياة.

فأى بلاد من بلدان العالم تهتم بالربيع وبالطلبة حتى أنها تحرص على أن تقيم مهرجانا في كل سنة لتتوج من طلبة جامعتها الكبرى فتى يسارع إليه ملك البلاد ليحييه ويقدم له الهدايا مسرورا مغتبطا؟

إنها بلادنا التي تركت لنا من التقاليد ما نحن محافظون عليه ومفتخرون به ؛ إنها بلادنا التي تحرص على أن تتمتع بالربيع وتضرب عاصمتاها أعلى سهم في ذلك فتترك الأجيال

مثالا حيا لتقديس الربيع وإعزاز الطلاب.

ففي فاس الخالدة حيث يستوي الربيع في أحسن صورة وحيث يكمل بهاؤه على ضفاف وادي الجواهر وحيث الوسط الجامعي المحبوب إلى النفوس يجتمع الطلبة ليرفعوا إلى ملك البلاد ورمزها الخالد أمنيتهم في إقامة موسمهم العامر فيتفضل الملك المحبوب لإجابة رغبتهم بواسطة الصدر الأعظم رئيس وزارته فيعقدون عدة اجتماعات تمهيدية لتنظيم الحفلات وإعلان سمسرة السلطنة بين الطلاب الأفاقيين الذين يتغربون عن بلادهم وأهلهم السنين الطوال في سبيل الثقافة العلمية.

وفي أول جمعة تلي إذن جلالة الملك بعد الظهر يعقد طلبة المدارس اجتماعا كبيرا بفناء جامعة القرويين الواسع، وتعلن السمسرة بصفة رسمية وتقع المزايدة بين الطلاب على نيل هذا الشرف العظيم، وتظل المزايدة يومين بعد الظهر ثم ترسو على أحد الطلاب وكثيرا ما تبلغ المزايدة 20 ألف فرنك أو أكثر، وبعد انتهاء المزايدة يعلن الطالب سلطانا للطلبة فيرجع إلى مدرسته حيث يختار من بين أصدقائه الطلبة هيأته الوزارية وحاجبه وقواد المشور وأمينا لمصروفات النزهة التي ربما تظل أسبوعين ولا يلزم في اختيار هذا الأمين أن يكون من الطلبة، بل كثيرا ما يكون من غيرهم وتجمع تلك المصروفات من المقدار المشترى بها سلطان الطلبة سلطنته وهدايا الحكومة المغربية وهدايا الهيآت الفاسية والضرائب التي يفرضها سلطان الطلبة على أعيان المدينة بواسطة اعلامات موقعة بطابعه.

ويعين سلطان الطلبة محتسبا ذا استعداد للهزل والمزح يجول في الأسواق يراقب الأسعار ويعير الموازين ويحلل المبيعات ويستحصل الضرائب والذعائر التي يتعمدها والتي يؤديها جميع التجار بارتياح كبير تنشيطا للطلبة ومشاركة منهم في نزهة الشباب الحافلة.

وفي الجمعة التالية على الساعة الحادية عشرة يغادر سلطان الطلبة مدرسته في موكب رسمي مع جميع وزرائه وحجابه ويرسل إليه السلطان فرسا مطهما وكسوة تامة ورئيس حفلات القصر وفرقة من الجند وأعوان الباشا ويقصد الموكب جامع الأندلس لصلاة

الجمعة، وبعد ذلك يقصد الموكب مدفن سيدي حرازم بباب الفتوح حيث يزوره سلطان الطلبة وأثناء سير الموكب والزيارة يبيع الطلبة التمر للمتفرجين وكثيرا ما تشترى التمرة الواحدة بأزيد من 10 فرنكات ويجمع محصل ذلك ليضاف إلى ريع الحفلة ويرجع سلطان الطلبة في موكبه عند المساء إلى مدرسته.

وفي الغد بعد صلاة الظهر يخرج موكب سلطان الطلبة المدينة مارا على سوق العطارين والطالعة ويخرج من باب محروق ويمر بين فاس الجديد وقصبة الشراردة إلى ضفاف وادي فاس حيث يكون باشا فاس الجديد قد أعد قبابا كثيرة للطلبة وواحدة لنفسه حيث يحافظ على الأمن أثناء النزهة وتختار أوسع القباب وأجملها للصلاة توضع بجانب قبة سلطان الطلبة ثم يشرع الأمين في توزيع محصل الريع على الطلبة الذين يكونون جماعة في كل قبة ويصرف السلطان من نفس ذلك الريع.

ويحلو للفاسيين أن يقضوا يوما أو يومين بين الطلبة، لذلك يسارعون إلى احتلال أمكنتهم على ضفاف النهر الجميل وينصبون قبابهم ويحملون معهم ما يلزمهم للنزهة.

ويقضي الطلبة يوم الأحد في تسلية وراحة ويوم الإثنين يخصص لاقتبال أمير من العائلة المالكة حيث يشرف الحفلة بنيابة عن ملك البلاد ويقدم هداياه المتنوعة مما يتوقف عليه الطلبة في نزهتهم من مؤونة ودراهم.

وتتوالى هدايا أرباب الحرف حيث تهدي كل حرفة ما يناسبها، وكذلك يهدي يهود المدينة هدايا متنوعة ومن الساران الأوربيين في هذا العهد يقدمون بعض الهدايا، ففي سنة من السنوات الأخيرة أهدت مثلا نقابة المحامين بفاس ساعة قيمة لسلطان الطلبة.

وتقام المخزنية في قبة سلطان الطلبة طول النهار حيث يشتغل وزراؤه بإعداد ظهائر بواسطة كتاب من الطلبة وتقام عدة مناورات هزلية للترويح عن نفوس الطلبة.

وفي اليوم السادس من الحفلة يقصد ملك البلاد نفسه في موكبه الرسمي ضفاف النهر حيث الطلبة يتمتعون بجمال الربيع فيسلم عليه سلطان الطلبة أولا ثم يقف أمامه على

فرسه والسلطان على فرسه ويحتفظ سلطان الجامعة بجميع مميزات سلطنته وهنا يمثل دور هزلي في غاية الإبداع دلالة خالدة على تقدير الشعب المغربي وملوكه الأباة للعلم ولطلبته. هنا تتجلى الديموقراطية الصحيحة وتعلن الحكومة المغربية احترامها لرجال الغد فيتنازل الملك الذي لا يجرؤ أحد على رفع صوته أمامه ليمزح مع الطلبة.

فإن الملك المغربي الذي تخضع له مملكة شاسعة الأطراف عديدة المدن كثيرة السكان لا يرى في مزح الطلبة في نزهتهم إلا متعة بريئة فهو يتنازل كل التنازل ليسمع حديثا هزليا، فإن رئيس حفلات سلطان الطلبة يتقدم من الملك الأصلي أمام الجمهور المحتشدة ويصيح بأعلى صوته في وجهه قائلا: كيف استطعت وأنت ملك المغرب العادي أن تتقدم أمام أكبر أمير على وجه الأرض الذي يتصرف في ملايين من البرغوت والذباب والنمل والضفادع وغير ذلك من الحشرات؟

فيحتج الملك الأصلي مازحا، ولكن سلطان الطلبة يرحب به ويأذن له بالإقامة في مملكته، وهنا يصعد خطيب هزله ويلقي أمام السلطانين وأمام الجماهير الغفيرة خطبتين في التنويه (بالزرود) والحمد للذي أوجدها وهيأها للمعدة.

وبعد أن تتهى الخطبتان في موجة من المرح والهزل يطلب السلطان من سلطان الطلبة الإذن للرجوع، وهنا ينزل سلطان الطلبة عن فرسه ويقبل رجلى ملك البلاد ويقدم له مرغوبه الذي يحظى بمساعدة، وهو إما إطلاق سراح أحد المسجونين من عائلته أو نيله لوظيفة أو استثناء من جبايا، ويكتب هذا المرغوب في صورة ظهير يمضيه سلطان الطلبة.

وعندما يغادر سلطان المغرب ينعم على الطلبة بتمديد أسبوع آخر لنزهتهم. وفي آخر ليلة من النزهة يجب على سلطان الطلبة أن يغادر مكان النزهة سرا إلى مدرسته خوفا من أن يثور عليه رعاياه الطلبة هازلين مازحين حيث يصبح بعد انتهاء حفلات النزهة فردا مثلهم وذلك خوفا من أن يدور في خلده أنه نال شرفا على إخوانه الطلبة.

وحدثني صديق فاسي أنه منذ عشر سنوات مثلت شبيبة فاس رواية على مسرح عمومي،

فاعتقد الشخص الذي مثل دور الملك أنه أصبح أعلى من عامة الناس وأن بعض مصادمات جرت له تفسر لنا مغزى عادة فرار سلطان الطلبة إلى مدرسته في آخر ليلة من الحفلة حيث ينتزع عنه مظاهر الأبهة وصور الاحترام الذي تلازمه أسبوعين تامين فإنها أضرت شخصا لازمته ثلاث ساعات على مسرح فكيف يتصور الشخص الذي لازمته نصف شهر؟

- 2 - أصلها التاريخي

والآن بعد أن وصفت الحفلة وسردت خطبة من خطبها ألستم ترونها عادة رائعة يجب أن يحافظ عليها وأن نهتم بها وأن نسارع لنشاهدها، فهى صورة خالدة عن اهتمام أسلافنا بالعلم وبطلبته.

ولكن ما أصل هذه العادة الجميلة؟ وكيف نشأت؟ وما باعث لسلاطين المغرب على هذا التنازل لتصوير العلم هذه الصورة الرائعة إذ يمثل طلبته جزءا من سيادتهم ويمزحون أمامهم مزحا يتصل بذات السلطان نفسه.

إن المؤرخين المغاربة لا يعرون هذه النزهة ما جديرة به، فلم يهتموا بتسجيل نشأتها ولا بوصفها ولا بإطالة الحديث عنها مع ما هى ترمز إليه ومع أن مغزاها خالد مدى الدهر ومع أن المغرب وسلاطينه يحافظون كل المحافظة عليها، فلا يتأخرون في أية سنة عن السماح للطلبة بمتعتهم الخالدة.

وإذا استطاع المؤرخ في يوم ما أن يحدثنا عن هذه النزهة بإسهاب ويصورها أمامنا في صورة واضحة خلال عصور التاريخ فإن المؤرخ بذلك سينير حياتنا الفكرية الماضية المجهولة بعض الشيء.

فليس لدينا إلا بعض إشارات في كتب التاريخ تعيننا على فهم أسطورة تدور على أفواه

العامة عن أصل هذه النزهة ولعله من تلك الإشارات وهذه الأسطورة نستطيع أن نحيط علما بالمسألة.

ففي الأسطورة انه عندما حصلت الاضطرابات بعد أن تضعضع السعديون كان بجوار مدينة تازة يهودي يسمى ابن مشعل من الأغنياء فجار على مقاطعتها وأصبح سيدها المطلق وان نفوذه امتد إلى فاس فأرغم الفاسيين على الاعتراف بسلطته المعنوية، وذلك بإرسال هدية كل سنة هى أجمل فتاة في المدينة يضمها إلى حريمه، وفي تلك الأثناء كان من طلبة جامعتنا بفاس مولاى رشيد العلوي فلم تتحمل نفسه هذه الإهانة خصوصا وأن الفتاة التي عينت في تلك السنة لهدية اليهودي كانت شريفة من البيت العلوي، فقدم نفسه لمغامرة خطيرة فتزى بزي الفتيات وتحجب وأرسل في موضع تلك الفتاة وأرسلت معه شورتها التي هى عبارة عن أربعين طيفور في كل واحد منها طالب من رفقائه مسلحين، فرحب ابن مشعل بالفتاة على زعمه وأدخل شورتها إلى داره، وبعد أن أقفل الباب قتله مولاى الرشيد وساعده الطلبة الأربعون وبايعوه بعد ذلك.

فأراد مولاى الرشيد تخليد مبايعته وتكريم الطلبة الذين أعانوا سلطنة المغرب على الخلاص من يهودي جائر فأصدر أمره بإقامة حفلة سنوية يتوج فيها طالب من طلبة الجامعة العظمى بفاس الخالدة. وكتب التاريخ وإن كانت تجهل هذه الأسطورة بأدوارها الروائية ومفاجآتها الغرامية فهى لا تنكر أنه وجد في ذلك العهديهودي يسمى ابن مشعل عاش في منطقة تازة وأن مولاى الرشيد قضى عليه وأخذ أمواله.

وفي نشر المثاني الذي ألف حوالى سنة 1170 ما تلخيصه:

وفد مولاى الرشيد على رئيس يدعى الشيخ اللواتي، وبينما هو في ضيافته إذ رأى رجلا بهيأة من خيل وأتباع وممالك وهو يصطاد كهيأة الملوك فسأل من هو فقيل له ابن مشعل من يهود تازة فتنحى سريعا وجعل السكين في فمه واستقبل الشيخ اللواتي فلما رآه بادر إليه قائلا: لبيك يا سيدي لا أعز عنك رقبة ولا مالا ؛ فاقترح مولاى الرشيد أن يهيأ له

خمسمائة أو نحوها من إخوانه الأبطال ليفتك باليهودي، فوعده الشيخ اللواتي ألا يتخلف واحد منهم عنك أينما توجهت فتواعد معهم أن يمروا خفية متفرقين ويلحقوا به إلى دار ابن مشعل وهى على نحو نصف مرحلة من تازة في البيداء، ثم تقدمهم إليها واستضاف اليهودي فأضافه وتبعه الأبطال فأحاطوا بالدار بعد أن أظلم الليل بحيث لم يشعر بهم أحد وبحيث يتصل بهم إن احتاجهم، واحتال حتى اتصل باليهودي في خلوته فبطش به وقتله وأدخل الرجال باحتيال صادف به مرامه فاستولى على دار اليهودي وأخذ منها أموالا كثيرة وذخائر نفيسة.

ويقول نقيب العائلة المالكة المؤرخ ابن زيدان في الدرر الفاخرة نقلا عن كتاب فتح المنان شرح قصيدة ابن الونان:

إن مولاى الرشيد هو الذي سن نزهة الطلبة الجاري العمل بها كل سنة بفاس ومراكش زمن الربيع، وذلك أنه لما فتك بابن مشعل واحتوى عل ما كان لديه من الذخائر جعل لمن كان في معيته من الطلبة نزهة فاخرة ، وقد كانوا نحو الخمسمائة ومن يومئذ اتخذت عادة سنوية مدة حياته وبعد موته.

القوتان المتعاكستان

المغرب

السنة الأولى - العدد 32 - الإثنين 19 ربيع الأول عام 1356 الموافق 28 يونيه سنة 1937

في العدد الأسبق ترجمت « المغرب » كلمة لصديق نشرتها جريدة « عمل الشعب » من سلا عن النادي الأدبي الإسلامي السلوي، وقد أتيح لي أن أكون عضوا في هذا النادي منذ تأسيسه إلى الآن فرأيت حالة واضحة من الصراع بين قوتين متعاكستين تتفوق فيه إحداهما فتسلب الأخرى إلى أن تغلبت القوة السلبية، فبقى النادي المعترف به ذكريات في أذهان أفراد قلائل.

لقد أسس هذا النادي كبذرة أولى للأعمال التعاونية في المدينة، فكاد حصاد تلك البذرة يكون مثمرا، وتوفق مجهود الشباب الفتى إلى طريق للعمل لرفع مستوى طبقة رجال المستقبل لولا أن السلطة كانت تغتنم جميع الفرص وتتحيل بمختلف الأساليب لتقف في طريق ناد كل مرماه أن يساعد شباب المدينة على خدمة أنفسهم وفسح آفاق الحياة أمام أعينهم وبث روح الألفة والتعاون بينهم، فظلت الإدارة تختلق العقبات اختلاقا وتلفق الأعذار تلفيقا لتضع حدا لنشاط هيئاته الحازمة وتعاكس مشروعاته الرامية إلى خلق جو فكري بين شباب المدينة؛ فالمرء إذا استعرض تاريخ هذه المؤسسة الصغيرة يجده طافحا بشتى الأماني التي جالت في أذهان شباب المدينة وشتى العراقيل التي وضعت لتلك الأماني حتى كادت تقضي على العزائم، ويستطيع كل إنسان متصل بالنادي أن يستعرض ذلك مع نفسه، لذلك فإني أود إلا أن أوجه كلمة إلى رجال السلطة أوضح لهم فيها أننا

نريد أن ننسى تصرفات الماضي بما فيها، ونعد أنفسنا للاهتمام بأمر المستقبل؛ فهل تستمر خطة المعاكسة نشيطة كما كانت في الماضي؟

لقد أسس النادي لغاية تعاونية لا ترمي إلى أية ناحية سياسية ، ولقد حافظت جميع هيئاته الإدارية على تلك الصبغة التعاونية، فلم يعرف في تاريخ النادي أى خروج عن خطته المرسومة الواضحة في القانون الذي اعترفتم به بعد أن نقح مرات عديدة، فلماذا تعاكسون سير النادي في خطته؟ ولماذا تنظرون إلى أعماله التعاونية المجردة عن أي تيار يتصل بالسياسة كأنها أعمال عدائية؟ أتكون جميع الأعمال التي تؤدي إلى تكوين فكرة تعاونية في دائرة الثقافة أو دائرة الاجتماع أو الاقتصاد معتبرة في نظر الرجال المسؤولين مخلة بمهمة فرنسا التمدينية بهذه البلاد؟ فإذا كان هذا اعتقادهم فإننا نسألهم ما هى إذن تلك المهمة التمدينية. أهى أن نبقى في جمودنا وغفلتنا ونظل منبع خير لغيرنا ومصدر شقاء لأنفسنا؟

إننا نريد أن نعتبر المرحلة التي دخلها المغرب كفيلة بوضع حد لجميع تلك التصرفات، فيدشن الشباب المغربي عهدا جديدا يألف فيه الأعمال المثمرة ويجد من المسؤولين تشجيعا وتنشيطا ونريد أن نسدل ستارا كثيفا على الأعمال الماضية، فهل يرغبون في هذا النسيان؟ وهل يحرصون على فتح الطريق أمام الجيل المغربي الفتى؟

اليوم كالأمس

يقولون إن البشر عاش قرونا وقرونا وهو في الغاب يتشاجر ويتقاتل ليعيش كما تتشاجر الحيوانات وتتقاتل، وإن البشر الذي تميز بالعقل ورقى في العواطف سرعان ما خرج من الغاب ينشد المدينة وسرعان ما أولد لدنياه الجديدة من الأنظمة والقوانين ما أباح به لنفسه أن يسخر كل الحيوانات وهو زعيم أنه رأس الحضارة وأن سلالته تسمو إلى درجة لا تدرك. ولكن البشر الذي اتخذ من تلك القوانين والأنظمة ستارا ليخفى وراءه مطامعه الأصيلة لاستغلال الحيوان لم يكتف بذلك بل شاء إلا أن يعبر في كل فترة أنه خرج من الغاب دون أن يخرج من طبائع الغاب.

ما ذا تفعل البشرية اليوم؟ إنها في حرب كما كانت منذ وجدت الحياة في الغاب تتشاجر لتتقاتل لا بالعصى، ولا بالسيوف ولكن بالمدمرات الهالكة والسموم الفتاكة.

والغريب أن البشر حتى في هاته الحالة يريد أن يختفى وراء الألفاظ المعسولة؛ فما من محارب إلا وهو ينشد حرية، وما من مقاتل إلا وهو يدافع عن شرف، وما هما في الحقيقة إلا فرد الغاب يريد أن يقاتل ويحب أن يسفك الدماء إرضاء لتلك النزعات التي تمتلكه وهو رقيقها وهى مسخرة له. يقف اليوم العالم جميعه في صفين متقابلين كما وقفت بالأمس جماعات الغاب وأساس حياتها حب الغزو والميل لا إلى الفتك فإذا شنت ميلها الحيواني ارتمت صريعة تقاسي من أهوال الحرب وتئن من ويلاته وتسخط عمن دفعها إلى هذه المجزرة فإذا ما نجت نست كل تلك الأهوال وجميع هذه المصائب وأخذت تفكر من جديد في مجزرة أشنع. تلك هى البشرية في المدينة كما هى الحيوانية في الغاب. الفرق الوحيد بينهما أن الأولى تخفى نزعاتها وراء الألفاظ بينما الثانية صريحة متجردة تفعل ما أمرت به ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ليسمع الشباب

المغرب

السنة الأولى - العدد 22 - الاثنين 27 ربيع الأول عام 1356 الموافق 7 يونيه سنة 1937

منذ عشرة أيام مات أعظم غنى في العالم المستر « روكفلر » وقد كان يملك 480 مليون جنيه وأنشأت الصحف بهذه المناسبة مقالات طويلة عن حياته ورجولته ومرحلته الأخيرة حيث ظل ما يزيد عن ثلاث سنوات يعيش عيشة آلية لا يأكل ولا ينام إلا في الساعة المعينة من الأطباء إلى أن وافته المنية وعمره 97 سنة وقد وهب ثروته العظيمة لأعمال الإحسان والتعليم في جميع أنحاء الدنيا. مات هذا الغنى فأسف الجميع لفقده إذ كان مثلا أعلى للكرم ولبذل الملايين في سبيل خير الإنسانية وسعادتها. وقد يتساءل المرء كيف جمع هذه الثروة الضخمة. فقد خطب في حفلة تدشين القاعة التي وهبها للأبحاث العلمية بالجامعة الأمريكية ببيروت منذ سنوات قلائل فقال: « عندما بلغت الرشد استدعاني أبي - وقد كان غنيا - إلى بيته فوجدت أمي جالسة، فقال لي اليوم بلغت سن الرشد ولكى تكون رجلا يجب أن تفكر في طريقة لتكسب عيشك، فلتغادر منزلي ولتجرب حظك ورجولتك في الحياة ولا تعتمد على ثروتي الضخمة فليست هى من عرق جبينك. فخرجت في ذلك اليوم ولم أعد لمنزل أبي إلا لصلة الرحم وبدأت أشتغل فأجد مشقة إثر مشقة وصعوبة تلو صعوبة، وكثيرا ما دفعني الفشل إلى التفكير بالاستعانة بمالية أبي، ولكني سرعان ما كنت أتراجع عن هذه الفكرة وأصبر للصدمات وأسير في طريقي، وبعد ذلك بسنوات مات أبي وقد وجد الحال أن ماليتي تربو عن مائة مليون جنيه، فلم أفكر فيما تركه لي أبي من ثروة وعزمت إذ ذاك على صرفها في الخير وفي سبيل العلم ... »

ليستمع الشاب المغربي لعصامية غنى الدنيا.

الحب والصداقة

ولع الإنسان بالتحليل والتعريف المنطقي في أية صورة تعرض له فهو يشاء إلا أن يتأبط المقاييس المصطلح عليها بين الناس ليطبقها في سائر جزئيات الحياة الإنسانية مهما أحيط بتلك الجزئيات من غموض وعوارض لا يمكن معها أن تتخذ تلك المقاييس أداة تعريف وحكم.

ولع الإنسان بالمقارنة والمفاضلة، لذلك فهو لا يفتأ الا يأخذ من المثلين أو الضدين صورة من المفاضلة أو بعبارة أدق من تبرير أفضل ما ترغب فيه نفسه وتتوق إليه، والإنسان في ذلك لا ينفذ إلا رغائبه الفكرية حيث يستلهم أشباح المعقولات في نطاق الروح الذي يجب علينا أن نعرف بصراحة أن له مقاييس أخرى غير تلك المقاييس المنطقية، مقاييس نشعر بها ولا نلمس لها من وجود إلا متى أبعدتنا كثيرا عن المادة واتصلنا بإحساسنا الإنساني البحت.

إنك تسلم معي أن الحب شيء، فوق متناول المادة لا يقايس بقوانين العقل والمنطق، شيء لا يجب أن نصله إلا بشعورنا الغامض المكين في نفوسنا المستقر على أجنحة ما في ذاتيتنا من إدراك سامي لمعاني الوجود والحياة.

وتسلم معي أيضا أن الصداقة الحقة هى إحساس لا يقل في قوته عن ما في الحب من إحساس وشعور ولا تجادل إلا في أن الصداقة مهما قوى إحساس المرء بها لم تكن أعمق من إحساسه بالحب حيث أقول لك إن الصداقة تكاد أن تكون أسمى بكثير من الحب تجادلني في ذلك وتأبى أن تسلم بي مهما جهدت النفس في أن تعبر لك عن إحساسها القوى الغامض بالصداقة التي أشعر بها عندما تتجه قواى الروحية إلى صديق أو صديقين لي أشعر نحوهما بهذه القوى الجبارة المصارعة لما في نفسي من نزاعات أخرى

كلما ذكرتهما وكلما جالستها.

ولست أريد اليوم أن نقف متجادلين في هذه النقطة، فلها وقتها ولها مجالها في يوم آخر؛ أما الآن فحسبي أن أعرض عليك صورة سريعة عن مقارنة بسيطة بين جزأى العنوان، بمناسبة أثارت في نفسي ذكرى الصداقة وذكرى الحب فأحييت أمام مخيلتي الماضي بصورته القوية الصادقة فسلمت بنفسي إليها ساعة من الزمان تعرفها عزيزة على.

مناسبة مطالعتي لفصل في كتاب عن الحب فقلت في سري لماذا ألف عن الحب هذه العشرات من المؤلفات ولماذا بقى الحب مدة طويلة من حياة الإنسانية ميدانا للشعر لا ينتقل منه إلى غيره إلا في فترات قصيرة ليعود إليه، بينما الصداقة وقوة إحساس المرء بها كما تعرف وأعرف لا نجد فيما تركته إليها أجيال السلف إلا بعض سطور تأتي في مناسبة عارضة ثم تختفي عن الأعين في لمحة وجيزة المدة الطويلة.

ولقد تساءلت هذا السؤال أمام صديق فحاول أن يجيب عن سؤالي بإنكاره قائلا: وهل هناك فرق بين الحب والصداقة؟ الحب هو الصداقة والصداقة هى الحب.

فابتسمت وقلت له: وهل تذوقت إحساسهما معا حتى يتاح لك أن تسرع في حكمك هكذا؟

- لقد عرفت الصداقة ولكني لم أعرف الحب.

- إذن، أنت لم تعرف الصداقة إلا بمقدار بسيط جدا.

- وماذا تعني؟

- أعني أنك تعرفت إلى اصداقة في أبسط صورها ولم تتصل بها في أعمق صورها. فالصداقة التي أود أن أقارنها بالحب الجنسي هى ذلك الامتزاج القوى الذي كل غايته وكل ما يصله إليه المرء بعده هو الامتزاج الذي لا غاية بعده. الامتزاج بين روحين لا يتولد عنه من التفاعل إلا المزج الحقيقي.

- غمضت؟

- أصحيح غمضت، ولم تقول إنك تعرفت إلى الصداقة ومثل هذا الكلام البسيط يعسر عليك ويغمض عينيك؟

- غمضت لأنك تتحدث عن ما ليس له صلة بحياتنا.

- وها أنت ثانيا تعترف بعجزك عن فهم الصداقة، فلقد خيل إليك أن حديثي عنها طلسم لا يحل ولا يطبق على الحياة الإنسانية، وأني جازفت في الخيال وأطلقت لنفسي عنانها في ميدانه. أليس كذلك؟

- ربما.

- إذن، اعلم أن الصداقة أعمق مما تصورت؛ فإحساس الصداقة الحقة قلما يدركه المرء العادي الذي لا يرى الحياة إلا في صورتها المادية ولا ينفذ إلى صميمها. فالصداقة هى أن تشعر بوجودك في غيرك. وهذا الشعور لا يتاح لكل فرد يسير على اثنين.

- وكيف ذلك؟

- يا لله أو تشاء أن تجعل مني جبرائلا ثانيا يميت الأرواح ويحييها من جديد في صور جديدة حتى أستطيع أن أجعل منك شخصا يفهم أسمى ما في الحياة الإنسانية بعد أن لم يمنحه الباري الموهبة لفهم مثل هذه الإحساسات.

ومالي أجاري هذا الصديق في رسالتي إليك وهو يفهم عن الصداقة ما تفهم هذه الأشباح التي تتوارى في الشارع متقاتلة وراء المصلحة الملموسة. فلا داع ما دار بيني وبينه في جدران مكتبي لأتحدث إليك عن قلبي وروحي.

قليل يا صديقي من يفهم معنى الحب ويقدس عناصره. وأقل من ذلك من يرى للصداقة من رابطة إلا رابطة الاجتماع حيث يتاح للإنسان تبادل المنافع في يسر ولين. أما صور الصداقة فإنك لا تجدها مرسومة قوية إلا في كتب الصوفية الذين يعرض عليه عامة الأفراد بدعاوي الغموض واللبس.

لعلك قرأت فصلا أو فصولا من كتب هذه الجماعة التي لا تعيش للتعيش بل ترى في

الحياة لذة لا تستطيع أن تشمها على وجه التحقيق وإنما هى لذة تغمر الإنسان بإحساسه فيتنسى وهو ينشدها ما حواليه. تعرف أني ولعت بقراءة ما أنتجته عقول الصوفية وإني أخلو إلى ذلك الإنتاج كلما سمحت لي شواغل الحياة، تعرف هذا فقد تحدثت إليك عنه طويلا، ولكنك لا تعرف أصل وسبب شغفي بهذا الإنتاج الغامض الواضح معا. لقد وجب على وأنت صديقي أن أوضح لك السبب حتى أستريح وأؤدى للصداقة واجبي نحوها. فإني لها مدين بما أجده من لذة كلما اهتممت بقراءة كلام المتعطشين لحياة الروح الأزلي. فصدفة ألقى إلى بكتاب وصدفة كان الفصل الذي فتحت عليه الكتاب عن الخل الوفى، فإذا ما ألقيت بعيني على سطور الفصل قرأت فإذا بأشجاني تثور وإذا برغبة تتوالى في نفسي أن أقرأ ما عسى ولعل فيه ما أنت تتساءل عنه، حيث تجحد أن عبر الكتاب مشاعرهم نحو الصداقة.

لقد التهمت الفصل ثم والكتاب ثم سعيت حيث المكتبة، فكان حظي منها مجموعة كتب للصوفيين ما كدت أرجع إلى البيت حتى تصفحت بأجمعها كما هى عادتي وأنا كلي رغبة في أن أستمع إلى هؤلاء الذين لا يرون الحياة إلا بالعين المجردة ولا يفهمون هذا الوجود من طريق العقل وكفى، بل لهم طريقة أخرى تظهر للبعض ملتوية وهى في الحقيقة مستقيمة فخيل إلى ذلك البعض أن لا استقامة لها.

الحب والجمال

أتذكر أني قلت لأخ لي في مجرى الحديث: « قد يستطيع المرء أن يكتب ما يرتسم في مخيلته في أية حالة إلا في حالتين، فإنه يعجز عن الكتابة فيهما، الأولى: عندما تكون الفكرة غير واضحة في دماغه، والثانية: عندما تكون الفكرة واضحة وضوحا تاما. ففي الحالة الأولى يعجز المرء عن الاتجاه الذي تأخذ كتابته، والثانية لأنه يرى وضوح الفكرة وتعمقها في النفس فلا يرى أن الألفاظ كافية لتفسير ما هو منبسط الأجنح على دائرة الفكر ».

تذكرت هذه الكلمة وأنا أفكر أن أكتب كلمات عن الحب والجمال، أستطيع بتلك الكلمات أن أرسم أثرا من الآثار التي تبقى مطبوعة في ذهن الإنسان كلما لابسهما. وليس بالهين أن نتصور ذلك الأثر من أي فرد آخر لو لم ألمسه ويلابس فكري لحظات من الزمان كانت كافية أن يريني صورة عن الحب والجمال في أسمى مظاهرهما طالما نزعت عاطفتي إلى إدراكهما من صفحات كتب النابغين والعبقريين. فكنت القى كلمات ليست إلا ترديدا لصدى ضعيف يقع في النفس عند ملابستها للجمال وعن إدراكها للحب في تلك الصورة السامية.

فما هو الجمال؟ وما هو الحب؟ إننا نتصورهما تصورا واضحا جليا وندرك أثرهما في النفس، لكن هل نستطيع أن نرسم ذلك الأثر في سطور، تكون مرآة لغيرنا يرى فيها كل ما نرى في الجمال أو الحب من قدسية وبهاء وافتتان؟

أى معنى تضم كلمة الجمال إلا أنها معنى شاملة لا توصف وإنما يشعر بها المرء، وأى مبنى للحب إلا أنه تناسق يجد بنا دون أن ندري. إذن، ما ذا عساني أكتب عنهما وأنا عاجز هذا العجز الذي يشرف من قيمتهما ويزيد في أثرهما كلما فكرت فيهما؟ فقد

أستطيع أن أطيل حديثي عنهما وعن حالتي كلما تذوقتهما، لكن ذلك لا يعني أنني صورت في سطوري ما أشعر به ويخالجني، وقد أستطيع أن آتى بتاريخ عاطفتي والأدوار التي مرت بها، من اندفاع باعثة الشهوة إلى مادية مصدرها التفكير إلى تسامي أساسه الجمال المطلق غير المحصور في دائرة من دوائر المادة الضيقة، لكن ذلك لا يكفي لكى يطلع القارئ فيؤمن بفكرتي التي أومن بها لأن حديثي إليه صدى لتموجات لها كل الأثر ولها كل المعاني في أعماق نفسي ليس إلا.

إني أعترف الآن وقد صرعني الحب للمرة الثانية بأني كنت أعتقد سابقا أن العلم المادي كاف وحده ليكشف لنا عن طلاسم الحب وأسرار الجمال، ويرينا مصدره، فنقتنع ويستريح بالنا من هذا الجانب، وقد دام اعتقادي السابق مدة طويلة بالنسبة لما قطعته من حياتي، لكن لم تكتشف لي طلاسم الحب، ولم أعرف أسرار الجمال، بقدر ما تجاهلت وتناسيت تلك المبادئ العلمية نحوهما عندما دق ناقوس الحب في سويداء قلبي وعندما تنبهت من غفلتي المادية إلى مصدر روحي هو الحب.

للكلام بقية هذه تتمتها:

... إذن، فالحب ليس أساسه الجمال وإنما سره أو مصدره بالأحرى تناسب وتناسق في قوى وضعف الفردين المتحابين، وليست القوة هنا أو الضعف بمقياسهما الجسمي أو بصورتهما المادية وكفى بل إن ذلك المقياس يضاف إلى مقياس من قوة وضعف النفس والصلة الروحية بين الفردين.

وأيضا هذا التعريف أو التعليل للحب ضعيف أو سخيف حيث انه استنتاج منطقي لا يتصور له المرء وجودا في دائرة خارجة عن حدود خيال واسع فضفاض.

ولعله أفضل تعريف للحب أن يقال فيه إنه جلال لا يحد انه بكونه حبا عميقا هو صورة عن النفس الإنسانية التي لم يدرك العلم الحديث بعد كنهها وسر حيويتها.

عائشة

يتراءى لي وأنا أود أن أخطط صورة من أسرة أتيح لي أن عاشرتها ولازمتها أكثر من نصف سنة، أن صورتي عنها لا تهم قارئا ولا يستفيد منها إلا فرد هو أنا حيث ستلابسني صورة تلك المرأة كلما عاودت تلاوة ما أخطط الآن عنها. في رأيي إنه ليكفي أن يشعر المرء لكى يتناول القلم فيخطط إثر ذلك الشعور دون أي اعتبار آخر مهما تصور قيمته ومهما تراءت من منفعة وراء ذلك الاعتبار فلا ينبغي في هذه المواضيع أن نتبع قلوبنا وإحساساتها الدفينة وأن نعرض عن اعتبارات الجماعة التي لها قيمتها الوقتية، ولا صلة لها بتاتا بهذه الروح التي هى نحن. إذن، سأقص حالة هذه المرأة دون أن أعتبر أى اعتبار نحو الجماعة التي ربما في يوم ما تتناول صورتي عنها بشىء من النقد وشىء من الاستهزاء قد يكونان شديدين قويين لهما أثرهما على نفسي كلما اندمجت في الجماعة المحيطة بنا وتناسيت مصدر إحساسي الحقيقي بالحياة، ولهما ابتسامة مني كلما أدركت أني عندما حاولت رسم هذه الصورة لم أكن لأبالي بأي جماعة من النقاد بل ولا من القراء، وحسبي أن تكون كتابتي صدى لإحساسي واضحة جلية أمام عيني فاترة مملة أمام كل الأفراد إذ لست أكتب لنفسي وكفى. على هذ الاعتقاد وهذه الفكرة سأتناول حياة المرأة عائشة بالتحليل وأوضح ما سيتراءى لي فيها من معاني وصور في هدوئها واضطرابها، في فرحها وألمها، في أية حالة يشعر بها المرء العادي ولا نلتفت إلى صداها في أعماق نفسه لأن مواهبه ليست بالمعمقة تعميقا يتيح لنا أن نرى صورتها ... حاجزا من حواجز الحياة كما شاهدت ذلك عند هذه المرأة. سأكتب ما أتيح لي أن أكتبه الآن عن أحوالها الغريبة كامرأة وكشرقية لم تنل من التعليم شيئا ولا من الثقافة حظا وسأترك القلم والقرطاس إلى حين آخر قد تتجدد اجتماعاتي بها وقد لا تتجدد وإنما تتجدد صورتها الغريبة في نفسي

بتفكير عميق نحوها واستعراض طويل لصورها الماضية، وأحوالها التي استرعت أفكاري وملاحظاتي، تلك الأفكار والملاحظات التي أشعر أن من الواجب أن أسجلها وأتركها بين طيات أوراقي إلى حين أستطيع تصور اتهائه بالضبط، فلعل كتابتنا العربية ما زالت بعيدة كل البعد أن تتطرق إلى مثل هذه المواضيع التي تكاد تكون دون مظهر مادي صوري لها وإنما هى خيال وصورة من انفعال يلامس المرء حينا من الزمان فكتابتنا ما زالت استقراطية لا تهتم إلا بمقدار بعاطفة المرء الدفينة وملاحظاته الدقيقة. لست أتهم اللغة بهذه التهمة، وإنما أتهم الكتاب إذ أعتقد وأعتبر أن اللغة أداة تعبر عن الفكر الإنساني وأن في استطاعة الكاتب أن يجول بها ما جال فيه فكره دون حذر ولا وجل. فحديثي عن هذه المرأة ليس عبارة عن قصة خيالية لحوادث متتابعة عن الحب والهيام ولا هى مآس من مآسي الحياة تثير في النفس صورة تحفزها إلى تخطيط سطور وإنما هى ملاحظات أبعد ما تكون عن القصة في شكلها المعهود وصورتها المتداولة. لم تكن السيدة عائشة حبيبتنا بالمعنى المتعارف فتبادلت معها بالأخص كؤوس الغرام وتناجينا في خواطرنا فعرفتها وعرفتني فخطر لي أن أسجل قصتي معها، بل لقد كانت خادمة تناهز سن الخمسين لا يتمكن المرء من القيام بدور غرامي معها خصوصا إذا كان شابا يتصابى ويستحق من فتوتها كل معاني الوجد ودقائق الخيال. لقد كانت عجوزا وسحنتها تعطي للمرء دليلا على أن جمالها لم يكن يأخذ بلب الإنسان فنتناسى بلحظاتها ورشاقتها أى اعتبار مصدره اصطلاح الجماعة العقلي؛ فوجهها يكاد أن يكون دون جاذبية إلا جاذبية اللحم والغريزة وعيناها لا أثر للغنج فيهما. أما لحمها فأبيض ناصع تشوب جماله برودة دمشق ورطوبة حيطانها، أما قوامها فقوام امرأة لا قيمة لها في عين الرجل الذي يريد خادمة تقوم بنصيبها من العمل الميكانيكي لا أقل ولا أكثر أو أن يكون زوجا له اتجاهات أخرى في الحياة لا تهمه حركة من حركات النساء بقدر ما يهمه أن يكون مستريحا في بيته. أما حديثها فحديث امرأة عادية لا دلال ولا تيه في نبراتها، ولا خصومة أو ليونة في صوتها (

وإنما هى امرأة الشارع) تتحدث إليك وتتحدث إليها دون أن تشعر بسمو في خيالك ولا خفقان في ثنايا ضلوعك. وليست هى بالمتعلمة فتجالس شابا ما زال يشعر بحرارة العلم والمعرفة فيستأنس في حديثها ومذاكراتها العلمية وحظها من الجمال وحظها من الرشاقة، بل هى امرأة لا تعرف كم في الساعة على الضبط ولا تستطيع أن تميز الحروف العربية من الحروف الافرنجية. هى امرأة شرقية تمثل العهد الماضي حيث كان المرء يتحاشى فيه أن يذكر اسم عائلته أو اسما من أسماء ذويه النساء حياء وحيث كان هم المرأة الوحيد أن تكون حاضنة لأولادها كدجاجة في تبنها، بل إن الدجاجة لتسعى وراء إطعام أولادها، أما المرأة فهى تلدهم دون أن تدري كيف تهيئ لهم طعام يوم.

عائشة خادمتنا على هذه الصورة كانت معنا وقضينا معها نصف سنة أو أكثر، فما معنى إذن أن أتحدث إلى نفسي أولا وإلى القارئ ثانيا عن هذه المرأة وهى خالية من كل ما يبعث في النفس مما اعتاد الكتاب والقراء أن يتناولوه (الأولون فيما يكتبون والآخرون فيما يقرأون) نحو المرأة ونحو جمالها. هكذا يتخيل المرء عائشة في أول وهلة وهكذا خيلت لي في أيامها الأولى فنبذتها من مذكراتي قائلا إنها امرأة عادية ولا معنى للكتابة فيها وما طال بنا المقام وتشابكت معها في الحديث حيث خيل لي أنها امرأة غريبة كل الغرابة وأنها تجمع من المتناقضات ما يقف أمامه المرء دهشا حائر الفكر في إدراك سر هذا التناقض. فهى كفكر مجرد من الاصطلاحات العلمية امرأة تغور في أعماق حوافز الحياة وتتسلل بنفسها إلى الاستهزاء والسخرية بكل ما حولها. هى كامرأة خالية من كل معاني الأنوثة ورهبتها التي تشعر بها عادة النساء فتزيد عن قدسية تكاد أن تكون دون ضمير، دون إحساس باطني، هى كامرأة جاهلة لا تتصل بمذاهب الحياة ولم تتعرف إلى آراء المفكرين الذين لا يندفعون مع تيار الحياة اندفاعا مجردا عن أية صبغة عقلية تكاد أن تكون ابقورية بالمعنى المتعارف لدى بسطاء الأفراد ابقورية تتعشق وتتفلسف بآراء بسيطة عميقة في الحياة وأسسها وبواعثها. تستهزئ بكل الأفراد وتسخر من كل الآراء

وتعارض كل ما وافقت عليه الجماعة وهى في ذلك الاستهزاء وتلك السخرية المعارضة تكاد أن تكون باحثة نفسية بمقياس غاية البعد عن عقل امرأة بسيطة جاهلة مقاييس تغور بها إلى أعماق ما في الوجود من بواعث وأوهام وخيالات لتريك وأنت تجادلها أية قيمة لاصطلاحات علم الأخلاق وآداب السلوك. دينها الإسلام لكن من العبث أن تطالبها باتباع قاعدة من قواعده إذ هى لا ترى كبير فائدة ولا أية قيمة في اتباع أوامر الدين، فإنها تستهزئ بها وتداعب المتدينين بمرارة زائدة وهم يستوحون في اتباع أديانهم كل سمو وكل عزة، يظهر أن ما تتعرض في حديثها عن المشايخ الذين أصبحوا في العهد الأخير كرجال كهنوت للدين الإسلامي.

قلت لها وأنا أحلق لحيتي: إن الدين ينافي حلق اللحية.

فأجابتني في الحين بصيغة الاستهزاء: وهل من وظيفة الدين أن يترك الوجوه بشعة بلحا مكتظة ؟

فقلت مع نفسي: يا له من فكر اغريقي يقدم الجمال على العبادة.

كان يزورنا من الآونة والأخرى مغربي، ورغم أنه لم يتقدم في السن كثيرا فإنه كان يضع (لفة) على رأسه وكانت تستثقل زيارته إلينا، وفي يوم سألتها عن السر في نفورها منه مع وداعته، قالت بحدة: تلك اللفة هى السبب.

- ولماذا؟ أليست علامة على تقوى وطهارة، هكذا يزعم كثير من الأفراد بهذه الديار.

- ليس شيء من ذلك فالطهارة في القلب وما اللغة إلا صورة عن خداع يتخذه هؤلاء المشايخ لأغراض في نفوسهم.

وابتسمت وسكتت، ففهمت ما ذا تقصد. زارتها في يوم بنت من بناتها وهى متحجبة، وبعد ذهابها سألتها: لماذا تتحجب الشاميات ما دمن يتحدثن إلى الرجال، فأجابتني:

- لست أدري هل الرجال سيخطفون لهن من وجوههن جمالهن أو بالأحرى عفتهن؛ إن المرأة التي لا تسمح للرجل برؤية وجهها هى التي تريد ما يتنافى وعفتها.

ساعة غناء

- 1 -

إذا كنت نشأت نشأة علمية محللة لكل الظواهر المحيطة بنا مفسرة لغوامض الحياة حسبما يتراءى لنا مستعينين بمبادئ العلم ومقرراته، فذاك لا يعني أنه لا صلة بيننا وما في الحياة من متع بريئة يستلذ بها المرء وتنعم روحه بصورها الخلابة، بل واجبنا كباحثين مدققين أن نربي ما في نفوسنا من ميل وذوق وأن نغذى عواطفنا بأرقى ما يغذيها من نهل في مناهل اللذة غير مفكر في أسبابها ونتائجها وأن نتذوق أسرار الجمال ونصرف ميولنا نحوها إلى جهة تخلب الروح أكثر مما تثير الشهوة وتنير طريقا للعقل اما أن تدبر مفتاح اللذة الحسية وهكذا تكون الحياة عبارة عن اندفاع على تيارها الجارف وصورة لامعة لانعكاسات طهارة الروح ونقاوة الوجدان وليس اللذات النفسية؛ فكل شخص يسري الدم في عروقه له الميل التام نحو الجنس اللطيف أو نحو الموسيقى في أنغامها التنزيلية بصورة استسلامية تقودها الشهوة والتفاعل الكيماوي حيث يدري ذلك الشخص أو لا يدري، ولكن قليلا ما يتعمق في أسرار تلك الجاذبية وينفذ إلى صميمها فيدير قوتها نحو الخير البشري في مظاهر روحية ويكون منها ينبوعا فياضا من العبقرية والسحر المبين ولكن بالاستسلام الجسمي المطلق باستسلام الروح ووقدة التفكر.

لقد تقدم العام وفتحت المعرفة أمام أعيننا أبوابا استطعنا أن نرى من خلالها ما يحيط بالنفس من صور سواء كانت لامعة أو مظلمة وما يكتنفها من بواعث متباينة وآمال متضاربة، وهكذا أصبح واجب المفكر ألا يتفلسف في الحياة من طريق الخيال أو من طريق الاستنتاجات المنطقية أو على نور العقل المجرد الحجري، بل أن يتخذ مقاييس شتى تنير له الحياة الملتوية في طريقته الفلسفية وأن يستعد ليجرب أنواع الشرور كما

يجرب أنواع المحامد، وهناك يكون حكمه منسجما ومراعيا للظروف، قويا راسخ البنيان، محكم الحلقات، مرتب النتائج، فليس من شأن المفكر أن يزهد في الحياة كما ليس من شأنه أن يعكف على جلب لذاتها المتنوعة، ولا أن يتخذ الوسط بين العرفين قاعدة له حيث له هذه قاعدة لا تستعمل إلا عند البسطاء الذين لا يدركون مدى استقرارهم النفسي ولا ينير لهم التفكير السبيل الأقوم ، بل من شأن المفكر أن يعى أولا تطورات النفس وحدودها الواسعة والضيقة ثم يفتح لها ميادين التجربة حريصا على تهذيبها، متفهما قوتها ومحور ارتكازها، ضابطا للزمام الضاغط عليها، تاركا الشدة واللين لضعاف العقول وقاصري الأحلام.

- 2 -

لا أدري كيف سار القلم ولم اتجه به نحو هذا الاتجاه. بل غايتي أن أتحدث عن ساعة تذوقت فيها من أنغام موسيقية ساحرة وأن أعبر عن خطرات جالت في روحي في تلك الساعة الرهيبة التي خلوت فيها إلى الطبيعة وهى مرددة أنغامها فأرسم صورة عن النبوغ البشري وكيف سيمر في مدارج الحياة العلوية، ساعة أصغيت فيها للأستاد الشوا أمير الكمانجة.

ذهبت إلى حفلته التي أقامها في الجامعة السورية وفي النفس بقايا مرة عن الشرقيين وتقليدهم وأنا لا أحسب نفسي أنها ستجد نبوغا وإنما ستجد صورا ممسوخة غير متقنة عن النبوغ الأوربي ومظاهره العظيمة الشأن القوية البروز والشخصية، فقد اعتدنا ألا نشاهد فيما يزعمونه والشرقيون مصدر نهضتهم إلا تفوقا مصدره التقليد والمحاكاة لا النبوغ ولا العبقرية، ودخلت لمدرج الجامعة المملوء بالشباب وبعض الشيوخ وتساءلت عن باعث هؤلاء الأفراد هل حبهم هذا العبقري تقليد للغربيين أم اهتمام بهذا النابغة المصري؛ والحقيقة أن لك أن تمزج كل العوامل لكى تستنتج باعث الإقبال على هذه الحفلة، فالحاضرون جلهم من الشباب الراقيين المثقفين المتذوقين لمظاهر الفن وهم -

كسائر الشباب الشرقي - مهتمون غاية الاهتمام بتأييد ما يؤيده الغربيون ورفض ما يرفضون سواء وافق هذا الرفض أو ذلك التأييد فطرتهم، وهم أيضا، وبصورة مدهشة، حقا متلهفون على كل ما من شأنه أن يكون متصلا بمصر؛ فإن السوري المتعلم يتفوق على المصري في مصريته ويقدر ما بنهضته؛ فإن شخصية سعد أو النحاس لها تأثير مثلا في وادي النيل بل إنك ترى تأثيرها في سائر البلدان العربية قويا لامعا يسيطر على النفوس وعلى الخصوص في سوريا تربة الوطنية ومعقل التضحية، فالصحافة المصرية تغزو تلك البلدان كما تغزو بلداننا ويجد فيها الجميع سلوة عن جرائده المقيدة. والصحافة المصرية إذا تكلمت عن ما في مصر وعن النابغين فيها لا تحكي بالقلم السوري الجاف بل تسلبك وتتولى على لبك ثم تقودك إلى ذلك التقديس وذلك الاحترام المدهش، والحقيقة أن مصر إذا أصبحت اليوم في المستقبل زعيمة البلدان العربية فلا ريب ولا شك أن مصدر ذلك هو صحافتها المنتشرة في أنحاء العالم العربي، فهي صلة متينة قوية مكنت مصر من الزعامة الحقة. وأعتقد عن صحيح أن الوفد المصري لو حاول أن يضم إلى جهاده في مصر ونضاله في سبيل الحق والحرية هذه الأمم العربية وأن يقودها بزعامته لاستطاع بشيء كثير من السهولة أن ينجح وأن يقاوم تيار الغربيين في الشرق مقاومة فعلية لكنها تحتاج إلى كثير من الجهد وذلك نظرا للثقة الغالية التي تتمتع بها في قلوب هؤلاء الأنصار الروحيين الفدائيين، وأستطيع أن أقول إن أبناء هذه البلدان يعرفون عن القضية المصرية وعن النهضة المصرية ما لا يعرفونه عن بلادهم وأوطانهم، فلا غرابة حينئذ إذا زعمنا أن من بواعث حضور هؤلاء الأفراد وإقبالهم الكبير على الحفلة ان يكون مقيمها من مصر التي تحرز هذه المكانة العالية في نفوسهم.

- 3 -

ابتدأت الحفلة الساعة التاسعة وانتهت الساعة الثانية عشرة ونصف ولكني لا أذكر كيف

مرت هذه الساعات من حياتي من دون أن أشعر ولا أن أدري، بل لقد تناسيت الحياة وتناسيت نفسي، وكأن ستارا كثيفا انسدل عن تفكيري أثناء تلك الساعات الطوال، وكأن روحي انفصلت عن جسمي واستقرت في عالمها الذي هو غير هذا العالم المادي بل لقد اتهت وروحي ما زالت تردد تلك الأنغام السحرية وتود لو يتيح لها أن تستمع إليها مرة أخرى أو مرات عديدة أو طول الحياة.

لم يكن في الأستاذ الشوا كثيرا من الإتقان العلمي والمهارة الغنائية بل عبقرية وإلهام فطري، وحسبه أن يستمع إلى إحساس نفسه وعمق تأثيره ثم ينظمها على وتر كمنجة تابعا نبضات فؤاده فإذا ما انتهى تراه يتصبب عرقا وكأنه قد انتهى من أشغال غاية في الشقاء الجسمي والعقلي وما ذلك إلا لجهده القوى في انحصار فكره وإجهاد يده في تتبع ما ترسمه له روحه الخفاقة ونفسه الفتانة. فهو لا يتقيد بمبادئ الفن الموسيقي كما يحكي عن إحساساته ويستلهم نفسه.

وقف على المسرح وفي يده كمنجة بل وفريدة روح تستحق حيويتها باتصالها بنبضاته الخفاقة لا أدري بما أعرف عنها ولا بما أصفها اهتزازات دعتنا أن نقف على غور أنفسنا وأن نخلد إلى أرواحنا في أعلى عليين وأن يفسح أمامنا طريق النور والرحمة.

ثم ينشد ذو صوت جميل عن جانبه شطرا من البيت برخامة وعذوبة فيحاكيه الأستاذ الشوا لا بفمه ولكن بكمنجته فلا ندري - وايم الحق - أيهما الصوت البشري من الآخر بل ترانا نستمع إلى أنغام الكمنجة وتوقيعها أو كلامها بذلك الصوت الرخيم بدهشة وحيرة وتساؤل أهذا الصوت صادر عن هذه الأنغام السحرية وعن هذه المحاكاة التي فاقت الأصل وهكذا من حيث لا ندري وما ذلك في الحقيقة إلا روح الشوا تردد بعذوبة أنغام الوحى والإلهام.

وأخيرا رأينا نبوغ شوا بأجلى مظاهره أو أقوى صوره وأعمق أثرا، فهو لا يحاكي الصوت البشري أو أنغام الموسيقى وكفى، بل يحاكي الطير في مختلف صورها وضروب ألوانها،

فيغرد تغريد الطير ويبكي بكاء الطفل بل يؤذن لك الآذان العربي الإسلامي بكل خشوع وروعة فيخيل إليك أنك تسمع مؤذنا رقيق الصوت عذب النبرات خاشع الفؤاد ملتمسا العفو والمغفرة في فجر تضيئه القمر بأشعتها النورانية صارخا: « الصلاة خير من النوم » وما الصلاة في الحقيقة إلا نور القلب ودرء ما في النفس من خمول واستقبال اليوم بقوة ونشاط.

يمثل السيارة في سيرها فيستسلم لذلك الحلم الجميل عندما تركب السيارة وتسمع محركها يزخر ايذانا بوقت الرحيل ثم تودع أهلك وذويك، فتتناقل الدمعة الحارة من خدك إلى خدهم ومن خدهم إلى خدك وتضم إلى صدرك أعز الناس إليك ثم تسير السيارة بالجسم لا بالروح. ويمثل المركب على ظهر النيل وأصوات المجذف ترن في الآذان فتظن نفسك تشاهد وادي النيل وما أنعمت عليه الطبيعة من جمال وفتنة، ولست أدري كيف يشعر المصري عند سماع هذه القطعة الفنية الخالدة من حياته وكيف تهتز مشاعره، فأنا لم أشاهد النيل ولم أسمع خريره ولكني شاهدت نهرا يهيج حنوي الآن وسمعت ضربات الجذاف ورأيت جمالا في المناظر الطبيعية لا أدري هل لمصر مثلها.

استمعت إلى الأستاذ الشوا في هذا الدور ودمع عيني يهطل وشوقي الكامن للوطن يتقيد وقلبي يفزع حيث تمثلت لي ذكرى وطني في نهر أبي رقراق وتصورت لي مناظره وما تحيط به من مجال ودور المدينتين بالرباط وسلا ومناراتها تلمع وغروب الشمس ينشر في الفضاء وعلى سطح المحيط أشعة ذهبية تتماوج بين الأمواج والسحوب الكثيرة الألوان البديعة الأشكال ترسم من الجمال ما يسحر اللب ويذيب قلب أي جامد ونحن زهرة من الأصدقاء اتحدت أرواحنا وتآزرت نفوسنا وتآخت عقولنا في قارب صغير ونحن تارة نستمع إلى الموسيقى وطورا نصمت لجلال الجمال المحيط بنا فترتعش أبداننا وتتأثر أعصابنا من هذا الموقف الرهيب فتخر أنفسنا ساجدة لخالق هذا الكون الجميل.

فإذا ما انتهت الحفلة رأيت الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن الأستاذ ساحر لهم

وتركهم في غير هذا العالم يهيمون ...

هكذا التفت إلى رفيقي وقلت له: ليس هو بالمقلد كما توهمت سابقا ولكنه نابغة فذ ما على المصريين إلا أن يفخروا به ويحلونه المكان اللائق بأمثاله من عظماء الرجال وعبقريهم.

- 4 -

الفنون الجميلة هى الموسيقى والغناء والشعر والرسم والنحت وقد يستطيع العلم - ولا ريب - أن يفسر لنا أسباب علاقة الإنسان بهذه الفنون وأن يعلل أسباب تلك العلاقة تعليلا شافيا يطمئن إليه العقل، وذلك الشرح وهذا التعليل لا يهمنا من أمرهما الآن إلا أن نعرف كيف توصل العالم إلى كشف الستار عن هذه الميول العميقة الأثر في النفس البشرية وإنما في غيرها لم يتوصل العلم إلى الفتح عن طريق النفس، فهو مهما اتخذ من علل ومهما التمس من النتائج لم يصل إلى شخصية الإنسان ونفسيته ولم يعرف العوامل المكونة لما فيهما من ميول، فإن النفس البشرية لم تتكون فجأة أو دفعة بل لقد سايرت الطبيعة في أطوارها المختلفة أحقابا ودهورا من السنين واستقر فيها ما يظهر الآن من الصعوبة بمكان محاولة تحليله ورده إلى أسبابه الأصيلة، فإذا استطعنا أن ندرس ما طرأ على الطبيعة من تطورات وانقلابات لم نعجز أن نكشف ما نجد في نفوسنا من الأسرار الغامضة والبواعث الخفية؛ وحب الإنسان لتلك الفنون الجميلة المتقدمة ليس إلا عبارة عن ميل ارتكز في نفوسنا أولا بعوامل الطبيعة وأصبح اليوم مندمجا فيها بصورة لم يبق معها ميلا، بل شعور تفيض به النفس ولا تعرف له استقرارا في مجالها الواسع.

إن حب النفس لتلك الفنون هو من حيث القوة والغريزة على حسب الترتيب المتقدم وكلما ارتقى الإنسان وخطا خطوة في سبيل التذوق الفني ازداد تأثيرا بكل نوع من تلك الفنون حتى ليصبح مجموعة أعصب حساسة وقطعة رنانة.

فالموسيقى تؤثر على سائر الأفراد مهما تباينت أميالهم واختلفت أذواقهم، والغناء لا يتذوقه

كل الأفراد على صورة الإطلاق، فالمتذوقون له أقل من المتذوقين للموسيقى، وهكذا الشعر وما بقى من الفنون، فانظر إلى النحت - وهو الأخير - إنك لا تجد إلا أقلية ضئيلة في المجموع تتذوق ما فيه من جمال أو ما يدل عليه من حياة.

أتذكر أني منذ شعرت بالحياة كانت الموسيقى تطربني وأتمنى أن لو يسكت المنشد من إنشاده لأسمع صدع الأوتار حتى لقد كنت أذهب إلى جماعة من الموسيقيين وأجالسهم ثم أنقر بيدي على الطاولة أثناء طربهم فكانوا يصخبون مني وكان أهلي يمنعونني من العمل زعما أنه يسقط الشرف ويؤدي إلى المفاسد. ومن يدري فلعلهم لو شجعوني لأصبحت الآن مولعا بالموسيقى لا بالسماع فقط بل بنقل ما يشعر به الصدر إلى فتحرق اهتزازات يدي الأثير بصورة جنونية.

وأتذكر أيضا أني كنت أكره الرسم ولا أرى فيه أدنى صورة للجمال، بل كنت أعتقد أن اهتمام الغربيين به مجرد خداع وكبرياء، فقد كنت أنظر إلى الرسم وأستمعنه جيدا فلا أجد فيه أي أثر للفن، والسبب هو اعتقادي السابق أن الفن صورة تلمس وما ذلك إلا لضعف مشاعري وقصور إحساسي. أما الآن فإني بدأت أرى في تلك الفنون الجميلة ما لا رأيته في عهدي الأول، حينئذ قلت قواى العقلية والعاطفية في طريق النمو، وها هى تتدرج إلى ما أعرف له الآن حدا فاصلا.

وبعد، هذه خواطر سجلتها وأنا مدرك لما يكون فيها من آراء قد لا تناسب الدرجة العقلية التي ستصل إليها عقليتي في المستقبل القريب، ولكن لتكون كتابتي هذه مؤرخة لعهدي هذا. ومهما قدم العقل الإنساني فهو لا يزداد إلا افتتانا بجمال الطبيعة وتقديسا لما يشعر فيه من أميال ومشاعر.

دمشق 9 مارس 1932

سعيد محي

طبع كتاب « القرطاس
في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس »

ومما كتبه المرحوم سعيد حجي لدى طبع كتاب « القرطاس » لابن أبي زرع ما يلي:

« للمغرب عدة مؤلفات قيمة في مختلف المواضيع التي طرقها القدماء تكون تراثا فكريا خالدا، لولا أنه - مع غاية الأسف - يكاد يكون هذا التراث المغربي نسيا منسيا، خصوصا لدى الجيل الحاضر ... لهذا فكرنا أن نساهم بقسط من الواجب الملقى على المثقفين المغاربة، بل نعمل على نشر هذه المؤلفات المودعة في الخزائن الخاصة أو المطبوعة طبعا رديئا، لا تساعد على متابعة بحث، ولا إتمام مطالعة، وما خطرت لنا هذه الفكرة حتى درسناها من وجوه عدة، مادية وعلمية، ورغما عن كل الصعوبات التي جعلتنا لا نتفاءل إلا بمقدار يسير، فقد صممنا العزم على تنفيذ الفكرة وإبرازها إلى حيز الوجود، مؤملين معاضدة رجال العلم والبحث، وذوي الخبرة والاطلاع، وتشجيع سائر المثقفين والمستنيرين ».

وتجدر الإشارة أن السعيد أسس لهذا الغرض شركة مغربية للنشر، وابتدأت هذه الشركة أعمالها بطبع جزأين من كتاب « الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » ، ثم بطبع كتاب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » لعبد الواحد المراكشي وكتاب « البدائع » وهو دراسة عن الشاعر المغربي عبد الواحد العلمي للأستاذ عبد الوهاب بن منصور ».

وهذه رسالة من فاس يقول فيها الأستاذ الهاشمي الفلالي بتاريخ 11 شوال 1353 :

الحمد لله وحده

أخي السعيد تحية واحتراما ،

وبعد، فبعض الإخوان المثقفين هنا اقترح على تأسيس مكتبة تقوم بنشر الكتب التي تخدم الثقافة الصميمة، وتعتني بنوع أخص بالجديد من الكتب، وكذلك كتب التعليم لأن حركة التعليم اليوم لا بأس بها، وكثيرا ما تتوقف المدارس الأهلية وغيرها على الكتب الابتدائية فلا تجدها، وكذلك تقوم بطبع الكتب المغربية التي في نشرها فائدة مادية وأدبية. وهو يقترح أن نؤسسها معا ونشتغل فيها معا حتى يمكننا توزيع العمل ويمكن لأحدنا السفر لمصر أو غير ذلك إن اقتضى الحال، وتبقى المكتبة مفتوحة تقوم بالواجب. وقد فكرت في الاقتراح فوجدته مفيدا وقبلته مبدئيا. فجعلنا رأس مال المكتبة أولا 25.000 فرنكا تقسط على 25 سهما بألف فرنك للسهم. فاكتتبت أنا بخمسة أسهم بمقدار 5.000 فرنك، وهو كذلك بخمسة أسهم.

وقد كنت ذكرت لي قبل هذا في بعض رسائلك وأحاديثك أنك كنت عزمت على مثل هذا العمل واتفقت مع بعض المساهمين ولكن القضية وقفت بسفرك. والآن ها أنا أعرض الفكرة عليك، فإن وافقت وأمكنك أن تساهمنا وتشترك معنا فإننا نكون مسرورين، والقضية معروضة الآن للبحث بيني وبينك، وعندما نصل إلى نتيجة يمكننا إعلانها،

ودمتم لأخيكم

الهاشمي الفلالي

الحمد لله وحده

عزيزي السعيد تحية،

وبعد، فقد وصلني كتابك في مسألة « المغرب »، فالمسألة نحن مبدئيا متفقون عليها تمام الاتفاق، ومسألة الدراهم لا أظنها تكون مهمة بالنسبة لما نريد، فما عليك إلا أن تتمم برنامجك ثم نجتمع جمعا نهائيا. الكتابة عن الأخ حصار: سأجتهد في تلبية الطلب قريبا. تجد طيه مراسلة من تازا تتوقف على إصلاح لا بأس بإدخاله عليها، وقد واعدني مراسلها أحد الطلبة بمواصلة المراسلة بواسطتي، ويمكن أن أقوم بتحريرها ثم أوجهها لكم إن وسع الوقت. وإلى اللقاء ودمتم لأخيكم الهاشمي الفلالي

الحمد لله وحده

فاس، في 22 شوال 1354، عزيزي السعيد تحية وأشواقا،

وبعد، فقد وصلني كتابك بعد طول انتظار أرجو أن لا يتكرر، وقد سررت حيث أن المطبعة تعتني بالتصحيح وأن الأخ عبد الرحمن لم يجد أغلاطا كثيرة، وهذا مما يسهل عليه عمله. أما الفقرات التي توقف خارج السطر، فإني لم يتيسر لي ذلك لضيق الحاشية وكثرة الإصلاحات، فذاك هو الذي منعني منها ليلا يقع اشتباه. وها أنا أفكر في طريقة أستعملها في الجزء الثاني إن شاء الله، فقد شرعت في العمل فيه يوم 15 من هذا الشهر. أما باقي الملازم والتعاليق فستصلكم بعد يومين أو ثلاث، ولعله قد سهل عليكم الأمر حيث أعدت كتابة كل شيء من جديد وإدماج الإصلاحات الجديدة في مواقعها. تجد طيه بعض المصادر المعتمد عليها في تحرير الجزء الأول والتعليق عليه ولم أذكرها كلها للطول، وثانيا ما ذكرته هو أهم المصادر، وكذلك تجد بعض مميزات طبعتنا وذاك ما علق بالذاكرة الآن، وأظن أنه هو كل ما اتفقنا عليه، فإن ظهرت لكم مميزات أخرى فاذكروها. وختاما ها أنا في انتظار ما تم بالطبع، وأرجو أن توجه لي صورة الإعلان النهائية قبل تقديمها للطبع، ودمتم لأخيكم الهاشمي الفيلالي

الحمد لله وحده

فاس في 3 رجب 1354

عزيزي السعيد تحية وأشواقا

وبعد، فقد شرعت هذه ثلاثة أيام في تصحيح الكتاب وضبطه ومقابلته بمصادر عدة، ومما أخبرك به أن كلا النسختين الحجريتين سواء القديمة أو الجديدة بالنسبة إلى التصحيف والقلب، ولكن سيذلل كل ذلك بحول الله ويصحح. وقد هيأت كل ما وصلت إليه من المصادر، وهذه نحو شهر وأنا أراجع مظانها وأفهرس بعضها مما سهل الأمر الآن شيئا ما. فهل أنتم شرعتم في عملكم؟ وهل تجدد شيء في النسخة الأوربية؟ وهل هناك شيء جديد؟ وإذا تيسر لكم بعض المواد مما يساعد على عملنا فعجل بها، ودمتم لأخيكم

الهاشمي الفلالي

الحمد لله وحده

فاس في 13 ربيع الثاني 1355

عزيزي السعيد تحية واحتراما

وبعد، فها تجد طيته خمس ملازم من صفحة 107 إلى صفحة 144 أصلا وتعليقا.

وكل ما أوصيكم عليه العناية بالتصحيح. وصلتني الملزمة ولم أجد فراغا لقراءتها، وسأقرأها يومه. وإني ما زلت في انتظار غيرها. وسأوجه لكم الباقي داخل الأسبوع إن شاء الله. أرجو أن لا تعودوني المماطلة بالجواب. الكومسارية تبحث هنا عن شركة النشر، ومن أين لها المال ومن يقوم بها. وقد اتهموا غنيا معروفا وهو الحاج محمد بن عبد السلام لحلو. ولذلك أرى أن نضع القوانين اللازمة ونسجلها لنزيل لهم كل وهم. وفي ذلك مصلحة اقتصادية من حيث الضريبة. أرجو أن تخبرني عما اتفقتم عليه في قضيتي الخاصة وأذكر أنك نائبي، ودمتم لأخيكم الهاشمي الفلالي

وفي رسالة بتاريخ 2 ذي القعدة 1355 يقول الأستاذ الهاشمي الفلالي :
« ... أقبلت على العمل وعن قريب سيصلكم باقي الجزء الثالث » .

ومن رسالة بتاريخ 16 ذي القعدة 1354 (9 فبراير 1936) وبدون توقيع:
« ... أرسل الهاشمي كتابا باسمك ففتحناه ووجدناه يطلب منك إرسال تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي كما وجدناه يأخذ على تصحيح الأخ عبد الرحمن حيث عثر على عدة أغلاط في الكراس الذي وجهت له وقد رغب عبد الرحمن في تدارك إصلاحها بيده، والأمر معلق الآن. أما صاحب المطبعة، فقد دفعت له واجب ملزمة واحدة كما حزت منه الوصل بالدراهم التي دفعتها له أنت. وأنا اليوم مرسل إلى الهاشمي الملزمة الثانية ليراقبها من جديد كما أنني أرسلت له رسالة جوابا عن رسالتك » .

ومن أخرى بتاريخ 24 ذي القعدة 1354 (17 فبراير 1936) وبدون توقيع:
« ... أما صاحب المطبعة فإنه لا يزال يماطل ولم يدفع في كل هذه المدة إلا ملزمتين فقط، وقد وجهت للأخ الهاشمي الملزمتين فوجد أغلاطا تنيف عن العشرين، وقد نبهت الأخ عبد الرحمن لها فأظهر أسفه منها ووعد بإصلاحها بعد الانتهاء من الطبع. كما أن الأخ عبد الرحمن في الكراس الأخير وقف بالأصل على عدة مشكلات، فرجع إلى مصادرها في ابن خلدون، فوجدها مخالفة لما جاء فيه. وقد أمرته أن يقف عند حد النسخة التي عنده، وكتبت يومه إلى الأخ الهاشمي في شأنها، والمسألة المختلف فيها طبعت وانتهى منها وإنما للتنبيه مرة أخرى. وقد أخبرني الأخ الهاشمي بأنه عثر على نسخة خطية يرجح أنها أندلسية وهي تبتدئ من الجزء الثاني وأنه شرع في هذا الجزء كما أخبرني » .
« أما مسألة المطبعة فلا بد أن تعمل ما في وسعك للتحصيل على كل المعلومات الكافية لأن المشروع الذي أسسناه لا يكون بدون مطبعة خصوصية وقد رأينا حالة المطبعين هنا الأمر الذي لا يمكن معه تنظيم العمل ولا الاعتماد على موعد » .

مخطط الإعلانات للتعريف بصدور كتاب « القرطاس »

1) طبع دفتر صغير من طبعة الكتاب

2) مقالة في مجلة « الرسالة » القاهرية عن غموض التاريخ المغربي وشركة النشر

3) مقالة في مجلة « المغرب الجديد » عن فكرة النشر

4) إعلان في عددين من مجلة « المغرب الجديد »

5) إعلان في عددين من مجلة « المغرب »

6) إعلان في جريدة « السعادة » مدة شهرين يصدر في عدد دون عدد

7) إعلان في أربع أعداد من جريدة « الزهرة » التونسية يصدر مرة في كل أسبوع

8) إعلان في مجلة « الرسالة » مدة شهرين يصدر في عدد دون عدد

9) إعلان يدوي صغير عن قفل باب الاشتراك يصدر قبل ذلك بأسبوع.

نص الإعلان

شركة النشر المغربية تصدر طبعة جديدة من كتاب « الأنيس المطرب بروض القرطاس في تاريخ ملوك المغرب ومدينة فاس »

من مميزات هذه الطبعة: طبع جميل - ورق صقيل - تعاليق تضاعف عدد صفحات الكتاب - مقارنة بين ما للمؤلف وما لغيره من المؤرخين - ضبط الأعلام - زيادات عدة عن الطبعات السابقة.

وتصدر هذه الطبعة في ثلاثة أجزاء. الجزء الأول في تاريخ:

1) الدولة الإدريسية

2) تأسيس مدينة فاس

3) جامعة القرويين

4) دولة المغراويين واليفرنيين

5) دولة المرابطين

الجزء الأول في مائتى صفحة يصدر في 25 مايو 1936 بثمن 10 قرش + أجرة البريد.

المخابرات مع مندوب الشركة سعيد حجي - سلا - المغرب

مجلة « الرسالة » - القاهرة

سيدي الأستاذ مدير مجلة الرسالة الغراء

فكرت جماعة من الشباب المغربي المثقف أن تعمل لإحياء الماضي المغربي بنشر المؤلفات المغربية التي لم تطبع أو طبعت طبعة رديئة، ولقد أنجزت طبع جزء من كتاب القرطاس وهى ترجو أن تكون هذه الطبعة خير باكورة لعملها وأحسن دعاية لمشروعها.

وتود الجماعة المذكورة أن تتخذ من مجلة الرسالة منبر الأدب والعلم وسيلة لإشهار فكرتها أمام العالم العربي؛ لهذا نرجو من حضرة مديرها أن يتفضل بنشر الإعلان المصحوب مع هذه الرسالة في ثلاثة أعداد ويحيطها علما بواجب نشر ذلك الإعلان لتسرع بإرساله، ولكم مزيد الشكر، وتقبلوا فائق الاحترام

سلا في 29 ابريل من سنة 1936

مندوب شركة النشر المغربية سعيد حجي

سلا - المغرب الأقصى

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

القاهرة في 9 يوليوز 1936

حضرة المحترم الفاضل السيد سعيد حجي مندوب شركة النشر المغربية

تسلمت كتابكم المؤرخ في 26 يونيه 1936 وفي طيه ثمانية وعشرون شلنا وهو المبلغ الذي لنا في ذمتكم أجرة النشر عن كتاب القرطاس فنشكركم على ذلك شكرا جميلا. أما أجرة النشر خمسين مرة متفرقة في الرسالة بحجم إعلان القرطاس فتبلغ اثنين وعشرين جنيها مصريا (22 ج) أو ألف وسبعمائة وخمسين فرنكا فرنسيا (1750 ف) ومن الممكن أن نخصم لكم من مجموعه عشرين في المائة (20%) للأسباب التي ذكرتموها من (أن الشركة ما زالت في أول مرحلة من حياتها وأنها محتاجة إلى المساعدة) على أن تسددوا ثمن ما ينشر أولا وأولا أو في آخر كل شهر.
نسأل الله أن يوفقكم إلى خدمة الثقافة ونشر المعرفة وأن يجزيكم عن المسلمين خير الجزاء، والسلام عليكم ورحمة الله.

المخلص أحمد حسن الزيات

كلمة عن كتاب « القرطاس »

بقلم سعيد حجي

- 1 -

هل أنجبت العقلية المغربية من الآثار الفكرية خلال تاريخها الإسلامي ما تخلد به حياتها الماضية وتسجل به تطوراتها السياسية والاجتماعية والروحية وغيرها من نواحي الحياة التي حرصت أغلب الأمم المتمدنة على تدوينها وتتبع مظاهرها البارزة؟

طبيعي أن يكون الجواب إيجابيا، فأقل نظرة يلقيها المرء على الخزانة المغربية يجدها حافلة تنبئ عن هذا الماضي الذي كان خصبا بالرجال وبالحوادث وبالاتجاهات، خصبا في أية ناحية يتلمسها المغربي ويسعى ليتصورها ويدركها، ولكن سيظل هذا الجواب الإيجابي مفتقرا إلى دليل ملموس أمام من لم يتح له أن يلقى تلك النظرة على الخزانة المغربية، فيد المطبعة التي هى المظهر القوى للمدنية العصرية لا زالت لم تتناول ماضي المغرب فتخرجه من هذه الخزائن التي تراكمت فيها الكتب إلى يد فتية ترغب في الاستفادة، ولكن لا تعرف طريقها، فستقف أمام سؤالنا السابق حائرة واجمة، بل إن بعضها لا يتردد في الجواب عنه سلبيا.

فالعلم اليوم لم يبق استوقراطي النزعة تسعى إليه الخاصة ولا ترغب فيه العامة، بل أصبحت المعرفة حقا مشاعا، وأصبح من حق أي فرد أن يطلب منها نصيبه وليطلع على ماضي بلاده ليبدى فكرته دون أن يخشى هجمات آخرين يتصورون أن العلم انحصر في دائرتهم، ولا بد أن يقف عندها.

أصبح العلم إذن في متناول الفقير كما هو في متناول الغنى، وأصبحت أبوابه مفتوحة أمام كل قريحة وقادة، فواجب النشء الحديث أن يستعد لكشف ماضي بلاده، فالاتصال

بتاريخ المغرب ودرسه الدرس العلمي الصحيح ليس بالأمر الهين، فهو أوعر سبيلا من اكتشاف مجاهل في الصحراء المجاورة، وهم أبناء البلاد، وهم خريتوها إذا أرادوا كشف النقاب عن هذا الماضي الرائع الذي سجل التاريخ آياته المطموسة اليوم في قعر هذه المكاتب هنا بالمغرب وهناك بخزائن الغرب.

ويظهر أن نشر تلك المؤلفات التي ربما سدل العنكبوت رداءه عليها في بعض الخزائن أول واجب، يسهل البحث ويعرض ماضي المغرب أمام مقاييس النقد الحديثة فيفرك وتساقط هذا الصدا الذي ركبه بمرور السنين وتطاول الأيام. وهذا النشر هو واجب ملقى على عاتق الشباب الذي اتصل بماضي أغلب الأمم إلا ماضي بلاده، فعرف كيف سعت الطبقة المستنيرة في تلك الأمم للكشف عن ماضي بلادها، وما بذلت من مجهود في هذا السبيل فاتضح أيما اتضاح، وأزالت كل هذه الأشواك التي كانت تحول بين حاضرها وبين ماضيها فمتنت الصلة بين رجل الأمس وفتى اليوم.

فإذا سعت اليوم فئة قليلة من شباب المغرب لكى تعمل بوحي هذه الفكرة فإنما هى تقوم ببعض الواجب، وهى تأمل أن يعمل في هذا السبيل غيرها من جماعات المثقفين، وترحب بكل نقد يتفضل به المطلعون على خطواتها الأولى لتسترشد في الخطوات المقبلة.

- 2 -

اهتم أغلب القدماء سواء الشرقيون أو الغربيون بالناحية السياسية من حياة الأمم أكثر من اهتمامهم بالنواحي الأخرى، فأغلب مؤلفاتهم لا تسجل إلا الانقلابات السياسية والحروب الطاحنة والثورات الهدامة، أما ناحية المجتمع في دائرته الهادئة وتطوراته الخفية ونزعاته التي هى مصدر الانقلابات الكبرى فقلما اهتم بها القدماء ولم يعيروها الأهمية التي يقتضيها البحث الحديث والأسلوب التاريخي المعاصر. فأبرز ما يتجلى أمام البحث في

مؤلفات القدماء هذا السرد غير المعلل تعليلا تطمئن إليه النفس لما يتوالى على الأمة من قادة واضطرابات ومحن، فيقف المرء متسائلا عن خفايا هذا المد والجزر في تاريخ الأمة فلا يجد من يسعفه بجواب إلا بمحاولات تقوم بها اليوم جماعات من كبار الباحثين والمنقبين، وتلك مرحلة يعوزنا قبلها نشر مؤلفاتنا وتعميم الاستفادة منها، فليس هذا الكتاب الذي أود أن أتحدث عنه قليلا ذا بحث عميق عن توالي الملوك والأمراء وتتابع الدول على أريكة العرش المغربي، بل هو -كشأن أغلب مؤلفات القدماء - سرد لذلك يقدمه ابن أبي زرع، وله أمانة المؤرخ، وعلينا الاستفادة منها والبحث عن صحيحها من زيفها، فإنه سيأتي يوم ليناقش الباحث أقواله مناقشة علمية ليقر بفضله ويعترف بفائدته ويلاحظ ما يبديه البحث في استنتاج الحوادث وما يتضارب فيه مع غيره من المؤلفين، ولعل محرر هذه الطبعة استطاع أن يقوم بجزء من هذا الاتجاه فيما علقه في ذيل صفحات الكتاب في كثير من مواضيعه التي تحتاج إلى إيضاح أو تنبيه.

ألف ابن أبي زرع كتاب القرطاس في دولة ابن مرين تلك الدولة التي يعد عصرها من العصور الذهبية لما ازدهر فيه من حركات علمية وأدبية وفنية أثمرت وأينعت ثمرتها، ولكن ابن أبي زرع لم يكن - على ما يظهر - بالعالم المتفوق في علوم اللسان، وإنما استطاع أن يجمع كتابا من عدة كتب، فأفاد حيث أن أغلب تلك المؤلفات أصبح في حيز العدم، وجاء أسلوب كتابه يتباين في كثير من فقراته إذ تصادف الفقرة البليغة فترتاح لانسجامها، ولكن لا تسير قليلا حتى تجد الجمل التي تساهل قائلوها في تركيبها فجاءت مضطربة المبنى، قلقة التركيب، غير مرتكزة اللفظ، بعيدة عن الأسلوب الفصيح، وهو يصرح في كتابه: إن مصادره هى كتب التاريخ المعتمد على صحتها والمرجوع إليها سوى ما رواه عن أشياخ التاريخ والحفاظ والكتاب، وقيده عن الرواة الثقات والأنجاب. ومن سوء الحظ ألا يعثر على كتاب آخر له يحيلالقارئ عليه في بعض المناسبات يسميه: « زهرة البستان في أخبار الزمان وذكر الموجود مما وقع في الوجود » يظهر أنه كان عالميا

أو بالأصح يتناول شيئا من تاريخ الممالك الإسلامية غير المغربية، ولكن من يدري فلعل هذا الكتاب المهم ملقى في زاوية من مكتبة خاصة بالمغرب حيث لا تعرف قيمته. بل إن أغلب كتب السير المغربية التي تحفل بكثير من صعاليك الرجال لا تذكر سيرة هذا المؤرخ الجليل ولا تعرف بعضها إلا أنه كان عدلا بفاس، وتختلف في اسمه، فبعضها يسميه أبا محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي، وبعضها بابن أبي زرع الفاسي، لسنا ندري أى الإسمين أصح، فلو ألقت كتب التراجم نورا على حياة المؤلف وترجمته لاستطعنا أن نعلل ما يتراءى لنا في الكتاب من مظاهر الإجادة حينا ومظاهر الضعف أحيانا.

- 3 -

ولكن اضطراب الأسلوب لا يحول بيننا وبين تصور قيمة الكتاب الثمينة، قيمة الكتاب التي كانت سبب شهرته في الأوساط المغربية منذ كتب إلى اليوم، وفي الأوساط الاستشراقية التي تهتم بشؤون المغرب والأندلس منذ قرنين ونصف أو أزيد، فالكتاب مادة تاريخية حافلة تستحق كل درس ، وكانت مصدر أغلب كتب تاريخ المغرب في العصور الغابرة وفي العصر الحاضر.

يبتدئ الكتاب من أول دولة إسلامية تأسست دعائمها في المغرب الأقصى، دولة الأدارسة، الذين شادوا عرش المغرب، ،فحافظت الدول التي توالت عليه وظلت ألف سنة تعتبر تلك الدول الجزء من افريقية الشمالية مصدر ارتكاز الدولة المغربية أيام امتدت سلطتها إلى حدود مصر واستولت على الأندلس أو تقلصت إلى أن أصبحت مملكة المغرب كما هى اليوم. فالمؤلف لا يتناول تاريخ المغرب عندما كان على رأسه ولى من خليفة دمشق أو بغداد، بل يشرع في تاريخ ملوك الأدارسة، ثم ينتقل إلى ملوك مغراوة وبني يفرن، ومنها يؤرخ عهد المرابطين بشىء من التفصيل، والعهد الموحدي بأكثر منه، ويختم كتابه بدولة

بني مرين، الدولة التي عاش تحت ظلالها يؤرخ عهدها بإسهاب وإيضاح.

وطريقة المؤلف ليست طريقة الحوليات كما هى طريقة أغلب المؤلفين الإسلاميين قبله، بل طريقته تاريخ الدول، فهو يبتدئ البحث من مؤسس الدولة، ويستعرض ترجمته وأسباب قيامه على الدولة التي تلاشت إلى وفاته أو خلعه أو تنازله، ثم ينتقل إلى ملوك تلك الدولة فيتكلم عن كل ملك بما يتصل به من معلومات عنه، فيستعرض أيضا ترجمته وأعماله وصفاته الخلقية ووزراءه وكتابه وقضاته وأطباءه.

ويختم الكتاب بالملك أبي سعد عثمان المريني الذي تولى الملك من سنة 710 إلى 731 هجرية وبحوادث سنة 726 هـ ، فالكتاب يتناول من تاريخ المغرب خمسة قرون ونصف.

ثم إن المؤلف لا يغفل وفيات الشخصيات المهمة التي عاشت في دولة من تلك الدول، فيعرض لترجمتها ويذكر شيئا من أعمالها أو تآليفها، ثم يأتي على الحوادث الاجتماعية التي ربما يمكننا أن نستنتج منها أسباب التطورات السياسية المهمة.

ظل كتاب القرطاس ذخيرة عند رجال التاريخ بالمغرب يعتمدون عليه في تحقيق أخبار ماضيهم وينقل بعضهم عنه إذا ألفوا شيئا في التاريخ المغربي وتدرسه جامعتهم العلمية بفاس لطلبتها. ولسنا ندري على وجه التحقيق في أي زمن اتصلت جماعات المستشرقين الأوربيين بهذا الكتاب، وكل ما نعلم أن أول ترجمة له قام بها بتس دولاكروا إلى الفرنسية ختمها تاريخ 28 نونبر 1693 ميلادية، وثاني ترجمة كانت إلى الألمانية في أواخر القرن الثامن عشر المسيحي لنمساوي يسمى Frantz von Dombou في مدينة Zograbiae وثالثها ترجمة إلى البرتغالية مع عدة تعاليق بقلم Erjoze de santo Antonio وطبعت في لشبونة سنة 1828 وترجم Conde ما يختص بالأندلس إلى الاسبانية.

وفي سنة 1834 نشر المستشرق السويدي ج. طورنبرج قسما منه، وفي سنة 1843 إلى سنة 1846 نشر ذلك العالم نصه بأجمعه مع ترجمة لاتينية وعدة تعاليق في أربعة أجزاء، وذكر

في مقدمته أنه اعتمد في إخراج طبعته وترجمتها على تسع نسخ مخطوطة لهذا الكتاب، وأنه عانى الأمرين في طبعه إذ وجد عدة فقرات لا تكاد تقرأ في تلك المخطوطات الحاوية لعدة أغلاط خصوصا في أسماء الاعلام والأشعار الواردة في نص الكتاب.
ومخطوطات الكتاب التي اعتمد عليها العالم السويدي توجد في مكاتب أوربا.
فالمخطوط الأول منها في مكتب مدينة ابسالة (السويد) نسخ بين 10 ذي القعدة وذي الحجة سنة 908 هـ ، ويقول ناسخه إنه كتبه لأحمد بن الحسن الجزولي ثم الافراني في مدينة (تنبكت) .
والمخطوط الثاني في فيسبي يسمى الكتاب بالقرطاس في عجائب فاس.
والمخطوط الثالث في مكتبة جامعة ليدن الهولاندية فرغ من نسخه في 15 شعبان 989 .
والمخطوط الرابع في المكتبة الوطنية بباريس فرغ من نسخه في يوم الخميس 7 ربيع الثاني 971 موسى بن محمد بن موسى الجماري للقائد زكريا بن أبي بكر.
والمخطوط الخامس في مكتبة خاصة بباريس.
والمخطوط السادس اختصار للكتاب كان الفراغ من نسخه يوم السبت 3 محرم سنة 775 بيد عيسى بن عبد الرحمن بن عبد المومن الحاجي.
والمخطوط السابع في مكتبة جامعة اكسفورد مكتوب على ظهره «كتاب روض القرطاس في تاريخ مدينة فاس - تلخيص الأنيس المطرب في أخبار المغرب » .
والمخطوط الثامن في اكسفورد أيضا يصف مؤلف الكتاب بقوله (يقول الفقيه الأصفى المؤرخ المتقى الأريب أبو الحسن بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي الدار والقرار) .
وفي سنة 1860 ترجمه إلى الفرنسية ترجمة جديدة Beaumier الذي كان نائبا عن خليفة قنصل فرنسا في الرباط وسلا.
أما المغرب فقد طبع على المطبعة الحجرية الفاسية أربع مرات وكتب له مقدمة في 10 صفحات أولها في سنة 1303 .

الحسن بن محمد الوزان

901 - 956 هـ / 1495 - 1548 م

شخصية مغربية فذة مجهولة في الوسط المغربي

- 1 - عصره

التقلبات السياسية

أراد صاحب كتاب القرطاس أن يصف العصر الذي قام فيه بنو مرين ثائرين على الموحدين فقال:

« وفي هذه المدة ضعفت دولة الموحدين، وظهر فيها النقص وتبين أى تبين، وصارت ملوكهم ليس لها حكم في البوادي، وإنما سلطانهم وأوامرهم في المدن خاصة، وكثرت الفتن بين القبائل، واشتد الخوف في الطرقات والمناهل، ونبذ أكثر الناس الطاعة، وفارقوا الجماعة، وقالوا لولاتهم لا سمع ولا طاعة ، فاستوى الدنيء والشريف، وأكل القوى الضعيف، وكل من قدر على شيء صنعه، ومن أراد شرا ابتدعه، ليس لهم سلطان يكفهم ولا أمير عن غيهم يردهم ويصدهم، وكانت قبائل فازاز من زناتة وقبائل العرب والبربر يقطعون الطرقات، ويغيرون على القرى والمداشر مع الأحيان والأوقات؛ فلما رأى الأمير أبو سعيد بن عبد الحق أن ملوك الموحدين قد ضعفت دولتهم، وضيعوا حرمتهم، وأهملوا رعيتهم، واعتكفوا في قصورهم، واحتجبوا عن مهمات أمورهم، واشتغلوا بالخمور والغواني، وتلذذوا باللهو وسماع الأغاني، ورأى أن ضلالهم قد تبين، وغزوهم على من له قدرة قد تعين، وخلعهم من أوجب الواجب لعجزهم عن القيام بالواجب، جمع أشياخ

مرين، وندبهم إلى القيام بأمر الدين، والنظر في مصالح المسلمين، فوجدهم إلى ذلك مسرعين، فسار بجيوشه الوافرة، وجنوده المنصورة الظافرة في بلاد المغرب وقبائله وجباله، وأوديته ومناهله، فمن سارع إلى بيعته، ودخل في طاعته، أمنه ووضع عليه الخراج، وتركه آمنا منيعا ومن حاد ونابذة أباده نهبا وقتلا وغادره صريعا ».

هكذا صور ابن زرع أواخر دولة الموحدين ورسالة بني مرين إلى المجتمع المغربي، وهو تصوير صحيح لا مبالغة فيه ولا إجحاف، ولو عاش ابن زرع في أوائل الدولة السعدية، وأراد أن يصف أواخر دولة بني مرين، لما استطاع أن يصفها بما وصف به عصر أواخر دولة الموحدين ؛ فبعد أن تقلد بنو مرين الملك واستووا على العرش المغربي قرنين ونصف، يحكمون البلاد، ويسيطرون على مرافقها الحيوية ولا يتأخرون لحظة عن عظمتها وشغف مؤسسيها بالعلم والمعرفة، ونشطوا الأدب ومختلف الفنون، بعد ذلك كله حل عصر الاضطراب السياسي، وإذا حل عصر الاضطراب السياسي في أمة فسرعان ما يختل سيرها إلى الأمام، ولا تقوى أن تواصل تطورها إلا بدولة أو حكومة فتية لها من الاستعدادات ما يؤهلها أن تسيطر على الموقف بحزم ودراية.

وبنظرة وجيزة على حوادث العصر الذي عاشت فيه هذه الشخصية المتحدث عنها في هذه السطور ندرك أي اضطراب كانت تعانيه البلاد المغربية وأي فوضى كانت تتخبط فيها على إثر ضعف الإدارة المرينية ومغادرة البقية الباقية من المسلمين لأرض الأندلس بعد أن اكتسحها الإسبان واستضعف قوة المسلمين وسولت له نفسه أن يطمح في الضفة المقابلة لها وحرك ذلك الطمع نفسه الدولة البرتغالية نظرا لما وصلها من حوادث هذه البلاد وثرواتها وعدم وجود أية شخصية تدير شؤونها بقدرة، فاستولت في سنة 894 على آنفا وأصيلا وفي 907 استولت على البريجة وبنوا مدينة الجديدة، ثم واصلوا استيلاءهم على سواحل سوس وبنوا حصن فونتي قرب أكادير ولم يترددوا أن يمكتوا ثغر آسفي ويزحفوا على الاثر إلى أزمور والمعمورة، ثم خلال هذه الأثناء تنشب الحرب بين بقية

الوطاسيين والمرينيين وبين أبي العباس أحمد السعدي.

هكذا كانت حوادث هذا العصر، فالثورات في الداخل تتوالى، والأجانب يغيرون على الدولة، ويقصون أطرافها، وفي هذا الوقت العصيب تشتعل نار الحرب الأهلية بين دولة شاخت هى دولة الوطاسيين المرينيين ودولة تتمخض الحوادث على ظهورها وتمركزها هى دولة السعديين التي ستاخذ بعد ذلك بيد الأمة المغربية، وتعيد الأمور إلى نصابها، وتطرد الأجانب عن ثغورها، وترد إلى الدولة المغربية هيأتها وروحها.

الحياة الفكرية

لعل آخر ما يتأثر بالتقلبات السياسية والثورات الداخلية هى الحياة الفكرية، فجذورها تتكون وترتكز في عصر الطمانينة وعصر الحضارة ، لكن ثمرتها الناضجة قد تتأخر إلى عصر الاضطراب السياسي، وذلك نظرا لشغف الباحثين في فروع العلم وحرصهم على الثقافة لا تأبه الحياة الفكرية بالصدمات الأولى السياسية، بل تحول بينها لذة المعرفة التي يتذوقها التلاميذ ورغبة البحث التي يحرص عليها الأساتذة ولو إلى أجل.

والشخصية التي نشاء أن نتحدث عنها قليلا عاشت في عصر مملوء بالاضطراب السياسي، ومع ذلك استطاعت أن تشق لنفسها طريق العلم وأن تكون عقلية ممتازة فذة تلقى كل إعجاب في الغرب، فلقد عاش في أواخر دولة بني مرين وثقف في مدارسها وكان ثمرة من ثمرات عصرها الذي سادت فيه السكينة، وتمت به أسباب الحضارة وإن كنا لا نعرفه إلا من طريق أوربي وكتابات أوربية فإنه يمثل عصرا ذهبيا عظيما من عصورنا الخالية خير تمثيل، ولا غرو فالعصر المريني من أزهى عصور دول الإسلام تزعمت فيه فاس العلم الإنساني وحضارة العلم إذ ذاك، وكانت نقطة تلتقي فيها حضارة الشرق الماضية وحضارة الغرب، ومصدر الروح بدا سيرانها يدب في الغرب حيث تسيطر الكنيسة وتراقب كل

اتجاه من شأنه أن يزعزع قوتها ومركزها ونفوذها.

ففي العاصمة المرينية فاس وفي غيرها من المدن المغربية كانت المعاهد تقوم بدور مهم في تغذية العقول، وتواصل دراسات قيمة في سائر فروع المعرفة التي اتصل بها العقل الإنساني لغاية ذلك العهد؛ فمن تشريع وعلوم الهيآت إلى علوم طبيعية ورياضيات وجغرافية وغير ذلك؛ ولم تكن جامعة القرويين كما هى اليوم تود أن تحصر العلم في مسائل معينة، والأدب في صور جامدة ، بل كان المتخرج منها المحصل على إجازة أساتذتها يدرك أكثر ما يستطيع الإنسان أن يدركه في ذلك المعهد من صور التفكير وألوان المعقولات وضروب من الأدب الناضج.

ونظرة واحدة على قائمة المفكرين الذين ذكرهم صاحبنا الحسن في أحد مؤلفاته توضح لنا الثقافة التي كانت سائدة في ذلك العصر؛ فقد ذكر أكثر من ستين مفكرا من أعلام المفكرين المسلمين، فمن الفلاسفة من أمثال ابن رشد والفارابي وابن سينا وابن طفيل والطبراني وابن خلدون وابن عمران وموسى بن مامون، ومن المتصوفة أمثال الغزالي والحسن البصري وأبي الحسن الساري والشاذلي وأبي حفص عمر ابن فريد ، ومن الأطباء أمثال عبد الله البيطار وابن زهر وإسحاق بن عمران والرازي، ومن الجغرافيين أمثال ابن عبد الله البكري والشريف الإدريسي وابن فضل الله العمراوي والمسعودي، ومن المؤرخين أمثال الشهرستاني وابن الجوزي وابن حسن المتلميذي وابن بشكوال.

ذكر هؤلاء الفطاحل وذكر غيرهم في كتاب احتفظت به المكتبة الأوربية، كتاب في جغرافية افريقيا والمغرب بصورة خاصة، ولست أدري كم ذكر من الشخصيات في مؤلفاته التي ضاعت في الفنون الأخرى والتي لم تحتفظ بها المكتبة العربية أو احتفظت بها ولا زالت ملقاة في إحدى الخزائن الخاصة إلى أن يشاء الله إبرازها وإبراز غيرها من المخطوطات المغربية فتلقى ضوءا جديدا على العصر المريني وغيره من العصور المغربية وما أينع فيها من ثقافة وازدهر من حضارة، فالحياة الفكرية لم تكن كحياتنا الفكرية

الحاضرة ذابلة قاتلة لكل نشاط وسعى، بل كانت تندفق علما وتفكيرا رغما عن الاضطرابات المتوالية والصدمات المتتابعة.

- 2 - حياته

لا نعرف شيئا عن حياة هذه الشخصية المغربية فإن الإبهام يحيط بها من جوانب عدة، ولا تخطو خطوة دون أن تتساءل عن نواح للرجل يجب أن نعرفها لنواصل سيرنا في تفهم ترجمة حياته وتعلل ما يتراءى لنا عنه من صور؛ فالرجل لم يكن من هؤلاء الذين يعيشون أعواما ثم يقبرون دون أن يدركوا من الحياة إلا صورها السطحية، فيمرون في الحياة مر السحاب، بل كان فردا يحتفظ بكل ما يشاهد وما يسمع، ويلاحظ الملاحظات الدقيقة، ولم يكد يكتمل نضوجه العلمي واستعداداته الفطرية حتى خطفته أيد عاتية فإذا به في عالم آخر لا يوافق هذا الوسط الذي تعلم فيه وتثقف تثقيفا صحيحا.

فكل ما نعرف عن حياته أنه ولد في غرناطة، والإسبان في الأندلس يهاجمون العرب ويكتسحون البلاد التي فتحها جيش طارق ونشر فيها لواء الإسلام، يهجمون البلاد هجوم الاستيلاء الأخير، وقد اضطربت أحوال المسلمين، وخيم عليهم اليأس والقنوط، فأصبحت في تلك البلاد ملتهم تحتضر، فلا يكاد صاحبنا يتعدى سن الطفولة حتى يتم أمر الله وتغادر آخر جماعة إسلامية البلاد الإسبانية، فتغادر عائلة صاحبنا الأندلس إلى المغرب، وتقصد توا عاصمة المرينيين حيث يقضي محمد الوزان حياته الدراسية فيتقن العربية وعلومها، ولا نكاد نعرف شيئا واضحا عن دراسته إلا إذا استنتجناها من خلال سطور مؤلفه التي يأتي ذكره، فنعرف أن الوزان لم يكن بذي التعليم السذج الذي ليس بينه وبين العامي إلا درجة واحدة من درجات الرقي، بل كان شخصا يجمع إلى دقة ملاحظاته واستعداداته الفطرية ثقافة واسعة شاملة لأشتات فروع العلم الذي تحدث إلينا عنه في

كتابه ومختلف صور الثقافات الإسلامية، وقد كانت فاس إذ ذاك في أوج عزها تتزعم العواصم المتمدينة حضارة وعلما، وجامع القرويين إذ ذاك على رأس المعاهد العلمية التي أسستها الدول المغربية ودولة بني مرين بصورة خاصة يقدم لطلبته غذاء فكريا يشد إليه الرحال، وإداراته لا تبخل على كل غريب بالمساعدة الأدبية والمادية؛ فالوسط الفاسي العلمي هو الذي كون هذه الشخصية ونمى استعداداتها وشغفها بالعلم والبحث.

ويحدثنا أنه تعاطى مهنة العدالة فأصبح عدلا يسجل الأحوال المدنية والتجارية مدة عامين، والظاهر أن هذه المهنة لم تكن مما يوافق مشرب صاحبنا، بل كان يتطلع إلى ناحية أخرى من نواحي الحياة غير قضاء يومه في دكان ضيق يكتب على ركبته رسوما ومواثيق، بل أراد أن يجل في أرض الله الواسعة، ويدرس الحياة من طريق عملي، ويطبق النظريات على الملموسات فيعطي لمواهبه الفرصة كى تبرز وتغتنم من التجاريب والمصادمات، ففي خلال عشر سنوات جال بمختلف جهات المغرب ووصل إلى تمبكتو وزار مختلف نواحي افريقيا الشمالية وزار الحرمين واستنبول وجهات أخرى من آسيا، وكان يقضي خلال هذه الرحلات مهمات سياسية، ففي سنة 921 يكون بتادلة ويشاهد معركة معمورة بأسفل نهر سبو، ثم يرجع إلى فاس ويقصد الحرمين على طريق تلمسان والجزائر وتونس، وفي السنة التالية يقصد الاستانة وغيرها من الجهات الأسيوية ثم يتجول في مختلف جهات افريقيا الشمالية وطرابلس على العموم.

وفي سنة 926 ه ياسره قرصان إيطاليا قرب نابلي ويأخذونه إلى البابا ليون العاشر، فيجد نفسه في وسط أوربي غريب عنه، فبدا دبيب الحياة الفكرية يسري في عروقه من جديد، له ماض زاهر وحضارة عريقة الأصل، وكان البابا ليون العاشر - والبابا إذ ذاك في أوربا الكل في الكل - رجلا فذا ممتازا في وسطه، يرغب في العلم وينشد ذويه، فلما أوتى له بالحسن فمن المتصور أنه طلب منه أن يتحدث إليه عن بلاده المغربية إذ استلفت نظره حديثه الفياض ودقة معلوماته وسعة نظره، والتاريخ يحدثنا أن البابا قربه إليه وعين

له راتبا عظيما وجعل منزلته رفيعة ومكانته محترمة، فلقد وجد البابا في رجلنا، دون بقية الأسارى التي كانت إيطاليا تموج بهم، رسولا من رسل المعرفة وتلميذا من تلامذة عصر ذهبي يزخر بالمعارف وتجتمع فيه ثقافات مختلفة.

تمكنت أسباب الصلة بين البابا والحسن المغربي وتأصلت المودة بينهما إلى حد بعيد، وتحدثنا بعض المصادر التي كتبت عنه أن البابا دعاه إلى المسيحية فتمسح فسماه باسم ليون، وبليون يعرف صاحبنا في الوسط الأوربي منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا، ولست أدري حقيقة تمسحه وهو الذي ترعرع في وسط إسلامي وتغذى من ثدي المعارف الإسلامية، أم أن ذلك استنتاج من بعض الذين كتبوا عنه لما علموا هذه الصلة والمودة اللتين تكونتا بين ليون البابا وبين ليون المغربي، فإنه لم يكن ليخطر في ذهنية المتدينين بأوربا أن شخصا يرضى عنه البابا وهو غير مسيحي، ويزعم مستشرق درس حياته ومؤلفاته أنه لما رجع إلى تونس رجع إلى دينه الإسلامي؛ إذن فمسيحيته - وإن صحت - لم تكن بصورة ظاهرة، ولست أتصور أن الحسن قد تمسح وإلا فلماذا يغادر روما إلى وسط إسلامي بعد موت البابا ليون العاشر فيقصد تونس وهناك يلقى ربه وتحتضنه تربة إسلامية، ثم إن مؤلفه الضخم الذي هو بين أيدينا وهو فيه يتحدث عن بلاد إسلامية من مختلف نواحيها لم يأت بكلمة أو جملة يشم منها بغضه أو نفوره فحسب من دين الإسلام والمسلمين إذ أصبح حقيقة يعتقد أنهم على ضلال. هذا كل ما نعرف عن حياة الرجل وليس ذلك بالترجمة التي تتيح لنا أن نحلل شخصيته تحليلا تاما ونستنتج منها ما يلزم أن نستنتج لنصور عبقريته وكفاءته العلمية تصويرا جليا لا غموض فيه، فالإبهام - كما قلت آنفا - يحيط بحياته، والمصادر العربية التي بين أيدينا لم تتحدث عنه ولو بترجمة بضعة أسطر، بل ولو بكلمة واحدة، ولكن مؤلفه العظيم - وصف افريقيا - يعطينا صورة عن سعة علمه وآفاق بحثه وقوة إدراكه ويوضح لنا سبب شهرة الرجل ومؤلفه في الأوساط العلمية الغربية وشغف الباحثين الأوربيين به وبسيرته.

- 3 - مؤلفاته

كتاب وصف افريقيا

يظهر أن مؤلفات الحسن صاحبنا عديدة، ومن سوء حظنا لم نتصل إلا بكتاب أو كتابين منها، والأخرى لا نعرف إلا اسمها، بل ربما ألف مؤلفات قبل أسره أو بعده لا نعرف شيئا عنها مطلقا بل لا نعرف حتى اسمها، ومع ذلك فكتابه الذي بين أيدينا كاف أن يرينا صورة صحيحة عن هذا الرجل وعقليته ومواهبه، هذا الكتاب يسميه « وصف افريقيا » وليس هذا الكتاب بالرحلة الوصفية، ولكنه كتاب عملي له وصف العلم ودقة العلم في سائر صفحاته. تناول كثيرا من المسائل، وأجاد في البحث والتحليل وخلد مؤلفا له قيمته الكبرى في عالم الجغرافية والتاريخ مدى الأجيال، وكان المصدر الوحيد عنا في ديار الغرب قبل أن نتصل بالغرب.

والغموض الذي يشمل حياة صاحبنا يشمل حتى مؤلفاته، بل حتى كتابه هذا الذي بين أيدينا والذي ترجم إلى أهم اللغات الأوربية، وله المكانة السامية بين مؤلفات المكاتب الأوربية، فإننا لا نعرف بأية لغة كتب ولا أى مصادر اعتمد عليها صاحبنا عند تأليفه ولا الداعي له على تأليفه ولا المدة التي استغرقها في تأليفه إلى غير ذلك من الأسئلة التي تنير لنا السبيل وتزيل شيئا من الإبهام؛ وغاية ما نعلم أن هذا الكتاب صدرت طبعته باللغة الإيطالية في سنة 1530 في مجموعة للإيطالي Romisio خاصة بالأسفار البرية والبحرية، وترجم الكتاب بعد إلى اللغة اللاتينية ولم تأت سنة 1556 حتى ترجم الكتاب إلى اللغة الفرنسية، وبعد ذلك ترجم إلى كثير من اللغات الأوربية. أما أصله العربي - إن كان له أصل عربي - فقد ضاع ولم يعرف منه ولو سطر. وغاية ما يمكننا أن نستنتج من هذه المسألة تأييد الفكرة التي ذهب إليها المستشرق مسينيون هى أن الحسن جمع خلال أسفاره العديدة مذكرات كتبها بلسانه العربي ثم وضعها في صفة كتاب مضيفا إليها معلوماته التي

حفظتها له ذاكرته التي لا ريب أنها كانت ممتازة في الإدراك والحفظ. فعند تأليفه لهذا الكتاب أو غيره في إيطاليا لم يكن له من المصادر العربية شيء، بل اعتمد على مشاهداته وتجارب أسفاره، فكان لكتابه قيمة ممتازة حيث لم يكن مؤلفه ممن يعتمد على غيرهم من المؤلفين؛ أما الداعي له على تأليف هذا الكتاب فلعله هو البابا ليون العاشر نظرا للصلة التي كانت متينة والمودة العظيمة بينهما، فلا ريب أن شغف هذا البابا بالعلم دعاه أن يطلب من رفيقه المغربي أن يحدثه عن أحوال بلاده ومشاهداته، فأفاض صاحبنا في الحديث والوصف إفاضة دعت البابا أن يطلب منه تأليف كتاب يضم هذه المعلومات يحتفظ بها في خزانته، فلبى الطلب وألف هذا الكتاب، على أن ليون المغربي لا يتحدث إلينا بشيء من هذا مطلقا وإنما هو ظن وفرض لا أكثر ولا أقل.

عندما درس المستشرق الشهير مسينيون هذا الكتاب لم يتمالك من أن يقول إن هذا الكتاب بتبويبه وترتيبه مؤلف للأوربيين،

فقسم ليون المغربي كتابه إلى تسعة أقسام:

الأول في معلومات عامة عن الجغرافية، ومن عناوين هذا القسم مثلا: أصل كلمة افريقيا سكان افريقيا، وتعريف هذا الإسم، أصول الإفريقيين، العرب الساكنون في مدن افريقيا وهكذا تابع بحثه بغاية الدقة والتحليل؛

وفي الأقسام السبعة تكلم عن كل ناحية من نواحي المغرب بتفصيل وشرح تامين، مبتدئا بالمدن التي في تلك الناحية ثم بالجبال؛

وفي القسم التاسع تكلم عن المحصولات الأرضية وعن الأنهار والبحار.

ومن العجيب أنه أول من قسم المغرب على أربعة أقسام:

1 - البلاد البربرية أي البلاد الواقعة على شمال سلسلة جبال الأطلس، وهي المغرب والجزائر وتونس؛

2 - بلاد النخيل أو الجريد الواقعة على جنوب الأطلس؛

3 - بلاد ليبيا وهى الصحراء؛

4 - بلاد السودان (بلاد كَناوة) ·

وهذا التقسيم لا زال يستعمل إلى اليوم في جغرافية القطر المغربي عموما، وهو الذي استنبطه مما يدل على دقة ملاحظته ودراسته العملية؛ والإنسان عندما يتابع ما في الكتاب يخيل إليه أنه ألف في العصر هذا، إذ يرى فيها معلومات وافية عن نواحي مختلفة من الحياة لم يكن ليتصور أن العالم القديم كان يهتم بتلك النواحي ويستطيع أن يستنتج تلك الاستنتاجات·

فهو إذا ذكر جسرا نصبه يعقوب المنصور لم يغفل أن يعدد لنا عدد أقواسه، ويذكر في كل جهة ما يوجد من معادن وأتربة، ويشير إلى عمر الإنسان بالمغرب ويثبت أنه يتراوح بين 65 و 70 وفي الأطلس حيث الهواء النقى بين 80 و مائة سنة، وهذا يؤيده الإحصاء الحديث تأييدا تاما·

ويجره الكلام عن الهواء إلى الأمراض التي يصاب بها المغاربة فيعددها ويذكر مصدرها وأسبابها·

ثم يتطرق إلى الحياة الاجتماعية فيدرك ما للهواء من التأثير في الأخلاق التي يصفها بمنتهى الصراحة حيث يزعم أن الشعب البربري ماهر في التجارة، لا يثبت على حال، متمسك بالدين، كثير الجدل، ثم يخصص صفحات عن الملابس التي كانت تسود في عصره وأنواعها حسب مختلف الأوقات والمناسبات، ثم فصل الأطعمة التي يتناولها أبناء وطنه، وهكذا كان دقيقا في الناحية الاجتماعية كما في غيره·

وللناحية الإدارية أيضا حظ في كتابه إذ عدد المحاكم في كل ناحية، وتحدث عن تقاسيم المغرب السياسية، وعن الجهات التي كان بنو الوطاس يسيطرون عليها، وعن المدن المستقلة في إدارتها· والقبائل لم تكن تعترف بإدارة وملك الوطاسيين نظرا لضعفهم واضطراب أحوالهم·

وقد أفاض أيضا افاضة عجيبة في الطرق التي بالمغرب وأعطى عنها تفصيلا دقيقا إذ عدد كل مركز أو مدينة وما يتفرع عنه من طرق بتفصيل وإيضاح.

والخلاصة أن ليون المغربي لم يترك ناحية إلا تحدث عنها بإسهاب ودقة غريبين دلتا على مقدار علمه وسعة نظره، ولعله إذا استرسلنا أن نعدد ونوضح ما يحتوي عليه الكتاب لضاق بنا المقام وخرجنا عن حدود الكتابة عن المؤلف إلى استعراض تفاصيله، فما ذكرنا سيعطي صورة عن مجهود الرجل، ويستطيع المرء أن يقيس عنها صورا عدة عما في الكتاب من أبحاث هى جديرة بالظهور والبروز في وسطنا، فيطلع أبناء الجيل الحاضر على ما خطه عالم من علمائهم في عصر من عصورهم المتحضرة.

وقد ذكرت آنفا أن مؤلف الحسن هذا كان المصدر الوحيد عنا في ديار الغرب، وقد أتى المستشرق مسينيون على ذكر أشهر الأشخاص الذين كان مؤلف ليون مصدرهم في أبحاثهم عن بلاد افريقيا عموما والمغرب خصوصا فإذا هم يزيدون عن الثلاثين كان أولهم في سنة ... من القرن السادس عشر وأخيرهم في سنة 1853 ، ولكى تذكر حقيقة أهمية المؤلف في الغرب لتفتح أى كتاب عن المغرب ألف في الغرب فإنك لا ريب ستجد اسم صاحبنا في صدر قائمة المصادر التي اعتمد عليها صاحب الكتاب في بحثه.

مؤلفاته الأخرى

فمن سوء حظ الثقافة والعلم إذن ألا نتصل بمؤلف آخر لهذا الرجل الفذ ولا نعرف من مؤلفاته الأخرى إلا أسماءها، فلو أتيح لنا أن نجد تلك المؤلفات ونهتم بدرسها لاتصلنا اتصالا قويا بحياة العصر المريني العلمية والفكرية، فمن يدري ففي بعض الخزائن المغربية مخطوطات من هذا القبيل يكون إبرازها بواسطة المطبعة حدثا في الماضي يحدث انقلابا في معلوماتنا عن الماضي وتغييرا في آرائنا نحو ذلك الماضي المجيد.

فمؤلفات الحسن لم نعرف - كما ذكرت - إلا أسماءها منها قاموس عربي عبراني لاتيني توجد منه نسخة بالاسكوريال في اسبانيا وكتاب في النحو وآخر في البلاغة وآخر باللاتينية في تراجم ثلاثين من أشهر رجال الإسلام.

وبقى علينا أن نتساءل هل ألف الحسن شيئا قبل أسره وبعد رجوعه إلى تونس، فالظاهر أن كل المؤلفات التي ذكرت آنفا ألفت وهو مقيم في إيطاليا، فليس من المتصور أن عالما ممتازا كصاحبنا يقضي شطرا من عمره في وسطه حيث لغة آبائه وثقافتهم دون أن يؤلف ودون أن يشتغل بالعلم ودراسته، فإذا كان هناك شيء فإننا لا نعرف الآن شيئا عن صاحبنا إلا ومصدرنا الوحيد هو أقوال المؤلفين الغربيين.

كلمة ختامية

لشخصية ليون هذا مقام كبير في الدوائر العلمية الغربية وكثير من المقالات حررت فيه إذ يعتبر شخصا له خدمة جليلة للثقافة والبحث في عصر لم تكن فيه معلومات الإنسان عن هذا العالم إلا معلومات سطحية، إذن فمن العار أن نجهل مثل هذه الشخصية من وسطنا العربي وفيه تدرجت وتثقفت بينما له في الغرب دوى حيث يعتبر ممتازا في معلوماته وطرق بحثه.

ولعل أقل الواجبات التي ينبغي أن نقوم بها نحو رجلنا الممتاز أن يترجم كتابه إلى اللغة التي هى أصله الأول، فنعيد إلى المكتبة المغربية كتابا من كتبها الضائعة، ونهيئ للقارئ العربي أن يطلع على كتاب يريه بأحلى صور حياة المغرب منذ أربعة قرون وما كانت تضطرم به من عناصر النور والظلام، وما كانت تموج به من حق وضلال، فهل من شبابنا من يقوم بهذا الواجب؟

المطبوعات المغربية الحديثة

ظهور كتاب « النبوغ المغربي في الأدب العربي »

تأليف الأستاذ عبد الله كنون الحسيني

خطوة عظيمة في تاريخ الفكر المغربي

الملحق الثقافي لجريدة المغرب

السنة الثانية - عدد 8 يونيه 1938 وعدد 9 الموالي له

سعيد حجي

نظريتان متناقضتان تصورهما جماعتان متناقضتان عن ماضي الفكر المغربي، الأولى متشائمة ترسم لهذا الماضي صورة ذابلة، والثانية متفائلة ترسم لهذا الماضي صورة رائعة.

تنظر الأولى إلى الإنتاج الفكري في أمم العروبة والإنتاج العالمي في أمم الأرض الأخرى وتتساءل أين إنتاج المغرب من هذا وذاك؛ والمشاهدة تؤيد زعم هاته الجماعة إذا دخلنا إلى مكتبة للمطبوعات إذ يعسر أن تجد ديوان شعر أو كتاب أدب أو بحث علم أو دراسة تشريعية ألفت في العصور المغربية الماضية وطبعت اليوم طبعة يتناولها الجمهور ويستفيد منها. وتغادر مكتبة المطبوعاتوأنت تتأثر بهاذه النظرية وتكاد تتشيع لها.

أما الجماعة الثانية فلم تتصل بالماضي المغربي عن طريق المطبعة بل عن طريق المخطوطات التي لا توجد إلا عند طائفة لا تتجاوز أصابع اليد في المغرب وفي مكاتب المغرب الحافلة، وليس من الهين على القارئ العادي أن يحاول أن يتصل بتلك المخطوطات لينفى زعم الطائفة الأولى. وبذلك يظل الماضي المغربي مظلم الجوانب غامض

الاتجاهات عديم الإنتاج الخالد في أعين الجمهور وكمية مهملة في نظر الجيل الجديد.

ومن حسن الحظ أن الطائفة الأولى المتشائمة لم يكن تشاؤمها نتيجة اطلاع ولا خلاصة بحث، فليس من المستحيل إذن أن يهاجم المرء نظريتها ليهدمها في أول مرحلة لنهضتنا الفكرية المقبلة. ولعل كتاب « النبوغ المغربي في الأدب العربي » الذي أود اليوم أن أتحدث إليكم عنه هنيهة وفق إلى وضع اللبنات الأولى في أساس تلك النظرية وأن عنصر تلاشيها أصبح يدنو وأجلها يقترب بفضل هذا التأليف المهم وبفضل ما سيظهر في هذا الميدان من مجهودات أبناء المغرب.

ولست الآن بصدد الاجهاز على تلك النظرية بل حسبي أن أستعرض أمامكم بشيء من الإيجاز محتويات هذا التأليف الذي ظهر اليوم، وأنا متيقن أنه بعد ذلك سيتاح لكم أن تلقوا نظرة واسعة على الماضي المغربي بمبادرتكم إلى مطالعة « النبوغ المغربي في الأدب العربي » بحماس ولهفة، فهو جدير أن يعد الخطوة الأولى العظيمة الموفقة إلى إزاحة الستار عن الفكر المغربي في العصور الغابرة، وإن الواجب يحتم أن يكون هذا التأليف المهم في مكتبة كل مغربي وأن يطالعه كل شاب مطالعة دراسة وإمعان نظر ليسد منافذ فكره عن النظرية الأولى المتشائمة ويضع تصميمه لدراسة يقوم بها لناحية من نواحي هذا الماضي العديدة.

والكتاب ليس دراسة لآداب المغرب وأدبائه فحسب، بل هو كتاب يجمع إلى ذلك دراسات عن العلوم التي كان لها حظ من الانتشار في ذلك الماضي وعن الاتجاهات السياسية والتاريخية التي لعبت دورا خطيرا في توجيه الحركات الفكرية والدينية، فهو جدير أن يعد تاريخا للفكر المغربي بوجه عام.

ومن الواجب أن نعلن هنا مع مؤلفه أن ميزة « هذا الكتاب في أنه ليس لقطر من أقطار العروبة اليوم نظيره إذ أن جميع كتب الأدب وتاريخه عامة تنظم البلاد العربية جمعاء » بينما هذا الكتاب يتناول أمة واحدة من أمم العروبة، ولقد بذل مؤلفه مجهوده في ألا

يتعرض إل الأشخاص غير المغاربة الذين احتضنتهم دولنا الماضية وشجعتهم على التأليف والبحث والإنتاج، فضرب صفحا عنهم ليعطيك صورة من الأدب المغربي الخالص.

وهنا يجب أن نشرح رأى المؤلف في تقسيم عصور المغرب الفكرية، فإنه لم يتبع طريقة المؤلفين الذين يتصورون أن الحركات الفكرية هى وليدة الانقلابات الدولية والاتجاهات السياسية، بل إنه يدمج دولتين أو أكثر في عصر واحد، فأدمج ه اذه الدول الأولى وهى الأدارسة وبنو العافية ومغراوة وبنو يفرن وغيرها في عصر واحد سماه عصر الفتوح، وأدمج الدولتين المرابطية والموحدية في عصر سماه عصر الموحدين، وأدمج المرينيين والوطاسيين في عصر واحد سماه عصر المرينيين؛ أما الدولتان السعدية والعلوية فقد أفرد لكل منهما عصرا خاصا.

ابتدأ المؤلف بدراسة سليمة الاستنتاج، واضحة المرمى، عن عصر الفتوح الإسلامية، وكيف انتشر الإسلام بالمغرب، وكيف استعرب المغاربة، ودرس الصراع بين حاملي رسالة الإسلام العرب وبين البربر سكان البلاد، فصور بذلك كيف خرج المغرب في عهده غير الإسلامي إلى عهد إسلامي مستقل في إدارته وفي حركاته الدينية والاجتماعية والفكرية عن أمم الإسلام الأخرى على أيدي الفاتحين من عقبة بن نافع وموسى بن نصير اللذين بذرا البذور الأولى للإسلام بهذه الديار، ولكن ظل الشعور الديني في ضعف والإيمان في تذبذب نظرا لتسرب الخوارج إلى المغرب فارين من الحكومات الإسلامية بدمشق وبغداد ولأسباب أخرى إلى أن أتى ادريس بن عبد الله المؤسس الأول لحكومة المغرب الإسلامي، فتوافدت عليه قبائل المغرب تبايعه، فتسلم أمر المغرب، وقضعلى فتنة الخوارج، فوضع الحجرة الأولى في استقلاله بفصله عن خلافة العباسيين ببغداد، واستعرض الأسباب التي أدت بالمغاربة إلى التعجيل في اعتناق الإسلام، وتتلخص في يسر شريعته، وحسن معاملته، ورفق الولاة المسلمين وعدلهم.

ثم تعرض للعوامل التي أدت بالبربر للاستعراب حتى أصبحوا في أمد وجيز يتكلمون ويخطبون بالعربية فيجيدون، وأستشهد لذلك بخطبة طارق بن زياد وأثبت أن سرعة انتشار العربية لا يقل عن انتشار الإسلام، ومن ذلك تخلص إلى الصراع الذي وجد في ذلك العهد بين العرب والبربر فأفصح أنه صراع على استغلال المنافع لا صراع دين إذ أن الإسلام ساد بعد مولانا ادريس الأول سيادة تامة.

وحاول أن يلقى نورا على النهضة الفكرية في هذا العصر فأعوزته المصادر التي تعوز كل من أراد ذلك، فردد « أنها فترة طويلة مرت على المغرب بعد دخول العرب إليه بدون أن يحصل فيها على طائل من علم أو معرفة أو بحياة أبية جديدة » وعلل ذلك تعليلا قد تقع الموافقة عليه وقد لا تقع، ولكنه تعليل مستند على حجج لها نصيبها من الصحة. ولم يغفل أن يتعرض لانتشار مذهب مالك في التشريع، وللنور الذي كان يسطع من سبتة تلك المدينة التي كانت تجاور الأندلس.

وبعد ذلك انتقل إلى العصر الذهبي الأول لدول المغرب فدمج العصر المرابطي والعصر الموحدي في عصر واحد وتحدث عن عبد الله بن ياسين ومجهوداته في نشر المعرفة ببلاد صنهاجة وحروبه لتوطيد دعائم الإسلام بين قبائلها. ثم تحدث عن العصامي الفذ يوسف بن تاشفين « الذي غير خريطة المغرب وقلب ممالكه العديدة رأسا على عقب وأزال كل الحواجز التي كانت تفصل بين أقطاره المتجاورت » .

ثم تحدث عن الثورت الكبرى التي قام بها الموحدون فشرح مذهبهم وتأثيره على المجتمع المغربي، ومن ثم دخل لسير الثقافة في الدولة الموحدية، فتكلم على تشجيعها للأدب وعطفها على الأدباء، وأتى بأمثلة واسعة واستطرد الكلام بمناسبة ذلك عن اهتمام هذه الدولة بالبربرية وسمى ذلك بالهزلة التاريخية، ثم تحدث عن الحركة العلمية فاستعرض الناحية التشريعية والاعتقادية أولا، ثم ناحية علوم العربية والسير والتاريخ ثانيا؛ وبعد

ذلك أتى على نشاط الفلسفة بهذا العصر وتكلم عن اهتمام البلاط الموحدي بها وتشجيعه لرجالها، ثم تكلم عن الفن المعماري والهندسة البنائية والفلاحة والطب والكيمياء والنبات ثم الفنون الرفيعة من نقش وفسيفساء وغيرهما.

ثم أخذ يعدد رجال الفكر في هذا العصر يسرد سيرهم ومؤلفاتهم، ويكفي أن نذكر من هؤلاء الرجال القاضي عياض والإدريسي وأبا عمران الفاسي والمراكشي.

ثم أتى على جريدة بأسماء المؤلفات التي ألفت في هذا العصر فذكر كتب الحديث والتفسير ثم كتب المنطق والأصول والتاريخ والتراجم والجغرافية وكتب الأدب والدواوين الشعرية وكتب النحو واللغة والحكمة، وهناك يصرح المؤلف أنه لم يذكر ما ألف في هذا العصر برسم الخزانة السلطانية من غير المغاربة من علماء الأندلس وإفريقية.

وبعد ذلك تناولت دراساته الحياة الأدبية في هذا العصر فأثبت أن الأدب في عهد المرابطين كان أندلسيان محضان؛ أما في الدولة الموحدية فقد تغيرت الوضعية وأصبح للمغرب أدباء مغربة بفضل تنشيط الموحدين للأدب ورعايتهم له، وبفضل المنافسة التي كانت مشتدة بين العدوتين ورغبة من المثقفين المغاربة لاشغال المناصب الرفيعة في دولتهم.

فالآداب المغربية لم تكن في هذا العهد صورة مماثلة للأدب الأندلسي مثلما تصور البعض بل مميزة عنها تعبر عن شعور أهلها ولا تتأثر بالأندلس إلا كما تتأثر بالشام والعراق.

ثم أخذ المؤلف يترجم للأدباء المغاربة في هذا العهد مثل أبي جعفر بن عطية وابن حبوس وسليمان الموحدي وأبي العباس الجراوي والخطابي وابن عبدون المكناسي.

ثم تناولت دراساته العهد المريني، فبعد أن ألقى نظرة سياسية تاريخية على انحلال الدولة الموحدية وسرعة فنائها تحدث عن قبائل بني مرين وزناتة وذكر أنها كانت قبائل تخضع في أحكامها للشرع الإسلامي، وصور ما كانت تتمتع به من شبه استقلال ذاتي وصراعها مع الموحدين إلى أن تم لها الأمر والنصر في واقعة فاصلة يوم « المشعلة » ، وبعد أن درس

طويلا مطامع المرينيين ونتائج سياستهم في ميادين الحرب والسلم تحدث عن عروبتهم وتمتينهم للوحدة المغربية وفخامة سلطتهم وأبهة خلافتهم واهتمامهم بالحياة الفكرية ذلك الاهتمام العظيم الذي أدى إلى موت جمهرة وافرة من العلماء عندما صحبوا أبا الحسن المريني إلى تونس فهاج البحر عند رجوعهم وذهبوا ضحية اهتمام البلاط المريني بهم.

وبعد ذلك عقد فصلا لنشاط الحركة العلمية لا أريد ولا أستطيع تلخيصه لكم، فهو جدير بالمطالعة والدراسة؛ فإن سير الثقافة المغربية لم تؤثر عليه الانقلابات السياسية التي أدت إلى اضمحلال الموحدين وتولية المرينيين، بل لقد اتسعت الميادين العلمية التي كانت في العصر الماضي أيما اتساع. ففي التشريع ازدهر علم الفروع أعظم ازدهار وعلوم اللغة أيضا بلغت شأوا بعيدا، فانتشرت العربية انتشارا مدهشا حتى أن مؤلفا اهتم بتدوين لهن العامة مما يدل على أن اللحن كان إذاك يستطيع الإنسان عده. أما التاريخ فالعصر المريني عصر ازدهار ويكفي أن يكون فيه ابن أبي زرع وابن خلدون الذي ألف كتابه برسم خزانة الخليفة المريني إلى غيرهما من فطاحل المؤرخين، وفي هذا العصر وجد الرحالة الشهير ابن بطوطة والرحالة الكبير ابن رشيد.

من بيروت إلى سلا

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله

يوم الخميس 20 القعدة عام 1349 موافق 9 أبريل سنة 1931

حضرة الأخ العزيز المخلص سيدي عبد الرحمن حجي

سلاما وتحية مع رحمة الباري تعالى

أما بعد، ما ذا عساني أكتب اليوم في هذه الرسالة؟ لا جديد في الناحية البيرونية ... أو لا جديد تحت الشمس كما يزعم البعض، فنحن بخير وعلى خير وفق ما تودون، ونرجو أن تكون حالتكم هكذا.

لقد تبرع حضرة الأستاذ الجليل السيد مصطفى العلاييني بدرس في الأسبوع للخطابة، ويحضر هذا الدرس ثلاث صفوف عالية من القسم العلمي يتدرب فيه التلاميذ على حسن الإلقاء، وعلى الأستاذ أن يصحح الأغلاط النحوية واللغوية، وينتخب منتقدا لكل خطيب من التلاميذ لينتقد الخطاب، وهكذا تمر علينا هذه الساعة في الأسبوع بغاية النشاط والفرح؛ والخطابة تكون ارتجالية أى من دون صحيفة، وبالأمس ألقى حضرة الأخ العزيز عبد المجيد خطبة ارتجالية في الحياة الاقتصادية للأمم، وانتقده حضرة الأخ العزيز عبد الكريم، فأجاد الخطيب والمنتقد معا إجادة تامة؛ وقد انتخبني حضرة الأستاذ خطيبا للأسبوع المقبل، وفي عزمي أن أتكلم حول التعليم في الشرق وما فيه من محاسن وعيوب. أما حضرة الآخ العزيز عبد الهادي فهو يهديكم أزكى سلامه وهو على أحسن حال، وربما تقدم في آخر السنة إلى الامتحان لحيازة الشهادة الابتدائية الفرنسية وهو يتابع دروسه بكل جد ونشاط نسأله تعالى الإعانة.

وفي الأسبوع الماضي أخبرناكم بوصول الدراهم، غير أننا نلفت نظركم إلى ضرورة إرسالها في الوقت المضبوط حتى نسدد ما علينا في أوقاته المناسبة؛ ولا يخفى عليكم أن هناك ضروريات لم نكن نعرفها من قبل - وخصوصا ونحن نشاهد هيأة المدرسة تطالب المتأخرين، وعددهم قليل جدا، بالتعجيل في الدفع - وها هى الصيف قد أقبلت والمدرسة ستقفل أبوابها مع انتهاء الموسم الدراسي، فنكون حينئذ في احتياج شديد إل الدراهم؛ لهذا نرجو أن ترسلوا لنا بقيتها من القسط الفارط في القريب، ودراهم الصيف قبل انتهاء مدة الدراسة حتى نتمكن أن نسير حياتنا بنظام ونتابع دروسنا باجتهاد، وأرجو منكم أن تشرحوا هذه المسائل لحضرة سيدنا الوالد الحنون وتطلبوا منه الرضا عنا وتقدموا له سلامنا المزوج بكل محبة وإخلاص. أخوكم السعيد حجي

رسالة ود وإخاء

نص الرسالة الموجهة من سلا إلى أحد أصدقاء المترجم له بتاريخ 25 يوليوز سنة 1934 والتي أتى به الأستاذ أبو بكر القادري في كتابه عن سعيد حجي (ج 1 ص 135 - 136) دون الإعلان عن اسم الصديق المذكور:

الحمد لله وحده

صديقي العزيز،

بالأمس فقط تعارفنا ، واليوم أريد أن أخطط لك بعض إحساسات خالجتني منذ أول لحظة ارتبطت فيها روحانا، وسأكون معك يا صديقي كريما، فلا أخفي عليك ما يخفى عادة في الوهلة الأولى للتعارف بين الأصدقاء، فقد وجدت فيك شخصا يتمم شعوري بالحياة وإدراكي لما فيها من مقاييس وصور؛ لم أكن من المؤمنين أن حب الصداقة ينقش على سويداء القلب في أول نظرة أو محادثة حتى عشية الأمس، حتى رأيتك فحادثتك فارتسمت صورتك في ذاكرتي وتعاهدنا أن نكون روحا في جسمين، فلنسر فأمامنا السهل والجبال، وما الحياة إلا السهل والجبل.

كان حديثنا عشية الأمس وعشية اليوم حديث من يصعد إلى السماء وهو لا يأبه بالسماء ويريد غير السماء، فطوينا طرقا واجتزنا مسافات في ميدان التقارب بيننا في أسمى معانيه، وقد تلمست نبضاتك فإذا أنت ذلك الشخص المجهول في عالم الخمول كل ما فيه، وإذا أنت تعمق إلى حد غير محدود وتغور في طبقات من المعاني القوية فلا تجد من يمد لك يد المساعدة في جهادك إلا رفيقا واحدا هو نفسك، هو الشعور الفياض الذي أراه يتدفق منك ولا يجد فيك مخرجا إذ ينحبس في أعماق صدرك فإذا بك حائر، وإذا بك قانط تغمرك الحياة، وأنت في أعماقها بما فيها من متضاربات ومتناقضات فتريد أن تتساءل عن

كل جزئية وتبحث كل جزئية فيخيل إلى أن دورانا يلمس عقلك في هذا العالم اللجب وأنت تحاول ما تحاول، دورانا هو جسر يمر عليه الإنسان ذو العقلية النيرة ليصل إلى مستقر هو جوف الأرض، ولكنه لا يتناول الأرض وما حوت وكيف حوت ما حوت.

والآن وأنا أراك مضطرب البال، حائر الاتجاه، شارد الذهن، عميق المحاولات، لا أرجو منك إلا رجاء واحدا هو أن تتخذني صديقا في ملماتك النفسية، فأنا أيضا تعجبني تلك الدورات التي يقوم بها الفكر دون أن يهتدى إلى شيء يسمى في العالم الإنساني بالحقيقة فنتعاون يا صديقي الجديد العميق في أغوار نفسي على أن نجتاز ما نجتاز من هذه العقبات في ثقة واطمئنان.

فهذا الجو الذي نعيش فيه جو مسموم بنار الجهل والانهماك فيما لا نريد، وإذا أردناه يوما فإن ضميرنا سيوالي ضرباته الحديدية على نفوسنا الحساسة، فخير لنا نحن الذين نفكر ونتطاول بتفكيرنا إلى مجهول وراء مجهول أن نستعد لنربح أنفسنا وإلا خسرناها في ميدان متلاطم الأمواج، عسير السبل، منحط الإدراك، فالفرار فالفرار حيث يلجأ كل منا إلى الآخر ليقوى عزمه، ويشد أزره، فيسيران أو يسيرون إلى ملتقى يقف عنده كل من يسعى في الحياة بتعمق ويزيل عنه كل اعتباراتها الوهمية وبواعثها الواهية وصورها المتشابهة ليدخل إلى مكنونها ونقطة ارتكازها. وأنا الضمين لك يا صديقي أننا إذ ذاك لا نشعر بغربة ولا حيرة مما تشعر به الآن ومما شعرت به في وقت من أوقات حياتي الفكرية.

وأخيرا إني لا أريد أن أطيل رسالتي الأولى إليك إطالة قد لا يكون لها من معنى، ولكني أهمس في أذنك أني لعقلك وأن عقلك لي، وأختم رسالتي راجيا أن نتخذ من المراسلة سجلا لما في نفوسنا من ثورات عنيفة، وإليك من أخيك تحية القلب للقلب.

سلا في 25 يوليوز سنة 1934 أخوكم : سعيد حجي

أول صحيفة مغربية تصدر بالخارج

الميثاق الوطني - العدد ... - بتاريخ ...

ادريس كرم

قد يستغرب من العنوان، وقد يقال بأنه دعاية في غير أوانها، بيد أن الرسالة التي نقدمها تشهد بذلك، كما أن الذي يعرف المرحوم سعيد حجي يمكنه التأكيد على ذلك بإظهار الأعداد التي كان يبعثها الصحفي نمرة 25 إلى أعضاء جمعية « الوداد » كل شهر، وذلك وفقا لقانون الجمعية وملحقاته الملزم له أن يكاتب الجمعية في 17 من كل شهر.

إن الرسالة التي نقدمها تبرز مدى ارتباط سعيد حجي بجمعية « الوداد » وتنظيماتها وحرصه على استمرار العمل داخل خلاياها، كما تبين لنا نوايا الأعضاء من السلطات، والطرق التي ينوون بها تمرير آرائهم وفرض مواقفهم عندما يلزم ذلك. وعليه نجده يوصي رئيس الجمعية نمرة 75 - محمد اشماعو - بالحذر، وعدم ترك الفرصة للمراقب المدني، للإلمام بنوايا الجمعية وأهدافها حتى لا يجهز عليها وهي في بداية الطريق.

إن رسائل سعيد حجي التي مكننا منها الحاج محمد اشماعو رئيس جمعية « الوداد » مشكورا، تميط اللثام على تصورات أحد رواد الصحافة المغربية وهي في مقتبل العمر مبرزة توجهاته لزملائه من صفوة شباب المغرب المتحلقين حول جمعية « الوداد » والتي يضمها إلى رسائل وكتابة أقرانه الذين كانوا حينئذ بالمشرق، أو أوربا، سيعطي للبحث التاريخي المتعلق بمصادر النهضة المعاصرة بالبلاد دعامة كبرى. لذلك نرجو من الذين يتوفرون على شيء مماثل المبادرة بإخراجه إلى الضوء قبل أن يندثر.

من نمرة 25 إلى نمرة 75

الحمد لله

أخي العزيز نمرة 75

سلاما وتحية

أما بعد، بقيت في انتظار مكتوبكم مدة أسبوعين أو أكثر، ثم إني كتبت لكم كتابا في يوم السبت الماضي، وبينما أنا حامله إلى دار البريد، إذ قبضت مكتوبكم، ففضضته وقرأته، ثم رأيت أن أبدل وأغير في رسالتي إليكم وأفعل ما طلبتم مني تفصيله فأقول:

1) مسألة مدحي وإطرائي فيكم

صديقي جعل الصديق مرآة لصديقه. فليس للإنسان من أسمى وأبيض النصائح والإرشادات إلا ما جاءه من صديقه، فلهذا ما فضضت مكتوبكم المشار إليه سابقا حتى صرت أقرأه كمرآة في يدي، فإذا بي وجدت فيه ما يشفي غليلي من الانتقادات السامية والملاحظات السارة. غير أني أصرح بأني لم أفعل جريمة بالنسبة إلى العموم، بل بالنسبة إلى شخصك الذي عرفته الآن لا غير ولا قبل، فقد كنت في المغرب لا أفعل ذلك بالمرة، ولا أقدر عليه، ثم إني وجدتكم كثيرا ما تلاحظون على في ذلك. أفنسيت الملاحظة التي نشرها صديقنا 40 في « الوداد » عن مدى اهتمامي بالأمور، وتأييدك له في ذلك في عرسته بالرباط في بدء سنة 1928 ؟ أنسيت ما قضيته معكم من الأيام في المجادلات نحو هذه النقطة وما تناقشنا حولها ؟ ألم يكن فكري كفكركم الآن (بل أكثر) ؟

ألم أكن أخدم مبادئ الجمعية رغما عن تشاكل جل أعضائها ونومهم العميق ؟ إن نسيتم ملاحظاتكم في ذلك فلا زالت مخطوطة في مذكراتي حتى اليوم، ولا زلت أتعجب من فكركم العجيب، ورأيكم الجديد، غير أني تحققت أن أفكاركم اليوم قد تم نضجها،

وستخرج ثمارها ونتائجها بعد حين، أما الفكر الصميم والرأى الحقيقي فهو ما كنت عليه سابقا من عدم المدح والإعجاب لأعمالكم ولأعمال المخلصين لا غير.

وربما تقول أو تلاحظ على بأنه ليس لدى فكرة أعتمد عليها نحو هذا الباب وأصرح بها من دون خوف ولا حياء، فأنت تجارينا وتعمل ما ليس من رأيك، فلتعلم يا صديقي أن من آرائي أن أقدس المصلحة العامة، فأقدمها على رأيي وعلى كل شيء آخر في هذا الوجود، بل رأيي أن يكون الشاب كالمثل يقوم بدور الغني إلى دور الفقير، ومن دور الظالم إلى دور المظلوم. وهكذا، على أنه لا شك لدينا أن المصلحة العامة هى غايتنا جميعا. منذ شرعت في ميدان العمل وأنا شعاري مثلا هو تقديس المصلحة العامة. أما آرائي فهى كثيرا ما تكون مخالفة تماما لأعمالي، فليس من رأيي المدح والإطراء، ولكن من المصلحة ذلك، ففعلته ظنا مني بأنه تشجيع لكم وتحبيذ لرأيكم وفكركم.

ولكن لما رأيت ذلك مخالفا للمصلحة، ها أنا أقلع عنه في الحين، وأتصرف معكم (لا غير) برأيي السابق كما كنت أفعل بالمغرب من قبل أن تصلني ملاحظاتك نحو عدم اهتمامي بالأمور ... وإلا يا صديقي أرجو منكم المساهمة التامة عن كل ما تقدم، وما وقع مني من الغلاط الفاحش في إنزالكم الرتبة التي أنزلتم فيها ... عفوا ومغفرة.

2) جمعية « الوداد »

جمعية (رمز) قد تحيرت في أمرها، ورأيتها إلى الوراء ثم إلى الفناء في حين أنها إلى الأمام والحياة الحقة، ذلك أني أرى أعضاءها في تراخ مستمر، فأنت لا يهمك ذلك حقيقة، ولكن يهمني أن نداوم على الأعمال التي أسسناها سابقا، ولا شك لدى أنك ممن يحبذون هذه الفكرة وتخدمونها طوق مستطاعكم، وتمدونها بأقصى مجهوداتكم، وقد فكرت كثيرا في خير الطرق (التي ينبغي أن) نسير عليها، فتكون تحقيقا لآمالنا وأحلامنا نحو هذه الجمعية مع إبقاء أعمالكم في الحياد تماما والسير بالجمعية وراء النجاح وإدخال ما أنا فاعل

الآن هنا تحت إشراف الجمعية، وبعبارة أخرى إنه لا مدخل لهذا النظام بالمرة في أعمالكم. غير أنه سيكون تحت إشراف الجمعية (وإن كانت الجمعية واسعة النطاق عن أعضائها الحاضرين، وأكثر من ذلك بكثير) ثم إنه من أغراض هذا النظام أن يكون الأعضاء أيد عاملة في جمعيتهم، وذلك بطريقة تضمن للجمعية التقدم والنجاح من دون أن تتعرض لأعمالكم أو تتداخل فيها مداخلة تمنعكم من السير بمقتضى رأيكم. وقد شرعت في العمل، غير أني أقدم لكم عدة أسئلة، فلما أحصل على أجوبتكم أجعل عناية جهودي ليكون موافقا لكم ولآرائكم. فلهذا أطلب منكم بجزيل الإلحاح أن تجمع الأعضاء في منزلكم، وتسرد عليهم رسالتي إليهم التي تصلك بعد هذه، وترجو منهم أن يجيبوني على تلك الأسئلة ، فترسلوا أجوبتكم في أقرب حين، ولكم مني مزيد الشكر وعظيم الثناء. وإن مسؤولية هذا النظام الجديد ستكون على عاتقي وفي ذمتي، فلا ترى منه إلا ما يسرك.

3) قضية المراسلة:

كثيرا ما أتحير من جهتها، ولا أعلم حتى أى طريق أحسن، وأظن أن طريق البوسطة الانجليزية أحسن فجربها إن شئت.

4) الرسائل:

وصلتني رسائلك الأولى، فقرأتها، وتحققت بها مقدار حركة الأعمال، وكذلك الثانية، وصلتني مع مكتوبكم الأخير، أما جوابكم إليهم، فهو أشبه بنصائح بيضاء لتجنب الرذيلة، والتحلي بالفضيلة، فنعم العمل من جهتها، غير أنه يجب عليك إدخال بعض التحسينات النظامية الداخلية لتمكن من ذلك من دونك.

5) حالتي :

طالما طلبت منكم تأخير الكلام عليها حتى يصلكم تقريري الضافي حولها، أما وقد كررت

السؤال عنها، فكل ما أخبركم عنها أني في غاية ما يكون صحة لا علما، وإني أقرأ اللغة الإنجليزية والفرنسية، ولتتصبر يا صديقي العزيز، ولكم الحق في كثرة السؤال عنها إلى أن يصلكم تقرير حولها، ففيه ما يشفي غليلك.

6) مسألة كتاب « حاضر العالم الإسلامي » :

أتعجب كثيرا مما وقع، غير أني ألاحظ عليك أن تجتنب تماما كل ما هو ممنوع بطريق مخزني، وليس ذلك خوفا مني بل تحر (التشديد من الكاتب) .

أما ما فعل معك المراقب، فأظن أن ذلك سياسة لا غير، وربما ستقع في الشبكة إذا لم تقلع وترأب بنفسك. نعم، إن الهوان والعذاب ما أحلاهما على قلبنا جميعا، ولكن لم يحن وقت ذلك بعد. فنحن نريد الآن أن ننفذ قانون المخزن، وأن ننشر الفضيلة بين أبناء جلدتنا لا غير، وغدا نريد غير ذلك.

أتظن أن الحكومة ستتغافل عنك إلى هذا الحد فتسمح لك بنشر هذا الكتاب المنوع ؟ كن متحققا من أن الدهاء الفرنسي فاق جميع السياسات، فسر سيرا معتدلا حتى يتم بناء مركزك، ويصير ضخما متينا، ثم بعد ذلك نتقدم إلى الميدان.

7) رأيي في التقويم

كتاب لطيف، حاو لفوائد شتى، غير أنه يظن أن في المغرب نهضة علمية عالية، وأنه نهض من نومه، فإني ألاحظ عليه، فباركه، وقد طلبت منكم أن ترسلوا لي عنوانه وعنوان صاحب الفتح، فلم يصلني شيء من ذلك. فألح عليك ثانيا أن ترسل لي ذلك، ويصلكم كلمة عن التقويم لتنشرها في صحيفة (المدرسة) واخبرني لماذا لم ترسلها لي.

8) خلال في نظامي

كثرت أنك وجدت خلالا واضحا في مكاتب، وسألت عن السبب في ذلك، وذلك ناشئ

عن كثرة الأشغال، وعدم تنظيم الوقت التنظيم الكافي، وستجد ذلك مفصلا في تقرير حول حالتي عما قريب، ربما في داخل هذا الأسبوع بحول الله. أما إني أكتب للوداد هكذا، فإني لما ضاعت تلك الأعداد في الطريق، أحببت أن أترك تحت يدي نسخة من كل عدد، فصرت أكتب بـ « الكوبي » لأكتب نسختين في آن واحد. أما تغيير القرطاس، فلم يبق لي من قرطاسها السابق شيئا، وعلى ذلك إني أعلم أنها في انحطاط تام، إلى أن يصدر بشكل حسن رائق، وأخبركم أني أؤسس له نظاما جديدا ليصدر في ثلاث مرات في الأسبوع بحول الله. وسيتناول جميع النقط التي كانت له من قبل. نرجو من الله النجاح. وفي الختام، قد أرسلت لكم هذا الكتاب منفردا بعد أن كنت سأرسله مع عدة رسائل، وفي ذلك مصلحة، وسأرسل لكم كتابا في الغد، أوجهه إليكم خصيصا كالعادة، والسلام.

في يوم الإثنين 25 نونبر سنة 1929

أخوكم نمرة 25

من نشاطات البعثات الطلابية المغربية
في المشرق العربي

من رسالة بعثها محمد عزيمان عضو البعثة التطوانية بالقاهرة بتاريخ 9 مارس 1933 إلى سعيد حجي بدمشق يخبره فيها عن ظروف مقام عبد الحي الكتاني بأرض الكنانة:

... قبل وصول الشيخ عبد الحي الكتاني إلى مصر، وصل السيد أحمد الشرقاوي الرباطي، ولا شك أنكم تعلمون عنه الشيء الكثير، فهو ممن خدموا القضية البربرية بإخلاص، وأوذوا في سبيلها وعذبوا، وقد جاء موطنا النفس على فضح عبد الحي وكشف خباياه وإظهاره على حقيقته، وقد نفذ عزمه هذا فعلا، وأعطى كل الذين اتصل بهم من كبار المصريين صورة تمثل عبد الحي على حقيقته، وقد اتفق مع الشيخ رشيد رضا والسيد محب الدين الخطيب أن يفضحوا هذا الرجل حين يصل مصر، ووصل عبد الحي إلى مصر في حاشية من الأتباع بعد أن أمضى مدة في فرنسا وأخرى في إيطاليا حظى فيها بمقابلة البابا مقابلة خاصة. وبعد يومين من وصول عبد الحي جاءنا السيد الشرقاوي ممتقع اللون وسألناه ماذا جرى. فأخبرنا أنه كان مع محب الدين الخطيب، فأطلعه هذا على رسالة جاءته من الأمير شكيب أرسلان يوصيه بعبد الحي خيرا، ويعلمه أن عبد الحي زاره في سويسرا وشكا إليه ما يعامله به الشبان في المغرب من المعاملة القاسية، وما يلصقون به من تهم، وشكا إليه تأثر رجال الإسلام الكبار بأقوال هؤلاء الشبان وتحاملهم عليه كلما ذكروا عنه شيئا، وقال إنه يحمل من الغيرة على الإسلام أكثر مما يحملون وإنه يسعى لخيره بكل ما يملك من قوة، وإنه إذا كان يتظاهر بمشايعة فرنسا فإنه إنما يفعل ذلك ليستغل بواسطته الخير للمسلمين، لأنه يرى أن سياسة اللين والتفاهم أجدى من سياسة

العنف والشدة، وليحافظ على زواياه المنتشرة بالبربر، لأن بقاءها كفيل بحفظ الإسلام بتلك البقاع، وذكر له، مبرهنا على صحة دعاويه، أنه طرد ابنه من منزله حين أمره بالانقطاع عن الكتابة في « المغرب » الجريدة الحكومية الخائنة فلم يمتثل، وقال الأمير بعد أن ذكر هذا كله، أن هذا الرجل قد يكون صادقا في أقواله، وقد يكون حقيقة حسن النية في أفعاله، ثم رجا محب الدين الخطيب ألا يقسو عليه إذا زار مصر، وأن يقابله مقابلة حسنة إذا جاء لزيارته. أخبرنا الشرقاوي برسالة الأمير شكيب أرسلان هذه، فرأيناها قاضية على أعمالنا، وذهبت معه إلى الشيخ رشيد رضا لنخبره بما جد في الأمر، فوجدنا رسالة الأمير قد وصلته هو أيضا، ولكنه لم يتأثر بها كثيرا، وعد الأمير مسرفا في حسن الظن بهذا الرجل، رأينا عمل الأمير هذا معطلا لكل عمل نحاول القيام به في البلاد الإسلامية لفضح الرجل، ولم نشك أنه كتب له رسائل توصية أخرى إلى كبار الزعماء في فلسطين وسوريا والحجاز والعراق والهند وكل البلاد التي ينوي زيارتها، فكتبنا للأمير نعرب له عن تخوفنا من أن يكون هذا الرجل قد أراد استغلال مكانة الأمير في البلاد الإسلامية، لإنجاح الأغراض التي بعثته فرنسا لأجلها، وأبدينا له تخوفنا من أن تكسب ثقة الأمير به، ثقة المغاربة أنفسهم، فيستفحل بذلك شره ويقوى خطره، ورجوناه أن يستدرك الأمر بحكمته، ويوقف هذا الخائن عند حده، ثم كتبنا البيان الذي وزعناه على الصحف، ولم ينشر إلى وقت كتابة هذه السطور في غير جريدة « الوادي » وما رأيكم في أن رسالة الأمير بلغ تأثيرها على محب الدين الخطيب إلى حد أنه امتنع عن نشر البيان في جريدة « الفتح » وبعد لأي قبل أن ينشره إذا رآه منشورا في الجرائد. هذا وبعد أن قام عبد الحي بزيارة بعض الشخصيات، علمنا اليوم أن الأمير شكيب بعث إلى محب الدين الخطيب رسالة طويلة عريضة، وكلفه أن يدفعها للشيخ عبد الحي يقول له فيها: إنه بعد سفرك انهالت على الرسائل من كل جهة، تحذرني منك، وتكشف لي عن أعمالك، وأنا طالب منك الآن أن تقيم لي براهين قوية على صحة دعاويك التي ادعيتها

أمامي، وإلا تفعل فسأعرف كيف أنتقم ممن يحاول استغفالي ومخادعتي، وإنني وقد نصبت نفسي لمحاربة أمبراطوريات بأكملها لن أعجز عن سحقك والقضاء عليك.

وبالمناسبة أود أن أذكر هنا أن عبد الحي كان قد طلب من صاحب مجلة « الجهاد » المرحوم محمد علي الطاهر أن يكتب عنه كلمة ثناء في مجلته، فأجابه بكلمة قال فيها: قد تأكدت من خيانة فضيلتكم، ولهذا لا أستطيع أن أنشر عنكم خبرا، ثم كتب مقالة في « الجهاد » جعل عنوانها: « ابن غبريط الثاني ».

***

وفي منتصف شهر ماى 1933، بعث سعيد محي كتابا من دمشق إلى السيد أبي بكر القادري يخبره بتراجع السيد عجاج نويهض صاحب مجلة « العرب » على الإتفاق الذي التزم به لإصدار عدد خاص عن المغرب بمناسبة حلول ذكرى 16 ماي 1933، جاء فيه:

... وعدتكم أن صحيفة « العرب » ستصدر عددا ممتازا بمناسبة اليوم المعهود، وهذا ما كنا متفقين عليه معها، منذ شهرين ونصف، فهيأنا المواد، وهى تنيف عن 18 مقالة من أحسن ما كتب عن المغرب في مواضيع مختلفة توضح الحالة المغربية لإخواننا الشرقيين بغاية الوضوح، وقبل اليوم المعهود بشهر وأربعة أيام حسب الاتفاق الذي كان بيننا وبينها، أرسلنا تلك المواد لكى يصدر العدد قبل 16 ماي بنحو عشرين يوما ليرسل إليكم؛ فلما وصلت المقالات لصاحب « العرب » وتيقن أن مجلته سوف تمنع إذا ما أصدرت هذا العدد، وهى اليوم تبيع كمية لا بأس بها بالمغرب، اعتذر عن النشر وإصدار العدد بأعذار لا قيمة لها بتاتا، وأخيرا قال لنا: لخصوا هذه المقالات في مقالة أو مقالتين، واستكتبوا عظيما من عظماء الإسلام مقالة، وأصدر لكم ملحقا في ثماني صفحات أو أكثر من مجلة « العرب » ونحن كتبنا إلى الأمير شكيب أرسلانفي أن يكتب لنا مقالة، فاعتذر أن الفرنسيين يتهمونه أنه محرك حركتنا المغربية، فمن المصلحة لنا أن يكف عن الكتابة في

القضية المغربية أو البربرية، وهو عذر أو هى من بيت العنكبوت كما يقولون.

... إني أكتب إليكم هذه الكلمات يوم 16 ماى وسأخبركم بما يكون، على أن الصحافة المصرية والفلسطينية منذ أسبوع وهى تنشر الفصول الطوال عن القضية، أما في سوريا فإن الحركة ضعيفة، نظرا للضغط الذي يوجد، ويكفي أن تعلموا أنه وزع على الصحافة السورية وعلى جل الأفراد منشوران، ولم تنشر إلا صحيفة واحدة منشورا واحدا، أما في العراق فإننا وزعنا على صحافتها ورجالاتها مناشير مختلفة في القضية، وسنرى ماذا سيكون وسنرسله لكم أو نأتي به معنا إذا ما رجعنا إلى المغرب.

***

وورد على السعيد رسالة من البعثة المغربية بنابلس جاء فيها:

قابل البارحة الأخ عبد السلام أحمد بن جلون الأستاذ عجاج نويهض، فسأله عن رسائلكم، فأجاب أنه يتعب كثيرا فيها، إذ أنه لا يعرف أن يقرأ خطكم بسهولة، كما أنه ينسخ الرسالة مرة ثانية ليتمكن المصفف من قراءتها، فنرجوكم أن تجربوا الكتابة بأحسن خط ممكن، أو تدبروا من أصدقائكم السوريين من تؤمنونه فينسخ لكم تلك المقالات بخط جميل شرقي سهل القراءة. ... نحن نعمل جهدنا في جعل المجلس الإسلامي الأعلى يوزع يوم الجمعة قبل 16 ماى خطابا على جميع خطباء مساجد فلسطين ليبينوا للشعب فيه مظالم فرنسا في المغرب، فنطلب منكم أن تجربوا تدبير بعض خطباء تلك الجهات ليعملوا مثل هذا، ولا نظنه ممنوعا هنالك، إذ أننا سمعنا ورأينا بأم أعيننا خطيب المسجد الأموي يخطب للناس في هذا الموضوع نفسه حين كنا في الشام منذ ثلاث سنوات، وإذا قدرتم فجربوا أن تقنعوا أصحابكم الذين في تركيا بذلك، كما نرجوكم أن تجربوا ذلك في العراق وأنحاء سوريا إذا قدرتم، وسنطلب من إخواننا أفراد البعثة بمصر ذلك أيضا.

ووردت على سعيد حجي رسالة بعثها له محمد الخطيب بتاريخ 28 شوال 1352 موافق 13 فبراير 1934 جاء فيها:

كان مقصودنا من تنبيهكم على إرسال المناشير إلى الحجاز، هو اغتنام فرصة وجود تلك الآلاف من الناس، وبث روح العطف فيهم على المغاربة وتفهيمهم قضيتنا وهم مجتمعون في تلك البقعة المباركة، ولا شك أن قلوبهم ستعطف علينا، وإذا قمتم بهذه المهمة فإننا سنقوم بنشر مناشير أخرى في الشرق، وإخواننا الذين هم في مصر متعهدون بإرسال مناشير للمغرب، ويكون الشغل موزعا بنظام ...

***

وفي رسالة بعثها الأستاذ محمد عزيمان من القاهرة بتاريخ 4 ماى 1933 إلى أعضاء البعثة المغربية في دمشق، يقول محررها بعد الحمدلة :

حضرات الإخوان الأعزاء

بعد التحية،

وصلنا كتابكم الأول مؤرخا ب 24 أبريل وطيه أربع جنيهات مرسلة من حضرتكم. ثم وصلنا اليوم كتابكم الثاني المؤرخ بفاتح ماى ومعه المقالات التي بعثتم. ونحن نعتذر لكم أولا عن تباطئنا بالكتابة إلى هذا الحين، فإن أشغالنا الدراسية في هذه الأيام كثيرة مرهقة. سألتمونا عن المنشور الذي بلغكم أننا سنقوم بطبعه، وبالفعل قد نجز طبعه اليوم وقد أرسلنا لكم كمية منه لتقوموا بتوزيعه بين المغاربة القاطنين سوريا. وقد كان الأخ حسن بوعياد كتب لنا قبل ورود كتابكم وعين لنا بعض عناوين في باريز ولندن وتطوان لنرسل كمية من هذا المنشور إليها كى ترسله هى إلى المغرب، وقد أرسلناها فعلا ورأينا أن نكتفى بها عن إرسال كمية أخرى بالعناوين الذي عينتموها لنا.

وصلنا نشر الإخوان في نابلس وأذعناه بين الصحف، ونشره معظمها، وقد أرسلنا لكم بعضا من الصحف التي نشرته. تريدون أن نبعث لكم بكل ما ينشر عن المغرب كي تبعثوه أنتم بدوركم إلى البلاد، وسنفعل غير أننا نود أن تعينوا لنا كم عددا من الجرائد التي تنشر شيئا عن المغرب تريدون أن نرسله إليكم.

نشرنا خبر المصادمة بين اليهود والمسلمين في جريدة « السياسة ».

وصلتنا المقالات التي ردتها « العرب » إليكم، وبما أن المواد التي نريد أن نصدر بها العدد الخاص من « الفتح » لم تصل إلينا بعد، فقد احتفظنا بهذه المقالات منتظرين ورود مواد « الفتح » وعندما يجتمع الكل لدينا، نختار منها ما نملأ به العدد الخاص من « الفتح » وننشر الباقي في غيرها من الجرائد، ولعل هذه الطريقة أفيد من أن نجمع في « الفتح » كل شيء، ونقتصر عليها وحدها، على أننا إلى الآن لم نبت في هذا الموضوع برأي نهائي، ولهذا فلسنا نريد أن تبعثوا إلينا بشيء من المال لهذا الغرض إلى الآن.

وعدنا الدكتور عبد الرحمن شهمندر بأنه سيكتب لنا مقالا بمناسبة يوم الذكرى في إحدى المجلات الشهرية الكبرى - الهلال أو المقتطف أو المعرفة - كما أننا سنكتب إلى بعض الجمعيات في جاوا نطلب منها أن تحتفل بيوم الذكرى.

جاءتنا رسالة من مكة من الأخ الحاج أحمد الشرقاوي ذكر لنا فيها حكاية وقعت له مع أعوان عبد الحي الكتاني، وأنهم كانوا يريدون الاعتداء عليه، فنجا منهم بأعجوبة، وقد أرسل إلينا مقالة بإمضائه لننشرها.

***

وكتب على بطاقة غير مؤرخة لعبد السلام أحمد بن جلون، ما يلي:

أخي العزيز سعيد،

نرجو منكم أن تشرفونا الليلة لدار السيد محمد المكي الناصري لأجل المذاكرة في أمر مهم.

نماذج تراسلية بين البعثة السلاوية في المشرق العربي وأعضاء الحركة الوطنية المغربية

وردت على أعضاء البعثة السلاوية رسالة جوابية من السيد أحمد بلافريج بعث بها من مدينة منروج بفرنسا في 8 فبراير (؟) هذا نصها :

إخواني الأعزاء،

تناولت بيد السرور ورقة تهنئتكم. أشكركم كثيرا وأرجو المولى أن يعيده وبلادنا ترفل في ثوب العز والسعادة.

في هذا الأسبوع فقط رجعت من الوطن حيث قضيت شهر رمضان وكذلك الآخ الفاسي والناصري وهما لحد الآن لم يرجعا.

وقد سررت بوجودكم في الكلية الإسلامية لما أسمعه عنها من الحزم والعناية بالثقافة العربية الإسلامية؛ وسررت أيضا بوجودكم في بيروت لما أحمله في قلبي من العطف والحنان لتلك البلاد التي زرتها منذ سنتين، ولما جبل عليه أهلها من رقة الطباع والعناية بالضيف. وكيف لا يكون ذلك والشام مهد حضارتنا ومركز ثقافتنا الأول.

لقد خابرني السيد محمد بن مبارك في الرباط في شأن إرسال ابنين له إلى بيروت بقصد التعلم ، فهل لكم أن تفيدونا عن سير التعليم عندكم وكيفية الالتحاق بالمدرسة حتى يمكنني أن أجاوبه.

ولعلكم قابلون بكليتكم على الإدراك والتحصيل مطمئنون في غربتكم. أقر الله بكم عين بلادكم وجعلكم من بررة أبنائه.

أخوكم أحمد بلافريج

وفي رسالة وجهها الحاج أحمد معنينو إلى سعيد حجي بدمشق بتاريخ 14 شعبان 1350 موافق 25 دجنبر 1931 يقول فيها بعد الحمدلة:

الأخ العزيز سعيد حجي سلاما وتحية،

وبعد، فما السبب ياترى في هذه المقاطعة الكبيرة ولست بأجنبي ولا أذنبت، وباب العفو مفتوح، بل الذي أتحققه هو اشتغالكم بالدروس، ولكن ما كان ليمنعك من خمس دقائق لكل شهر تتذكر فيها أخاك الذي لا يغفل عنك الشهر كله والله شاهد على كل شيء. عزيزي، من الواجب عليك أن تراسلني شهريا على الأقل كما وعدتني، فلقد طال تشوقي إلى ما عساه أن يأتي منك، ولكن هيهات ... بالله عليك أن تتذكر إخوانك البؤساء فتحيي فيهم عرق الأمل الذي لولاه لهلكوا من شدة ما هم فيه من اضطهاد ونفي وحبس وتعزير والأمر لله. نسيتم لا والله إنما وقع منكم ذلك غلطا، أستغفر الله لي ولكم، وجدتم نفسكم بين قوم أحياء، العلم والتقدم شأنهم، الحياة والمروءة شيمتهم، هنيئا مريئا أيها الأخ، بجلوسكم هناك وغربتكم في طلب العلم، أما نحن فلا العلم نجده، ولا الحرية نتمتع بها إنا لله إخوانك تحسب أنفاسهم ولحظاتهم، فإن أنوا وزفروا أو تاوهوا عدت جريمتهم كبرى وطلبوا للمحاكم وقرئ عليهم قول الشاعر العراقي الكبير: « ياقوم لا تتكلموا ... إن الكلام محرم »

صديقي، عفوا أيها الصدوق عهدتك أخا في الشدة والرخاء، وحاشاك أن تتبدل، فوالله ما أظن ذلك التقصير إلا غفلة ، وعليه فأخاكم ينتظر منكم تفريج همه بكتاب حاوي كل النفائس كما عودتموه. أما نحن فلا أظن أنكم غير مطلعين على ما عندنا، فإن الأمور ما زالت كما هي، ولا شيء يستوجب الذكر سوى زيادة الذلة والمسكنة والسعاية بالأبرياء وكم الأفواه، فإخوانك حرموا كل لذة الحياة، فلا هم أحرار في تعلم العلم ولا الخروج إلى الخارج؛ لهذا تراني أيها العزيز مشتاقا لما يأتي منكم ولو بطريق الاختصار، إذ لا يخفاكم أن

سائر الجرائد المشرقية منعت عن الدخول سوى « الأهرام » من مصر، وهى التي نتتبع بها أخبار المؤتمر الإسلامي في القدس، كما بلغتنا مجلة سورية تحت اسم الرابطة الإسلامية، ولا ندري أيمكن أن تتركهم الحكومة أم تمنعهم لأن المنع، كما لا يخفاك، بيدهم ولا دخل لأحد فيه.

عزيزي، أدلك على صديق بدمشق يسمى السيد السعيد الحبيب وهو من الجالية الجزائرية التي ذهبت صحبة عظيم القدر السيد عبد القادر الجزائري للشام، والمكان الذي هو به موظف هناك دائرة البريد والبرق، ولقد كتبته وعرفته بكم وأنكم بدمشق كما بلغني غير أني ما زلت أجهل العنوان الخاص بكم هناك، لهذا تراني أقدم لكم هذا الكتاب بواسطة الأخ عبد المجيد، وأرجو منكم زيارة الرجل بالمحل المذكور، فإنه نعم الأخ الصدوق، كالمرغوب منكم أن تدلوه على ما يمكن أن يدخل المغرب من جرائد الشام من دون حرج للجميع لأنه وعدني بالإرسال وطلب مني البيان عن الجرائد التي تصل إلى المغرب والتي لا تصل، وذكر لنا ثناء عظيما على جريدة هناك تسمى « اليوم » وعليه فنبهوه أن يرسلها لأنها فيما أظن غير ممنوعة الدخول، كما أرجو من جنابكم إن صدر كتاب أو مجلة بها أعمال المؤتمر بالتفصيل أو تصاوير أعضائه أو ما له علاقة به فلا بد من توجيه ذلك إلينا حتى نكون على علم بمجريات الأمور، ولكم الشكر.

عزيزي، أخبركم أنني زرت مدينة فاس والقرويين واجتمعت بالأحباب وكلهم يغبطونكم ويرجون لكم التقدم والنجاح في مسعاكم، وقد نظمت الجامعة القروية كما لا يخفاكم لكنها ما زالت غير تامة. أما بلدتنا سلا فالإخوان بها مقبلون على الدروس. والنادي لم يفتح ولو مرة منذ فرقتمونا ووالدكم وأخواكم محمد وعبد الرحمن كلهم بخير، وأطلب منكم مشاركة الأخ عبد الكريم في هذا لأن الخطاب عام لكما، وإني أستمد لكما العون من الله والتوفيق لأقوم الطرق، مسلما عليكما سائر الأصدقاء ودمتم محفوظين والسلام.

أخوكم الحاج أحمد معنينو دامت سلامته

ومما كتبه السيد أبو بكر القادري في رسالة بتاريخ 4 اكتوبر 1932 :

أخي العزيز السيد سعيد حجي سلاما واحتراما

وبعد، فالموجب له أولا السؤال عنكم ثم إخباركم أننا وضعنا الخطة التي نتمشى عليها في مسألة الدراهم، وقد أحصينا القدر الذي يدخل علينا شهريا فوجدناه لا يفي بالمراد ...

« الوداد » : قد اتفقت مع الإخوان مصطفى الغربي والصديق بن العربي على وضع برنامج له لأنه لا يمكننا أن نتمشى مع البرنامج القديم، وقد عينا يوم الجمعة للاجتماع، فنرجو رأيكم في هذه المسألة، إذ أنني لما اجتمعت مع الأخ مصطفى أخبرني أنه لا علم له بها، وغاية ما هناك أنك أخبرته بصدور نشرة في سلا يقوم بها بعض الأفراد.

« أخبار »

- رجع السلطان من باريس، ولحد الآن ليس عندنا خبر صحيح بما يكون. ويشاع أن المقيم قد عزل؛ وسمعنا أن ابن البغدادي على قاب قوسين، وذلك لأسباب أهمها مسألة الوزاني؛ فقد جاءه تهديد من باريس على هذا الفعل، وادعى أنه لم يفعل ذلك حتى تشاور مع الاستعلامات؛ أما الاستعلامات والمراقبة فادعوا أنهم لا علم لهم بذلك.

- قد رجع الأخ عمر بن عبد الجليل من باريس وجاء إلى الرباط، وقد اجتمعت به عند السيد اليزيدي، فسألني عنك كثيرا، وقد دفعت له ما بقى علينا من الشهر الفارط 75 فرنكا، وقد أخبرني بأن الوزاني سيحكم عليه بالنفي إلى غياثة بناحية تازة، كما أن المقيم قد عزل، وأن منع المجلة قد زال من وزارة خارجية فرنسا، ولحد الآن لم نر قرارا ولا غيره عندنا وقد سافر وواعدني بالرجوع إلى سلا يوم الجمعة الآتي.

- قد عزم الأخ عبد اللطيف الصبيحي على الذهاب إلى باريس، وما زال ينتظر الإذن من الحكومة. وقد شيع بعض الأفراد أنه تنازل عن القضية تماما، ولكن الذي يظهر أن ذلك كله كذب. هذا والمطلوب منك أن توافينا بكل ما عندك من أخبار وغيرها، والسلام.

أبو بكر القادري

وفي رسالة بتاريخ 17 نونبر 1932 يقول الحاج أحمد معنينو:

الأخ العزيز السيد عبد الكريم حجي

تحية وسلاما،

وبعد، فقد ورد كتابك المعبر عما في ضميرك الحر من حب العمل لنجاة الوطن المفدى، فنعم الإبن البار أنت أيها الأخ العزيز كثر الله من أمثالك، وسهل للجميع طرق الاتصال والتضامن على العمل المنتج لخير البلاد والعباد.

عزيزي، إن تقدمكم للامتحانات في الجامعة سرنا كثيرا، نرجو لكم التقدم والنجاح في سائر مشروعاتكم الحسنة، متعكم الله بالصحة ودوام العافية وأمدكم بمعونة من عنده كي تقوون على العمل. ولقد بلغنا أن الأخوين عبد المجيد وعبد الهادي انتقلا لدمشق وانخرطا معكما بالجامعة فما هو السبب في خروجهما من الكلية الإسلامية؟

عزيزي، بلغ سلامنا لجميع الإخوان بطرفكم، وخصوصا الأخ الحبيب الشيخ محمد عدنان الجزائري، وذكره بالأمر الذي كنت كلفتكم به وهو قضية الأخ محمد المير الذي وجه له مائة فرنك بواسطة البريد الفرنسي وطلب منه بعض الأشياء غير أنه لم يتصل بجواب يفيد الوصول أو النفى، فلا بد من المبادرة بالكتابة لنا في هذه القضية مع الإلمام ببعض أخبار سوريا وما يجري فيها اليوم لأن مغربنا لا يخفاك أمره من ناحية الصحف.

أخي، المرغوب من أخوتكم أن تخبروا الأخ عبد المجيد أنني وجهت له هذه المدة أعدادا كثيرة من جريدة « السعادة » للكلية الإسلامية ولم نتصل منه بخبر، فهل بلغه ذلك وهل نداوم على توجيهها له للكلية المذكورة أم إلى غيرها، وذكره بوعده الذي وعدنا أن يوجه لنا بعض الصحف التي نجد بها سلوى وكل ما هو عالق بالناحية المشتركة بيننا، وقد وجهنا لكم بيانه الذي في الكتاب قبل هذا كي تحصلوا على الخبر الذي يهمكم، وقد وجهنا لكم العدد 4 من مجلة « المغرب » العربية كي تطلعوا على ما فيها، والسلام.

الحاج أحمد معنينو وفقه الله

ومن رسالة للسيد أبي بكر القادري حاملة لتاريخ 2 شعبان 1351 موافق فاتح دجنبر 1932 يقول فيها:

أخي العزيز الوطني الغيور السيد عبد الكريم حجي

سلاما واحتراما،

وبعد، فقد وصلني كتابكم وكنت متشوفا لورود كلمة منكم ولست أخفي عليكم ما كان للهجته المؤثرة الصادقة من أثر عميق في نفسي ما لا يمكنني أن أصوره لكم، ويكفي أن ذكرني بإخلاصكم وتوددكم نحو أخيكم.

أخي، إن لنا آمالا عظيمة فيكم، فكونوا عند الظن بكم وثابروا واجتهدوا حتى ترجعوا لوطنكم وأنتم مصابيح يستضاء بكم متمسكين بدينكم وقوميتكم.

أخي، قد طلبت مني في كتابك أن نضمن لك في الجواب ما نستطيع إخبارك به من الأمور المهمة، وخصصت المكتبة التي تركتها في طور النشء، والسادات الذين كان عزمهم أن يرسلوا أولادهم إلى تلك الديار. أما المكتبة، فقد كتبنا للأخ السعيد بتفصيل في شأنها وما وصلت إليه، فهو يطلعكم على كل ذلك. وأما السادات الذين أرادوا أن يرسلوا أبناءهم إلى تلك الديار، فقد تركتهم ينتظرون رجوع السلطان من باريس ليأذن لهم، وقد جاء ولم يظهر أثر وما زالوا ينتظرون.

أخي، حيث أنك في اشتياق إلى الأخبار المفيدة، فإني سأقص عليك ما هو واقع اليوم بمغربنا المسكين.

مات الظالم الغاشم قائد فاس بوشتى بن البغدادي، فما كاد الخبر يشيع حتى استبشر سائر الأفراد (ونعني بهم المومنين) وقد شيعه عدد عديد من الخائنين والمستعمرين، وقد صنعوا له صندوقا على شكل أوربي كى لا يمس بأذى من تراب ونحوه، ولكن أبى الله إلا أن يعذبه ويمثل به، فإنهم لما أرادوا حشره في القبر لم يتسع له على كبره، ففتحوا

الصندوق وأخرجوه منه ووضعوه على الأرض مباشرة، فرغم ذلك لم يتسع حتى حفروا بجانبه (وبجانب قبر آخر لشريف) ودفعوا رأس الشريف، هنالك أمكن لهم أن يضعوه بمشقة وقد انتفخ بطنه حتى أن اللحد وضع على جسمه، كما خشوا أن يحفر عليه أعداؤه ويحرقوه أو يمثلوا به، فاتخذوا الاحتياطات وصارت العسة تبيت بالزاوية التي هو مدفون فيها.

وقد قيل في رثائه ومدحه (!!!) عدة قصائد من موزون وملحون؛ ومن جملة ما ضمن صاحب قصيدة من الملحون أنه أراد أن يتعبد في يوم من الأيام، فحمل جزء يسبح وقرأ سورة « سبح » فلما بلغ قوله تعالى « غثاء أحوى » تعجب كثيرا (وتساءل عن معنى هذه الآية، لعنة الله عليه إلى يوم القيامة) .

يوم شوقي بفاس:

سيصلك صحبة الكتاب عدد من جريدة « السعادة » لتطلع فيه على ما راج في هذا اليوم الذي يعد أول يوم من نوعه، وقد حضرت هذا الاحتفال صحبة إخوان آخرين كي نمثل بلدتنا.

أخي، أرجو أن تكون صحتكم جيدة وأن تكونوا مسرورين من حياتكم المدرسية الجديدة.

أما أخوكم فهو بخير والحمد لله وعلى أتم ما يرام.

بلغ سلامي لكافة الإخوان عبد المجيد وعبد الهادي وسعيد وسائر من حفه مجلسكم السعيد، والسلام عليكم.

أخوكم أبو بكر القادري

استدراك:

عفوا أيها الأخ، فإني لم يمكن لي أن أخبرك بكل ما عندنا بالتفصيل لقصر الوقت، وبعد يومين أكتب لك أو للأخ السعيد عن كل ما عندنا حتى تكونا على بال من كل الوقائع.

وبعث سعيد حجي إلى أبي بكر القادري رسالة بتاريخ 4 فبراير 1933 هذا نصها:

أخي العزيز القادري، سلاما وتحية،

وصلني كتابك المؤرخ في 16 من الشهر الماضي وقرأته بإمعان تام واستفدت منه كثيرا.

1 - تجد للأخ الحاج أحمد معنينو رسالة مفصلة باسمه. فصلت له فيها كل المسائل المهمة. فلتقرأه معه، بل لتدرساه باعتناء واهتمام، ولتعملا بمقتضاه.

2 - أما المشروع الذي كنت عازما على عرضه على الإخوان بمصر فقد تأخر الآن، وهو عبارة عن أن أرسل إليك كل ما ينشر عن المغرب، وأنت تقوم بجمعه وترتيبه إلى حين رجوعنا، وعلى كل فإن أعداد الجامعة الإسلامية التي فيها رسالة المغرب سيصلكم عددان منها. أما بقية ما ينشر عن المغرب، فسأسعى كثيرا لكي أرسل لكم ما أستطيع وكذلك أرسل إليكم مجلة « العرب » أسبوعيا.

3 - أما التقرير الذي أكتبه، فهو طويل الذيل، يتناول المسائل الآتية:

تمهيد - تطورات الروح الوطنية في المغرب

القضية البربرية مفرعة إلى ستة أقسام

السياسة التجهيلية - يتفرع إلى سبعة أقسام

سياسة الإفقار، أي المسائل الفلاحية ومصائب الفلاح المغربي وغير ذلك مما يطول شرحه

حرية الرأي والاجتماع

سياسة الظلم وفقدان العدالة

سياسة الاستيلاء وأخطارها

خلاصة : ما هو مصير المغرب؟

هذه مواضيع التقرير الذي بوبته وفصلت سائر نقطه. على أني لم أتممه بعد، نظرا لطوله، فهو يقع في نحو مائتي صفحة على الأقل، بل ربما لا يتم إلا بعد ستة شهور، نظرا لصعوبة البحث واتساعه، إذ هو يتفرع في كل يوم، ويشمل في كل نقطة نقطا متعددة،

وهو محرر بعبارة وجدانية، أخاطب فيها المغاربة، وأنت تراه لا يعتمد على القضية البربرية دون غيرها، بل يشمل كل المسائل المهمة في حياتنا الحاضرة، وسأسميه: « القضايا السياسية الكبرى للأمة المراكشية ».

... تجدون طيه رسالة للأخ اليزيدي، فلتدفعها إليه، وقد ذكرت له فيها مسألة الذكرى (ذكرى الظهير البربري) ومحاولاتنا نحوها، ينبغي لكم أن تدفعوها إليه في ساعة تكونان منفردين فيها، إذ ربما يتحدث إليكم عما فيها، إذا أحب ذلك.

... ذكرتم أن المعلومين (الفرنسيين) يريدون تغيير برنامج التصرف في المغرب بأن يجعلوا زمام الحكم لبرلمان يكون فيه أعضاء فرنسيون، يتصرفون في المغرب كما يشاؤون، ولا تبقى سلطة لا لمقيم ولا لأمير، وتسألني عن رأيي. وأنا لا أستطيع الحكم في هذه المسألة بهذه الصورة المختصرة، فاكتبوا لنا بما يدور في المسألة، ولتبحثوا الإخوان المطلعين على الخبايا، وبعد ذلك نستطيع الحكم بعد دراسة الموضوع، على أنني أستطيع أن أخبركم بما عندي نحو هذه المسألة المهمة، وذلك أنه بعد حدوث حوادث القضية البربرية، أدركت السلطة الفرنسية في باريس سوء تصرف المقيم العام فيها وأخطاءه، وتذاكرت طويلا مع أفراد فرنسيين ذوي خبرة، فاستنتجت أن من الخطإ أن تبقى يد المقيم حرة في تصرفها بالمغرب دون مراقبة فعلية عليه، ولم يقتصر الأمر على المغرب، بل شمل أيضا تونس والجزائر، وفعلا فكرت الوزارة الفرنسية منذ سنة ونصف أن تؤلف مجلسا عاما يشرف على إدارة هذه البلدان الثلاث، وبعد ذلك قدم نواب فرنسيون يزيد عددهم على مائة، اقتراحا إلى الحكومة الفرنسية بباريس، بوضع هذا النظام موضع التنفيذ، لكن حدث على إثر ذلك أزمات وزارية تنوسي فيها الأمر، خصوصا بعد الانتخابات الفرنسية أخيرا التي جرت قبل الصيف الماضية، ولعل المسألة قد استيقظت من جديد، لكن لا نعلم أي اتجاه ستأخذ بعد ذلك، وعلى كل، أخبروني لنقوم بدرس المسألة مع الإخوان في أوربا.

سعيد حجي

وفي رسالة أخرى حاملة لتاريخ 14 شوال 1351 موافق 10 فبراير 1933 يقول السيد أبو بكر القادري:

أخي العزيز الغيور سيدي عبد الكريم حجي،

السلام عليكم ورحمة الله،

وبعد، أخي تلقيت بمزيد السرور خطابكم الكريم الذي صبغ على فؤادي صبغة الوداد والمحبة، فسحر القلوب بطيب حكمه وعالي تركيبه وأسر اللب ببلاغة تعبيره وصدق برهانه، فيا لك من أخ أديب مهذب.

أخي، رجائي أن يكثر الله من أمثالكم ذوي النفوس الأبية والعطف الديني والشعور الحي، فلنتعاهد أخي على العمل ما دامت وجهتنا واحدة كي نرفع منار الدين، وننشر تعاليمه الحية الحقة، وندحض هؤلاء الطاغين المضلين، ولنجعل رائدنا ومقصودنا في كل الأمور الإخلاص الدائم للأمة.

أخي، إننا نسعى بكل ما لدينا من قوة وعلى قدر الاستطاعة للقضاء على الاستعباد والاستعمار المشؤوم. وإن الطريق، وإن كانت صعبة، فآمالنا قوية في إزالة كل الصعوبات التي تعرض، وهذا اعتقادنا وجزمنا معتمدين على الله ثم على الأحرار المخلصين أمثالكم، وإننا وإن لم نحصل على نجاح في بعض الأحيان أو ندرك شيئا ويفلت من أيدينا، فلا يزيدنا ذلك إلا ثباتا في المبدإ وسعيا في طرق العمل، وقديما قالوا: (ليس الفخر في عدم سقوطك بل في نهوضك كلما سقطت) .

أخي، إن طرق الفلاح قد بدأت تظهر لنا شيئا فشيئا، فقديما لم نكن نحلم بإيجاد مجلة وطنية حرة تدافع عن المغرب المسكين في حقوقه المهضومة حتى تهيأت الأسباب وصارت اليوم هى المنبر العام لجميع المغاربة يجهرون فيها بما يصيبهم ويحتجون بواسطتها مما يلحق بهم. والآن وقد تهيأت الأسباب للارتقاء إلى مرحلة أخرى أعلى منها، وهى مرحلة

إنشاء مجلة أسبوعية وطنية سياسية تكون إن شاء الله لسان حال أهل المغرب قاطبة وعلى الأخص منهم الشباب الحي وستكون بوطننا العزيز تصدر باللغة العربية، ويحررها نخبة من رجال المغرب الأكفاء. ولا تسأل عن ابتهاج وسرور سائر الطبقات من شيوخ وشباب لما سمعوا بإصدار هاته المجلة، فكنت لا ترى إلا قلوبا منشرحة وثغرا باسما بسبب هذا الخبر، وهذا يدل على أن الأمة المغربية المنكودة الحظ شعرت وعلمت مقدار احتياجها لوجود مجلة تكون لسان حالها في كل الأمور. وإن قدر الله وحزنا على الإذن في إصدار هاته الجريدة - وهو شيء مفروغ منه - فهناك سيظهر المغرب بحلته الإسلامية الوطنية الطرفة، وهكذا نتقدم يوما فيوما إلى أن تهيأ الظروف فـ ...

أخي، ذكرت في كتابك أنك تريد أن تكتب لي بصورة منظمة كي تفيدني بكل الأخبار الرائجة عندكم، سواء ما كان عن المغرب أو العالم الإسلامي قاطبة، فكم كنت مسرورا بقولك هذا وكم كنت مترقبا لورود كتاب آخر مفيدا بكيفية التنظيم وتعيينه وأنا بدوري سأجيبك عن كل مطالبك وأخبرك بما عندنا من الأخبار، سواء المسر منها أو المحزن.

أخي، أعتقد وأجزم بأنني أنا الأخ الذي يقوم بكل ما يجب نحو أخوتكم، وكم أكون مسرورا إذا طلبتم مني حاجة أو اقترحتم على اقتراحا أو أرشدتموني لما فيه المصلحة، فأنا لست من هؤلاء الذين تغلبت عليهم الأنانية وإنما أنا رجل غايتي من الحياة حياة أمتي أحيا في سبيلها وأموت في الدفاع عنها.

بلغ سلامي لكافة الأصدقاء من عرفت ومن لم أعرف، وعلى الأخص الأخ عبد المجيد الذي لم يتذكرنا والحمد لله ولو بتهنئة بعيد والسلام.

أبو بكر القادري

أرجو أن تخبرني عن رحلتكم الميمونة وإلى أين وصلت والأفراد الذين أسعدكم الحظ بالاجتماع بهم، أرجو كل هذا بتفصيل.

ومن رسالة وجهها السيد الهاشمي الفيلالي إلى سعيد حجي بدمشق في 24 ذي القعدة 1351 موافق 21 مارس 1933 يخبره بالزيارة التي قام بها لبلادنا روبير جان لنگي عضو لجنة الرعاية لمجلة « مغرب » التي كانت تصدر باسمه بباريس، يقول فيها:

أخي العزيز السعيد،

وصلني كتابك الكريم وتأخرت في الجواب لأن يوم وصوله إلينا وصل الأخ أحمد بلافريج والمسيو لونگي مدير مجلة « المغرب » والمحامي، بقصد أخذ التفاصيل عن قضية السيد المتهم بقتل يهودي والمحكوم عليه من قبل المحكمة الفرنسية بعامين سجنا وخمسين ألف فرنك دية، لأن القضية وقعت في التراب البربري، وبناء على الظهير تدخل للمحكمة الفرنسية، وإن كان الجاني والمجنى عليه مغربيين، وقد كنا نود أن نقيم لهما احتفالا فخما لاستقبالهما، ولكن وزارة الخارجية لم تأذن للمسيو لونگي بالدخول إلا على شرط ألا يحدث شيء من هذا. ولكن وإن لم يقع له استقبال رسمي، فمنذ دخوله لفاس والاحتفالات به متوالية. وفي الجمعة قبل هذا أقمنا له نزهة حضرها عدد من الشبان، كان لها وقع كبير في نفسه، ربما سأوجه لك صورها، ومما زاد في إقبال الناس عليه تواضعه الكبير وأخلاقه اللطيفة وعطفه العظيم على كل فرد فرد، حتى أنه ليحاول إبداء عواطفه بالإشارة، لأنه لا يتكلم إلا بالفرنسية، واستحسانه كل عوائد المغرب، وتفضيلها على عوائدهم، وقيامه بها، فهو يأكل معنا على طاولة واحدة بيده بدون ملعقة ولا آلة، وينزع الحذاء من رجله، ويجلس كما نجلس، وبإيجاز يقدر عواطفنا وكل شيء آخر من شبابنا نحن المثقفين، وسنقدم له هدية ثمينة للغاية من الآثار المغربية الفنية، وقد أبدت الحكومة احتياطات كبيرة، ومراقبة عظيمة، لمن يقابله أو يجتمع به أو يتذاكر معه، ولكن لم يؤثر شيء من ذلك، نعم كان له أثر في نفسه، فأبدى سخطا كبيرا، واستياء من الأعمال العسكرية مثل هذه، فإنه كان يمر ليلا من محل إلى محل، فيجد الأبواب موصدة والحراس يراقبون كل غاد ورائح بدقة، ومنهم المسلح علنا ... الهاشمي الفيلالي

كيف نشأت فكرة « المطالب المغربية؟ »

تلقى سعيد حجي بدمشق رسالتين أولاهما من أبي بكر القادري وثانيتهما من المرحوم محمد حصار تخبرانه بالمشروع الذي أعرضه هذا الأخير على أنظار المسؤولين في الحركة الوطنية، وهو عبارة عن وثيقة تشتمل على عدة نقط، مقترحا أن يتخذ كستراتيجية للعمل الوطني وبرنامج يرمي إلى أهداف عملية نسعى لتحقيقها.

وكتب السيد أبو بكر القادري مخبرا « بما قر عليه العزم من وضع مشروع الإصلاحات التي يجب أن تتظافر الجهود على تحقيقها ».

ومما كتبه صاحب المشروع ما يلي:

« إن الإدارة الفرنسية تتهمنا بأننا لا برنامج وطنيا لنا، وليست لنا مطالب نسعى إلى تحقيقها، وإنما غرضنا التشويش وإثارة الأفكار، ولذلك فقد فكرت في وضع هذه النقط، لأقدمها لكم قصد دراستها وجعلها أساسا لمطالب وطنية، وبرنامجا نسعى لتحقيقه، ... »

فأجاب السعيد مخاطبيه محبذا للفكرة، ولدى دخوله إلى المغرب في موسم الصيف لسنة 1933 اقترح عليه السيد اليزيدي أن ينضم إليه وإلى الحاج عمر بن عبد الجليل في لجنة مصغرة لوضع مشروع كامل لمطالب الشعب المغربي، فسجل في مذكرته ما يلي:

« كتب لنا الأخ محمد حصار في رسالة والأخ أبو بكر القادري في رسالة أخرى بدمشق يعلنان فيهما اقتراح الأخ محمد حصار في تكوين برنامج عام للحركة الوطنية، يجمع المطالب المغربية، وعندما رجعت إلى الرباط في صيف تلك السنة، أطلعني القادري على مشروع الأخ حصار في هذا الشأن، وعلمت أن وفدا من « سلا » قدم هذا المشروع للأخ محمد اليزيدي. أخبرني اليزيدي بالمشروع وقال لي: إن الإخوان الفاسيين كانوا يفكرون أيضا في ذلك، وإنهم يحبذون أساس المشروع، ويريدون درسه درسا وافيا، غير

أنهم يريدون أن يكون ذلك في جو من الكتمان التام، ولأجل تحقيق هذا الكتمان، ... فإنهم يرشحونني للانضمام للجنة التي ستدرس هذا المشروع، وإنها تتألف من الإخوان: الحاج عمر بن عبد الجليل ومحمد اليزيدي والحاج الحسن بوعياد وأنا المجتمعين في الرباط وباستشارة الأخ علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني واستشارة (غازي) عندما يحضر من آسفي إلى الرباط في بعض الأحيان، وفعلا شرعت هذه اللجنة تجتمع مرتين في اليوم بدار اليزيدي من الساعة التاسعة صباحا إلى الثانية عشرة، ومن الساعة الثانية إلى السابعة مساء، وظلت اجتماعاتنا أربعين يوما متوالية، وكانت مثمرة ومفيدة للغاية، حيث استطعنا درس جميع النواحي المفتقرة إلى الإصلاح بالمغرب، وتوسعنا في درس جزئيات ، واحتجنا إلى مطالعات كثيرة، ومناقشات عديدة، ومشاورة عدد آخر، دون أن يطلعوا على غايتنا من الأفراد الذين لهم معرفة بالشؤون المغربية.

وما كادت تمر هاته الأربعون يوما حتى كانت المطالب المغربية قد وجدت في مجموعها، وإن كانت ما زالت محتاجة إلى التنقيح وإعادة النظر في كثير من المسائل، وعندما انتهت الصيف توقف درس المطالب، ولم يجدد النظر فيها إلا عندما وقعت صدمة ماى 1934 (إثر الحوادث التي عقبت زيارة محمد الخامس لمدينة فاس) .

ولما رجعت من سوريا عام 1934 أخبرني الأخ محمد اليزيدي بأن المطالب التي درسناها في الصيف الماضية، قد أطلعوا عليها الأخ المكي الناصري على اعتبار أنها لم تدرس، وإنما هى اقتراح تعاون على إيجاده الأخ محمد اليزيدي والأخ عمر بن عبد الجليل كيلا يغضب من عدم اطلاعه على كيفية درسها وعدم انخراطه في لجنتها، ولقد جد الناصري في درس تلك المطالب، وأضاف إليها مواد جديدة، ونقح شيئا منها مما جعلها أكثر انسجاما، وأنضج تكوينا.

وخلال اجتماعي به مرة، أخبرني بالمشروع، مظهرا لي قيمة العمل، ومفتخرا به، فتظاهرت بعدم علمي به، وأظهرت إعجابي » .

ومن رسالة بتاريخ 26 اكتوبر 1933 بعثها سعيد حجي من القاهرة إلى السيد أبي بكر القادري في شأن إصدار نشرة دورية بالقاهرة عن الحالة بالمغرب جاء فيها:

حضرة الأخ العزيز أبي بكر القادري، سلاما وتحية،

هذه أول رسالة أكتبها إليكم من القاهرة، وإني لأنتظر رسائلكم بفارغ الصبر مع أخبار المغرب وما جرى فيه من حوادث ومسائل منذ غادرته للآن، وأبلغكم تحية الإخوان التطوانيين المقيم الآن بينهم، وهم في غاية الحماسة والاستعداد لأي عمل فيه نفع للوطن العزيز. لقد تذاكرت معهم طويلا في مسألة النشرة واتفقنا على خطتها نهائيا وسنبدأ قريبا بتنفيذ الفكرة إلى حيز العمل، إنما نحن نفكر الآن في طرق توصلكم بها بالمغرب، فلتوضح لنا ما يظهر لكم في ذلك السبيل توضيحا تاما بعد أن تزودنا بأخبار البلاد وحوادثها ، ولا يخفى عليكم أننا سنرسل إليكم كمية كبيرة فلتقدرها لنا كذلك، إذ سنكون في المستقبل معتمدين على إعانة مادية منكم. قضية المطالب مهمة للغاية، فلتوضح لي ما تمر عليه من خطوات، ولتذهب إلى الأخ اليزيدي وتخبره أني أخبرتك منفردا بكل الأدوار التي مرت عليها قضية المطالب قبل سفري بيومين لا غير، وتعاهده أن لا تصرح بما يروج في شأنها بينكما لأحد غيري. هذه الرسالة موجزة للغاية وسأكتب إليكم في المستقبل وإنما أنتظر جوابكم ، والسلام سعيد حجي

وجاء في رسالة وجهها السعيد إلى أبي بكر القادري من القاهرة في 4 ماى 1934 ما يلي:

حضرة الأخ العزيز،

منذ يومين وصلتنا الجريدة الرسمية وفيها نص تغيير الظهير البربري المرسلة من أخوتكم ، وكذلك وصلتنا جملة في رسالة الأخ محمد حصار يذكر فيها التغيير، غير أننا لحد الساعة لم نستطع أن نعرف رأيكم ورأى الإخوان العاملين في هذا التغيير؛ ثم إن نص التغيير محتاج إلى شرح وإيضاح ودرس، لهذا فلم نستطع أن نستفيد منه إلا أن المسائل الجنائية البربرية أحيلت على المحاكم المخزنية بالرباط وأسس لها فرع خصوصي. وكذلك وصلتنا « عمل

الشعب » الصادرة في 20 ابريل وليس فيها أدنى إشارة، وعليه لم نعرف موقف العاملين من هذا التغيير، فاكتفينا بإخبار الصحف بإصداره، وننتظر أخباركم بمزيد الاشتياق، وخصوصا ويوم 16 على الأبواب. وقد كنت كتبت لكم في شأن 16 ماى رسالتين أخبركم أنه ليس في استطاعتنا نطلقا أن نقوم بعمل إلا إذا مهدتموه لنا نظرا لأشغالنا المدرسية، ولم يصلنا منكم جواب. لهذا فإن يوم الذكرى سيمر هادائ سوى من بعض مقالات ستنشر فيه، ثم إن مسألة التغيير هذه أوقفتنا عن العمل ريتما تصلنا أخباركم.

سعيد حجي

ومن رسالة بعثها السعيد إلى الحاج عمر بن عبد الجليل بباريس جاء فيها:

حضرة الأخ العزيز سلاما وتحية،

وبعد، منذ غادرتم المغرب إلى باريس لمواصلة العمل الوطني، والأحوال بالمغرب تسير من سيئ إلى أسوء، والعاملون أمام ذلك الحال في موقف غريب. وقد فكرت أن أكتب لكم هذه الرسالة لأوضح لأخوتكم وللأخ الوطني الغيور السيد محمد الوزاني وضعية حركتنا في الظروف الأخيرة كما تتراءى لنا، فمنذ اليوم الذي منعت فيه الصحف الوطنية بالمغرب والإدارة تستغل كل فرصة للتنكيل بالوطنيين، وتعمل جهدها في محاربتهم، بينما الوطنيون لم يقدموا على عمل مثمر، يخرج الحركة من هذا الطور الشاذ إلى حالة تتقدم فيها. وقد اجتمعنا كثيرا بسائر الإخوان العاملين، فلم نجد أمامنا إلا محاولات لا تنتج أى عمل صحيح، فقد منع الأخ علال من التدريس بالقرويين، فأتى للرباط، واجتمعنا، وتليت علينا رسالتكم في شأن الاحتجاج ضد هذا المنع، وتجديد الحركة على اثره، فتذاكرنا في شأن بيان ينشر على الشعب، يوضح ما تقوم به السلطة من أعمال مستهجنة، وموقفنا إزاء ذلك، وسعينا في التفاهم معها، وإعراضها عنا. فكان الأخ الناصري يمثل المعارضة لفكرة البيان، والأخ اليزيدي يؤيده وكذلك علال، وفي ختام الحديث، قرر نشر البيان، وكلفت

هيئة منا بوضع المشروع النهائي للبيان، ولم يمر يومان حتى طويت فكرة البيان وأغلقت، والخلاصة حسب رأي الأخ الناصري أنه من واجبنا أن نرتب البيت قبل الخارج. هذه الفكرة سليمة المنطلق، ومقبولة لدى كل عامل، لكن هناك بعض ملاحظات يجب أن ندركها جيدا، وهي أن ما يفكر فيه من تنظيم البيت يحتاج إلى وقت طويل، ولا يمكن مطلقا لحركتنا أن تقف هذا الوقت الطويل ريثما تنتهي من ذلك، بل ربما إذا وقفت ستموت، ولا بد لإحيائها من مجهود عنيف، وثانيا إن ترتيب البيت بالصورة التي نتصورها في عالم النظريات لا يوافق ما في شعبنا من استعداد، وما له من تربية، ثم إن حركتنا حديثة العهد، ولا يمكن تنظيمها إلا تنظيما له حظ من البساطة، وعلينا بعد أن نخرج حركتنا من دور البساطة هذه إلى دور آخر أرقى، وذلك يكون مع الأيام، ومع كثرة وتنوع الحوادث والسير إلى الأمام. أما الأخ اليزيدي فالذي يظهر لنا منه الآن أنه حائر، أو بعبارة أوضح في مفترق الطرق، وهو يؤيد فكرة ترتيب البيت، ولكن لا يعمل لها بطريقة تستمد قوتها من القلب، وكذلك سائر الإخوان، ولكن إلى متى هذه الحيرة ؟

فالذي يظهر لي أن هذه الحيرة سيطول أمدها إذا لم نفكر جيدا في إخراج عمل إيجابي لصالح حركتنا من حيز النظر إلى حيز العمل، بصبر واستعداد، وإذا لم ننظم ولو على الأقل الآن أنفسنا ونرتب المسؤوليات ونوزع الأعمال بصورة لا يبقى معها جمود أمام الحوادث المتوالية بصورة مفزعة؛ ثم علينا أن نفكر في أعمال تساعد شعبنا على فهم الحياة، فمن المهم أن ندرك أن شعبنا لم يؤت حظا كبيرا لكي يفضل فكرة المعارضة فحسب، بل إنه لمحتاج إلى ما يغذي نفسه ويقدر أسباب الحياة في عروقه. فالحياة خطيرة جدا وأرجو أن أعرف رأيك ورأى الأخ الوزاني فيها، وقد ارتأينا أخيرا بعد مختلف التجارب أن نعمل ما نستطيع عمله ما دام الإخوان لا يعملون ولا يجدون ولا يرفضون أي اقتراح نقدمهم، فمن الواجب أن لا يطول حيرتنا وترددنا، ونرى أنفسنا مضطرين إلى العمل ولو من دون هؤلاء الإخوان الذين ظهروا في الميدان الوطني بالماضي خير أن لا نعمل ونلتزم

الحيرة، ولعل رأيكما ينير لنا ما نحن بصدده، وبعبارة أصرح إننا لا نوافق مطلقا على هذه الحالة التي وصلنا إليها، ونشاء أن نعمل ما نراه واجبا علينا، ولا نرضى الحيرة والتردد بتاتا، وقد رجع بونصو من فرنسا، وسوف لا نستفيد شيئا منه، ويرجع إلى بلاده وقد صرح أن المغرب أحسن من الجزائر وتونس. سعيد حجي

وكتب السيد المكي الناصري إلى سعيد حجي بتاريخ 19 دجنبر 1934 ما نصه:

أخي العزيز الوفي أحييك تحية خالصة،

وبعد، فقد وصلتني رسالتك الأولى والثانية وسررت بدخول الأخوين سالمين إلى البلاد. أما تأييد إخواننا هنا فقد ذهب مع البريد الإسباني مسجلا من تطوان مختوما عليه باللك على الطريقة المخزنية، وقد نشرناه في « الحياة » وكذلك ستذهب رسالة بمضمون هذا التأييد إلى وزارة الخارجية في الأسبوع الداخل، وليست إشاعة إرساله من الرباط بصحيحة مطلقا. أما تلغرافي، فقد استغربت عدم فهمكم له في هذه الظروف، فقد بعثت أطلب أخبارا مستوفية عن القضية (قضية المطالب) وأطلب ذلك باستعجال، وهذا ما يحتوي عليه التلغراف لأن الأخبار التي وصلتنا لا تكفي الجمهور هنا، فنحن نريد نشر تلغرافات التأييد مثلا، ونريد أن نعرف رأى الجمهور في المطالب وعما يتحدث الناس اليوم، وهكذا مما لم يتكرم أى واحد من الإخوان بالكتابة به، على أني أراه واجبا بين أفرادنا المنتمين لهيأة واحدة والذين لهم من الحقوق حقوق متساوية.

مسألة الملازم ستبقى وحدها حسب رأيكم، ولكني أرجوك بإلحاح عظيم في تحصيل مدخول كتاب « الوصايا » وإرساله إلى لأنني في غاية الاحتياج لسد تكاليف الكتاب.

وأخيرا، يعود سلامي على كافة الإخوان، وثقوا أنني أعمل كل ما في استطاعتي للدعاية للمطالب، وسترى ذلك في بعض الأشياء التي نشرتها بعدد « الحياة » ، وبلغ تحياتي الخالصة لجميع الإخوان العاملين ولوالدكم المعظم. أخوكم المكي الناصري

من مراسلات سعيد حجي بعد رجوعه النهائي
من المشرق العربي في صيف سنة 1935

كتب سعيد حجي على هامش رسالة تحمل تاريخ فاتح يناير 1936 يخاطب فيها محررها قاسم الزهيري السيد عبد الله إبراهيم هذه السطور:
أخي العزيز، لم نتكاتب منذ افترقنا ولكن الحوادث أيضا لم تكن تسمح إلا بمكاتبة إخبارية، والآن لعلها انتهت أو بالأحرى توقفت إلى أجل ما، فيمكننا أن نتراسل الآن، وهنيئا لكم بما أحرزتم من فخر، فأخوك سعى ولكن لم يوفق، ولعل في ذلك بعض الخير.

سعيد حجي

صديقي العزيز عبد الله إبراهيم ،
نحن اليوم في عطلة مدرسية وكان بودي أن أكتب إليك من قبل لولا أن شواغل عدة صرفتني عن ذلك، ثم سافرت إلى فاس ووددت لو كاتبتك حين كنت بها! وها أني رجعت منها دون أن أفعل، فهل في إمكاني أن أعتذر، وهل في استطاعتك أن تقبل عذري؟
وبعد، فها أنا ذا جالس وحدي حوالى الثانية عشرة ليلا والكل نيام؛ جلست لأسود صفحة أو صفحات على الأصح بما هيجني فدفعني لأكتب إليك. الواقع أني كنت منذ نصف ساعة تقريبا معمور الجوانب، مفعم القلب، مفعم النفس بما كنت أود أن أسطره لك على صفحات كتابي ، ولكني لا أدري لماذا عدت خالى الذهن لا يستطيع القلم الجرى على القرطاس دون أن يتحير أو يكاد لا يستطيع الجرى دون أن يتحير. وها أنا ذا أعالج الكتابة كما كنت أعالج قبض القلم حين كنت ابن خمس سنوات ... ولكني متيقن أنه سوف لا يكبو هذه المرة بعد أن جددت العزم من جديد.

صديقي العزيز،

أتيت إلى سلا فقدر لي أن أراك رؤية قصيرة، ولم يكن في حسباني أنك ستسافر في الغد فأحول بينك وبين ما تريد أو أودعك على الأقل، ولقد أخطأت إذ لم تشعرني بذلك.

ولقد آب سعيد من مراكش بعدما قضى المهمة التي ذهب من أجلها فأعلمني بكل شيء: أخبرني أنكما تصارحتما ... ماذا؟ لا أدري! وعلم كل منكما بداخلية صاحبه، والواقع أنني أخبرته الخبر حينما رجعت من مراكش، وأطلعته على الرسالة التي أرسلتها لي، فشاركني في قراءتها بل - إذا رمت الزيادة - طالعها قبلي ولست أدري أستنقم على حين صارحته بالحقيقة بعدما أوصيتني ألا يعلم الخبر أحد أم ماذا ستفعل؟ ألم تقل لي: « إذا رأيت أن تضن بها على غير نفسك فافعل » وسعيد هو نفسي، إذن ارتفع النزاع.

صديقي،

أخبرت أنك كنت من جملة المقبوضين عليهم في قضية المظاهرات، وأخبرت أيضا أنهم زجوا بك في السجن ثمانية أيام. ولقد أخطأت إن لم أبادر بتهنئتك، فلا شك أنك امتحنت السجن والتعذيب!!! في سبيل الوطن، وهما هينان على شخص مثلك تغلغلت الوطنية في أحشائه فأصبح يومن بها إيمانا لا يقبل أدنى ريب، فاهنأ بنفسك وتقبل ود أخيك ومشاركته في عاطفتك وتحياته الخالصة، والسلام. في 2 - 1 - 1936

محبك قاسم الزهيري

وهذه مجموعة رسائل ود وإخاء بعثها السيد قاسم الزهيري إلى سعيد حجي خلال مقام هذا الأخير بلندن مع بداية سنة 1936 :

أخي العزيز،

وأخيرا يتغلب الرجاء على اليأس فأعرج إلى البريد مرة أخيرة لأدع فيها كتابا وأسأل السيدة هل هناك كتاب في اسمي. فكم كنت أتثاقل في مشيتي وكم كانت تحدثني نفسي

بحديث لذيذ نحو هذا الكتاب الذي تيقنت من تناوله اليوم بعينه، فكنت أقف أثناء الطريق وقفة الحائر وأجعل أتساءل فيما عساه يحمل هذا الكتاب وماذا سيكون موقفي أمامه، فتذهب بي أسئلتي إلى التساؤل عن حجمه. فلكأني أتنبأ بما تحتوي عليه الرسالة من أنباء ربما كنت في احتياج إلى معرفتها. فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أمام البريد أدفع الباب وأدخل فأطلع. هناك يخامرني شك فأجعل أقول في نفسي « ربما لم يصل الكتاب بعد » ولكن بالرغم عن هذا الشك أندفع - ولست أدري أنقرت على الباب أم لا - وأدخل ثم أناول السيدة كتابي وأحاول الخروج. أأخرج قبل أن أسألها، ذلك ما جعلت أفكر فيه هنيهة وأنا أتشاغل في ضم بعض الدفاتر، فها أنا ذا أستجمع قواى على أن أسألها ولا أدري لماذا أتماسك ثانيا - أخوفا من أن أجيء بكلام ليس فيه عبارة شكر للسيدة، فأكون قد أسأت الأدب أم لأني أرى غير مستعد لقبوله. يعلم الله أن لا هذا ولا تلك هما اللذان يمنعاني من الكلام، ولكن هو شيء يظهر أنه أعظم منهما لم يتح لي حتى الآن معرفته رغم ما بذلت من وقت فهل لك أن تهتدي إليه فتدلني عليه. أو يعقل أن ... مثلك يتوصل إلى حل هذه المشكلة.

وها أنا الآن حائر أعض على أصبعي من الندم. أتدري لماذا؟ ذلك لأني سألتها من حيث لا أشعر، فاندفعت نحو مستودع الرسائل وجعلت تبحث عنها، ثم أجابتني بجملة لا أتذكر ما هى ولعل معناها: « نعم هى هنا » فتوجهت نحوها واختطفت الرسالة من بين يديها، ورميت بها في حقيبتي، واندفعت نحو الباب. فلم أتمالك إلا وأنا أفتح الحقيبة مرة ثانية وأخرج الرسالة من لفافتها وأرمي هذه داخل البريد، وأدير بنظري عما اشتملت عليه، فأجد رسائل ولفة عارية، فأدخل الرسائل في الحقيبة ثم آخذ في قراءة اللفة العارية، فما أشد إعجابي بما أقرأ وما أشد فرحي بما يمر على نظري. فلست مفندا ولا كاذبا إن قلت إني صاحبتك في سفرك من فرط ما أتصوره وما أتخيله، بل ما أتمثله حقيقة، أثناء قراءتي لتلك الرسالة. ثق بأن صديقك شاطرك أكدارك وأفراحك في ساعة ربما كنت مستسلما فيها

إلى عوامل غير طبيعية ترفعك حتى يخيل إليك أنك ترفعت عن هذا الوجود، بينما يتحقق لديك أنك والوجود شيئان من المستحيل الفصل بينهما.

صديقي، هذه كلمة قصيرة، ضئيلة نحو تلك الرسالة، وسأعود إليها مرة ثانية فثالثة، ... وعندما ترجع من رحلتك نعود إليها في أغلب اجتماعاتنا، والسلام.

صديقك المخلص قاسم الزهيري

أخي العزيز،

أستأنف حديثي بعد أن فارقتك مدة ما أظنك إلا غاضبا من أجلها، بل ما أظنك إلا معاتبا إياي عند العودة إلى أخيك. ولم هذا الغضب وهذه المعاتبة مع علمك بأني مستعبد المدرسة أقضي فيها معظم الوقت، فإذا سرحتني فللأكل وللنوم ثم للرجوع.

كنت وعدتك في كتابي السابق أن أبعث إليك بكلمة حول رسالتك الأولى بعدما جئت لك في آخر الكتاب بجملة مستصغرة تتضمن صورة مصغرة نحو كتابك الضخم. ولكن يظهر أني متى تناولت القلم لأخط ما عزمت على خطه فر هذا من بين أناملي وارتمى أمام القرطاس الذي أسوده، هناك يعبث بفكري طائر ينزل في وسط الدار ليلتقط بعض ما يسد به رمق صغاره، فيصرفني عما أشاء، فإذا ما طار نحو صغاره طرت أنا بنظري نحو القرطاس كى أزيد عما كتبت، فيعظم دهشي لأني لم أجد القلم بيدي، فأجعل أبحث يمينا وشمالا بينما هو أمامي لا يستوجب كل هذا البحث، فها قد رجع القلم بين يدي وها قد رجعت إلى الورق، ثم آخذ في قراءة ما خططته آنفا من سطور كى يمكنني التتبع، فيلوح لي أني لست قادرا على خط ما وعدتك به، ذلك لأني لم أشبع من قراءة الرسالة رغم أني قرأتها وقرأتها حتى ارتسمت ألفاظها في حافظتي أو كادت. فما أعظم دهشتي وما أكبر تعجبي حين آخذ كتابك تحت نظري أقلب فيه الصفحة بعد الصفحة حتى آتي على آخره، فإذا ما أخذت القلم لأسطر كل ما حاولت تسطيره تراءى لي أن كل ما قرأته لم

يعد سوى خبر قضى آخره على أوله، فأصبحت متحيرا لا أدري أأبدأ بآخر الرسالة الذي ما زلت متذكرا منه شيئا ليس بالكبير أم بالأول الذي لا بد من قراءته مرة أخرى.

ولكن بالرغم عن هذا كله أجعل أجهد فكري جهدا كبيرا وأسعى في تلخيص ما قرأت تلخيصا مدققا، فلا أجد سوى حزن عميق يعم الكتاب كله وإذا هناك مأساة لو أردنا أن نتتبع فصولها وأن نضمها في مجلد لجاءت في صفحات كثيرة تجعل من هذا مجلدا ضخما، فهى قد تبتدئ بتعارف يشعر الشخص الذي ذهبت بقلبه تلك النظرة الأولى بنار تتأجج في داخله لا تطفئ لهيبها إلا الآمال والأماني الفارغة، فإذا تتبعنا بنظرنا ما يلي تلك النظرة اللعينة الحلوة وجدنا تلك الآمال تخفق الحين بعد الحين بينما النار ما تزيد إلا لهيبا إلى أن نأتى على الآخر. حينئذ لا يسعنا سوى ملاحظة الشخصين يفترقان في صمت وذهول وخشوع لو أتيح لشاعر فارقته شاعريته منذ حين أن يشاهد ذلك الصمت وذلك الذهول وذلك الخشوع بل أن يتصورها على الأقل لفاضت شاعريته في الحين ولأتى لنا بشىء تسجد لسماعه الحياة وتخر للحنين إليه القلوب.

رويدك يا صديقي! رويدك! فلست بالذي يريد منك هذا ولا بالذي يحيي في نفسك ما كادت تمحوه يد الدهر، ولكن مرت على ساعة تجردت فيها إلى نفسي وجعلت أبعد عني كل ما تصل بيني وبين هذه الحياة فإذا أنا وحدي وإذا يدي تجري على الورقة فتخط ما تشاء دون أن أمسكها عن عملها.

ولك من أخيك : لا أدري أنفسي ما أهديك، والسلام.

صديقك المخلص قاسم الزهيري

أخي العزيز،

وها أنا ذا أتناول القلم ثالثا في شىء من الضجر وأجعل الورقة أمامي كى أسودها ولست عالما ما ذا أخط وإلى من سأخط، فلربما جئت بشىء تمل سماعه فتسخر منه لأول مرة

تختطفه عينك، ولست عائبا عنك هذا بل لك أن تضحك وحتى تستلقى على قفاك. كيف أصدك عن هذا وأنا أعلم أن هناك قاسما آخر - يتبرأ منه قاسم المعهود - هو الذي يخاطبك الآن ويأخذ عليك وقتك. ألا ترى أن هذا الكلام إنما هو مجرد هراء لا يشف عن شيء تطمئن إليه النفس. فلربما زادها شكا على شك حتى لا تعود ترى ما حولها إلا بعين الشك. فلنتخل قليلا عن مثل هذا الكلام الذي لا يفهمه أمثالك، ولنفسر الكلام بكل دقة وإسهاب. ها هو ذا الكتاب الثالث وأنا كل مرة أترقب خطابا من عندك حول سفرك، ولكن لا سبيل إلى الوصول إليه، فلقد ذهبت نحوا من ثلاث مرات إلى البريد الانجليزي، وسألت السيدة، فلم تجبني في جميعها إلا بهذه الجملة : « لا! لم يصلني كتاب في اسمك » فكنت أتوجه نحو البريد بكل نشاط وأعود منه بكل خيبة. ولا أدري أأجد هذه المرة كتابا أم لا. ومهما كان الأمر فإني لا أقبل منك عذرا على هذا ولو حاولت كل محاولة في الدفاع عن نفسك. فلا تحاول عبثا إيجاد عذر.

أقامت جمعية المحافظة على القرآن حفلة بمناسبة مرور سنتين على تأسيسها في دار عثمان الأحرش حضرها بعض أعيان البلاد وذلك على الساعة العاشرة ليلا من يوم الخميس 13 فبراير 1936 . فبعد الكلمة الافتتاحية لأبي بكر القادري ألقيت خطب حول حالة الجمعية وأثرها في نفوس أعضائها وأثرها في نفس الشعب، ومن هم أعضاء الجمعية.

وفي يوم الجمعة وقعت الانتخابات وأسفرت على تكوين المكتب على الشكل التالي:

الرئيس: أبو بكر القادري - خليفته: الحاج أحمد معنينو

الكاتب: محمد اشماعو - خليفته: محمد البقالي

أمين الصندوق: أبو بكر السماحي - خليفته: عثمان الأحرش

أمين الخزانة: عبد العزيز عواد - خليفته: ابن عاشر عبد النبي

العضوان المستشاران: محمد عواد وقاسم الزهيري

صديقك المخلص قاسم الزهيري

وهذه رسالة وجهها سعيد حجي بتاريخ 11 رمضان 1354 موافق 7 دجنبر 1935 إلى السيد أحمد ابا حنيني بالمحكمة الابتدائية بفاس يقول فيها:

حضرة الكاتب السيد أحمد ابا حنيني،

قرأت مقالتك بمجلة « المغرب » في عددها الأخير، كما كنت قرأت مقالتك في مجلة « السلام » تنتقد مقالي عن العقاد، فرأيت في أسلوبك ما دعاني أن أخطط لك هذه السطور فأصلح شابا لا ريب أن روحه ستكون من عناصر تطور الحياة المغربية، فلا أكتمك أني أعجبت كل الإعجاب بمقالتيك واستطعت أن ألمح اتجاهك من خلال سطورك، فأرجو أن تقبل من أخيك تحية الود الخالص، تحية تساعد على تكوين صلة بيننا.

سعيد حجي

فكان جوابه :

أيها الأخ الفاضل تحية وسلاما،

وصلني كتابك المؤرخ بحادي عشر رمضان ولا تسأل عما أدخلت على كلماتك من السرور وعما كان لها في نفسي من التشجيع وإن كنت أعتقد يقينا أني لا أستحق بعض ما أثنيت به على، بل ما هو محقق عندي أن أخوتك تنظر إلى بعين الرضى، فقد لمحت من خلال سطورك من خالص المحبة والوداد ما اهتز له قلبي وكاد يطير لو أمكنه لمصافحتك وشكرك، ولا أكتمك أن عندي من الود مثل الذي عندك وإني لا زلت أغمره لك من يوم اجتمعنا في شهر اكتوبر من السنة الماضية عند سيدي حفيظ الفاسي بسلا مع شاعر الحمراء السيد محمد بن ابراهيم ولا زال إعجابي يزداد بك كل يوم حيث أراك مثابرا على الكتابة مقدما على المواضيع العويصة كـ « المعرفة » ، فسر سيرك فلا شك أن النجاح يكون حليفك.
وفي الختام، أرجو أن تقبل من أخيك تحية الود الخالص.

أحمد ابا حنيني

ومن رسالة للسيد علال الفاسي بعثها إلى سعيد حجي بتاريخ 13 شوال 1354 موافق 8 يناير 1936 يقول فيها:

الحمد لله وحده

سيدي الأخ المحترم،

قد اتفقنا على إقامة احتفال خصوصي بفاس في المحرم المقبل لذكرى السيد محمد رشيد رضا رحمه الله، وقد اخترناك لكتابة الموضوع الآتي : « خدمة السيد رشيد للنشر » مع توجيه النظر إلى أن المقصود دراسة تفصيلية موجزة عن أعمال المرحوم في نشر الكتب القيمة والأبحاث النافعة، مع الكتب المهمة التي نشرها (من غير مؤلفاته) وعلق عليها وقدم لها.

أما المواضيع فقد وزعت كما يلي:

حياة رشيد الكاتب: محمد الهاشمي الفيلالي

الأسباب التي غيرت مجرى حياته: عبد الله كنون

مذهبه ومبادئه: محمد علال الفاسي

رشيد في معترك الصحافة: محمد بن الحسن الوزاني

مؤلفاته: الحاج الحسن بوعياد

خدمته للنشر: سعيد حجي

رشيد إزاء الحركات السياسية الشرقية: محمد المكي الناصري

رشيد والمغرب: محمد داود

هذا والرجاء إشعارنا بقبولكم للاقتراح المذكور عاجلا، والسلام.

أخوكم علال

وبعث سعيد حجي بالرسالة الآتية إلى السيد محمد بن الحسن الوزاني وكتب على هامش النسخة المطبوعة: « أرسلت مثلها لعلال الفاسي » وتحمل الرسالة تاريخ 3 ماى 1936 :

وكالة « المغرب الجديد » في المنطقة السلطانية

صديقي العزيز الأستاذ السيد محمد بن الحسن الوزاني، تحية وسلاما،

تدخل صحيفة « المغرب الجديد » في ستها الثانية في فاتح ربيع الأول القادم، وستصدر مرتين في الشهر لمدة قصيرة تصبح بعدها أسبوعية؛ وأسرة تحريرها التي أنتم من أعضائها تسعى أن تكون الصحيفة في مرحلتها الجديدة عاملا من عوامل التطور بهذه البلاد وميدانا لنشاط المثقفين. والمرجو أن يتاح للصحيفة أن تنشر مقالة من قلمكم في أول عدد ستها الثانية، والمأمول أن تتفضلوا بإرسالها إلى وكالتها قبل 13 ماى الجاري، ودمتم في خدمة العلم والثقافة، والسلام.

وكيل « المغرب الجديد »   سعيد حجي

فأجاب الأستاذ علال الفاسي بكلمة تحمل تاريخ 12 ماى، ولم نعثر على جواب السيد محمد بن الحسن الوزاني بين أوراق السعيد التي ما زالت متوفرة لدينا. وهذا نص جواب الأستاذ علال الفاسي:

الحمد لله وحده   12 ماى

الأخ العزيز السيد سعيد حجي،

تصلك طيه المقالة التي واعدت بها تحت عنوان « حاجتنا إلى التجديد » وقد بعثت لك من قبل جوابا على رسائلك معه مقال للأديب عبد الكريم غلاب أرجو أن يكون الجميع قد وصل مسلما على جميع الإخوان،

ودمت   علال

ومن رسالة بإمضاء سعيد حجي موجهة إلى السيد المكي الناصري في أوائل شهر ماى 1936 كتب فيها محررها ما يلي:

أخي العزيز الأستاذ السيد محمد المكي الناصري،

سلاما وتحية،

بناء على الاتفاق الذي تسلمنا به صحيفة « المغرب الجديد » المعقود بيننا وبين العربي بن جلون ومحمد الطنجي في هذا اليوم، فإني أعرض عليكم مقابل تحريركم في الصحيفة المذكورة مكافأة شهرية قدرها مائتا فرنك فرنسي تعتبر من المصروفات على الصحيفة وثلث أرباحها الصافية مع اعترافي أن مقدار تلك المكافأة الشهرية قابل للزيادة عندما تتحسن ميزانية الصحيفة. ويبتدئ العمل بهذا الملحق من 15 مايو 1936.

سعيد حجي

وهذه رسالة وجهها سعيد حجي إلى المقيم العام بتاريخ 20 يوليوز 1936 :

سعادة المقيم العام للجمهورية الفرنسية بالمغرب،

أتشرف بأن أقدم هذه الرسالة إلى سعادتكم في شأن طلب إذن لمجلة أسبوعية تقتصر على المسائل الثقافية؛ فإذا وافقت سعادتكم على هذا الطلب، سأبادر إلى وضع الضمانة في الخزينة العامة والكتابة الرسمية إلى سعادة الصدر الأعظم في هذا الشأن.

ولي رجاء أن ينظر إلى طلبي هذا بعين العطف لما تعلن سعادتكم في كل مناسبة من نية صالحة واهتمام كبير بالمسائل المعروضة عليكم.

وتقبلوا في الختام فائق احتراماتي واعتباراتي.

سعيد حجي

رسالة احتجاجية إلى المقيم العام الفرنسي بالرباط

نص الرسالة التي وجهها سعيد حجي إلى المقيم العام الفرنسي بالرباط احتجاجا على رفض السلطات المختصة للطلب الذي تقدم به إلى الصدر الأعظم قصد السماح له بإصدار مجلة ثقافية أسبوعية باللغة العربية تحمل اسم « مراكش ».

سعادة السفير ممثل جمهورية فرنسا بالمغرب المسيو بونصو المحترم،

أتشرف بإحاطة سعادة السفير علما بأني قدمت في تاريخ يونيه 1935 إلى سعادة الصدر الأعظم بواسطة إدارة الأمور الأهلية بالرباط طلبا للإذن لي بإصدار صحيفة أسبوعية عربية تحت اسم « مراكش » تقتصر على الأبحاث الأدبية والعلمية، وقد بلغتني الحكومة أن طلبي قد رفض وأنها لا تسمح بإصدار هذه الصحيفة العلمية.

لهذا رأيت من الواجب أن أبادر إلى كتابة هذه الرسالة إلى ممثل جمهورية فرنسا بالمغرب، أوضح فيها نقطة مهمة، لها قيمتها في المستقبل، وتتوقف إلى حد ما عليها سمعة البلاد الذي تمثلون.

ولن أتناول المسألة من ناحية سياسية، فصحيفتي التي أريد إصدارها لم يكن من شأنها أن تتناول المسائل السياسية، بل من ناحية ثقافية أدبية محضة.

سوف تمر الأعوام، وتتطور الوضعيات، وتتغير أساليب الإدارة، ولا يبقى إلا حكم التاريخ على هذا العهد الذي اجتازت منه الأمة المغربية ربع قرن، لن يبقى إلا حكم التاريخ مسجلا لا يعرف التمويه، ولا يرى إلا الحقيقة المجردة، ويا له من حكم قاس سيكون مسجلا على أمتنا المغربية عن هذا العهد، حكم يخيف النشء الحديث، وينزعج له الدارس لماضي حياتنا الفكرية، عهد توقفت فيه مدارك الشعب المغربي، وابتعد فيه عن الحياة العلمية الصحيحة، فلم ينتج شيئا، ولم يعمل لينتج في ميدان الحياة الفكرية.

فمن المسؤول يا سعادة ممثل فرنسا عن هذا الركود؟ ليسمح لي سعادة السفير أن أعلن صراحة أن جزءا غير يسير من هذه المسؤولية سيلقى على بلاد طالما كانت منارة للأفراد والشعوب في الديار الأوربية، بلاد يسوؤنا أن نراها تتحمل هذا الجزء من المسؤولية. ومعنى ذلك أن نراها تسعى في منع كل شيء يتصل بتقوية الحياة الفكرية لهذا الشعب، فإذا التاريخ يسجل في حكمه أن أفرادا من هذا الشعب المغربي سعوا وسعوا لإيجاد منول ينسجون عليه أردية للثقافة والصحافة، ويعملون بواسطته لحياكة إنتاج علمي وأدبي، فحالت بينهم وبين هذه الأمنية سلطة غير مجهولة، سلطة أمة اتصل مثقفونا بماضيها وحاضرها، فأكبروهما كل الإكبار، وأعجبوا بخصوبتهما في كل شيء، وفي ميدان التفكير والأدب بصفة خاصة، سلطة يسمح ممثل الجمهورية الفرنسية أن تلقى عليها هذه المسؤولية الخطيرة، بل تلقى اليوم إذا أعلنها أبناء المغرب في مختلف أنحاء العالم، المتمدن وغير المتمدن.

فمن الخير لرؤساء هذه السلطة أن يفكروا في المستقبل القريب، ويتصوروا هذه المسؤولية واضحة جلية، تلقى لا على عاتقهم، بل على عاتق أمتهم.

وعندي أن ممثل فرنسا الذي هو على رأس هذه السلطة، يتصور جيدا المستقبل، كما يتصور الحاضر، وأنه لا يرضى أن يعلن في أنحاء المعمور في يوم ما، أن بلاده حالت بين شعب وبين ذرية تريد تثقيفه، وأن الإدارة التي يتولى شؤونها لم ترتئي أن تسمح بإصدار صحيفة دورية بسيطة، تقتصر على أبحاث أدبية وعلمية.

هذه هي النقطة الأساسية التي فكرت فيها عندما بلغتني الإدارة أن طلبي لإصدار صحيفة « مراكش » العلمية رفض، فبادرت إلى إيضاحها وتسجيلها. ولي اليقين أن شخصا حكيما مثل سعادتكم سيفكر باهتمام في هذه الملاحظة.

ولتتقبلوا في الختام فائق احتراماتي القلبية.

سعيد حجي

رسالة سعيد حجي إلى الأستاذ عبد الله كنون الحسيني يخبره بعزم جريدة « المغرب » على إصدار ملحق أسبوعي راجيا منه المساهمة بمقالاته (20 مارس 1936)

حضرة السيد الأستاذ عبد الله كنون الحسيني

سلاما وتحية،

وبعد، فقد عزمنا على إصدار ملحق أسبوعي لجريدة المغرب يتناول نواحي المغرب الثقافية والمسائل العالمية الجارية ليكون معبرا عما في بلادنا من دبيب نحو اليقظة في ميادين الفكر والاجتماع والاقتصاد، وستبذل مجهودات ليكون هذا الملحق منبرا لجميع المتعلمين ليتجهوا بأمتهم نحو نهضة عامة المظاهر ثابتة الدعائم تستمد قوتها من ماضي المغرب القويم والآمال المعقودة على مستقبله. ولا ريب أن مشروعا كهذا يتطلب قبل كل شيء تظافر العناصر المستنيرة لخدمة صادقة، وهذا ما دعى هيآة هذا الملحق أن تتقدم إلى حضرتكم راجية منكم المساهمة في تحريره وإبداء ما لديكم من اقتراحات وملاحظات لتسترشد بها ولتوفق في عملها، وبذلك يحرز هذا الملحق الفكري على رضى جميع المثقفين في قطرنا ويكون صورة من العقلية المغربية في الخارج والسلام.

المدير سعيد حجي

رسالة من سعيد حجي إلى الأستاذ عبد الله كنون يخبره بقرب استئناف صدور جريدة المغرب راجيا منه مساهمته العلمية فيها (18 يونيه 1938)

حضرة الأستاذ عبد الله كنون الحسيني

السلام عليكم

وبعد، فإن جريدة « المغرب » ستستأنف صدورها ابتداء من 24 الجاري، ونظرا لما

قدمتم إليها سابقا من خدمات استطاعت بفضلها أن تتقدم وتنتشر انتشارا كبيرا، فإن هيأة تحريرها تتشرف بأن ترجو من أخوتكم مساعدتها مرة ثانية خدمة لمبدئها الوطني المشترك وسعيا وراء خدمة المجموع المغربي خدمة صادقة.

وإننا لننتظر مراسلتكم ومقالاتكم في القريب لندرجها في الأعداد الأولى.

وتقبلوا أزكى عواطفنا والسلام.

سعيد حجي

رسالة من سعيد حجي إلى الأستاذ عبد الله كنون يخبره فيها بأن جريدة « المغرب » ستستأنف صدورها من جديد و راجيا منه مساهمته العلمية في عددها الأول.

أخي العزيز الأستاذ السيد عبد الله كنون

تحية قلبية،

وبعد، فإن جريدة « المغرب » تستأنف صدورها بعد عيد الأضحى مباشرة، ولست أطلب منكم المساهمة في تحريرها، فإنكم من الذين خطوا لها طريق الحياة عندما صدرت، فهي مشروع من مشاريع الجيل المغربي، وستكون في المستقبل - كما كانت في الماضي - منبر الشباب الذي يشعر بواجبه نحو بلده، ولكني أرجو أن يكون لقلمكم أثر في عددها الأول.

وإني لمغتبط أن أعلن لكم أن ظهير المراقبة على الصحافة العربية لم يجدد، وأنتظر رسائلكم وملاحظاتكم وجميع ما يمكن الجريدة من أن تؤدى مهمتها على أحسن وجه.

وتقبل ود أخيك

سعيد حجي

رسالة من سعيد حجي إلى الأستاذ عبد الله كنون يخبره بأن أسرة « الثقافة المغربية » تعتزم استئناف إصدار الأعداد الممتازة الخاصة بالمسائل الفكرية (13 دجنبر 1940)

حضرة الأخ العزيز الأستاذ الكبير السيد عبد الله كنون

تحية قلبية،

يسرني أن أحيط أخوتكم علما أن أسرة « الثقافة المغربية » عزمت على استئناف إصدار الأعداد الممتازة الخاصة بالمسائل الفكرية مرتين في الشهر. وإن أخا مخلصا مثلكم يعد في طليعة المثقفين المغاربة الذين أدوا أجل الخدمات للفكر المغربي يدرك حق الإدراك ضرورة تعاون المثقفين جميعهم تعاونا متينا لتكون تلك الأعداد في الطريق التي رسمت لها. فلست الآن بصدد الرجاء من أخوتكم المشاركة في تحرير تلك الأعداد، فليس مثلكم من ينبه إلى ذلك، وإنما حسبي الإخبار نيابة عن الأسرة التي تفتخر كل الافتخار بعضويتكم العاملة ومؤازرتكم الثمينة منذ صدر العدد الأول من الملحق الأدبي لجريدة « المغرب ». وإذا كانت بعض الظروف قد حالت بين أثاركم المتعة وبين الأعداد الممتازة التي صدرت خلال السنة الحالية، فإني يسرني أن تكون عوامل تلك الظروف قد ذهبت بذهاب تلك الظروف ولم يبق أمام أسرة « الثقافة المغربية » إلا القيام بواجبها الثقافي المحض الذي رسمته لنفسها منذ كونت نفسها.

يصدر العدد الممتاز في أول منتصف كل شهر حافلا بأثار المثقفين، لذلك تود أسرة الثقافة من أخوتكم أن يكون لقلمكم السيال أثر في تحرير هاته الأعداد، وتلح بصورة خاصة أن يكون ذلك في العدد الممتاز المقبل.

وفي انتظار مقالتكم وملاحظاتكم تقبلوا يا حضرة الأخ العزيز أزكى تقديرات الأسرة.

عن أسرة « الثقافة المغربية »

سعيد حجي

وفي رسالة بعثها الأستاذ عبد الكريم غلاب إلى سعيد حجي بتاريخ 23 ربيع الأول 1356 موافق ثاني يونيه 1937 كتب محررها بعد البسملة ما يلي:

« تأبين الرافعي بفاس »

حضرة الفاضل المحترم الأخ الأديب السيد سعيد حجي،

تحية وسلاما،

أما بعد، فمراعاة لما قام به فقيد العروبة والإسلام الأستاذ الكبير والكاتب العبقري مصطفى صادق الرافعي من خدمة جليلة نحو الإسلام والأدب العربي ودفاع مجيد عن لغة القرآن، وقضاء للواجب الذي تفرضه علينا الأخوة العربية من مشاركة أبناء العروبة في أفراحهم وأحزانهم ، رأينا من المؤكد علينا أن نقيم مأتم تأبين بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاة الراحل العزيز نظهر فيه مبلغ تأثرنا ومدى حزننا لموت هذا الفقيد العظيم تغمده الله بواسع الرحمة والرضوان.

وسنقيم هذا المأتم يوم الخميس 24 يونيه 1937 بفاس. وبما أنكم من الذين يقدرون الفقيد قدره ومن خير من يقومون بهذا الواجب الأدبي له فإنا نرجو مشاركتكم الأدبية بما تجود به قرائحكم نحو رجل الشرق الراحل مؤملين وصولها إلينا قبل 22 يونيه، ولكم الشكر سلفا.

عن لجنة التأبين عبد الكريم غلاب

وهذه رسالة من الأستاذ محمد ابا حنيني إلى سعيد حجي حاملة لتاريخ 18 رمضان 1356 موافق 22 نونبر 1937 جاء فيها ما يلي:

الحمد لله

صديقي العزيز،
أطال الله بقاءك وسلام عليك ورحمة الله

وبعد، فلا حاجة بي إلى الإعراب لك عما يخامرني من شوق إليك وإلى صديقنا الحاج أحمد بن عمر ومن رغبة في استيناف ما سلف لنا ولو برهة وجيزة من الاستمتاع بنظائر تلك الأيام الخالدات.

هذا وقد اتصلت « لين » بصديقتنا مدام فايول على طريق التليفون واستنجزتها الوعد المبذول، فذكرت أنها ستكون بالرباط يوم السبت المقبل 23 رمضان وأنها ترجو أن لا ترى أنت من بأس في أن يكون هذا اليوم يوم اجتماعنا المقرر. وعليه، فإني أنتظر أن تخبرني بمصادقتك على هذا البرنامج أو عدم مصادقتك، وبما تراه أنت إن كان لك رأى غير هذا الرأي ليمكن إطلاع الصديقتين على ما تقرره وتراه. فإن كان اليوم الذي عينته مدام فايول موافقا لك، فالرجاء أن تعجل بإبلاغي الخبر وأن تنتظرنا بباب سلا المواجه لمحطة الحافلة قبل أوان المغرب بقليل.

سلم مني على أخيك سيدي عبد المجيد وعلى الحاج أحمد بن عمر وعلى محض المودة والسلام

محمد ابا حنيني

بين الفكر والوجدان

هذه مجموعة رسائل بعثها السعيد إلى بعض أصدقائه أورد الأستاذ أبو بكر القادري احداها في فصل تطرق فيه إلى « الصداقة لدى السعيد » في كتابه عن « سعيد حجي » (ج 1 ص 135 - 136) وأتى بنتف من رسائل أخرى ضمن مقدمته للجزء الثاني من الكتاب المذكور (ص 10 وتابعتها) .

يقول سعيد في الرسالة الأولى :

الحمد لله

صديقي العزيز،

بالأمس فقط تعارفنا واليوم أريد أن أخطط لك بعض إحساسات خالجتني منذ أول لحظة ارتبطت فيها روحانا، وسأكون معك يا صديقي كريما، فلا أخفي عليك ما يخفى عادة في الوهلة الأولى للتعارف بين الأصدقاء، فقد وجدت فيك شخصا يتمم شعوري بالحياة وإدراكي لما فيها من مقاييس وصور؛ لم أكن من المؤمنين أن حب الصداقة ينقش على سويداء القلب في أول نظرة أو محادثة حتى عشية الأمس، حتى رأيتك فحادثتك فارتسمت صورتك في ذاكرتي وتعاهدنا أن نكون روحا في جسمين فلنسر فأمامنا السهل والجبال، وما الحياة إلا السهل والجبل.

كان حديثنا عشية الأمس وعشية اليوم حديث من يصعد للسماء وهو لا يأبه بالسماء ويريد غير السماء، فطوينا طرقا واجتزنا مسافات في ميدان التقارب بيننا في أسمى معانيه، وقد تلمست نبضاتك فإذا أنت ذلك الشخص المجهول في عالم الخمول كل ما فيه، وإذا أنت تعمق إلى حد غير محدود وتغور في طبقات من المعاني القوية فلا تجد من يمد لك يد المساعدة في جهادك إلا رفيقا واحدا هو نفسك هو الشعور الفياض الذي أراه

يتدفق منك ولا يجد فيك مخرجا إذ ينحبس في أعماق صدرك، فإذا بك حائر، وإذا بك قانط تغمرك الحياة، وأنت في أعماقها بما فيها من متضاربات ومتناقضات، فتريد أن تتساءل عن كل جزئية وتبحث كل جزئية، فيخيل إلى أن دورانا يلمس عقلك في هذا العالم اللجب وأنت تحاول ما تحاول دورانا هو جسر يمر عليه الإنسان ذو العقلية النيرة، ليصل إلى مستقر هو جوف الأرض، ولكنه لا يتناول الأرض وما حوت وكيف حوت ما حوت.

والآن وأنا أراك مضطرب البال حائر الاتجاه شارد الذهن عميق المحاولات لا أرجو منك إلا رجاء واحدا هو أن تتخذني صديقا في ملماتك النفسية، فأنا أيضا تعجبني تلك الدورات التي يقوم بها الفكر دون أن يهتدى إلى شىء يسمى في العالم الإنساني بالحقيقة فنتعاون يا صديقي الجديد العميق في أغوار نفسي على أن نجتاز ما نجتاز من هذه العقبات في ثقة واطمئنان.

فهذا الجو الذي نعيش فيه جو مسموم بنار الجهل والانهماك فيما لا نريد، وإذا أردناه يوما فإن ضميرنا سيوالي ضرباته الحديدية على نفوسنا الحساسة، فخير لنا نحن الذين نفكر ونتطاول بتفكيرنا إلى مجهول وراء مجهول أن نستعد لنريح أنفسنا وإلا خسرناها في ميدان متلاطم الأمواج عسير السبل منحط الإدراك، فالفرار فالفرار حيث يلجأ كل منا إلى الآخر ليقوى عزمه ويشد أزره فيسيران أو يسيرون إلى ملتقى يقف عنده كل من يسعى في الحياة بتعمق ويزيل عنه كل اعتباراتها الوهمية وبواعثها الواهية وصورها المتشابهة ليدخل إلى مكنونها ونقطة ارتكازها. وأنا الضمين لك يا صديقي أننا إذ ذاك سوف لا نشعر بغربة ولا حيرة مما تشعر به الآن ومما شعرت به في وقت من أوقات حياتي الفكرية.

وأخيرا إني لا أريد أن أطيل رسالتي الأولى إليك إطالة قد لا يكون لها من معنى، ولكني أهمس في أذنك أني لعقلك وأن عقلك لي، وأختم رسالتي راجيا أن تتخذ من المراسلة سجلا لما في نفوسنا من ثورات عنيفة، وإليك من أخيك تحية القلب للقلب.

سلا في 25 يوليوز سنة 1934 أخوكم : سعيد حجي

ومن رسالة بعثها إلى أحد أصدقائه من لندن في شهر فبراير سنة 1936 يقول فيها:

منذ وصلت إلى لندن، أو منذ غادرت المغرب، لم تصلني إلا رسالتك الوحيدة، ومنذ وصلت وأنا أغتنم كل فرصة لأقرأها من جديد، وأتلذذ بكلماتها الموسيقية العذبة، وأجسم فيها شخصيتك المرحة، فتراني أجالسها كما لو أني أجالسك، ولي مزيد الشوق أن تكون رسالة أخرى منك في الطريق لتخفف عني أثار الغربة وآلام الانفراد، وأيضا لا تطمع أن أصف لك مشاهداتي في لندن، ولكني أؤكد لك أني أنظر إليها بعيني لا بقلبي، وأن قلبي ينظر بعيدا حيث ما ذكرت لك في رسالة أرسلتها لك ...

ومن أخرى، هذه الفقرات المعبرة عن تحرك عاطفته وتغلب إنسانيته عليه:

قضيت يوم الجمعة الماضي بمدينة برمنگهام للتفرج على قسم المعرض البريطاني الخاص بالآلات، وعندما رجعت بالمساء، وجدت عدة مكاتيب استعرضتها فوجدت رسالة منك، ففتحتها بلهفة وشوق عظيمين، ولكني ما كدت أقرأ منها بعض سطور حتى اصطدمت وكدت أقع على الأرض، لا أدري ما حولي، ولا أستطيع أن أجيب من يتكلم معي إلا بمشقة، ومن دون أن أعرف أصحاب الرسائل الأخرى، ولا أن أفكر في العشاء، خرجت في ليلة اشتد بردها، مضطرب البال، لا أدري أين تسير بي قدماي، ولا أرى ما أشاهد، ولا أعي ما أسمع، ولكن ما أحلى رسالتك! وأعذب كلماتك مهما كانت قاسية لم أستطع أن أتحملها، بل جعلتني شريدا في « لندن » أقطع المسافات العديدة دون أن أشعر بتعب ...

ومما كتبه في رسالة أخرى هذه السطور الدالة على تفتح قلبه وتدفق عواطفه:

أتدري أن رسالتك أصبحت لدى قرآنا أتلوه في أعماق الليل، حيث السكون يرفرف،

وحيث يموج البشر في سكرات النوم، وأتلوه في الصباح الباكر، حيث يسرع العامل النشيط إلى عمله، والتلميذ إلى مدرسته، والأستاذ إلى قسمه، والتاجر إلى تجارته، وأتلوه إذا أخذت القطار أو الحافلة، أو سرت على قدمي في وسط هذا البحر الزاخر، حتى أكاد أن أصطدم وأنا لا أشعر أن « فاه » الموت سيختطفني ولست أدري هل النعيم الذي سأدخله سيكون موازيا لهذا النعيم الذي دخلته منذ فتحت رسالتك بالأمس ليلا، لا أجيبك عن رسالتك، بل سأقرأها لا في سفرتي هذه فحسب، بل حتى في إقامتي بجانبك، ، وكلما قرأتها ستجيبك نفسي، وستخاطبك روحي، أنك أنا، وأني أنت. فإذا كنت منذ يومين قنوطا من الحياة، لا أدري ما أكتب، ولا كيف أعبر عن هذه الحالة النفسية التي لازمتني منذ عرفت أن رسالتي لم تصل إليك، فإني عاجز أن أشرح لك ما يموج بنفسي من الخواطر، ولا أن أصف لك هذا الجو الذي دخلته منذ حين، إذن، فالخلاصة أنني عاجز في الحالتين. وهكذا ترى أن نظرية « انشتين » قد تتحقق أيضا في دائرة نفسية محضة. فالحالتان خطان متوازيان، ولكنهما تلاقيا في نقطة من نقط النهاية التي نعبر عنها نحن البسطاء باللانهاية ...

الجزء الثاني

شهادات ودراسات حول سعيد حجي وإنتاجه الفكري

سعيد بن أحمد حجي السلاوي - 1942 - 1361

من كتاب « الأدب العربي في المغرب الأقصى »
تأليف محمد بن العباس القباج

كان حجي سعيد من الشباب اليقظ الواعي، والمتقد حيوية وحماسا، للبناء وإحياء الأمجاد، وإرجاع المكانة والسيادة، ومن الرعيل الأول في صفوف الكتلة الوطنية التي كانت تعمل في طموح. أخذ المبادئ الأولية بمسقط رأسه سلا، وبعدما شب وترعرع، رحل إلى الشرق العربي، فدرس بكليتى القاهرة وسوريا على عدة شيوخ. وأخيرا اتجهت همته لتعاطي مهنة الصحافة، وناهيك بها لمن يصدق فيها، ويقدر رسالتها وأماتها، وأثرها العميق في إيقاظ الشعوب، وإذكاء الوعي في الأمم. كان المترجم - سعيد - مثالا حيا في الحقل الوطني، نموذجا يحتذى بين أقرانه وأصدقائه، وغير خاف على قراء جريدة « المغرب » - التي أسسها - في تلكم الظروف العصيبة، والتي كان لجام الاستعمار الفرنسي الغاشم يكم أفواه الأحرار من أبناء البلاد، أقول غير خاف ما كان ينشره على أعمدتها من مقالات، وكلمات لها أثرها الفعال في نفوس الشباب خاصة وسواهم عامة.

من كلماته: « شغل الشباب المغربي نفسه عن الأدب، وشغلته بيئة موبوءة لا تتصل بها حتى تعديك، فتخر لها صريعا لا تعي، تفعل ولا تفكر في نتيجة ما تفعل، فالمفاسد التي تميت الروح، وتجعل من الجسم الإنساني جسما حيوانيا تعارض طريقك، وتقف في وجهك تنادي غرائزك، وتثير فيك أحط الانفعالات، فلا يقوى الشباب على التخلص منها لأن تربيته غير متينة، وثقافته سطحية، ولأن الأدب لم يحتل أعماق نفسه، فيدرك أن هناك حياة أسمى من حياته، وأن هناك حواسا أنعش للإحساس من هذا الجو المخنوق الذي

يتخبط فيه » . إنها كلمة تفيض حيوية ووعيا لا تعتم تهيب بقرائها للتقمص بمضمون عمقها عن يقظة؛ ثم بعد مرور سنة عن وفاته، أقيمت له ذكرى من أصدقائه ومعارفه ومقدريه تبارى فيها جماعة من الأدباء والشعراء بما جادت به قرائحهم في صدق؛

منهم المؤرخ الكبير محمد بن علي السلاوي قال: « عاد سعيد إلى المغرب عامر الوطاب، مملوء الصواب، مستكمل الأدوات، إلا أنه لم يرضه كل ذلك، بل أعز ما لديه أن يرى شعبه راقيا كالعالم الشرقي، وأبناء وطنه يتقدمون حماسا وطموحا إلى المعالي، فألقى نظرة على الجيل المغربي والوطن العزيز، فوجد الكل في غيبوبة عما يستقبله، وفي غفلة عما ينتظره، فأخذ العهد على نفسه أن يعمل بجد واجتهاد لافاقة النائم، وتنبيه الكسلان الخامل، فسار على مهل، ودأب ناصحا واعظا، واستمر يكد نفسه ويجدها ليريح غيره، فما زال يتحمل أثقالا، وينحت من الطباع الثقيلة جبالا، حتى تعبت روحه، وحمل فوق طاقته، فأدى ذلك إلى تعب نفسه، وانحراف صحته، وكان أمر الله قدرا مقدورا » .

ومنهم الأديب الشاعر عبد القادر حسن قال: « لقد عشت يا سعيد كثير الثقة في نفسك، كثير الثقة في ربك، كثير الثقة في أعمالك كلها، وكذلك المؤمن الراسخ الإيمان يغمر الله قلبه بنفحة من قوته، فإذا هو دائب في أعماله في ثقة كاملة لا ينخذل ولا يضعف، سعيت وسعيت، وحبرت البرامج، وصادفت بعض النجاح، ولكن آمالك كانت دائما تسبق سعيك، ولا بقدر برامجك، ولا بقدر نجاحك، ولكن بقدر آمالك وأمانيك » .

نم أيها البطل الكريم على الثرى ... متواضعا لله غير جبان

واترك سبيل الهم فيما تبتغي ... فكفاك ما قاسيت من أشجان

في ذمة التاريخ ما قدمت من ... سعي وما قد شدت من أركان

أبقيت للتاريخ ذكرا خالدا ... وكفاه فخرا بعد للإنسان

وكم أثنى عليه من كاتب وأديب وشاعر بما تضيق عن إثباته هذه العجالة من حياته المليئة بالحيوية والنشاط. وافاه الأجل سنة إحدى وستين وثلاثمائة وألف هـ موافق عام 1942 م

الاحتفال بذكرى الأربعين

المغرب

السنة السادسة عدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

هيأة التحرير

مساء يوم الأحد الفارط وقع الاحتفال بقاعة المامونية بالرباط بذكرى الأربعين لتأبين فقيد الصحافة والشباب المرحوم سعيد حجي.

وقد شارك في هذا الاحتفال المهيب جميع الطبقات من العدوتين، وقدمت إليه الوفود من جميع النواحي ، من وجدة وفاس ومكناس والقنيطرة والدار البيضاء والجديدة ومراكش الخ.

وقد افتتحت الحفلة بآيات من الذكر الحكيم أوحت إلى النفوس العبرة والموعظة. وقام الأستاذ محمد الفاسي رئيس لجنة التأبين فألقى كلمات عن حياة الفقيد وعن بعض أعماله ومآثره في ميادين الصحافة والأدب. وبعد ذلك تعاقب الخطباء والشعراء فألقى العلامة المفتي السيد أبو بكر زنيبر كلمة مسهبة عن الفقيد عنوانها « سعيد في أطوار حياته » ؛ ثم قام الأستاذ أبو بكر القادري بالنيابة عن المؤرخ الشهير السيد محمد بن علي الدكالي فألقى كلمة عنوانها « موت عظماء الرجال خطب جلل » ؛ ثم ألقيت كلمة للأستاذ الهاشمي الفيلالي ناب عنه في إلقائها السيد محمد البقالي عنوانها « سعيد الصديق » ؛ ثم ألقيت قصيدة للأديب السيد ادريس الكتاني كان لها وقع كبير في النفوس؛ ثم ألقى

الأديب السيد عبد الغني سكيرج قطعة حية مؤثرة أسالت العبرات؛ ثم ألقيت كلمات وقصائد لمختلف الكتاب والشعراء يطالعها القراء في هذا العدد.

وختمت الحفلة بكلمة شكر وجهها رئيس لجنة التأبين إلى السادات الذين شاركوا بكلماتهم أو بحضورهم لتلبية نداء هذا الواجب نحو الراحل الكريم، واعتذر عن عدم إلقاء بعض ما وصل للجنة من كلمات وقصائد نظرا لضيق الوقت.

وبعد ذلك قصدت الوفود قبر الفقيد بضريح الولي سيدي أحمد حجي بسلا، فترحمت على روح الفقيد الطاهرة وتليت آي من الذكر الحكيم.

واجبنا نحو سعيد

المغرب - عدد خاص بذكرى الأربعين

السنة السادسة - عدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

قاسم الزهيري

أمس أقيمت حفلة التأبين لفقيد المغرب المأسوف على شبابه ومواهبه المرحوم سعيد حجي في مظاهرة كبرى نظمتها جماعة من أصدقائه وشارك فيها عدد جم من إخوان الفقيد بكلمات في مواضيع شتى تناولوا فيها نواحي الفقيد الممتازة، فنوهوا ببعض ما جبل عليه من دماثة الخلق وبعد النظر والإخلاص في العمل والزهد في الشهرة مع تواضع جم، فهرع جمهور غفير من الناس من مختلف أنحاء المغرب معربين عن حبهم لشخصية الفقيد وتقديرهم لأعماله، وبذلك أدى كل من إخوانه وأسرته الأدبية ومواطنيه بعض ما يتقلدونه من واجب نحو الفقيد، وبذلك اكتست الحفلة صبغة لا نغالي إذا دعوناها بصبغة الاعتراف.

فأسرته الأدبية المباشرة قد تحررت من بعض واجبها نحو فقيدها الثمين بمحافظتها على مشروعاته القيمة التي جعلها وقفا على خدمة هذه البلاد العزيزة آخذة على نفسها القيام جهد المستطاع « بالعبء المجيد » الذي خلفه لها.

وقد أدى أوفياء الفقيد بعض ما يفرضه الواجب عليهم نحوه بإشفاقهم على مشاريعه والمواظبة على المساهمة فيها كما كان الشأن قيد حياة سعيد رحمة الله عليه، وبإقامتهم

حفلة التأبين برهنوا على مكانة الراحل العزيز منهم وتقديرهم لما أسدى لمجتمعه من أعمال كان دوما رائده فيها المصلحة العامة وخدمة شعبه بتفان وإخلاص، وهاهم أولاء يقدمون اليوم هذا العدد بين يدى القراء وكله اعتراف بمآثر المرحوم وقول حق في جانبه.

أما المواطنون الكرام فليست هذه أول مرة يبدون فيها دلائل عطفهم نحو الفقيد، فقد شاهد أثناء حياته الشيء الكثير من ذلك، وكان يوم مأتمه يوم حزن عام بجميع المدن والقرى والأصقاع التي سبقته شهرته إليها، وقد أدوا أمس بعض واجبهم للمرحوم بشخوصهم بأنفسهم للحفلة التأبينية.

ولن يؤدى كل من إخوان المرحوم وأسرته الأدبية ومواطنيه واجبهم على وجهه الأكمل إلا متى ظلوا متحدين متآزرين - كل من ناحيته - قصد النهوض بمشاريع الفقيد وإنجاز أمانيه وآماله التي قصرت حياته رحمه الله عن تحقيقها بنفسه، فواجب المساعدين المباشرين للفقيد أن يبقوا كتلة متراصة تؤلف بين قلوبها أوشاج الإيخاء وروابط العمل الخالص لفائدة البلاد، وواجب الأسرة الأدبية التي كونتها إرادة المرحوم أن تنير السبيل وتسدى النصائح وتساهم في العمل المجدي، لا تبغي من وراء ذلك سوى مصلحة الأمة ورقيها، وواجب المواطنين الكرام أن يقدموا عوامل تشجيعهم في سخاء للقائمين بأعمال سعيد.

فالوفاء بواجبنا نحو سعيد ليس في الحقيقة إلا وفاء لبلادنا وللمصلحة العامة التي كانت ديدانه.

كلمات خالدة للفقيد

المغرب - عدد خاص بذكرى الأربعين

السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 - 29 أبريل سنة 1942

فقيد المغرب والشباب المرحوم سعيد حجي

... على أنه لا ينكر أن التربة المغربية هى من أجود الترب وأنها مهما قسا الدهر عليها تنبت نبتا طيبا يوتى أكله في أسرع وقت وبقليل من المحاولات الفعالة؛ فالمغرب في ماضيه لن يعرف العقم ولم تخل أرضه من مفكرين بارزين وجمهرة من متعلمين نابهين، وهو في دوره الحاضر لا يدعو إلى يأس ولا إلى تشاؤم من نهضة فكرية عامة ولكن يدعو إلى التفكير في تلك النهضة وتلمس أسبابها والسير بها خطوة من خطوات التوفيق.

7 أبريل 1938

... فليست المدنية المغربية تقل في أي مظهر من مظاهر التمدين عن المدنيات الإسلاميات الأخرى إن لم تفق بعضها، ففي الماضي المغربي فكر مغربي وإحساس مغربي يمكن إذا درس أن يكون بعثا للحضارات المغربية ... ففي الماضي المغربي فكر مغربي استطاع أن يتصل بالفكر الإسلامي العام ويولد ما يبهر العقول في التشريع والفلسفة والطب والرياضيات ويستنتج في الاجتماعيات ما هو معجزة لمدنية الإسلام.

14 أبريل 1938

... الأدباء هم الذين يجرؤون على صيحة تردد أصوات الغابرين من أجدادنا العظماء وتفصح عن الآمال المنعشة التي تدور في خلد المصلحين اليوم وترمز للمجهودات التي سيبنى عليها مصيرنا في المستقبل. 28 أبريل 1938

... شغل الشباب المغربي نفسه عن الأدب أو شغلته بيئة موبوءة لا تتصل بها حتى تعديك فتخر لها صريعا لا تعي ما تفعل ولا تفكر في نتيجة ما تفعل، فالمفاسد التي تميت الروح وتجعل من الجسم الإنساني جسما حيوانيا تعارض طريقك وتقف في وجهك تنادي غرائزك وتثير فيك أحط الانفعالات، فلا يقوى الشباب على التخلص منها لأن تربيته غير متينة، ولأن ثقافته سطحية، ولأن الأدب لم يحتل أعماق نفسه، فيدرك أن هناك حياة أسمى من حياته وأن هناك حواس أنعش للإحساس من هذا الجو المخنوق الذي يتخبط فيه.

5 ماى 1938

... جميل أن نحافظ على عاداتنا وتقاليدنا غير المضرة والمخجلة، ولكن يجب قبل ذلك أن نعيش في عصرنا وأن نغير حياتنا لنصيرها خاضعة للتطور البشري العام، وبذلك لا غير ندفع عنا تهمة الجمود.

2 يناير 1938

... ولكن الأمة لا تهض نهوضا صحيحا إلا إذا تطورت جميع مرافقها واستجمعت جميع قواها للعمل للمستقبل بعدة جديدة واتجاه صحيح ينبني على دعائم ثابتة ونظريات حديثة، بل إن نهوض الأمة لا تتأصل جذوره إلا بانقلاب عميق في حياتها الفكرية.

10 فبراير 1939

... فويل لأمة لا تقدر التعليم ولا تعمل في سبيل تقويته، وويل لشعب ينفق عن سخاء في أي سبيل سخيف ويبخل بدريهمات معدودة لمشروع ينقذ أفراد الأمة من جو الجهل الخانق.

16 يونيه 1938

سعيد في أطوار حياته

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأربعين

السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 - 29 أبريل سنة 1942

العلامة أبو بكر زنيبر

لو قدر لي أن أكون شاعرا خياليا أو رساما فنانا وطلب مني أن أمثل روح النشاط في الشباب لما عدوت تصويره بينهم بشعلة ملتهبة شبت في قلوبهم فملكت عليهم سائر الحواس والمشاعر، ولو طلب مني مع ذلك أن أصف خفة روحهم وسرعة استجابتهم لمقتضيات الحوادث وتطورهم مع الزمان والمكان لما تجاوزت بالطالب الربح المرسلة. ولو قيل لي ثالثا أين وجدت هذه الخصال كلها لما توجهت بقلبي وقلبي إلى فقيد المغرب المحبوب من كافة الطبقات سعيد حجي رحمه الله، وقلت ها هنا اجتمعت وما اتفقت لأحد غير سعيد، وما أدراك ما سعيد، تفضلت به الأيام بعد شح منها بأمثاله في الأزمنة المتطاولة. ألم يكن أول باعث لحركة الشباب من مرقدها؟ ألم يكن طليعة من أوقد جذوة نارها؟ بلى هو ذلك الشاب النشيط، ولو تقدم بحركته هذه زمنها بكثير لقلت فيه إنه ذلك الصبى المحنك، والتحنيك في الصبيان من المعجزات، إذ بدأ حركته هذه وهو دون سن العشرين من حياته، وقبل أن يتعاطى الدراسة المهمة خارج وطنه.

فقد ولد فقيدنا رحمه الله في رابع ربيع الثاني سنة 1330 الموافق 23 مارس سنة 1912 وتزعم هذه الحركة المباركة في ثاني ربيع سنة 1349 الموافق لسنة 1930 . ولم تطل إقامته بالمغرب بعد ذلك حيث ترك استتمام الحركة لغيره وعمل لرحلة للمشرق لمزاولة العلم هناك، فدخل كلية بيروت ثم جامعة دمشق ثم جامعة مصر، ولما قضى منحته من ذلك أخذ السير راجعا لبلاده موطنا العزم على العمل على ترقية وطنه، وما سلم حتى أخذ في العمل من أجل ذلك فأتم أيام حياته وكلها جهاد في شأن وطنه إذ قارع الحوادث

والخطوب بسيفي العزيمة والصبر حتى خر صريعا مجالدا في ساحة الشرف والعزة، والله لا يضيع من أحسن عملا، والموت باب وكل الناس داخله. ليس وجدنا من أقطاب الشبيبة من هو أصلب من سعيد عودا وأشد شكيمة وأقوى مراسا على الحوادث والأيام، فقد وجدناه هو يفوقهم فيما كان المغرب في حاجة إليه، أكثر من ذلك وجدناه يفوقهم في سرعة التطور للمصلحة والتقلب بمقتضيات الحوادث وفي ابتكار المشاريع المفيدة.

ما أظن الصحافة التي يمتهنها كافة المغاربة اليوم ويرتزقون منها إلا في صحيفته وبحسن سلوكه وسياسته إذ قد قرعنا هذا الباب قبله بأزمان وقرعه غيرنا فلم يفتح لأحد منا؛ فلما رجع سعيد من دراسته وهو ممتلئ عزيمة وإيمانا أن لا شيء من المستحيل أمام صدق النية والإخلاص في العمل وعمل الأسباب المفيدة في فتح هذا الباب، انفتح له ولغيره دفعة واحدة ، وكان رحمه الله قد حدثني أثناء حديث دار بيننا يوما من الأيام أنه كان يتعاطى الدراسة بالشام مع مدير مجلة الأمالي الآن بالشام، ولما انفصلا عن بعضهما عقدا النية على أن يقوما بمهنة الصحافة لفائدة وطنهما فحققا أملهما في ذلك.

وبعد ما خاض رحمه الله معمعة الصحافة وقف اجتهاده وتفكيره وسن المصلحة العامة فلم يتخذ حرفته مهنة للاتجار والارتزاق إذ مر عليه زمان ليس بالقصير وما أظن أن مداخيله توفي بمصاريفه، بل ما أظن المصاريف إذاك إلا تضاعف المداخل لقلة إقبال الناس على الصحافة حينذاك وكثرة المصاريف التي يستدعيها التأسيس والإنشاء، ومع ذلك فقد كان واثقا من نفسه ومن أعماله، يتلقى الصعاب التي تعترضه في سبيله بجنان ثابت وصدر رحب ووجه طلق غير مكترث لها ولمشقتها حتى أثمرت أعماله أيما اثمار.

ومن شدة حرصه على الفائدة لقومه أنه نوع صحافته إلى نوعين: نوع للأخبار وما شاكلها، ونوع للتهذيب الفكري الذي سماه في ابتداء أمره (ملحق المغرب) وآخرا (الثقافة المغربية) واستعان بكثير من الكتاب المغاربة على تحريره؛ ثم انهمك في إدارتهما وتحريرهما معا وشغل بهما جل أوقاته وتفكيره؛ فكان يزورني رحمه الله في

بعض الأحيان لهذه الغاية فألاحظ منه التقشف في جسمه وملبسه مع أنه كان من عائلة كريمة موسرة، وأتحدث مع والده فيخبرني أنهم يعرضون عليه بالدار ثيابا فاخرة المقصب بالحرير وغيره فيأبى ذلك. فيذكرني حاله رحمه الله من سيطرة اهتمامه بأمر وطنه عليه ما كنت قرأته في بعض المجلات وتحمس الشباب ببعض الأقطار وعن أعمالهم في سبيل نهضة بلادهم وتركهم الملاذ من أجل ذلك، وذلك أن بعض الكتاب بهذه المجلة ذكر أنه بينما كان بأنقرة عاصمة الأتراك استوقفه شاب قصير القامة عريض ما بين المنكبين يلبس لباس الكشافة وبيديه كتلة كبرى من الجرائد وجبينه يتصبب عرقا في شدة القر من تعب التطواف بتلك الجرائد، وقال له: هذه جريدة الشباب يا سيدي، فهل لك أن تشجعنا باتباع نسخة، إننا نحن الشباب نقوم بتحريرها والإنفاق عليها وتوزيعها على الناس في سبيل تعزيز فكرة الشباب فهل لك بنسخة. قال: ثم مرت بي أيام وإذا بي أنا بالقطار ألتقي مع ذلك الشاب نفسه وإذا بهيأته وركوبه الدرجة الأولى وأكله الدجاج وتوزيعه الحلواء على رفقائه في السفر يدل على أنه من أكرم عائلات قومه وأيسرها.

ولقد كان فقيدنا رحمه الله يحب النظام والتطور على مقتضى سنن النشوء والارتقاء فكان يبدئ أعماله وهى صغرى بسيطة ثم يتدرج فيها إلى أن تكبر وتنمو أشد نمو، ولذلك لم نر له فشلا في أعماله قط، وذلك كجريدته « المغرب » حيث ابتدأها في كاغد رديء ثم صار يتدرج فيها من طور إلى طور إلى أن اشتد ساعدها وصارت يومية تصدر في الكاغد الذي يصدر به سائر الجرائد بالمغرب، وكـ (ملحق المغرب) حيث كان يصدر في أوراق بسيطة من الورق الرديء وفي غلاف بسيط رديء ثم صار الآن بدله (الثقافة المغربية) تصدر في ورق حسن وسندام حسن، وكمطبعته حيث ابتدأ عمله فيها بشراء مطبعة صغرى مستعملة على قدر حالة جريدته وحاجتها في ابتداء أمرها وما زال يتدرج فيها وفي تحسينها إلى أن حصل بالشراء على مطبعة تعد أكبر المطابع العربية ومن أكبرها بالمغرب، وبعد أن كانت مطبعته الصغرى التي كانت في سلا بموضع بسيط مهمل للغاية

لا تتجاوز مساحته الخمسة عشر مترا ولا يتسع لأكثر من عاملين أو ثلاثة انتقلت لفسحة المامونية بالرباط التي تعد من أكبر الشوارع وأهمها بالعاصمة وموضع الحركة المهمة منها وصارت تعمل بإزاء مطبعته الكبرى هناك وشغلا معا مكانا فسيح الأنحاء متسع الأرجاء يعمل فيه عدد وافر من العمال، وصار مطبعة عامة للجريدة وغيرها، وكمكتبته للجريدة حيث اتخذه أولا بسيطا بعمارة لوالده بفسحة سيدي التركي من مدينة سلا، ثم انتقل به إلى عمارة كبرى خارج باب فاس أحد أبواب سلا، وما زال بها إلى أن انتقل إلى شارع دار المخزن أهم شوارع العاصمة الرباطية فاتخذ مكتبه هناك إلى أن ختمت أنفاسه الطيبة.
ومع ما ذكرناه من حكمة التدرج في أعماله فقد كان أيضا حكيما في اجتذاب القلوب إليه وتحببه للناس وتحبيب الناس إليه حتى التف حوله الكثيرين من خيرة شباب المغرب من محررين في جريدته وكتاب ومنظمين وطابعين وبائعين وغيرهم، وبالجملة فقد كان فقيدنا حكيما في أعماله موفقا فيها ولذلك كانت مهامه لا تخطئ الغرض منها.

والآن ونحن أمام أمر الله الذي لا مرد له فيه والذي لم ينفع معه علاج الأطباء ولا عزائم الراقين وإنما نفع فيه صبر الصابرين وكظم غيظ المصابين ينبغي لنا ولا سيما لأسرته وأسرة شباب المغرب أن تتدرع في شأنه بالصبر الجميل وأن يهب الجميع ما كان يناط منه من النفع المعنوي في شأن وطنه لله الواهب تلك الفضيلة إليه وأن يتمموا بعد مماته ما كان بدأه من الأعمال في حياته وأن يسيروا على الطريق المستقيم الذي كان يسير عليه، وأن ينهضوا بكل من جريدته ومجلته نهضة قيمة، فإنا قد أحسنا بعد مرضه بما أصابها من الفتور والضعف في الجملة لا سيما المجلة، وأن يرجوا له من الله أن يدخله في زمرة قوله تعالى (يستبشرون بنعمة من الله وفضله والله لا يضيع أجر المومنين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) .

موت عظماء الرجال خطب جلل

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأربعين

السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

المؤرخ محمد الدكالي

هذه كلمة جرت بها الأقلام في تأبين عزيز علينا قريب لدينا سقت ضريحه سحائب الرحمة من الملك العلام.

على الدنيا السلام فلا سرور	**يدوم بها ولا حى بباق**
ولا وصل يطول ولا اجتماع	**ولو طال المدى فإلى افتراق**
أما أبصرت ما مر واتباعا	**من الترحال في شبه اتساق**
كأن القوم ركب قد تنادوا	**فهلموا للرحيل على وفاق**
فلبى السابقون نداء عزم	**وسار اللاحقون ذوي سباق**
وهذا مفخر الشبان ولى	**إلى دار الكرامة والتلاقي**
على فقد السعيد الفرد حزني	**يطول بطول حسرات الفراق**
ويجري من أعيني نهر دمع	**يبرد ما ألاقي من احتراق**

إن موت الأحباب رزية، وفقدان الجواهر الثمينة مصيبة وانتقال الرجال العظماء إلى دار البقاء خطب جلل. وإن فقيدنا المفدى تعلمون مكانته من المجتمع الإسلامي المغربي وما كان يقوم به من الأعمال العظيمة ويتحمله من المشاق الجسيمة سعيا وراء الصالح العام، واجتهادا في أن ينال المغرب وأبناؤه من نور العلم والعرفان كل مقصود ومرام.

وإن تلك النفس الكريمة والهمة العظيمة ذات الطموح إلى المعالي والتشرف إلى الشرف والسؤدد كانت من مواهب الله لفقيدنا العزيز، فهو نادرة من نوادر عصره، والنوادر إنما تجود بهم الأعصار على قلة، وفي غرابة أطوار، وشذوذ طباع، وتباين أخلاق بين أولئك النوادر وأهل عصرهم الحاضر. وذلك أشبه شيء بالنبوغ الذي كان يقع في قبائل العرب ينبغ بينهم الشاعر على بغتة فيأتيهم بالعجب من أشعاره وأقواله فتسود به قبيلته ويعتز به قومه ويفخرون به.

وإن العناية الإلهية حبت هذا السيد سعيد بمواهب عظيمة اختص بها دون سائر أقرانه من بني جلدته، فهيأته الأقدار منذ صغر سنه إلى حمل رسالة النهوض إلى المعالي والسعي إلى مدارج الرقي والكمال العلمي والأخلاقي والسباحة في بحار علوم العمران والحياة ذات الأطوار المتناقضة والجولان في المعلومات الكونية واقتطاف أثمارها اليانعة، والافضال على بني عصره من أهل وطنه وسواهم بما اختاره من تلك الثمار الناضجة الحلوة اللذيذة الطعم، السائغة المذاق، ففيما أملاه طول حياته بأقلامه على لسان الجرائد العامة والمجلات من أقوال عجيبة ونصائح غريبة وإرشاد إلى اطراح الخمول وتنبيه على الأخذ بكل ما ينفع الحياة في الحال والاستقبال، وترك السفاسف ومجانبة زخرف القول واتباع الصدق في الأعمال والأقوال، ما يدل على عظيم همة الفقيد وشرف روحه رحمه الله، فإن الرجل كان في أقواله واعظا مرشدا والناس عنه في غفلة من توقد نار غيرته على أمته وأسفه على ضياع الأموال والعقول والأخلاق والتربية في غير طائل، وطالما أبدى عجبه رحمه الله من هذا السبات العميق الذي أقام فيه المغرب غير شاعر بأمراضه وعلله وغير ملتفت إلى تلافي الحال باستعمال طرق العلاج النافع ألا وإنه العلم الصحيح الذي يداوي أدواء الجهل البسيط والمركب، فكنت تراه - جدد الله عليه سوابغ الرحمة - حيران مفكرا فيما يوصل إلى علاج الشعب وتلافي أمراضه ، ولم يكن لديه دواء نافع يكافح به داء الجهل إلا مقالاته الإرشادية وعظاته النافعة المتواصلة التي كان يفرغها في قالب الأقوال

الجرائدية السيارة والمجلات الطائرة بأجنحة البريد إلى أقطار الإقليم وبلدانه ، فقد أسمع الصم ووعظ العمي وقرع الغافل وأشعر الذاهل المنغمس في دنياه بما يحيط به ويترصده من عواقب الجهل والغرور ومصائبهما وطالما نادى لو أسمع حيا.

فإن قيل إن انفراد هذا السيد بهذه المزايا العجيبة والخصائص النفسية الغريبة مما يبعث على العجب إذ نجد له أقرانا وخلانا وأصحابا من بني عصره في سنه ورفاهية عيشه ومشاركته في تعاطي معلوماته ومعارفه، ولكنا نجد الفرق بينه وبينهم بعيدا جدا، فهل لذلك من سبب؟ نقول نعم، إن من الأسباب التي كونت ذلك العقل العجيب وتلك النفس العظيمة والهمة العالية ذات الطموح إلى المعالي هو أن هذا الولد السعيد أنجبته أسرتان جليتان، أسرة آبائه الحجيين آل الشيخ الصالح سيدي أحمد حجي رضى الله عنه، وأسرة والدته بنو المسطاسي السلويون. فأما أسرة آبائه فالعلم فيها والصلاح متصل الحلقات، لا يخلو منها عالم وولى في غالب الطبقات، وأسرة جدوده لأمه العلم فيهم متوارث والأخلاق الفاضلة متعارفة - من عاش في الوسط الزاكي زكى خلقا.

أضف إلى ذلك ما يسره الله لهذا الفقيد المفدى من البواعث الكمالية التي أضافها إلى ثقافته ودراسته المغربية، وذلك رحيله إلى بلاد سورية فحل بمدينة بيروت اللبنانية وأضاف إلى معلوماته المغربية ثقافة شرقية لبنانية فاستساغها وهو في عنفوان شبابه فاتسعت مداركه وعظم عقله ورأى وخالط وعاشر عالما شرقيا عربيا يتكلم بلغة عربية صريحة هى لسانه الدارج، لا فرق بينها وبين لغة الكتب إلا في يسير ألفاظ، ورأى الرجال والنساء والبنين والبنات يتخاطب الكل بلهجة عربية فصيحة نظما ونثرا في المنازل والأسواق والمنتديات والمجمعات فضلا عن المدارس التي هى مركز تلك اللغة الشريفة ومترب الأدب الشرقي القريب العهد من النهضة والتجديد والبعث من مرقد الخمول إلى ميدان الحياة العصرية؛ وأعظم بشاب مغربي ذكي العقل وقاد القريحة مثقف اللسان مهذب الطباع يدخل هذا المجتمع الشرقي السوري اللبناني المستنير فيتأثر عقله بهذا المشهد المدهش

حيث يرى الفرق الشاسع بين هذين القطرين.
فهناك استملى فقيدنا المرحوم كماله ومن هناك استكمل جماله وأتم تهذيبه وأعماله فتلقى العربية غضة من لسان بعثها من مرقدها بعد طول سباتها؛ فاللبنانيون لهم الفضل في نهضة اللسان العربي في ربوع الشرق الأدنى ومصر بعدما كادت اللغة العربية أن تموت هناك وأن تدرج في أكفانها، فعاد لنا شبابها بعد الهرم وحياتها بعد الإشراف على العدم؛ فهناك تسمع اللبناني يقول في خطبة كتاب: الحمد لله الذي جعل المقامات لأهل الكرامات حمدا يزلفنا إلى المقر الأسنى، ويتحفنا ببركات أسمائه الحسنى.
عاد السيد سعيد إلى المغرب عامر الوطاب، مملوء الصوان، مستكمل الأدوات، إلا أنه لا يرضيه كل ذلك بل أعز ما لديه أن يرى شعبه راقيا كالعالم الشرقي وأبناء وطنه يتقدون حماسا وطموحا إلى المعالي، فألقى نظرة على الجيل المغربي والوطن العزيز فوجد الكل في غيبوبة عما يستقبله وفي غفلة عما ينتظره فأخذ العهد على نفسه أن يعمل بجده واجتهاده لإفاقة النائم، وتنبيه الكسلان الخامل، فسار على مهل ودأب ناصحا واعظا واستمر يكد نفسه ويجدها ليريح غيره، فما زال يتحمل أثقالا وينحث من الطباع الغليظة جبالا حتى تعبت روحه وحمل فوق طاقته؛ وفي الأمثال الدارجة من حمل فوق طاقته ظهر العجز فيه فأدى ذلك إلى تعب نفسه وانحراف صحته، وكان أمر الله قدرا مقدورا.
كل ذلك تضحية في سبيل البلاد وبنيه، قدس الله روحه في النعيم المقيم وأسكنه الفردوس الأعلى والمقر الأسنى.

شيخ الشباب

المغرب - عدد خاص بذكرى الأربعين
السنة السادسة - العدد 937 الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

عبد الكبير الفاسي

كان السعيد أصغرنا سنا وأكبرنا عقلا. كان شيخا في شبابه بينما لم يبلغ كثير من الشبان الذين مات في سنهم أشدهم.

لا أعرف شابا له من صفات الرجال المكتملين ما كان له من رزانة الطبع وسداد الحكم وحصافة الرأي ورباطة الجأش؛ كان رجل الصعاب لا يروقه في الحياة الخوض في سهل الأمور والقضايا، فكان لا يرضيه أن يقدم على أمر يتيسر إنهاؤه بمجرد إقدامه إليه.

كان السعيد جنديا في ميدان العمل، لا يعرف الكلل ولا الملل، ولا يتضجر إلا من سوء النية إذا استشعرها من صاحبه، لا أعلم أنه أشرقت عليه شمس في فراش إلا في مرض، يقضي يومه في عمله بل في أعماله الكثيرة الممضة وزياراته واقتبالاته ولا ينام إلا بعد أن يغط غيره غطيط من لا هم له، بل لا ينام إلا بعد مغالبة النوم ومقاومة الإعياء.

ولم يكن جنديا في ميدان العمل وكفى، بل كان جنديا في بساطة عيشه وتقشفه، وذلك بالنسبة لما كان في الإمكان أن يتمتع به من رغد العيش في أحضان والديه الحنونين وبما كان يكسبه من ربح مشاريعه الناجحة، ولكنه كان جنديا في ميدان العمل فكان يختار أن يعيش عيشة الجنود حتى لا يضيع عليه الاهتمام بأمر نفسه الاهتمام بأمر الناس.

أمر الناس ذلك ما كان غايته من الحياة. ولا نعلم فيما نعلم من شؤونه أنه كان يعيش لنفسه أو يعمل لنفسه أو يتعب لنفسه؛ كان كل سعيه وراء المصلحة العامة التي جعلها هدفا وغاية في جميع المشاريع التي أسسها، وإنما أسس المشاريع من صحف ومطابع لا ليربح دراهم كان في غنى عن السعي لها والكد لاقتناصها، ولكن ليكون للمغاربة صحفا ومجلات ومطابع، وكان يعلم أنهم لا يحبون التجديد ولا يستطيعون الإقلاع عن التقليد، فكان يسير في شؤونه تلك من غير أن يهاجم الناس لا في معتقد ولا في عادة ومن غير أن يجرح عاطفة أو يكسر خاطرا؛ كان لبقا لبيبا في سياسة الناس الذين أخذ على نفسه خدمتهم بالرغم عنهم وبطيب خاطر منه.

يحسن السعيد للرجل القريب والبعيد من غير كلفة أو منة، فيربط قلبه ربطا موثقا بحبال متينة لا يعرف الرجل كيف الإفلات منها لأنها دارت به حين دارت وهو في حاجة إلى عمل السعيد ولأن السعيد لم يسق لها الطبول والمزامير حين أسدى ما أسداه للرجل. وأحب الإحسان إليه ما كان يشجع به الطلبة المعوزين والأدباء الذين كان يعضهم الدهر بنابه إذ كان يرى في ضياعهم وإحجامهم ضياعا للعلم والأدب، فما أكثرما كان يشجعهم به! ولقد كانت آماله في ذلك لو مد له في العمر فسيحة بعيدة المدى.

رحل للشرق والغرب قصد الدرس والاستطلاع، فأفاد واستفاد ورجع وكله تجاريب كأنه شيخ أكل الدهر عليه وشرب وهو في عنفوان الشباب، فكان يملي عليك مما رأى وسمع ما يدهشك، وتعلم منه أن الفضل ورجاحة العقل يوتيهما الله لمن يشاء من عباده وإن كانوا دون الثلاثين.

هو ذلك السعيد الذي عاش عيشة الأبرار وعمل ما يعمله الناس عادة في الأعمار الطويلة فيما دون الثلاثين، فقد خدم بلاده وناضل وسلك سبيل المفاهمة ولم يصدر منه في كل ذلك ما يخدش في مروءته.

كان السعيد ربعة إلى القصر، ولكنه كان طويل الباع في العمل، كبير القلب والعقل،

ويكفي أن نقول في فقده ليكون دليلا على فضله إننا كلنا تساءلنا عند موته: هل فينا من يخلفه؟ هل فينا من يخلفه؟ ولربما بقى هذا السؤال بغير جواب لولا أن روحه التي بثها في أعماله لا تزال ترفرف علينا بأجنحة من النور ها نحن نحس بعبيرها ونجيب سيستمر العاملون في عمل السعيد لأن السعيد كان لا ييأس، لأن السعيد كان روح الأعمال والأرواح لا تفنى ...

لم يضع في السعيد ذووه وأهله وهم ذوونا وأهلنا لأنهم من أطيب الناس وكفى، بل ضاعت فيه « أسرة المغرب » التي التفت حوله وكانت أسرته الروحية، وكان أفرادها وهم قليلون يعمل كل واحد منهم على حدة قبل التفافهم عليه، بل ضاع في السعيد المغرب كله وهو البلد القليل رجال الأعمال المفكرين المتبصرين الذين يربؤون بأنفسهم من أن يعيشوا لأنفسهم من غير أن يستفيد المغرب منهم بشيء.

المغرب في احتياج إلى رجال كهذا الفقيد العزيز يجعلون الإخلاص رائدهم والصدق رفيقهم في الحياة.

ويكفي للرجل فضلا أن يفتقد عند موته، ويكون قدوة لغيره ويقال في حقه: هل من يخلفه؟ هل من يخلفه؟

وهل يقال هذا في كثير من الناس؟

عليك السلام يا سعيد وقد عشت سعيدا بعملك، ولسان الحال يقول في حقك بعد موتك:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم   وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

وأنت تعلم يا سعيد أن قومك الذين عشت لهم يجد جدهم في كل وقت وحين.

وعليك السلام ورحمة الله.

سعيد الصديق

المغرب - عدد خاص بذكرى الأربعين

السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

الهاشمي الفيلالي

للفقيد نواح شتى في حياته الحية جديرة بالدرس والاهتمام وجديرة بأن نستخرج منها مثلا صالحة حية لشبابنا الذي نريد له أن يحيا حياة حركة لا سكون، حياة تطور لا جمود، حياة جد لا هزل، حياة إنتاج لا عقم، وإن من بين هذه النواحي ناحية ممتازة لها أثر عظيم في حياة سعيد وفي مشاريعه وأعماله وفي آماله وأمانيه، بل لها من الأثر ما لا نكون مبالغين إذا قلنا إنها سر نجاحه والعامل الأساسي في تحقيق آماله ومراميه، تلك هى جانب الصداقة في حياة سعيد.

وإذا تحدثت اليوم عن هذه الناحية فلست متحدثا إلا عن جانب صغير وظاهرة خاصة لصداقة خمسة عشر عاما مع الفقيد، صداقة كلها صداقة صدق، وحب وإخلاص، وعطف وإجلال، ووداد وتقدير، وإعجاب في صراحة خمسة عشر عاما (عنوان الأخوة الثابتة والصداقة الموطدة الدعائم مدى الدهر)[1]

خمسة عشر عاما ما اجتمعت فيها مع سعيد إلا وكان له عمل قد تم إنجازه، أو مشروع

[1] بهذا وقع الفقيد على صورة أهداها إلى في 24 أبريل سنة 1930

يضع له الخطط والبرامج ، وما افترقنا إلا على سلسلة اقتراحات وأفكار شتى تدرس وتبحث، ولا أذكر له رسالة من المشرق أو المغرب تخلو من أحد المواضيع السابقة؛ عرفت سعيدا وهو رجل الآمال والأماني والأحلام، ورافقت سعيدا وهو واضع الخطط ومصمم البرامج لتحقيقها؛ وودعت سعيدا وهو يحقق ما كان خيالا، ويصور ما كان حلما، ويرى للكل في عالم الواقع والمحسوس ما كان أمنية، وفي كل المراحل عرفت سعيدا الصديق وكيف يفهم الصداقة. لم يكن سعيد رجل العاطفة المجردة يصادقك ويغمرك بعواطفه الفياضة ويتكلف ما تفرضه العاطفة وأدبها من كلمات عذبة ومجاملات رقيقة وأساليب حلوة وبعد عن كل ما يثير العواطف أو يجرحها كما يقال، حتى يحمله ذلك على تسليم ما لا يقبله عقله أو تصديق ما يرمي بمخالفته للواقع أو يؤدي به ذلك إلى أن يقف له عمل أو تتعطل له حركة أو تنقض له فكرة يومن بصوابها؛ ولم يكن سعيد رجلا جافا جامدا لا يومن إلا بالعقل المجرد ولا يرى للعاطفة أثرا في نفسه أو في الناس، فيسير معهم على ضوء المنطق المجرد والحقائق الجافة المرة. ولكن كان سعيد رجل العاطفة ورجل العقل، له عقل ممتاز وخيال خصب وعاطفة في أضيق حدودها. يصادق ومهما تعددت مظاهر الصداقة وتنوعت الروابط فهو لا يقدر إلا نوعا واحدا منها ولا يجعل من مختلف مظاهر الصداقة إلا مظهرا واحدا يهتم به ويحرس على بقائه هو صداقة العمل والنفع المطلق له أو لغيره، فإذا صادقك صداقةا العمل يسير معك إلى أبعد حد في صراحة وإخلاص، ويغمرك في هذه المرحلة بما شئت من لطف في القول ومجاملة في المعاملة ومحافظة إلى أبعد مدى على إحساساتك وميولك، ويضيء أمامك مجاهل المستقبل المظلم بما يبدعه خياله الخصب من مشاريع وأعمال إلى أن يصوره لك مشرقا زاهرا جميلا فيأخذ في الوقت الواحد قلبك وعقلك، ويجعلك في الوقت تحبه وتقدره وتنقاد له ولا تشعر إلا وأنت تتمثل بقول الشاعر:

وإذا سخـــــر الإلـــــه أنـــــاســـــا لـــســـعـــيـــد فـــإنهـــم ســـعـــداء

أما حظك منه وإلى أي مدى يبلغ نفوذك عليه وإلى أي حد استطعت أن تؤثر على عقله أو عاطفته فهذا ما تظل جاهلا له ولا يعرف منه ذلك إلا القليل لأن سعيدا ليس من أولئك الذين يتأثرون لكل مؤثر وليس من أولئك الذين إذا تأثروا لأمر ما كان ما يظهر عليهم مقياسا حقيقيا لمدى تأثيرهم، ومهما حاولت معرفة هذه الظاهرة وأجهدت نفسك في اكتناهها فإنك لا تخرج بأكثر من أنه يحبك ويخلص لك الود ويعظم شعورك بهذه الحقيقة كلما كنت منقادا له سائرا معه إلى الهدف الذي ينشده والغاية التي يعمل لها، أما إذا وقف بك السير واختلفت وجهة نظريكما فإنك لا ترى في هذه المرحلة إلا سعيدا رجل العقل المجرد والقلب القوى الذي يسير مجدا ولا يلوي على أحد. نعم لا ييأس منك ولا ينسى صداقتك بل يظل دائما محتفظا بودادك وفيا لعهدك مجددا لذكراك.

ولقد استطاع بمواهبه الممتازة أن يجعل من معارفه وأصدقائه ممن ليسوا بعاملين رجال عمل واثر في الحياة مهما تعددت مناهجهم واختلفت وجهاتهم وتعددت وسائلهم وأن يوجه إلى وجهة خاصة في الحياة ممن لم تكن لهم وجهة فيها ويعلم النظام في العمل والدقة في الحكم والإتقان في البرامج ممن كان منهم يسير على غير هدى وأن يخلق مثلا وأماني واقفا واسعا لمن كان لا يشغله لا يومه ولا غده، كما استطاع أن يستفيد من كل أصدقائه العاملين في مختلف ميادين العمل فيهتدي بأفكارهم وتجاريبهم في كثير من مراحله وينتفع إلى حد كبير من أعمالهم ومساعداتهم له وتشجيعاتهم إياه.

رحمك الله يا سعيد، فقد استطعت بمهارتك وسعة فكرك ودماثة خلقك أن تكون من نفسك محورا تدور عليه رحى تلك المشاريع والأعمال ... وأن تجعل منها نقطة وصل تربط بين أفكار متباينة ونفوس غير متعارفة وعقول ليست بمتجانسة واستعدادات متفاوتة حتى نظمت حولك أسرة وأوجدت لعملك جوا وهيأت لمشاريعك مؤازرين وأنصارا.

رحمك الله يا سعيد فلنا في فقدك مصاب عظيم وفي آثارك عزاء كبير.

في ذمة الله يا سعيد

المغرب - العدد الخاص بالذكرى الأربعين

السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

ادريس الكتاني

بسمت لك الدنيا فعشت سعيدا	وحبتك أزهار الحياة وليدا
ورضعت ألبان الذكاء مبكرا	فغدوت بين لداتك المحسودا
ودرجت في مهد المعارف لا ترى	غير المكارم مطمحا منشودا
وحلت شمائلك النبيلة بين أقـ	ـوام حبوك الود والتمجيدا
وثبت إلى العلياء نفسك بعدما	أشعلت فيها للمسير وقودا
فخطت خطى موزونة وكأنما	آلت على أن تبلغ المقصودا
لم تخب نفسك يا سعيد فقد بدا	بعد الكفاح نتاجها محمودا
أنشأت « دار المغرب » الكبرى وقد	لقيت بصدق نضالك التأييدا
وسعيت لا وجلا ولا متباطئا	وخطوت لا دهشا ولا رعديدا
سايرت أحداث الزمان بحنكة	وبلوت أخلاق الرفاق مديدا
ولطالما قد حفزتك بواعث	عظمى لتسمو عاليا وتسودا
لم تلهينك عن كفاحك سلوة	بسلا ولا قررت لامرئ حدودا
وكذا الشباب طموحه وجموحه	يخطو الرقاب توثبا وصعودا

وكذاك كنت قد امتلأت فتوة ... ونضارة تغري الظباء الغيدا

وبدأت تأنس بالحياة وطيبها ... وترى بعينك ظلها ممدودا

وأخذت تشعر في حقولك بالنما ... ء وقد تفتح زهرها منضودا

حتى إذا اكتملت لك النعمى وطا ... ف السعد حولك بالمنى معقودا

عصفت بك الأيام بعد دنوها ... ورمت بسابق ودها مطرودا

هصرتك في ريعان عمرك دفعة ... وكأنها لم تأت فيك جديدا

ما ضرها لو أغفلتك وباعدت ... عنا زمانا غدرها الموعودا

وكذا المنية لؤمها متفاحش ... عم البرية سيدا ومسودا

لو أنصفتك يد المنون تمهلت ... بك أزمنا ورعت بذاك عهودا

لو أنصفتك يد المنون ترفقت ... بشبابك الغض المهفهف عودا

لو أنصفتك! ومن ترى قد أنصفتـ ... ـه اليوم حتى تخلف المعهودا؟

ودعتنا ورحلت تبغي غير دنـ ... ـيانا لتحيا بالخلود سعيدا

ودعتنا والهم راس حولنا ... وسكنت قبرا في العراء وحيدا

يا لهف نفسي لو رأيت مدامعا ... أضحت بفقدك أنهرا وسدودا

تبكيك بل تبكي الشباب وشرخه ... ومنى تناثر عقدها وجهودا

ومدامعا أخرى تجمد دمعها ... هولا وعانى جفنها التسهيدا

ومحاجرا غارت بها آماقها ... وجرى عليها دمعها موؤودا

وأبا رحيما قد تلفع بالأسى ... وأخا يعاني النائبات السودا

ورفاق صدق هد من عزماتهم ... أن قد تناعوا بالبكاء سعيدا

يا لهف نفسي لو رأيت جميعهم ... يبكون حظا واحدا منكودا

عادوا وقد دفنوك ثم تساءلوا ... هل كنت ذاك الضائع المفقودا

قد ضاع في هول الفجيعة رشدهم ... وغدا اضطراب قلوبهم مشهودا

وكأنمـــا قـــد كان مـــوتـــك عـــبرة ... عـرفـوا بمـا وقـع المـنـون شـديـدا

وتـــذكـــروا أن الحـــيـــاة مـــفـــاتن ... تـدع الـغـرير مـكـبـلا مـصـفـودا

لا خـير في الـدنـيـا يـدك جمـالهـا ... جـيـش الـردى ويروعـهـا تهـديـدا

لا خـير فـيهـا والـفـنـاء يـدب في ... أغـصـانهـا مـتجـهـمـا عـربـيـدا

لا خـير فـيهـا والمـعـاول فـوقـهـا ... هـدامـة تـذر الـصروح هـجـودا

غـادرتهـم بـشجـونهـم وهـمـومـهـم ... فـتحـمـلـوا عـبـئـا تركـت محـيـدا

آثرت أكـفـانـا وقـبرا ضـيـقـا ... وثرى ووحـشـة ظـلـمـة ولحـودا

آثرت ذاك مـع الخـلـود مـنـعـمـا ... وسـئـمـت دنـيـا تجـهـل التخـلـيـدا

لـلـه أنـت سـعـيـد كم سـدت في ... دنـيـاك فـاهـنـأ بـالمـمـات ورودا

وذر الـشـقـاء لـنـا ولا تحـفـل بـه ... لم نـلـق مـنـه في الحـيـاة صـدودا

خـــل وفى عـــاد في أوطـــانـــنـــا ... لـذوي المـعـالي مـنـهـلا مـورودا

في ذمـــة الـــرحمـــن يـــامـــن ضمـــه ... بـثرى سـلا قـبر تـغـمـض جـودا

وعـلـيـك مـنـه رحمـة مـوفـورة ... فـبـظـلهـا تجـد المـقـام حمـيـدا

وسـقـتـك يـا قـبر الـسعـيـد مدامـع ... تـبـقـى عـلى صـدق الـوفـاء شهـودا

وسـقـتـك يـا قـبر الـسـعـيـد سحـائـب ... ممـن قـضى لـك بـالـوفـاة سـعـيـدا

صور من أشجان

المغرب - عدد خاص بذكرى الأربعين -
السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

عبد الغني سكيرج - الرباط

بدموع جفني أم بدمع بياني — أرثيك أم يكفيك دمع جناني
فكلاهما عيي أصيب بنكبة — وكلاهما - يوم الرزية - عاني
لا أكذب الرحمان عنك فإنني — يوم الرحيل فقدت فيك بياني
وكذلك الخطب الجسيم إذا عرى — لم يبق أية قولة للسان

***

بالأمس « حصار » مضى ومضى على — إثر له « شيخ » رفيع الشان[1]
ولى به ريب المنون وغاله — كف الردى وطوارئ الحدثان
كل المصائب في الحياة يسيرة — آفاتها خفت على الشجعان
إلا مصابك « يا سعيد » فإنه — خطب جليل الوقع في الأبدان
هد النفوس بشجوه، وأذاقها — حر الأسى، ومشى على الأوطان!!!

***

[1] محمد حصار - أما « الشيخ فهو المجدد الكبير العلامة أبو شعيب الدكالي

لم أنس ذاك « النعش » في عليائه — يختال في حلل من الرضوان
وعليه من رب العباد سكينة — ووقار إجلال، ونور تفاني
تسعى به الأيدي الكريمة للثرى — والعرق ينفح أوجه الشبان
كرمت يد لمست جوانب نعشه — لمست بذلك موطن الإيمان
و « الراية الحمراء » تنشر فضلها — عن جانبيك كريمة الأردان
تحنو عليك كأنها أم تضـ — ـم وحيدها بتأثر وحنان

***

خلفت بنتك في البلاد يتيمة — تبكي مع الإخوان والخلان
من « للثقافة » بنت فكرك إنها — أمست تحس بغربة وتعاني؟
وفتى الجرائد؟ في يفاعة أنسه — يرثيك بين مجامع الفتيان
« المغرب » الشهم، الغيور، ينوح في — أثوابه ومنتدى الأجفان
حرما الهناء على الحداثة فيهما — واستطعما من أكؤس الأحزان
صور من الأشجان أعرضها على — ذهني، فتملك مهجتي ولساني

***

نم - أيها البطل الكريم - على الثرى — متواضعا لله غير جبان
واترك سبيل الهم فيما تبتغي — فكفاك ما قاسيت من أشجان
في ذمة التاريخ ما قدمت من — سعي، وما قد شدت من أركان
أبقيت للتاريخ ذكرا خالدا — وكفاه فخرا بعد للإنسان
« فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها — فالذكر للإنسان عمر ثاني »

عواطف لبنانية

في رثاء فقيد الشباب والصحافة والأدب

المغرب - عدد خاص بذكرى الأربعين -

السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

ميشال خياط اللبناني - الدار البيضاء

بالله ربك حدثينا يا رمم عمن حوى هذي العظام من النسم

عن جنسهم عن حالهم بعصورهم أسيائد في القوم كانوا أم خدم

من منهم ملك القلوب جميله ومن الذي أحلو لي بذكراه الصمم

من منهم ضجت بهم دنياهم والجيش في الهيجاء حولهم ازدحم

من منهم هزموا العدا أو جحفل الحشرات منهم في الضريح قد انهزم

لم يبق منهم واحد يروي لنا ما نابهم بغنائهم منذ القدم

لعب الفناء بهم فصاروا كالهبا وهباهم بالخف ديس وبالقدم

والأرض قد ضمت بقاياهم بأحشاها فمنها كلهم لحما ودم

كم ميت يشكو الدخيل بقبره ومن التزاحم والتداخل قد نأم

وهوت بهم من حالق أمجادهم والسيف بين الترب ضاع كما القلم

إن الحياة مثال حلم في المنام وفي اليقاظة ليست تذكر ذا الحلم

لله من هذي الحياة ونحن ما بين العشية والضحى نغدو عدم

كم غرت الدنيا ابن آدم عاليا   أو سافلا وأخا الجهالة والعلم

عبثا نرجيها برهن ذمامنا   أو يرتجي من غادر رعى الذمم

ما للمنايا هدنة فيها ولا   من اشهر في عامها تدعى الحرم

سقم السعيد وكلنا كنا نواصل   الابتهال بأن يزايله السقم

وإذا بصوت النوح يقرع أذننا   ويسيل مهجتنا ومنعاه يعم

وإذا العليل يسير عنا تاركا   لقلوبنا الأحزان في أقصى خدم

وإذا بميتته الاسى يحيا بصدر   ذويه والأصحاب مصحوب الألم

ما ان تجد عينا توقف فيضها   أو لم يردد هول هذا الخطب فم

فلقد بكى الناس ابن حي مثل من   جمعتهم به يوما صلة الرحم

أي الفضائل لم تكن موفورة   فيه وعيب كان فيه يتهم

فيه التقى وبه النقا وبه العلى   وبه الولا النامي الوفا وبه الكرم

ذخر العلوم بصدره وأجلها   بالنشر بين العرب أيضا والعجم

خدم البلاد بعقله ويراعه   وقضى الليالي بالسهاد بما خدم

وقف الحياة على النهوض بقومه   نحو العلى فرأى النهوض مع الشمم

لم يعط هذا الجسم راحته لأن   النفس لم تسمح براحته ولم

والريح باكرت السعيد بطوده   فاهتز منها جانباه مع القمم

تبا لها من هزة فتاكة   وقعت به قبل الصباح إلى الرجم

وغدا وحيدا في ثراه وروحه   رضخت بذمة ربها الباري النسم

فهناك لا ألم ولا حزن ولا   سحق الضعيف من القوي ولا هرم

لكم العزايا آله وله الهنا   فبطاعة المولى ابتدا وبها اختتم

نم في جوار الله

المغرب - عدد خاص بذكرى الأربعين -
السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

حماد العراقي - فاس

مـا ذا عـسـاك تـعـد مـن أحـزان	ويـد المـنـون طـغـت عـلى الإنـسـان
لا تـنـثـني عـن أخـذ هـذا غـرة	ألا تخـطـى نـسـفـهـا لـلـثـاني
في كل بـيـت عـبرة مـهـراقـة	وبـكـل نـاد رجـفـة الأحـزان
في كل نـاد هـاتف مـتـألم	يرثي ويـبـكي رجـة الـفـقـدان
في كل آن راحـل يـأوى الـردى	مـتـلـفـعـا بـالـترب والأكـفـان
ضاق الفضاء بساكن تحت الثرى	وبـسـاكـن فـوق الـثرى حـيران
رحماك ربي مـا تريـد بـعـالم؟	تـبـنـيـه ثم يـسـاق لـلـكـثـبـان
تـبـني وتـنـشئ دمـيـة فـنـيـة	وتـسـوقـهـا بـالـرزء والـثـكلان
مـا عـلـة الأحـيـاء ثم تميـتـهـا؟	مـا حـكـمـة الـتـخـريـب لـلأكـوان؟
صـغـت الحـيـاة براعـة وتـفـنـنـا	وهـدمـتـهـا بـالـرزء والـفـقـدان
ما كنت أحسب صانعا مترفعا	يـبـني ويـهـدم أجمـل الـبـنـيـان
مـا تـلـك إلا حـكـمـة قـدسـيـة	نفذت وقد طبعت على الكتمان
تختـار مـا تخـتـار مـن أحـيـائـنـا	وتـسـوقـهـم كـسـيـاقـة الـقـطـعـان

يا ليتها لو تتقي شبابنا — فتريحنا من لوعة الشبان
يا ليتها تصغى ولكن قبل أن — تقصى « سعيدا » فارس الميدان
أما وقد أقصته عن أحبابه — فلتقص ما أبقت من الأقران
مات السعيد، فكل شاب فليمت — لا خير في الدنيا بلا خلان
مات السعيد، وبعد أن نزل القضا — ء على « سعيد » نحتفي بكيان
مات السعيد، فكل قلب خاشع — متصدع من خشية الرحمان
مات السعيد، وهل ستبقى بعده — دار الصحافة في علو الشان
تختال في ثوب النشاط وتزدهي — - بالمغرب - الغرا على الأزمان
ومجلة الآداب رافعة اللوا — - لثقافة » الإسلام والأوطان!
ستسير نحو طريقها لكنها — مطعونة لفؤادها بسنان
ستسير لكن كلما طلعت على — القراء ثارت شعلة الأذهان
وتذكروا عهد الإدارة في حيا — ة مديرها وسعيدها الفنان
وتذكروا فيك الشباب الغض وال — اخلاص في التعبير والتبيان
وتذكروا الخلق الحميد بهيكل — جبلت شمائله على الإحسان
وتذكروا ذاك المحيا البض في — جسم رشيق شائق فتان
وتذكروا كيف الصحافة أعلنت — عن نعيها « لسلا » وللأوطان
ورثتك السنة « الثقافة » فارتدت — رمز الحداد بأسود الألوان
والمغرب « الممتاز » أصبح حاملا — في كل آن شاهد الأحزان
يبكي إدارتك الحزينة مثلما — تبكي القبيلة فارس الميدان
يبكي وما تلك الدموع سوى لسا — ن عود الإخلاص في التبيان
ذاك اللسان لطالما لقنته — صدق الإخاء وقيمة الإحسان
أو لا يحق له رثاؤك كلما — ظهرت صحائفه إلى العيان؟

أو لا يحق « لأسرة » واليتها ... أن لا تثير مكامن الأشجان؟

حقا عليها أن تقوم بحفلة ال ... تأبين والتخليد في الأوطان

وتردد الذكرى الجميل، وكيف كا ... نت « أسرة » التأسيس للعرفان

كانت كعقد فاخر متلألئ ... في جيد هذا الجيل والبلدان

فتناثر العقد الثمين وشيعت ... أغلى جواهره إلى الفقدان

وتدحرجت للقبر تاركة لنا ... آثارها ذكرى على الحدثان

تلك المآثر خلدتك بأحرف الإ ... عظام والإكبار والشكران

ستدوم ماثلة وإن ودعتها ... ثكلى وسرت لعالم روحاني

حيث الحياة مريحة ما شابها ... دخل من الإرزاء والأحزان

فكأنني بك « يا سعيد » أردت أن ... تحيى بروحك لا بجسم فاني

وأردت أن تحيى حياة سعادة ... بجوار حور في بهاء جنان

بدلا من الدنيا ومن تبعاتها ... فانعم عليك سحائب الغفران

نم في جوار الله تكلأك المل ... ائكة الكرام وعزة الرحمان

موت الشباب عظة

المغرب - عدد خاص بذكرى الأربعين -
السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 - 29 أبريل سنة 1942

عثمان المطاعي

في كل برهة يعظنا الدهر، وينصحنا بما يفاجئنا به من حوادث، وهى ضروب شتى يهاجمنا بها في استحثات مدهش كى ندرك كنه فصاحتها فنتعظ، يا ما أفصح لغة الدهر! في صمتها بلاغة يفهمها كل حي يذوق مرارة الحياة، ولقد تتقطع الأكباد لبيانها وهى صامتة، واللغات الصامتة كفيلة بشرح نفسها.

بمثل هذه الحوادث التي كانت السبب في هذا الاجتماع يتعظ من يماشي الأقدار لتأخذ بزمامه الأسعاد إلى مسالك النجاة وهى المعلم لكل جيل يهمه شأن معاني الحياة، ويحتمر في عقيدته ذلك المرور المسرع على جسر الأيام الخادعة كل حي، عاملا في مروره ذلك ساعيا إلى المكرمات، غير مكترث بما حوله من خيالات كاذبة - نقطة ما أسودها - ومضى العمر في غير العمل خسران، وليت الإنسان يمضيه في خدمة البلاد والعباد، إلا على موت العاملين.

نضحك كثيرا من غير خجل، وأخيارنا تتسابق إلى الرمس، كأنهم من تقصيرنا أو من خذلان الحياة هاربون - لا غرو إن هربوا - فإن البطل اللبيب يطلب لنفسه النجاة إذا لم يكن في ساعة الوغى من يشجعه على ما هو مقبل عليه من أخطار. وكل الحياة أخطار. أيها السادة، نريد أن نتعظ فكيف نتعظ؟ هل من ذلك أن نبكى ونتحسر ونظهر الجزع حتى نهمل نظام الحياة، أو تقسو قلوبنا وتجف آماقنا وأن لا نشعر بالألم الساري في أحشائنا أم ما هى الموعظة؟

سبحانك اللهم، فأنت المرشد الحكيم، لقد ألهمتنا لإدراك نتائج الوعظ والإرشاد في عناوين الفرص الضائعة، ولا عوض لها، وهى التي تمر والناس عنها غافلون، وآثارها تدل عليها، كل رموزها تشير لأن نكون كسعيد، لأنه شاب لم يقطع غير قليل من مسافة شبابه الغض حتى أدرك الغاية من الحياة، فأصبح ينظم أكاليل مجده بيده، فكأنه يودع الثقافة الخالدة في قطره، ونبوغه الذي هلل وكبر في أعماق القلوب، فكيف يسلوان عنك وأنت الإبن البار يا سعيد؟

فأضحت همته تخط المسالك في جبين الدهر بدقة فائقة، ومن حين إلى آخر يلقي بتلك النظرة السديدة التي تخرق حجب الأمل إلى أمد بعيد، نحو المرام الذي هو المجد المنشود. فتتضاعف العبقرية والحرارة في نفسك يا سعيد.

وهمة المرء لا تعدو بصيرته بقدر همته يسمو إلى الطلب

كل له أرب لكن أخو قصر في الهم ليس له في المجد من أرب

سبق السيف العدل يا بطل الشباب، قرأ الدهر العبقرية في برنامج سعيد في حياته إذ كانت خطته تسير مع الأيام سير الأفلاك السائرة، وكأن المنون من حساده، فاختطفته ليناموا مسترحين، وهيهات أن يسترحوا بعد فقدان سعيد.

فلو علم المنون ما يرمي إليه عزم سعيد لأبقاه يعمل على شاكلته لنفع البلاد والعباد. نم يا فلذة الأكباد، واسترح من نفاق الدنيا يا زهرة الشباب، قد أديت للتاريخ رسالته الكبرى، فأصبح مشتغلا بأداء واجبك أنت إذ كان حتى التاريخ يراعي الذمم والعهود، ولقد كنت وأنت في عالم الأحياء أعز عظة خلفت مساعيك الذهبية، تفوح بأطيب ذكر في سجل الخلود. وها هو المجد حليفك بالأمس قام اليوم ليبنى لمزاياك الشتى هيكلا على هامة الدهر لا يضاهيه هيكل، وسيحج إليه شبان كل عصر، حاملين لواء الثناء رافعين أصواتهم بأحسن عبارة - الله أكبر - بهذا تتعظون أيها الشبان.

في جوار الله

المغرب - عدد خاص بذكرى الأربعين -

السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

عبد القادر حسن - مراكش

نم في جوار الله يا سعيد! وانعم برضاه هنيئا، فما جزاء المومنين العاملين إلا الرضى والنعيم!

نم في جوار الله، وانعم بقربه، فذلك جزاء العاملين المخلصين.

أما نحن فيكفينا تعزية وسلوى أننا سنصبح يوما ما في ذلك الجوار المنيع الذي لذت به حينما ضايقتك النوائب، وألح عليك اليأس.

لقد تحملت - ضمن إخوانك - النوائب، وصارعت اليأس، وساهمت مساهمة فعالة في بناء مجد أمتك، وأسلمت إلى باريها في الأخير، لا هربا من المسؤولية لكن صونا لها.

قضيت عمرك في خدمة الواجب، وكذلك المومنون المخلصون يقضون عمرهم في خدمة الواجب والحق، فيعيشون ما عاشوا في جوار الله، وتحفهم الملائكة حينما يموتون، فتصعد بهم إلى جواره أيضا، فهم في كلا الحالين في جوار الله!

اذكرنا في ذلك العالم السامي يا سعيد! واذكر أمانينا وأحلامنا هنالك، وما أظنك إلا فاعلا لأن المرء يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد عشت مخلصا لأمتك، دائبا في خدمتها، فلا بد أنك ستبقى مخلصا لها، دائبا في خدمتها حتى في ذلك العالم السامي يا سعيد!

عشت لحيظات في أمتك، ولكن لحيظاتك كانت أجدى عليها من قرون يعيشها غيرك، لأنك تجد بينما هم يعبثون وتعمل بينما هم يتكاسلون.

لقد عشت كثير الثقة في نفسك، كثير الثقة في ربك، كثير الثقة في أعمالك كلها، وكذلك المومن الراسخ الإيمان ليغمر الله قلبه بنفحة من قوته، فإذا هو دائب في أعماله في ثقة كاملة، لا ينهذل ولا يضعف! سعيت وسعيت، وجربت البرامج، وصادفت بعض النجاح؛ ولكن آمالك كانت دائما تسبق سعيك، وتضيق عنها برامجك، ويقعد دونها حظك؛ فأنت الآن تنعم لا بقدر سعيك ولا بقدر برامجك، ولا بقدر نجاحك، ولكن بقدر آمالك وآمانيك! فلتنم في جوار الله يا سعيد! ولتنعم برضاه هنيئا ، فما جزاء المومنين إلا الرضى والنعيم!

سعيد بين فترتى الزمان

المغرب - عدد خاص بذكرى الأربعين -

السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

الحسين الشرقاوي

في فترة وجيزة من فترات الزمان تنضج آراء، وتدعم خطط، وتتآصر جماعات، وتتجمع آمال، وتقوم أسس، ويصعد العنان بناء أفرغ الإنسان جعبة أفكاره في تهييئه، وجعبة مادته في تقويمه وجعبة ما ملكته الحياة من مواهب في إبرازه من عدم غامض إلى وجود بين ظاهر.

وفي لحظة قصيرة من لحظات الزمان تصرع أفكار، وتضمحل مبادئ، وتتلاشى هيئات، وتنقرض أحلام، وتدك حصون، ويخر ما بناه الإنسان، وما صرف في ادعامه وتشييده وكثيرا من المواد وكثيرا من التخمين والحدس

فهكذا كان مع الحياة سعيد

وهكذا أصبح نجي الأرماس

ولذا نحن نندبه

ولذا تملأ مآقينا الدموع

يكون للمرء أمل شارد، حلم غامض، تمنيات بعيدة، خاطرة مستعصية، سانحة مسرعة، حياة حيرى به، وحيران بها، تهيء لا حظ له من النضوج، وتكون العين معماة لا ترى في

هذا إلا النور، وتكون النفس طاغية لا تقبل فسادا تثوقه، ويكون العقل بسيطا ينصر جانب الوهم الذي أدركه، ويكون المنطق ضعيفا يؤيد ما توصل إليه من أخيلة، فيكون الشقاء بالمرصاد، والإخفاق نتيجة البغية، والانقراض تاما لكل ما أبدعته القوة الواهمة.

وسعيد لم يكن الغموض يكتنف تفكيره

ولا التقلبات تنقض تقريره

ولا أمواج الزمان تغير مصيره

ولا أهوال الكفاح تخيف تدبيره

وهكذا كان مع الحياة سعيد

وهكذا أصبح نجي الأرماس

ولذا نحن نندبه

ولذا تملأ مآقينا الدموع

كان لمحة من نور وقبسا من حقيقة

كان انكشافا من غموض الكوامن

كان بثقة من فكر قوي مجرب

كان إشارة من رجل خبير محنك

وهكذا كان مع الحياة سعيد

وهكذا أصبح نجي الأرماس

ولذا نحن نندبه

ولذا تملأ مآقينا الدموع

كانت الصحافة أملا شاردا نرقبه في حيرة

فحقق هذا الأمل سعيد

كانت الإدارة حلما غامضا نكد في إجلاء الستائر عنه

فأزاح هذه الستائر سعيد

كانت المثابرة خاطرة مستعصية نصليها لهيبا من تفكيرنا لتنضج

فأنضج هذه الخاطرة سعيد

كانت (الأسرة) فكرة مضطربة نريد ارتكازها

فدعم هذه الأسرة سعيد

فسعيد أتته شعلة البطولة فأضاءت له سواء السبيل في كل ما كان يريد

وسعيد عرقلته الحوادث والمصاعب فأفرغ مجمع جهوده ليعيش كل ما كان يريد

وسعيد قاومه الإعصار وجابهته الشدائد فانتزع من روحه وضميره قوة يدرأ بها الشر عما كان يحب ويريد

وهكذا كان مع الحياة سعيد

وهكذ أصبح نجي الأرماس

ولذا نحن نندبه

ولذا تملأ مآقينا الدموع.

سعيد والمطبعة

المغرب - عدد خاص بذكرى الأربعين -
السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

عمر النجار - سلا

عرفت سعيدا رحمه الله كما يعرفه الناس بصحيفته الغراء، عرفته بكلماته التي لا تحفل بموضوع غير المغرب والمغاربة، فكان إذ ذاك المثل الأعلى للوطني المخلص الذي يعمل لفائدة وطنه وأمته، حينذاك كنت لا أزال بالمكتب ودائما أفكر في الانخراط مع هذا الرجل في المطبعة لما علمت من أن فن المطبعة يوصل الإنسان إلى درجة عالية في المطالعة ويجعله عل خبرة بالأسلوب الصحفي في الكتابة، فقصدته في إدارته فقابلني أحسن اقتبال ولسان الحال يقول إذ ذاك:

أأذكـر حـاجـتي أم قـد كـفـاني حـيـاؤك إن شـيـمـتـك الحـيـاء

فلقيته عل ما وهبه الله من الأخلاق الكريمة والفكر الحر والقلب الشريف والتواضع والوقار، فتماديت معه على ذلك هذه مدة تتجاوز ثلاث سنوات، فما سمعت منه أبدا ما يأخذ بخاطري ولا ما يقلق نفسي، فكان يأتي للمطبعة متحليا بتلك الابتسامة التي لم تفارقه حتى لقى ربه راضيا مرضيا، فيأخذ بيد العملة على اختلاف طبقاتهم، ويحدثهم بما يسليهم، فيزدادون بذلك نشاطا في خدمته ووثوقا به، فهو صديق بمواساته ومبالاته، وأخ بشفقته ومحبته، وأب بعطفه وحنانه.

وكان رحمه الله شديد الثقة بنفسه، واسع الآمال، طموحا للعلى، مستقل الفكر، صريح القول، نزيه النفس، طاهر القلب، كثير التفكير، قليل الكلام، قضى زهرة شبابه وهو لن يتعاطى مطالب الحياة وملاذ الشباب، فلم يتزوج ولا جلس لشرب أو لهو ولا التفت إلى جمال أو طرب؛ لا يلذ له غير التفكير في الغاية التي وقف قواه عليها، وهى خدمة بلاده وأمته بأشرف السبل وأنفعها.

وقد كان يامل أن يجعل معملا كبيرا للطباعة يضم أزيد من مائة عامل، فلو مد الله في حياته لرأينا ثمار تلك الآمال الموفقة.

فقدناك يا سعيد ففقدنا بفقدك كل شيء، فقدناك يا خادم الوطن المخلص، فقدناك يا زعيم الصحافة المغربية، فليت شعري أين هو ذلك النور الذي كان ينتشر علينا في المطبعة فنمشي على ضيائه، ومن الذي يسلينا اليوم بتلك الابتسامة الحلوة اللذيذة ويقابلنا بذلك الصدر الرحب الذي لا يخفي حقدا؛ فقد ثكلت بموتك المطبعة، كما يتمت « المغرب » و « الثقافة » وإنهم رغم هذا سيسيرون على منهاج خطتك المنشودة غير أنهم مطعونون برمح في فؤادهم.

إن المصيبة فيك مصيبة الوطن يا من أنفقت عمرك في خدمته، فلا بدع أن تبكيك العيون، ولا غرو أن تنفطر لفقدك القلوب؛ لقد عشت سعيدا مفيدا وقضيت حميدا فقيدا، وإن كان عموم الأسف وشمول الحزن مما يبرد ثرى ويجلب غفرانا. جاءتك سحب الرضوان والغفران مسوقة إلى ثراك من كل مكان، مستمطرة على روحك بكل لسان.

نم سعيدا يا من قضيت فقيدا　　بجليل ما قدمت بين يديك

أنت أحسنت في الحياة إلينا　　أحسن الله في الممات إليك

سعيد والمطبعة

المغرب - عدد خاص بذكرى الأربعين -
السنة السادسة - العدد 937 - الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

عمر النجار - سلا

عرفت سعيدا رحمه الله كما يعرفه الناس بصحيفته الغراء، عرفته بكلماته التي لا تحفل بموضوع غير المغرب والمغاربة، فكان إذ ذاك المثل الأعلى للوطني المخلص الذي يعمل لفائدة وطنه وأمته، حينذاك كنت لا أزال بالمكتب ودائما أفكر في الانخراط مع هذا الرجل في المطبعة لما علمت من أن فن المطبعة يوصل الإنسان إلى درجة عالية في المطالعة ويجعله عل خبرة بالأسلوب الصحفي في الكتابة، فقصدته في إدارته فقابلني أحسن اقتبال ولسان الحال يقول إذ ذاك:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء

فلقيته عل ما وهبه الله من الأخلاق الكريمة والفكر الحر والقلب الشريف والتواضع والوقار، فتماديت معه على ذلك هذه مدة تتجاوز ثلاث سنوات، فما سمعت منه أبدا ما يأخذ بخاطري ولا ما يقلق نفسي، فكان يأتي للمطبعة متحليا بتلك الابتسامة التي لم تفارقه حتى لقى ربه راضيا مرضيا، فيأخذ بيد العملة على اختلاف طبقاتهم، ويحدثهم بما يسليهم، فيزدادون بذلك نشاطا في خدمته ووثوقا به، فهو صديق بمواساته ومبالاته، وأخ بشفقته ومحبته، وأب بعطفه وحنانه.

وكان رحمه الله شديد الثقة بنفسه، واسع الآمال، طموحا للعلى، مستقل الفكر، صريح القول، نزيه النفس، طاهر القلب، كثير التفكير، قليل الكلام، قضى زهرة شبابه وهو لن يتعاطى مطالب الحياة وملاذ الشباب، فلم يتزوج ولا جلس لشرب أو لهو ولا التفت إلى جمال أو طرب؛ لا يلذ له غير التفكير في الغاية التي وقف قواه عليها، وهى خدمة بلاده وأمته بأشرف السبل وأنفعها.

وقد كان يامل أن يجعل معملا كبيرا للطباعة يضم أزيد من مائة عامل، فلو مد الله في حياته لرأينا ثمار تلك الآمال الموفقة.

فقدناك يا سعيد ففقدنا بفقدك كل شيء، فقدناك يا خادم الوطن المخلص، فقدناك يا زعيم الصحافة المغربية، فليت شعري أين هو ذلك النور الذي كان ينتشر علينا في المطبعة فنمشي على ضيائه، ومن الذي يسلينا اليوم بتلك الابتسامة الحلوة اللذيذة ويقابلنا بذلك الصدر الرحب الذي لا يخفي حقدا؛ فقد ثكلت بموتك المطبعة، كما يتمت « المغرب » و « الثقافة » وإنهم رغم هذا سيسيرون على منهاج خطتك المنشودة غير أنهم مطعونون برمح في فؤادهم.

إن المصيبة فيك مصيبة الوطن يا من أنفقت عمرك في خدمته، فلا بدع أن تبكيك العيون، ولا غرو أن تنفطر لفقدك القلوب؛ لقد عشت سعيدا مفيدا وقضيت حميدا فقيدا، وإن كان عموم الأسف وشمول الحزن مما يبرد ثرى ويجلب غفرانا. جاءتك سحب الرضوان والغفران مسوقة إلى ثراك من كل مكان، مستمطرة على روحك بكل لسان.

نم سعيدا يا من قضيت فقيدا بجليل ما قدمت بين يديك

أنت أحسنت في الحياة إلينا أحسن الله في الممات إليك

ذكرى سعيد

المغرب

السنة السادسة - العدد 1180 - الثلاثاء 25 صفر الخير عام 1362 الموافق 2 مارس 1943

أسرة المغرب

بصدور هذا العدد تكون قد مرت سنة كاملة على وفاة أخينا المرحوم سعيد حجي، و « أسرة المغرب » وإن كانت قد وطدت العزم على إصدار عدد خاص بهذه الذكرى عما قريب ترى من الواجب والوفاء ألا تمر هذه الفرصة دون أن تشيد بفقيدها الذي يرجع له الفضل في تأسيس هذا المشروع وتوطيد دعائمه. وإذا كان الأجل المحتوم لم يمهل فقيدنا حتى يفرغ فيه كنانة نشاطه ويودعه أعز أمانيه وأغلاها، فقد صرف قيد حياته وقتا ثمينا في البلوغ به أوج الكمال وترك بعده أسرة منتظمة متحدة تعمل جهد مستطاعها للمحافظة عليه والنهوض به وفق آمال المرحوم ومبتغياته.

على أن نشاط الفقيد - تغمده الله برحمته الواسعة - لم يكن قاصرا على إصدار جريدة يومية ووقفا على ترقيتها حتى تصبح في درجة الصحف العالمية السيارة، بل تناول نشاطه شتى الميادين الفكرية والاجتماعية حتى لنكاد نجد له في كل ميدان جولة وفي كل حلبة سباق، والمتعرض لدراسة هذا النشاط وتحليل عوامله يقف مشدوها متحيرا إذ لا يستطيع أن يسلم بجميع العناصر التي تكونت منها شخصية الفقيد فأتاحت له أن يلعب دورا هاما في تاريخنا الفكري والاجتماعي المعاصر.

وإذا كان الفقيد قد اختار من بين المهن الحرة مهنة الصحافة فلأنه أدرك أهميتها ولأنه

استطاع أن يفهم ميوله واستعداداته فكان يرى أنه خلق ليكون صحافيا وأهمية الصحافة شيء لا نحتاج إلى إقامة الدليل عليه؛ فالصحافة تلعب في وقتنا هذا دورا من أهم الأدوار، ويكفي أنهم لقبوها بصاحبة الجلالة دلالة على السلطة البعيدة المدى التي تنعم بها والمركز الذي تتبوأه في مختلف أنحاء المعمور وبين جميع الشعوب. فهي المهذبة وهي المربية وهي الموجهة وهي المنيرة وأعظم بفائدتها أن هي وقفت عند هذا الحد.

وقد وقع اختيار المرحوم عليها فأراد أن يجعل منها أداة لإزاحة « كابوس الخمول » على عاتق مواطنيه كما كان يعبر رحمه الله، ومنذ أصدر أول عدد من هذه الجريدة وهو يرمي لهذه الغاية النبيلة السامية، وكانت رغبة ملحة تغمر جوانحه وتلهب شعوره فتدفعه لميدان العمل مغامرا تارة ومتئدا أخرى، تلك الرغبة أو بالأحرى تلك الفكرة المثلى هي أن تحيا الأمة المغربية في مستوى لائق بها وبتاريخها وباستعدادات أبنائها وتتقدم كما تقدمت كل الأرض في ميدان المدنية والرقي.

لم تبرح هذه الفكرة مخيلته منذ طفولته وتقبله فوق مقاعد الدرس سواء داخل وطنه أو خارجه إلى أن لقي ربه، فكانت أقوى حافز يدفعه نحو العمل المجدي سواء بكلماته البليغة التي كان ينشرها على صفحات هذه الجريدة أو بوسائل أخرى لا محل لذكرها هنا.

وبعد فقد قطعت « أسرة المغرب » عهدا على نفسها أن تواصل الطريق الذي قطعه المرحوم، مستوحية من حياته ورجولته ونشاطه أقوى دافع يشجعها على المضي في السبيل القويم الذي نهجه لها، فإذا استطاعت أن تتوفق فتتغلب على العقبات والعراقيل التي لا يسلم منها إنسان فذاك أقصى أملها، وإلا فعزاؤها الوحيد أنها أخلصت النية والعمل وفوق طاقتها لا تلام.

إلى روح سعيد

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيد حجي

السنة السادسة - العدد 1189 - الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 الموافق 11 مارس سنة 1943

« أسرة المغرب »

منذ سنة خلت فاضت روح سعيد فالتحقت بربها الأعلى، وأخذت ترتاع في فسيح جنانه؛ ومن آخر ما أسر به لأحد أصدقائه وهو يتلظى على فراش الموت: « إنني أشد الناس إيمانا بخلود الروح، وإن روحي ستراقب من الملإ الأعلى ما وضعت من تصميمات، وستبتهج عندما تشاهدكم محافظين عليها أتم المحافظة » .

ويعلم الله أن روح الفقيد لم تغادرنا قط، فهي ترفرف دائما علينا، وهي المحركة المشجعة، فلا يكاد أن يمر يوم واحد دون أن نفكر فيها ونستوحي العبرة والنصيحة منها.

واليوم - وقد مرت سنة على وفاة سعيد - ها نحن أولاء نتقدم إلى روحه العزيزة الغالية بهذا العدد الذي حررته زمرة من أصدقائه ومقدريه، وهو ناطق بما كان يتحلى به من صفات الرجولة وحلو الشمائل ودماثة الأخلاق.

ولا نعتقد أننا استوفينا سعيدا حقه فيما كتبنا عنه، ومهما قلنا فيه فلن نفي بما له من دين علينا.

بيد أننا أشد الناس شعورا بأن روح الفقيد تتوارى استحياء مما كتب، لأنه كان على الدوام يؤثر ألا يتحدث الناس عنه، وكان من سديد آرائه رحمه الله أن تتحدث أعمال المرء عنه.

ولكن دافع الوفاء حرك بعض القرائح ، فأنشأت تجلو بعض نواحي القوة في شخص الفقيد ، وتكشف عن أسرار نجاحه فيما وضعه من تصميمات، على أن تكون عصارة أفكارها خير تحفة تقدم لروح سعيد الطيبة الطاهرة.

فعسانا نكون قد قمنا ببعض واجبنا نحو الفقيد، وعسانا نكون قد تحررنا شيئا ما من الدين الذي طوق به عنقنا.

على أننا نعتقد اعتقادا جازما أننا لم نكن عند ظن المرحوم بنا إلا متى بذلنا النفس والنفيس في المحافظة على هذا المشروع القيم الذي تركه بين أيدينا، وكان يعلق عليه شتى الآمال، وإلا متى شحذنا عزائمنا لترقيته والبلوغ به الأوج الذي كان يسعى إليه سعيا حثيثا، ولن نألو جهدا في هذا السبيل، وعلى الله حسن التوفيق وبه نستعين.

وحي ذكرى

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيدحجي

السنة السادسة - العدد 1189 - الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 الموافق 11 مارس 1943

قاسم الزهيري

ما أكثر ما يموت أناس، فلا يكون لوفاتهم سوى وقع خفيف في محيط ضيق؛ ثم لا تمر بضعة أيام حتى يواري ذكرهم إلى جانبهم؛ وإذ كل ما تبقى لهم من حظ في هذه الحياة قبر ضيق يتوارون فيه عن أعين الأحياء؛ فينقطع كل سبب بينهم وبين هؤلاء؛ وتنفصم كل رابطة كانت تجمعهم مهما كان نوعها، فيمسي الأحياء ويصبحون، وكأن شيئا مهما لم يقع، ويغدون ويروحون وكل شيء قد امحى من ذاكرتهم. ثم يسترجعون طبيعتهم التي فطروا عليها، فيجدون ويمرحون على نحو ما كانوا يفعلون من قبل أن تحل بهم الكارثة، ويستجمعون قلوبهم من اللهو بمثل ما كانوا يصنعون لو لم ينتثر عقدهم.

وما أقل ما يموت أناس آخرون، فينقلب المصاب فيهم مصاب أمة بأسرها: فإذا بكل بيت حداد، وفي كل عين عبرة، وفي كل صدر لوعة وحسرة، وسر ذلك أن الراحل لم يكن قيد حياته ملكا لنفسه، بل ملكا مشاعا ينوب حظ منه كل فرد من أفراد الأمة: هذه العائلة الكبرى؛ يتقاسمونه على وجه المساواة، سواء النائي منهم أو الداني، وسواء كان الفقيد يلابسهم ويلابسونه، أو كان بمعزل عنهم.

يتنبه حينذاك ضمير الأمة - وما اخاله يتنبه إلا لأمر خطير - فيندب شخصا، لا القرابة تجمعه وإياه، ولا الدم يحكم صلته به، ولكنها الروابط المعنوية التي تسوغها يد الصانع الحكيم بين أعضاء المجتمع الواحد وبين فرد من أفراده قد انتدب نفسه وقصر همه على

خدمته، يستيقظ ذلك الحب الدفين الذي تكنه آلاف القلوب للراحل، فيتجسم في هاته الدموع الحارة وفي هاته الآهات المنتزعة من صدور مكلومة، وفي هاته النظرات الفاترة الكسيرة.

فما هى إلا لحظة وجيزة - لحظة الأجل المحتوم - وإذا النفس البشرية قد اغتسلت من كل ما أعتراها من أدران ناشئة عن بعض الغرائز الأثيمة، وتطهرت من جراثيم الأضغان والحفائظ، وتجردت عن الأهواء والمغالطات، فشيعت الفقيد لمقره الأخير في جلال وإكبار وتقدير. لحظة ليست من دنيانا في شيء، فقد تعد فلتة من فلتات العالم العلوي: عالم الكمال والصفاء والإخاء، تنزع فيها الروح البشرية إلى معينها الأول، فلا تشوبها الأغراض الدنيئة السافلة، ولا تمازجها الشهوات البذيئة الخسيسة.

تشهد - ويا روعة ما تشهد - جموعا متراصة متكتلة، تمشي وراء النعش وقد ألفت بين قلوبها المتباينة وحدة الألم، فخرجت عن طبيعتها المفتعلة، وأشرفت بهوامع الدموع من فرط ما منيت به في أعماقها من تباريح الخطب وهول المصاب. تجهش إلى ربها بالبكاء - كما يجهش الطفل إلى أمه وقد أعوزته الحيلة - مستمطرة شآبيب رحمته وغفرانه على الراحل الكريم، مبتهلة إليه عز وجل أن يبدلها بما يماثله، فيسد مسده.

كذلك كانت الجموع من وراء نعشك يا سعيد! وأنت في طريق لقاء ربك. أفواج من الناس عرفوك وخبروك وألفوك، فما أن تناهى إلى سمعهم خبر وفاتك حتى انجزعت منهم الأفئدة؛ وانقبضت نفوسهم فلم يشعروا برزية أفدح ولا بمصاب أهول من مصابهم فيك؛ فمنهم من فقد فيك الصديق الحق، وفيهم من فقد فيك الأخ الشفوق، وكلهم فقدوا فيك العامل المجد.

ولا يزال شخصك الكريم موضع الثناء والأسى والتحسر كلما جرى ذكرك على ألسنتهم؛ فأثار دفائن ودفائن من حياتك العزيزة الغالية.

فطب مقرا بجوار ربك « فمن أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ».

بعض خصائص سعيد

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيد حجي
السنة السادسة - العدد 1189 - الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 الموافق 11 مارس 1943

مؤرخ الدولة السيد محمد بن علي الدكالي

تراه مع الشباب شابا وقاد القريحة باحثا مجادلا مبديا آراءه في طريق خوض غمار الحياة باعثا على الصمود ...
وتراه مع الكهل كهلا مكتمل الرجولة ثابت الجنان يعطيك مثالا للثبات والصبر ويجادل عن مبادئه بقلمه ولسانه بحجته وبيانه ولا تلين قناته إلا لمن شاركه في مبادئه

***

نعود إلى ذكر فقيد الشباب السيد سعيد حجي رحمه الله، والعود أحمد، إسعافا لرغبة « أسرة المغرب » في المشاركة بذكراه السنوية بكلمة تتعلق بناحية من نواحي حياته الملئى بالمظاهر العجيبة والذكريات النادرة فنقول:

أخو العلم حي خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو يمشي على الثرى يعد من الأحياء وهو عديم

كان المرحوم السيد سعيد حجي ذا شخصية نادرةالوجود في شؤونه كلها، في شبابه ونشأته وفي اجتهاده لتحصيله وفي معلوماته الجمة وفي خوضه غمار الحياة وفي أخلاقه الواسعة

ومرونة طبعه وفي أسفاره واغترابه وتحببه للناس ومحبة الناس إليه وفي معاشرته لطبقات الناس على اختلاف طباعهم ومآربهم ومعلوماتهم وأديانهم.

فتجده قدس الله روحه في النعيم المقيم مع الشباب شابا وقاد القريحة ضاحكا مستبشرا باحثا مجادلا مفيدا مستفيدا مبديا آراءه وأنظاره العالية في طريق خوض غمار الحياة باعثا على الصمود إلى نيل المطلوب بكل ما يمكن ويملكه الإنسان من جهود علمية وغنى مادي لا يثنيه عن ذلك مانع ولا يصده عنه صاد ولو بلغ من الممانعة ما بلغ، وتلك مقالاته في الجرائد والمجلات طافحة بأبحاثه وفوائده النافعة وأقواله الواسعة.

وتراه مع الكهل كهلا مكتمل الرجولة ثابت الجنان يعطيك مثالا للثبات والصبر، ويخوض ميادين العمل النافع ويجادل عن مبادئه بقلمه ولسانه بحجته وبيانه ولا تلين قناته إلا لمن شاركه في مبادئه ويسير على منهاجه من السعي المستمر للنفع العام والحياة المنتجة لصلاح الحالة العلمية والأخلاقية والمادية، وتلك جرائده ملئى بأقواله في الموضوع سقى الله ضريحه وابل الرحمة.

وتجده مع الشيوخ شيخا وقورا ساكنا رابط الجأش مستفهما عن الماضي والحاضر بلطافة وأدب مبديا ملاحظاته على كثير من أحوال الماضي راغبا في تفهم ما اعتاص فهمه من مسائله وعوائده ونوادره مجادلا في الشؤون الحاضرة بالدلائل التي يقبلها العقل ويعضدها العلم إلى أن يخلص إلى الصواب والإفادة بحسن السؤال وتلقي الجواب المقنع أو الممتع الكافي، وكان رحمه الله ينكر على ذوي الخزائن العلمية بخلهم بدفاترهم العلمية على ذوي الاستفادة منها، ويود لو اهتدى إلى طريقة تسهل على الناس الانتفاع بما في تلك الخزائن من الذخائر والأعلاق النفيسة، وهى فكرة جديرة بالاستحقاق ولكنها بعيدة المنال لموانع كثيرة. وقدما قال الشاعر:

ولو سئل الناس التراب لاوشكوا　　　إذا قيل هاتوا ان يملوا ويمنعوا

كان السيد سعيد كامل العقل ينظر إلى الأشياء نظر الاستفادة والاعتبار لا نظر الفرجة والتلهي ينتزع من الماضي الذاهب قوة ومثالا ومن الزمان الحاضر عبرا وأشكالا ويهيئ للمستقبل معارف وأعمالا، فهو رجل زمانه يسلط معارفه على الماضي والحاضر ويدخر للمستقبل أعمالا وأقوالا تدوم مع الزمان المستمر وإن فارقه بذاته فأعماله وأقواله تبقى مستمرة خالدة.

وتلك لمحة من روحانية المرحوم وقبس من أنوار عقله المستنير، وانظر إليه يجول بفكره في العالم الإسلامي على اتساع أكنافه في المعمور؛ وهو قاعد بمكتبه أو سائر في طريقه أو منزو في مرقده كأنه مدير سياسي يخوض بحار الوجود ويستوحي أخباره من مظانها مهتما بما هو عليه من خير أو شر ، نفع أو ضر، شدة أو رخاء، تقدم أو تأخر، فتراه يتألم عند اليأس، ويفرح عند الرجاء.

ثم انظر إليه قدس الله روحه فوق جبل عرفات في السنة التي حج فيها يفاتح إخوانه الحجاج الشرقيين، فيجلس إلى جانب الشيخ الوقور الجاوي المسلم في خبائه ليستعلم منه عن أحوال إخوانه المسلمين بجزائر الهند الجاوية الهولاندية كيف حالهم وحياتهم وحريتهم في دياناتهم وسلامتهم في أنفسهم ودنياهم ، ثم يتلقى من أخيه الجاوي المذكور مثل تلك الأسئلة عن المغاربة المسلمين ، ويتصل الحديث في التعارف الإسلامي بجبل عرفات في ابتهاج وصفاء وسرور وهناء لا مثيل له في الحياة ولا يتأتى إلا في ذلك الجبل المقدس حيث ينسى الغريب وطنه ويعمر قلبه بجلال الله وجماله.

ثم ترى السيد سعيد ينتقل إلى مخاطبة حاج آخر من بلاد روسيا من إخوانه المسلمين ولا يزال يستقرئ الأحوال ويستملي من مسلمي المعمور مفيد الأقوال، ويرجع إلى وطنه المغرب الأقصى ممتلئ الوطاب عامر الفكر بما استمده من أحوال العالم الإسلامي، وهناك ترى السيد سعيد حجي اكتمل عقلا وروحا وعظمت همته فأضاف إلى معارفه الواسعة وثقافته العالية ملكة أخلاقية وخبرة عامة استفادها بأسفاره المتعددة شرقا وغربا، بعدا

وقربا، فجاءت أعماله المفيدة نتيجة تلك الملكة وعصارة تجاريبه المتواترة ويكفيه فخرا له ذاته اللطيفة سكنت الضريح وروحه الشريفة صارت إلى مستقى الرحمة وعالم النور والقدس، وأعماله لا تزال مستمرة الحياة بحالها كما كانت قيد حياته قدس الله رحه.

ومن أفكاره رحمه الله التي وافق فيها أكبر علماء الاجتماع من المسلمين أنه كان يتمنى للإسلام نهضة عامة في الشؤون العلمية والأدبية يتأتى بها حفظه كيان الإسلام.

وبالجملة فالرجل كان آية من آيات الله البينات، واسع المعرفة، عظيم الهمة، خبيرا بشؤون الحياة الاجتماعية، اشتعلت أنوار ذكائه فأضاءت عقله في زمان قصير، ثم فارقت هذا العالم الفاني إلى عالم الخلود والبقاء « وإن إلى ربك المنتهى ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام، وكل من عليها فان ».

حياة سعيد: مثال يحتذى

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيد حجي
السنة السادسة - العدد 1189 - الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 الموافق 11 مارس سنة 1943

ابو بكر القادري

إذا قدر لسعيد أن يكتب عنه أصدقاؤه وأخصاؤه، متحدثين عن المواهب التي منحها، والميزات التي خصص بها، والمشروعات التي وضع تصميمها وكان في عزمه القيام بها، إذا قدر هذا فسيلاحظ الجميع في شخصية الفقيد رحمة الله عليه كثيرا من المزايا والفضائل قلما توجد في شاب غيره، وسيدرك إذ ذاك فداحة المصيبة في فقده.
وإذا كان سعيد صار في عداد الأموات، ولم يبق خالدا منه إلا ذكره وأعماله، أفلا يحق لنا نحن أصدقاؤه وإخوانه أن نتذكر ه المرة تلو المرة، فنعدد مآثره، ونتخذ من حياته نبراسا يضيء لنا السبيل، ومن معانيه عبرا تقينا مراتع الزلل. أفلا يتعين علينا وقد وارينا السعيد التراب أن نقوم بواجب الوفاء له، فنعترف له بما أسدى من خير، وندرس ما وهبه الله من خصائص ومميزات.
إن لك في عنقنا دينا يا سعيد! وسنقوم بتأديته ما استطعنا إلى ذلك سبيلا؛ فنم قرير العين أيها الأخ الوفي؛ ولتطمئن على أمانيك؛ فإخوانك حريصون على تنفيذها، قابضون بكلتا يديهم عليها.
والآن وقد عزمنا على إصدار هذا العدد الخاص بمناسبة ذكراك، ما ذا عسى أن أكتب

عنك؟ إن حياتك كلها مليئة بالأعمال، مليئة بالنشاط، وهى في حاجة إلى دراسة مستفيضة لأنها بأجمعها ممتعة ومفيدة. فحياتك المدرسية الأولى ينبغي أن تسجل وتنشر لتتخذ منها الأجيال مثلا في النشاط والمثابرة والاعتماد على النفس والإرادة القوية وحسن الاستعداد للمستقبل؛ فهل سمع القراء بشاب كون نفسه بنفسه وكان وهو فتى لم يبلغ الخامسة عشرة من العمر يخطط الخطط للمستقبل، ويعد العدد للبناء ويمرن نفسه على القيام بمهمات الأعمال وعويصات القضايا؟ هل سمع القراء بفتى في هذه السن قسم أوقاته بنظام، فهذه حصة يثقف فيها نفسه، وهذه ساعة يكون فيها رجولته ويصحح أغلاطه، وذلك وقت خصص لدراسة شؤون المجموع والبحث عن أدوائه وما تتطلبه من علاج، حتى ما إذا أتم استعداده وقام ليؤدى رسالته في الحياة وجد نفسه قد مهد الطريق، ووضع الخطط، وأحكم التجارب، فلم يخطئ الطريق، وكان النجاح حليفه في كل عمل قام به.

لقد كان سعيد عبقريا حقا، وكانت العبقرية تتجلى فيه وهو صغير؛ ولو مد الله في عمره لكان له شأن كبير، وعلمنا أنه من أولئك الأخصاء الذين يعرفون كيف يضطلعون بالأمور، ولاستفادت البلاد من أعماله المجيدة، وتفكيره الناضج، وذهنيته الخصبة، ونشاطه الدائم، وإخلاصه المتناهي، ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن.

لقد نظر سعيد إلى بلاده نظرة الطبيب النطاسي؛ فكان وهو صغير يبحث عن الأسباب التي جعلتها في المؤخرة، وكلما بدت له فكرة أو سمع ملاحظة إلا وسجلها في دفتره ليعطيها ما تستحق من العناية والدرس. وعندما استجمع عدة ملاحظات، وكون فكرة مصيبة عن الأدواء التي أصابتها وأحدقت بها، أخذ يفكر في علاج عن الأدواء، وكان في تفكيره بعيدا عن الخيال، عمليا إلى أقصى حد يتصور.

وكثيرا ما كنا نلاحظ عليه اهتمامه ببعض الجزئيات البسيطة، ونظره الذي كنا نتصوره قصيرا في بعض الأشياء، فكان يجيبنا بابتسامة خفيفة، غير معير لملاحظاتنا أدنى اهتمام؛ وقديما سئل سعيد عن الضروريات التي تحتاج إليها بلادنا باستعجال، فأجابنا أن بلادنا

مفتقرة أولا إلى مطبعة، وكم كان يبدو لنا هذا الجواب بسيطا وغير مقنع، ولكن ما فتئنا وقد ولجنا ميدان العمل أن شعرنا بضرورة إيجاد المطبعة لنستطيع أن نؤدى بعض الأعمال التي تتطلبها منا البلاد، بل أدركنا أن كل عمل أو خدمة نود القيام بها لصالحنا تتوقف كلا أو بعضا على المطبعة، فعلمنا حينئذ لماذا فكر السعيد قبل كل شىء في إيجاد مطبعة، وزدنا تقديرا لبعد نظر هذا الراحل الكريم.

هذه ناحية واحدة من نواحي الفقيد، وليس المجال واسعا لكى نتحدث عنها بإسهاب، وهناك نواحي أخرى لا تقل أهمية وخطورة كان الفقيد ممتازا بها، ولم نلاحظ وجودها إلا في أفراد قلائل من إخواننا الأبرار.

وبعد فإن موت سعيد يعد بحق رزءا جسيما وخسارة كبيرة لحقت بهذه البلاد؛ فسعيد لم تضع فيه عائلته ولم يضع فيه أصدقاؤه، وإنما هى آمال تحطمت بموته، ومواهب غصبت بفقده، وأعمال أقبرت بانتقاله، ومشاريع تهدمت بذهابه.

آمال أمة بأسرها، ومواهب يندر وجودها، وأعمال هو ابن بجدتها والحريص عليها، ومشاريع هو روحها وعمدتها.

فرحمك الله يا سعيد، وألهمنا الصبر على فراقك، ووفقنا لبناء ما كنت تتوق إليه.

ذكرى سعيد

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيد حجي
السنة السادسة - العدد 1189 الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 - 11 مارس سنة 1943

الهاشمي الفيلالي

مضى عام كامل على وفاتك يا سعيد، وها هم إخوانك الأبرار وأصدقاؤك الأوفياء يحتفلون اليوم بذكراك، وإنها لذكرى تثير في نفس كل واحد منهم ذكريات، تمثل أمامهم صفحة عامرة طويت، ومرحلة حافلة في معترك هذه الحياة اجتيزت، وجندى في وسط المعمعة استشهد، ودور رائع مدهش أسدل عليه ستار. لأنك لم تكن من أولئك الذين يعبرون هذه الدنيا الفاتنة فتفتنهم حتى عن أنفسهم فيلوون عنها ولا يتركون بها دويا. لأنك لم تكن من أولئك الذين يرتبطون بالناس ويتصلون بالحياة فيقنعون بالدون ولا يتركون لهم أثرا ما يبقى في النفوس عالقا، وفي القلوب مرسوما، وفي سجل الأيام محفوظا، بل كنت عملا متجسما وأملا باسما، وحياة حية، وروحا سيارة لا تنهي مرحلة إلا وتبدأ أخرى لا تعرف لها نهاية ولا تحب أن تعرفها، لا تضع لأفقها حدودا ولا تريد أن تتصورها. في كل ميدان لك جولة، وفي كل افق لك تحليق، فما ذا تثيره ذكراك في نفس أخيك؟ إنها لتثير في نفسي ذكريات كثيرة وكثيرة جدا، إنها لترجع بي إلى ماض حفيل وحفيل جدا بالأعمال والآمال والآماني والأحلام، إنها لترجع بي إلى مراحل عديدة ومتنوعة من تاريخنا الوطني، ومن أغنى تلك المراحل للعاطفة وللعمل يوم كنت بعيدا عن بلادك في الشرق للدراسة والاستطلاع والتكون، فترى شباب الأمم العربية العامل المجد، فتريهم المثل لشباب

المغرب النشيط المتحفز؛ يوم كنت بعيدا عن بلادك ولكن تصبو لأن تكون على صلة دائما بأخبارها وأحوالها وأعمال رجالها ومراحل تطورها، تسأل عن القليل والكثير والعظيم والحقير والكبير والصغير، وتستطلع كل وافد ووارد وكل غاد ورائح، فيكون لك من ذلك مصدر سلوة شريفة ومادة أعمال جليلة، ومع ذلك تناجي نفسك متعللا كما جاء في رسالة لك من دمشق في 19 فبراير سنة 1932 : « فصبرا يا فؤادي المشتاق إلى وطني وإلى أعمال أبنائه الأبرار فلم يبق إلا نحو أربعة شهور لنجتمع ولنفعل ما بدا لنا وما يحقق رجاءنا في كل ما يتعلق ببلادنا العزيزة » يوم كنت بعيدا عن بلادك في أوربا، فما كانت مدنيتها الخلابة، ولا مظاهر عظمتها الجذابة، ولا خدعها الفاتنة، لتغير روحك، أو تفتنك عن بلادك، أو تنسيك أصدقاءك، بل كنت كما تقول من رسالة أخرى من لندن في 16 فبراير سنة 1936 : « وصلت إلى لندن بعد أيام فهى حافلة بكل شىء ومن كل صنف وبأي نوع ولكن أشعر فيها بغربة » ، يوم كنت لا لسانك يمكن أن يترجم عن عواطفك، وأعمالك تنبئ عن إحساساتك ولكن بقلمك كنت تسجل كل ما كان يختلج في نفسك الكريمة نحو إخوانك ونحو بلادك فكانت رسائلك خير متعة للقلب وأحسن سلوة للروح وأبلغ رسول من القلب إلى القلب وأفصح ترجمان معرب عن أمانيك وأحلامك. كل ذلك وكثير غيره تثيره اليوم ذكراك في نفسي فأذكر أخا في العمل ورفيقا في الميدان، والحديث عن إخوان العمل ورفقاء الميدان مما لا زال لم يحن وقته، وأذكر صديقا وفيا والحديث عن سعيد الصديق فيه وفاء وعزاء وفيه عبرة في هذه الظروف التي علا فيها صوت الحديد والنار، صوت القسوة والشدة، صوت العاطفة والعقل، صوت الرحمة والرأفة، فأصبح من الإنسان للإنسان أسود ضاربة وذئاب مفترسة. لا إخوانا أصفياء ولا أصدقاء أوفياء في هذه الظروف التي سيطرت فيها المادة على الروح فجعلت من إنسان الأخوة إنسان الأثرة، ومن إنسان العاطفة إنسان القسوة، ومن إنسان العقل إنسان الجنون، ومن عالم الاطمئنان والخير عالم الفتنة والشر حتى أصبح الناس وقليل منهم أولئك

الذين سمت أرواحهم وطهرت نفوسهم وفضلت أعمالهم فكان لهم من الصداقة والأخوة متعة الحياة ولذة الروح وطمانينة النفس وباعث العمل ومصدر التوفيق ورائد النجاح.

لقد كنت صديقا وتقدر الصداقة قدرها فكنت حريصا على أن تكون الأخ الوفى والصديق المخلص الذي يحيا لأجل أصدقائه يشقى لسعادتهم ويتعب لراحتهم. فكان لك منهم ملجأ عند الشدة، ومرشد عند الحيرة، وعون عند الحاجة، وعطف عند القسوة. وكنت لهم موقد العزائم الفائرة، ومحقق الآمال البعيدة، وموجد المشاريع المتنوعة، تسهل لهم كل صعب، وتذلل لهم كل عقبة، وتتحمل في سبيل غايتك عبء كل مخاطرة.

لقد كنت صديقا وما كانت صداقتك صداقة عوارض تزول أو منافع تفنى، ولكن صداقة صفاء طيبة وميز الة سامية تقدرها في أصدقائك ويقدرونها فيك، ومن تقدير متبادل إلى إعجاب مشترك، ومن عطف قلبي إلى وداد روحي ، ومن اتحاد في الشعور إلى امتزاج في العواطف والإحساس، وأنى لطلاقة بدايتها تقدير ونهايتها محبة وغايتها خير مطلق وفضيلة مشتركة أن ينسيها مر الزمان أو بعد المكان أو فراق الأجسام.

لقد كنت تحب أن أقتلع كل صورة في ذهني عنك وأن لا أتصورك، كما ورد في رسالة لك من سلا في 7 غشت سنة 1935 : « إلا ذلك السعيد البسيط الذي يحيا لأصدقائه ويرى في الصداقة أقوى رابطة روحية » . فتصورتك كما كنت تحب في حياتك، وها أنا أصورك كما كنت تريد بعد وفاتك.

سعيد كما عرفته

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيد حجي

السنة السادسة - العدد 1189 الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 الموافق 11 مارس سنة 1943

الصديق بن العربي

في مثل هذا الشهر من السنة الفارطة رزئ المغرب في أحد أبنائه البررة، فكان الوقع في النفوس أليما لهذه النكبة والمصاب عظيما لهذه الرزية التي فتتت الأكباد، وظلت صورها تتردد في مخيلتنا كلما ذكر سعيد أو تلمسنا أثرا من آثاره الخالدة التي عاش لها ومات في سبيلها. واليوم تعاودنا هذه الذكرى وستظل تعاودنا إلى ما شاء الله، فنجد فيها موعظة الماضي وعبرة الحاضر، وتوحي هذه الذكرى إلى نفوسنا صورا من (حياة ذلك الصديق الذي قام بواجبه خير قيام) والذي كرس حياته وشبابه في سبيل تحقيق آمال كانت وما تزال آمال شعب في فجر حياته يشوق للنهوض والانبعاث. وإذا كانت هذه الذكرى بعد مرور سنة على وفاة الفقيد الكريم تذكرنا بشيء فهي تذكرنا بتلك الصداقة الروحية الموطدة الدعائم التي كان الفقيد يغدقها على كل من اتصل به أو شاركه في عمل أو اتحد معه في خطة أو مبدإ ، ولم تكن هذه الصداقة مبنية على أسس واهية أو تمت بصلة إلى النفعية والمادية التي كان الفقيد يبتعد عنها ويزهد في تلمسها، بل كانت صداقة روحية أساسها الاتحاد في الرأي والشعور بالمسؤولية والقيام بالواجب لمصلحة البلاد. هذه المزايا وهذه المظاهر الشريفة وهذه الأخلاق العالية لم تتقمص في سعيد بفضل الاتصال أو على مقاعد المدرسة أو بعد خوضه لمعترك الحياة العلمية، بل نشأت معه فظهرت مبكرة في صباه، وكانت أشعتها تغمر جميع أصدقائه ومعاريفه الذين كنت واحدا منهم، فكان

إعجابنا به في تلك السن يتزايد مع الزمان، وكان وهو أصغرنا سنا يتراءى لنا في حكمة الشيوخ وثبات المجرب للحياة الواثق من نفسه، فكان قدوة لنا في أعمالنا وتصرفاتنا ومربيا كبيرا نقبل على آرائه وإرشاداته في الحياة معجبين بفكره الثاقب ونظراته الصائبة.

ولعل من أبرز آثار الفقيد في أطوار حياته الأولى هو ذلك الإيحاء الذي كان يتمكن بواسطته من جلب قلوبنا وأنفسنا إليه، فكان هو المحور لكل حديث وهو قطب دائرة الأعمال الصغيرة التي كان يراها أفضل الوسائل لتدريبنا على الواجبات المقبلة. ويتجلى هذا النشاط في الفقيد برغبته المبكرة في الكرع من حياض العلوم والاطلاع على وسائل التثقيف والنهوض، فكان يدرس ويناقش ويطالع ويبدي مختلف الآراء والأفكار في أعمال ومشاريع كنا نراها من مداعبات الخيال ومن أبعد ما يتوقع، فكان سعيد وهو في تلك السن المبكرة يفكر في شؤون المغرب ومستلزمات نهضته في صحافة وتعليم وإصلاح؛ وشغله التفكير بهذه المسائل وانكبابه على الدراسات ومطالعة الكتب والصحف عن كل شيء، فكان يتوخى الوحدة والانعزال مكتفيا بالقليل من الأصدقاء عن الكثير من المعجبين به، مبديا رغبته في التعاون معهم على الأعمال المجدية، مبتعدا بهم عن سفاسف الأمور وتافهها. هذا الطموح الذي كان يلازم الفقيد وهذه الرغبة في العمل المجدي التي كانت تقض عليه مضجعه لم تكن لديه فكرة تتصل بالأمل والخيال فقط، بل عمل على إبرازها لحيز الوجود، فانتقى نخبة من الأصدقاء وبث فيهم روح العمل واليقظة، فأنار لهم السبيل وقادهم إلى ميدان العمل المثمر، وكون منهم طائفة عملت لتثقيف نفسها بنفسها وقامت إذ ذاك بأعمال كانت طفيفة في البداية ولكنها كانت عظيمة الأثر في توجيه حياة كل فرد من أفرادها توجيها يتفق والصور والنماذج التي وضعها الفقيد لما يجب أن تكون عليه الأعمال التي اختمرت في ذهنه في مراحل الحياة المقبلة.

ظل سعيد يعمل طوال تلك السنين الأربع التي قضيتها في رفقته لمواصلة الدرس والاستطلاع والكتابة والتحبير والتدرب على مهنة الصحافة التي كانت نفسه تتطلع إليها

حتى إذا أعد العدة للرحلة والاغتراب في سبيل طلب العلم كان مزودا بمعلومات وتجاريب ظلت نبراسا له في حياته سواء بأوربا أو بالشرق، ولم يكن الفقيد صورة لذلك الشاب الذي تغمره مدنية الغرب أو يستسلم لأطابيب الشرق، بل كان يفكر في الواجبات الملقاة على كاهله نحو بلاده، فكان وهو بعد على مقاعد المدرسة يتطلع بلهف وشوق إلى ما يصله من أنباء الوطن والأصدقاء، ويبث في رسائله المتتابعة إلى أصدقائه كل ما يختلج في نفسه نحو بلاده ومستقبلها، مبديا آراءه وخططه المقبلة التي استمدها من روح النهضة المنبعثة في الشرق، ومعبرا عما يكنه لبلاده من حب واعتزاز.

ولم تكن إقامة الفقيد في ديار الغربة مقتصرة على الدرس والتحصيل فقط، بل كان يعمل بكل ما في وسعه على الاطلاع والاستفادة من مناهل العلم والاستزادة من أبواب المعرفة، متصلا بطبقات الأساتذة والطلاب، ممثلا النبوغ المغربي أفضل تمثيل، مغتنما الفرص لإظهار بلاده بالمظهر اللائق بها لدى بعض الأوساط الشرقية الجاحدة، متدربا على شؤون الصحافة التي ملكت لبه والتي كان يراها أفضل الوسائل وأنجعها لبث روح النهوض والقضاء على كابوس الجهالة والخمول، مهيءا نفسه لحمل رسالتها المقدسة.

عاد الفقيد إلى المغرب بعدما اغترف من مناهل العلم العذبة ما يساعده على أداء مهمته، وبعدما حنكته التجاريب واطلع على العوامل التي هزت الشرق وساقته في تيار النهوض والانبعاث، فوطد العزم على تدشين مرحلة من حياته حافلة بالأعمال، متجهة في السبيل الذي رسمه لنفسه منذ سنين.

وهكذا اتصل سعيد بأصدقائه من جديد، وأخذ يعمل ليل نهار لتكوين حركة كما كان يعبر عنها، فاتصل بالأشخاص واختلط بمختلف الطبقات وانغمر في لجة العمل، فكون حوله دائرة من الأصدقاء الذين قدروا فيه روح الطموح والتوثب ومقدرته الكبرى، فقرع باب العمل المجدي الذي انفتح له عن آفاق بعيدة المدى.

بهذه الروح وبهذه العزيمة الوثابة وبهذه الإرادة القوية وبهذه الأخلاق والآداب العالية

دخل الفقيد لميدان العمل معتمدا على نفسه وقوة روحه فأبلى البلاء الحسن وناضل وجاهد في سبيل الدفاع عن الأفكار والمبادئ التي كرس حياته لها.

ولن نحاول في هذه الكلمة تعداد آثار الفقيد في مختلف ميادين النشاط التي كان يوجه عنايته إليها، فهي عالقة بأذهان أصدقائه المقربين الذين يقدرونه بما بذل من جهود وبالنتائج التي تمخضت عنها. على أن بعض هذه الآثار لم تكن في ميدان الصحافة التي ثبت قوائمها سوى إحدى الوسائل التي كان الفقيد يعتمد عليها في الوصول إلى ما تصبو إليه نفسه من إصلاح وتقويم، ولقد كان بنظره الثاقب يرى أن الصحيفة هي العماد الأول الذي ترتكز عليه نهضة البلاد وعليها يتوقف إنقاذ الشعب من براثن الجهالة والخمول، فصرف غايته إلى تكوين صحيفة يومية تطورت حسب تأثير الأحوال والظروف، ثم ألحق بها تلك الأعداد الممتازة التي كانت مرآة صادقة لبوادر النهوض الأدبي والانتعاش الفكري بالمغرب، وعمل في آخر أيامه على إيجاد مجلة أدبية راقية ففاجأته المنية قبل أن يعد العدة لاكتمال المشروع.

وفي هذا الجو كان الفقيد جذوة نشاط متقد يصرف شبابه وأوقاته وماله في سبيل إنجاح خططه ومشاريعه الفنية، واستطاع بجده واجتهاده إيجاد أسرة أدبية انتقاها وأشركها في العمل، فوفق في ذلك التوفيق كله، وظهرت آثاره وآثارها واضحة في تلك الحركة الأدبية التي خرجت من العدم فأسفرت عن فتح عهد جديد في تاريخ الإنتاج الأدبي بهذه الديار، وكانت محاولاته لخلق جو المعرفة وحب الاستطلاع موفقة ومكللة بالنجاح.

تلك بعض مظاهر النشاط لفقيدنا الذي نحتفل اليوم بذكراه، وهي ذكرى تنطوي على تقدير واحترام وإعجاب نحو ذلك الراحل الكريم الذي اختطفته يد المنون فعصفت به قبل الأوان وأصيب النهوض المغربي في الصميم قبل أن تينع تلك البذرة الطيبة التي تعهدها الفقيد لتوتي أكلها بعد حين. ففي ذمة الله أيها الصديق العزيز! وعزاء لبلادك ولأصدقائك البررة الذين كنت رائدهم في الحياة ولا زلت قدوتهم بعد الممات.

شخصية سعيد

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيد حجي
السنة السادسة - العدد 1189 الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 - 11 مارس سنة 1943

قاسم الزهيري

في المرآة

التربية أبرز ميزة اختص بها سعيد؛ فقد ارتكز عليها كل عمله وكل خطوة خطاها قيد حياته، فتربيته هى التي أتاحت له أن يتبوأ المركز الذي تركه شاغرا بعد وفاته، فجعل الناس جميعا ألسنة ثناء عليه.

***

عبثا يحاول المرء أن يجلو مواطن القوة في شخصية عصامية فذة فيسبر غورها، ويوضح معالمها إذا لم يتخذ صورة واضحة أتم الوضوح عن مظاهر هذه الشخصية فيوحد أجزاءها، ويصل أطرافها بعضا ببعض، ثم يجهد نفسه في البحث عن التأثيرات الخارجية التي كان لها أوفر نصيب في تكوين هذه الشخصية وطبعها بطابع الاستقلال والانفراد. فليست البشرية إلا مرآة تنعكس فيها تلك المؤثرات انعكاسا تاما. فإذا كانت النفسية قوية بفطرتها استطاعت أن تستفيد منها إلى أبعد حد فيخرج صاحبها عن المعتاد من البشر؛ وإذا كانت ضعيفة بجبلتها مرت بها تلك المؤثرات كما يمر النسيم على صفحة ماء راكد فلا يترك فيه أثرا بينا. ومن المؤثرات ما هو اجتماعي محض وما هو فكري محض ومنها ما هو مزيج من هذا وذاك. وهى تتجسم في المحيط العائلي الضيق ثم في البيئة الاجتماعية الواسعة وفي الجو الثقافي والفكري الذي قد يختلف إليه بعضنا فيجد فيه مآربه، وأخيرا في الرحلات

والمغامرات وغير ذلك.

والمرحوم سعيد الذي تتبارى الأقلام اليوم في ذكر مناقبه وتعداد مزاياه والإشادة بحزمه وتدبيره ونشاطه قد نجحفه حقه إذا لم نحاول أن نبحث عن المنبع الوحيد الذي تفرقت منه كل هذه المزايا، ولا يتيسر لمس حقيقة الواقع والوصول إلى سر هذه المميزات الخاصة إلا لمن لابسه سنوات مديدة فكانت تجمعه وإياه روابط صداقة أو عمل أو هما معا.

والغالب أن رابطة الصداقة كثيرا ما ينتج عنها العمل المثمر في بلادنا، إذ لم نبلغ بعد درجة النضج الفكري بحيث نتجرد عن كل العواطف ونتسامى عن كل الاندفاعات، فلا نرى الرجل إلا من حيث كونه رجلا مجردا والعمل إلا من حيث كونه عملا مجردا.

لقد كان سعيد عاملا حقا ونشيطا صدقا، فكان عنوان العمل والنشاط، وكان مفكرا متعمقا وصحفيا ممتازا. وكان ذا اطلاع كثير وثقافة جمة؛ وكان إلى هذا وذاك من شبابنا المعول عليهم في النهوض بالبلاد، ولكن ذلك كله قد لا يساوي عشر معشار ما كان عليه من التربية التي كانت كل شيء في نظره والتي بنى عليها كل عمله وكل خطوة خطاها قيد حياته، فتربيته هى التي أتاحت له أن يتبوأ المركز الذي تركه شاغرا بعد وفاته، فجعل الناس جميعا ألسنة ثناء عليه.

وأهم ما يمتاز به أن هذه التربية التي تحلى بها فمهدت له سبلا وعرة وعقبات كأداء لا يدين بها لغيره، فلا الوسط هذبه، ولا أخصاؤه كان لهم التأثير الفعال في تكوينه، ولا سفره في طلب المعرفة هذب من طبعه، وإنما ذلك مجهود فردي بذله ومرن نفسه عليه حتى تزود بخير ما يتزود به شاب في مثل سنه. ولا ننكر أن ارتحاله للخارج لم يكن له أدنى تأثير عليه، فقد أكسبه من دون شك سعة في المعرفة، وبعدا في النظر، ولكنه لم يكسبه ذلك الشيء الثمين الذي بدونه لا نستقيم لحياة ولا نهذب بالتربية.

والتربية - أو جهاد النفس - مطلب عسير، فإن النفس ذات سلطان قوي. فإذا قاومت ذلك السلطان طال بك الجهاد؛ جهاد لا يتنهي، يستمر إلى آخر حياتك الدنيوية، ولكنك

كل يوم تستيقظ مزودا بقوة جديدة، وتوقن أن النصر الأخير لك؛ وذلك ما يذلل أمامك صعوبة الجهاد، كما يقول غاندي.

وفعلا، فقد استطاع سعيد أن يجاهد نفسه، فكبت عواطفه الجامحة، وسيطر على غرائزه وأخضعها إلى سلطان العقل، ثم فكر طويلا في نفسه فاستجلى غوامضها وعرف ما منحه الله إياه من مواهب، وتقدم في آخر الأمر إلى ميدان الحياة واثقا من نفسه، معتمدا عليها، مؤمنا بالظفر؛ فانفسحت أمامه السبل، واتسعت أرجاؤها، وحطم بعزمه كل عرقلة قامت في طريقه. ولا أدري كم كلفه ذلك الجهاد من وقت؛ فكل ما في الأمر أنه بدأه وهو ما يزال حدثا، فكانت سمات الرجولة تظهر عليه وهو في سن الطفولة، وكان يفكر في المشاريع المجدية فيضع أسسها، وهو على هاته الحال وهكذا تم نضجه مبكرا، قبل أن يرتحل إلى الشرق والغرب بسنوات.

ولقد قص على رحمه الله نادرة في هذا الصدد أحب أن أنقلها إلى القراء، قال: « كنت على أهبة السفر إلى مصر، فضاع مني شيء (ولا أذكره بالضبط) فالتفت والدي إلى ذلك وخاطبني معاتبا: إذا كنت قد أضعت ذلك وأنت هنا، فما بالك إذا تغربت في قطر بعيد؟ فكان لهذا التأنيب وقع عنيف في نفسي، وما زلت بها حتى ضبطت أموري، فلم أعد أتلف شيئا بالمرة ».

وكان يسيئه في بعض معارفه قلة نظامهم واستهتارهم بأمورهم، فكان يخاطبهم جادا مؤنبا: « اختاروا لأنفسكم أحد الطريقين، فإما أن تكونوا بهيميين، وحينئذ لا نتطلب منكم نظاما ولا ضبطا، وإما أن تكونوا رجالا كمطلق الناس، وحينئذ يجب أن تضبطوا أموركم وتنظموا حياتكم ». ولقد طالما حث أصدقاءه وأخصاءه على المباحثة في نقائصهم وعيوبهم والمبادرة في علاجها. ولا يخامرنا أدنى شك في الأثر البعيد الذي كان للتربية في اتجاه سعيد رحمه الله؛ فلقد تفرع عنها كل من إرادته الصلبة ونشاطه المستمر وفكره الوقاد وحسن معاملته لجميع الناس على اختلاف طبائعهم.

ذكريات الماضي

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيد حجي
السنة السادسة - العدد 1189 - الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 الموافق 11 مارس سنة 1943

عبد الهادي زنيبر

إن كان سعيد قد مات فإن الصحافة العربية بالمغرب لن تموت، وستظل حية باقية ما دام سكان هذا القطر السعيد ينطقون ويكتبون بلغة الضاد، وذلك لأن الصحافة مظهر من مظاهر الفكر في العصر الحديث، فهى إذن في المعنى فكرة والفكرة قد قدر لها الخلود في غابر الأزمان.

وسأحدثكم عن سعيد وعن الصحافة كفكرة راقبت عن كثب نموها ونشورها في فكر سعيد، وفي حديثنا عن سعيد وعن الصحافة يجب أن لا نغفل ذكر الصحافة العربية بمصر، فالصحافة المصرية ستظل صاحبة الأثر الأكبر على جميع النهضات الأدبية والثقافية في جميع الأقطار الإسلامية الناشئة، وسيظل رجال الفكر مثل سعيد مدينين لهذه الصحافة في كل ما شيدوه وما سيشيدونه من الأعمال.

لن أنسى ما حييت تلك المناقشة التي دارت بيننا نحن وجماعة من رفقائنا من تلاميذ الكلية الإسلامية وذلك لأيام خلت بعد حلولي بيروت ملتحقا بهذه الكلية، وكان الوقت مساء وصادف أن كانت ليلة مقمرة من ليالي الصيف الجميلة اتخذنا مجالسنا في حديقة صغيرة تابعة للقسم الذي خصص لنا بالمدرسة، ودار الحديث حول شتى المواضيع

وبالأخص فيما يثيره لغو الصحافة والصحافيون من لجاجات وخصومات بين كبار الكتاب المحدثين، وكان لكبار الكتاب في هذه الجماعة الصغيرة أتباع ومؤيدون، فللعقاد والمازني وأصحابهما من دعاة الاقتباس من الآداب السكسونية مدافعون مناضلون، ولطه حسين وهيكل وأمثالهما من أنصار المدرسة اللاتينية أنصار ومجاهدون.

أما سعيد فكان كما عرفته فيما بعد صحافيا قبل كل شيء، فلم يكن يرى في هذه المشاحنات والمجادلات الأدبية سوى أداة لشحد القرائح ومادة غزيرة لملء أنهر وأعمدة في الصحف، وكنت أعتقد أن هذه المعارك الطاحنة لا تترك وراءها إلا غبارا وعجاجا وأنه سيظل خالدا من هؤلاء الأدباء من كان أسلوبه قويا متينا، ووجدانه وإحساسه عميقا ودقيقا لا يتقيد بالمذاهب والآراء في التعبير عما يخالج ذهنه.

وكم كان سروري عظيما عندما علمت أن هذا رأى سعيد، وليس يخفى على المحبين للآداب ومتذوقيها قيمة هذا السرور عندما يعثر الواحد منهم على مشارك له في الرأي، وكان لرأي سعيد قيمة - يشهد بذلك جميع المتصلين به - سواء اكان ذلك فيما يمس شؤون الحياة العملية الصرفة أو فيما له اتصال بحياة العقل والروح، لذلك لم أملك نفسي من الإعجاب برأيي لأنه رأى سعيد.

ولم يكن ذلك مني اتفاقا ذكر تطاحن هذين المذهبين على أعمدة الجرائد والمجلات في ذلك الوقت، بل لأننا كنا نعتقد أنا وسعيد بأن هذا النضال سيكون له الأثر الأكبر في توجيه الآداب العربية الناشئة التي ستنهجها في المستقبل، ولأن الشخصيات التي كانت تذكي نيران هذه الحرب الشعواء كانت حقا شخصيات قوية مؤثرة زرعت في النشء العربي روحا وحماسا لم يكن له بها سابق معرفة مما كان يطرب له جميع المومنين بمستقبل الآداب العربية الفتية، وكنا نحن من جملة هذا النشء، ولا تسأل عن الآمال التي أخذت تجيش بها صدورنا في ذلك الوقت، وكان سعيد يصور لنا هذه الآمال حقائق راهنة عندما نجلس إليه؛ يحدثنا عن جرائده ومجلاته المستقبلة غير متوان في تذكير كل

واحد منا بالواجبات التي رسمها له للنهوض بعبء هذه المشاريع الجليلة؛ فقد كان يحدثنا عن الطبع وكيفية الإخراج، وعن انتقاء المواضيع وترتيب المقالات، وعن افتتاحياته ، وعن هيأة التحرير واختيار المحررين، وعن النشرات التهذيبية التي ستكون كملحقات بالجرائد اليومية، وعن المجلة التي ستكون خاصة بطبقة المثقفين، وانتقاء لون الغلاف، وقد كان ظاهر الإعجاب بمجلات « دار الهلال » يتخذها دائما قدوة فيما ينوي القيام به، معجبا بلطف وأناقة إخراجها، مثنيا على ذوق مخرجيها.

ولم يكن في استطاعتك أن تتصور سعيدا غير مهتم بالصحف والصحافة، فهو خارج المدرسة لا يقصد غير دور الصحف والطباعة، وداخل المدرسة كنت ترى فوق مكتبه وحوله أكواما من الجرائد والمجلات خذ منها المقصوص وغير المقصوص، وعندما كنت أسائله عاتبا عن خبر هذه القصاصات من الجرائد المكدسة فوق مكتبه، وقد رسم عليها بالقلم الأحمر أو الأزرق كان يجيبني ضاحكا هازئا من جهلي بالدور المهم الذي يلعبه المقص والقلم الأحمر في حياة الصحف والصحافة.

ومن غرائب الصدف وحسن حظ سعيد أن كان من جملة رفقائنا بالمدرسة تلميذ فلسطيني يدعى محمد خياط كان له ولع كبير بالجرائد وكان يوفر على سعيد كثيرا من المشاق، كان يتفق له أن يشترى من العدد الواحد نسختين أو ثلاثة في اليوم، وقصده مرة عبد الكريم - أخ المرحوم - بالدعابة - وأعوذ بالله من عبد الكريم إذا داعب أحدا فهو لا محالة ضاحك منه ومضحك منه الجميع - سأله عبد الكريم عن سبب شرائه العدد الواحد عدة مرات في اليوم، فأجابه محمد خياط أن قصده من ذلك محاسنة بائع الجرائد المسكين، فضحكنا جميعا من جوابه لأننا نعرف السبب الحقيقي في ذلك. فالباعث لمحمد خياط في هذا التكرار ليس هو إجابة داعي المعروف بل إرضاء لولوعه وشغفه المفرط بالجرائد، وكثيرا ما كان يحدث لمحمد خياط ذلك خارج المدرسة أيام العطل عندما يستطيع أثناء تجواله بأنحاء المدينة أن يشترى عدة جرائد ويضيع منها بالأماكن التي يمر بها العدد

الوفير.

وكم كان يلذ لنا أن نتجاذب أطراف الحديث ونحن نقطع شوارع بيروت الأنيقة جيئة وذهابا أو مطلين على ضفاف البحر الأبيض من علياء « جرومانه » بين أدراجها الخضراء اليانعة أو حول جداول نهر « برده » في حدائق دمشق الفيحاء تحت أشجارها الوارفة!

إنها لمشاهد تبعث على الأحلام والآمال.

فكم من نهضات شاهدنا تكوينها بالخيال على أعمدة جرائد ومجلات سعيد المستقبلة في شتى ميادين العلم والآداب والاقتصاد والسياسة، وكم من معاهد للعلم والفن والتربية خططنا تصميمات لها؛ وياله من مجتمع نشيط أسسنا دعائمه على اتقاض مجتمعنا البالي المتهدم؛ وبالجملة أى مستقبل زاهر كنا نؤمله لمغربنا العزيز؟

إنها لمطامح وآمال أعجب الآن لكواهلنا الفتية كيف لم تكن تنوء بعبئها لحا الله قوما ينعتون الصبا بالجنون.

فصباك وشبابك ياسعيد كانا حافلين بجلائل الأعمال والأقوال، والآن وقد مرت الأعوام ومرت السنون وأخيرا اختطفتك من بيننا فجيعة الموت الغشوم فما قيمة هذه الذكريات؟ قيمتها يا سعيد في نفوسنا كبيرة، فهى كل ما تبقى لدينا منك سنحتفظ بها في سويداء قلوبنا وسننشرها كما ينشر الربيع الآمال في قلوب المحبين كلما هدانا الشوق والحنين إلى ذكراك.

وداعا وداعا أيها الراحل الكريم وسلام عليك سلام قول من رب رحيم.

سعيد: جهاد صامت

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيد حجي
السنة السادسة - العدد 1189 - الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 الموافق 11 مارس سنة 1943

زياد

يعز علي أن أنبش ذكريات ماض انقضى وكله خير وعمل وجهاد، ونبش الذكريات من مصائب الأمور؛ وكثيرا ما تعمدت أن أتناسى عهدا بعثه ألم وحسرة واسترجاع ولوعة وشقاء.

وبعض جهات الأمل تخلق في نفس الإنسان معنوية السعادة والهناء، وبعض جهات الأمل تخلق في الإنسان آيات بينات من دوائب العمل والنشاط، حتى إذا انهد ركن من هذه الجهات انقلبت بعض جوانب الإنسان إلى ما يشبه الأزمات النفسية التي هى دليل من دلائل الوفاء.

« وهكذا كان » فقيدنا السعيد « ولذا » يعد نبش ذلك الماضي من تجديد صدمات الدهر وخيانة الحظ؛ ولكن « أسرة المغرب » تريد أن تنبش هذا الماضي بدافع الوفاء، وإذا كان الوفاء يرخص هذا فما علينا إلا أن ننبشه معها؛ وتجديد الأمل في مثل هذه المناسبات من نعم النفوس المتألمة؛ وفي بعض الألم ما يشفي من الألم، كما يقول النفسانيون.

هذه سنة مرت بكاملها على وفاة سعيد، ولكن أصول جهاده ما تزال ماثلة للعيان.

ومن أيسر أعمال سعيد أنها تسير في حضرته وغيبته، وفي حياته تزدهر كما هى اليوم في مماته، وسر ذلك أنه ابتلى بداء الجهاد الصامت ، وهذا الداء مرحلة أولى من مراحل العظمة والخلود؛ لقد وضع رحمه الله برامج بعضها عرفه الناس وبعضها لم يعرفوه وسيعرفونه في يوم قريب أو بعيد؛ غير أنه ما تعود أن يملأ جوانب نفسه وجوانب أصدقائه القريبين والبعيدين بمثل ما سبق؛ غالب الأعمال من لدن أغلب الناس، فهو في كل مرحلة من مراحل عمله يصمم في نفسه ويخلق العمل جنينا في فكرته، ثم يخرجه للناس في حلة قشيبة لا يتقدمها طبل أو مزمار ولا جعجعة تسفر عن غير طحين، قيل: إن سعيدا توفق فيما باشره من أعمال، وكان يتوفق فيما كان في عزمه أن يباشره من أعمال، ولكن قل من تحدث عن سر نجاحه في هذه الكتلة المتناسقة من الأعمال؛ ولو بحث الناس في ذلك لوجدوا سر هذا التوفيق فيما منحه سعيد من الدراية بقطع المراحل التي لا تمنح لغير الأوفياء، والأوفياء كثيرون في كل بلد وفي كل زمان؛ غير أن الذي يقدر له النجاح منهم هو من ابتلى بداء الجهاد الصامت.

فأنت أمام حياة سعيد تجاه سلسلة من أدوار النضال ضد خمول النفس، وتجاه ثورة عنيفة كل العنف، قاسية كل القساوة، سريعة في منتهى السرعة؛ وهذه أمور من لوازم الانقلاب في الحياة؛ ولا مفر لكل عمل من هذا القبيل أن يتخذ لنفسه مظهرا كبيرا يبشر الناس أو يوهمهم على حسب همة صاحبه؛ وهذا المظهر هو الذي أخفاه سعيد عن الناس، ولم يتركه يظهر إلا ومعه عمله ومشروعه ونتيجته وغايته. وإخفاء المظهر في العمل حرب لاهواء النفس، وهو جزء من عبقرية العاملين؛ وعدم سبق المشروع بضجة الإعلان يعرب عن « جهاد صامت » كان حظ سعيد منه وفيرا وعميما؛ وهو العامل الأول في تسيير الأعمال.

في حياة سعيد جوانب كثيرة، بعضها يتعلق بنفسيته المجردة وبعضها يتعلق بتصميمات أعماله، وكثير منها يتعلق بخدمة بلاده، وأقلها يتعلق بإعلاء شأن الصحافة في المغرب، وكلها

تستحق درسا في غير إيجاز، ليعرف الناس ما خفى عنهم من هذا العصامي الكبير؛ ولكن أحقها بالدرس وأجدرها بالتوفيق هو ما سميناه اليوم بـ « الجهاد الصامت » ، ومن أعظم هذه الفواجع أن يموت من يستعين بهذه الروح في عراكه ضد الجمود؛ وإن من أعظم النكبات أن تفقد الحياة نفسها فيمن اختاروا أساليب الاتجاه في شؤونها.

لقد شاهد الناس سعيدا وهو يمشي في الطريق جادا في مشيته قد أطرق رأسه إلا لسلام أو كلام ، يقبض في غالب الأوقات على الجزء الأيسر من جبته الخفيفة، يبتسم كلما ارتأى له شيء يستحق الابتسام؛ ألا فليعلم الناس أن مشيته تلك وعلى هذه الصورة هى نفس وجهته في الحياة والحياة العامة أعني؛ وقل من التقى بسعيد في جانب من جوانب الشارع فأشبعه كلاما؛ وكذلك قل من كان يسمع منه تعليقا ضافيا عما يعتزم عليه من عمل صغير أو كبير، وتلك وسيلة من وسائل « الجهاد الصامت » ولو قدر لسعيد أن يطول عمره ولم يصادم في أعماله لرأي كثير من الناس كيف أن العزيمة ثبتت بأصولها وفروعها في بعض النفوس؛ ولو أراد الله أن يندهش الشباب من جديد في باب دك الصعاب وهد الحواجز لأبقى سعيد إلى ما بعد اليوم. ولو أراد الله أن يكفر الناس بكلمة « مستحيل » لبارك في عمر سعيد، ومن للإنسان بما يتمنى؟

والمقادير إن رمت لا تبالي أرؤسا تصيب أم أذنابا

كما قال شاعر النيل.

على أن « أسرة المغرب » ستحافظ بدافع الوفاء على ربط حلقات العمل التي كانت تغمر جوانب من نفسية سعيد، وهو دين في ذمة كل واحد من أفرادها وبدا يتم ما كان في عزم الراحل الكريم.

الأستاذ سعيد حجي

فقيد المغرب والشباب

التقدم

العدد 15 - الإثنين 5 ربيع الأول 1361 - 23 مارس 1942

أحمد النجار

فقدنا الأخ سعيد والأسى يملأ فؤادنا، فكان نعيه طامة كبرى ورزءا عظيما لشباب المغرب العامل لتطور البلاد ورقيها. فلم يكن المرحوم من الشباب العادي الذي ليس له قيمة تذكر في الحياة الاجتماعية، بل كان من أولئك القلائل الذين أوقفوا حياتهم على خدمة المغرب خدمة صادقة في النواحي الإيجابية التي كان يراها كمراحل أولى للتطور ورفع مستوى الأوساط.

ولقد أهلته مواهبه الخاصة واستعداده الفطري لهذه الأعمال الجليلة، فأسس المشاريع وكون أعمالا نافعة من ثبات وإيمان قوى عند تعقد المشاكل والتوائها وفي صبر وتجلد عند تلقي الصدمات.

والحقيقة أن حياته رغم قصرها كانت حافلة بنشاط لم يعتره ملل ولا فتور إلى أن سكتت نبضات قلبه، وإذا ما حاولنا أن نحلل نفسية هذا الشاب العامل الذي بموته طويت مراحل قصيرة سجل فيها لتاريخنا أعمالا عظيمة في ميادين مختلفة، فسوف لا يتسنى لنا استقصاؤها ولا يمكن حصرها في مثل هذه الكلمة الوجيزة إذ خص الفقيد بميزات قلما تجتمع في غيره، بيد أن ذلك لا يمنعنا من إجمال بعض مميزاته:

فقد كان شعلة ذكاء، والذكاء يأبى إلا أن تشع نوره ويضيء ما حوله، وزودته الطبيعة بنفس غنية بالأخلاق السامية والذهن الصافي، فحبب لكل من عرفه أو اتصل به وفهم من الأشياء حقائقها الجوهرية ومراميها العليا بمعونة وسائله الخاصة في البحث والتحليل، فضلا عما كان له من الآراء الخاصة في الحياة تجده مطمئنا إليها وعاملا على تنفيذها، ولا بدع فقد امتاز بالعمل في حدود التفكير، وبالتفكير في حدود العمل، فكانت هذه الصفة السامية من أبرز خصائصه، فلم يفكر بطرق خيالية ككثير من شباننا الذي يعيش في فضاء متسع وجو عريض من الخيال لا يمت بصيلة لحالته ولا إلى ما يحيط به، وهذه أيضا من أشرف مميزات المرحوم التي اشتهر بها في الأوساط، ولذلك كان ينتقد انتقادا مرا مثل هذه الأساليب الخيالية العقيمة التي برهنت له تجربته الشخصية على بطلانها، فطالما تحاشى الخوض فيها وتجنب إضاعة الوقت في أشياء لا تتصل بالحياة الواقعية، فتلفيه في الاجتماعات إذا ما حلق أحد الحضور في جو الخيال فلا يزال به في لباقة يستدرجه في أساليب الحديث إلى أن يصل به إلى أشياء لها قيمتها في المجتمع.

هذه بعض الخصال الجميلة التي اتصف بها فقيد الشباب والصحافة المغربية نسجلها ونحن مفعمون أسفا وحزنا على أخ اختطفته من بيننا المنون وهو في ريعان شبابه بينما كان منهمكا في العمل للصحافة وللشباب وللمغرب؛ رحم الله الزميل سعيد وألهم عائلته وإخوانه وأصدقاءه الصبر والعزاء.

عند الهبوب
روح أثختها شوكة

التقدم

العدد 15 - الإثنين 5 ربيع الأول عام 1361 الموافق 23 مارس سنة 1942

الحسين الشرقاوي

اصطفت سيقان، وتكاثفت مناكب، وتداخلت هياكل، وامتدت أعناق في وقفة الخشية مودعة روعة روح أثختها شوكة، فتعالت إلى مصحة العلاء تطلب أنجع بلسم لجروحها فما لهذه الشفاه تردد غنات مزعجة؛ أأبهمتها العاصفة إذ خالط الأثير غبار الهوجاء؟ ما لهذه القلوب تئن خافقة بعزيف حائر، أأزعجتها الأشباح الشلاء وأهلعتها أنامل الفناء التي وقعت على « البيان » ؟ قد يكون بالأسماع وقر وقد يكون بالآذان صمم، ولكنها تنفتح لأول نبرة من نبرات العدم، وتتصدع لأول صدمة من صدمات القضاء، فلتذرف يا عين ما شئت من دموع، ولتخفق يا فؤاد بما شئت من أهازيج، فالهداة الصمامة والسكتة العميقة ووحشة الفناء لن تحول بين المشيئة.

فنحن لا شيء أمام الكون الموحد العظيم

ونحن لا شيء أمام الأرض والشمس

ونحن لا شيء أمام الخضمات والجبال

ونحن لا شيء أمام الظلمات والنور

ونحن لا شيء أمام الزوبعة والسيول

ونحن لا شيء لأننا دائرة الوجود المفكرة

ونحن كل شيء لأننا جزء الحياة الرقيق الحساس

ونحن كل شيء لأننا ريشة المصور المبدع

ونحن كل شيء لأننا أدق حاكي سجل للعاصفة التهويلة، وللزوبعة الدمدمة، وللفاجعة اللفحات، تبلغ آذاننا انات النفوس المتقطعة، وتقاطيع المهج المنكودة فنسكبها صمتة للجبل، وحفيفا للغابة، وخريرا للنهر، وتكسرات أمواج للخضم المديد، نسمع العويل والصرخات فنلقيها في الهياكل ألحانا مصفاة من كل ألم، نرى الفزع والهلع فنرسمه للملإ أهول رسم تشاهده في البسيطة مقلة، نرى الحيرة والجزع فنصور للرزية أرهب صورة تستشعر الموت والاضمحلال فننظم لذوي الآنين أفجع ملحمة قدت من مأساة الحياة.

إيه سعيد! توسدت بآخر وسادة يركن إليها الرأس المصدوع

إيه سعيد! ارتديت آخر حلة تشتاقها النفس الآنه

إيه سعيد! أطرحت على آخر فراش تأوي إليه الذات المتعبة

ظللت تسعى وبين يديك قدح الاستجداء ليدخر للطالب أكمل زاد يمكنه من متابعة السرى دون عياء وكلل، ولكنك عدت ولما يلقي إليك أحد بحسنة[1]

ظللت تعمل لتلقيح دوات من نزعات العمى النفسي الأليم فانطلقت منك أول صيحة في أول « مغرب » وأردفتها بأعلى من صرخة في « ملحق » حافل واسترسلت في تمديد الخيط وتسديد هالة « الأسرة » بأجمل فكرة في فكر « الثقافة » .

إيه سعيد! يا ابن الأمس، يا شباح الآن، ويا رمز القابل، سوف تتحلل العقول والمدارك عندما تعمل على حمل رسالتك لأبعد شوط تتطلبه.

يا حقيقة البارحة، يا حلم الحاضر، ويا ذكرى القادم!

---

[1] كان رحمه الله يسعى ليؤلف في أنحاء المغرب صندوقا لمساعدة الطالب.

سوف يدري الذين بهم ضعف وانحلال أنك ما عشت إلا لتمطيط سلك وتوسيع دائرة، والتنقيب إثر مشعل ينير للقافلة السبيل. فلبثت تعمل لنشر البلاغ أتم نشرة، وإذاعة النشرة أوفى ذيوع من نقطة ابتداء الصحراء إلى تمام دائرة المحيط المغربي.

إيه سعيد! ليست سلا هذه الرقعة الضيقة وليس المغرب هذا الوطن الصغير وليست بلاد العروبة هذه الأقطار المحدودة الآفاق والمسافة هى التي تبكيك وتندبك الآن للوجود، وإنما هى الأفئدة المتقدة الملتهبة الحاملة لمعنى اللانهاية في اللوعة والألم، وإنما هى القلوب المحطمة المهشمة العاجزة عن حل لغز قوة الحياة والكمال هى التي تبكيك وهى التي تقيم لك بين حناياها أروع مأتم أبدعته الإرادة المفجوعة.

عشت لواجب ومت عن واجب فلتباركك ملائك الرحمان.

وجهتنا

الثقافة المغربية - العدد الأول - السنة الثانية -
الثلاثاء 19 شعبان 1361 - فاتح شتنبر 1942

أحمد بن غبريط

لم تمض أكثر من خمسة أشهر على وفاة الأخ المرحوم سعيد حجي حتى استأنفت « الثقافة المغربية » صدورها بعد أن كادت تقبر إقبارا وهى لا زالت بعد في رونق شبابها وغضارة إهابها.

مات الأخ سعيد والدهر المجد يكاد يشرف بنا على الميعاد الذي ضربناه للقيام معا بهذا المشروع الثقافي بعد أن وطدنا لجريدة « المغرب » أساسها.

كذلك كنا حيال هذا المشروع شطرين من قلب واحد ينبض لغاية واحدة ووجهة متحدة: هى خدمة هذه البلاد.

ذهب الرفيق وتشعب الطريق، فمرض الأمل وأشفى الرجاء، وإذا اليأس يتسرب إلى نفس الواثق بالنجاح - وفي أي وقت! في وقت أشرف فيه على مفترق الطرق.

طرق ثلاث. تؤدي إلى غى أو رشاد. وإنها الآن - وقد امتد أمامي حبل النجاة - لتتمثل لعيني مسالكها ومساربها.

فإحدى هذه الطرق فسيحة الأرجاء، تظللها أشجار باسقة عن اليمين وعن الشمال، فلا تنساب فيها غير عربات الدعة والاطمئنان.

وثانيتها لطيفة المنحدرات، شعرية المنعطفات، ولكن فيها اتكالا على الغير، ولبعض فيها شبع ورى وملائكة مقربون.

والثالثة - وهى وجهتنا - رهيبة الأكناف، منيعة الارتياد، لا تقع العين فيها إلا على أشواك، وصخور، وهوي. ولكن فيها مسارب عبدها الطامحون المقتدرون، وكم فيها من أثر لهؤلاء الذين أدموا أيديهم وأرجلهم من طول ما أجهدوا الجسد والروح فيها.

وقد آثرنا - وهذا المشروع ملقى على عاتقنا - سلوك سبيل هؤلاء الطامحين على ما فيها من جهد وعناء، فأولئك هم هداتنا الذين يمدون اليوم يد المساعدة بما عززوا به « الثقافة المغربية » من نتاج أقلامهم وثمرات أفكارهم وهم عدتنا وروادنا في السير بهذا المشروع حتى نصل به إلى غايته المنشودة من خدمة الأدب والثقافة بهذه البلاد.

هذه هى وجهة « الثقافة المغربية » والآن ... نم يا سعيد فما خذلنا لك عهدا.

وها هو ذا السبيل الذي يؤدي إلى ما كنت ترمي إليه من خدمة الثقافة والأدب، وكنا نعمل - نحن الاثنين - على السير فيه، لا يزال بعدك قبلة الناظر ومنية الخاطر، فنم قرير العين هادئ الجنب.

وأخيرا سأكون من الثابتين المضحين.

الأستاذ سعيد حجي

فقيد المغرب والشباب

التقدم

العدد 15 - الإثنين 5 ربيع الأول 1361 - 23 مارس 1942

أحمد النجار

فقدنا الأخ سعيد والأسى يملأ فؤادنا، فكان نعيه طامة كبرى ورزءا عظيما لشباب المغرب العامل لتطور البلاد ورقيها. فلم يكن المرحوم من الشباب العادي الذي ليس له قيمة تذكر في الحياة الاجتماعية، بل كان من أولئك القلائل الذين أوقفوا حياتهم على خدمة المغرب خدمة صادقة في النواحي الإيجابية التي كان يراها كمراحل أولى للتطور ورفع مستوى الأوساط.

ولقد أهلته مواهبه الخاصة واستعداده الفطري لهذه الأعمال الجليلة، فأسس المشاريع وكون أعمالا نافعة من ثبات وإيمان قوى عند تعقد المشاكل والتوائها وفي صبر وتجلد عند تلقي الصدمات.

والحقيقة أن حياته رغم قصرها كانت حافلة بنشاط لم يعتره ملل ولا فتور إلى أن سكتت نبضات قلبه، وإذا ما حاولنا أن نحلل نفسية هذا الشاب العامل الذي بموته طويت مراحل قصيرة سجل فيها لتاريخنا أعمالا عظيمة في ميادين مختلفة، فسوف لا يتسنى لنا استقصاؤها ولا يمكن حصرها في مثل هذه الكلمة الوجيزة إذ خص الفقيد بمميزات قلما تجتمع في غيره، بيد أن ذلك لا يمنعنا من إجمال بعض مميزاته:

فقد كان شعلة ذكاء، والذكاء يأبى إلا أن تشع نوره ويضيء ما حوله، وزودته الطبيعة بنفس غنية بالأخلاق السامية والذهن الصافي، فحبب لكل من عرفه أو اتصل به وفهم من الأشياء حقائقها الجوهرية ومراميها العليا بمعونة وسائله الخاصة في البحث والتحليل، فضلا عما كان له من الآراء الخاصة في الحياة تجده مطمئنا إليها وعاملا على تنفيذها، ولا بدع فقد امتاز بالعمل في حدود التفكير، وبالتفكير في حدود العمل، فكانت هذه الصفة السامية من أبرز خصائصه، فلم يفكر بطرق خيالية ككثير من شباننا الذي يعيش في فضاء متسع وجو عريض من الخيال لا يمت بصيلة لحالته ولا إلى ما يحيط به، وهذه أيضا من أشرف مميزات المرحوم التي اشتهر بها في الأوساط، ولذلك كان ينتقد انتقادا مرا مثل هذه الأساليب الخيالية العقيمة التي برهنت له تجربته الشخصية على بطلانها، فطالما تحاشى الخوض فيها وتجنب إضاعة الوقت في أشياء لا تتصل بالحياة الواقعية، فتلفيه في الاجتماعات إذا ما حلق أحد الحضور في جو الخيال فلا يزال به في لباقة يستدرجه في أساليب الحديث إلى أن يصل به إلى أشياء لها قيمتها في المجتمع.

هذه بعض الخصال الجميلة التي اتصف بها فقيد الشباب والصحافة المغربية نسجلها ونحن مفعمون أسفا وحزنا على أخ اختطفته من بيننا المنون وهو في ريعان شبابه بينما كان منهمكا في العمل للصحافة وللشباب وللمغرب؛ رحم الله الزميل سعيد وألهم عائلته وإخوانه وأصدقاءه الصبر والعزاء.

عند الهبوب
روح أثختتها شوكة

التقدم

العدد 15 - الإثنين 5 ربيع الأول عام 1361 الموافق 23 مارس سنة 1942

الحسين الشرقاوي

اصطفت سيقان، وتكاثفت مناكب، وتداخلت هياكل، وامتدت أعناق في وقفة الخشية مودعة روعة روح أثختتها شوكة، فتعالت إلى مصحة العلاء تطلب أنجع بلسم لجروحها فما لهذه الشفاه تردد غنات مزعجة؛ أأبهمتها العاصفة إذ خالط الأثير غبار الهوجاء؟ ما لهذه القلوب تئن خافقة بعزيف حائر، أأزعجتها الأشباح الشلاء وأهلعتها أنامل الفناء التي وقعت على « البيان » ؟ قد يكون بالأسماع وقر وقد يكون بالآذان صمم، ولكنها تنفتح لأول نبرة من نبرات العدم، وتتصدع لأول صدمة من صدمات القضاء، فلتذرف يا عين ما شئت من دموع، ولتخفق يا فؤاد بما شئت من أهازيج، فالهداة الصمامة والسكتة العميقة ووحشة الفناء لن تحول بين المشيئة.

فنحن لا شيء أمام الكون الموحد العظيم

ونحن لا شيء أمام الأرض والشمس

ونحن لا شيء أمام الخضمات والجبال

ونحن لا شيء أمام الظلمات والنور

ونحن لا شيء أمام الزوبعة والسيول

ونحن لا شيء لأننا دائرة الوجود المفكرة

ونحن كل شىء لأننا جزء الحياة الرقيق الحساس

ونحن كل شىء لأننا ريشة المصور المبدع

ونحن كل شىء لأننا أدق حاكي سجل للعاصفة التهويلة، وللزوبعة الدمدمة، وللفاجعة اللفحات، تبلغ آذاننا انات النفوس المتقطعة، وتقاطيع المهج المنكودة فنسكبها صمتة للجبل، وحفيفا للغابة، وخريرا للنهر، وتكسرات أمواج للخضم المديد، نسمع العويل والصرخات فنلقيها في الهياكل ألحانا مصفاة من كل ألم، نرى الفزع والهلع فنرسمه للملإ أهول رسم تشاهده في البسيطة مقلة، نرى الحيرة والجزع فنصور للرزية أرهب صورة تستشعر الموت والاضمحلال فننظم لذوي الآنين أفجع ملحمة قدت من مأساة الحياة.

إيه سعيد! توسدت بآخر وسادة يركن إليها الرأس المصدوع

إيه سعيد! ارتديت آخر حلة تشتاقها النفس الآنه

إيه سعيد! أطرحت على آخر فراش تأوي إليه الذات المتعبة

ظللت تسعى وبين يديك قدح الاستجداء ليدخر للطالب أكمل زاد يمكنه من متابعة السرى دون عياء وكلل، ولكنك عدت ولما يلقي إليك أحد بحسنة[1]

ظللت تعمل لتلقيح دوات من نزعات العمى النفسي الأليم فانطلقت منك أول صيحة في أول « مغرب » وأردفتها بأعلى من صرخة في « ملحق » حافل واسترسلت في تمديد الخيط وتسديد هالة « الأسرة » بأجمل فكرة في فكر « الثقافة » .

إيه سعيد! يا ابن الأمس، يا شباح الآن، ويا رمز القابل، سوف تتحلل العقول والمدارك عندما تعمل على حمل رسالتك لأبعد شوط تتطلبه.

يا حقيقة البارحة، يا حلم الحاضر، ويا ذكرى القادم!

---

[1] كان رحمه الله يسعى ليؤلف في أنحاء المغرب صندوقا لمساعدة الطالب.

سوف يدري الذين بهم ضعف وانحلال أنك ما عشت إلا لتمطيط سلك وتوسيع دائرة، والتنقيب إثر مشعل ينير للقافلة السبيل. فلبثت تعمل لنشر البلاغ أتم نشرة، وإذاعة النشرة أوفى ذيوع من نقطة ابتداء الصحراء إلى تمام دائرة المحيط المغربي.

إيه سعيد! ليست سلا هذه الرقعة الضيقة وليس المغرب هذا الوطن الصغير وليست بلاد العروبة هذه الأقطار المحدودة الآفاق والمسافة هى التي تبكيك وتندبك الآن للوجود، وإنما هى الأفئدة المتقدة الملتهبة الحاملة لمعنى اللانهاية في اللوعة والألم، وإنما هى القلوب المحطمة المهشمة العاجزة عن حل لغز قوة الحياة والكمال هى التي تبكيك وهى التي تقيم لك بين حناياها أروع مأتم أبدعته الإرادة المفجوعة.

عشت لواجب ومت عن واجب فلتباركك ملائك الرحمان.

وجهتنا

الثقافة المغربية - العدد الأول - السنة الثانية -
الثلاثاء 19 شعبان 1361 - فاتح شتنبر 1942

أحمد بن غبريط

لم تمض أكثر من خمسة أشهر على وفاة الأخ المرحوم سعيد حجي حتى استأنفت « الثقافة المغربية » صدورها بعد أن كادت تقبر إقبارا وهى لا زالت بعد في رونق شبابها وغضارة إهابها.

مات الأخ سعيد والدهر المجد يكاد يشرف بنا على الميعاد الذي ضربناه للقيام معا بهذا المشروع الثقافي بعد أن وطدنا لجريدة « المغرب » أساسها.

كذلك كنا حيال هذا المشروع شطرين من قلب واحد ينبض لغاية واحدة ووجهة متحدة: هى خدمة هذه البلاد.

ذهب الرفيق وتشعب الطريق، فمرض الأمل وأشفى الرجاء، وإذا اليأس يتسرب إلى نفس الواثق بالنجاح - وفي أي وقت! في وقت أشرف فيه على مفترق الطرق.

طرق ثلاث. تؤدي إلى غى أو رشاد. وإنها الآن - وقد امتد أمامي حبل النجاة - لتتمثل لعيني مسالكها ومساربها.

فإحدى هذه الطرق فسيحة الأرجاء، تظللها أشجار باسقة عن اليمين وعن الشمال، فلا تنساب فيها غير عربات الدعة والاطمئنان.

وثانيتها لطيفة المنحدرات، شعرية المنعطفات، ولكن فيها اتكالا على الغير، ولبعض فيها شبع ورى وملائكة مقربون.

والثالثة - وهى وجهتنا - رهيبة الأكناف، منيعة الارتياد، لا تقع العين فيها إلا على أشواك، وصخور، وهوي. ولكن فيها مسارب عبدها الطامحون المقتدرون، وكم فيها من أثر لهؤلاء الذين أدموا أيديهم وأرجلهم من طول ما أجهدوا الجسد والروح فيها.

وقد آثرنا - وهذا المشروع ملقى على عاتقنا - سلوك سبيل هؤلاء الطامحين على ما فيها من جهد وعناء، فأولئك هم هداتنا الذين يمدون اليوم يد المساعدة بما عززوا به « الثقافة المغربية » من نتاج أقلامهم وثمرات أفكارهم وهم عدتنا وروادنا في السير بهذا المشروع حتى نصل به إلى غايته المنشودة من خدمة الأدب والثقافة بهذه البلاد.

هذه هى وجهة « الثقافة المغربية » والآن ... نم يا سعيد فما خذلنا لك عهدا.

وها هو ذا السبيل الذي يؤدي إلى ما كنت ترمي إليه من خدمة الثقافة والأدب، وكنا نعمل - نحن الاثنين - على السير فيه، لا يزال بعدك قبلة الناظر ومنية الخاطر، فنم قرير العين هادئ الجنب.

وأخيرا سأكون من الثابتين المضحين.

ثقافتنا

الثقافة المغربية - العدد الأول - السنة الثانية

الثلاثاء 19 شعبان 1361 - فاتح شتنبر 1942

بقلم علال الجامعي

اعتاد القراء أن يتخذوا الصحف ألهية يقتلون بها الوقت ساعة أو ساعات ليقال عنهم إنهم شاركوا الناس في ميادين حياتهم إذا تحدث عن تلك الميادين. واعتاد الكتاب أن يأخذوا أقلامهم ليضعوا سوادا على بياض من غير أن يقدروا لذلك نتيجته من قريب أو من بعيد. لكننا إذا صوبنا النظر نحو الأمم الحية أو التي هى في طريق الحياة ألفيناها تنزه الصحافة عن هذا السفساف من الأغراض حيث تراها عنوان الأمة وصورتها التي تخلفها دليلا على نهضتها أو تأخرها. وهى السلسلة من تاريخ تلك الأمة المطابقة لما درجت عليه في مختلف سيرها وعروجها، وقوفها أو نزلها ...

وما الصحافة الحقة إلا ثروة من مجد الأمم الراقية والمركز المكين لأبنائها عليها يعولون في العروج إلى عروش المعارف. وان هى إلا الأستاذ الأمين المخلص لأولئك الأبناء، والخريث الخبير بمختلف المنعرجات وممهد الطرقات.

والصحافة عليها المعول في بناء صرح الأمة التي تريد لنفسها منزلا شريفا بين الأمم، وكلمة مسموعة بين الكلمات، وقوة هائلة بين القوات، وسيادة عزيزة في الحياة، وهى التي تدفع الشعب مهما كان خاملا ومهما أصيب بداء السكون إلى طريق الرقي والنجاح، إلى اليقظة والفلاح، إلى المساهمة في الثروة التي تخلد الأعمال، وهى التي تكسبه سمعة بين الدول وتفصح عن مداركه ومدخراته وفضائه ومكارمه وجملة قواه المادية والمعنوية، وهى التي تؤثر عليه ليثب وثبة المستميت، ويتقدم إلى العمل بنية صادقة وإخلاص قويم.

وانتشار الصحافة بين الطبقات دليل واضح على اكتساح الأمية والجهل والجمود لتتسابق إلى التعليم الذي هو أساس النهوض وسلم الرقي المنشود لكل أمة تريد لها مكانة وحظوة وبأسا شديدا وعزة ورفاهية ونعيما.

فإذا رجعنا النظر وحققنا باحثين عن المسؤول في ذلك الاعتبار عندنا وجدناه الكاتب من ناحية والناشر من ناحية أخرى. فالكاتب لا يعتبر نفسه آلة عاملة في بناء مجد أمته فيعمل على ذلك ليخرج لنا آيات بينات تنفخ فينا من روحه لتقول فتجاب ... والناشر بدوره يعين الكتاب على بهرجتهم فتضيع الحقيقة بين الأغراض ...

لذلك عملنا على إصدار مجلة « الثقافة المغربية » التي تريد أداء تلك الرسالة معتمدة على الثقة بالله الذي لا يخلف المومن الصادق وعده بالنجاح والسعادة الأبدية، ومعتمدة على نفسها التي تعلم أنها لا تخونها أمام الله والشعب.

أصدرنا مجلة « الثقافة المغربية » لتكون ميدانا فسيحا لكل مجيد مخلص من الكتاب: مجيد لفنه وأسلوبه، مخلص لفكرته وعمله. ولهذا جعلناها محاطة بـ (زمرة) ممتازة مومنة بما ترمي إليه من تجديد وما تنتظره من وثبات. (عصبة) منشقة من بين طبقات هذا الشعب الذي سيحمد لها جهودها وأغراضها السامية.

ستكون « ثقافتنا » إذن صورة طبق الأصل لشعبنا الأديب الذي أخذ يتجه إل المساهمة في ميادين من العلم والأدب والفن التي ستعمل على إبراز مخبآتها مظهرة للناس روح الشعب المغربي الذي كان له قدم ثابت في الأولين ولسان صدق في الآخرين. ستخط لها سبيلا يخالف كل المخالفة ما نهج قبلها لتصل إلى هدفها من غير تلكؤ ولا انعراج، تختل أو التواء، لا تراعي إلا أداء الواجب المغربي والواجب الثقافي الذي تكرس نفسها لخدمته مقدرة حسن المصير.

وإننا - مع ذلك - على بينة من أننا إن أرضينا العلم والأدب والفن كما يجب أن ترضى سنسخط كثيرا من أصدقائنا؛ ولكن إرضاءنا « للثقافة » أحق بالإخلاد إليه ولو أسخطنا

العدد العديد ممن يريدون السيطرة على الرأي العام والفكر السائد والروح اليقظة في طائفة من « عصبتنا » المحبوبة وأنصارنا العاملين الذين نأخذ بأيديهم ساعين في إرضاء العلم للعلم والأدب للأدب والفن للفن والثقافة للثقافة.

سيرى القارئ الكريم - إن شاء الله - أننا نداب جاهدين لايقافه على ما يكون له عونا في حياته الأدبية الثقافية كى ننتشله من هوة دفعه إليها كتاب متساهلون وناشرون لا يقدرون واجب المسؤولية. وسيرى - أخيرا - أننا نجعله شاعرا بذلك الواجب لنتقدم جميعا إلى الأمام.

« الثقافة المغربية » في « مفترق الطرق »

الميثاق الوطني - 31 دجنبر 1993

ادريس كرم

من المجلات التي ظهرت في مرحلة الحماية بالمغرب مجلة كانت تسمى « الثقافة المغربية » بإدارة السادة سعيد حجي وآحمد بن غبريط بين سنتى 1941 - 1945 تحت شعار:

« الآداب والفنون والعلوم »

هادفة كما جاء في ظهر الغلاف لأن تكون:

مجلة الإسلام والعروبة - مرآة الماضي العربي - لسان الأدب المغربي

تبعث مفاخر الشرق - تنشر روائع الغرب

بيد أن هذه المجلة عرفت في مطلع صدورها موت أحد مؤسسيها الذي هو سعيد حجي، الأمر الذي جعلها تتوقف عن الصدور بعض الوقت كما عرفت نشوب الحرب العالمية الثانية، في سنة 1945 ، تمتنع المطبعة - التي كانت تصدر عنها المجلة - عن طبعها (انظر العدد 9 و 10 من شهر يوليوز 1945)

فكيف عاشت هذه المجلة؟ وهل حققت مبتغاها؟ يقول مديرها السيد أحمد بن غبريط في افتتاحية السنة الثانية (شتنبر 1942) تحت عنوان: « وجهتنا » :

« لم تمض أكثر من خمسة أشهر على وفاة الأخ المرحوم سعيد حجي حتى استأنفت « الثقافة المغربية » صدورها بعد أن كادت تقبر إقبارا، وهى ما زالت بعد في رونق شبابها وغضارة إهابها. مات الأخ سعيد، والدهر المجد يكاد يشرق بنا على الميعاد الذي

ضربناه للقيام معا بهذا المشروع الثقافي بعد أن وطدنا لجريدة « المغرب » أساسها ... ذهب الرفيق وتشعب الطريق ... في وقت أشرف فيه على مفترق الطرق. طرق ثلاث تؤدي إلى غي أو رشاد ... : فإحدى هذه الطرق فسيحة الأرجاء، تظللها أشجار باسقة عند اليمين والشمال، فلا تنساب فيها غير عربات الدعة والاطمئنان، وثانيتها لطيفة المنحدرات، شعرية المنعطفات، ولكن فيها اتكالا على الغير، والبعض فيها شبع وروى، وملائكة مقربون، والثالثة، وهى وجهتنا، رهيبة الأكناف، منيعة الأوتاد، لا تقع العين فيها إلا على أشواك، وصخور، ولكن فيها مسارب عبدها الطامحون المقتدرون ... وقد اثرنا سلوك سبيل هؤلاء الطامحين، على ما فيها من جهد وعناء، فأولئك هم هداتنا، الذين يمدون اليوم يد المساعدة، بما عززوا به « الثقافة المغربية » من نتاج أقلامهم وثمرات أفكارهم »
يفهم من هذه المقدمة أن هناك مجالات أخرى، لها موارد ومساعدون، وما على الذي يريد أن يعمل مثل أصحابها إلا أن يتقدم في حين أن الساحة كانت فارغة، والمجلات التي صدرت في الثلاثينيات قد توقفت، كما أن معركة أواخر الثلاثينيات قد تركت وراءها مساجين ومنفيين وقتلى أشهرهم الكاتب الشاعر محمد القري.
فمن أين لصاحب « الثقافة المغربية » بهذا التصنيف؟
لنقرأ المقدمة الثانية للمجلة في نفس العدد المكتوبة من طرف خلف المرحوم سعيد حجي الذي هو الأستاذ علال الجامعي، والمعنونة بـ : « ثقافتنا » :
« عملنا على إصدار مجلة « الثقافة المغربية » معتمدة على الثقة بالله ... وعلى نفسها. أصدرنا مجلة « الثقافة المغربية » لتكون ميدانا فسيحا لكل مجيد مخلص من الكتاب ... ولهذا جعلناها محاطة بـ (زمرة) ممتازة مؤمنة بما ترمي إليه من تجديد، وما تنتظره من وثبات (عصبة) منتقاة من بين طبقات هذا الشعب الذي سيحمد لها جهودها وأغراضها السامية. ستكون « ثقافتنا » إذا صورة طبق الأصل لشعبنا الأديب، الذي أخذ يتجه إلى المساهمة في ميادين من العلم والأدب والفن التي ستعمل على إبراز مخبآتها، مظهرة للناس

روح الشعب المغربي الذي كان له قدم ثابت في الأولين ولسان صدق في الآخرين. ستخط لها سبيلا يخالف كل المخالفة ما نهج قبلها، لتصل إلى هدفها من غير تلكؤ، ولا انعراج، تختل أو التواء، لا تراعي إلا أداء الواجب المغربي، والواجب الثقافي الذي تكرس نفسها لخدمته، مقدرة حسن المصير. وإننا - مع ذلك - على بينة من أننا إن أرضينا العلم والأدب والفن كما يجب أن ترضى سنسخط كثيرا من أصدقائنا ولكن إرضاءنا للثقافة أحق بالإخلاد إليه، ولو أسخطنا العدد العديد ممن يريدون السيطرة على الرأي العام، والفكر السائد، والروح اليقظة في طائفة من « عصبتنا » المحبوبة، وأنصارنا العاملين، الذين نأخذ بأيديهم ساعين في إرضاء العلم للعلم، والأدب للأدب، والفن للفن، والثقافة للثقافة ».

من خلال هذا النص الإجلائي، يتضح أن المجلة مطلوب منها القيام بدور آخر غير ثقافي، بيد أن القائمين عليها يأبون السير فيه بالرغم من يقينهم أنهم سيفقدون مناصرين وأصدقاء يقاسمونهم نفس الأفكار والرؤى الغير الأدبية والفنية، ولعل الإشارة هنا إلى تنظيمات سياسية، نظرا للمسطلحات المستعملة مثل « زمرة » و « عصبة » و « السيطرة على الرأي العام » و « الفكر السائد » و « طائفة » تزكي ما نقوله اعتمادا على الصراعات الدائرة ساعتها بين السياسيين، حيث وقع انقسام في الحزب الوطني بين أنصار علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني وأنصار عبد الخالق الطريس والشيخ محمد المكي الناصري، فكأني بالمجلة تريد عدم الدخول في الصراع، والبقاء عنه بعيدا، لذلك رفعت شعار: الثقافة للثقافة، هذا الشعار الذي سيغضب فعلا أنصار علال الفاسي والذي سيظهر بعد شهر من كتابة هذه المقدمة على شكل مجلة تحت اسم « رسالة المغرب » في شهر اكتوبر سنة 1942 لتصبح بلغة الوقت رصيفة للثقافة، ولتبقى بعد توقفها سنة 1945.

في خضم هذه المنافسة قدمت « الثقافة المغربية » عدة إسهامات، لكتاب مغاربة خاضوا في العديد من المواضيع التي كان يطبعها الرزانة والإبداع، بحيث لم نجد بها مواضيع

صدامية، ولا تحريضية، بل حتى النقد كان نادرا ما يظهر على صفحاتها، زد على ذلك لجوء الكتاب إلى الأسماء المستعارة في السنة الأخيرة من حياتها خلافا لما كانت عليه العادة في السنين الأولى. ولإعطاء بعض الإيضاح عن كتاب تلك الفترة نقدم الأسماء الصريحة المستخرجة من إحدى عشر عددا، تغطي سنوات الصدور التي اطلعنا عليها دون اختيار أو قصد وهى كما يلي:

أحمد بن غبريط، علال الجامعي، محمد السايح، عبد الهادي الشرايبي، أحمد ابا حنيني، عبد الرحمن الفاسي، محمد المهدي الحجوي، محمد البزيوي، محمد بن ابراهيم، عبد المالك البلغيثي، ادريس الكتاني، الرشيد الدرقاوي، محمد العربي العلمي، عبد العزيز بن عبد الله، عبد الحميد عمور، الصديق الفاسي، المنتصر الكتاني، الحسن البونعماني، عبد السلام العلوي، حماد العراقي، محمد بن ابراهيم الكتاني، محمد بن عبد الله، ادريس الإدريسي، محمد الحبابي، محمد كنون، محمد غريط، محمد التطواني، أحمد لحلو، عبد الحفيظ العلوي، الحسن التناني، أبو بكر القباج، عبد الهادي بوطالب، محمد بن محمد بن الحاج، أحمد البدراوي، عبد القادر الهاشمي.

وأبرز الذين تكررت أسماؤهم الصريحة على صفحات المجلة ضمن الأعداد السالفة:

محمد المهدي الحجوي (6 مرات) - عبد الرحمن الفاسي (6 مرات) - عبد الهادي الشرايبي (5 مرات) - ادريس الكتاني (5 مرات) - محمد البزيوي (5 مرات) - علال الجامعي (4 مرات) - ادريس الإدريسي (4 مرات) - محمد لحبابي (4 مرات)

أما المواضيع الكتابية، فكانت متنوعة، نذكر منها على سبيل المثال:

أطوار الجنين وعلاقة الجسم بالأرض - أثر الإسلام في المرأة - حول التراث المغربي - أيام عكاظ بتزرولت - صراع السنة والابتداع - العبقرية والبطولة - الفن في الشعر العربي - العبقرية والذوق - نظرة جديدة في تأسيس مدينة فاس.

وهى مواضيع، كما يتضح، لا تثير جدلا ولا تفسد للود قضية، بخلاف ما كنا نراه في مجلة

« المغرب » التي سبقتها، ناهيك بمجلتى « السلام » و « المغرب الجديد » اللتين كانتا لمامع الرقابة صولات انتهت بتوقفهما عن الصدور بعد سنة بالنسبة للأولى وسنتين بالنسبة للثانية بعد أن خاضتا معارك سياسية في ثوب أدبيكان لها ما بعدها. ومع ذلك تبقى مجلة « الثقافة المغربية » منبرا فكريا متميزا، ساهم في إثراء فكرة النهضة بالمغرب، لا على مستوى الاهتمام بالإنتاج المغربي، ولكن أيضا بالتطرق لأشكال مختلفة من المعارف، وإبراز عمل بعض الأسماء الفاعلة في الساحة المعرفية، من ذلك مثلا سلسلة من المقالات تحمل عنوان: « مع أدبائنا المعاصرين » بتوقيع « زياد » خصص حلقة منها للأستاذ عبد الله ابراهم ليقدم للقراء ديوان صديقه عبد القادر حسن فقال:

« أذاع عبد القادر ديوانه، وبإزائه عشرات من الشعراء والمؤلفين لم يجرؤوا على الإذاعة مثله، ولم يجرؤوا أن يعرضوا على الناس ما ألفوا وما كتبوا كما عرض هو ما كتب على الناس. ودرس عبد القادر في كلية تجهل الأدب، وتزدري بكل شكل غير « خليل » وغير « المكودي » أو « الأشموني » فهى تكره الأدباء، وتسخر من الأديب، وتعد الانصراف إليه جريمة لا يطمس أثرها في النفوس، ولا يمحى شرها، ولا يساقط عارها، ولكن عبد القادر استطاع أن ينصرف إلى الأدب بعض الانصراف، واستطاع أن يدرس من الأدب بعض الدرس، واستطاع أن ينظم فيه وأن يكتب على الإجمال ».

فالحال في عبد القادر حسن هو نفس الحال في أخينا عبد الله، فهو لم يقرأ في أول أمره قراءة تغاير هذه أو تباينها، ولا هو اتخذ لنفسه طريقا غير الطريق التي سلكها جميع أدبائنا في أول عهدهم بالقراءة والطلب ...

أليس في هذا الشكل من التعريف بأدبائنا في الأربعينيات وهم ما يزالون في عنفوان الشباب تأييد لما ذهبنا إليه بأن « الثقافة المغربية » كانت مجلة رزينة أضافت الكثير للحركة الأدبية بالمغرب وقتها؟ وهل كان أحد سيخسر شيئا لو على الأقل اهتم بهذه المجلة وكتابها من طرف منابرنا الإعلامية والثقافية التي تعيش على الكلمة وبها؟

عودة جريدة « المغرب » إلى الحياة

تحت مسؤولية مديرها الجديد: عبد الكريم حجي

تقديم

« المغرب » العدد الأول « سلسلة جديدة » - السنة السادسة عشرة - الإثنين 12 رجب 1371 - 7 ابريل 1952

بهذا العدد تستأنف جريدة « المغرب » حياة جديدة بعد احتجاب دام عدة سنوات. فقد عرف القراء الكرام هذه الصحيفة، والحركة الوطنية في عنفوان شبابها، وكان صدور «المغرب» مع زميلتها «الأطلس» سنة 1937 إيذانا ببزوغ فجر الصحافة الوطنية المكافحة.

ولقد سايرت هذه الجريدة الحركة الوطنية في مختلف مراحلها تعبر عن آمال الأمة المغربية وآلامها وساهمت بنصيبها في حمل مشعل الوطنية المقدسة بعد أن امتدت يد التعطيل والإيقاف إلى زميلاتها في الكفاح.

وككل مشروع ناشئ بدأت هذه الجريدة حياتها في حجم صغير فكانت تصدر ثلاث مرات في الأسبوع ثم أصبحت بعد ثلاث سنوات تصدر يومية في حجم الجرائد المعتاد، وساهمت في هذه الفترة القصيرة بنصيب كبير في بذر نواة نهضة ثقافية عامة بما كانت تصدره من حين لآخر من أعداد ثقافية ممتازة ساهم في تحريرها نخبة من الشباب المثقف، فكانت هذه الأعداد مرآة لما تتمخض عنه الحركة الفكرية في هذه البلاد.

واستمرت « المغرب » تؤدي مهمتها بإخلاص في الميدان الصحافي إلى غاية 29 يناير 1944 حيث اجتاحها الاعصار الذي هب على البلاد بعد أن أعلنت الأمة عن رغبتها في حياة

الحرية والاستقلال، فتوقفت عن الصدور، وسجن جميع أفراد أسرتها وختمت مكاتبها بالشمع وخمدت أنفاسها إلى حين.

وها هي اليوم تعود إلى الظهور لتستأنف حياتها من جديد في الميدان الوطني ولتساهم مرة أخرى في إذكاء الروح الوطنية ونشر الإيمان بالوطن في مختلف الأرجاء.

ولن تقدم هذه الجريدة لقرائها الكرام برنامجا يصعب عليها تطبيقه أو تبذل لهم وعودا لا تتمكن من الوفاء بها، وكل ما يمكنها أن تقول إنها تبذل كل ما لديها من جهود في سبيل تنوير الفكر العام واطلاعه على مختلف قضاياه في الداخل والخارج وعلى ما يشغل فكره من أحداث سياسية دولية مع الاهتمام الزائد بقضايا البلاد العربية والإسلامية التي يتطلع إلى محاكاتها في نهضته المقبلة، وقضايا الشعوب القاصرة التي يتطلع مثلها إلى التحرير والخلاص.

وكما قال مؤسس هذه الجريدة المرحوم سعيد حجي يوم أن طلع على الناس بهذا المشروع: « إن نجاح هذا العمل متوقف على الجمهور أكثر مما هو متوقف على القائمين به، فالتشجيع الذي نتلقاه والرضى وحسن القبول هو الذي يبعث فينا حرارة الإيمان بقيمة العمل ويحدونا إلى مضاعفة الجهود بغية الوصول إلى الكمال ».

و « المغرب » في حياتها الجديدة تعتمد على هذا التشجيع المعنوي من طرف الجماهير المغربية أكثر من اعتمادها على التشجيع المادي، وستكون معتزة به أيما اعتزاز جاعلة منه مطية لتكون عند حسن ظن القراء بها، ويسرها أن تقدم سلفا أحر تشكراتها ومزيد تقديرها إلى جميع مساعديها الأفاضل الذين لم يتخلوا عنها منذ نشأتها وبعد محنتها، فإليهم يرجع الفضل في استمرار هذا المشروع الذي لم يمت بوفاة صاحبه كما ظنه الظانون، كما أنها توجه تحياتها الأخوية إلى بعض أفراد أسرتها الذين امتدت إليهم يد التنكيل في الحوادث الأخيرة بالجنوب، فسجنوا لمجرد أفكارهم الوطنية وحرموا من مشاهدة انبعاث هذه الصحيفة التي قدموا لها أجل الخدمات، ففي سبيل الله ما يلاقي

العاملون المخلصون.

وبعد فقد كان في نية القائمين بهذا المشروع أن تصدر هذه الصحيفة منذ زمان بعيد، ولكن الصعوبات الجمة التي تعترض الصحف الوطنية في هذه البلاد حالت دون ذلك؛ كما أن أملنا في إصدارها يومية لا يتأتى لنا في الظروف الراهنة.

ولذلك ستصدر « المغرب » مرتين في الأسبوع إلى أن تتهيأ لنا الفرص في دائرة وسائلنا وإمكانياتنا لإصدارها يومية، فنحقق من جهة رغبة القراء وأنصار الجريدة وأصدقائها كما نحقق أمنية مؤسسها في جعلها صحيفة يومية من أمهات صحف المغرب.

تلك أمنيتنا سنعمل بكل مجهودنا على بلوغها، وعلى الله الاتكال.

« المغرب »

إحياء مشروع

المغرب - العدد الأول « سلسلة جديدة » - السنة السادسة عشرة - الإثنين 12 رجب 1371 - 7 ابريل 1952

تأبى الأقدار إلا أن تعود هذه الصحيفة إلى الوجود بعدما اكتملت عشر سنوات على وفاة مؤسسها الأستاذ سعيد حجي طيب الله ثراه.، إذ في الثاني من شهر مارس 1942 فجع المغرب والشباب العامل والصحافة الحرة بالأخص بفقد أحد قادتها الأبرار الذين وقفوا حياتهم للنضال من أجل حق بلادهم، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا.

وكانت الهيئة المشرفة على هذه الصحيفة تامل إصدار أول عدد من السلسلة الجديدة يوم حلول الذكرى بالذات لوفاة صاحبها رحمه الله ليكون ذلك أحسن عنوان للوفاء الذي يربط بين العاملين: الإحياء منهم والأموات، فعاقت ظروف قاهرة تحقيق هذه الأمنية على وجهها الأكمل؛ وبالرغم عن انصرام عشر سنين على فجيعتنا في سعيد رحمه الله فإن له ذكرى متجددة في أذهان كافة أصدقائه ورفقائه، وما أكثرهم. يذكرونه في كل مناسبة بتفكيره ونشاطه وأعماله وأقواله، إذ ترك من بعده أحدوثة وذكرا لا يمكن أن يمحيا مهما طال العهد، وخلف فراغا في الميدان الذي كان يشغله ما زلنا نشعر به لحد الآن.

وأى ميدان من ميادين النشاط التي تستهوي الشباب لم يكن له فيه باع؟ لقد خاضها جميعا في الفترة القصيرة التي عمرها بين الأحياء: فكان أديبا وكان سياسيا وكان صحافيا وكان مفكرا يضرب به المثل في خوض المشاكل المعقدة المرتبكة وإيجاد الحلول العملية الوجيهة، وأعانه على احتلال مكانته المرموقة بين رفاقه ما فطر عليه من ذكاء وقاد، وركز في طبيعته من نشاط لا يعرف توانيا ولا مللا وما اجتمعت له من خبرة عز أن تجتمع للمتقدمين في السن فضلا عمن هم في سنه.

كان رحمه الله عصاميا بكل ما يحتمل هذا اللفظ من معنى. وتجلت عصاميته من أول نشأته فبرز بين أقرانه وامتاز عنهم بميله إلى الجد والتفكير في أعوص المشاكل التي يعانيها المجتمع وطرق حلها. وجميع الذين عاشروه عرفوا فيه الحركة المتواصلة والجد المتناهي والتفكير الرتيب المتسلسل والقدرة على الابتكار والخلق. لقد كان سعيد رجل المشاريع يتخيلها واسعة عظيمة محفوفة بالعراقيل والعقبات، فيضع تصميمها، ثم لا يلبث أن يشرع في تحقيقها ولا يهدأ له خاطر إلا بعد ما تستوي قائمة الذات متينة الدعائم. هكذا كان شأنه في شتى الأعمال التي قام بها أو شارك بنصيب فيها، وكانت العقبات لا تزيده إلا حماسا واندفاعا، فإذا هي تتذلل تحت مفعول إرادته القوية.

وإنه ليصعب على الذهن تصور شاب لم يعش سوى ثلاثين عاما في مجتمع كمجتمعنا وتحت وضعية قاسية كلها مثبطات وعراقيل، استطاع مع ذلك أن يؤسس شركة للطبع والنشر، وجريدة يومية، ومطبعة جاهزة، ومجلة شهرية، زيادة على الملحقات والمساهمة في بعض المجلات التي كانت تصدر قبل هذا التاريخ. ولقد تم له ذلك على قلة ما كان بيده من وسائل العمل، وكان لا ينفض يده من مشروع بعد إنجازه إلا ليضع تصميم مشروع جديد، إذ كان يدرك ما يفتقر إليه المجتمع من تطور في كافة الميادين - وخاصة في الميدان الفكري - فكان يبذر البذرة الصالحة لتثمر وتؤتي أكلها ولو بعد حين. وفعلا كان لما قام به فضل تكوين شباب ما فتئوا على العهد يحملون الشعلة التي تناولوها من يده.

وإن الأسرة التي خلفها ساهرة على هذه الصحيفة هي التي تلتئم من جديد لإحياء هذا المشروع المتواضع الذي أراد به صاحبه رحمه الله - كما عبر نفسه عن ذلك في افتتاحية أول عدد - أن يكون راميا « أولا وأخيرا إلى أن تحيا هذه الأمة في مستوى لائق بها وبتاريخها واستعدادات أبنائها، وتتقدم كما تقدمت كل الأرض في ميدان المدنية والرقي الصحيح ». فبإحياء مشروع من مشاريع سعيد نرجو أخيرا أن نوفق إلى أداء بعض ما علينا من الوفاء له.

الوطنية في تلاحق الأجيال

بقلم المرحوم الدكتور محمد زنيبر

في دراسة نقدية للكتاب الذي أصدره الأستاذ عبد الكريم غلاب تحت عنوان « تاريخ الحركة الوطنية » تعرض الناقد إلى تصنيف المؤلف للوطنيين، منهم « من ينظر إليه بعين الرضا » ، ومنهم « من يتكلم عنهم اضطرارا » ، ومنهم « من تجاهل أعمالهم » ، ومنهم « من تركهم للهوامش الدقيقة لأنهم في نظره لا يستحقون أكثر من تلك المنزلة » .

ومن بين الشباب الذين « ينتمون إلى الرعيل الأول في الوطنية ويعرفهم الخاص والعام في مجموع المغرب » ، وقع اختياره على شابين من بلدة سلا، وهما:

محمد حصار الذي « لم يستحق ولو التفاتة قصيرة ممن نصب نفسه « مؤرخا » للوطنية المغربية » ؛

وسعيد حجي الذي وقف منه المؤلف موقفا يبعث إلى التشكيك في وطنيته.

فلنقرأ ما كتبه الدكتور زنيبر في رده عن تجاهل المؤلف لمعطيات من تاريخ الحركة الوطنية يود طمسها:

« ... ما بال المؤلف يقف هذا الموقف؟ هل يرجع ذلك إلى كون محمد حصار كان شابا أم لكونه من بلدة سلا المتواضعة؟

سؤال ربما ازداد وضوحا بالمثال الذي يقدم لنا شابا آخر. كان هذا الشاب من ألمع الوطنيين وأذكاهم. ظهر في الفترة الواقعة بين 1930 و 1942 وهى السنة التي توفى فيها وهو لا يتجاوز الثلاثين. إنه سعيد حجي، وهذا الإسم كاف وحده لإثارة العديد من الذكريات المشرفة: ذكريات شاب يفيض حيوية ونشاطا، فتراه ينتقل من فكرة إلى فكرة

ومن مشروع إلى مشروع، ويقرن التفكير بالعمل، ويثير الاهتمام حواليه لدى أصدقائه وأقرانه بكل ما يشغله بحيث يتحول بيته أو مكتبه إلى ناد تتبارى فيه العقول. أسس مجلة بخط يده قبل أن توجد المجلات الوطنية، وما زالت بعض نسخها موجودة إلى اليوم، وشارك بفعالية في كل أنشطة الحركة الوطنية. واستطاع بمجهوده ووسائله الخاصة أن يؤسس جريدة يومية وطنية هى جريدة « المغرب » مع ملحقها الثقافي الذي تعد مجموعته، اليوم، سجلا مهما للأدب المغربي في تلك الفترة. هذا إلى جانب مشاركته الثقافية والأدبية، بصفة عامة، حيث ساهم في تعريف المغاربة آنذاك بالتطورات المهمة التي كانت جارية يومئذ بالحركة الأدبية في المشرق العربي.

ومن جهة أخرى، كان سعيد يشتمل على دماثة أخلاق ممزوجة بشىء من الدهاء والمزاج الدبلوماسي، مما جعل الوطنيين يضعون فيه ثقتهم للاتصال بالإقامة العامة حينما قرروا الدخول في سياسة المهادنة مع ظروف الحرب. واستطاع في اتصالاته أن يخلق مجالات للحوار مع سلطات الحماية في وقت كانت فيه الحركة تجتاز ظروفا جد صعبة دون أن ينسى خطة الحزب الوطني واستراتيجيته. فكان دوره من أصعب الأدوار.

وفوجئ الناس ذات يوم أن سعيد حجي مصاب بمرض عضال، وتناقلوا حكايات منها أن الاستعماريين تخوفوا من دهائه فدسوا له السم. وسواء صح ذلك أم لم يصح، فالذين عرفوا سعيد من قريب وسايروه في كل أطوار حياته، جربوا فيه الرجل المستقيم في وطنيته، المستنير في رأيه.

فكيف يأتي الأستاذ غلاب، اليوم، ليحاول أن يوقع في روعنا أن سعيد حجي خرج عن خطة الحزب الوطني، واضطر أن يقوم بمساع جديدة، منها السفر إلى جنيف لتبرير موقفه، والحالة أن الحزب قرر أن يسير في نفس الخطة التي ينعتها المؤلف في مكان آخر بأنها « نوع من التفكير العملي » واتصل وفد منه بالجنرال نوكيس معلنا عن « فتح عهد جديد بين الإدارة والوطنيين » . أى منطق يستعمل المؤلف في الحكم عن سلوك سعيد

حجي وفي التحدث عنه بلهجة لا تخلو من تشكيك حينما يقول: « ومع ذلك كان بعض المتحمسين لمحاولة سعيد حجي يظن أنها خففت المحنة عن بعض المعتقلين؟

هكذا، أصبحت وطنية سعيد وشخصيته توضع في « موضع الظن » ولربما التساؤل. وهذا موقف خاص بالمؤلف وحده، لأن رفقاء سعيد كانوا يضعون فيه كامل ثقتهم حيث جعلوه عضوا في جماعة « الطائفة » التي لم يدخل إليها إلا صفوة مختارة من المناضلين المخلصين. وما أظن أن المؤلف انتمى إليها. حقا، إن سعيد كان صاحب مبادرة وابتكار وتحرق إلى العمل الدائب حتى لا يكون فراغ ولا فتور في النضال الوطني. والركود الطويل الذي لاحظه في الحركة بعد 1937 هو الذي دفعه إلى التحرك بذكاء ومهارة وإلى البحث عن أسلوب جديد للعمل حتى لا يبقى الوطنيون غائبين عن الساحة.

فهل في هذا ما يبرر تلك اللهجة التي تحدث بها المؤلف عن الرجل والتي نفهم منها، تارة، أنه كان متطلعا، وطورا أنه كان فضوليا، وطورا أن عمله، حسب بعض الظنون، لربما كان فيه بعض الفائدة؟

كلا وألف كلا! فما طرحت شخصية سعيد بهاته الصورة على الذين عرفوه من قريب أو من بعيد. وما نظر إليه أحد بهذا التشكيك والتسائل. وهل أذكر المؤلف - وأظنه في حاجة إلى التذكير لأنه كان غائبا في ذلك الوقت ببلاد الكنانة على ضفاف النهر الخالد - أن وفاة سعيد كانت مأتما كبيرا في تاريخ الحركة الوطنية وأن من بين الذين وقفوا على قبره ليؤبنوه المرحومان محمد غازي وأبو بكر زنيبر والأستاذ أبو بكر القادري، وأن القاعة التي أقيمت فيها ذكراه الأربعينية غصت بالحضور الذي بلغ عددهم، حسب صحف الوقت، خمسمائة!

فما الذي يا ترى حدا « بالمؤرخ » أن يقف هذا الموقف من المرحوم سعيد حجي؟ هل له معه حساب خاص؟ ما أظن ذلك، هل يرجع ذلك لكون سعيد كان شابا أم لكونه من بلدة سلا المتواضعة؟

الوطنية في تلاحق الأجيال

بقلم المرحوم الدكتور محمد زنيبر

في دراسة نقدية للكتاب الذي أصدره الأستاذ عبد الكريم غلاب تحت عنوان « تاريخ الحركة الوطنية » تعرض الناقد إلى تصنيف المؤلف للوطنيين، منهم « من ينظر إليه بعين الرضا » ، ومنهم « من يتكلم عنهم اضطرارا » ، ومنهم « من تجاهل أعمالهم » ، ومنهم « من تركهم للهوامش الدقيقة لأنهم في نظره لا يستحقون أكثر من تلك المنزلة » .

ومن بين الشباب الذين « ينتمون إلى الرعيل الأول في الوطنية ويعرفهم الخاص والعام في مجموع المغرب » ، وقع اختياره على شابين من بلدة سلا، وهما:

محمد حصار الذي « لم يستحق ولو التفاتة قصيرة ممن نصب نفسه « مؤرخا » للوطنية المغربية » ؛

وسعيد حجي الذي وقف منه المؤلف موقفا يبعث إلى التشكيك في وطنيته.

فلنقرأ ما كتبه الدكتور زنيبر في رده عن تجاهل المؤلف لمعطيات من تاريخ الحركة الوطنية يود طمسها:

« ... ما بال المؤلف يقف هذا الموقف؟ هل يرجع ذلك إلى كون محمد حصار كان شابا أم لكونه من بلدة سلا المتواضعة؟

سؤال ربما ازداد وضوحا بالمثال الذي يقدم لنا شابا آخر. كان هذا الشاب من ألمع الوطنيين وأذكاهم. ظهر في الفترة الواقعة بين 1930 و 1942 وهي السنة التي توفي فيها وهو لا يتجاوز الثلاثين. إنه سعيد حجي، وهذا الإسم كاف وحده لإثارة العديد من الذكريات المشرفة: ذكريات شاب يفيض حيوية ونشاطا، فتراه ينتقل من فكرة إلى فكرة

ومن مشروع إلى مشروع، ويقرن التفكير بالعمل، ويثير الاهتمام حواليه لدى أصدقائه وأقرانه بكل ما يشغله بحيث يتحول بيته أو مكتبه إلى ناد تتبارى فيه العقول. أسس مجلة بخط يده قبل أن توجد المجلات الوطنية، وما زالت بعض نسخها موجودة إلى اليوم، وشارك بفعالية في كل أنشطة الحركة الوطنية. واستطاع بمجهوده ووسائله الخاصة أن يؤسس جريدة يومية وطنية هى جريدة « المغرب » مع ملحقها الثقافي الذي تعد مجموعته، اليوم، سجلا مهما للأدب المغربي في تلك الفترة. هذا إلى جانب مشاركته الثقافية والأدبية، بصفة عامة، حيث ساهم في تعريف المغاربة آنذاك بالتطورات المهمة التي كانت جارية يومئذ بالحركة الأدبية في المشرق العربي.

ومن جهة أخرى، كان سعيد يشتمل على دماثة أخلاق ممزوجة بشىء من الدهاء والمزاج الدبلوماسي، مما جعل الوطنيين يضعون فيه ثقتهم للاتصال بالإقامة العامة حينما قرروا الدخول في سياسة المهادنة مع ظروف الحرب. واستطاع في اتصالاته أن يخلق مجالات للحوار مع سلطات الحماية في وقت كانت فيه الحركة تجتاز ظروفا جد صعبة دون أن ينسى خطة الحزب الوطني واستراتيجيته. فكان دوره من أصعب الأدوار.

وفوجئ الناس ذات يوم أن سعيد حجي مصاب بمرض عضال، وتناقلوا حكايات منها أن الاستعماريين تخوفوا من دهائه فدسوا له السم. وسواء صح ذلك أم لم يصح، فالذين عرفوا سعيد من قريب وسايروه في كل أطوار حياته، جربوا فيه الرجل المستقيم في وطنيته، المستنير في رأيه.

فكيف يأتي الأستاذ غلاب، اليوم، ليحاول أن يوقع في روعنا أن سعيد حجي خرج عن خطة الحزب الوطني، واضطر أن يقوم بمساع جديدة، منها السفر إلى جنيف لتبرير موقفه، والحالة أن الحزب قرر أن يسير في نفس الخطة التي ينعتها المؤلف في مكان آخر بأنها « نوع من التفكير العملي » واتصل وفد منه بالجنرال نوگيس معلنا عن « فتح عهد جديد بين الإدارة والوطنيين » . أى منطق يستعمل المؤلف في الحكم عن سلوك سعيد

حجي وفي التحدث عنه بلهجة لا تخلو من تشكيك حينما يقول: « ومع ذلك كان بعض المتحمسين لمحاولة سعيد حجي يظن أنها خففت المحنة عن بعض المعتقلين؟

هكذا، أصبحت وطنية سعيد وشخصيته توضع في « موضع الظن » ولربما التساؤل. وهذا موقف خاص بالمؤلف وحده، لأن رفقاء سعيد كانوا يضعون فيه كامل ثقتهم حيث جعلوه عضوا في جماعة « الطائفة » التي لم يدخل إليها إلا صفوة مختارة من المناضلين المخلصين. وما أظن أن المؤلف انتمى إليها. حقا، إن سعيد كان صاحب مبادرة وابتكار وتحرق إلى العمل الدائب حتى لا يكون فراغ ولا فتور في النضال الوطني. والركود الطويل الذي لاحظه في الحركة بعد 1937 هو الذي دفعه إلى التحرك بذكاء ومهارة وإلى البحث عن أسلوب جديد للعمل حتى لا يبقى الوطنيون غائبين عن الساحة.

فهل في هذا ما يبرر تلك اللهجة التي تحدث بها المؤلف عن الرجل والتي نفهم منها، تارة، أنه كان متطلعا، وطورا أنه كان فضوليا، وطورا أن عمله، حسب بعض الظنون، لربما كان فيه بعض الفائدة؟

كلا وألف كلا! فما طرحت شخصية سعيد بهاته الصورة على الذين عرفوه من قريب أو من بعيد. وما نظر إليه أحد بهذا التشكيك والتسائل. وهل أذكر المؤلف - وأظنه في حاجة إلى التذكير لأنه كان غائبا في ذلك الوقت ببلاد الكنانة على ضفاف النهر الخالد - أن وفاة سعيد كانت مأتما كبيرا في تاريخ الحركة الوطنية وأن من بين الذين وقفوا على قبره ليؤبنوه المرحومان محمد غازي وأبو بكر زنيبر والأستاذ أبو بكر القادري، وأن القاعة التي أقيمت فيها ذكراه الأربعينية غصت بالحضور الذي بلغ عددهم، حسب صحف الوقت، خمسمائة!

فما الذي يا ترى حدا « بالمؤرخ » أن يقف هذا الموقف من المرحوم سعيد حجي؟ هل له معه حساب خاص؟ ما أظن ذلك، هل يرجع ذلك لكون سعيد كان شابا أم لكونه من بلدة سلا المتواضعة؟

لا مستقبل بدون ذاكرة

الاتحاد الاشتراكي - الأربعاء فاتح شوال 1413 موافق 24 مارس 1993

ابراهيم الباعمراني

سعيد حجي أحد مؤسسي الصحافة الوطنية ... ورائد النهضة المغربية في الثلاثينات

إن هاجس سعيد حجي تأسيس ثقافة وطنية مغربية تجمع بين الأصالة والمعاصرة.

يعد سعيد حجي (1912 - 1942) من أبرز المثقفين في أواخر الثلاثينات؛ جمع بين الثقافي والسياسي في نضالاته وأنشطته الوطنية. وهو أحد أبناء مدينة سلا تمكن من متابعة دراسته بانكلترا والشرق العربي، وبالخصوص بمصر وسوريا حيث قضى بها أربع سنوات في التحصيل والدراسة والاحتكاك بأعلام الفكر والأدب أمثال عباس محمود العقاد وطه حسين ومحمد حسنين هيكل. وعاد إلى وطنه لمباشرة نشاطه الوطني والفكري والصحفي، منصرفا إلى الاعتماد على نفسه في التكوين والتثقيف. واتخذ من الاشتغال بالصحافة مجالا لتنمية ثقافته ومعلوماته، وتدريبه على ممارسة الكتابة في قضايا سياسية وثقافية واجتماعية ... وقد تركز اهتمام سعيد حجي على الصحافة منذ أن كان ابن خمس عشرة سنة، وواصل النضال في إطار كتلة العمل الوطني للمطالبة بالصحافة العربية بالمغرب، مما أدى إلى إصدار بعض الصحف الوطنية، فأصدر جريدته اليومية « المغرب » التي تعتبر أول يومية وطنية بالمغرب، وذلك سنة 1937 كما أصدر في ما بعد ملحقها الثقافي، ومجلة « الثقافة المغربية » بالإضافة إلى ما كان يقوم بنشره من مقالات في مختلف الصحف العربية مهتما بمشاكل المغرب، ومدافعا عن قضيته ضد السياسة الاستعمارية ومخططاتها. لذا كان

اهتمامه بالعمل الصحفي، وإيمانه بالرسالة التي يمكن أن تؤديها في خدمة البلاد، مؤشرا دالا على شعوره بمسؤوليته الوطنية، واعتباره من رواد النهضة المغربية.

وفي إطار أنشطته الوطنية التي باشرها منذ أن كان شابا يافعا، أولى الاهتمام للقضية المغربية حين كان يتابع دراسته بالشرق العربي، فعرف بها، ودافع عن قضايا المغرب، وتتبع باهتمام أيضا النهضة العربية، وقارن بين أوضاعها في البلاد العربية والأوضاع في المغرب. وتمكن في أوائل الثلاثينات من تأسيس لجنة مكونة من الطلبة المغاربة تعمل لصالح القضية المغربية، وستتوسع اللجنة بانخراط طلبة المغرب العربي، مما جعلها تصبح على شاكلة جمعية طلبة شمال إفريقيا بفرنسا.

وباعتبار سعيد حجي من الأعضاء البارزين في الحركة الوطنية بسلا، أسهم، كغيره من الوطنيين في مواجهة الظهير البربري فور صدوره، وأسهم في تحرير مطالب الشعب المغربي المستعجلة والتي قدمت إلى الدوائر المختصة في المغرب وفرنسا سنة 1934 ، فدافع عنها وحلل بنودها في صحيفة « المغرب » .

والمتتبع لتفكيره الوطني يلاحظ أن محور كتاباته ارتكز بالأساس على العمل من أجل استقلال المغرب وتحريره من الدخيل الأجنبي، محددا ذلك في قوله « فاتجاهنا الذي ترمي إليه روحنا الوطنية وتسعى وراءه هو المحافظةعلى دولتنا المغربية متمتعة بحقوقها المقدسة، ومعيدة تاريخها الزاهر. فكل مغربي مفكر يدرك المسؤولية الملقاة على عاتقه، ومستعد للتضحية التامة في سبيل هذا المبدإ المغربي » .

وبخصوص المسألة الثقافية فإن الهاجس المسيطر على فكر سعيد حجي هو هاجس تأسيس ثقافة وطنية مغربية تجمع بين الأصالة والمعاصرة، ثقافة متفتحة ومتحررة من الطابع الاستعماري لفترة الحماية، قادرة على تطوير المجتمع المغربي وبناء نهضته على أسس سليمة. فقد امن سعيد حجي بأن كل نهضة لا يمكن أن تتركز أسسها إلا إذا وقع الاهتمام بقضية التعليم ، ونشر الثقافة بين أبناء المواطنين؛ فدعا إلى تأسيس المدارس، وطالب بإرسال

البعثات التعليمية إلى الخارج، وحث على إصلاح التعليم الأصيل وتطويره والاعتناء به. وفي منظوره أن الوسيلة الوحيدة لتكوين المثقف المغربي تكوينا صحيحا، وإحداث نهضة فكرية بالمغرب، هى العمل على تكوين مثقفين عارفين بلغتهم الأساس ومطلعين على أسرارها، وفي الوقت نفسه دارسين للغة أجنبية حية، مطلين بها على جوانب الحضارة العصرية.

ويعالج واقع التخلف في عصره، فيلاحظ أن « البون شاسع بين مدنية العصر والحياة التي نحياها » واقترح للخروج من وضعية التخلف الأخذ بأسباب المدنية وغرس جذورها في المجتمع عاما بأن « المدنية تتكون من عنصرين: عنصر أساسي هو ما يشبه العلم في الوسط، وعنصر شعبي هو ما تكونه مجموع التقاليد المحلية. فالعنصر الأول سنقتبسه أين صادفناه بعد أن أضعناه مدة مضت، والعنصر الثاني لا يقتبس من الغير، وإنما يكتشف في الأمة ويعمل على إحيائه واستثماره بمزجه وتفاعله مع العنصر الأول. وبذلك نحيي المدنية المغربية التي ظل نورها يسطع طيلة القرون الوسطى.

تلك كانت بعض النماذج من تفكير سعيد حجي والتي تعطي صورة واضحة عن خصوصية التفكير الوطني في الثلاثينات. وفي رأي ذ. محمد عابد الجابري أن سعيد حجي طرح إشكالية النهضة الفكرية في المغرب طرحا واعيا في أواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات. وكان النموذج الذي استوحاه في قضية التحديث الثقافي، هو النموذج المشرقي المتمثل في عمالقة الفكر في مصر والشام في هذه الفترة، ومع سعيد حجي، باعتباره أبرز الشبان الواعين في صفوف الكتلة المثقفة أخذت المسألة الثقافية تفرض نفسها كقضية وطنية وكقضية مستقبل.

لقد كان فكر سعيد حجي فكرا خصبا، وكانت نشاطاته وكتاباته متنوعة بتنوع قضايا المغرب الأدبية والفكرية والسياسية والاجتماعية من يجعله في طليعة الرواد الذين وضعوا أساس النهضة المغربية.

دراسات في الصحافة الوطنية على عهد الحماية

جريدة « المغرب » لمؤسسها المرحوم سعيد حجي

بقلم عبد الصمد العشاب

العلم - الأحد 20 **نونبر** 1988

حول « دراسات في الصحافة الوطنية على عهد الحماية » ننشر فيما يلي الحلقة الأولى من (« جريدة المغرب » لمؤسسها المرحوم سعيد حجي) وهى الدراسة الأولى المختصرة في ست حلقات في سلسلة البحث في صحافتنا الوطنية على عهد الحماية للباحث الأستاذ « عبد الصمد العشاب » الذي سبق أن نشرنا له على أعمدة هذه الصفحة في العام الماضي بحثا في حلقات تحت عنوان: « من تاريخ الصحافة بمدينة طنجة » .

ونقرأ كعناوين للحلقات الست للدراسة التالية التي سننشرها تباعا :

مقدمة وتعريف

المحاور الأساسية في جريدة « المغرب »

أخبار الثقافة من خلال ما نشرته جريدة « المغرب »

حركة التأليف والنقد الأدبي

قضية فلسطين كاهتمام أساسي للصحافة الوطنية بالمغرب

أخبار متفرقة لها دلالتها

الحلقة الأولى

مقدمة وتعريف :

كانت الصحافة الوطنية في عهد الحماية البغيض مدرسة للتوعية السياسية والاجتماعية ومرآة تتبلور فيها طموحات المغاربة وأمانيهم في تحقيق الذات المغربية والشخصية القومية، فواجهت بشتى الأساليب مناورات الاستعمار، وصدت مخططاته، وبرهن رجال الوطنية عل كفاءة نادرة سواء على مستوى العمل أو التنظير، وامتزج العمل الصحفي بالتحركات السياسية ليكوّن في مجموعه برنامجا محكما يجعل من أوليات اهتماماته الخروج بالشعب المغربي من دائرة الجهل والتخلف، وتبصيره بمخازي الاستعمار، وتهيئته للمطالبة بحقه في الحرية والاستقلال، وتوعية بتاريخه المجيد وأصالته وعراقة جذوره في الحضارة والمجد.

من هذا المنطلق تعددت ألسن الدفاع بكل لغة تفهمها المنتديات الدولية، تجادل عن حق المغرب المنكوب في حرية أفراده واستقلال بلاده، وتحركت الأقلام لتوجيه الشعب نحو الطريق الصحيح للإيمان بالذات والعمل على التقدم.

وكانت جريدة « المغرب » موضوع هذه الدراسة إحدى المنابر الإصلاحية التي سارت في هذا النهج في ظروف تعتبر ظروفا استثنائية في العالم لأنها كانت ظروف الحرب الكونية الثانية.

فبتاريخ 16 ابريل 1937 صدر العدد الأول من جريدة « المغرب » وهي جريدة يومية إخبارية سياسية تصدر مؤقتا ثلاث مرات في الأسبوع، عدد صفحاتها صفحتان ثم أربع ثم ست، والأعداد الممتازة تزيد على اثنى عشرة صفحة، صاحب امتيازها ومديرها الأستاذ المرحوم السيد سعيد حجي، وهو من مواليد مدينة سلا بتاريخ 29 فبراير 1912 ، ينتسب

إلى أسرة من كبريات أسر سلا المشتهرة بالفضل والاحترام؛ ولما شب ظهر نبوغه، وتأججت وطنيته، فأسس الجمعية الودادية بسلا ثم رحل إلى انكلترا والشرق العربي وعاد إلى أرض الوطن ليعتمد على نفسه في تكوين حياته الثقافية. ويقول عنه الأستاذ المجاهد أبو بكر القادري في الترجمة الموسعة التي كتبها عنه: « ... برزت شخصية السعيد وهو في ريعان شبابه، فكانت له آمال واسعة في إصلاح بلاده وكان يهئ نفسه التهييء الجدي والصارم لأداء رسالته نحوها ».

أصدر سنة 1937 جريدة « المغرب » وفيها برزت موهبته الصحفية وبقى مشرفا عليها باذلا كل جهوده فيها حتى توفاه الله إليه يوم 2 مارس 1942. وكان من رواد الحركة الوطنية في نشأتها وتطورها، وكان له دوره مع باقي إخوانه المكافحين في سنة 1930 إثر صدور الظهير البربري، ودوره في تحرير وثيقة مشروع مطالب الشعب المغربي سنة 1934، ودوره في تتبع والقيام بكل حركة تستهدف إيقاظ الوعي الشعبي والدفاع عن البلاد اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا.

وخطط المرحوم سعيد حجي برنامج جريدته وتوجهاتها المستقبلية في افتتاحية العدد الأول بالتاريخ المذكور ذكر فيه أن الصحيفة:

(لا تطرق ناحية دون أخرى، بل تهتم بجميع نواحي الحياة المغربية المتطلبة للإصلاح ... وتؤمل الصحيفة أن تصبح لسان المغرب الحقيقي الذي يذيع أخباره ويعبر عن كل ما يدور في أوساطه.

ومن حيث الناحية الاجتماعية تبذل الصحيفة جهدها لكى يتحرر المغرب من كثير من العوائد الجامدة المضرة المنافية للشرع.

ومن حيث الناحية السياسية تعمل على أن تجد صلات تفاهم بين الشعب والحكومة ... فللمغرب حقوق سياسية لا بد، مهما طال الزمن أو مهما حيل بينه وبينها، أن يدركها

ويحرز عليها، حقوق سياسية ترمي إلى أن يصبح الفرد ذا كرامة والجماعة ذات سلطة والحكومة في مركزها المحترم تدير الشؤون العامة لمصلحة الجميع.

ومن حيث الناحية الاقتصادية ستهتم بدراسة مشاكل المغرب وأزماته واضطراباته المالية وتنير السبيل أمام النشء الحديث فيعمل بأساليب العصر ليتحرر من قيود الخمول التي كبلته طويلا.

وفي الناحية الفكرية ستفسح مجالها لشيوخ المغرب المطلعين وشبابه المثقف ... وتربط الصلة بينهم وبين مفكري البلدان المتحدة معنا في اللغة والاتجاه) .

هذا هو التوجه العام للجريدة مع ملاحظة التعميم الوارد في عدد من الفقرات لأن الرقابة لم تكن تسمح بقول كل ما يجب قوله، ويبقى على القارئ أن يفهم الكثير من بين السطور. ونظرا للمواقف التي كانت الصحيفة تقفها من السياسة الاستعمارية فقد تعرضت للتوقف الإجباري في كثير من المرات.

ففي الصفحة الأولى من العدد الحامل لتاريخ 4 فبراير 1939 كتب مدير الجريدة تحت عنوان (المغرب تستأنف الصدور) كلمة يذكر فيها غيبة « المغرب » ويذكر أن الظروف (... التي أرغمتنا على توقيف الجريدة عن الصدور لم تزدنا إلا إيمانا بخطتها وسعيا في بلوغ آمالنا التي هى الإصلاح في جميع نواحي حياة الشعب المغربي الذي تكالبت عليه عوامل الانحطاط والذي أصبح تحت تأثير تلك العوامل موهون القوى لا يسير خطوة إلى الأمام إلا ليرجع خطوات إلى الوراء ...)

ثم يشرح في العدد الموالي (101) نهج الإصلاح الذي يسعى إليه المغرب فيقول: (إننا نطالب بالإصلاح لغاية واحدة: أن تصبح أمتنا ذات قيمة في مجموعها، إذ أنها الآن كمية مهملة لا ينتفع بها ولا تنتفع بنفسها ، فالتطور البشري فرض على الأمم حياة جيدة ... فمن الخير للمغرب وللدولة الحامية أن يحارب هذا الجهل ويقطع دابر هذا الظلم في المحاكم المغربية، وتنال الجماعات المغربية حرية تناسبها لتسترشد وتترجل) .

لقد اهتمت صحيفة « المغرب » بنقل تطورات الحرب الكونية لأنها وجدت في ظروفها وركزت على نقل أخبار الحرب الأهلية الإسبانية التي كانت رحاها تدور بين الوطنيين والجمهوريين في الجبهات الكاتالونية، كما ركزت على انتصارات اليابانيين، ولم تهمل الحديث عن باقي العمليات العسكرية الأخرى في صفوف الحلفاء ودول المحور وأخبار الحكومات الفرنسية المتعاقبة وأخبار تنقلات المقيم العام الفرنسي بين المغرب والجزائر، زيادة على نشاط الإدارة الحامية داخل المغرب وخارجه. ولكن إذا عرفنا الظروف المحيطة بجريدة وطنية لا تغفل عنها عين الرقيب المتسلط، أدركنا أن إدارة الجريدة كانت تريد، وبكل الوسائل، الإبقاء على نبض الحياة في هذه الصحيفة لتواصل عملها في الإصلاح والتوعية.

وكانت للجريدة أبواب قارة كباب « الأخبار الخارجية » و « بريد الشرق العربي » و « أخبار وحوادث داخلية » و « اعرف وطنك » وركن « ما قل ودل » بالإضافة إلى التعريف ببعض الأقطار الإسلامية أو التي توجد بها أقلية إسلامية.

وفي مجال النشاط الوطني كانت الجريدة تقوم بتغطية شاملة للنشاط الملكي كلما قام جلالة المغفور له محمد الخامس برحلة إلى ناحية من نواحي المغرب.

وكانت لهجة الجريدة تتأرجح في مخاطبة الإدارة الحامية بين اللين تارة وبين العنف تارات كثيرة، وللقارئ هذا النموذج مما كانت تنشره من انتقادات بركن « أخبار وحوادث داخلية » ، ففي العدد 61 سنة 1937 تحت عنوان: « المكس الغريب » كتب مراسل الجريدة من الدار البيضاء بإمضاء ابن الحسن ما يلي:

« يقولون إنهم قضوا على عهد الإقطاع وأتوا بدله بالحرية والمساواة وحسموا دابر الاستبداد ومعاملة القرون الوسطى، ويقولون ويقولون ولكن كل ذلك لا يطبقونه إلا فيما بينهم، ولا يعاملون به غيرهم، فالحرية والتمتع بالحياة والسعة في المعيشة كل ذلك لا يستحقه إلا المعمر؛ أما الأهلي فقد خلق ليركب عليه في قضاء المآرب وجلب الترف » .

ثم تبين المراسلة نوع هذا الاستبداد وهو فرض المكوس الباهظة على أهل البوادي الذين يجلبون منتوجاتهم لبيعها في أسواق المدينة، وتنتهي المراسلة بهذه العبارة:

« لقد نزلتم به إلى أقصى حد في الاستعباد وما خلقوا إلا أحرارا، فما لكم لا تكادون تفقهون حديثا ».

ثم هناك ركن « ما قل ودل » الذي كان يكتب فيه الأستاذ أحمد زياد بأسلوبه الهزلي اللاذع، وهو كله انتقاد للأوضاع الاجتماعية والسياسية في زمن الحرب. وهو ركن ينبغي الاعتناء بجمعه ودراسته واستخراج النتائج منه، وعلى الأخص دراسة المغرب إبان الحرب العالمية الثانية.

وعندما توفي الأستاذ سعيد حجي، تولى إدارة الجريدة الأستاذ قاسم الزهيري، وذلك ابتداء من العدد 979 بتاريخ 16 يونيه عام 1942 ، ولكنها لم تستمر طويلا إذ سرعان ما احتجبت.

أما آخر عدد وقع عليه نظري في مجموعة جريدة « المغرب » فهو العدد 1416 بتاريخ فاتح يناير 1944 . وهي المجموعة التي توجد بمكتبة أستاذنا العلامة عبد الله كنون بطنجة، ومنها استفدت في إخراج هذه اللمحة عن تلك الجريدة الوطنية الصميمة بمواقفها وتحدياتها وباحتوائها لحملة الفكر والمعرفة ببلادنا شباب الأمس وشيوخ اليوم أمد الله في عمر الباقين وجازى خير الجزاء من رحل منهم إلى عالم البقاء.

الحلقة الثانية

المحاور الأساسية في جريدة « المغرب »

وضعية التعليم القومي والتعليم بصفة عامة

العلم - الأحد 27 نونبر 1988

من الأهداف الاجتماعية التي اهتمت بها جريدة « المغرب » كمبدأ أساسي للنهوض بالأمة إبان عهد الحماية قضية التعليم. وكان رواد الإصلاح من رجال الحركة الوطنية قد أخذوا على عاتقهم - وهم في خضم مجابهة الاستعمار وأعوانه - نشر الوعي بين طبقات الشعب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، إذ في ذلك الوقت بدأت مشاريع إقامة المؤسسات الإسلامية الحرة تظهر في أمهات المدن لصد تيار التغريب والفرنسة التي كانت الإدارة الاستعمارية جادة في تنميتها وإمدادها بكل مقومات النجاح، وكان التعليم القومي يتبلور في جامعة القرويين بفاس والكلية اليوسفية بمراكش، إلا أن المناهج فيهما كانت عميقة وطرق التلقين للمواد كانت عتيقة والمردودية بعيدة عن تطور العصر ومقتضياته، الأمر الذي حتم بروز حملة إصلاح للحفاظ على رموز الأمة - الإسلام والعروبة والشخصية المغربية - فانبرت أقلام المصلحين تهاجم تارة بعنف ومرارة، وتارة أخرى بتقديم البديل الكفيل بالتقدم؛ ولأن جامعة القرويين كانت مهد العلم وتخريج العلماء، وفيها محطة الاطمئنان عن حياة اللغة العربية والدفاع عن الإسلام، فمن اللازم أن تتكاثف الجهود لجعلها في مستوى المسؤولية التي أنيطت بها منذ تأسيسها في بداية القرن الثالث الهجري.
من منطلق هذه الأفكار ظهرت على صفحات جريدة « المغرب » مقالات همها الأساسي إصلاح القرويين، فكتب العلامة السيد محمد زنيبر (عدد 100 و 101) مقالا تحت عنوان: « القرويون كلية مغربية لا فاسية فحسب » تطرق فيه إلى قضية تطوير الأسلوب

الدراسي وتغيير المناهج لمواكبتها لروح العصر منددا بضآلة ما ينتجه علماء هذه الجامعة وما هم عليه في دروسهم من طرق عقيمة في التبليغ والفهم، متسائلا « هل لكتلة علماء القرويين من يقظة بعد هذا السبات العميق، وهل من تطور بعدما تطورت كتلات علماء القاهرة ودمشق وبغداد وتماثلت للتطور كتلة الزيتونة » .

كما نشر الكاتب نفسه (عدد 114 بتاريخ 8 مارس 1939) مقالا بعنوان: « القرويون كلية مغربية من هو المسؤول عن النهوض بها ؟ » تطرق فيه للمشاكل التي تتخبط فيها هذه الجامعة. كما كتب في الأعداد الموالية عن نفس الموضوع منطلقة الغيرة على هذا التعليم الذي كان آنذاك مرآة المغرب الحضارية والفكرية.

ولما شرع المغفور له جلالة الملك محمد الخامس في نظام الإصلاح للمجلس العلمي بالقرويين والعدالة والقضاء كتب نفس الكاتب أيضا مقالا في العدد 346 أبدى فيه تفاؤله بأن هذه الخطوة المباركة ستكون لها نتائجها على مستقبل هذه القلعة العلمية العتيدة.

ونشرت الجريدة في نفس الموضوع عددا من المقالات لمؤسسها المرحوم سعيد حجي الذي كان يمتاز، إلى جانب الروح الوطنية، بالعقلانية العلمية والنضج المعرفي.

ففي افتتاحية العدد 112 بتاريخ 3 مارس 1939 حث طلبة القرويين على الإقبال على تعلم اللغات الأجنبية لأنها تفتح لصاحبها آفاقا كبيرة قد لا تتوفر له إذا كان مقتصرا على اللغة العربية وحدها، مستدلا بأقطاب من مصر والبلاد العربية من الذين أضافوا إلى تضلعهم في اللغة العربية إتقانهم للغة أجنبية أخرى أمثال طه حسين والعقاد وأحمد حسن الزيات وخليل مردم والجابري مختتما بهذه الفقرة:

« فهل لنا أن نؤمل أن يوجد من بين طلبة القرويين من يتجه هذا الاتجاه فيضيف إلى ثقافته في العلوم الإسلامية والعربية ثقافة عصرية. وبذلك يضع الحجرة الثانية في تكوين جيل جديد يجمع بين الماضي الرائع والمستقبل الباسم لحياة المغرب الفكرية » .

وفي العدد 122 تطرق سعيد حجي في افتتاحيته إلى نظام الامتحانات في القرويين مركزا على ثلاث نقط:

ا) إن الاختبارات الفصلية ليس لها مفعول في انتقال التلاميذ من قسم إلى آخر، بل على الطالب أن يستعد للامتحان في نهاية السنة الدراسية للفوز أو الرسوب.

ب) يقتصر نظام الامتحانات على دورة واحدة، فإذا رسب الطالب ضاعت منه سنة ولا تعطاه فرصة لدورة ثانية.

ج) أيام الامتحانات غير منتظمة ولا يعلن عن موعدها إلا قبل إجرائها بأيام وقد تؤخر عن أوقاتها المعلن عنها؛ وكذلك الأمر بالنسبة لإعلان النتائج.

ومن هذه الملاحظات ندرك أن المرحوم سعيد حجي كان على خبرة بالأنظمة التربوية الحديثة التي لا يؤمن أغلبها بالامتحان كقياس لخبرات التلاميذ ومحصلات معارفهم. ونستنتج كذلك أن نظام الامتحانات عندنا لا يزال إلى حد الآن بسقطاته وأخطائه دون أن نستفيد من تجارب من سبقونا في هذا الميدان فاكتشفوا مؤهلات التلاميذ ووجهوهم الوجهة اللائقة والمطلوبة. ولعمري متى سنبقى في هذا التخبط رغم أن مقاليد أمورنا بأيدينا منذ الاستقلال سنة 1956 .

لقد شهدت فترة الأربعينيات بخصوص موضوع التعليم بادرة إصلاح لمناهج التعليم والإدارة بالقرويين بأمر وإشراف محمد الخامس رحمه الله، وهو يدخل في باب أعماله الإصلاحية إلى جانب جهاده السياسي والاجتماعي للرفع من مستوى المغرب الذي كان يرسف في قيود السيطرة المباشرة للاستعمار.

ففي زيارته لفاس سنة 1940 استقبل العلماء وصرح لهم بقوله:

« إن القرويين حرة في العلم، وإنما النظام ضروري، ونحن إنما نراعي العلم لا الأفراد. وإني مستعد لكل إصلاح، ويجب أن تكون شؤون الجامعة بمعزل عن الشخصيات؛ فلقد بذلت كل مجهوداتي لتحسين أحوالها وتقدم خطواتها إلى الأمام ونرجو أن نتوفق إلى ذلك

أكثر مما توفقنا الآن » .

وبادرت جريدة « المغرب » إلى إبراز هذه الخطوات الإصلاحية وانتقاد الذين لم ترقهم أو وجدوا في تطبيقها عنتا. فنشرت في العدد 410 بتاريخ 15 مايو 1940 تعليقا بقلم مديرها تحدث فيه عن تطبيق النظام بالقرويين، وحبذ ذلك الإجراء الذي سيضع حدا للتسيب الذي كانت عليه جامعة القرويين. كما تضمن العدد المذكور مقتطفا لمحاضرة عن جامعة القرويين في عهد محمد الخامس ألقاها بإذاعة الرباط أحد المترجمين بإدارة الأمور الشريفة. ونشر في نفس العدد كذلك خبر وضع حجر الأساس لمكتبة القرويين، كما نشرت الصحيفة في عددها رقم 705 وصفا لزيارة محمد الخامس للقرويين وخطاب سمو ولي العهد (الحسن الثاني) في طلبة الكتاتيب القرآنية.

وورد في العدد 710 مقال بعنوان: « يوم يعد غرة في جبين تاريخ الإصلاح بالمغرب » تعرض فيه كاتبه إلى اجتماع جلالة الملك محمد الخامس بعلماء القرويين من كل المستويات في الدار العالية (القصر الملكي) وأمره لهم بمراجعة النظام العلمي (البرامج والدروس) وإعادة النظر فيه فصلا فصلا يبدي كل واحد من الحاضرين بغاية الحرية ما يبدو له ليبقى الصالح ويحذف غيره.

كما ورد في العدد 715 نص الجزء الأول من المذكرة التي رفعها طلبة القرويين إلى علم الملك حول مدى تطبيق النظام الإصلاحي الذي أمر به جلالته؛ وفي هذه المذكرة (المنشور جزؤها الثاني بالعدد 716) انتقاد لعدد من الخلفيات التي أبرزها تطبيق النظام خصوصا لدى بعض المدرسين الذين تنقصهم الكفاءة في المواد التي كلفوا بتدريسها. واقترحت المذكرة زيادة بعض العلوم الضرورية واستبدال بعض الكتب المقررة وزيادة البعض منها وضرورة إسناد كل فن إلى من يتقنه.

حقا، لم يكن طلبة القرويين بمعزل عن المشاركة في تبني الإصلاح والسهر على تطبيقه كما لم يكونوا بمعزل عن اتخاذ المواقف فيما يحدث من قرارات في ميدان التعليم.

ففي العدد 110 بتاريخ 27 فبراير 1939 نشرت جريدة « المغرب » احتجاجا لطلبة القرويين إثر إعلان المجلس الأعلى للتعليم تأهيل حملة دبلوم المدارس العربية الفرنسية للإنخراط في سلك القسم العالي بالكلية. ويبدو أن هذه المبادرات لم تكن جماعية أو تعبر عن صوت الطلبة أجمعين لأن بعض ما نشر في جريدة « المغرب » من انتقادات لمستوى طلبة القرويين وبعض الأساتذة بها لا ينبئ عن الوعي الطلابي وشمولية اتخاذ المواقف الجماعية. فقد نشرت الجريدة بعددها 118 مقالا بإمضاء (أبو المذياع) هاجم فيه طلبة القرويين نكتفي بذكر فقرته الأولى التي تقول:

« عجيب، والله، أبناء القرويين لا يتذوقون لذة الخيال في الشعر العربي ولا يفهمون ما اشتمل عليه من وصف بديع وتمثيل بارع وتشخيص بلغ النهاية في الدقة، وبالمرة لا يساق إليهم حديث من هذا النوع لأنهم لا يعيشون في هذا العالم ولا يعلمون معنى الوجود فيه ».

وأبو المذياع هذا كتب أيضا في العدد 120 مقالا لاذعا بعنوان: « من مضحكات القرويين » استهله بقوله:

« توجد في القرويين غرائب ومضحكات يضحك لها الطفل ويتفجع لها الحليم ».

والغرض بذلك هو أنه بعد إدخال النظام الجديد على القرويين واعتماد عدد من الأساتذة برواتب قارة تبين للمجلس العلمي عدم كفاءة بعض الأساتذة فأقاموا عنهم نوابا يتقاسمون الراتب معهم. والمتمعن في هذه الانتقادات التي، وإن كان مردها إلى حسن نية كاتبها، فإنه يجدها من المبالغة بمكان. كيف وجهاد أبناء القرويين في عهد الاستعمار جهاد كبير، وهل كانت أغلب القيادات الوطنية إلا من خريجيه والمثقفين بثقافته.

ونعود إلى الشق الثاني من التعليم وهو التعليم العمومي أو تعليم الإدارة، فنجد جريدة « المغرب » تتحدث عنه كما تحدثت عن التعليم القومي وفق خطة الإصلاح التي كانت تدعو لها.

ففي افتتاحية العدد 119 بتاريخ 20 مارس 1939 تحدث سعيد حجي تحت عنوان: « الأستاذ العربي هل نحن في غنى عن جلبه من الشرق العربي ؟ » عن الأساليب التي تقدم بها الدروس للتلاميذ من طرف المعلمين والأساتذة المغاربة وقال:

« ... فمشكلة الأستاذ العربي بالمغرب ليست مشكلة معرفة ولكن مشكلة أسلوب، والأسلوب اليوم ينبني على نظريات علمية وقواعد أساسية في الاختصار والتلقين والتطبيق والتدريس. وبمجموع ذلك أصبح أمام الأستاذ علم جديد هو أسلوب التعليم، ولن يستطيع المثقف المغربي أن يلم بهذا العلم الجديد إلا بدراسته؛ لذلك يجب أن نجلب أساتذة من الشرق العربي ريثما تصبح لدينا طائفة من الأساتذة المغاربة تجمع بين العلم وأسلوب تلقينه على الطريقة الحديثة ».

إن هذه البادرة قد أخذت بها القيادة الوطنية في شمال المغرب الذي كان خاضعا للنفوذ الإسباني فأرسلت عددا من البعثات إلى الشرق العربي للدراسة، واستجلبت عددا من الأطر التعليمية من مصر وغيرها للتدريس بالمدارس الثانوية. وكانت الفائدة من ذلك كبيرة حيث بقيت للغة العربية حيويتها، وألفت بها الكتب وفق المناهج، فكانت منطقة الشمال بذلك حصنا للغة العربية لم تتفوق عليها لغة المستعمر ولم يقع تذويب الشخصية العربية المغربية.

أما في المنطقة التي كانت تحت النفوذ الفرنسي، فإن عملية التذويب وفرض لغة المستعمر كانت تتخذ عددا من الواجهات، وأهمها فرض الحصار على اللغة العربية ومحاربة مناصريها وإظهار أستاذ العربية بمظهر العاجز فاقد الشخصية وقصر الدراسة العليا على الأجانب، فلا يجوز للمغربي أن يتجاوز حدا مخططا له إلا بمعجزة، بل حتى شهادة الدبلوم التي كان الطلبة في الثانوي يحرزون عليها لم تكن لها قوة الولوج إلى سلك التعليم العالي.

وهذا ما أشار إليه سعيد حجي في افتتاحية العدد 125 بعنوان: « ضرورة إحداث باكالوريا مغربية » وذلك بمناسبة اجتماع الأساتذة الفرنسيين بالنادي المدرسي بالرباط لمدارسة

شؤون التربية والتعليم. وتطرقت الافتتاحية إلى الأبحاث والدراسات التي ساهم بها أساتذة كبار في موضوعات التربية والتعليم، ثم قالت:

« فمن المعلوم أنه منذ وجد التعليم الحديث بالمغرب، كان المتخرج من مدارسه الثانوية يحصل على شهادة تسمى الدبلوم، وقد اتضح أن تلك الشهادة لم تكن ذات قيمة في نظر الجامعات الفرنسية لأنها لم تعترف بها كشهادة ثانوية، بل إن الإدارة التي وضعتها بالمغرب لم تكن هي أيضا تعترف بها كشهادة ذات قيمة. وقد طالب المغاربة بتطبيق نظام الباكالوريا الفرنسية في المدارس الثانوية، فنفذ مرغوبهم ولكن اختلاف اسم الشهادة أقفل الباب أمام كل طالب مغربي نال الدبلوم وأراد أن يهيئ مستقبله على أساس مهنة حرة تدعم رجولته ».

وفي العدد 126 واصل سعيد حجي حديثه في نفس الموضوع قائلا:

« ... فأساس إحداث باكالوريا مغربية هو التساوي بين العربية والفرنسية في حصص الدراسة والاهتمام في الاختبارات السنوية والفصلية واختيار أبرع الأساتذة ».

نعم، لقد اكتفت الإدارة الاستعمارية بتأسيس مدرسة عليا للغة العربية وآدابها واللهجات البربرية، وذلك سنة 1912، ثم تغير اسم المؤسسة لتصبح سنة 1921 تحمل اسم « معهد الدروس العليا » بالرباط. (انظر العدد الممتاز رقم 313 ففيه تعريف موسع بهذه المؤسسة من حيث هدف إنشائها ومهمة الحاصلين على شهادتها وفروعها بأهم المدن المغربية).

وقد سبقت الإشارة إلى أن ضغوط الرقابة على الصحيفة جعلتها تلاين الإدارة الحامية، وذلك بنشر نشاطها في مختلف الميادين بالمغرب، ومنه فيما يخص موضوع التعليم تلك المراسلات التي كانت تنشرها عن إنجازات إدارة المعارف؛ ولكن الذكاء الصحفي كان يبطل في نفس الوقت تلك الادعاءات بالإنجاز، ومثاله ما نشر بالعدد الممتاز رقم 393 من إحصائية لعدد التلاميذ المغاربة المتمدرسين بالتعليم الثانوي العمومي، وعددهم كما جاء في الإحصائية 313 ذكور و 30 إناثا من بين مجموع 5111 تلميذا وتلميذة في مجموع

المؤسسات الثانوية. وكان لسان حال الإحصائية يقول:

« إن ما نشر عن إنجازات الاستعمار في حقل التعليم كذب وبهتان » .

من خلال ما سبق نجد أن صحيفة « المغرب » كانت مترصدة لكل مستحدث في ميدان التعليم تجادل وتنتقد بعنف تارة ومناقشة هادئة تارة أخرا، وذلك تبعا للظروف وخضوعا لمنطق مؤسسها الذي لم يكن يتحدث في فراغ ولم تكن عاطفته تسبق عقله.

الحلقة الثالثة

المحاور الأساسية في جريدة « المغرب »

أخبار الثقافة من خلال ما نشرته جريدة « المغرب »

العلم - الأحد 11 دجنبر 1988

اهتمت الصحيفة بإخراج أعداد ممتازة تضم بين دفتيها أبحاثا ومقالات في الأدب والتاريخ والعلم، وتعد تلك الأعداد وثيقة لرصد الحركة الثقافية بالبلاد في تلك الفترة. وهي جديرة بدراسة خاصة لتسجيل الاهتمامات الثقافية المتنوعة عند شباب ذلك الجيل. والذي نريد الإشارة إليه هنا هو أخبار الأدب والثقافة بصفة عامة في جريدة « المغرب » التي كانت تتابع بشكل متواصل كل هذه الأخبار سواء في الجانب الوطني أو الجانب الإداري وقد سبقت الإشارة إلى هذا النوع من الاعتدال الذي كانت تأخذ به الجريدة في فترات من حياتها.

لكن قبل إيراد تلك الأخبار التي تعكس مرآة الثقافة في المغرب قبل خمسين عاما، أود أن أسجل أسماء الكتاب الذين ظهر لهم إنتاج على صفحات الجريدة سواء في أعدادها العادية أو الأعداد الممتازة وهم السادة العلماء والأساتذة شكيب أرسلان، عبد الله كنون، سعيد حجي، أحمد زياد، أبو بكر زنيبر، أبو بكر القادري، محمد بن علي الدكالي، محمد باحنيني، أحمد باحنيني، عبد الكبير الفاسي، أحمد بن غبريط، ادريس الكتاني، الهاشمي الفيلالي، أحمد الشرقاوي، محمد العبدي الكانوني، محمد الناصر الكتاني، عبد القادر حسن، علال الجامعي، محمد بن ابراهيم شاعر الحمراء، عبد الله ابراهيم، محمد الفاسي، عبد السلام العلوي، عبد الغني سكيرج وقاسم الزهيري بالإضافة إلى الذين يرمزون إلى أسمائهم ومنهم من سبق ذكره من بين هذه الأسماء. وقد تنوعت موضوعات هؤلاء الكتاب من

إبداع في الشعر والقصة والمقالة الأدبية إلى كتابات في تاريخ المغرب وحضارته وكتابات في الفقه إلى كتابات في الإصلاح الاجتماعي.

واهتمت الصحيفة إلى جانب نشر الإبداعات والبحوث بنشر ما يؤجج روح البحث وينمي الإبداع، وأعني بذلك حركة النقد التي ظهرت على صفحات هذه الجريدة.

أما أخبار الثقافة فكانت شاملة لكل ما يجد في هذا الميدان سواء كان عرضا لنشاط ناد أدبي أو إخبارا بمحاضرة أو خبرا عن نشاط مسرحي أو موسيقي أو نبأ بوفاة رجل فكر أو غير ذلك مما يتصل بالموضوع.

وأهم ما يتصدر تلك الأخبار نشاط النادي الأدبي بسلا الذي كان يرأسه الأستاذ أبو بكر الصبيحي، وكان ينظم باستمرار مسامرات يجتمع فيها المثقفون لسماع محاضرة أو إجراء مناقشة في موضوع أدبي أو اجتماعي، وكان المثقفون الشيوخ يساهمون في إثراء تلك المسامرات بما يلقونه من محاضرات وما يديرونه من ندوات.

كما اهتمت « المغرب » بنشر ما تجود به قرائح الكتاب والشعراء كلما فقدت الحركة الفكرية أحد أعلامها من الصنفين، وفي هذا الباب نذكر حفل الأربعين لتأبين العلامة المؤرخ السيد محمد الكانوني المتوفى في يناير 1939 .

وعندما التحق العلامة السيد عبد الرحمن القرشي بربه اعتنت الجريدة بنشر حلقات من ترجمة حياته كتبها أحد تلاميذه وهو الأستاذ أحمد الشيهي ابتداء من العدد 128 .

كما خصصت الجريدة في بداية صدورها سنة 1937 مقالات ضافية عن حياة المرحوم محمد حصار أحد رجال الحركة الوطنية الذين عملوا بتفان وإخلاص من أجل بث الشعور بالحمية الوطنية واستلهام التاريخ الذهبي للمغرب عبر عصوره.

وكتب شاعر الحمراء المرحوم محمد بن ابراهيم ترجمته بقلمه (عدد 396) وفيها يذكر الشاعر عن نفسه أنه ولد في مستهل عام 1918 بمراكش وحفظ القرآن الكريم والمتون العلمية، ومنها مختصر خليل في الفقه المالكي. ودرس بكلية ابن يوسف بمراكش ثم

بالقرويين، واهتم بالأدب. أما آثاره فيقول عنها:

« أما آثاري، فليست لدى من آثار إذا أنا استثنيت معارضتي للزوميات أبي العلاء المعري التي تقع في ثلاثة آلاف وخمسمائة وستين بيت وديوان شعري الذي كان يمكن أن يكون ضخما جدا لو أن جميعه في حوزتي، ومساجلات لي مع شعراء مصر والحجاز أفردتها من رحلتي بتؤيلف صغير » .

وفي العدد 637 (1941) أخبرت الجريدة بمولود في أسرة الفكر المغربي وهو صدور مجلة « الثقافة المغربية » ؛ وهذه المجلة تنتسب إلى أسرة جريدة « المغرب » (فإن الأسرة التي ساهمت في تحريرها، أى أسرة « المغرب » ، هى التي ستساهم في تحرير المجلة الجديدة) .

وفي نفس العدد إعلان غريب يتصل بموضوعنا عنوانه: « من يبين؟ » نورد نصه لطرافته:

« يتبرع الشاعر (عبد السلام العلوي) صاحب القصيدة (يوجد نصها بالعدد) بمائتى فرنك على من يصوغ قصيدة على نمط قصيدته في الوزن وترتيب الأبيات والقوافي يبين فيها الحالة النفسية الموصوفة بالقطعة وسبب الحزن المتجلي فيها، وأول القصيدة:

ما لقلبي عاد يشكو وينوح   غارقا أغدو بدمعي وأروح

هو حزن هو حب هو شك   هو لا شيء ولكني أنوح

إنني أجهل ما بي يبين

وفي العدد 640 بحث عن فن التمثيل بالمغرب كتبه الأستاذ علي محمد ملين يحتوي على معلومات قيمة أقتصر على الجانب التاريخي منها. فقد ذكر الكاتب أن أول فرقة مصرية حضرت إلى المغرب كانت برئاسة الأستاذ عز الدين (؟) وذلك سنة 1922 ومثلت رواية « مجنون ليلى » بسينما أبولو، وكان اتصال الشباب الرباطي بهذه الفرقة مدعاة لأن تثير

فيه رغبة التمثيل. وفي سنة 1928 مثلت رواية صلاح الدين الأيوبي بسينما النهضة.
واهتمت الجريدة كذلك بنشر نشاط جمعية الرابطة الفكرية بسلا؛ ومن جملة ذلك تنظيمها لندوة عن مشاكل الزواج شارك فيها عدد من الأدباء من فاس والدار البيضاء والرباط إلى جانب أعضاء الجمعية، وتم في نهاية الندوة والاحتفال الموافقة على رفع عريضة لجلالة الملك بتحديد المهور.
ففي العدد 758 (1941) نشرت الجريدة إعلانا مضمنه أن الجمعية ستقيم حفلة أدبية لدرس مشاكل الزواج، وذلك بمناسبة زفاف أحد أعضائها ويقول الإعلان:
« تحوط أوساطنا الاجتماعية بعض المشاكل العويصة التي جعلت البيت المغربي في اضطراب دائم واختلال مريع أثقلت كاهله العوائد الضارة وقضت عليه التقاليد السخيفة فعجلت بانهيار صرح العائلة المغربية إلى الحضيض »
ويشير الإعلان إلى أن الأدباء لا يهتمون بهذه القضية التي هى من صميم تهذيب المجتمع، لذلك ارتأت الرابطة إقامة هذه الندوة التي كانت من صميم الاحتفال بزفاف أحد أعضائها. لكن الأستاذ زياد الذي كان من بين الحاضرين في الندوة لم يسلم المتخلفون عن الدعوة من لسانه، فنشر في ركن « ما قل ودل » تنكيتا بهم (إنهم أهل بطون والحفل حفل فكر لا أقل ولا أكثر) . فانظر كيف كان المثقفون يهتمون، وفي ظروف قاسية وكيف أصبحت اهتماماتهم هامشية رغم تحسن الظروف والأجواء الملائمة للإصلاح.
ولم تكتف الصحيفة بنشر أخبار الثقافة ورجالها بالمغرب فحسب، بل كانت تهتم بكل حدث ثقافي خارج الوطن. فعندما مات طاغور شاعر الهند، أخبرت الجريدة بوفاته، ونقلت إلى القراء بعض الأضواء عن حياته وأدبه، كما أخبرت بوفاة الكاتب والعالم المصري طنطاوي جوهري (1940) صاحب المؤلفات الكثيرة، ومن أشهرها تفسير القرآن الكريم في 24 مجلدا، وعرفت به تعريفا يليق بمكانته العلمية.
كما اهتمت بنشر نشاط نادي قدماء اليوسفية بالرباط الذي كان يرأسه الأستاذ عبد الجليل

القباج، ومن جملة ذلك قيام النادي بتخليد ذكرى مرور 800 سنة على وفاة الجغرافي الكبير الشريف الإدريسي. خلدت هذه الذكرى بقاعة الغرفة التجارية بالرباط (توجد تفاصيل الذكرى وأسماء المحاضرين بالعدد 863 لسنة 1941).

ويدخل في موضوع هذا المحور كذلك ما كانت تنشره الأعداد الثقافية الممتازة من أبحاث هامة تتناول التاريخ والتشريع والفلسفة والأدب والاجتماع، وهناك أعداد خاصة بموضوع واحد كانت إدارة « المغرب » تصدرها بمناسبة من المناسبات.

وعلى سبيل المثال عدد 964 بتاريخ 29 مايو 1942 الخاص عن مراكش الحمراء، وذلك بمناسبة زيارة جلالة الملك محمد الخامس لعاصمة الجنوب. وعدد 680 بمناسبة الزيارة الملكية لمكناس وسجلماسة وفاس وعدد 719 لزيارة الملك للأطلس. وهذه الأعداد الخاصة تحتوي من المعلومات التاريخية والاجتماعية عن المدن والنواحي المذكورة الشيء الكثير.

ولما مات مدير الجريدة المرحوم سعيد حجي سنة 1942 توالت الأعداد تباعا تنقل أصداء وفاته وأقوال المفكرين عنه وما قيل في تأبينه من الشعر والنثر.

ولا ننسى ذكر ميزة أخرى تضاف هنا، وهي التعريف التاريخي والجغرافي لأهم المواقع العسكرية مثل المدن والحصون والأقطار التي تقع في قبضة الاحتلال سواء من طرف الحلفاء أو الألمان إبان الحرب العالمية الثانية.

وكان بالجريدة كذلك ركن دائم تحت عنوان: « اعرف بلادك » خاص بالحديث عن نواحي المغرب بصفة عامة.

والآن وقد أعطيت نظرة عن الجانب الثقافي في جريدة « المغرب » أختم بهذا الخبر الغريب الذي أوردته الصحيفة بعددها رقم 1297 لسنة 1943 ، فقد نشرت نبأ وفاة الأستاذ عباس محمود العقاد نقلا عن إذاعة القاهرة، وجاء في المراسلة أن الراحل الكريم قد شيع في مشهد عظيم حضره رئيس ديوان الملك فاروق وكبار أدباء مصر والبلاد العربية من سوريا ولبنان والعراق. وقيلت كلمات رثائية عند قبره أبرز الأدباء فيها نواحي العبقرية

في شخص الفقيد الذي توفى عن سن تناهز 54 سنة.

ولكن العقاد توفى بعد هذه المدة بواحد وعشرين سنة إذ كانت وفاته الحقيقية في 12 مارس 1964 ولست أدري أكذبت الجريدة هذا الخبر فيما بعد أم أنها لم تفعل لأن المجموعة التي طالعتها منها تقف عند العدد 146 سنة 1944 وليس فيها شيء من ذلك.

والخبر بتفصيلاته المذكورة يستدعي الكثير من الغرابة لا من نشره في الجريدة بل من إذاعته من محطة القاهرة لأن الجريدة ناقلة عنها، أيمكن أن يكون الخبر من باب دعاية دول المحور، وقد كان العقاد من أشد الحاملين على سياسة هتلر، عبر عن ذلك شعرا في ديوانه (أعاصير مرب) ونثرا في كتابه (هتلر في الميزان) ولما أحس بجيوش الألمان تدنو من حدود مصر سنة 1942 فر إلى السودان ولم يعد إلى مصر إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

الحلقة الرابعة

المحاور الأساسية في جريدة « المغرب »

حركة التأليف والنقد الأدبي

العلم - الأحد فاتح يناير 1989

التأليف:

في العدد 120 الصادر بتاريخ (22 مارس 1939) تحت عنوان « التأليف بين علماء المغرب المعاصرين » كتب العلامة أبو بكر زنيبر مقالا تحدث فيه عن حركة التأليف بالمغرب معلقا على ما ورد في أحد المقالات من استدلال بما كتبه العلامة محمد كرد على وزير المعارف بسورية آنذاك مشيدا بالنهضة العلمية بشمال افريقيا. ويرى السيد زنيبر أن حركة التأليف في المغرب على الخصوص لم تشهد أي ازدهار. ففي ظرف عشرة أعوام كاملة لم يظهر لعلمائنا ومثقفينا سوى أربعة تآليف من بينها كتاب « الفكر السامي » للعلامة الحجوي، وهذا لا يعد تقدما ولا نهضة إذا قيس بما تنتجه الدول العربية في الميدان. وذكر السيد زنيبر أن الكتب والنشرات والجرائد التي تروج في أوساط المثقفين بالمغرب كلها من الشرق ولا أثر للمغاربة بينهم موعزا ضعف ذلك إلى هبوط مستوى القرويين وعزوف علمائها عن هذا الأمر.

ثم في العدد 122 تحت نفس العنوان السابق رد لاذع على مقال لم أجده من بين الأعداد التي تحت نظري يعير صاحب الرد كاتب المقال بأنه من أولئك الدبلوميين الذين تم قبولهم في القسم النهائي من كلية القرويين وبأنه لا يحسن الكتابة باللغة العربية، فبالأحرى أن يحسن الكتابة عن التأليف وحركته بالمغرب. وهذا الرد نقد عنيف لطائفة من الشباب الحاصلين على دبلوم الدراسات العليا والذين خول لهم قانون إدارة المعارف القبول بالقسم النهائي بالقرويين في محاولة لخضرمة ذلك التعليم.

إننا نلاحظ بعد مضي خمسين عاما على هذا الموضوع أن حركة التأليف خطت أشواطا في التقدم، ولكن حرية النشر وانعدام النقد أديا إلى ظهور كتب وصحافة لا يمكن أن يقال عنها أكثر من أنها لا تعكس فكرا أصيلا ولا تدل على نافع. نعم لا جدال في أن البقاء للأصلح، وأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

النقد

دأبت جريدة « المغرب » على تخصيص عمود بعنوان « ما قل ودل » يجمع بين السياسة والأدب والاجتماع، يكتب فيه الأستاذ أحمد زياد بأسلوبه الساخر. وهذا العمود حرى بدراسة تتناول عنصر النقد عند أدبائنا في ذلك الحين، الأمر الذي نفتقد الآن لا في باب الجد ولا في باب الهزل. وسوف لا أقتصر وأنا أستعرض موضوعات النقد المنشورة في صحيفة « المغرب » على الجانب الأدبي أو السياسي أو غيرهما بل كل ذلك على وجه العموم.

ومما يطالعنا في هذا الباب خبر من طنجة عن خطيب بأحد المساجد موضوع خطبته « الطاعون » - وهى من الخطب الرهونية - ويبدو من موضوع الخطبة أن طنجة في سنة 1939 كانت تعاني من هذا المرض أو أنه بدأ يفشو فيها فيلاحظ الخبر المنشور أن الخطيب يلحن لحنا فاحشا،

« ... فلا تسمع جملة معربة اللهم إلا إذا كانت آية قرآنية لأن الخطيب من حفظة القرآن، ولا ريب، وهذا في مدينة من أهم مدن المغرب، لا في بادية ولا قرية، بل في طنجة الذي أخذ رحالتها اللحن عن خطيب البصرة معقل النحو والنحاة، فليت شعري متى يصلح أمر المسلمين وتستقيم قناتهم فيعطون القوس باريها ويسكنون الديار بانيها » ثم في العدد 593 (1941) نقرأ ردا يحمل المجاملة في مطلعه والعنف في ختامه، وهو رد الأستاذ ادريس الكتاني على مقال أدبي للأستاذ عبد الله ابراهيم الذي نشر بعنوان : « طرائف مطوية من أدبنا » تحدث فيه عن مقامة الارتياح المغنية عن الراح لابن حاتم

العاملي. ولكن الأستاذ ابراهيم لم يذكر اسم مؤلفها ظنا منه أن المؤلف مجهول معتبرا أنها من الأدب المغربي الذي يجب البحث عن دفائنه، وكان ختام رد الأستاذ الكتاني بهذه العبارة:
« ولعلنا لا ننتبه إلى مقدار سخافتنا عندما نحاول أن نقيم الدليل على أن أدبنا لا يقل رفعة وشأنا عن آداب الأقطار العربية الأخرى معتمدين على الخيال الذي يبعثه الغرور بعظمة الذات، يجب أن نبحث مجردين عن العاطفة في دفائن مكاتبنا عن هذا الأدب الضائع ثم لنتكلم بعد ».

وفي العدد 713 سنة 1941 يطالعنا الأستاذ زياد كعادته بأسلوبه الفكاهي الجميل بمفارقة غريبة في نظره تتعلق بقصيدتين لطالبين، واحد منهما ينتسب إلى المدرسة العصرية وهو السيد عبد السلام العلوي، وآخر ينتمي إلى القرويين وهو الأستاذ عبد الغني سكيرج، (نشرت قصيدته بالعدد 706 مع إطراء وتنويه) وكان في اعتبار الأستاذ أحمد زياد أن الشعور الشعري سيكون من نصيب الطالب العصري، ولكن القضية انقلبت،
« ... فوضع السيد عبد السلام العلوي قصيدة في ترحيب مدرسته بالجلالة الشريفة أدام الله علاها، وهى منظومة على نهج البردة، ووضع سكيرج قصيدة يمكن أن يقال إنها معجزة من معجزات الطلبة، ولست أكذب أو أغلو حين أقول إن عبد الغني سكيرج أشعر من عبد السلام العلوي، وكان طبيعيا أن يقول الطالب القروي الدعاء، منتظرا أن يقول طالب المدرسة الحديثة الشعر، فانقلبت النتيجة، وأى شىء لم ينقلب في هذه الأيام. عجيب أن يحسن نظم الأدعية من يتعاطى دروس الجبر والفلسفة هكذا تعلموا أن تحكموا والله يوفقكم قولوا آمين ».

بجانب هذه الإشارات النقدية، اهتمت الصحيفة بنشر لون آخر من النقد وهو فضح السرقات الأدبية التي لم يخل منها زمان والتي يعبر عنها القدماء بقولهم « وقع الحافر على الحافر » ، وفي هذا الباب نورد بعض ما نشرته « المغرب » لنؤكد من جديد كذلك على خلو صحافتنا الحالية منه. وكان فارس الميدان صاحب ركن « ما قل ودل » الذي تزعم

حركة المتابعة والتعقب لما ينشر في الصحافة الأخرى ويكون فيه « وقع الحافر على الحافر » كما سبق في العدد 833 (1941) تعرض الأستاذ زياد لقصيدة لشاعر تونسي نشرت بمجلة « البدر » سنة 1921 ، فعمد أديب من مراكش إلى نص القصيدة ونسبه إلى نفسه بتشبيهاتها وألفاظها نشرتها له جريدة « التقدم » . وكان الأستاذ زياد قد توصل برسالة بعثها أحد طلبة القرويين وهو السيد حسن الغساسي يحيله على مقارنة بين قصيدتين من بحر واحد وقافية واحدة، الأولى بعنوان « يا ليل » والثانية بعنوان « أهواك يا ليل » مع فارق الزمن بين القائلين.

وفي العدد 856 خبر سرقة أدبية أخرى صاحبها هذه المرة يسمى عمر البارودي الذي نشر في مجلة « الزمان » قصيدة هى في الأصل للسيد ناصف الحسيني عنوانها « الحقيقة الباكية » ، فنسبها البارودي لنفسه وجعل لها عنوانا جديدا هو « على قبر الحبيب لوعة الذكر » دون أن يشق على نفسه في تغيير كلمات صاحبها الأول. وقد قال الذي اكتشف ذلك وهو من فاس، رمز لاسمه بحرف الحاء، بأن هذا اللص الجديد نقل القصيدة من العدد 143 السنة 4 من جريدة « المكشوف » وكانت تصدر في مصر في فترة الثلاثينيات.

وفي العدد 862 خبر سرقة أخرى لشخص اسمه محمد الضرباني نشر في جريدة « الوداد » عدد 123 بحثا عالي التفكير والتركيز بعنوان « الشعر والخيال » ، فتصدى له الأستاذ زياد بقوله:

« إن الضرباني أخذ كل ما كتبه من كتاب اسمه « النقد الأدبي » تأليف الدكتور لاسل كرمي أستاذ بجامعة لندن وقام بتعريبه الأستاذ محمد عوض أستاذ بالجامعة المصرية »

ثم يختم حديثه بقوله:

« إلى اللقاء يا أستاذ، يا من تلاميذه يعدون بالمئات والألوف واعلم أنني في خدمتك فاسرق وما على غير الاكتشاف، ثم اعلم أن هذه السرقة لم نتلقاها من إسرافيل ولا نقلناها

عن الطامة الكبرى لأن الكلام قد شبعنا منه ويسرني أن ترفع سلامي لإخوانك .

« اسرق » وأما بنعمة ربك فحدث.

وفي العدد 935 (1942) خبر سرقة أخرى، فقد نشرت جريدة « الوداد » بعدديها 135 و 136 قصة لكاتب وقع بـ « الأديب الحالم » . فأوضح الأستاذ زياد أنها قصة للكاتب الإرلندبي أوسكار وايلد قام بترجمتها الأستاذ جبرا ابراهيم جبرا الكاتب الفلسطيني المعروف، ونشرتها مجلة « الأمالي » في عددها رقم 51 من السنة الأولى عام 1939 .

وفي العدد 1042 (1942) حمل الأستاذ زياد في ركنه على أحد الشعراء لم يذكر اسمه استعمل في قصيدته ألفاظا غريبة مثل « الداناق » و « الدرياق » و « الأخراق » و « الناق » و « الذاق » وغير ذلك من قرقرة تتنزه عنها الضفادع في أبي رقراق، مختتما تعليقه بقوله:

« وهذا الرجل يرجع بنا مئات سنين إلى حيث الشنفري وتأبط شرا. ما قولكم في هذا الشاعر وبأى شيء تحكمون عليه أو له » ...

يتضح مما سبق وجود حركة أدب ونقد وتتبع وترصد مزدهرة في الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن لم تقتصر على الاهتمام بها جريدة دون أخرى. وإن الذي يترصد حركة النقد في المغرب سيجد تسجيلا مهما للخصومات الأدبية التي شبت بين الأدباء آنذاك. إنما الذي يجب التنبيه عليه وبكل حسرة أننا نجد الآن هذا النوع من الأدب ونغض الطرف عن كثير من الهفوات والسرقات الفكرية، وتتكدس صفحات الجرائد بكلام يحتاج إلى محرر رقيب مترصد. أما المجلات والدوريات فتفتقد هى نفسها هذا النقد الذي ضاع في خضم المجاملات والحيثيات، ولن تزدهر حركة الأدب والعلم ... إلا إذا ... وارصدت في وجهها الأبواب حتى تنضج فتستحق عندئذ أن تشارك وتبرز.

الحلقة الخامسة

المحاور الأساسية في جريدة « المغرب »

قضية فلسطين كاهتمام أساسي للصحافة الوطنية في المغرب

العلم - الأحد 8 يناير 1989

فلسطين في قلب كل عربي من الخليج إلى المحيط، وتحريرها هاجس يؤرق كل أذهان المسلمين أينما وجدوا إلى أن يتحقق ذلك بحول الله. لذلك كان حضورها في الصحافة العربية والإسلامية أمرا بديهيا. وبالنسبة لموضوع هذا البحث، فقد صادف ظهور جريدة « المغرب » وهى في عامها الثاني انعقاد مؤتمر للنظر في الإشكالية السياسية لفلسطين. ففي العدد 100 بتاريخ 4 فبراير 1939 خبر عن مؤتمر فلسطين الذي سينعقد يوم 7 فراير 1939 وتحضره الأطراف المعنية - عرب فلسطين والممالك المجاورة مصر والعراق والحجاز واليمن وشرق الأردن وممثلو اليهود من أمريكا وجنوب افريقيا والوكالة اليهودية العالمية.
وكتب مدير الجريدة في العدد 102 عن هذا المؤتمر موضحا الحق العربي في القضية وداعيا إلى إحلال السلام والعدالة في تلك الأراضي المقدسة ومن قوله:
« ومهما يكن من أهوال الماضي القريب وتعسفات القوة للانتصار على عرب فلسطين فالحق واضح كل الوضوح، وإن كل مخلص لقضية العروبة والإسلام يتمنى من صميم قلبه أن يؤدى المؤتمر إلى استقرار السلم وأن يسدل ستار كثيف على حوادث برهنت للعالم أجمع عن أية نفس يحمل العربي بين جنبيه، فإن كل محاولة لا تؤدي إلى إنصافه تؤدي حتما إلى اضطرابه العنيف » .
ثم حلل النزاع وأطرافه من عرب متشبثين بحقهم ويهود يحلمون بطرد العرب من ديارهم واستيطانها وإنجليز بصفتهم حماة ومستفيدين لمصلحة امبراطوريتهم التي لا

يخشون شيئا كما يخشون من تهديدها وانتزاع السيطرة منها، وقال أيضا:

« إن العرب لا يضمرون سوءا لليهود ولكنهم حاربوا الصهيونية وسوف يحاربونها إن لم تمت في مؤتمر لندن الحالي؛ فالصهيونية معناها الوحيد إبادة عرب فلسطين، ولكن أمم العرب ستحول معنى الصهيونية هذا إلى إبادة اليهود إذا لم يتفقوا مع العرب على إحقاق الحق ».

وفي العدد 104 تخبر الجريدة أن المواجهات بين الفلسطينيين واليهود في فلسطين لم تنقطع، وأن مؤتمر لندن قد أمضى أسبوعه الأول في حل النزاعات بين الأطراف العربية الممثلة في المؤتمر؛ ثم في خبر أوردته الجريدة في نفس العدد أن مطالب العرب الذي قدمها جمال بك الحسيني رئيس الوفد الفلسطيني في المؤتمر تتلخص في وقف الهجرة الصهيونية والاعتراف باستقلال فلسطين وإبطال وعد بلفور وإبطال الانتداب على أن يستمتع اليهود بما للأقليات من حقوق. لكن مطالب اليهود التي قدمها وايزمان لم يصدر عن محتوياتها أي بلاغ.

وفي نفس العدد كذلك خبر عن تبرع الجالية المغربية في نيويورك بمبلغ 6000 فرنك أوردت هذا الخبر جريدة « البيان » التي كانت تصدر بنيويورك في الفترة المذكورة. وقالت الجريدة:

« إن السادة محمد بن محمد التناني ومحمد بن البشير المراكشي وعبد السلام بن تهامة السعيدي زاروا إدارة جريدة « البيان » ودفعوا 165 دولارا تبرعا منهم ومن سائر أفراد الجالية المغربية بنيويورك لمنكوبي فلسطين ».

وفي العدد 109 نقلت جريدة « المغرب » تعليقا سياسيا بمناسبة انعقاد المؤتمر المذكور كتبته جريدة « الدايلي إكسبريس » يقول التعليق:

« ... إن هذه الحالة لا يمكن أن تستمر، فيجب أن ندرك، ويدرك معنا اليهود أن العرب هو أهل فلسطين. وإذا كان اليهود قد استقروا في البلاد منذ ألوف السنين، فهذه الحقيقة

لا تعطيهم الأولوية في الوقت الحاضر؛ فالرومان عاشوا في بريطانيا منذ ألفى عام ولكن ليس معنى هذا أن أصحاب المطاعم من الإيطاليين في لندن يستطيعون أن يدعون أن لهم حق الإشراف على الحكومة في « وايتهول » ، ومع ذلك يجب على العرب أن يذكروا أن اليهودي استقر في فلسطين بمساعدة الحكومة البريطانية وحمايتها وأن هذه الحماية لا يمكن نقضها أو رفضها الآن » .

وفي العدد 119 خبر عن فشل المؤتمر الفلسطيني المشار إليه بسبب رفض العرب واليهود معا البرنامج الذي تقدمت به انجلترا. أما العرب فإنهم رأوا فيه هضما لحقوقهم، أما اليهود فإنهم رأوا فيه نقصا من عدد من الامتيازات التي طالبوا بها. وقد علقت الجريدة على فشل المؤتمر بأن اليهود كانت أمامهم فرصة للاتفاق مع العرب وما يالت هذه الفرصة وهى أن يتنازلوا عن أمانيهم في تأسيس دولة صهيونية في أرض عربية عرفت الشهامة العربية كيف تحافظ عليها وكيف تدافع عن كل شبر منها » .

وقد رأيت إلحاقا بهذا الموضوع أن أثبت رأيا لأحد الزعماء المرموقين في تلك الفترة، وأعني به غاندي زعيم الهند الذي ورد في العدد 125 من جريدة « المغرب » . إن غاندي كتب إلى جريدة « صانداي رفري » رسالة يقول فيها أبأنه تلقى بضع رسائل تطلب منه إعلان رأيه في مسألة العرب واليهود في فلسطين وفي اضطهاد اليهود في ألمانيا، فأجاب أصحاب الرسائل بواسطة الجريدة المذكورة قائلا (باختصار) :

« إنهم يجب أن يعاملوا أينما ولدوا معاملة منصفة عادلة، ولكن إذا أعطى اليهود وطنا في فلسطين فهم يستمرون في فكرة إرغامهم على ترك البلدان الأخرى التي استقروا فيها » .

وقال: « ليبرهن اليهود على أنهم يستحقون لقب « شعب الله المختار » فيختارون طريقا بعيدا عن العنف لإثبات مركزهم في العالم؛ وكل بلد هو وطن لهم ومنه فلسطين، ولكن لن يكون ذلك بالعنف والاعتداء بل بالمحبة » .

وظاهر أن هذا الرأى فيه من المراوغة والمجاملة الشيء الكثير كما هو واضح.

وضعية اليهود المغاربة في فترة من عهد الحماية

شهدت فترة الحرب العالمية الثانية عددا من التقنيات الخاصة باليهود في أوربا. وبالمثل أصدرت إدارة الحماية بالمغرب تنظيمات جديدة يتبين من خلالها أن اليهود ربما كانوا يتهربون من الواجبات المفروضة على باقي المواطنين في زمن الحرب، فجاءت تلك التنظيمات لتحرمهم من بعض الحقوق والامتيازات. ومنها في المغرب أن لا يسمح لهم إلا بالتجارة والصناعة المفصلة، ويمنع عنهم عقد القروض مهما كان نوعها، ويلزمون بإجراء عملية إحصاء عليهم، بحيث يجب على كل يهودي مغربي أن يصرح بشخصه لدى الباشا أو القائد، وعلى كل يهودي أجنبي أن يصرح بشخصه لدى رئيس الناحية مع بيان الأسهم المالية والأملاك والسلع والبضائع التي يملكونها (عدد 749 بتاريخ 9 غشت 1941) .
وصدر كذلك نص قانون خاص باليهود في المغرب، وهو نوعان: الأول خاص باليهود الفرنسيين، والثاني باليهود المغاربة، وفحواه منع اليهود من مزاولة الأمور التالية:
أعضاء بالمجالس التحكيمية والمهنية وسائر الهيئات النيابية الناتجة عن الانتخابات، ولا يكونون محكمين ولا موظفين رؤساء للإدارات المغربية ولا في إدارة الشؤون السياسية، ولا موظفين ملحقين بسكرتارية العدلية الفرنسية ولا موظفين أمام المحاكم المغربية الشريفة ما عدا المحاكم الإسرائلية، ولا ملحقين بمصالح الشرطة ولا بالتعليم ما عدا بالمؤسسات المخصصة لليهود، ولا يزاولون مهنة الدفاع أمام المحاكم العدلية الشريفة ولا خبراء شرعيين أو تراجمة محلفين ما عدا المكلفين بالترجمة إلى اللغة السريانية ويزاولون تلك الأعمال إلا متى كانوا يحملون ورقة المحاربين وحظوا بالتنويه خلال الحرب ولهم وسام حربي وأن يكونوا حائزين للاستحقاق العسكري المنيف، ويستطيع اليهود المغاربة أن يتعاطوا التجارة والصناعة بكل حرية. ثم ينص الفصل الرابع والفصل الثامن من القانونين على منع اليهود المغاربة من أن يكونوا مكلفين بالأبناك وكل ما يتصل ببورصة

المال والمنع من إصدار أي صحيفة أو الإشراف عليها ما عدا النشرات ذات الصبغة العلمية أو الدينية (عدد 751) ·

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن المقيم العام الفرنسي بالمغرب تقدم بقرار يحتم على جميع اليهود القاطنين بالأحياء الأوربية الجديدة منذ فاتح شتنبر 1939 أن يرجعوا إلى ملاحاتهم المخصصة لسكناهم، وصدر قانون بذلك نشر بالجريدة الرسمية أعطى أجلا لاجلائهم عن تلك الأحياء (عدد 757) ·

وفي العدد 758 نشرت جريدة « المغرب » أن مندوب الحكومة الفرنسية في مسألة اليهود زار المغرب وصرح:

« أن الغرض من زيارته لأقطار افريقيا الشمالية هو درس قضية اليهود الجزائريين ودرس القوانين التي أعطيت ليهود المغرب وتونس وكذلك درس نفوذ اليهود الاقتصادي وكيفية القضاء عليه » ·

وفي شهر اكتوبر 1941 صدر قرار نشر بالجريدة الرسمية ينظم تعاطي مهنة المحاماة من لدن اليهود، وحدد القرار نسبة 2% لليهود المرخص لهم بتعاطي المهنة من مجموع المحامين غير اليهود· وما بقى يجب أن يعتزلوا المهنة في أجل لا يتعدى شهرين·

الحلقة السادسة

المحاور الأساسية في جريدة « المغرب »

أخبار متفرقة لها دلالاتها

العلم - الأحد 15 يناير 1989

لقد اخترت من بين مائات الأخبار التي تشتمل عليها جريدة « المغرب » هذه التي أدرجتها هنا لدلالاتها ولطرافتها ولما يمكن أن يستنتج منها الباحث في هذه الفترة من استنتاجات تاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية كذلك؛ وهذه الأخبار كالتالي:

1) حادثة ماء أبي فكران بناحية مكناس (العدد 61 بتاريخ 6 شتنبر 1937)

وصف مراسل الجريدة غليان الشعب والإضراب العام في مكناس « حيث ما زالت المدينة محاصرة حصارا عظيما، فالجنود أينما سرت و (المتويوزات) في جميع الشوارع، وحفاظ الأمن يراقبون المارة، والمدينة مضطربة، وجميع دكاكينها من دون استثناء مقفلة، فالإضراب العام بصورة تثير كل الإعجاب وتستحق كل ثناء للمكناسيين، وبالرغم عن جميع تلك التدابير فإن الاجتماعات متوالية، والحالة حرجة، والنفوس في غليان متزايد، والحركة الاحتجاجية منظمة كل التنظيم ».

أما قصة ماء أبي فكران فقد كان الاستعمار الفرنسي يمهد السبل أمام المعمرين الذين يستوطنون الأراضي المغربية ويقطعهم الإقطاعات الفلاحية المهمة. ولما كانت مكناس ونواحيها من أجود المناطق الفلاحية، فقد استوطنها وناحيتها جماعة وافرة من المعمرين الأجانب بتعزيز من الإقامة العامة الفرنسية؛ وكانت مكناس بقصورها الجميلة وحدائقها الغناء ورياضها وأراضيها الفلاحية المجاورة تعيش على ماء أبي فكران الذي ينبع من عيون موجودة بآية بورزين دائرة الحاجب. وكانت هاته العيون تروي المدينة ومساجدها

وبساتينها، فأصدرت الإدارة الاستعمارية قرارا بتاريخ 12 نونبر 1936 يقضي بتقسيم ماء أبي فكران بين مدينة مكناس والمعمرين ليستغلوه في سقي الأراضي الفلاحية التي استولوا عليها بالقوة، وفي 12 ابريل 1937 أصبح ذلك القرار نافذ المفعول بعد نشره في الجريدة الرسمية. فتضررت المدينة من ذلك التوزيع، وقام سكانها من مختلف الطبقات بكتابة عرائض واحتجاجات رفعت إلى جلالة الملك وإلى المقيم العام الفرنسي وإلى حاكم الناحية الفرنسي، وتأسست لجنة الدفاع عن ماء أبي فكران. وكان الشعار الذي رفعته هذه اللجنة : « الماء ماؤنا نفديه بأرواحنا » . ونظمت مظاهرات متعددة بمكناس خصوصا بعد تقديم خمسة من أعضاء اللجنة للمحاكمة، ووقعت المواجهة بين الجيش الفرنسي وبين المتظاهرين يوم ثاني شتنبر 1937 ، وكانت حصيلة الشهداء في المعركة 20 شهيدا وعددا كبيرا من الجرحى والمصابين اكتظ بهم مستشفى مكناس. لقد فقدت مكناس كثيرا من أبنائها ولكنها حافظت على ماء أبي فكران الذي يسقيها ويزيد من خيراتها.

ولمن أراد الاطلاع بتفصيل عن هذه الحادثة الوطنية فليرجع إلى كتاب « التبيان لمعركة أبي فكران » لمؤلفه الأستاذ ابراهيم الهلالي الذي كان أحد الأشخاص الذين شاركوا في تلك الأحداث.

2) الميثاق الأسيوي أو ميثاق « سعد أباد »

وفي العدد 61 كذلك خبر مثير ولكن لم يكن ذا مفعول بالنسبة للأمة العربية والإسلامية لأنها كانت في غفلة عما يجري حولها. وإثارة الخبر تأتي من كون الدول الأوربية كانت بالمرصاد لكل وحدة عربية أو إسلامية وتحسب لها ألف حساب وتحاول بكل الوسائل عرقلتها بكل وجه.

الخبر هو الميثاق الأسيوي أو « ميثاق سعد أباد » الذي عقد بين العراق وتركيا وإيران وأفغانستان، وفي هذا الصدد نقلت جريدة « المغرب » عن مجلة « فو » ما يلي:

« إن ميثاق الصداقة الذي عقد بين الدول الإسلامية الأربع يجب أن نعده سياسة

جديدة وضعت أسسها في العالم، وعلى الساسة الأوربيين أن يلتفتوا إليها بالعناية والاهتمام؛ إنها ليست خطة عادية ولا تستحق التبصر، كلا إنها تدلنا على اتجاه خطر يجعل للأمم الإسلامية قوة منظمة كانت تفتقر إليها منذ القديم ... ولن يتأخر الوقت إلا وتدخل في هذا الميثاق دولة مصر واليمن والمملكة العربية السعودية، وهكذا تجد أوربا نفسها أمام كتلة إسلامية تلعب دورا خطيرا في سياسة العالم المقبلة ».

بهذه الروح كانوا يتبعون ويراقبون أحوال الأمة الإسلامية، وقد استطاعوا إلى يومنا هذا تمزيق الصف، وبعثرة الوحدة الإسلامية، وبث أسباب العداوة بينها لتشتغل معامل السلاح ودور النقد عندهم.

3) احصاء عن آلات الراديو بالمغرب

عدد 104 إحصاء رسمي عن آلات الراديو بالمغرب بلغ في فاتح سنة 1939 (38714) جهاز منها 7000 يملكها المغاربة.

4) وباء التيفوس بمدينة فاس

عدد 873 (1942) خبر يقول: بعد أن خفت وطأة الجذري عاد إلى الظهور وباء التيفوس بصورة فظيعة، فهمر شبابنا في مقتبل العمر وأصاب جماعة آخرين من نبهاء المدينة. وإننا ننصح أهالي فاس بالمحافظة على النظافة وعدم ولوج المجتمعات العامة فإن هذا الوباء جد خطير.

5) وفاة الملك غازي عاهل العراق

عدد 126 بتاريخ 5 مارس 1939 خبر عن وفاة الملك غازي عاهل العراق في حادثة اصطدام، وتنصيب ولي العهد فيصل (أربع سنوات) ملكا وتعيين الأمير عبد الإله وصيا. وقد أقيمت في مدينة فاس والرباط صلاة الغائب على هذا الفقيد الكبير.

6) قائمة التموين بمدينة الرباط سنة 1942

عدد 875 نشرت الجريدة لائحة بالقدر المعين لكل شخص من التموين وهى:
السكر 800 غ - الشاى 20 غ - الزيت 350 غ - الصابون 125 غ - الأرز 20 غ - الكربون يعطى لجميع أصحاب الحرف، أما البترول فيوزع بمقدار نصف لتر للعائلة التي لا تستعمل النور الكهربائي، والفحم 3 كيلوغرام للشخص الواحد، والعائلات التي تزيد على 15 نفرا 20 كيلوغرام ، ولم تبين الجريدة هل هذه الحصص أسبوعية أم شهرية. وفي العدد 808 من نفس السنة إعلان عن تموين المغرب باللحوم حيث تقرر إغلاق مخازن الجزارة الأوربيين من فبراير إلى مارس، ويزاد لهم في حصة لحم الخنزير والزيت والبيض ويستمر الذبح للمغاربة ويمنع منعا باتا تقديم اللحوم عند العشاء في المطاعم العمومية.

7) استنكار العادات المستهجنة بمناسبة المولد النبوي

عدد 134 لسنة 1939 طالب بتنفيذ الأمر الصادر بمنع المهرجانات الأثيمة التي تقيمها الطوائف الضالة بمناسبة المولد النبوي. وقد نفذ الأمر في الرباط ولم ينفذ في سلا. وتلح الصحيفة على فتح تحقيق مع المسؤولين المتهاونين في تنفيذ الأوامر.
والمقصود بهذه الأوامر الظهير الشريف الذي كان جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله قد أصدره، يمنع فيه تلك الطوائف من عاداتها السمجة، لكن إدارة الحماية تدخلت في الأمر وأحبت بقاء تلك العادات استجلابا للسياح ليروا من المناكر والعادات ما لا يسمح برؤيته في بلاد أخرى.
ختاما: هذه نظرات عن جريدة « المغرب » يتلخص منها للقارئ حياة صحيفة وطنية ساهمت مع أخواتها قبلها وبعدها في رسالة التوعية للشعب ومحاربة الاستعمار.
ولنا بحول الله عودة أخرى للتعريف بصحيفة « الأطلس » لسان حال « كتلة العمل الوطني » التي كانت تصدر سنة 1937 .

عبد الصمد العشاب - طنجة -

رحيل سعيد حجي قبل ستين سنة

حقيبة الذكريات

العلم - العدد 18918 - 3 مارس 2002

قاسم الزهيري

في 3 مارس 1942 قبل ستة عقود توفي سعيد حجي بعد داء استعصى علاجه، وكان لوفاته دوى أليم في عموم المغرب بالأوساط الوطنية والفكرية والسياسية، لا لأنه كان فقط مدير جريدة « المغرب » اليومية و « ملحق المغرب الثقافي » الأسبوعي، ومؤسس « لجنة التأليف والنشر » ، ولكن لأنه كان أيضا من رجال الحركة الوطنية الذين أسهموا مع رفاقهم من القادة بأوفى نصيب في مناهضة ظهير 16 ماى 1930 وتحرير المطالب المغربية، ومن المبدعين اللامعين في ميدان الكتابة، ومن رجال الفكر المتازين، وبالأخص ممن كان ينتظرهم مستقبل واعد لولا أن تخطفه المنون وهو ابن ثلاثين سنة حقق في أقل من عقد من الزمن منجزات تشهد آثاره عليها بعد عودته من الشرق مليء الوفاض.

لقد شيعت سلا فقيدها سعيد حجي في مأتم حاشد رهيب، وقام بتأبينه عل قبره كل من العلامة المسلم أبو بكر زنيبر باسم أعلام المدينة والفقيه الراحل محمد غازي باسم الحزب الوطني والشاعر عبد الغني سكيرج باسم الكتاب والأدباء، وكان مسك الختام المجاهد الأستاذ أبو بكر القادري باسم الأصدقاء والمحبين وكان من أخلصهم ودا للفقيد.

بوفاة سعيد حجي فقدت أسرته المجيدة ومعها المغرب علما من أعلام الفكر والوطنية.

سعيد حجي

في الذكرى الستين لرحيله

بمناسبة الاحتفال بالذكرى الستين لوفاة فقيد المغرب والشباب المرحوم سعيد حجي، نشرت جريدة « الأحداث المغربية » في عددها 1168 الحامل لتاريخ الأربعاء 19 محرم الحرام عام 1423 الموافق 13 أبريل سنة 2002 مقالا بقلم عبد الرؤوف حجي ومهد له الأستاذ عبد اللطيف جبرو بالتقديم التالي:

أعطت مدينة سلا للحركة الوطنية من الرجال ما لا يعد ولا يحصى من أمثال المجاهد أبي بكر القادري والمرحوم عبد الرحيم بوعبيد والفقيد سعيد حجي الذي رحل إلى دار البقاء في شهر مارس 1942 أي بعد مرور ثلاثين سنة على عقد الحماية.

وسعيد حجي بالذات من مواليد عام 1912 أي السنة التي وقعت فيها معاهدة فاس، وكانت وفاته خسارة كبرى للمغرب نظرا للدور الذي كان يلعبه رحمه الله في العديد من الميادين التي كانت الحركة الوطنية قد أخذت تعزز فيها حضورها بفضل ما كان لها من رجال، كان سعيد حجي واحدا منهم، بل كان الرواد الوطنيون ينظرون إلى السعيد كإنسان متقدم على عصره من حيث تصوره للمهام الوطنية والأساليب التي يجب ابتكارها في العمل الوطني من أجل فرض الشخصية المغربية على الواقع الاستعماري الذي كان جاثما على المغرب منذ فرض معاهدة فاس.

بمناسبة مرور ستين سنة على رحيل فقيد الشباب سعيد حجي ننشر هذا المقال الذي وافانا به مشكورا من ألمانيا الصديق عبد الرؤوف حجي.

إحياء ذكرى سعيد حجي

بعد مرور ستين سنة على رحيله

عبد الرؤوف حجي

في ثاني مارس 1942 التحق سعيد حجي بالرفيق الأعلى بعد عمر قصير دام ثلاثين سنة قضى معظمه في النضال والكفاح من أجل حرية بلاده والرفع من شأنها، وانضم في سن مبكرة إلى صفوف الحركة الوطنية، وقام بدور طلائعي ضمن رفقائه في كتلة العمل الوطني عند تقديم دفتر المطالب الإصلاحية سنة 1934 ودفتر المطالب المستعجلة سنة 1937. وإثر تقديم دفتر المطالب المستعجلة أقدم الوطنيون على تأسيس الحزب الوطني، إلا أنه بمجرد ما تم الإعلان عن انتخاب علال الفاسي رئيسا للحزب الجديد ومحمد بن الحسن الوزاني أمينا عاما له قرر هذا الأخير الانسحاب من الحزب، فنتج عن ذلك انشقاق في صفوف الوطنيين. قام سعيد مع مجموعة من رفقائه بمحاولة لإصلاح ذات البين وإقناع الفريقين بضرورة التغلب على الحزازات النفسية ومواجهة الاستعمار داخل جبهة متينة وموحدة. لم تكلل هذه المحاولة بالنجاح، واختار السعيد الانضمام للحزب الوطني، ونشرت جريدة « المغرب » التي كان يصدرها بلاغا يعلن عن تأسيس هيأة سياسية جديدة دخلت منذ نشأتها في صراع عنيف مع الإقامة العامة. وتم انعقاد المؤتمر الأول للحزب الجديد بالرباط في اكتوبر 1937 تحت رئاسة علال الفاسي الذي ألقى خطابا قويا شرح فيه الحالة العامة السيئة بالبلاد. وأعقبه في المنصة سعيد الذي تناول الكلمة باسم الفرع السلاوي معلنا عن اغتباطه لاستبسال المغاربة في سبيل الحرية قائلا: « إن ما نلاقيه اليوم ثمن لا بد منه لمطالبنا ».

وأعقبهما الحاج عمر بن عبد الجليل بخطاب باسم فريق الدار البيضاء، ثم الأستاذ أبو بكر القادري ليتلو على الحاضرين نص الميثاق الوطني المعروض على المؤتمر الذي طالب بحرية الصحافة وتأسيس الجمعيات ، وجعل أى تفاهم مع الحكومة مشروطا بعدولها عن خنق الحريات والاضطهادات والشروع في تنفيذ مطالب المغرب المستعجلة، كما أسند إلى الأستاذ محمد اليزيدي مسؤولية تقديم نسخة من هذا الميثاق إلى الإقامة العامة بالرباط. فكان رد فعل هذه الأخيرة أن اعتقلت الزعيم علال الفاسي ومحمد اليزيدي والحاج عمر بن عبد الجليل ومحمد مكوار، ولم ينج من هذه الحملة الاعتقالية سوى سعيد الذي بقى وحيدا في الميدان، فأخذ يتساءل عن الدور الذي يجب أن يقوم به والسياسة التي يجب أن ينهجها لحمل هذه السلطات على تغيير سياستها وإطلاق سراح رفقائه.

لنستمع إليه معلنا عن موقفه بقوله: « لقد عشنا أياما حالكة بعد إلقاء القبض على المناضلين الوطنيين، وبعد مضي مدة وأنا أتتبع الأحداث، لاحظت أن هناك أيادي تعمل في الخفاء للاستفادة من الوضع الجديد، والإبقاء على التوتر الموجود ومضاعفة الحقد على الوطنيين الذين كانوا يسمونهم بالمتطرفين المتعصبين، وبعد تفكير عميق، رأيت من واجبي أن أقف ضد هذا المخطط الجهنمي الذي كانت تدبره إدارة الأمور الأهلية بتعاون مع بعض الحاقدين المتربصين الدوائر بالحزب، وهكذا تحايلت كثيرا لأشق طريقا أخرى تضمن من جهة، إذا نجحت، إفساد مخطط المتربصين الداوائر برجال الحزب وإطلاق سراح المعتقلين، وتضمن من جهة ثانية تحقيق بعض المطالب الأساسية » .

رائد الصحافة والمجتمع المدني في عصره

لم يكن سعيد شابا أبيا غيورا على وطنه ورجالاته فحسب، بل مصلحا يهوى التجديد والتطلع إلى أفق أفضل في جميع المجالات.

ففي مذكرة له مؤرخة بفاتح يناير عام 1929 أبى إلا أن يلقى نظرة، وهو في ريعان

شبابه، على المراحل التي قضاها في التعليم، من الكتاب حيث كان يتلقى دروسا على الطريقة العتيقة دون جدوى - حسب قوله - إلى غاية ولوجه إحدى المدارس التي افتتحت آنذاك بسلا. من خلال مذكرته هاته نلمس تطلعه إلى ضرورة التجديد في أساليب التعليم التي نشرها في جريدة « الوداد » الخطية لسان حال جمعية الوداد التي أسست تحت شعار « الوداد والوئام بين سائر الطبقات والأجناس والأديان ».

وتجدر الإشارة إلى أن جمعية الوداد أصدرت عدة صحف منها جريدة « الوداد » الأسبوعية و « الوداد الشهري » في 24 صفحة و « المدرسة » وجريدة « الوطن »، تولى سعيد الإشراف على تسييرها وتحريرها منذ سنة 1927 إلى أن سافر إلى المشرق العربي لمتابعة دروسه الثانوية، تاركا للأستاذ أبي بكر القادري مهمة إدارتها على أن يبقى الاتصال بينهما قائما، وكانت تنشر بها مقالات تتناول قضايا الشباب والحركة الفكرية ودراسات للمؤلفات التاريخية والعلمية والأدبية وتطور الأحداث في العالم.

تعد جمعية الوداد النواة الأولى التي أعطت الانطلاقة لخلق مجتمع مدني بالمغرب، تأسست إثرها جمعية المحافظة على القرآن الكريم التي تهدف إلى النهضة القرآنية وتسعى إلى توحيد تلاوة كتاب الله عز وجل في المسجد الأعظم بمدينة سلا، وبعد ثلاث سنوات من تأسيس هذه الجمعية وعودة سعيد إلى مسقط رأسه، قرر المجلس الإداري إقامة حفل ثقافي أسندت مهمة تنظيمه إلى لجنة مكونة من خمسة أفراد يرأسها سعيد حجي، وتم استدعاء جميع المتعاطفين مع الجمعية ونخبة من الوطنيين من مختلف المدن المغربية، الشيء الذي ارتاعت له سلطات الحماية، وحاولت، دون جدوى، منع التظاهرة.

وبتأسيس النادي الأدبي السلاوي في أواخر العشرينات من القرن الماضي، وجد فيه سعيد ضالته المنشودة إذ استغل وجوده ليحاضر من منبره في موضوع « النهضة الأدبية العربية » وفي موضوع « المغرب كما يراه الشرق العربي » متخذا من هذا النادي مدعاة لليقظة من السبات، داعيا إلى استنهاض الهمم، عسى أن تسترجع بلادنا مكانتها التاريخية

وتحتل رتبة سامية بين الأمم.

في ميدان الأعمال والتخطيط للمشاريع

كان سعيد حجي من رجال الأعمال العصاميين الذين يعتمدون على أنفسهم في كل ما يقدمون عليه من مشاريع مهما كانت صعبة الإنجاز وتطلبت من جهد جهيد. كان ذكيا نبيلا ذا عقل ثاقب يدرك به حقائق الأمور. كان إذا فكر في شيء وتبين له صوابه أنجزه توا، ولا أدل على ذلك من شهادات رفقائه مثل الأستاذ عبد الكبير الفاسي الذي قال عنه:
« لا أعرف شابا له من صفات الرجال المكتملين ما كان له من رزانة الطبع وسداد الحكم وحصافة الرأي ورباطة الجأش؛ كان رجل الصعاب لا يروقه في الحياة الخوض في سهل الأمور والقضايا، فكان لا يرضيه أن يقدم على أمر يتيسر إنهاؤه بمجرد إقدامه عليه ».
وينتقل إلى تعداد مناقبه في ميدان الأعمال قائلا:
« كان سعيد جنديا في ميدان العمل، لا يعرف الكلل ولا الملل، ولا يتضجر إلا من سوء النية إذا استشعرها من صاحبه؛ ولا أعلم أنه أشرقت عليه شمس في فراش إلا في المرض، يقضي يومه في عمله، بل في أعماله الكثيرة المضة وزياراته واستقبالاته، ولا ينام إلا بعد أن يغط غيره غطيط من لا هم له، بل لا ينام إلا بعد مغالبة النوم ومقاومة الإعياء ... ولا نعلم فيما نعلم من شؤونه أنه كان يعيش لنفسه أو يعمل لنفسه. كان كل سعيه وراء المصلحة العامة التي جعلها هدفا وغاية في جميع المشاريع التي أسسها ».
ومن بين هذه المشاريع التي أقدم عليها السعيد تأسيس شركة مغربية تهتم - حسب قول الأستاذ الهاشمي الفيلالي - بنشر الكتب التي تخدم الثقافة الصميمة وتعتني بنوع أخص بالجديد من الكتب بما فيها كتب التعليم وطبع الكتب المغربية التي في نشرها فائدة ماديةن وأدبية. وحدد سعيد دور الشركة بمناسبة إصدارها لكتاب « الأنيس المطرب

بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس » لابن أبي زرع بقوله:
« للمغرب عدة مؤلفات قيمة في مختلف المواضيع التي طرقها القدماء تكون تراثا فكريا خالدا، لولا أنه - مع غاية الأسف - يكاد هذا التراث المغربي أن يكون نسيا منسيا، خصوصا لدى الجيل الحاضر ... لهذا فكرنا أن تساهم - أي الشركة - بقسط من الواجب الملقى على عاتق المثقفين المغاربة، بل تعمل على نشر هذه المؤلفات المودعة في الخزائن الخاصة أو المطبوعة طبعا رديئا، لا تساعد على متابعة بحث ولا إتمام مطالعة؛ وما خطرت لنا هذه الفكرة حتى درسناها من وجوه عدة، مادية وعلمية، ورغما عن الصعوبات التي جعلتنا لا نتفاءل إلا بمقدار يسير، فقد صممنا العزم على تنفيذ الفكرة وإبرازها إلى حيز الوجود، مؤملين معاضدة رجال العلم والبحث وذوي الخبرة والاطلاع وتشجيع سائر المثقفين والمستنيرين ».

عمل السعيد على الحصول على رخصة رسمية لإصدار جريدة إخبارية حرة معززة بمجلات تثقيفية، وعمل، في نفس الوقت، على البحث عن مطبعة تمكنه من تحقيق ما تتطلبه الصحافة اليومية من وسائل الطبع. شرع أولا في تأسيس « مطبعة المغرب » بسلا التي استطاع، رغم ضآلة الوسائل التي كانت تتوفر عليها، أن يصدر بها جريدة المغرب ثلاث مرات في الأسبوع نعتها رفيقه في الكفاح والنضال الأستاذ أبو بكر القادري باللسان المعبر عن أماني الشعب المغربي وبمدرسة تخرج منها كثير من الكتاب والصحافيين الذين استطاع سعيد حجي أن يجمعهم حوله.

وهكذا قامت « مطبعة المغرب » بمهمتها أحسن قيام وبلغت بوسائلها العتيقة أقصى ما كان ينتظر منها من حيث الجودة والإنتاج؛ وما أن أتيحت له فرصة الحصول على مطبعة أكثر مردودية حتى أنشأ « مطبعة الأمنية » التي كان مقرها بساحة المامونية بالرباط، وتمكن هكذا من ضمان الإصدار اليومي لجريدة « المغرب » التي صارت تحظى باهتمام كافة الأوساط المغربية آنذاك، وإردافه بنشر ملحق ثقافي الذي تعد مجموعته، حاليا، سجلا

مهما للأدب المغربي في العقد الثالث من القرن العشرين.

ومن المشاريع التي تركها في المهد حين باغتته المنية وهو لا يتجاوز الثلاثين من عمره، وضع سعيد حجي قبل وفاته بقليل تخطيطا لإنشاء « مكتب للشؤون المغربية » يتوخى منه أن يقوم بدور مركز للدراسات والتوثيق وأن تسند له مهمة لم شتات كل ما يتعلق بالمغرب من وثائق ومخطوطات وخرائط ودراسات وأبحاث معرضة للضياع، وتأسيس بنك للمعطيات من شأنه أن يسهل على الدارسين إيجاد المراجع الضرورية التي يتوقفون عليها في أبحاثهم، كما كان يخطط لتكوين فروع لهذا المكتب يختص كل فرع بميدان من ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع والتاريخ والجغرافية وغيرها.

كان السعيد يفكر أيضا في تأسيس مؤسسة متعددة الاختصاصات تحمل اسم « دار الأطلس » ، وقد وضع لها الهيكل الذي كان يود أن تعمل في إطاره، ومن جملة المكاتب التي كانت ستتفرع عنها « مكتب للنشر » و « مكتب للثقافة » و « مكتب للصحافة » و « مكتب للطباعة » كما وضع لكل مكتب مجال اختصاصه.

يقول المرحوم عبد الهادي زنيبر، أحد رفقائه الذين كان يدرس معهم بالشام، حسب ما ورد في مؤلف للسيد أبي بكر القادري عن سعيد حجي:

« كنا عندما نجلس إليه لا يحدثنا إلا عن جرائده ومجلاته المستقبلية، غير متوان في تذكير كل واحد منا بالواجبات التي رسمها له للنهوض بعبء هذه المشاريع الجليلة، فقد كان يحدثنا عن الطبع وكيفية الإخراج وعن انتقاء المواضيع وترتيب المقالات وعن افتتاحياته وعن هيأة التحرير واختيار المحررين وعن النشرات التهذيبية التي ستكون خاصة بطبقات المثقفين وانتقاء لون الغلاف. وكان ظاهر الإعجاب بمجلات « دار الهلال » يتخذها دائما قدوة فيما ينوي القيام به معجبا بلطف وأناقة إخراجها مثنيا على حسن ذوق مخرجيها » .

وبينما كان السعيد يرى في النهضة التي مر بها الشرق العربي في تلك الفترة الحاسمة من تاريخه مثالا يحتذى به، كان يدعو إلى تعبئة العزائم لتحقيق ما يصبو إليه المغرب من

تدعيم صرح كيانه، علما بأن الوصول إلى هذا الهدف يتطلب منه رباطة جأش لولاها لن يتيسر له أن يتحدى الصعاب، وبالأحرى أن يصل إلى الغاية المنشودة.

كان السعيد يخطط لإنجاز مشاريع تنموية أخرى أهمها تأسيس « الشركة المغربية للتنمية الاقتصادية » كنموذج لما يمكن أن يحققه شباب المغرب في ميدان تدبير المنشآت التجارية والصناعية من أجل الرفع من المستوى الاقتصادي للبلاد وخلق فرص الشغل.

وضع السعيد قانونا أساسيا للشركة يجعل منها شركة مساهمة محدودة المسؤولية مفتوحة في وجه جميع المغاربة للمساهمة فيها، ويحدد رأسمالها وطرق تسييرها، كما فكر في وسائل تمويلها وتأطيرها بتكوين فنيين اختصاصيين من أبناء الوطن، وكان من المرتقب أن تشمل الشركة معامل للصناعة الحديثة: معمل لصنع الصابون ومعمل للنسيج وآخر لدبغ الجلد.

خطط السعيد لكل هذه المشاريع الإبداعية. إلا أنه لم يتمكن، مع الأسف، من إنجاز العديد منها، إذ اختطفته المنية، وهو في عز شبابه، وفارق الحياة وكله طموحات وآمال كان مشتاقا لتحقيقها بعزم وحزم وبكل ما لديه من قوة ومقدرة.

رحم الله فقيد الشباب والحرية والوطنية الصادقة والأماني الغالية وأدخله فسيح جنانه، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

إحياء ذكرى سعيد حجي

بعد مرور ستين سنة على رحيله

عبد الرؤوف حجي

في ثاني مارس 1942 التحق سعيد حجي بالرفيق الأعلى بعد عمر قصير دام ثلاثين سنة قضى معظمه في النضال والكفاح من أجل حرية بلاده والرفع من شأنها، وانضم في سن مبكرة إلى صفوف الحركة الوطنية، وقام بدور طلائعي ضمن رفقائه في كتلة العمل الوطني عند تقديم دفتر المطالب الإصلاحية سنة 1934 ودفتر المطالب المستعجلة سنة 1937 . وإثر تقديم دفتر المطالب المستعجلة أقدم الوطنيون على تأسيس الحزب الوطني، إلا أنه بمجرد ما تم الإعلان عن انتخاب علال الفاسي رئيسا للحزب الجديد ومحمد بن الحسن الوزاني أمينا عاما له قرر هذا الأخير الانسحاب من الحزب، فنتج عن ذلك انشقاق في صفوف الوطنيين. قام سعيد مع مجموعة من رفقائه بمحاولة لإصلاح ذات البين وإقناع الفريقين بضرورة التغلب على الحزازات النفسية ومواجهة الاستعمار داخل جبهة متينة وموحدة. لم تكلل هذه المحاولة بالنجاح، واختار السعيد الانضمام للحزب الوطني، ونشرت جريدة « المغرب » التي كان يصدرها بلاغا يعلن عن تأسيس هيأة سياسية جديدة دخلت منذ نشأتها في صراع عنيف مع الإقامة العامة. وتم انعقاد المؤتمر الأول للحزب الجديد بالرباط في اكتوبر 1937 تحت رئاسة علال الفاسي الذي ألقى خطابا قويا شرح فيه الحالة العامة السيئة بالبلاد. وأعقبه في المنصة سعيد الذي تناول الكلمة باسم الفرع السلاوي معلنا عن اغتباطه لاستبسال المغاربة في سبيل الحرية قائلا: « إن ما نلاقيه اليوم ثمن لا بد منه لمطالبنا » .

وأعقبهما الحاج عمر بن عبد الجليل بخطاب باسم فريق الدار البيضاء، ثم الأستاذ أبو بكر القادري ليتلو على الحاضرين نص الميثاق الوطني المعروض على المؤتمر الذي طالب بحرية الصحافة وتأسيس الجمعيات ، وجعل أي تفاهم مع الحكومة مشروطا بعدولها عن خنق الحريات والاضطهادات والشروع في تنفيذ مطالب المغرب المستعجلة، كما أسند إلى الأستاذ محمد اليزيدي مسؤولية تقديم نسخة من هذا الميثاق إلى الإقامة العامة بالرباط. فكان رد فعل هذه الأخيرة أن اعتقلت الزعيم علال الفاسي ومحمد اليزيدي والحاج عمر بن عبد الجليل ومحمد مكوار، ولم ينج من هذه الحملة الاعتقالية سوى سعيد الذي بقى وحيدا في الميدان، فأخذ يتساءل عن الدور الذي يجب أن يقوم به والسياسة التي يجب أن ينهجها لحمل هذه السلطات على تغيير سياستها وإطلاق سراح رفقائه.

لنستمع إليه معلنا عن موقفه بقوله: « لقد عشنا أياما حالكة بعد إلقاء القبض على المناضلين الوطنيين، وبعد مضي مدة وأنا أتتبع الأحداث، لاحظت أن هناك أيادي تعمل في الخفاء للاستفادة من الوضع الجديد، والإبقاء على التوتر الموجود ومضاعفة الحقد على الوطنيين الذين كانوا يسمونهم بالمتطرفين المتعصبين، وبعد تفكير عميق، رأيت من واجبي أن أقف ضد هذا المخطط الجهنمي الذي كانت تدبره إدارة الأمور الأهلية بتعاون مع بعض الحاقدين المتربصين الدوائر بالحزب، وهكذا تحايلت كثيرا لأشق طريقا أخرى تضمن من جهة، إذا نجحت، إفساد مخطط المتربصين الداوائر برجال الحزب وإطلاق سراح المعتقلين، وتضمن من جهة ثانية تحقيق بعض المطالب الأساسية ».

رائد الصحافة والمجتمع المدني في عصره

لم يكن سعيد شابا أبيا غيورا على وطنه ورجالاته فحسب، بل مصلحا يهوى التجديد والتطلع إلى أفق أفضل في جميع المجالات.

ففي مذكرة له مؤرخة بفاتح يناير عام 1929 أبى إلا أن يلقى نظرة، وهو في ريعان

شبابه، على المراحل التي قضاها في التعليم، من الكتاب حيث كان يتلقى دروسا على الطريقة العتيقة دون جدوى - حسب قوله - إلى غاية ولوجه إحدى المدارس التي افتتحت آنذاك بسلا. من خلال مذكرته هاته نلمس تطلعه إلى ضرورة التجديد في أساليب التعليم التي نشرها في جريدة « الوداد » الخطية لسان حال جمعية الوداد التي أسست تحت شعار « الوداد والوئام بين سائر الطبقات والأجناس والأديان ».

وتجدر الإشارة إلى أن جمعية الوداد أصدرت عدة صحف منها جريدة « الوداد » الأسبوعية و « الوداد الشهري » في 24 صفحة و « المدرسة » وجريدة « الوطن »، تولى سعيد الإشراف على تسييرها وتحريرها منذ سنة 1927 إلى أن سافر إلى المشرق العربي لمتابعة دروسه الثانوية، تاركا للأستاذ أبي بكر القادري مهمة إدارتها على أن يبقى الاتصال بينهما قائما، وكانت تنشر بها مقالات تتناول قضايا الشباب والحركة الفكرية ودراسات للمؤلفات التاريخية والعلمية والأدبية وتطور الأحداث في العالم.

تعد جمعية الوداد النواة الأولى التي أعطت الانطلاقة لخلق مجتمع مدني بالمغرب، تأسست إثرها جمعية المحافظة على القرآن الكريم التي تهدف إلى النهضة القرآنية وتسعى إلى توحيد تلاوة كتاب الله عز وجل في المسجد الأعظم بمدينة سلا، وبعد ثلاث سنوات من تأسيس هذه الجمعية وعودة سعيد إلى مسقط رأسه، قرر المجلس الإداري إقامة حفل ثقافي أسندت مهمة تنظيمه إلى لجنة مكونة من خمسة أفراد يرأسها سعيد حجي، وتم استدعاء جميع المتعاطفين مع الجمعية ونخبة من الوطنيين من مختلف المدن المغربية، الشيء الذي ارتاعت له سلطات الحماية، وحاولت، دون جدوى، منع التظاهرة.

وبتأسيس النادي الأدبي السلاوي في أواخر العشرينات من القرن الماضي، وجد فيه سعيد ضالته المنشودة إذ استغل وجوده ليحاضر من منبره في موضوع « النهضة الأدبية العربية » وفي موضوع « المغرب كما يراه الشرق العربي » متخذا من هذا النادي مدعاة لليقظة من السبات، داعيا إلى استنهاض الهمم، عسى أن تسترجع بلادنا مكانتها التاريخية

وتحتل رتبة سامية بين الأمم.

في ميدان الأعمال والتخطيط للمشاريع

كان سعيد حجي من رجال الأعمال العصاميين الذين يعتمدون على أنفسهم في كل ما يقدمون عليه من مشاريع مهما كانت صعبة الإنجاز وتطلبت من جهد جهيد. كان ذكيا نبيلا ذا عقل ثاقب يدرك به حقائق الأمور. كان إذا فكر في شيء وتبين له صوابه أنجزه توا، ولا أدل على ذلك من شهادات رفقائه مثل الأستاذ عبد الكبير الفاسي الذي قال عنه: « لا أعرف شابا له من صفات الرجال المكتملين ما كان له من رزانة الطبع وسداد الحكم وحصافة الرأي ورباطة الجأش؛ كان رجل الصعاب لا يروقه في الحياة الخوض في سهل الأمور والقضايا، فكان لا يرضيه أن يقدم على أمر يتيسر إنهاؤه بمجرد إقدامه عليه ».

وينتقل إلى تعداد مناقبه في ميدان الأعمال قائلا:

« كان سعيد جنديا في ميدان العمل، لا يعرف الكلل ولا الملل، ولا يتضجر إلا من سوء النية إذا استشعرها من صاحبه؛ ولا أعلم أنه أشرقت عليه شمس في فراش إلا في المرض، يقضي يومه في عمله، بل في أعماله الكثيرة المضة وزياراته واستقبالاته، ولا ينام إلا بعد أن يغط غيره غطيط من لا هم له، بل لا ينام إلا بعد مغالبة النوم ومقاومة الإعياء ... ولا نعلم فيما نعلم من شؤونه أنه كان يعيش لنفسه أو يعمل لنفسه. كان كل سعيه وراء المصلحة العامة التي جعلها هدفا وغاية في جميع المشاريع التي أسسها ».

ومن بين هذه المشاريع التي أقدم عليها السعيد تأسيس شركة مغربية تهتم - حسب قول الأستاذ الهاشمي الفيلالي - بنشر الكتب التي تخدم الثقافة الصميمة وتعتني بنوع أخص بالجديد من الكتب بما فيها كتب التعليم وطبع الكتب المغربية التي في نشرها فائدة ماديةن وأدبية. وحدد سعيد دور الشركة بمناسبة إصدارها لكتاب « الأنيس المطرب

بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس » لابن أبي زرع بقوله:

« للمغرب عدة مؤلفات قيمة في مختلف المواضيع التي طرقها القدماء تكون تراثا فكريا خالدا، لولا أنه - مع غاية الأسف - يكاد هذا التراث المغربي أن يكون نسيا منسيا، خصوصا لدى الجيل الحاضر ... لهذا فكرنا أن تساهم - أي الشركة - بقسط من الواجب الملقى على عاتق المثقفين المغاربة، بل تعمل على نشر هذه المؤلفات المودعة في الخزائن الخاصة أو المطبوعة طبعا رديئا، لا تساعد على متابعة بحث ولا إتمام مطالعة؛ وما خطرت لنا هذه الفكرة حتى درسناها من وجوه عدة، مادية وعلمية، ورغما عن الصعوبات التي جعلتنا لا نتفاءل إلا بمقدار يسير، فقد صممنا العزم على تنفيذ الفكرة وإبرازها إلى حيز الوجود، مؤملين معاضدة رجال العلم والبحث وذوي الخبرة والاطلاع وتشجيع سائر المثقفين والمستنيرين ».

عمل السعيد على الحصول على رخصة رسمية لإصدار جريدة إخبارية حرة معززة بمجلات تثقيفية، وعمل، في نفس الوقت، على البحث عن مطبعة تمكنه من تحقيق ما تتطلبه الصحافة اليومية من وسائل الطبع. شرع أولا في تأسيس « مطبعة المغرب » بسلا التي استطاع، رغم ضآلة الوسائل التي كانت تتوفر عليها، أن يصدر بها جريدة المغرب ثلاث مرات في الأسبوع نعتها رفيقه في الكفاح والنضال الأستاذ أبو بكر القادري باللسان المعبر عن أماني الشعب المغربي وبمدرسة تخرج منها كثير من الكتاب والصحافيين الذين استطاع سعيد حجي أن يجمعهم حوله.

وهكذا قامت « مطبعة المغرب » بمهمتها أحسن قيام وبلغت بوسائلها العتيقة أقصى ما كان ينتظر منها من حيث الجودة والإنتاج؛ وما أن أتيحت له فرصة الحصول على مطبعة أكثر مردودية حتى أنشأ « مطبعة الأمنية » التي كان مقرها بساحة المامونية بالرباط، وتمكن هكذا من ضمان الإصدار اليومي لجريدة « المغرب » التي صارت تحظى باهتمام كافة الأوساط المغربية آنذاك، وإردافه بنشر ملحق ثقافي الذي تعد مجموعته، حاليا، سجلا

مهما للأدب المغربي في العقد الثالث من القرن العشرين.

ومن المشاريع التي تركها في المهد حين باغتته المنية وهو لا يتجاوز الثلاثين من عمره، وضع سعيد حجي قبل وفاته بقليل تخطيطا لإنشاء « مكتب للشؤون المغربية » يتوخى منه أن يقوم بدور مركز للدراسات والتوثيق وأن تسند له مهمة لم شتات كل ما يتعلق بالمغرب من وثائق ومخطوطات وخرائط ودراسات وأبحاث معرضة للضياع، وتأسيس بنك للمعطيات من شأنه أن يسهل على الدارسين إيجاد المراجع الضرورية التي يتوقفون عليها في أبحاثهم، كما كان يخطط لتكوين فروع لهذا المكتب يختص كل فرع بميدان من ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع والتاريخ والجغرافية وغيرها.

كان السعيد يفكر أيضا في تأسيس مؤسسة متعددة الاختصاصات تحمل اسم « دار الأطلس » ، وقد وضع لها الهيكل الذي كان يود أن تعمل في إطاره، ومن جملة المكاتب التي كانت ستتفرع عنها « مكتب للنشر » و « مكتب للثقافة » و « مكتب للصحافة » و « مكتب للطباعة » كما وضع لكل مكتب مجال اختصاصه.

يقول المرحوم عبد الهادي زنيبر، أحد رفقائه الذين كان يدرس معهم بالشام، حسب ما ورد في مؤلف للسيد أبي بكر القادري عن سعيد حجي:

« كنا عندما نجلس إليه لا يحدثنا إلا عن جرائده ومجلاته المستقبلية، غير متوان في تذكير كل واحد منا بالواجبات التي رسمها له للنهوض بعبء هذه المشاريع الجليلة، فقد كان يحدثنا عن الطبع وكيفية الإخراج وعن انتقاء المواضيع وترتيب المقالات وعن افتتاحياته وعن هيأة التحرير واختيار المحررين وعن النشرات التهذيبية التي ستكون خاصة بطبقات المثقفين وانتقاء لون الغلاف. وكان ظاهر الإعجاب بمجلات « دار الهلال » يتخذها دائما قدوة فيما ينوي القيام به معجبا بلطف وأناقة إخراجها مثنيا على حسن ذوق مخرجيها » .

وبينما كان السعيد يرى في النهضة التي مر بها الشرق العربي في تلك الفترة الحاسمة من تاريخه مثالا يحتذى به، كان يدعو إلى تعبئة العزائم لتحقيق ما يصبو إليه المغرب من

تدعيم صرح كيانه، علما بأن الوصول إلى هذا الهدف يتطلب منه رباطة جأش لولاها لن يتيسر له أن يتحدى الصعاب، وبالأحرى أن يصل إلى الغاية المنشودة.

كان السعيد يخطط لإنجاز مشاريع تنموية أخرى أهمها تأسيس « الشركة المغربية للتنمية الاقتصادية » كنموذج لما يمكن أن يحققه شباب المغرب في ميدان تدبير المنشآت التجارية والصناعية من أجل الرفع من المستوى الاقتصادي للبلاد وخلق فرص الشغل.

وضع السعيد قانونا أساسيا للشركة يجعل منها شركة مساهمة محدودة المسؤولية مفتوحة في وجه جميع المغاربة للمساهمة فيها، ويحدد رأسمالها وطرق تسييرها، كما فكر في وسائل تمويلها وتأطيرها بتكوين فنيين اختصاصيين من أبناء الوطن، وكان من المرتقب أن تشمل الشركة معامل للصناعة الحديثة: معمل لصنع الصابون ومعمل للنسيج وآخر لدبغ الجلد.

خطط السعيد لكل هذه المشاريع الإبداعية. إلا أنه لم يتمكن، مع الأسف، من إنجاز العديد منها، إذ اختطفته المنية، وهو في عز شبابه، وفارق الحياة وكله طموحات وآمال كان مشتاقا لتحقيقها بعزم وحزم وبكل ما لديه من قوة ومقدرة.

رحم الله فقيد الشباب والحرية والوطنية الصادقة والأماني الغالية وأدخله فسيح جنانه، وإنا لله وإنا إليه راجعون.